

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الشريعة والاقتصاد
قسم: الشريعة والقانون

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
-قسنطينة-
رقم التسجيل :.....

عنوان الأطروحة

أثر الحرب النفسية على أمن الدولة
- دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري -

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية تخصص: الشريعة والقانون -فقه جنائي-

إشراف الأستاذ الدكتور:
سمير جاب الله

إعداد الطالب:
فؤاد بولحبال

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة
علي ميهوي	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
سمير جاب الله	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
وداد الصيد	محاضر -أ-	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
منصور رحمان	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة 20 أوت 1955م -سكيكدة-
ربيعة حسين	محاضر -أ-	عضوا	جامعة الإخوة منتوري -قسنطينة 01-
سعيدة بوزنون	محاضر -أ-	عضوا	جامعة الإخوة منتوري -قسنطينة 01-

السنة الجامعية: 1443-1444هـ / 2022-2023م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير خاص:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من لا يشكر الناس لا يشكر الله)).

بداية الشكر لله تبارك وتعالى الذي وفقني لإتمام هذه الاطروحة، ثم الشكر للجهد والثناء الجميل

للاستاذ المشرف الاستاذ الدكتور: سمير جاب الله

الذي لم يخل علي بتوجيهاته ونصائحه، ولم يزل يشجعني ويدعيني الى الامام حتى اتممت هذا البحث في هذه اللحظة.

كما أشكره على سعة صدره ونبل اخلاقه ولين جانبه وحرصه على مواصلتي لإتمام هذا البحث بتشجيعاته المتواصلة.

فليس لي ما أضافه به على هذا الإحسان إلا أن أسدي له وافر الشكر وخالص التقدير، والتضرع الى الله تعالى بأن

يمتعه بالصحة والعافية ويبارك له في علمه وأهله ووفته وجهده وأن يرفع

شأنه في الدارين.

فجزوه الله عني خير الجزاء.

شكر وتقدير:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه

والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى جميع القائمين على جامعة الأمير

عبد القادر للعلوم الإسلامية، وأخص بالذكر أعضاء الهيئة التدريسية

في كلية الشريعة والاقتصاد وقسم الشريعة والقانون.

كما أتقدم بشكري وامتناني الخالصين إلى كل من ساهم في مساعدتي

على إنجاز هذه الرسالة،

أخي الطبيب الجراح ياسين خلال.

هذا ولا أنسى المشرف على إخراج هذا البحث والذي سهر معي طويلاً

من أجل إضفاء هذه الصورة الجمالية التي اكتسبها هذا الموضوع،

أختي راضية.

الإهداء

إلى سندي الدائم في دنياي، وكان رفيق دربي، وسمير وحدتي، وبلمسم همومي إلى من قال لي
إن الضمير هو صوت الحق داخل الإنسان
أبي - رحمه الله -

إلى من علمتني الصمود والتحدي وكانت لي القلب الطافح حبا وحنانا
إلى من قال عنها خير الأنام صلى الله عليه وسلم " الجنة تحت أقدام الأمهات "
أمي أطال الله عمرها ومتعها بالصحة.

إلى من قالوا لي: لا تحزن ولا تسأم، لا تغتم ففوق غصن الشوك زهرة، وتحت دمعة اليأس بسمه،
وخلف مرارة الشك برد اليقين، ومع زلزال المصيبة سكينه الثبات وروعة الصبر وعند محنة الأيام
منحة الملك العلام وإن مع العسر يسرا
إخوتي وأخواتي خاصة نورة وعبد اللطيف - رحمهما الله -

إلى من صبرت معي، وتحملت عناء هذا العمل الشاق، إلى من قالت: لا تيأس ولا تسقط
أم أولادي وزوجتي.

إلى بهجة روحي وزينة دنياي وزهرة حياتي وبسمة الأمل وأريج النفس
أبنائي عبد الرحمان وعبد الوكيل ومريم وعبد المهيمن وعبد الرقيب
إلى كل من جعل الحق غاية له والخير هدفه
إلى كل من أحب بلدي الرائع وعمل على إعلائته
أهدي هذا العمل

قائمة المختصرات:

ت: تحقيق

تر: ترجمة

ص: الصفحة

ج: الجزء

مج: المجلد

ط: الطبعة

د.س.ن: دون سنة نشر

ع: العدد

س: السنة

ق.م: قبل الميلاد.

ق.ع.ج: قانون العقوبات الجزائري

ق.إ.ج.ج: قانون الإجراءات الجزائية الجزائري

ق.ج.ج: قانون الجنسية الجزائري.

المقدمة

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل كتابا مبينا، جلى فيه الحلال والحرام، وأوضح فيه الشرائع والأحكام، جعله نورا وهدى لجميع الأنام، شفاء لما في الصدور، ورحمة للعالمين، كما جعله موعظة للمتقين وذكرى للعاقلين، وصلى الله على سيدنا محمد الرسول الأمين، خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وأزواجه وصحابته الطيبين الطاهرين، وبعد:

1- التعريف بموضوع البحث وأهميته:

الحرب النفسية من أخطر الحروب المعنوية، والأوبئة النفسية، بل من أشد الأسلحة تدميرا، وأعظمها وقعا وتأثيرا، وليس من المبالغة في شيء إذا عُدت ظاهرة اجتماعية عالمية ذات آثار سلبية في كافة جوانب الحياة الأمنية والاقتصادية والسياسية والفكرية، ولها خطورتها البالغة على المجتمعات البشرية، وأنها جديرة بالتشخيص والعلاج، والتصدّي والاهتمام لاستئصالها والتحذير منها، والتكاتف للقضاء على أسبابها وبواعثها، حتى لا تقضي على الروح المعنوية في الأمة، التي هي عماد نجاح الأفراد، وأساس أمن واستقرار المجتمعات، وركيزة بناء أمجاد الشعوب والحضارات. والحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، لها آثارها السلبية على الرأي العام الداخلي وصنّاع القرار، وكم كانت سببا في أن يصرف الأعداء الدولة عن مشكلاتها الحقيقية لإغراقها في مشكلات مفتعلة، علاوة على تفتيت الجبهة الداخلية، وصاحبها مجرم في حق مجتمعه وأُمَّته، مثير للاضطراب والفوضى.

والحرب النفسية ليست قاصرة على وقت الحرب أو الطوارئ، ولكنها سلاح يُستخدم في الحرب والسلام معا. وهي جزء أساسي من الحرب الشاملة، ولذلك فهي تُشنّ قبل الحرب وفي أثناءها وفي أعقابها، كما تهاجم المدنيين والعسكريين.

والحرب النفسية لا تخضع لرقابة القانون ولا للتقاليد الحربيّة، بل إنّها عمليّة مستمرة، وهي وسيلة بعيدة المدى وليس من الضروري أن يظهر تأثيرها مباشرة مثل المعارك الحربيّة، بل إنّ نتائجها قد لا تظهر إلّا بعد شهور أو سنوات من تنفيذها؛ لذا تعدّ هذه الحرب أكثر ضراوة من الحرب العسكريّة، بل إنّها تُصوّب هجماتها خارج الدولة الخصم نفسها؛ حين توجّه ذلك نحو الرأي العام العالمي.

ولقد كانت آثار الحرب النفسية عبر التاريخ عميقة، وتركت بصماتها بشكل واضح ومؤثّر، وكأ نموذج الوطن العربيّ الذي تعرّض إلى حرب نفسيّة رهيبة من قبل أعدائه العريّقين في عداوتهم، والذي يمثّلهم الثالوث اليهودي والصليبي والشيوعي، مستخدمين وسائل الإعلام كافّة، وبكافّة أنواع الأسلحة من دعاية كاذبة، أو شائعة مغرضة، أو ضغط اقتصادي،... وهدفهم الأوّل والأخير تحطيم عقيدة هذه الأمم، وقطع العرى التي تربطها بدينها وقيمها وأخلاقها، ومن ثمّ تمزيق شملها ووحدةها وإضعافها وضمان تبعيتها له في كلّ أمر من الأمور السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الفكريّة.

لذا نحن أبناء هذه الأمم في أشدّ الحاجة إلى فهم طبيعة هذه الحرب النفسية ومعرفة أساليبها وأسلحتها، وتقويم خطرها تقويمًا صحيحًا؛ لنستطيع -بإذن الله- أن نفوّت على العدو أهدافه، ونحبط مخططاته، ونشنّ عليه حربًا نفسيّة مضادّة لردّ كيده في نحره.

في الأخير يمكن القول أنّ مواقع وسائل الاتصال والتواصل الاجتماعيّ الحديثة، على الرغم من كونها أداة للتواصل بين الأفراد، ووسيلة للتعبير عن الآراء المختلفة وتبادلها؛ فإنّها في الوقت نفسه من الممكن أن تكون أداة قويّة من أدوات حروب الجيل الرابع، وبالتالي يبقى السؤال مطروحًا: كيف يُمكن تحقيق التوازن بين

متطلبات التعبير عن الرأى والحفاظ على الأمن الوطني؟. فوسائل التواصل الحديثة تُعدّ أرضا خصبة ومناسبة للحرب النفسية، فهي تنشر كمّا هائلا من المعلومات في وقت يسير، بيسر وسهولة.

هذا الواقع الأليم يجعلنا نبحث في الأساليب التي ينتهجها العدو للتأثير على معنوياتنا، وتحطيم نفوسنا، وتغيير ولائنا لديننا ووطننا، وصار من الضروري وضع استراتيجية شاملة للمواجهة والوقاية، مبنية على أسس وقواعد علمية أكاديمية، مقارنة بين ما جاء به الفقه الإسلامي، وكذا التشريع الجزائري.

2- إشكالية البحث:

إنّ البحث في موضوع الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة ومعرفة ماهيتها وتطوّرها، وأحكامها وآثارها، وكذا كَيْفِيَّة الوقاية منها، أمر في غاية الأهمية؛ لأننا في الحرب التقليدية نعرف العدو ونلاقيه وجها لوجه في ساحة القتال، أمّا في الحرب النفسية، فإنّ العدو يختفي وراء الدين والصحافة أو الأحداث الجارية أو الأصدقاء، وما إلى ذلك. فهي حرب ليست مباشرة وليست وجها لوجه. بالإضافة إلى أنها أصبحت تحتلّ مكان الصدارة بين أسلحة الدمار في العصر الحديث، وأصبح العسكريون يؤمنون بأنّها قد تكون أشدّ أثرا من الأسلحة الأخرى في تحقيق النصر بسرعة وبدون خسائر.

وبناء على هذا فإن الإشكالية التي نطرحها في هذا البحث، تتلخص في تساؤل جوهري فحواه:

ما مدى تأثير الحرب النفسية على أمن الدولة، وآليات مكافحتها في الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري؟.

وتتفرع عنه أسئلة كالاتي:

ما هي أسلحة الحرب النفسية؟

كيف رتب الفقه الإسلامي الحكم على الحرب النفسية بناء على الأثر الواقع على أمن الدولة؟

ما هي أركان جريمة الحرب النفسية الماسة بأمن الدولة في التشريع الجزائري؟

هل التشريع الجزائري يوافق الفقه الإسلامي في العقوبات المقررة على الحرب النفسية؟

على ماذا تركزت استراتيجية الوقاية من الحرب النفسية في كل من الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري؟

3- أهداف الموضوع:

- التعرف على ماهية الحرب النفسية الماسة بأمن الدولة، وأهدافها وكيفية نموها، وإدراك خطرها على المجتمع والأمن العام.
- التعرف على أسلحة الحرب النفسية الموجهة ضد أمن الدولة، وكيفية انتشارها، والعوامل التي تسهم في هذا الانتشار.
- إبراز موقف الفقه الإسلامي والقانون الجزائري من الحرب النفسية التي تقع على الدولة وأمنها.
- إيضاح خطر الحرب النفسية على أمن المجتمع والتعرف على آثارها السلبية.
- إبراز أهمية الحرب النفسية كعامل من عوامل النصر على الأعداء.
- إظهار أثر الحرب النفسية على الجندي مسلم والعسكري الجزائري وكيفية معالجته.

- بيان تجريم الحرب النفسية ضد أمن الدولة في الشريعة الإسلامية والقانون الجزائري وكذا عقوبتها.
- التعرف على طرق الوقاية من الحرب النفسية، وأيضاً دور مؤسسات التربية والتعليم والإعلام في مكافحتها.
- دراسة المعايير الأساسية التي تتطلبها الهيئات الإدارية المسؤولة عن تنظيم الإعلام الأمني في مواجهة الحرب النفسية.

4- أسباب اختيار الموضوع:

أولاً: الأسباب الذاتية

- حيي الشديد لدراسة الفقه الإسلامي، والبحث في الشريعة الإسلامية عن العلاج لمشكلات أرهقت العالم الغربي حتى في عصرنا اليوم.
- حيي الشديد وشغفي بدراسة القانون الجنائي ومقارنته بالفقه الإسلامي.
- أن ذلك كان استجابة لضرورة تكثيف الدراسات الجنائية للحد من أثر الجريمة على المجتمع، إذ أنه على الرغم من أن علمي الإجرام والعقاب قطعاً شوطاً كبيراً في دراسة وفهم الظاهرة الإجرامية، و إيجاد الحلول للكثير من المشاكل التي تطرح في الميدان، إلا أن الواقع يبين أنهما لم يصلا إلى الأهداف النهائية المتمثلة أساساً في القضاء على الجريمة أو التقليل من خطرها على الأقل، فالجرائم في تزايد مستمر بسبب تفاقم الانحراف، والمجتمعات مهددة في أمنها واستقرارها، الأمر الذي يتطلب تكثيف الدراسات في هذا الصدد، وهذا البحث يعدّ محاولة تدخل في هذا السياق.

ثانيا: الأسباب الموضوعية

- أهمية هذا الموضوع؛ فإنّ للحرب النفسية أثر بالغ في هدم كيان المجتمع، وزعزعة معسكراته الحربيّة؛ فكلّمة عابرة، وفلّنة لسان قد تجرّ من العواقب على الدولة كلّها ما لا يخطر ببال، ولا يُتدارك بحال.
- عدم توصّل الباحثين والمسؤولين لعلاج ناجع في مواجهة الحرب النفسية، بل وإغفال كثير منهم لأهمية هذا الموضوع.

5- منهج البحث:

- 1- المنهج الوصفي التاريخي: وهذا للوقوف على الحرب النفسية في العصور القديمة وبواعثها وأشكالها وأهدافها، ثم الانتقال إلى عصر صدر الإسلام، وتناول الآيات والأحاديث النبويّة الشريفة التي أصبحت ركائز للكشف عن الحوادث وبواعثها وأهدافها ممّا يخدم الحرب النفسية في تلك الحقبة، ثم الانتقال إلى وصف الحرب النفسية في الحربين العالميتين وكيف كانت تمارس، وأخيرا الوقوف أمام الشكل الحديث للحرب النفسية والذي يعتبر امتدادا لِمَا كان يُمارس في السابق ولكن بأسلوب يتميّز بالتخطيط الدقيق والاعتماد على الوسائل العلميّة والفنيّة الحديثة.
- 2- المنهج الاستقرائي التحليلي المقارن: ذلك أنّ الموضوع مفرّق في كتب الفقه وكتب التاريخ وكتب السياسة الشرعيّة، فعملي يتمثّل في جمع واستقراء تلك المادّة المشتملة على النصوص القرآنية والحديثيّة، وما قرّره أهل العلم قديما وحديثا، ثمّ أعمد إلى تحليلها والمقارنة فيما بينها والترجيح إن أمكن، ثمّ أحاول مقارنة أصولها بالفقه القانوني والنصوص القانونيّة في الخاتمة.

6- الدراسات السابقة:

نعرض فيما يلي بعض الدراسات السابقة التي تمّ إجراؤها حول موضوع الأطروحة الحالية حسب تسلسلها الزمني:

الدراسة الأولى: وعنوانها (أسلحة الحرب النفسية - الشائعات، غسل الدماغ، وتصور للوقاية منها - رسالة ماجستير، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب) للطلاب: يوسف الإدريسي، سنة: 1409هـ الموافق لعام 1988.

هدفت الدراسة إلى تأكيد خطورة الشائعات وغسيل الدماغ. وقد قام الباحث بإجراء دراسة ميدانية على عينة من المعتقلين الفلسطينيين سابقا في سجون العدو الإسرائيلي مثبتا محاولات العدو الإسرائيلي لعمليات غسيل دماغ لأولئك المعتقلين حسب طرق غسل الدماغ المعروفة. وقد تطرق الباحث إلى السياق التاريخي للحرب النفسية مركزا على الفترة الأولى للتاريخ الإسلامي. وتناول الشائعات وغسيل الدماغ بشكل مفصل نظرا لكونها هدف الدراسة.

وأورد الإدريسي فصلا كاملا عن أساليب إسرائيل في الحرب النفسية حيث أنها مرت بأربع مراحل بدأت قبل وعد بلفور، وبعده، ووقت إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني، ومرحلة ما بعد 1967م، وتميزت كل مرحلة باستراتيجيات عمل تخدم تلك المراحل. وعرج الباحث على السيطرة اليهودية على وسائل الإعلام العالمية، وهو ما ساهم في نجاح الإعلام الإسرائيلي، إضافة إلى دور المخابرات الإسرائيلية في بلورة الحرب النفسية ضد الدول العربية، مستفيدة وموظفة للمعلومات التي تحصل عليها في ضرب مواطن الضعف في المجتمعات العربية، وفي نهاية الدراسة وضع الباحث تصورا للوقاية من خطر الشائعات وغسل الدماغ معتمدا على أن مواجهة الشائعات (باعتبارها الأعم والأسرع انتشارا في المجتمع) تكمن في تحليل الشائعات لمعرفة مفرداتها وأهدافها ومصدرها، ومن ثم اتباع المنهج الإسلامي

في مواجهتها من خلال دور كل من المؤسسات التربوية والإعلامية، أما فيما يخص غسل الدماغ فخلص الباحث إلى أن هناك عدة إجراءات وقائية تتمثل في: الإيمان بالله - الاختيار الدقيق للأفراد الصالحين - تعليم الجندي ما يجب فعله عند الوقوع بالأسر - عدم الانخداع - رفض التعاون - خلق جو نفسي إيجابي - القيادة داخل المعتقل. وخلص الباحث إلى أن تزايد آثار الحرب النفسية بسلاحيها الشائعات وغسل الدماغ، نتيجة بعد المسلمين عن عقيدتهم الإسلامية سهل عمليات الغزو الصهيوني لهم. ويؤخذ على هذه الدراسة أنها أغفلت أحد أهم جوانب الحرب النفسية والمتمثل في الدعاية. وركزت على الإشاعة وغسل الدماغ وهو ما يجعلها مختلفة عن دراستنا، كما أنها تختلف عنها في الدراسة القانونية للموضوع ومقارنتها بالفقه الإسلامي.

الدراسة الثانية: وجاءت موسومة ب: (الحرب النفسية) وهي دراسة لـ: بول لاينبرجر سنة 1988.

هذه الدراسة تعتبر دراسة رائدة في مجال الحرب النفسية، بل وتنظيرية هدفت إلى إظهار أنّ الدعاية والحرب النفسية ما هما إلا وجهان لعملة واحدة حتى انعكس ذلك على تعريفه للحرب النفسية بأنها: الدعاية: وتشمل الاستعمال المخطط لأي صورة من التعبير يقصد منها التأثير على عقول ومشاعر وأعمال مجموعة معينة لغرض معين. وقد استعرض لاينبرجر المراحل التاريخية لاستخدام الدعاية بدءاً بما قبل المسيح عليه السلام ومروراً بالإمبراطورية الصينية والإغريق والمغول وانتهاءً بالثورة الأمريكية.

وقد ربط لاينبرجر الحرب النفسية بعلم النفس واعتبرها فرعاً له وأكد على أنها جزء من الحرب المادية تهتم بالعقيدة والتعليم.

وأجمل لاينبرجر عمليا الدعاية بخمسة عناصر (المصدر، الوقت، الجمهور، الموضوع، الغرض) ثم ذكر عددا من القيود على الحرب النفسية في ممارستها تتمثل في قيود (سياسية وأمنية ووسائطية وأخيرا إدارية) تحدّ من الاستخدام الفعال للحرب النفسية.

وفي ظل اهتمامه بالدعاية فقد ركّز الباحث على تحليل الدعاية ووضع لذلك متطلبات تتمثل في جمع المعلومات، وذلك حسب مصدرها (راديو، تلفزيون، شخص) ومن ثمّ التمييز بين الدعاية والحقيقة، وذلك ببساطة: أن ما يتم قبوله من الإذاعة الأجنبية هو حقيقة، وما لا يتم قبوله هو دعاية. ولتحليل موضوع دعائي لا بد من معرفة الآتي:

1- المصدر (حقيقي، خفي..)

2- الوقت (سبب التوقيت).

3- المستمعون (الهدف).

4- الموضوع.

وفي ملخص حديثه عن الدعاية، تطرق لاينبرجر لاستخبارات الدعاية (كمعلومات) تقوم عليها الدعاية وضمن حديثه عن الحرب الباردة والموقف الأمريكي من ذلك على جميع جبهات مناطق التوترات في العالم ضد المد الشيوعي (سابقا). واختتم دراسته بمثال الحرب النفسية العسكرية الأمريكية في الحرب الكورية كجانب تطبيقي.

تختلف هذه الدراسة عن دراستنا في كونها دراسة نظرية تنظرية اهتمت بخلق نظريات في مجال الدعاية بالحرب النفسية بشكل عام. في حين تقوم دراستنا وتهتم بأبرز أساليب الحرب النفسية من إشاعة وغسيل دماغ وليس فقط الدعاية.

كما أن دراستنا جاءت بتصوّر استراتيجية الوقاية من الحرب النفسية وأيضا مقارنتها بما جاء به الفقهاء المسلمون.

الدراسة الثالثة: وكانت تحت عنوان: (المرجع في الحرب النفسيّة) للعقيد: مصطفى الدباغ، سنة 1998.

يرى فيها الكاتب بأن الحرب النفسية تمثل الجانب المعنوي المهم للحرب، المكمل للجانب المادي، وقد أظهر أهميتها في معادلة قياس قوّة الدولة والمتمثلة في مجموع المساحة وعدد السكان والقدرة الاقتصادية والقدرة العسكرية مضروب في الأهداف الاستراتيجية للأمة مع الإرادة الوطنية.

مما يعني أنه إذا كان مستوى المعنويات صفرا فإنّ قوّة الدولة تصبح صفرا... وبعد أن ربط مصطفى الدباغ الحرب النفسية بمختلف العلوم الاقتصادية والعسكرية والسياسية والإعلام... إلخ قسم الحرب النفسية لثلاثة أنواع هي:

1- استراتيجية (على المستوى السياسي الأعلى).

2- تعبوية (تقتصر على ميدان المعركة).

3- تعزيزية (لدعم الإنجازات العسكرية الإيجابية).

وفي استعراضه لأساليب الحرب النفسية ذكر المؤلف أنها: الدعاية، الإشاعة، التضليل الإعلامي، غسيل الدماغ، الغزو الفكري، الفكاهة والكاريكاتور، البلاغات والنداءات، التخريب النفسي وافتعال الأزمات، إثارة الرعب والفوضى، تشويه الشخصية.

كما أورد فصلا عن الحرب النفسية الإسرائيلية ثم تحدث عن الحرب النفسية في الإسلام في فصل آخر، كما خصص فصلا للحرب النفسية الغربية في حرب الخليج الثانية وأعطى وجهة نظره حول الأهداف النفسية الاستراتيجية.

وختم الدباغ دراسته بتصور لكيفية شقّ حرب نفسية مضادة على مستويين هما:

أولاً: حكومي وذلك من خلال وضع استراتيجية إعلامية عربية إسلامية واحدة، وإنشاء هيئة لذلك، ومن ثمّ تشكيل أجهزة تنفيذية إعلاميّة. كلّ ذلك يتم عبر دراسات معمقة تهدف لتغيير اتجاهات الرأي العام العالمي الغربي وبدور موازي للدبلوماسية العربية في الغرب.

ثانياً: مستوى شعبي بإبراز ما هو مطلوب من الشعوب العربية من خلال تحصين الأمة بإعادة الوعي بالتمسك بمعطيات الثقافة العربيّة الإسلامية وكشف أساليب الغزو الفكري الغربي. ومن ثمّ بناء الأمة وبلورة شخصيتها الحقيقية بكونها: " خير أمة أخرجت للناس".

وتختلف هذه الدراسة عن دراستنا بكونها دراسة عامة في طرحها لموضوع الحرب النفسية في البداية، ثم تناولت الحرب النفسية الغربية ضد العراق في حرب الخليج الثانية. أما بالنسبة لدراستنا فهي دراسة متخصصة مقارنة بين الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري، نستعرض فيها حكم الحرب النفسية الماسة بأمن الدولة بين المنع والإجازة عند فقهاء المسلمين حسب الأثر الواقع، ثم نقارنه بالتشريع الجزائري وزاوية نظره لنصل إلى نتائج تخدم البحث.

الدراسة الرابعة: والمعنونة بـ: (موقف الشريعة الإسلامية من الإشاعة في السلم والحرب -دراسة مقارنة- رسالة ماجستير، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية) للطالب: الحربي، سنة 1427هـ الموافق لـ 2006م.

تناولت هذه الدراسة موقف الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي والنظام السعودي من الإشاعة زمني السلم والحرب، وكيفية مكافحتها، والطرق الوقائية منها.

وأهم أهداف هذه الدراسة:

أ- التعرف على ماهية الإشاعة وأهدافها، وكيفية نفيها، وإدراك خطرها على المجتمع.

ب- إبراز موقف الفقه الإسلامي والقانون الوضعي والنظام السعودي من الإشاعة.

ت- إظهار أثر الإشاعة على الجندي المسلم وكيفية معالجتها.

ث- التعرف على طرق الوقاية من الإشاعة.

وخلص الباحث إلى أنّ أهم نتائج هذه الدراسة ما يلي:

- تعدّ الإشاعة من أسلحة الحرب النفسيّة الفتّاكة والمدمّرة للأفراد والمجتمعات والجيوش العسكرية.
- موقف الشريعة الإسلاميّة من الإشاعات موقف واضح وسليم، فهي تقف منها موقفاً حازماً ورافضاً ومحدّراً من نشرها بين صفوف المسلمين.
- إنّ موقف القانون الوضعي في البلاد العربية من الإشاعات موقف سليم، فجميع القوانين العربية تجرم هذه الجريمة الضارة، وتقرر لها عقوبة.
- إنّ موقف النظام السعودي من هذه الجريمة موقف صحيح، وهو لا يختلف عن موقف الشريعة الإسلامية من هذه الجريمة، ذلك أنّ الشريعة الإسلامية عامّة والنظام السعودي خاصّة، إذ يقرر عقوبة تعزيرية تختلف بحسب الأثر المترتب على الإشاعة وما ينجم عنها من أخطار وآثار.

تختلف هذه الدراسة عن دراستنا في كونها دراسة ركّزت على الشائعات وقت السلم والحرب وعلاقتها بالحرب النفسية خاصة أثناء الحروب. كما جاءت الدراسة على النظام السعودي خاصة مقارنة بالشرعية الإسلامية. أمّا دراستنا فجاءت عن الحرب النفسية بمختلف أسلحتها وليس عن الشائعات فقط، كما أن دراستنا منصّبة على التشريع الجزائري مقارنا بالفقه الإسلامي.

7- منهجية تحرير الأطروحة:

خلال تحرير الأطروحة، والعمل على إخراجها في شكلها النهائي، التزمت بمجموعة من القواعد المنهجية والشكلية، كما يلي:

- عزو النصوص المقتبسة إلى أصحابها، وتوثيقها في هامش الصفحة بذكر اسم الكتاب أولاً، واسم المؤلف، واسم المحقق أو المترجم إن وجد، ثم رقم الجزء -إن وجد-، فرقم الصفحة، ثم رقم الطبعة، ودار النشر، ومكان الطبع، وأختم بسنة النشر.
- في حال تكرار النقل من المؤلّف نفسه مرتين متتاليتين، اكتفيت في الهامش بكتابة المصدر نفسه أو المرجع نفسه. أما إذا تكرّر النقل من مؤلّف بعد النقل من مؤلّف آخر، فإني في هذه الحالة أكتب في الهامش اسم الكتاب، ثم المرجع نفسه.
- إذا نقلت قولاً عن مؤلّف، وأعدت صياغته بأسلوبي، حتى يتّسق مع السياق، أوردت عبارة (بتصرف) في الهامش بعد توثيق القول في الهامش.
- نسخ الآيات القرآنية من مصحف واحد برواية ورش عن نافع، وتخرّيج الأحاديث النبوية، بذكر المصنّف والباب الذي روي فيه الحديث، وكذا رقم الحديث، وبقيّة بيانات النشر.

- أوردت في بداية الأطروحة قائمة للمختصرات، كما ظمّنت في نهايتها فهرسا للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وفهرسا تفصيليا لموضوعات البحث.
- التزمت بتمهيد وتقسيم لكل باب، وكذا تمهيد لكل فصل، أما المباحث والمطالب فحسب الحاجة إلى ذلك.
- الأطروحة بكاملها تدور حول الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، ولذلك كثيرا ما نطلق لفظ الحرب النفسية فقط في العناوين وحتى في المتن اختصارا، ونقصد بها ما يمسّ بأمن الدولة.

8- صعوبات الدراسة:

واجهت دراستنا جملة من الصعوبات والمعوقات، حاولنا جاهدين تجاوزها، تتمثل أساسا في ندرة المراجع التي تتناول الحرب النفسية من زاوية الفقه الإسلامي وكذا القانون الوضعي عامة، كون الموضوع متجدد خاصة في ظل وسائل الإعلام الحديثة، مما حثّم علينا الاعتماد على البحوث والمقالات ومراكز الدراسات ... وحتى في الوقت الذي حاولنا الاطلاع على ما كتبه الفقهاء المصريون حول الموضوع علّنا نجد بغيتنا من خلال السفر إلى الجامعات المصرية، قدر الله علينا وباء كورونا الذي أغلق المطارات وفرض الحجر الصحي وإلى الله المشتكى.

هذا وناهيك على أنّ جلّ الدراسات التي تناولت الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، تطرّقت إليه من منطلقات وزوايا علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال، والموضوع يستلزم علينا التطرق إلى هذه الزوايا للوصول إلى نظرة أكثر شمولاً، وهو ما أخذ منا وقتاً أطول.

9- خطة البحث:

في سبيل إتمام الدراسة والإجابة على إشكالية البحث، بما يتفق والأهداف المرجوة منه، رسمت خطة بثلاثة أبواب. تطرقت في الباب الأول إلى مدخل عنوانه بماهية وتطور الحرب النفسية. وفيه تحدثت عن ماهية الحرب النفسية من خلال تعريفها ومسمياتها، وذكرت أهدافها وأنواعها وأبرز أسلحتها المتمثلة في الشائعات والدعاية. وهذا كله في الفصل الأول. أما الفصل الثاني، فجاء عن تاريخ الحرب النفسية وتطورها، بداية بالعصور القديمة، وصولاً إلى العصور الوسطى أين ركزت الحديث عن فترة الإسلام وهي جزء مهم من البحث، وأيضاً اخترت المغول لاعتبارات عدة كونهم برعوا في استخدام الحرب النفسية وطوروها. وانتهيت بالعصر الحديث من خلال الحربين العالميتين وما بعدهما؛ أين تبلورت الحرب النفسية بهذا الاسم الجديد وتطور لم تكن عليه من قبل. أما الباب الثاني، فقد تضمن حكم الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، في كل من الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري، أين كان مرتبطاً بالحكم على الأثر إيجاباً وسلباً. لذلك تطرقت إلى الحرب النفسية المشروعة والمحرومة في الفقه الإسلامي، وبيان أركان هذه الأخيرة. والفصل الثاني تمحور حول تجريم الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة في التشريع الجزائري، والأركان العامة وكذا الخاصة لهذه الجريمة في نظر المشرع. ختمت الدراسة بباب ثالث، من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكان تحت مظلة العقوبات المقررة على الحرب النفسية والوقاية منها في الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري. أين تطرقت في الفصل الأول إلى عقوبة الحرب النفسية في الفقه الإسلامي، تحدثت عن التعزير وعن تفريد العقوبات الشرعية، أما المبحث الثاني، فمداره الوقاية من الحرب النفسية في نظر الفقه الإسلامي، وفيه تكلمت عن الأخلاق الأساسية لمقاومة هذه الحرب وكذا بعضاً من طرق وأساليب المقاومة. أما الفصل الثاني لهذا

الباب، فكان بعنوان عقوبة الحرب النفسية والوقاية منها في التشريع الجزائري، تطرقت إلى عقوبة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الخارجي و كذا الداخلي. وختمت الفصل بتصوير للوقاية من الحرب النفسية في التشريع الجزائري. أنهيت الدراسة بخاتمة تضمنتها إجابة عن الإشكالية المطروحة والنتائج المتوصل إليها وكذا التوصيات.

الباب الأول

الباب الأول: ماهية وتطور الحرب النفسية

تمهيد وتقسيم:

المتصفح للتاريخ البشري، يجد أنّ الحرب كانت موجودة دائماً بين الأفراد والجماعات ثم الأمم، وبتطور الإنسان في ميادين الارتقاء الاقتصادي والاجتماعي استمرّت الحروب لا تنطفئ لها جذوة. والحروب مهما اختلف تعريفها، ليست إلّا صراعاً دمويّاً بين إرادتين تريد كل منهما التفوق على الأخرى، وتحطيم مقاومتها بهدف حملها على التسليم، ويتخذ هذا الصراع صورة العنف، ومظهره القتال بين الخصمين. وأحسن صور الحرب هي تلك التي تستطيع الدولة من خلال مخبراتها إضعاف موقف عدوّها دون قتال، وهذه الصورة لا تستخدم فيها الدبابات والمدافع ولا القنابل، وإنّما هي حرب مستقلة عن مفاهيم الحرب الفعلية، وتكاد تكون أقوى منها وأشدّ تأثيراً، تلك هي الحرب النفسية مدار هذا الباب من البحث، وعليه نتناول فيه ما يلي:

الفصل الأول: ماهية الحرب النفسية.

المبحث الأول: مفهوم الحرب النفسية.

المبحث الثاني: أهداف وأنواع الحرب النفسية.

المبحث الثالث: أسلحة الحرب النفسية.

الفصل الثاني: تاريخ الحرب النفسية وتطورها.

المبحث الأول: الحرب النفسية في العصور القديمة.

المبحث الثاني: الحرب النفسية في العصور الوسطى.

المبحث الثالث: الحرب النفسية في العصر الحديث.

الفصل الأول: ماهية الحرب النفسية

لقد أدرك وعرف الساسة ورجال الحرب أهمية الحرب النفسية وخطورتها في السلم والحرب، فاهتموا بها ووضعوها في الصدارة بين أسلحة الحروب، وأصبح القادة يعتمدون عليها لتدمير روح العدو القتالية، وبالمقابل بناء معنويات المجتمع الذي يبتثها وتقويته. وقد تطورت أساليب وطرق الحرب النفسية، تبعاً لتطور وسائل وأساليب القتال الحديثة، وأصبح استخدامها المعاصر أكثر اتساعاً وتعقيداً، وعليه نقسم هذا الفصل كالاتي:

المبحث الأول: مفهوم الحرب النفسية.

المطلب الأول: تعريف الحرب النفسية.

المطلب الثاني: مسميات الحرب النفسية.

المبحث الثاني: أهداف وأنواع الحرب النفسية.

المطلب الأول: أهداف الحرب النفسية.

المطلب الثاني: أنواع الحرب النفسية.

المبحث الثالث: أسلحة الحرب النفسية.

المطلب الأول: الشائعات.

المطلب الثاني: الدعاية.

المبحث الأول: مفهوم الحرب النفسية

المطلب الأول: تعريف الحرب النفسية

الفرع الأول: تعريف الحرب النفسية لغة: عرّفها العرب بآثارها فجاء في لسان العرب: أرجف القوم إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن، والمرجفون هم الذين يولدون الأخبار السيئة التي يكون معها اضطراب في الناس، قد عرف العرب مشيبي الحرب النفسية بأنهم المرجفون؛ وهم الذين يذيعون الاضطراب في البلاد¹، وبهذا يكون العرب قد عرفوا الحرب النفسية بمعناها وآثارها السيئة، وقد لعن القرآن الكريم هذه الجماعة فقال فيها: "لَيْسَ لَّهُمْ يَنْتَه إِلْمَنَهْفُونَ وَالَّذِينَ فِي فُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا ﴿٦١﴾".²

وجاء في تاج العروس مادة رجف: أرجف القوم: إذا خاضوا في أخبار الفتن ونحوها من الأخبار السيئة. ومنه قوله تعالى: "وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ"³.

أما الموسوعة العربية الميسرة فقد أوردت تعريفا يكاد يتقارب مع التعريفات التي وضعت للحرب النفسية في العصر الحديث، فيقول في مادة حرب: هي نضال مسلح بين دول ذات سيادة وهي (حرب دولية) أو بين جماعتين في دولة وهي (حرب أهلية) يعمها تخريب وتدمير قوات المتحاربين وممتلكاتهم، وغير المتحاربين، هدف الحرب إملاء شروط معينة على الفريق المهزوم، وتستهدف الدولة المحاربة إما تحقيق الاستقلال أو اقتطاع إقليم أو الحصول على بعض المزايا أو اتباع سياسة معينة أو إملاء عقيدة دينية أو مذهب سياسي، أو حماية تلك من أي عبث إذا نشبت الحرب من أجل الدفاع عن النفس، سميت حربا دفاعية، إذا نشبت على أرض أجنبية بشكل اعتداء سميت حربا هجومية، وفيما بين الإثنين

¹ لسان العرب، ابن منظور، ج9، ص112، ط1، دار صادر، بيروت، دت.

² سورة الأحزاب، الآية 60-61.

³ تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ج11، ص254، ط1، التراث العربي، الكويت، 1965. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ج1، ص332، مجمع اللغة العربية، ط1، دار الدعوة، دت.

كانت حرباً وقائية، وهي التي تهاجم فيها دولة قوية لمنعها من الاعتداء الذي تدبره الأخرى في الوقت المناسب. وقد أصبح مألوفاً أن يطلق زعماء الدول المحاربة على حروبهم أنها قتال من أجل الدفاع¹.

تتفاعل العوامل الاقتصادية و الجنسية و المذهبية: لتسبب الحرب الاستعمارية والقومية والعسكرية والدبلوماسية السرية. وقد شملت هذه الأقسام ما يسمى بالحرب الأهلية وهذه الحرب إنما تنشب بين أهل الدولة الواحدة نتيجة لحرب نفسية بذر بذورها أعداء هذه الدولة المتربصين بها، وأشعلوا نار العداوة والبغضاء بين أهلها، فقاموا بضرب بعضهم رقاب بعض ونسوا ما بينهم من وشائج. وقد حذر رسول الله ﷺ من هذه الفتنة في خطبة الوداع فقال: **فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**². ويعتبر هذا التعريف أعم التعاريف الواردة في المعاجم العربية التي يشمل الحرب النفسية، وإن لم يذكر اسمها صراحة، فقد أورد في بدايته تعريفا للحرب الفعلية أو المسلحة ثم أهدافها، وتلك الأهداف ليست أهداف الحرب القتالية وإنما هي أهداف الحرب النفسية، فهي التي تعنى بإملاء بعض الشروط أو الحصول على بعض المزايا أو إملاء عقيدة دينية أو مذهب سياسي أو حماية جماعة معينة. فهذه بعينها أهداف الحرب النفسية.

ولا شك أن تسمية هذا النوع من أنواع الحرب باسم الحرب النفسية وليدة لمعرفة الأوروبيين حديثاً بعلم النفس واستغلال أصوله في التدمير والإبادة، واستعمالهم لها في التعمير والبناء.

الفرع الثاني: تعريف الحرب النفسية اصطلاحاً: ليس من السهل بحال أن نضع تعريفاً محدداً للحرب النفسية، أو نحدد مجالها، وحتى وقتنا هذا فإن الحرب النفسية غير واضحة في أذهان الكثيرين؛ لأنها تبدو في أذهان الناس بمفاهيم متغيرة، وهذا راجع بالأساس إلى اختلاف المدارس والاختصاصات التي ينتمون إليها.

¹ الموسوعة العربية الميسرة، سهير القلماوي وآخرون، ج2، ص423، ط، دار الجيل، القاهرة، دت.

² صحيح البخاري، البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، ج2، ص620، حديث رقم 1654، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987.

يذكر أن المفكر العسكري الأمريكي بول لاينبارجر Paul linebarger¹، هو أول من استخدم اصطلاح الحرب النفسية بصورة صريحة وواضحة في عام 1954، ومن يومها أصبح من المصطلحات المهمة التي استحدثت في العالم، وعرفها بأنها: استخدام الدعاية ضد العدو مع اتخاذ إجراءات عملية أخرى ذات طبيعة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية².

ويعرف لاينبارجر الحرب النفسية انطلاقاً من مفهومين: ضيق وواسع، فهي في المفهوم الضيق: استخدام الدعاية ضد العدو مع إجراءات ذات طبيعة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية مما تتطلبه الدعاية. أما في المفهوم الواسع فهي: تطبيق لبعض أجزاء علم النفس لمعاونة المجهودات التي تبذل في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية في المعركة بغية تحقيق الغاية والهدف المنشود³.

وهناك العديد من تعريفات الحرب النفسية ويمكن ذكر ما يلي منها:

- الحرب النفسية هي النضال من أجل عقول الرجال وإرادتهم⁴.

- هي نوع من القتال النفسي لا يتجه إلا إلى العدو ولا يسعى إلا إلى القضاء على إيمان المستقبل بذاته وبثقته في نفسه، وبعبارة أخرى هي تسعى لا إلى الإقناع والافتناع وإنما تهدف إلى تحطيم الإرادة الفردية⁵.

يركز هذا التعريف على الناحية العقائدية والفكرية والنفسية.

- هي مجموعة الأعمال التي تستهدف التأثير على أفراد العدو، بما في ذلك القادة السياسيين والأفراد غير المقاتلين، بهدف خدمة أغراض مستخدمي هذا النوع من الحرب⁶.

¹ عمل في مكتب المعلومات الحربية الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية وشارك في نشر الدعاية الأمريكية بين المدنيين والعسكريين في مسارح العمليات العسكرية في أوروبا وكان مستشاراً للحرب النفسية في وزارة الدفاع الأمريكية و استاذاً للدراسات الدولية في جامعة واشنطن. انظر: الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 07، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2015.

² الحرب النفسية، محمد منير حجاب، ص 05، ط 1، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2005.

³ الحرب النفسية، أحمد نوفل، ج 1، ص 33، ط 2، دار الفرقان، عمان، 1985.

⁴ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 90، ط 1، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.

⁵ الحرب النفسية في الوطن العربي، حامد ربيع، ص 33، ط 1، دار واسط للدراسات، بغداد، 1989.

⁶ الموسوعة العسكرية، الهيثم الأيوبي وآخرون، ج 1، ص 767، ط 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.

- هي شن هجوم مبرمج على نفسية وعقل الفرد والجماعة لغرض إحداث التفكك والوهن والارتباك فيهما وجعلهما فريسة لمخططات وأهداف الجهة صاحبة العلاقة مما يمهد للسيطرة عليها وتوجيهها إلى الوجهة المقصودة ضد مصلحتها الحقيقية أو ضد تطلعاتها وآمالها في التنمية أو الاستقلال أو الحياد أو الرفض¹.

ويشخص هذا التعريف - الظاهرة - من وجهة النظر النفسية.

- استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة من الدول في وقت الحرب أو في وقت السلم لإجراءات إعلامية، بقصد التأثير في آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية معادية أو محايدة أو صديقة بطريقة تساعد على تحقيق سياسة وأهداف الدولة².

هذا التعريف يسلط الضوء على الحرب النفسية من الجوانب السياسية والإعلامية.

- هي جهود سلبية أو إيجابية تصدر من فرد أو جماعة أو دولة أو عدة دول متحالفة، وتوجه ضد الفرد أو الجماعة أو الدول الصديقة أو المحايدة و المعادية على حد سواء بهدف التأثير في المعنويات والاتجاهات والآراء والأفكار والمبادئ والمعتقدات³.

ينظر الباحث إلى الحرب النفسية من الزوايا النفسية والإعلامية.

- هي القدرة على تشكيل تصورات الآخرين. أو هي الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية، بدلا عن الإرغام أو دفع الأموال⁴.

يركز التعريف على الجوانب النفسية الاجتماعية للحرب النفسية.

- هي عبارة عن أنشطة سيكولوجية مخططة تمارس في السلم والحرب وتوجه ضد الجماهير المعادية والصديقة والمحايدة من أجل التأثير على مواقف وسلوكيات هؤلاء لكي تؤثر إيجابيا نحو إنجاز هدف سياسي أو عسكري معين⁵.

¹ الحرب النفسية، فخري الدباغ، ص3، ط1، وزارة الثقافة، بغداد، 1979.

² الحرب النفسية ضد الإسلام، عبد الوهاب الوكيل، ص26، ط1، مكتبة القدس، القاهرة، 1986.

³ الحرب النفسية وأساليب مواجهتها، وهيب الكبيسي وآخرون، ص148، مجلة حوليات الإعلام، ع3، 1983.

⁴ علم النفس الاجتماعي، كامل علوان الزبيدي، ص21، ط1، دار الوراق، عمان، 2003.

⁵ الحرب النفسية، موسى زناد، ص22، ط1، مكتبة الفكر العربي، بغداد، 1984.

- إنها حرب سياسية ونفسية، وإجراءات مخططة، تصدر من أجهزة دولة معادية أو جماعة تخريبية وقت الحرب تهدف إلى تخطيط معنويات القوات المسلحة وشل قدراتها على القتال¹.

● يبرز تركيز هذا التعريف على الجوانب النفسية والحربية.

- الحرب النفسية هي تلك الكلمات والأفعال التي توهم من تصميم العدو على القتال بإضعاف روحه المعنوية².

● يلاحظ على هذا التعريف النظر من الجانب العسكري والنفسي.

- الحرب النفسية هي الحرب كلها سواء كانت بالقوة المادية أو القوة المعنوية وهدفها هو وضع العدو في حالة نفسية معينة في حالة الهزيمة. ومن هذا التعريف نخرج بأن الحرب النفسية ليس لها وجود منصل عن سائر أنواع الحرب العسكرية والاقتصادية والسياسية والعقائدية وإنما هي أصل الحروب كلها³.

● وتلمس فيه زاوية النظر العسكرية والنفسية.

- هي حالة قتال مسلح جسدي أو نفسي أو كليهما، بين مجموعات بشرية ينطوي عليها تحقيق أهداف معينة بالعنف، وهي في حياة الشعوب مصير خطير ذو أهمية بالغة، فأما أن يوصلها إلى عاقبة الانتصار والسعادة، أو يزعجها في ضرام من الشقاء والهزيمة⁴.

● وينظر هذا التعريف إلى الحرب النفسية كونها ظاهرة عسكرية - اجتماعية...

- الحرب النفسية هي عبارة عن استخدام مخطط له للدعاية والأعمال الأخرى، التي تهدف للتأثير على آراء وعواطف واتجاهات سلوك العدو، والمحايد⁵.

● سلط الضوء هذا التعريف على الجانب الإعلامي والنفسي.

¹ علم النفس الاجتماعي، حامد زهران، ص 395، ط 6، عالم الكتب، القاهرة، 1984.

² الاتصال بال جماهير والدعاية الدولية، أحمد بدر، ص 207، ط 1، دار القلم، الكويت، 1974.

³ أضواء على الحرب النفسية، جمال السيد، ص 15، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972.

⁴ الحرب النفسية، موسى زناد، ص 9.

⁵ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 91.

- تتضمن الحرب النفسية استخدام الدعاية ضد العدو بالإضافة على استعمال وسائل أخرى لها طابع النشاط الحربي أو الاقتصادي أو السياسي على النحو الذي يكون مكملاً لنشاط الدعاية¹.

● حيث ركز هذا التعريف على وجهة النظر الإعلامية.

ومن هذه التعريفات المتنوعة تبرز محاور عدة في الموضوع من أهمها:

1- تستهدف الحرب النفسية عقل الإنسان وفكره ومعنوياته، لا جسده، وذلك لأجل خلخلة توازنه وإرباكه وتغيير قناعاته فيفقد عند ذاك قابلية القتال وقدرة التحرك لتنفيذ سياسة ومخططات دولته أو قاداته بعد فقدانه القناعة بما يفعل أو بما أو بما يراد منه فعله. (ويقصد بها السعي نحو تحطيم الذات القومية. الحرب النفسية ليس مجرد تغيير رأي أو تعميق علاقة ولاء، وإنما أكثر من ذلك. إنها تحويل لموقف حيث المواطن والفرد يفقد كل الثقة في ذاته القومية)².

وفي المأثور: قيل لعلي بن أبي طالب عليه السلام: كيف تمكنت من قتل هذا العدد الكبير الذي قتلته من أعدائك؟ فقال: ما كررت على واحد إلا وظن أنني قاتلته فأكون أنا ونفسي عليه³، أي بمعنى أن الحرب النفسية تتعامل مع النفس الإنسانية، مخاطبة عوامل الضعف والقوة فيها فتشغل جوانب الضعف لتعميقها وتحويلها إلى مصدر تدمير ذاتي، وتخطب جوانب القوة لزعزعتها وتدمير دعائمها. (إن الحرب النفسية ليست أفضل أو أسوأ من غيرها من أشكال الصراعات الدولية، والاختلاف كله، أن الإنسان لا يصاب بضرر جسماني نسبي إذا ما قورنت بحرب الأسلحة الأخرى. ومن ناحية تكاليفها نجد أنه لا يمكن مقارنة آثارها البالغة على العدو بالنسبة إلى نفقاتها)⁴.

2- توجه الحرب النفسية إلى مجتمع الخصم، أفراداً وجماعات وقادة، بهدف إرباك توازنها وتشكيك ذواتها في قدراتها المعنوية والمادية ولا توجه إلى المجتمعات الصديقة أو المحايدة بهدف دفعها إلى الثبات على حالة الحياد، وليس إلى الداخل -أي إلى الأفراد والمجتمعات المنفذة لهذه الحرب- لأن ذلك يحولها

¹ الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية، محمد عبد القادر حاتم، ص 185، ط 1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1973.

² الحرب النفسية في الوطن العربي، حامد ربيع، ص 334.

³ الحرب النفسية، أحمد نوفل، ج 1، ص 4.

⁴ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 105.

إلى مفاهيم أخرى أقربها إلى هذا التصور مفهوم الدعوة ومفهوم الدعاية، أما من قال في تعريفه للحرب النفسية إنها توجه للصدىق أو المحاييد، فقد اختلط لديهم مفهوم الدعاية بالحرب النفسية، فالدعاية يمكن أن تكون أداة من أدواتها ولكنها ليست هي قطعاً، والفرق الجوهرى بينهما أن الحرب النفسية لا توجه إلا إلى العدو، أما الدعاية فيمكن أن توجه إلى الأنماط الثلاثة: العدو والصدىق والمحاييد.

- ويمتلك الإنسان بشكل طبيعى ما يؤهل معنوياته للاستقرار مستمدة من بيئته أو محيطه، وتمثل عقيدته التى يؤمن بها عنصر توازن مهم جداً، ما لم تتعرض إلى هجوم مقابل قوى يهدد هذا الاستقرار والتوازن الطبيعى (لا قيمة لأي جيش مهما يكن ضخماً فى عدده، دقيقاً فى تنظيمه، ممتازاً فى تسليحه ما لم تكن معنوياته عالية)¹.

وقد عمل الرسول ﷺ فى مجال المعنويات كثيراً من جانبين، فقد دفع باتجاه تقوية معنويات أتباعه بشتى الطرق والمناسبات، فى معركة بدر وفى غزوة حميراء الأسد وفى الخندق وفى فتح مكة وغيرها وعلى امتداد مسيرة المواجهة مع الكفار وكل أعداء الدين، ففي الخندق كان المسلمون فى غاية الإنهاك والقلق والارتباك فكان عليه الصلاة والسلام، يبشرهم بفتح فارس، وبعد معركة أحد مباشرة وظاهر الأمر انتصار المشركين العسكري خرج المسلمون لمطاردتهم فى (حميراء الأسد)، أما فتح مكة فقد أوصل المصطفى ﷺ معنويات المسلمين إلى أعلى درجات الارتفاع والارتقاء².

- وسعى الإسلام من جانب آخر إلى استهداف معنويات العدو لخطورتها وأهميتها فى كسب المعارك (لقد استهدف الرسول ﷺ فى كل غزواته تحطيم المعنويات أكثر مما يستهدف تحطيم القوى المادية؛ لأنه كان يطمح دائماً فى عودة أعدائه إلى الطريق المستقيم والهداية فيحرص على إبقائهم أحياء)³.

المطلب الثانى: مسميات الحرب النفسية

إن اختلاف وتنوع التعاريف للحرب النفسية نتيجة لإبراز جانب معين مقابل آخر، لزم منه تعدد التسميات للحرب النفسية، وإن كان هذا الأخير هو الأكثر استعمالاً بين الباحثين. ونرى أنه من المستحسن أن نعرف بعضها مع مدلوله من ناحية الماهية كما يأتى:

¹ الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص328، ط2، مكتبة النهضة، بغداد، 1996.

² زاد المعاد، ابن القيم، ج3، ص45، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1994.

³ الرسول القائد، المرجع نفسه، ص329.

الفرع الأول: حرب المعنويات

ترتبط المعنويات باستقرار الحالة النفسية للفرد المقاتل أو الشعب أو القائد، وترتبط من ناحية أخرى بصفاء ووضوح الهدف والعقيدة التي يحارب من أجلها الإنسان ويتعرض في سبيلها للأخطار.

ويرى الدكتور أحمد نوفل أن القوات المسلحة لها مصدران للقوة، الأهم هو المصدر المعنوي، ثم المهم وهو المصدر المادي؛ ولإحراز النصر يجب توجيه ضربات نفسية قوية إلى معنويات العدو باعتبارها مصدر القوة لديه¹.

ومدار هذا يقينا استهداف معنويات الخصم وهزّها هزّاً عنيفاً بالشائعات وإثارة الرعب، أو بتحطيم الإرادة وغير ذلك من وسائل الحرب النفسية المعروفة، وللمعنويات أثر سلبي أيضاً في الطرف الموجّه أو القائم بالحرب النفسية إذا لم يتم إتقان التعامل معها أو تعزيزها (وفي الاتجاه المعاكس فإنّ المعنويات السيئة تتميز في خلال القتال بظواهر مثل انعدام الفاعلية -عدم الرمي، عدم التقدم، انسحاب غير مبرر- والهروب كالفرار من الخدمة أو الاستسلام أمام العدو-والعنف الداخلي- الشتائم، عصيان الأوامر علناً، التمرد- والتفكك الاجتماعي: عدم تنفيذ الأوامر، انعدام الاتصال، نقل الشائعات المدمرة أو المحرّضة)².

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب أنّ المعنويات هي العقيدة، وقد أثبت تاريخ الأمم أنّ الجيوش لا تهزم لقلة موادها بل لضعف عقيدتها³.

لا قيمة لأي جيش مهما يكن مهما يكن ضخماً في عدده، دقيقاً في تنظيمه، ممتازاً في تسليحه ما لم تكن معنوياته عالية⁴.

وباستعراض صفحات من السيرة النبوية، نجد أنّ الرسول ﷺ قد عمل على المعنويات كثيراً وهذا من جانبين، فقد دفع باتجاه تقوية معنويات أتباعه بشتى الطرق في معركة بدر وفي غزوة حميراء الأسد

¹ الحرب النفسية، أحمد نوفل، ج1، ص57.

² علم النفس في القوات المسلحة، شارل شانديسي، تر: محمد ياسر الأيوبي، ص111، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بغداد، 1984.

³ بين العقيدة والقيادة، محمود شيت خطاب، ص34، ط1، دار الفكر، بيروت، 1972.

⁴ الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص328.

وفي الخندق وفتح مكة أيضا وغيرها، طيلة مسيرة المواجهة مع الكفار، فبعد معركة أحد مباشرة وظاهر الأمر انتصار المشركين العسكري خرج المسلمون لمطاردتهم في (حميراء الأسد). وفي الخندق كان المسلمون في غاية الإحناك والقلق والارتباك فكان عليه الصلاة والسلام يشرهم بفتح فارس. أما فتح مكة فقد أوصل النبي ﷺ معنويات المسلمين إلى السماء¹.

أما الجانب الآخر الذي عمل عليه المصطفى هو استهداف معنويات العدو لخطورتها، وأهميتها في كسب المعارك. ومما جاء في كتاب الرسول القائد: (لقد استهدف الرسول -صلى الله عليه وسلم- في كل غزواته تحطيم معنويات أعدائه، بل إنه كان يستهدف تحطيم المعنويات أكثر مما يستهدف تحطيم القوى المادية؛ لأنه كان يطمح دائما في عودة أعدائه إلى الطريق المستقيم والهداية فيحرص على إبقائهم أحياء)².

الفرع الثاني: الحرب الباردة

وهي لدى عدد كبير من الباحثين مرادفة لمصطلح الحرب النفسية، فقد (اقترن اصطلاح الحرب النفسية بالحروب الفعلية، لكنها - الحرب النفسية - في الحقيقة قائمة على قدم وساق في الحروب الباردة التي تسبق أو تلي الحروب الساخنة، بل إن الحرب الباردة هي الحرب النفسية ذاتها)³. كما ويقصد بالحرب الباردة (الصراع بين دولتين أو مجموعة من الدول تهدف إليه الحرب المسلحة من حيث كسر معنويات العدو تمهيدا لاستسلامه في المعركة، وذلك باستخدام الخطط السياسية والاقتصادية والدعائية)⁴.

وقد ظهر هذا المفهوم تاريخيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانقسام أغلب العالم إلى معسكرين قوين الاشتراكي والرأسمالي، أحدهما يعادي الآخر ويريد أن يزلزل الأرض من تحته بدون قتال بعد

¹ زاد المعاد، ابن القيم، ج3، ص45.

² الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص329.

³ الحرب النفسية، فخري الدباغ، ص4.

⁴ الحرب النفسية في المنظور الإسلامي، هيثم عبد السلام، ص117.

أن واجه العالم ويلات ومصائب الحرب الفعلية التي أجهزت وشردت وتسببت بالأذى لعشرات الملايين من البشر.

وشملت محاولات كل طرف من الأطراف المتنازعة ضمن الحرب الباردة: محاولة تفتيت الجبهة الداخلية للخصم باستثارة الخلافات وبث الشائعات التي تستهدف المجتمع المقابل، ورافق ذلك نشاطات أخرى في المجال الاقتصادي مما يدخل في نطاق التلاعب باستقرار السوق العالمية، خاصة المواد الحيوية في الصناعة والوقود والغذاء وفرض الحصار الاقتصادي، أما في الجانب العسكري فقد ظهرت وجوه الحرب الباردة في سباق التسلح الصامت والمعلن والسعي للسيطرة على حركة وسوق السلاح في العالم ثم بإظهار القوة المسلحة، بالاستعراضات العسكرية والأحلاف والاتفاقيات الدولية في مجالات السياسة والدفاع المشترك والخطط المستقبلية (إن الحرب النفسية قد دخلت في مرحلة لا هي حرب فعلية ولا هي سلام حقيقيين إذ حاول كل من المعسكرين أن يعالج المشكلات الدولية بطريقته الخاصة ومفهومه السياسي، وتسابق الطرفان في ميدان الحرب النفسية بشكل لم يظهر في التاريخ الحديث، مما أدى إلى ما سماه والتر ليمان - الحرب الباردة - بأشكالها المختلفة)¹.

وقد تطلب النزاع ضمن الحرب الباردة استثمار وسائل الإعلام المختلفة عن طريق فنون الدعاية والإشاعة والتشويه وتضليل الرأي العام أو استمالة قادة الرأي في العالم ضد الخصم، فظهرت ضمن هذا السياق ممارسات وصدمات فكرية وإعلامية كبيرة وفصائح صفقات سلاح أو أسرار عسكرية أو خطط فاشلة اندرجت جميعها تحت مفهوم هذه الحرب التي استخدمت الكثير من آليات وخطوات الحرب النفسية.

الفرع الثالث: الحرب السياسية

أطلق البريطانيون مسمى الحرب السياسية بدلا من الحرب النفسية، والتي هي نوع من الصراع بين الدول يسعى فيه كل جانب لفرض إرادته على أعدائه بأساليب متنوعة لا تدخل فيها القوة المسلحة. والسلاح الرئيسي للحرب السياسية هو الجمع بين الدبلوماسية والدعاية، وينطوي هذا الفهم للحرب

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص87.

النفسية ضمناً على الاهتمام بالرأي العام، فالحرب السياسية تقوم على افتراض أن العلاقات بين الدول تعتمد على حكومات تنعم برضا الرأي العام. وتنعم بقدر من حرية العمل في تحديد السياسة والقدرة على البت في الأعمال اليومية، ولكن على المدى القصير والطويل، تستطيع الحكومات أن تعمل ما ترضى عنده شعوبها، وهذا الافتراض صحيح حتى في الأنظمة الدكتاتورية، ولو أن حرية الحكومات الشمولية في العمل أكبر بكثير، لأن سيطرتها على الرأي العام أكثر فاعلية¹.

كما يذكر الدكتور أحمد نوفل عن الحرب السياسية بأن هدفها هو إضعاف العدو - وإذا أمكن - تدميره بواسطة استخدام المناورات الدبلوماسية واستغلال المعلومات المتوفرة في تضليله وابتاع طرق الضغوط الاقتصادية المرافقة للنشاط السياسي العام إضافة إلى إثارة الخوف والرعب وعزل العدو عن مؤيديه².

والحرب السياسية، تعتمد في الكثير من آلياتها على زرع القيم والأفكار الجديدة والكذب نوع من الصدمة النفسية، مما يؤدي إلى شلل نفسي، ومن ثم إلى عدم القدرة على عملية المواجهة³. كما يسمي بعض الكتاب هذه الحالة بالتسميم السياسي (ويعني غرس القيم الجديدة بحيث يتم من خلالها إعادة تشكيل لنظام القيم السائدة فغداً بالقيم العليا القومية تتزحزح إلى مرتبة ثانية لتحل محلها القيم الدخيلة وغير المعبرة عن التقاليد التاريخية والقومية لترتفع إلى مرتبة القيم العليا)⁴. وقد تكون الحرب السياسية أو التسميم السياسي مقدمة لمعركة قادمة أو قد تشن بشكل لاحق.

الفرع الرابع: حرب الأفكار

من مصطلحات الحرب النفسية المعروفة، وقد مورست قديماً بقدم ظهور ونشوء هذه الحرب وإن لم تكن تخضع آنذاك للتسميات، فهي دهاء وذكاء وحسن تخلص وغيرها من الطرق وكثير من هذه الصفة تنطبق من ناحية أدائها على الأفكار والكلمات والإيحاءات وكل ما يتعلق بفنون القول

¹ الحرب النفسية، فخري الدباغ، ص7.

² الحرب النفسية، أحمد نوفل، ج1، ص39.

³ الحرب النفسية ومفاهيم جديدة لممارسات قديمة، محمد منصور، ص12، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، ع165، 2000.

⁴ الحرب النفسية في الوطن العربي، حامد ربيع، ص334.

والخطاب، وكلما كانت هذه الأفكار أصيلة ومرتبطة بواقع الصراع ومن ذوات التأثير القوي على عقل ونفسية الخصم ظهرت نتائجها الناجحة والحاسمة وقد أشار سلمان الفارسي عليه السلام إلى فكرة حفر الخندق حول المدينة فنفذت وأتت بنتائج باهرة في تعزيز معنويات واندفاع المسلمين، وفي المقابل خارت معنويات المشركين وفشل مخططاتهم حين لم يجدوا ما يفعلونه مقابل ذلك¹.

ولحضور الفكر وثباته واستقراره أهمية قصوى في الحرب النفسية: (يحتاج المرء في الحرب ليتمكن من اجتياز الصرع الدائم ودون التعرض لأضرار كبيرة إلى الفكر، لأنه يقود الإنسان وسط الظلام المتزايد ويحافظ على كل ذرة من ذرات الوضوح الداخلي اللازم للوصول إلى الحقيقة)².

وإذا كانت وظيفة الأفكار في الأيام الاعتيادية ربما تكون أهدأ وأكثر استقراراً وأميل إلى الاتزان والهدوء أو الرتابة، فإنها ليست كذلك في أوقات الحرب أو الطوارئ أو الأزمات، خاصة في ميدان القتال المباشر الذي تبرز فيه مواقف بحاجة إلى قرار حاسم يستند إلى فكر ثاقب ذكي، يستطيع أن يحقق النصر أو يرفع المعنويات أو يشتت صفوف الخصم، وقد أنقذ خالد بن الوليد جيش المسلمين في معركة مؤتة بعد استشهاد قادة المسلمين الثلاثة في المعركة، فانبثقت في رأسه (فكرة) الانسحاب المنظم بهدف المحافظة على سلامة الجيش والحيلولة دون تحطم معنوياته أو هزيمته أمام جيش الروم الكبير³.

(وتزداد وظيفة الفكر في الحرب، وعند استخدام العنف، وإن هناك ثورة تتحقق في هذا المجال، ولكي نتحرى بدقة معنى ما يحدث تحت بصرنا، أن نحاول رؤية الفكر الذي يمثل أساس العلاقات الداخلية لهذه الأشكال المختلفة من العمل وأن ننظر إلى كل شيء نظرة كلية شاملة وموحدة وبسيطة)⁴.

¹ القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، ج1، ص265، ط1، دار الندوة الجديدة، بيروت، دت.

² حرب الأفكار، عزيز قادر، ص60، ط1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1988.

³ السيرة النبوية، ابن هشام، ت: مصطفى السقا وآخرون، ج2، ص373، ط1، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1985.

⁴ حرب الأفكار، المرجع نفسه، ص34.

وقد تكون الأفكار مهلكة صاحبها ومن يتبعه إذا لم تكن مستندة إلى العقل والمنطق والاختيار الصائب فهذا الوليد بن المغيرة يعارض المنطق والفطرة السليمة، فيذمه الله تعالى على هذا (الفكر) الذي لم ينفعه: "لأنه، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿٨﴾ ففُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿١١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿١٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سِحْرٌ يُوقَرُ ﴿١٤﴾" ¹.

الفرع الخامس: حرب المعلومات

يؤكد هذا المصطلح على جانب مهم من جوانب الحرب النفسية هو: امتلاك العلم والمعرفة بالمعلومات وحسن إدارتها والتصرف بها في الوقت والزمان المناسب لإيقاع أقوى أثر ممكن من الإرباك في صفوف الخصم أو إحداث أثر قوي يساهم في تحصين وتماسك الفرد والمجتمع القائم بشن الحرب النفسية. (فمثلا الإعلان عن إنجاز عمل معين في أي مجال من مجالات الحياة وإظهار مزاياه بأكثر مما يستحق، والتهويل من شأنه مع طمس مساوئه بإخراجه بصورة تخالف الحقيقة، فتصل المعلومة الدقيقة عن هذا العمل على الخصم فيخزنها وينتظر اللحظة المناسبة ليطلقها فيتر أثرا بالغا وعميقا من حيث الثقة في مصدر تلك المعلومة المبني أصلا على التهويل والتضليل المتعمد) ².

وتعرف حرب المعلومات على أنها: (الفصل أو إيجاد الحدث للوصول إلى التفوق المعلوماتي لإسناد الاستراتيجية العسكرية من خلال التأثير على معلومات الخصم وأنظمة معلوماته، في الوقت نفسه حماية المعلومات وأنظمة المعلومات لصاحب الحدث) ³.

ويشير الدكتور مارتن لبيكي إلى سبعة أنواع لحرب المعلومات، هي:

1- حرب القيادة والسيطرة.

2- الحرب الاستخبارية.

3- الحرب الإلكترونية.

4- حرب العمليات النفسية.

¹ سورة المدثر، الآيات من 18 إلى 24.

² الحرب النفسية في المنظور الإسلامي، هيثم عبد السلام، ص118.

³ قراءة في كتاب: حرب المعلومات الحرب القادمة، حسن الرشدي، ص50، ع166، مجلة البيان، أيلول 2000.

5- حرب قراصنة المعلومات.

6- حرب المعلومات الاقتصادية.

7- حرب المعلومات الافتراضية¹.

وتحاول حرب المعلومات طمس حقائق معينة عن المجتمع المستهدف والتأثير عليه بالأكاذيب والتشويه، وشن هذه الحرب ضد الجنود والقادة وضد إرادة المجتمع ومنها عمليات نفسية تصمم أصلاً لفرض ثقافة معينة على دولة ما، مستخدمة وسائل الاتصال الحديثة في ذلك، وفي مقدمتها شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت).

المبحث الثاني: أهداف وأنواع الحرب النفسية

المطلب الأول: أهداف الحرب النفسية

إن الحرب النفسية قائمة لتحقيق مجموعة من الأهداف التي تضعها الدول لتحطيم العقيدة السياسية للخصم ورفع الروح المعنوية لمواطنيها، وتعد أهداف الحرب النفسية من أهم الموضوعات، ذلك أن تحديد الأهداف ووضوحها يترتب عليه تحديد الوسيلة والتوقيت والأسلوب المناسب للحرب النفسية، والتوجيه والتنظيم الملائم، مما يجعل لهذه الحملات تأثيراً في الجمهور الذي توجه إليه، كما أنه من الصعوبة بمكان التعرف على جذور الحرب النفسية، أو وظيفتها، أو مشكلاتها دون تحديد أهدافها².

إن هدف الحرب النفسية أن تتوجه إلى عقل الإنسان ونفسيته لتحقيق السيطرة على الإرادة لتدعيم الصديق، أو لتحطيم الخصم، والتأثير على الآراء والمواقف في الاتجاه الذي يخدم سياسة الدولة وأهدافها، وذلك بشن هجوم عنيف على القوى الروحية والمعنوية والنفسية والمعتقدات الثابتة لدى الخصم لزعزعتها. وفي الوقت نفسه، تقوية الصديق وتعزيز الاعتقاد بقدرته.

¹ الحرب النفسية مفاهيم إعلامية وأحكام فقهية، عبد الهادي الزبيدي، ص 27، ط 1، دار الفجر، بغداد، 2010.

² الحرب النفسية ضد الإسلام، عبد الوهاب الوكيل، ص 26.

والحرب النفسية أرخص تكلفة وأقل إراقة للدماء ونشرا للدمار، ولكنها في نهاية المطاف لا يقل تأثيرها عن الحرب الفعلية في الوصول إلى فرض الإرادة على الخصم، كما أنها أشد خطراً وتأثيراً من الحرب الميدانية، لأن آثارها ترتبط بالجوانب النفسية والمعنوية لدى المدنيين والعسكريين في آن واحد، فهي تسعى إلى التأثير في الكفاءة العقلية والأدائية والإنتاجية لدى الأفراد¹.

والحرب النفسية تستهدف النيل من نفوس ومعنويات الجنود والمقاتلين في ميدان القتال، كما تستهدف أبناء الشعب بمختلف فئاته، وهي بذلك أكثر اتساعاً وشمولاً من ساحة القتال. لذلك فإن تأثيرها أكثر خطورة وأشدّ ضرراً، كما أنها لا تعتمد على المواجهة الصريحة، كما يحدث في المعارك العسكرية، ولكنها تلجأ إلى أساليب خفية وملتوية ومقنعة، غير معروفة بالنسبة لغالبية الشعب.

وعلى ذلك فالحرب النفسية، هدفها تحطيم معنويات الخصم، وإضعاف قدرته القتالية، وفي الوقت نفسه رفع الروح المعنوية للشعب، ولأفراد قواته المسلحة، وهي ترتبط بعلم النفس العسكري، الذي يختص بدراسة ومعرفة السلوكيات الذاتية، وعوامل التغيرات النفسية².

وخلاصة القول فإن الخطط الرئيسية للحرب النفسية هي:

- رفع الروح المعنوية بين الجنود داخل البلاد، وبين الخلفاء.
- تدمير الروح المعنوية للعدو وحلفائه.
- كسب الرأي العام في الدول المحايدة.

لذا يقال عن الحرب النفسية إنها السلاح الرابع بعد الجيش والطيران والبحرية، وهي تسبق الصراع المسلح ويواكبه، ويدعم انتصاراته³ وتستهدف الحرب النفسية بذلك: الفكر والعقيدة والروح لرفع معنويات الشعب، والجيش، أو لتحطيم معنويات الأعداء مدنيين وعسكريين على السواء.

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص22.

² علم النفس الحربي، عبد الرحمن عيسوي، ص80، ط1، دار الراتب الجامعية، بيروت، 1999.

³ الإعلام والاتصال بال جماهير، إبراهيم إمام، ص296، ط1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1969.

أكدت التعريفات السابق ذكرها، أن هدف الحرب النفسية هو التأثير على عواطف الجمهور لدى الخصم وتسميم افكاره وزعزعة مواقفه وصولاً إلى تبديل سلوكه حسب الاتجاه الذي يساعد على تحقيق الأهداف المرسومة¹.

إن الهدف الاستراتيجي الأسمى للحرب النفسية هي التأثير في الطريقة التي يتصرف بها الناس في المواقف المختلفة، وفي أنماط سلوكهم، وفي آرائهم اتجاه الأحداث المختلفة، بما يؤدي إلى خلق قنوات متضادة بين الناس تجعلهم في حالة متناقضة مع بعضهم البعض، مما يؤدي في النهاية إلى إضعاف أو تحطيم الوحدة الوطنية بين طوائف المجتمع. وبث روح اليأس في نفوس المواطنين.

أهداف الحرب النفسية تختلف باختلاف الخصم الذي توجه إليهن فمع الدول المعادية يكون هدف الحرب النفسية هو التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول وجيوشها لتحطيم روحها المعنوية وإرادتها القتالية وتوجيهها نحو الهزيمة. أما مع الدول المحايدة فيكون هدف الحرب النفسية عواطف وأفكار وسلوك هو التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول لتوجيهها نحو تدعيم أو اصر الصداقة مع الدولة الموجهة للحرب النفسية ونحو المزيد من التعاون لتحقيق أهدافها².

من هذه الأهداف مثلاً في حالة السلم الدعاية والترويح للأفكار والعرض للقضايا من وجهة نظر الموجهين لتلك الرسائل، بالإضافة إلى شرح وجهة نظرهم اتجاه القضايا والأحداث العالمية، وكذلك تشويه القضايا والأفكار والمبادئ التي لا تتماشى مع سياستهم وأيدولوجياتهم. أما في حالة الحرب فتستهدف تلك الوسائل تحطيم معنويات الأعداء والعمل على إحداث الفرقة في الجبهة الداخلية، بالإضافة إلى شح قضاياها للجهات المحايدة وإقناعها بما مع تأكيد صلتها ودعم علاقتها بحلفائها، وذلك من خلال ما تقدمه من برامج على مختلف أشكالها الإعلامية، ولكن هذا يستلزم الابتعاد عن الدعاية المباشرة، خاصة إذا كانت موجهة لجمهور معاد أو محايد، ولهذا تلجأ وسائل الإعلام في تحقيق أهدافها إلى مختلف الحيل والأساليب في توجيه مادتها الدعائية مع وضعها في قوالب فنية جذابة مثيرة من خلال أنواع متعددة من البرامج وال نشرات، وبذلك تصل وسائل الإعلام وتحقق أهدافها

¹ استراتيجية الحرب النفسية، محمد مياسا، ص 62، ع 7، مجلة البحوث الإعلامية، 2002.

² الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 23.

الموجهة في إحداث التأثير في معنويات الخصم من خلال التأثير على سياسته وأفعاله، وذلك باستدراج العدو للحصول على المعلومات الموجهة إليه عن طريق تلك الوسائل الإعلامية، وذلك ما تستهدفه الحرب النفسية، وهو التأثير على المعنويات¹.
وتقسم الأهداف برأي الخبراء إلى قسمين²:

1- الأهداف الاستراتيجية: وهي أهداف كبرى رئيسية وحيوية بعيدة المدى، ترمي إلى تحقيق أغراض مخططة، يستغرق تحقيقها مدة زمنية طويلة قد تمتد إلى عشرات السنين.

2- الأهداف التكتيكية: وهي أهداف مؤقتة، يتم وضعها بشكل تنسجم فيه مع أهداف الخطط والعمليات المرحلية المراد تنفيذها من قبل جبهة ما، كما وأنها تعد في الغالب مرافقة للأعمال العسكرية، وهذا ما يجعلها ذات طابع تثيري مباشر، ومن أمثلتها المحاولات التي تبذل في ميدان المعركة لنشر اليأس وهدم الروح المعنوية في صفوف القوات المسلحة المعادية بغية التعجيل بهزيمتها.

وفي الوقت الذي يصعب فيه اكتشاف الأهداف الحقيقية للحرب النفسية في الوقت المناسب، فإن هذه الحرب تستهدف الروح المعنوية بشكل أساسي بواسطة التأثير عليها وهدمها من خلال إحداث الفوضى والبلبلة والتأثير على الانضباط العسكري وتقليل قدرة قادة الخصم في إصدار القرارات، وكذلك تقليل رغبة الجنود والمرؤوسين في الانصياع للأوامر والتعليمات وإذكاء روح السلبية لديهم.
ويمكن تقسيم هذه الأهداف إلى ثلاثة أهداف رئيسية³:

(أ) **أهداف سياسية:** ترتبط العمليات النفسية ارتباطا وثيقا بسياسات الدولة التخصصية والأهداف والغايات الوطنية، أي تهدف إلى تحقيق أهداف مختلفة، سواء من حيث التخصص (سياسية، اقتصادية، عسكرية... إلخ)، أو من حيث البعد الزمني (أهداف بعيدة، منظورة، قريبة). بهدف إقناع الرأي العام العالمي والإقليمي والمحلي، بأمر معين، وكذلك عزل العدو عن أصدقائه وحلفائه، وكسب التأييد من جانب الحلفاء والأصدقاء.

¹ محادثات الإشاعة في السلم والحرب شرعا ونظاما، عبد الله بن متعب، ص 45، ط 1، مركز الدراسات العربية، الجزيرة، 2015.

² الإعلام والعمليات النفسية في ظل الحروب المعاصرة واستراتيجية المواجهة، سامية أبو النصر، ص 19، ط 1، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2010.

³ المرجع نفسه، ص 20 وما بعدها.

(ب) **أهداف اجتماعية:** توجه أساسا إلى الجبهة الداخلية للعدو، وتهدف إلى إثارة الفتن والنعرات القبلية والعرقية والنزاعات الطائفية بالمجتمع الداخلي للدولة الهدف، وإلى زعزعة ثقة الأفراد والجماعات في نظام الحكم وإثارة الفرقة وافتعال الأزمات بينهم، ومحاولة النيل من ثقة الشعب وقواته المسلحة و العمل على إفقاد الشعب الثقة في نظامه الاقتصادي والاجتماعي.

(ت) **أهداف عسكرية:** تتركز في تعبئة القوات المسلحة والشعب، من خلال زيادة الاستعداد النفسي لكل من أفراد الشعب والقوات المسلحة، حيث تبدأ قبل وخلال وبعد مرحلة الصراع المسلح لزيادة الثقة وغرس الروح العسكرية لدى أفراد الشعب، والمحافظة على الروح المعنوية لكل أفراد القوات المسلحة أثناء فترة الصراع المسلح.

ويمكن تفصيل الأهداف السابقة في ما يلي:

- تحطيم وحدة الجبهة الداخلية للدولة المعادية وخلق التناقضات بين فئاتها.
- بث الشك واليأس في إمكانية الصمود و التصدي وتحقيق النصر لدى العدو.
- تشكيك الجبهة المستهدفة من قيادتها السياسية و العسكرية¹.
- ردع الدولة المعادية وإرغامها على التخلي عن الأعمال العسكرية وتحطيم تحالفاتها السياسية عملا بالمبدأ القائل (من لا تكسبه كصديق اعمل على أن يظل على الحياد).
- دفع مقاتلي العدو للفرار او الاستسلام، ومن ثم تحقيق الهزيمة في صفوفه.
- يمكن أن توجه الحرب النفسية على المستوى العالمي أو الدولي، مثل إقناع الرأي العام أو تضليله، وجذب التأييد والمساعدة العسكرية والاقتصادية و الفنية من جانب الأصدقاء².
- خلق الأزمات والصراعات الداخلية بدولة العدو واستغلال هذه الأحداث وتصعيدها ومحاولة الدس واستخدام أبواق الدعاية في إشعال لهيبها.
- إشاعة الفرقة والانقسام بين صفوف الأمة، ونقصد هنا التفرقة بين الشعب وحكومته، وبين الأمة وحلفائها، وبين القادة والجنود، وبين الأغلبية من السكان والأقليات، والتفرقة بين الأحزاب والطوائف

¹ <http://www.altebyan.com/vb/showthread.dhp>

² الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص26.

والمذاهب المختلفة، والتفرقة بين الجيش والمدنيين، وبين النساء والرجال، وبين الكبار والصغار، وبين الأجيال المختلفة.

- الأجيال المختلفة، وتؤدي هذه التفرقة إلى تمزيق الجهة الداخلية استفاد الطاقات في الخصومات، ولذلك كثيراً ما كانت تلجأ أساليب الحرب النفسية في الحرب العالمية الثانية إلى قول الحلفاء مثلاً إنهم لا يعادون الشعب الألماني وإنما يعادون هتلر وحده، وليس ذلك إلا وسيلة من وسائل تصديق قوة الشعب الألماني في ذلك الوقت وإثارته نحو الابتعاد من حول قائده هتلر¹.

- إضعاف إيمان الشعب بعقيدته وأفكاره ومبادئه القومية والوطنية، وإثارة الشك في شرعية قضيته، وزعزعة الأمل في النصر، وعلى ذلك فإنه يتخاذل ويسهل إقناعه بالهزيمة.

- محاولة كسب العناصر المعزولة في المجتمع لصالح الدولة المستخدمة للحرب النفسية من خلال تشجيع هذه العناصر المعارضة على التمرد والتخريب في داخل البلاد².

- إنتاج تأثيرات متراكمة في آراء وانفعالات واتجاهات وسلوك الأفراد.

- الإساءة إلى سمعة الدولة المعادية في المجالات الدولية.

- التأثير على الروح المعنوية للجيش المعادية عن طريق إضعاف معنويات الجنود والتأثير على مقدرتهم القتالية وبيث روح الهزيمة والتخاذل بينهم، وتشجيعهم على الهرب أو التمارض، والتأثير على تفكير الجنود ومعنوياتهم للوصول بهم إلى حالة تؤثر بطريقة مباشرة على سير المعركة، كالفتننة والتمرد، وتشكيك الجنود في شرعية القتال، وإضعاف حماسهم له، والمبالغة في تصوير قوة العدو وإمكاناته وتسليحه، وتشكيك الجنود في قادتهم، وتسليحهم، وتدريبهم.

- تشجيع أفراد القوات المعادية على الاستسلام، وذلك عن طريق توجيه نداءات إلى القوات النارية العدو وتدعوهم إلى الاستسلام وعدم المقاومة، وتوزيع منشورات تحتوي على حيل مختلفة لتشجيع الاستسلام.

¹ الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص45، ط1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997.

² الدعاية أساليبها ومدارسها والحرب النفسية، منال مزاهرة، ص197، ط2، دار المسيرة، عمان، 2018.

- بث اليأس والقنوط والرغبة في الاستسلام والكف عن الصراع في نفوس قوات العدو، وذلك عن طريق التهوين من إمكانياتهم وإفهامهم أن الاستسلام في مصلحتهم، وذلك إلى جانب التهويل من قوة إمكانيات القوة الموجهة للحرب مما يجعل المقاومة عبثا وانتحارا¹.
- تضخيم أخطاء قيادات العدو وذلك بقصد إحداث نوع من فقد الثقة بين القاعدة الشعبية العريضة والقيادة مما يؤدي إلى تفكك وتفسخ العلاقات التنظيمية بينها وضعف الضبط والربط.
- التوصل إلى نفسية وعقيلة جنود الأعداء للعمل على هدم معنوياتهم والتقليل من كفاءتهم العسكرية ليكون الجنود سلبين وغير متحمسين لقضيتهم أو في حروبهم ضد الخصم، من الناحية المعنوية، بالإضافة إلى العمليات التي تهدف إلى التأثير العنيف في جنود العدو مما يجعلهم يقومون بأعمال تؤثر بصورة مباشرة على سير المعارك، كان يستسلم الجنود أو يتركون مواقعهم بالانهزامية والهروب².

المطلب الثاني: أنواع الحرب النفسية

الفرع الأول: الحرب النفسية الاستراتيجية

للحرب النفسية أنواع مختلفة، منها³:

هي حرب تتميز بالشمول والامتداد زمانا ومكانا، كما أنها تستغرق وقتا طويلا وتشمل كل المنطقة المحيطة بالهدف، وتستمر إجراءاتها حتى يتحقق الهدف منها بتحطيم معنويات العدو وانحياز إرادته ويتحقق النصر فتعمل على تثبيت دعائمه، ويصبح الوضع الجديد أمرا واقعا دائما⁴.

وهي توجه عادة إلى قطاعات كبيرة من الشعوب المستهدفة باستخدام موضوعات تتعلق بالاقتصاد والشؤون العسكرية ومكامن الضعف النفسية والسياسية، وتتميز باتساع المدى، حيث توجه إلى جمهور أكبر عددا، وإلى مساحة أكثر اتساعا، وفي مدى زمني أطول من الحرب التكتيكية، فهي غير محدودة

¹ الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص46.

² الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص27.

³ الحرب النفسية، محمد منير حجاب، ص79.

⁴ الحرب النفسية، حميدة سميسم، ص20، ط1، الدار الثقافية للنشر، بغداد، 2005.

بزمان ولا بمكان؛ لأنها توجه إلى كل فئات الشعب والجنود والضباط في كل مكان داخل وطن العدو وخارجه للتأثير على الآراء ووجهات النظر والسلوك لتحقيق الأهداف الاستراتيجية البعيدة وطبقاً للأهداف القومية للدول¹.

تخطط وتدار هذه الحرب على المستوى الاستراتيجي في إطار السياسة النفسية النابعة من الهدف الوطني للدولة، وفي تعاون مع باقي السياسات التخصصية الأخرى (الخارجية، الداخلية، العسكرية، الاقتصادية)، وتوجه إلى الدول الصديقة والمحايدة، وتشن ضد الدول المعادية بهدف التأثير على أفكار وآراء الأفراد بغية تغييرها بما يحقق الأهداف الوطنية للدولة، وتتميز بالشمول والامتداد لأنها توجه إلى جمهور كبير، ويتم التخطيط لها على المدى البعيد، وبالتالي، فإن نتائجها وتأثيرها يحتاج إلى وقت كبير، وهي تستخدم جميع طرق وسائل العمليات النفسية المتاحة على مستوى الدولة².

إن أبرز أساليب الحرب النفسية الاستراتيجية تشويه صورة الخصم أمام أعين الآخرين من خلال بناء تراكمي لاتجاهات الأفراد التي يتفاعلها تنتج رأياً عاماً يقتنع بأفكار المصدر ويتبنّاها، ومن ثم يتشكل اتجاهات أفرادها، ويتشكل رأيه العام. فيتصرف بطريقة تخدم الأغراض النهائية وتحقق الأهداف العليا³.

ولما كانت الحرب النفسية الاستراتيجية تعمل عادة في المدى البعيد فإن تقديراتها ونتائجها تكون بعيدة المدى أيضاً، وهي تعتمد على الإطار العام لسياسة الدولة وعلى الظروف التي تحقق النجاح من عدمه، فالتخطيط الاستراتيجي للحرب النفسية لا بد له أن يراعي نمشيتها مع السياسة العامة للدولة. وتستخدم الحرب النفسية الاستراتيجية الدعاية للحرب الباردة الخدمة الجوانب السياسية والاقتصادية وغيرها للوصول إلى أهدافها، وتصمم عملياتها بصفة عامة لتحقيق أهداف شاملة بعيدة المدى، وتتسق عادة مع الخطط الاستراتيجية العامة للحرب، وهي توجه في الغالب إلى القوات والشعوب والمناطق

¹ الإعلام والدعاية، محمد عبد القادر حاتم، ص 185 وما بعدها، ط 1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1972.

² المرجع في الحرب النفسية، مصطفى الدباغ، ص 48، ط 1، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، 1989.

³ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 13.

بصفة جماعية شاملة¹. وتكون الحرب النفسية في هذه الحالة غير محدودة بزمان او مكان وهدف التأثير على الآراء ووجهات النظر والسلوك في الخارج في سبيل مساعدة الأهداف القومية للدولة².

وفي أغلب الدول الكبرى تقوم الأجهزة الأهلية و الحكومية بدورها في الحرب، والدور الأساسي لهذه الأجهزة هو الاتصال بال جماهير، سواء عن طريق الدعاية بمختلف وسائلها أو عن طريق الاتصال المباشر، ونظرا لتشعب الاتجاهات التي تواجه الحرب النفسية الاستراتيجية، وبالنسبة لارتباطها التام بالأهداف الوطنية للدولة، فإن هذه الخطة تتغير تبعا لتغير أهداف الدولة، وتبعا لتطور الأحداث الدولية التي تؤثر على أهدافها.

ومن أهداف الحرب النفسية الاستراتيجية ما يلي:

- تعضيد خطط الدولة السياسية الخاصة بالحروب وشرح أهدافها وأغراضها.
 - تعضيد العقوبات الاقتصادية التي تفرضها الدولة على العدو، وأي نوع من العقوبات الأخرى غير العدوانية.
 - خفض الروح المعنوية بين العدو وأفراده المدنيين وتقليل كفاءتهم.
 - بث روح الكراهية داخل دولة العدو وبخاصة بين العناصر المضطهدة، أو التي تشعر بالنفور من بعضها، مثل الطوائف الدينية والأقليات العنصرية والأحزاب والجماعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية³.
 - إظهار التأييد الأدبي للعناصر الصديقة في الدولة المعادية.
 - تقديم المعلومة اللازمة لعمليات الدعاية التكتيكية.
- وهناك مجموعة من الظروف التي تسهل نجاح أغراض الحرب النفسية الاستراتيجية، منها الهزائم العسكرية التي يعانيها العدو، والنقص في الطعام والملبس وأماكن الإيواء، ومختلف الحاجات الأخرى

¹ الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص 60.

² الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 104

³ الحرب النفسية والشائعات، المرجع نفسه، ص 61

الضرورة في جبهة العدو والنقص في معداته العسكرية، والتعصب بأشكاله المختلفة لدى العدو، وافتقار الثقة في القادة، ونقص المواد الخام اللازمة لاقتصاديات العدو، وعدم العدالة في إدارة دولة العدو¹. ومع ذلك فهناك قيود في استخدام الحرب النفسية الاستراتيجية منها أنه من الصعبة تقدير نتائج عمليات هذه الحرب نظراً لأنها تمتد عادة لفترة طويلة من الزمن، وبرغم أن نتائجها مؤثرة فإنه كثيراً ما يتعذر لمس هذه النتائج، لعدم توافر المعلومات الكافية لهذا الأمر في معظم الظروف، كما أنه ربما تقابل هذه الإجراءات بإجراءات مضادة في أرض العدو، وربما يلجأ العدو إلى فرض عقوبات مشددة على أفراد العسكريين والمدنيين إذا استمعوا إلى إعلام الخصم أو قرأوا مطبوعاته. و لذلك فلا يتمكن الهدف المخاطب من رؤية أو سماع ما يوجه إليه، وبخاصة إذا كانت تدابير العدو المضادة مؤثرة².

الفرع الثاني: الحرب النفسية التكتيكية

تسمى الحرب النفسية الميدانية، أو الحرب النفسية قصيرة المدى، وتوجه هذه الحرب ضد جيوش العدو ورعاياه بصفة عامة في ميدان القتال، وهي هنا محدودة بمنطقة ميدان القتال، ومحصورة في نطاق الموجودين في هذا المكان، وتستهدف دعوة جنود العدو إلى اليأس والاستسلام³. وهي حرب يسهل فهمها في ضوء فهم طبيعة وأهداف الحرب الاستراتيجية، فإذا كانت الحرب الاستراتيجية هي حرب الشمول والمدى الطويل، فإن الحرب التكتيكية هي حرب الصدام المباشر مع العدو والالتحام به وجها لوجه. ويستخدم في ذلك عمليات التخريب وتقنية المعلومات (الأنترنت)، والمنشورات، ومكبرات الصوت، والإذاعة، والصحف، والكتيبات والمجلات التي تلقى من الطائرات، أو يقوم بتوزيعها الجواسيس والعملاء وعناصر الطابور الخامس.

وتشن الحرب النفسية التكتيكية بواسطة تنظيمات العمليات النفسية الميدانية بإمكانياتها ووسائلها وتعاون كامل مع أجهزة وإمكانات العمليات النفسية الاستراتيجية، والتي تقوم بتنظيمات العمليات النفسية بشنها ضد تشكيلات ووحدات العدو والمدنيين في مسرح الحرب بهدف دعم أعمال قتال القوات الصديقة والحليفة في العمليات العسكرية. وتعتبر العمليات النفسية الميدانية سلاحاً فعالاً وشديداً

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 106.

² المرجع في الحرب النفسية، مصطفى الدباغ، 49.

³ الحرب النفسية، محمد منير حجاب، ص 79. الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، المرجع نفسه، ج 1، ص 106.

التأثير في العمليات العسكرية، وتساهم مساهمة كبيرة مع أعمال القتال وغيرها من أساليب الصراع في تحقيق النصر بسرعة وباقل خسائر في الأرواح والمعدات.

وتهدف العمليات النفسية التكتيكية إلى تحقيق هدف قريب ومحدود، مثل استسلام القوات المقاتلة، لذا فإن العمليات النفسية كما يفهمها أفراد القوات المسلحة أضيق بكثير و أكثر تخصصا مما يعنيه الصحفيون أو السياسيون عند حديثهم عن الحرب النفسية¹.

ولا تقتصر مهمة فرع العمليات النفسية في القوات المسلحة على العمل وقت الحرب، بل تقوم القوات المسلحة بتولي العمليات النفسية التكتيكية في فترة ما قبل الحرب في جميع وسائل الاتصال العالمية، وتستمر مسؤولية القوات المسلحة في توجيه العمليات النفسية في ميدان المعركة حتى بعد إيقاف القتال، وإلى أن تعود الحالة إلى وضعها الطبيعي².

وتوجه العمليات النفسية ضد الجنود لتحقيق نوعين منفصلين من رد الفعل النفسي في عقل جندي العدو، أولهما هدم معنوياته أو كفاءته العسكرية بصفة عامة، وفي هذه الحالة يصل الجندي إلى أن يكون سلبيا غير متحمس لقضية الحرب، ويمكن أن نطلق على هذا اللون من رد الفعل النفسي (العمليات المعنوية)، أما النوع الآخر من العمليات فيهدف إلى تأثير أعنف بأن يؤدي بجندي إلى القيام بعمل واضح يؤثر تأثيرا مباشرا على المعركة، كأن يستسلم أو يترك موقعه أو يقوم بثورة، وهذا النوع من العمل ليس من السهل تحقيقه إلا إذا بني على خطة حكيمة مدروسة أحسن تنفيذها³.

إن العمليات ضد الجنود تحتاج إلى مجهود ضخم تتشابك فيه عوامل مختلفة من عسكرية وسياسية واقتصادية ونفسية، ولكن العامل المؤثر غالبا في مثل تلك العمليات هو الموقف العسكري الذي يجب أن يكون واضحا لدى من يديرون العمليات النفسية، إن تفهم أحاول الجنود من معنوية ومادية هو الركيزة التي يجب أن يبنى عليها رجل الدعاية خطته، وهناك نقطة نفسية هامة يجب ألا تتعرض إليها العمليات النفسية، وهي ولاء الجندي لوطنه إذ قد يؤدي ذلك إلى ازدياد المقاومة. بل يجب الاستفادة

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص107.

² الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص15.

³ الإعلام والعمليات النفسية في ظل الحروب المعاصرة واستراتيجية المواجهة، سامية أبو النصر، ص36.

من هذه النقطة واستغلالها بان يفهم جنود العدو أنهم يقاتلون في سبيل قضية خاسرة لا ناقة لهم فيها ولا جمل. فمثلاً، يمكن أن تعطي الدعاية الجديدة الفرصة لجنود العدو بان يخلصوا أنفسهم من الالتزام بالولاء بتنمية غريزة حب البقاء في نفوسهم وتفهمهم أن الولاء الصحيح يتطلب البقاء، ومن ثم يجب عليهم الاستسلام بدلاً من القتل¹.

ونجد في جيوش معظم الدول الحديثة أن الوحدات المقاتلة يصحبها دائماً وحدات للدعاية. هذه الوحدات تستخدم في أسلوبها طريقة الأحاديث العامة التي ترسل إذاعاتها من مراكز رئاسة الجيوش أو من الوحدات المتنقلة الخفيفة الحركة، وبذلك يمكن التحدث مباشرة إلى جنود العدو، كما أن تذيع من وراء خطوط العدو أو تسقط النشرات وراء الجبهة.

وعلى سبيل المثال، فإن وحدة الدعاية الألمانية هي التي أذاعت على الفرنسيين عام 1940م للأبناء التي أخبرتهم بأن لجنة هدنة فرنسية في طريقها لتوقيع الهدنة مع السلطات الألمانية. لقد كان لهذه الإذاعة تأثير هدام واسع النطاق على الروح المعنوية للجنود الفرنسيين، وناقش الجنود الفرنسيون الأمر على أساس (لماذا ندافع عن الخط اليوم فتعرض إلى الموت إذا كانت الحرب ستنتهي غدا؟) وإذا تحطمت المقاومة².

وشكل آخر من عمل هذه الوحدات يظهر في غزو بولندا في الحرب العالمية الثانية، إذا قامت وحدات الدعاية الألمانية لتشجيع التآخي بين الجنود³.

وثمة صورة ثالثة من أعمال هذه الوحدات يظهر في إسقاط النشرات والصحف وراء خطوط القتال. ومع أن الجيوش تحرم على الجنود الاطلاع على النشرات التي يسقطها العدو وراء خطوط القتال، فإن العدو يحاول أن يتحايل دائماً على وصولها. في الحرب العالمية الأولى، استخدمت القوات الأمريكية وسيلة لجعل الجنود الألمان ينقضون الأوامر ويحتفظون بالنشرات، وكان هذا الكوبون⁴ بمثابة جواز مرور

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 16.

² الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، جيهان رشتي، ص 70، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1985.

³ الحرب النفسية، محمد منير حجاب، ص 80.

⁴ الكوبون: من الكلمة الإنجليزية coupon ومعناها البطاقة أو القسيمة.

على خطوط القتال للجنود الذي يعتزم الاستسلام، وبالإضافة إلى ذلك نشر في هذا الكوبون بيان عن وجبات الغداء التي تصرف للجنود الأمريكيين، ووعد أسرى الحرب بنفس مقادير الغداء. ولما كان الكثير من الجنود الألمان في ذلك الوقت مجاهدين ويقاسون الجوع لقلة الاغذية، فإنهم احتفظوا بهذه الكوبونات واستخدموها¹.

وكانت المنشورات هي السلاح الرئيسي للدعاية في الحرب العالمية الأولى، وكان إلقاء المنشورات يتم في البداية بالطائرات أو البالون أو بقذائف المدفعية. ولكن تم بعد فترة استبعاد الطائرات لتهديد السلطات الألمانية بعدم منح حقوق أسرى الحرب للطيارين الذين تسقط طائراتهم في غارات قذف المنشورات، الأمر الذي جعل الوصول إلى المدنيين في ألمانيا والنمسا عملية صعبة، ولكن كان من السهل الوصول إلى العسكريين في الجينات القتالية بالمنشورات².

وقد تضمنت نسبة كبيرة من المنشورات حث الجنود الألمان على الاستسلام ووعدهم بالمعاملة الجيدة في الأسر، وتم تأكيد أنهم باستسلامهم سيعجلون بإنهاء الحرب وإنشاء جمهورية في ألمانيا، وحثت المنشورات الجنود على رفع السلاح ضد قادتهم. واتهمت المنشورات الضباط الألمان بتخزين قدر كبير من الطعام لأنفسهم وتركهم الجنود يعانون من الجوع والحرمان، وقبل للجنود أن الظروف في غير صالحهم وإن قضيتهم ميؤوس منها، وشرحت المنشورات أيضا الظروف داخل ألمانيا ومعاناة الزوجات و الأطفال والأبرياء، وأوحت إليهما بأن ظروفهم تبرر قيامهم بالثورة والعصيان³.

وقد تم إطلاق أكثر من ألفي بالونة دعائية عام 1918م حملت كل منها ألف نشرة دائرية، وكانت البالونات كل تطلق كل أسبوع، ففي شهر أكتوبر سنة 1918م أسقط ما لا يقل عن خمسة ملايين و360 ألف نشرة دعائية على ألمانيا، ولكن كان تأثير تلك النشرات ضئيلا نسبيا، وكان تأثيرها مرتبطا بالنجاح أو الفشل العسكري، أو تفاقم مشكلة انخفاض المواد الغذائية في ألمانيا⁴.

¹ علم النفس الحربي، عبد الرحمان عيسوي، ص88.

² الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص22.

³ الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، جيهان رشتي، ص72.

⁴ المرجع نفسه، ص73.

ومن أهداف الحرب النفسية التكتيكية ما يلي:

- تثبيط معنويات العدو وكفاءته القتالية.
- تسهيل احتلال مدن العدو عن طريق توزيع الإنذارات والعمليات الخاصة بالاستسلام.
- معاونة عمليات الحرب النفسية الاستراتيجية بالحصول على معلومات أحدث وأكثر تفصيلاً عن نطاق الضعف المحلية في العدو، والتي يمكن أن تدخل ضمن الوضع الاستراتيجي العام.
- تقديم المعلومات والتوجيهات اللازمة للعناصر الصديقة التي تعمل داخل منطقة قتال العدو بما يناسب مهمة الحرب النفسية المحددة¹.
- خلق التدمير بين المقاتلين والتشكيك في القيادة وإضعاف الروح المعنوية للعدو.
- إقناع العدو بزيف القضية التي يحارب من أجلها وتهدف إلى استسلام القوات المقاتلة، والتأكيد على خطورة استمرار القتال أو الاستسلام يوفران الأمن المنشود للمقاتل، وتسهيل احتلال المدن بإعلان بلاغات الاستسلام.
- إحباط وتشيت جهود العدو بنشر الشك ومشاعر السخط والثقة في الهزيمة، ونشري وسائل السيطرة على المدنيين باستخدام الإذاعات و المواد المطبوعة.
- دعم أعمال الخداع من خلال تنفيذ إجراءات الخداع على المستوى الميداني.
- إثارة الرأي العام بوسائل الإعلام المختلفة، ووسائل الاتصال الشخصي.
- مقاومة الدعاية المعادية بالدعاية المضادة النشطة والمؤثرة².

ومن العوامل أو الظروف التي تساعد في نجاح الحرب النفسية التكتيكية الهزائم المتكررة للعدو، والخسائر الفادحة التي يمتد بها، وموقف العدو العسكري المزعزع، ونقص التموينات، ووجود قادة غير مؤهلين أو عديمي الخبرة في قوات العدو، والأخبار السيئة عن جبهة العدو الداخلية، واشتراك وحدات العدو في القتال لزمان طويل، ووجود أقليات عنصرية ترغم على الخدمة العسكرية والقتال في جيش العدو، ووجود بعض القوات غير المدربة أو عديمة الخبرة،

¹ الدعاية أساليبها ومدارسها والحرب النفسية، منال مزاهرة، ص192.

² <http://www.akhawia.net/showthread.php?t=92226>

أو وجود البعض الآخر الذي تقدم في السن، وانتشار الأمراض، والنقص في خدمات العدو الطبية، وعدم إيمان أفراد العدو بجدوى الحرب¹.

وبالرغم من أن المبادئ العامة للحرب النفسية واحدة فإن الوسائل تختلف بين العمليات التكتيكية، والعمليات الاستراتيجية. ففي العمليات التكتيكية تعتمد الجيوش في معظم الأحيان على النشرات، والملصقات، والإذاعات المحلية، ومكبرات الصوت، والشائعات، وحمولات الهمس، بالإضافة إلى عمليات التخريب التي تساعد على تحطيم الروح المعنوية للقوات المقاتلة، أو لرعايا الدولة.

والحرب النفسية التكتيكية، كأى نوع من أنواع الحرب، لها قيود تؤثر عليها، ومن أبرز تلك القيود الإجراءات الأمنية ووسائل الاتصال، حيث يلزم معرفة أحوال من توجه إليهم، فلا يجب مثلاً أن توزع أو تسقط الكتيبات والنشرات على أناس أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، وكذلك لا يصلح أن تستخدم الإذاعة لتوجيه الحرب النفسية في المناطق التي لا يوجد بها أجهزة للراديو، وكذلك من غير المجدي استخدام لغة لا يفهمها جنود العدو، في أى وسيلة من وسائل الحرب النفسية².

الفرع الثالث: الحرب النفسية التعزيزية

يهدف هذا النوع إلى تثبيت دعائم النصر الذي حققته الحرب النفسية والاستراتيجية التعبوية، وتحويل هذا النصر إلى أمر واقع، يأخذ صفة الشرعية والاستمرار. وهي توجه إلى الشعوب في المناطق المحررة، أو المحتلة، مع وجود أهداف لتسهيل العمليات العسكرية، وتشجيع ورفع درجة تعاون المدنيين مع القوات إلى أعلى مستوى ممكن³.

وتوجه هذه الحرب نحو الأهالي في المناطق المحررة أو المختلفة بواسطة العدو، وذلك للحصول على أكبر درجة ممكنة من تعاونهم وتهدف إلى تثبيت دعائم النصر الذي تحقق، وتحويل هذا النصر إلى أمر واقع يأخذ صفة الشرعية والاستمرار. وتلجأ الحرب التعزيزية في المقام الأول إلى تصنيع مزيج من الترهيب والترغيب معاً لإقناع الخصم المنهزم بأن هزيمته نهائية ومؤكدة، وأن مصلحته في حياة

¹ الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص 51.

² الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 108.

³ الدعاية أساليبها ومدارسها والحرب النفسية، منال مزاهرة، ص 193.

أو مستقبل آمين مرتبطة بتسليمه بهذه الهزيمة، ثم بتعاونه مع الجانب المنتصر. كما أنها تستخدم العزير نتائج عمليات الحرب النفسية التي سبقت الاحتلال، ويستخدم في ذلك محطات الإذاعة والصحف ومكبرات الصوت والمطبوعات المختلفة، وسلع الاتصال والتواصل العصرية الأخرى¹.

والحرب النفسية التعزيزية تستخدم لمساعدة وسائل أخرى يخشى أنها لا تحقق الهدف، حيث تتجه الدولة إلى تعزيزها بالحرب النفسية لتقوية تلك الوسائل أو الأساليب، وهي تثير الخوف والكرهية ضد العدو لاستدرا عطف الأصدقاء والحلفاء ثم لإطلاق شعور التوتر العاطفي الذي يعتبر نتاجاً من نتائج الحرب، حيث أن التوتر يخلق نوعاً من الغضب العام الذي يتفجر في أي وقت، وتحويل وهذا الغضب إلى كراهية للعدو وقادته.

ومن أهداف الحرب النفسية التعزيزية ما يلي:

- معاونة العمليات العسكرية، فهي تساهم في المساعدة على حماية خطوط المواصلات الواقعة في المناطق المحتلة، وبذلك تتفرغ القوات المقاتلة لواجباتها العادية.
- معاونة الحكومة العسكرية أو الإدارة المدنية في استتباب القانون والنظام في الأقاليم المحتلة أو المحررة.
- جعل المدنيين يتعاونون تعاوناً مجدياً.
- مقاومة الشائعات والبلاغات الكاذبة.
- تساعد في إعداد الشعب المحتل لعمليات إعادة البناء والتعمير فيما بعد الحرب.
- تساعد في إخماد أي أثر للحركات العسكرية المعادية، وفي عقد صلات وعلاقات مصادقة للدولة².

ومن أساليب الحرب النفسية التعزيزية:

- المساهمة في قطاع الخدمات للسكان.
- إصدار التعليمات لحفظ الأمن والاستقرار.
- نشر الحقائق امنه انتشار الشائعات.
- الترويج لأعمال مستقبلية تنعكس على رفاه المدنيين دعماً لعمليات إعادة الاستعمار.

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 19.

² الحرب النفسية والشائعات، معتر سيد عبد الله، ص 52.

- الترهيب والترغيب لإقناع الخصم المنهزم بأن هزيمته نهائية وأن مصلحته في حياة ومستقبل آمنين مرتبطة بتسليمه بهذه الهزيمة ثم في تعاونه مع الجانب المنتصر¹.

وقد استخدم المهتمون بالحرب النفسية التعزيزية أسلوب زيادة التأكيد والتعزيز، وذلك لتصديق المادة التي يقدمونها، ومن ذلك كسب الثقة في المصدر، والإشارة إلى المصدر، ووصفه بالمسؤولية، مما يعزز ويزيد قابلية القبول والتصديق، حيث أن التعزيز هو التدعيم والتثبيت الحالة عن طريق عملية إضافة عناصر جديدة من أجل إنجاز وتحقيق الأهداف فهو مشاركة في القوة لتنظيم معين استجابة لضغوط معينة، من خلال معرفة عناصر جديدة يلزم إضافتها لذلك التعزيز.

ومن أهم العوامل أو الظروف التي تسهل نجاح هذه الحرب أن الشعور بالنقص لدى الشعب المنهزم يقلل من مقاومته لما يتلقاه، وكذلك فإن النهاية الحتمية للحرب تترأى أيضا أن المدنيين اعتادوا على استقاء الأخبار من الوسائط المألوفة لديهم، كالصحف اليومية و الأسبوعية ومحطات الإذاعة والتلفزيون المحلية... إلخ، وكلما سارعت هذه الوسائط إلى معاودة نشاطها وممارسة أعمالها كلما كانت الدعاية التعزيزية ناجحة.

وفي مقابل ذلك نوجد بعض القيود التي ربما تعرقل نجاح الحرب النفسية التعزيزية منها أن تسهيلات الاتصال في المناطق المحتلة تتعرض للتخريب والتدمير، وبذلك يتعطل تأثير الحرب النفسية، وربما يتعذر كذلك الحصول على النتائج المرجوة بسبب نقص المواد اللازمة للعمل. كما أن الحرب النفسية تتعرض أحيانا للتعصب، وللأعمال العدوانية التي تحدث في المناطق المحتلة².

الفرع الرابع: الحرب النفسية الدفاعية

الحرب النفسية الدفاعية هي ما تقوم به الجهة المتصدية الحرب النفسية التي تشن عليها من أعدائها، في محاولة لتعطيلها أو الحد من آثارها على جبهتها الداخلية بعوامل وأساليب مختلفة. ويجب أن تقوم هذه الحرب على أسلوب فني صحيح حتى تنجح في مواجهة عمليات العدو التي تهدف إلى محاولة التفرقة وتزييف الأمور بقصد بث الانهزامية وإضعاف المعنويات، فتوجه الحرب النفسية جهودها

¹ الدعاية أساليبها ومدارسها والحرب النفسية، منال مزاهرة، ص 193.

² الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، جيهان رشتي، ص 74.

وعملياتها ضد الأعداء وضد جنودهم لتحطيم معنوياتهم، مستهدفة في ذلك عقل جندي العدو للاستسلام أو جعله ينهج سلوكا سلبيا. هذا بالإضافة إلى تهيج جماعات العدو ضد بعضها البعض، والعمل على تشييط معنوياتهم وإخماد همّة وعزم جنودهم وقادتهم¹.

ولكن لكي تكون الحرب النفسية الدفاعية قوية فإنه لا بد أن تكون عمليات تحطيم معنويات العدو ذات فاعلية، كذلك يجب استغلال بعض النقاط الضعيفة في تنظيم العدو لتحطيم المعنويات، كاستغلال موقف الهزيمة، مثلا، ويكون المجال مهيئا لانتشار الشائعات على نطاق واسع، واستخدام قوة تأثير العمليات الدعائية ضد المعنويات، والذي عادة ما يكون كبيرا وذا أثر بالغ في العسكريين، مع ربط ذلك بالموقف الاستراتيجي الذي كان عليه العدو².

كما يجب اليقظة والمعرفة التامة بأن الدفاع ضد الحرب النفسية يتطلب معرفة ماذا يريد العدو؟ وما هدفه في حربه النفسية؟ وما أسلوب حرب العدو النفسية؟ حيث أن المعرفة بتلك الأمور وإدراكها عقبات في وجه العدو وتجعله لا يستطيع أن يخدع أو يُضلّل، هذا بالإضافة إلى عدم الثقة بالعدو بأي حال من الأحوال، وذلك بعد بث الوعي بعدم تصديقها، وعدم الثقة بالعدو والعمل على الوحدة وجمع الشمل، وعدم كشف الأسرار للأعداء³.

الفرع الخامس: الحرب النفسية الهجومية

الحرب النفسية الهجومية هي مفاجأة العدو بغارات نفسية مباغتة لتحطيم معنوياته، وبث الرعب بين صفوفه، والسعي للحصول على الأسرار والمعلومات و الوثائق العسكرية الهامة وكشفها لإرباك القيادات المعادية، وقد لا تختلف الهجومية عن المعارك العسكرية من حيث ما تستعين به من خطة عامة للعمل، فالحرب النفسية قد تهاجم وقد تدافع وقد تنسحب من جهة لتشن في جهة أخرى، حيث أنها تتسم بما تتسم به المعارك العسكرية من مرونة، فقد يكون دفاعها من قليل التعزيز، كما قد يكون هجومها هجوما

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص20.

² علم النفس الحربي، عبد الرحمن عيسوي، ص93.

³ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، المرجع نفسه، ص21.

مباشراً بهدف إكساب العدو لآراء مقصودة معينة، فالحرب النفسية الهجومية تعني مفاجأة العدو بأمور مباغتة تخيفه وتربكه من حيث لا يتوقع، وهي تهدف إلى القضاء على المقاومة وروح القتال بالفكر وغرس الاقتناع بالهزيمة بالوسائل والأساليب المناسبة.

و يصعب فصل تأثير الحرب النفسية عن تأثير صدمة النار، حيث أن كلا منهما يدعم الآخر دعماً تبادلياً متفاعلاً، ولذلك فإن الحرب النفسية الهجومية يصعب ممارستها في حالة ما إذا كان الخصم في حالة معنوية مرتفعة، أو كان يوشك على القيام بعملية هجومية، حيث أن تأثير كل من صدمة النار، والقتال المتفوق هما اللذان يخلقان المناخ الملائم لدور الحرب النفسية في استثمار التفوق القتالي وزعزعة روح القتال عند الخصم ودفعه تدريجياً إلى إلقاء السلاح أو الهزيمة.

الفرع السادس: الحرب النفسية الأيديولوجية

الأيديولوجية هي نسق من المعتقدات والمفاهيم، أو هي نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما، وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية.

والحرب النفسية الأيديولوجية تتمثل في الصراعات المتبادلة بين أيديولوجية وغيرها مما يوجد نوعاً من الجدل بين وجهات نظرة متعارضة تتضمن الدفاع عن هذه وهدم تلك.

والحرب النفسية الأيديولوجية هي ذلك العمل الموجه ضد العدو إلى معنوياته وتماسكه وعزيمته في خدمة أيديولوجية معينة، بما يمكن أن نطلق عليه الصراع الأيديولوجي، أو حرب المعتقدات، فالكذب والافتراء والخداع والابتزاز والوعيد والتهديد كلها أساليب لبذر الشك في الأيديولوجية أو المعتقد الذي يعتنقه شعب ما.

المبحث الثالث: أسلحة الحرب النفسية

المطلب الأول: الشائعات

الفرع الأول: تعريف الشائعات والتمييز بينها وبين المفاهيم الأخرى

البند الأول: تعريف الشائعات

قبل أن نُميّز بين الشائعات والمفاهيم الأخرى، كالأخبار والبيانات والدعاية، يجب أن نعرف الشائعات، وتعريفها يتطلب في البداية أن نعرفها عند أهل اللغة، ثم بعد ذلك في الاصطلاح.

أولاً: تعريف الشائعات في اللغة

جاء في لسان العرب تحت مادة (شيع) ما يلي:

شاع الشيب شيعاً وشيعاناً وشيوعاً وشيعوعة ومشيعاً: ظهر وفرق وشاع فيه الشيب. وشاع الخبر في الناس يشيع شيعاً، ومشاعاً وشيعوعة، فهو شائع: انتشر وافترق، وذاع وظهر، وأشاع هو، وأشاع ذكر الشيء: أظاره وأظهره، وقولهم: هذا خبر شائع قد شاع في الناس، معناه: قد اتصل بكل أحد فاستوى علم الناس به، ولم يكن علمه عند بعضهم دون بعض. والشائعة هي الأخبار المنتشرة¹.

وجاء في مختار الصحاح تحت مادة (شيع): شاع الخبر يشيع وأشاع الخبر أذاعه²، وفي المعجم الوسيط جاءت الإشاعة بمعنى الخبر ينتشر، ونشره دون تثبت منه، والشائع: المنتشر، والشائعة: الخبر ينشر ولا تثبت فيه والشاع: الشائعة، وشاع الشيء شيوعاً وشيعاناً ومشاعاً: ظهر وانتشر. ويقال شاع بالشيء: أذاعه، وأشاع الشيء، وبه: أظهره ونشره. والمشياع مبالغة في الشيوع³. ويقال: أشاع بالشيء: أذاعه⁴. وشاع اللبن في الماء: إذا تفرق وامتزج به، ومنه قيل: سهم شائع، كأنه ممتزج لعدم تميزه⁵.

¹ لسان العرب، ابن منظور، ج5، ص249، ط1، دار الحديث، القاهرة، 2003.

² مختار الصحاح، محمد الرازي، ص350، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

³ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ت: مجمع اللغة العربية، ج1، ص504.

⁴ المعجم الوجيز، مادة شاع، ص357، ط1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1992.

⁵ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الفيومي، ج1، ص329، ط1، دار المكتبة العلمية، بيروت، دت.

فالإشاعة والشائعة والشاعة كلها تحمل نفس المعنى، ألا وهو نشر المعلومات¹. فالشائعات جمع شائعة، وتطلق على الأفكار والأخبار المنتشرة، النافعة والضارة، وتكون المواجهة للضارة.

ثانياً: التعريف الاصطلاحي للشائعات

بما أن الشائعات مناط مواجهة من جميع أفراد وهيئات ومؤسسات المجتمع، لذلك جرت محاولات عديدة من رجال الدين، والقانون، والقضاء، وعلماء النفس للوصول إلى تعريف جامع مانع للشائعات. فقال البعض إن الشائعات في الأعم الأغلب هي: (التأثير السلبي في النفوس، والعمل على نشر الاضطراب، وعدم الثقة في قلوب الأفراد والجماعات)².

وإن كانت تلك محاولة لتعريف الشائعات إلا أنها ركزت على أثر الشائعات، فيذكر في بداية التعريف التأثير السلبي في النفوس، وهو أثر للشائعة، ثم يكمل بأن الشائعات تعمل على نشر الاضطراب، ثم يختم بأن الإشاعة تؤدي على عدم الثقة، وهو أيضاً من أثر الشائعات. ولم يبين لنا التعريف حقيقة الشائعات، ولم يذكر الأساليب التي تنشر بها ومتى تنشر؟ وأين؟.

وأيضاً قد ينطبق هذا التعريف على الدعاية، فهي أيضاً لها تأثير سلبي في النفوس وتعمل على نشر الاضطراب، وعدم الثقة في قلوب الأفراد والجماعات.

وذهب تعريف آخر بأنها: (رواية الوقائع بحيث ترتفع إلى السامع على أنها مما يردده الناس، سواء تعلقت بالماضي أو الحاضر أو المستقبل، فهي بدورها نوع من الأخبار، ولكن يغلب عليها أنها مختلقة)³. ويستفاد من هذا التعريف أن الشائعات قد تحمل في طياتها شيئاً من الحقيقة، وأيضاً قد تكون شيئاً مختلفاً، لا أساس له من الصحة. وأوضح أن الشائعات قد تتعلق بالماضي أو بالحاضر أو بالمستقبل. ولكن يعاب على هذا التعريف أنه قصر نشر الشائعات على الرواية فقط، فيمكن للشائعات أن تنتشر

¹ الإشاعات في عصر المعلومات، إبراهيم أبو عقرب، ص78، ندوة الشائعات في عصر المعلومات، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، ط1، الرياض، 2003.

² الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام، محمد سيد طنطاوي، ص8، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2001.

³ الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، عبد المهيم بكر، ص221، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1970.

عن طريق الصحف أو أجهزة الإعلام أو الأنترنت أو عن طريق الرسم أو غير ذلك وعرفها البعض بأنها: (رواية وقائع وترديدها، بحيث ترتفع إلى الناس على أنها حدثت، وهي لا حقيقة لها، وقد يصف مشيع الخبر بأنه متردد على الألسنة، ليؤكد مضمونها، وهو مع ذلك مختلق لا صحة له)¹.

ويوضح هذا التعريف أن الشائعات: رواية وقائع وترديدها، ويبين أيضا أنها لا حقيقة لها، أي أنها مختلقة، وذكر أن ناشر الشائعة قد يستدل بما يردده الأفراد، لتنتشر الشائعة.

ولكن يعاب على هذا التعريف أنه اقتصر على الرواية كأسلوب لنشر الشائعات، في حين أنها يمكن أن تنتشر بأساليب أخرى. كما يعاب على هذا التعريف أنه قرر أن الشائعات مختلقة لا حقيقة فيها، لأن الشائعات قد تشمل على جزء من الحقيقة، وقد تكون مختلقة لا حقيقة فيها.

وهناك تعريف للشائعات يقول إنها: (أخبار مشكوك في صحتها، ويتعذر التحقق من أصلها، وتتعلق بموضوعات لها أهميتها لدى الموجهة إليهم، ويأدي تصديقهم أو نشرهم لها إلى إضعاف روحهم المعنوية)².

يبين هذا التعريف أن الشائعات أخبار مشكوك في صحتها، ويتعذر التحقق من أصلها، ويبين أنها تتعلق بموضوعات لها أهميتها لدى الموجهة إليهم، وهذا يؤكد أن للشائعات جمهورا يتعلق ويتأثر بها، ويساعد في ترويجها، ثم ختم بأن الشائعات لها تأثير في إضعاف الروح المعنوية. ولكن يعاب على هذا التعريف أنه لم يذكر الأساليب التي تنشر بها الشائعات.

وهناك تعريفات كثيرة من علماء النفس، أذكر منها تعريف جوردون أولبورت وليو بوستمان اللذين عرفا الشائعات بأنها: (كل قضية أو عبارة نوعية أو موضوعية مقدمة للتصديق، تتناقل من شخص إلى شخص عادة بالكلمة المنطوقة، وذلك دون أن تكون هناك معايير أكيدة للصدق)³.

¹ الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج، محمود إبراهيم إسماعيل، ص 184، ط 1، مطبعة كوستانتوناس، القاهرة، 1953.

² النظرية الإسلامية في الحرب النفسية، محمد جمال الدين محفوظ، ص 20، ط 1، دار السلام، القاهرة، دت.

³ سيكولوجية الإشاعة، أولبورت وليو بوستمان، تر: صلاح مخيمر وعبد مبخائيل، ص 15، ط 1، دار المعارف، القاهرة، دت.

البند الثاني: علاقة الشائعات بالمفاهيم المشابهة لها

لابد من التمييز بين الشائعات والمفاهيم الأخرى، كالأخبار والبيانات والدعاية المثيرة حتى لا تختلط المفاهيم، وسأوضح ذلك في الفروع الآتية:

أولاً: الشائعات والأخبار

الأخبار هي: المعلومات التي تتعلق بحادث معين، وتعتمد أو تبدو أنها معتمدة على الواقع المادي، فلا يدخل فيها التنبؤات، لأنها تصورات لا تقوم على عناصر موضوعية أو وقائع مادية، وإنما تقوم على تأمل نفسياني، أو هي وليدة ذهن من تنبأ بها، ولا أساس لها من الواقع المادي¹.

ويقول البعض: إن الأخبار الكاذبة هي التي لا أصل لها أو التي طرأ عليها التحريف، فإذا كان الخبر قد اختلق واقعه من الوقائع أو شوه هذه الواقعة كلها أو جزءاً منها فيعتبر خبراً كاذباً، وكذلك إسناد واقعه أو أقوال إلى شخص دون أن تصدر عنه².

مما سبق يتبين أنّ الأخبار قد تكون صحيحة، وقد تكون كاذبة، فإذا كانت الأخبار صحيحة ولم يكن قائلها يريد إثارة المشاعر، فإن هذا الخبر الصحيح يكون غير معاقب على إذاعته، وقد يكون الخبر صحيحاً ويتناوله من يذيعه، بتعليق يمسّحه أو يشوّهه بما يغير من طبيعته، فيعد جانياً، وذلك لأنه أذاع كذباً يؤاخذ عليه، لا بإرادة الخبر الصحيح ولكن لما علق به عليه³، فقد يكون سرد الأخبار نقطة انطلاق للشائعات، وذلك إذا ابتعد راوي الخبر عن الصيغة التي جاء بها الخبر.

وإذا كان هناك أوجه شبه بين الأخبار والشائعات من حيث إنّ الشائعات قد تنطلق من الجرائد وأجهزة الإعلام كالأخبار، وأن الشائعات والأخبار قد تشترك في وسيلة النشر، وأيضاً قد يكون في الشائعات قدر من الصحة كالأخبار.

¹ الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، عبد المهيم بكر، ص 220.

² الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج، محمود إبراهيم إسماعيل، ص 184.

³ المرجع نفسه، ص 186.

إلا أن الأخبار تختلف عن الشائعات في أنّ الخبر يكون معروفاً -على وجه اليقين- مصدره، ويمكن تأكيده والتحقق من صحته، وأنّ الخبر ينتقل بوسائل متعددة بعكس الشائعات التي تعتمد اعتماداً كبيراً على أسلوب الهمس والسرية والغموض، وأنّ الخبر غالباً ما يكون محايداً لا يرمي أكثر من معناه، ولا يحمل أكثر من محتواه ما لم يكن مقصوداً منه غير ذلك، أمّا الشائعة فهي ترمي إلى هدف خبيث خاصة في زمن الحرب، ومن الصعب إيجاد البرهان القاطع على الشائعة بعكس الخبر¹.

ثانياً: الشائعات والبيانات

البيانات هي: المعلومات التي تروى عن أمر عرف الناس وقوعه إجمالاً، فيتناول البيان تفصيلات عنه، كالبيانات التي تنتشر عن سير الحرب البرية أو البحرية أو الجوية أو البيانات التي تتعلق بعجز محصول من المحاصيل الرئيسة في البلاد². والواقع أنّ البيانات تعد من قبيل الأخبار لأن تفاصيل الأحداث في ذاتها معلومات جديدة تستند على الواقع⁽³⁾.

وقد تكون البيانات بداية للشائعات، وذلك إذا فقد الجمهور الثقة في قائلها، فتتناول باستهزاء وسخرية وتشويه، وذلك لأن ثقة الناس بمن يقول البيان تجعلهم يقتنعون ويصدقون، أمّا إذا فقدت الثقة تلقت الألسنة البيانات بالكذب، فتصبح أرضاً خصبة للشائعات، ولذلك فلا بد من بناء جسور الثقة بين أفراد الدولة والحكومة.

وإن تشابهت البيانات والشائعات في وسيلة النشر، فالشائعة قد تنطلق من وسائل الإعلام كالبيانات، وقد تكون البيانات صادقة أو كاذبة كالشائعات، وقد تأتي البيانات لتوضيح موقف غامض أو حدث معين كالشائعات، إلا أن البيانات في الغالب تكون أكثر صدقاً من الشائعات.

والبيانات تختلف عن الشائعات في أن البيانات معلومة المصدر، فعندما يلقي وزير بياناً يتوفر لدينا العلم بمن ألقى البيان، على عكس الشائعات التي تتناقل بين الأفراد دون أن نعرف المصدر الأساسي

¹ الحرب النفسية وأثرها في السلم والحرب، عمرو يوسف، ص 78، ط 1، مكتبة معروف، الإسكندرية، د.ت.

² الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج، محمود إبراهيم إسماعيل، ص 184.

³ الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، عبد المهيم بكر، ص 221.

لترويجها، وأيضا تختلف البيانات عن الشائعات في أنّ البيانات تتعلق بحادث أو موضوع عرفه الناس، إلا أنه يحيطه الغموض، فتأتي البيانات لتوضيح هذا الغموض، أمّا الشائعات قد تتعلق بالماضي أو الحاضر أو المستقبل.

ثالثا: الشائعات والدعاية

كان أول استعمال لكلمة الدعاية في القرن التاسع عشر، لنشر العقائد المسيحية، ثم أطلقت بعد ذلك على كل جمعية سياسية تتكفل بنشر مبادئ الحزب السياسي الذي تتبعه والدعاية له¹، إلا أنّ هذا اللفظ قد ارتبط في أذهان الناس بالكذب وتشويه الحقائق ضد الفريق الآخر، وينشر الأكاذيب والأضاليل، لتحطيم معنوياته².

لذلك عرفت الدعاية بأنها: حملة منظمة، لإثارة الشعور بالضيق والخوف بين الناس، حتى يتطرق الوهن إلى تصميمهم على تحمّل تضحيات الحرب، أو يدب في نفوسهم اليأس من القدرة على مقاومة العدو، فيبقى بهم المر إلى إعلان السخط والتذمر في وجه الحكومة، أو إلى الاستكانة والتخاذل أمام العدو³.

وعرفها البعض بأنها: (محاولة التأثير في الأفراد والجماهير والسيطرة على سلوكهم لأغراض مشكوك فيها، وذلك في مجتمع معين وزمان معين وبهدف معين)⁴. والدعاية في ذاتها أنواع وألوان منها:⁵

1-الدعاية البيضاء: هي الدعاية المكشوفة غير المستورة، وهي عبارة عن النشاط العلني من أجل هدف معين، كما يكون ذلك في الصحف والإذاعة ووسائل الاتصال بالجماهير.

¹ الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج ، محمود إبراهيم إسماعيل، ص187.

² علم النفس الاجتماعي، محمد أبو العلا، ص45، ط1، مكتبة عين الشمس، القاهرة، د.ت.

³ الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، عبد المهيم بكر، ص 223.

⁴ الإعلام والدعاية، عبد اللطيف حمزة، ص 130، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.

⁵ المرجع نفسه، ص 132.

2-الدعاية السوداء: هي الدعاية المستورة، وتقوم عادة على نشاط المخابرات السرية، ولا تكشف الدعاية السوداء مطلقاً عن مصادرها الحقيقية، ولكن تنمو وتتوالى بطريقة سرية، وذلك في داخل أرض العدو، أو على مقربة منها.

3-الدعاية الرمادية: هي دعاية لا تخشى من أن يقف الناس على مصادرها الحقيقية، ولكنها تختفي وراء هدف من الأهداف.

والأصل في الدعاية أن تكون بطريقة منظمة، وأن يكون لها قدر من الاستمرار، وذلك لأن الدعاية برنامج يؤدب القائمون بها على تنفيذه، وهم يوالون نشاطهم فلا يتركون للجمهور الفرصة أو التقدير، بل يسعون لبث دعايتهم عند كل من يصادفونه، وفي كل مكان استطاعوا أن ينفذوا بنشاطهم إليه¹. والدعاية تخاطب الجوانب النفسية للجماهير في موضوعات تهمهم وتؤثر عليهم، وتعمل على تغيير الآراء والسلوك².

ويقول البعض: إنّ الإشاعات في حقيقتها ليست إلّا فنا من فنون الدعاية، وإحدى مقوماتها الرئيسة³. وقال آخر: بأن الشائعات وسيلة مؤثرة من وسائل الدعاية⁴.

ومن أوجه الشبه بين الدعاية والشائعات: أنهما قد يشتركان في وسيلة النشر، فقد تنتشر الدعاية: شفهيًا، بالكتابة، بالمقالات، بالخطب، بأجهزة الإعلام، وغير ذلك من الوسائل التي تستخدم في نقل العبارات والأفكار كالشائعات.

والدعاية لها تأثير في النفوس كالشائعات، وكذلك أيضا الدعاية تخاطب أشخاصا لديهم قابلية للتصديق كالشائعات، والدعاية قد تكون صادقة أو مختلفة، وكذلك الشائعات.

¹ الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج، محمود إبراهيم إسماعيل، ص 187.

² الآثار الاجتماعية للحرب النفسية والشائعات، غريب محمد سيد أحمد، ص 215، أبحاث الحلقة العلمية السابعة، الإشاعة والحرب النفسية، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1410هـ-1973م.

³ الراديو والتلفزيون في الحرب النفسية، كرم شلي، ص 51، ط1، دار الهلال، القاهرة، 2008م.

⁴ الرأي العام تأثره بالإعلام والدعاية، محمد عبد القادر حاتم، ص 500، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.

إلا أن الشائعات تختلف عن الدعاية في أنّ الشائعات قد يكون مروجها حسن النية على عكس القائمين على الدعاية، والدعاية تكون بحملة منظمة على عكس الشائعات التي قد يقوم بترويجها شخصان أو أكثر دون أي تنظيم أو تخطيط.¹

الفرع الثاني: أهداف الشائعات

يمكن تلخيص أهداف الشائعات فيما يلي:

البند الأول: إضعاف الروح المعنوية للعدو²:

المثال على ذلك كان واضحاً في غزوة (أحد) حيث أشاع المشركين أن الرسول ﷺ قد قتل، فكان لهذه الإشاعة أثرها على بعض الصحابة، إذ أصابهم الذهول الذي أقعدهم عن القتال وعمتهم الفوضى، وانهارت روحهم المعنوية، وألقى بعضهم بأسلحتهم مستكيناً من قوة هول الإشاعة حتى مر بهؤلاء أنس بن النضر رضي الله عنه وقد ألقوا بأيديهم فسألهم عن سبب قعودهم عن القتال فقالوا إن رسول الله ﷺ قد قتل فقال: ما تصنعون بالحياة من بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم مضى فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.³

وهذا يدل على عظم هذا الهدف بل يعتبر من الأهداف الرئيسية للإشاعة، خاصة أثناء الحرب.

البند الثاني: التخذيل والتقليل من حماس جنود العدو للدفاع عن هدفهم⁴:

من أمثلة ذلك ما فعله المنافقون وضعاف الإيمان في غزوة (الأحزاب) عندما اشتد الكرب على المسلمين، وهم محاصرون بالمشركين المحيطين بالخنديق الذي حفره ﷺ بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه، فكان المنافقون يجرضون أهل المدينة على ترك الصفوف والعودة إلى بيوتهم بحجة أن أقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا لا موضع لها ولا فائدة منها، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم، وهي دعوة خبيثة تأتي

¹ الرأي العام تأثره بالإعلام والدعاية، محمد عبد القادر حاتم، ص 500.

² دور المؤسسات التربوية في مكافحة الإشاعات، فهمي مقبل، ص 18، ندوة علمية حول الإشاعة والحرب النفسية، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1410هـ.

³ السيرة النبوية، ابن هشام، ج 3، ص 83.

⁴ دور المؤسسات التربوية في مكافحة الإشاعات، المرجع نفسه، ص 18.

النفوس من الثغرة الضيقة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذري، والخطر محقق والهول جامع والظنون لا تثبت ولا تستقر. وقد أنزل الله آية تكشف هذا الموقف من مواقف المنافقين المثبتين والمخذلين، في قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا" ¹.

البند الثالث: تحطيم الجبهة الداخلية للعدو في جانبها: العسكري، والمدني، وتشكيك العدو بتماسك جبهته الداخلية وسلامتها ²:

ذلك في محاولة لتفريق صفوفه، وخصوصا إذا كان العدو أكثر استعدادا وتأهيلا:

وقد تحقق هذا الهدف في الإشاعة التي أطلقها نعيم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه بين قادة جيوش الأحزاب في غزوة الخندق عندما أشاع بينهم أن يهودي بني قريظة يطالبون رهائن من قريش وغطفان، ومن خيرة رجالهم، يحتفظون بهم لديهم مقابل التزام بني قريظة بالعهد الذي بينهم لمحاربة المسلمين في المدينة، وعدم مغادرة جيوش الأحزاب المدينة، وعدم فك الحصار عنها، كي لا يقع يهود بني قريظة في أيدي المسلمين. وقد أسهمت هذه الإشاعة في تحقيق النصر للمسلمين، وتحطيم الجبهة الداخلية للعدو، وتشكيك العدو بتماسك جبهته الداخلية وسلامتها.

البند الرابع: زعزعة ثقة العدو في قوته من حيث الرجال والعتاد، وعدم الثقة في إحراز النصر ³:

من أمثلة هذه الإشاعات ما كان ينشر بين الأعداء عن خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث كانت أخباره عنهم مصدر رعب لهم وسببا رئيسيا في اخيار معنوياتهم، في آن "جرعة" رسول الروم إلى خالد بن الوليد في معركة اليرموك سأل خالد عن إنزال الله سيفا من السماء، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطاه لخالد فلا يشهده على قوم إلا هزمهم ⁴.

¹ سورة الأحزاب، الآية 13.

² علم النفس الاجتماعي، حامد زهران، ص 402، ط 4، عالم الكتب، القاهرة، 1977.

³ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، محمد جمال الدين محفوظ، ص 122، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976.

⁴ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 2، ص 283، دار الفكر، بيروت، 1398هـ.

ومن الإشاعات التي من هذا القبيل ما كان ينشر أمام جيوش جنكيزخان القائد المغولي الذي كان يستأجر أشخاصا ويطلب من تجار القوافل أن يشعوا أمامه بأن جنده يأكلون لحوم الحيوانات المفترسة، كي ييث الرعب والخوف في قلوب الأعداء.

البند الخامس: بث الشقاق والفتنة والاختلاف بين صفوف العدو حتى تزول الثقة بين أفرادها:

يعد هذا الهدف من الأهداف الأساسية للإشاعة، وقد حققت خطة نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الخندق هذا الهدف كاملاً عندما أتى رسول الله ﷺ فأسلم، وقال: إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمربي بما شئت يا رسول الله. فقال رسول الله: ((إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَحَدِّثْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ))¹، ثم تردد إلى قادة جيوش الأحزاب من زعماء قريش وخطفان وبني قريظة، وشككهم ببعضهم فاختلقت صفوفهم واتهم كل منهم الآخر ولم تعد له ثقة به.

البند السادس: التمويه والتعمية على الأعداء، كستار من الدخان لإخفاء حقيقة ما:

من الأمثلة على ذلك ما كان من الحجاج بن علاط السلمي الذي أسلم قبيل فتح خيبر، وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ. وكان الحجاج ذا مال كثير، ولم تكن زوجته تعلم بإسلامه، فأراد أن يأخذ ماله منها، وكانت ما تزال على الكفر، قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالا عند صاحبتني - له منها معرض بن حجاج ومال متفرق في تجار أهل مكة - فأذن لي يا رسول الله، فأذن له، قال: إنه لا بد لي يا رسول الله في أن أقول، "قل" فلما قدم مكة وجد رجلاً من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر، قال الحجاج قد بلغني ذلك وعندي ما يسركم، فقد هزم هزيمة لم يسمعوا بمثلاً قط، وقتل أصحابه وأسر محمد، وأنه جاء ليجمع أمواله ليخرج فيشتري من غنائم محمد وأصحابه، ففشا ذلك بمكة واشتد حزن المسلمين، وأظهر المشركين فرحاً وسروراً.

وإنما أشاع الحجاج هذا الخبر في مكة ليتمكن من الوصول إلى جمع أمواله ويخرج بها من مكة، وقد أخبر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بذلك وطلب منه الكتمان مدة ثلاثة أيام، وبعد ذللك علم المشركون بأن ما أشاعه الحجاج إنما كان ستاراً وتمويهاً وقد تحقق له ذلك².

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص207.

² المرجع نفسه، ج3، ص318-319.

البند السابع: كشف الحقيقة وإظهارها من الجانب الآخر

وذلك بأن يطلق جزءاً من الحقيقة ويخفي مصدر الإشاعة الجزء الآخر. ثم ينتظر ردود الفعل في هذا العالم الذي أصبحت فيه عملية الاتصال والإعلام أساسية، فإن الطرف الآخر يجد نفسه مضطراً إلى الإعلان عن الحقيقة، وهكذا يصل العدو إلى تلك الحقيقة التي يجهلها.

ومن الأمثلة على هذا الاستخدام ما حصل في الحرب العالمية الثانية، فبعد الهجوم الياباني على ميناء (بيرل هاربر) لم يكن الجيش الياباني على علم بحقيقة الخسائر التي أصابت الجيش الأمريكي، لذلك عمد اليابانيون إلى إطلاق إشاعات عن حقيقة الخسائر الأمريكية، مبالغ فيها، وساعد على ذلك على ضخامة الصدمة وقوة المفاجأة، وقد اضطرت الحكومة الأمريكية لإعادة الثقة في المجتمع الأمريكي بنشر حقيقة الخسائر وتفصيلاتها وهو الأمر الذي كانت القيادة اليابانية في حاجة إلى العلم به.

البند الثامن: تحطيم الثقة في المصادر الإعلامية للعدو

مثال ذلك: ما قام به الألمان من نشر تقارير تويحي بأن الانجليز قد نجحوا في إحدى محاولاتهم لتدمير محطة السكك الحديدية في برلين، وأكدوا ذلك بسبيل من البطاقات التي خرجت من ألمانيا إلى أصدقاء لبعض أفراد من المجتمع الألماني في سويسرا وإسبانيا، أي في البلاد المحادية مؤكدة الواقعة، وعندما وصلت الإشاعة المتعلقة بتدمير محطة السكك الحديدية الألمانية إلى بريطانيا وتأكدت هذه الإشاعة من جهات متعددة بفضل تلك البطاقات، أصدرت محطة الإذاعة البريطانية نبأ تحطيم المحطة، معلقة عليها بالكثير من التفاصيل، وعقب فترة من الصمت الذي جعل محطة الإذاعة البريطانية تتردد في تأكيد الخبر وتنشر فحواه، خرجت وزارة الدعاية الألمانية على العالم برد فعل يكشف عن مدى براعتها في التخطيط بقصد القضاء على هيئة محطة الإذاعة البريطانية، ودعت بعض الصحفيين والمراسلين الأمريكيين إلى المحطة المذكورة ليشاهدوا بأنفسهم كذب واختلاق الواقعة¹.

¹ الرأي العام والعلاقات العامة، غازي إسماعيل ربابعة، ص 132-133، ط 1، دار البشير، عمان، 1408هـ

البند التاسع: قياس الرأي العام والتعرف على اتجاهاته حول قضية من القضايا

إن الإشاعة بالرغم من آثارها المدمرة فإنها المحك الذي لا يرقى إليه الشك في قدرة الرأي العام على التعبير عن محصلة تشكيلية، وعرض مظاهر رضاه أو غضه حول ظاهرة معينة أو الذات، والإشاعة التي تستطيع أن تصل مستوى تعبئة الرأي العام أو تكوينه فإنه لا يمكن إغفال درجة حساسيتها. وبالرغم من أن الإشاعة قد تكون غير سوية، وقد تغزو عواطف وانفعالات الجماهير إلا أنه بمجرد تشكيلها لرأي عام إيجابي نحوها تصبح ذات دلالة جماهيرية جديدة مما يقضي تحليل عناصر القلق والتعرف على تطلعات الأمة.

وهنا لا تصبح مكافحة الإشاعة موضوع الاهتمام الأول لدى المختصين بقدر ما يكون مصب اهتمامهم هو دراسة وتحليل النتائج التي ينكشف عنها هذا المقياس وتعرف هذه الحالة (بمنطاد الإشاعات)، إلا أن الأسلوب الإحصائي يعتمد على كثافة شيوعها بالنسبة لعدد السكان، وحالة البيئة من حيث الاتصال أو الانعزال عن البيئات الأخرى¹.

البند العاشر: تشويه سمعة الأشخاص المراد تحطيمهم وزعزعة الثقة بهم في قلوب الجمهور

وذلك بما يطلق ضدهم من شائعات تمس الجوانب الأخلاقية والقيم الدينية التي تعتبر موازين للكمال، ومن تلك الإشاعات التي حاول مطلقوها تشويه سمعة عثمان بن عفان رضي الله عنه في تلك الحملة التي قام بها عبد الله بن سبأ اليهودي، بدءاً بالعراق وانتهاء بمصر، حيث أشاع أن عثمان ليس بالعدل في حكمه، وأن همه تولية أباء عنه من بني أمية وتسليمهم مقاليد الرياسة، وأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أولى من يكون في مثل هذا المنصب لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وجدت هذه الإشاعة رواجاً بين صفوف ضعاف الإيمان، وأدت إلى استشهاده رضي الله عنه في داره وهو يتلو كتاب الله، كما أدت إلى نشوب القتال بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم².

¹ الشائعات في الميدان الإعلامي وموقف الإسلام منها، عبد الرحمان جابر، ص 64-65، رسالة ماجستير، المعهد العالي للدعوة الإسلامية، قسم الإعلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1421هـ.

² محددات الإشاعة في السلم والحرب شرعاً ونظاماً، عبد الله بن متعب، ص 63.

البند الحادي عشر: استخدام الشائعات بهدف تدعيم الجبهة الداخلية

تلعب الإشاعة دوراً رئيسياً في دعم اتجاهات الجبهة الداخلية لتعزيز الشعوب بالقوة، وهي من الإشاعات المتفائلة أو الودية.

يلجأ إلى هذه الإشاعة في الغالب عند التهيؤ للانتخابات العامة لترشح شخص ما. وتحمل الإشاعة من هذا القبيل الأمل والآمال التي يرغب الإنسان في التوصل إليها. ويطمح كل مواطن إلى تحقيقها¹.

الفرع الثالث: أنواع الشائعات

تتنوع الشائعات وتختلف بحسب طريقة تصنيفها، وقد كانت عدة محاولات من جانب علماء النفس الاجتماعي وكذلك الباحثين والمهتمين في هذا المجال، لتحديد أنواعها، وكان اختلافهم يتعلق باهتمامهم في هذا المجال، والذي يدور حول الأسس والمعايير التي يبنى عليها هذا التصنيف، لذلك كان من الصعب اقتراح تصنيف عام لأنواع الإشاعات يمكن تطبيقه في أي مجتمع من المجتمعات أو اعتماده كقاعدة علمية معتمدة، وذلك لاختلاف الروايات التي ينظر منها الباحثون للإشاعة، فقد يكون اهتمامهم للموضوع الذي تناوله الإشاعة أو الدافع من وراءها أو معيار الزمن أو الآثار الاجتماعية المترتبة عليها سواء كانت ضارة أو نافعة.

ومن هذا المنطق يمكن تقسيم الإشاعة إلى عدة أنواع لكل نوع سماته وخصائصه وأقسامه، سأتناول هذه الأنواع بشيء من التفصيل كي يتسنى معرفة كافة الأنواع وهي كالآتي:

البند الأول: أنواع الشائعات بحسب الموضوع أو الغرض

تتنوع الإشاعة بحسب الموضوع والغرض الذي تدور حوله فيما يتعلق بحياة الناس إلى أغراض وموضوعات متعددة، فلما نجا من شرها جانب من جوانب الحياة، إن مثل هذا التصنيف الذي يحدد إطار الإشاعة في موضوع واحد لا يعد أن يكون له آثار على المواضيع الأخرى، نظراً لأنه من الجانب العلمي قد تكون هناك صعوبة في الفصل بين موضوع وآخر، فالإشاعة التي تناولت موضوعاً سياسياً

¹ الشائعات في الميدان الإعلامي وموقف الإسلام منها، عبد الرحمن جابر، ص 68 وما بعدها.

فهي تؤثر بدورها على الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذلك الإشاعة الاقتصادية تؤثر على الموضوعات الأخرى وهكذا.

هذه الأغراض يمكن تصنيفها لكي تساعدنا في تحليل الإشاعة وضبطها ومراجعتها وفقا للجهة التي تنطبق عليها، والهدف الذي تطمح إلى تحقيقه.

ونذكر هذه الأغراض الآتية¹:

أولاً: أغراض معنوية (نفسية)

إذا كانت الحرب النفسية تعد في هذه الأيام حجر الزاوية العدوانية، بالنسبة لسياسة العدو أدركنا مدى فاعلية وخطورة الإشاعات، وهي من أخطر أسلحة الحرب النفسية في التأثير على الروح المعنوية للأفراد والجماهير، في السلم والحرب على حد سواء، وذلك بإيجاد مناخ من البلبلة والشك وزعزعة الثقة بالنفس، وبث الروح الانهزامية، والتفرقة والاستسلام واستغلال الظروف للتشكيك بكل شيء وخصوصاً في أوقات الحروب والأزمات.

ثانياً: أغراض سياسية

لعل من أخطر الأغراض التي تسعى الإشاعات إلى تحقيقها الأغراض السياسية، وذلك بما تتناوله من قادة الأمة، والشخصيات البارزة فيها، والتشكيك بالمواقف والمخططات التي يضعها النظام السياسي، وتعتمد هذه الإشاعات على أسلوب التهويل والتضخيم والتشويش والتشكيك، وأخطرها ما يطلق منها أثناء الحروب والاضطرابات الداخلية².

ثالثاً: أغراض اجتماعية:

يمكن إدراكها من خلال تلك الإشاعات التي يوجهها الأفراد إلى بعضهم بعضاً، أو توجهها فئات اجتماعية معينة: هيئة، فئة، عشيرة، عائلة، وغير ذلك، والغرض منها إثارة الفتن والخصومات وتعميق

¹ وسائل ترويح الشائعات ودور أجهزة الأمن في مواجهتها، فؤاد علام، ص 61، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1410هـ.

² الشائعات وأثرها على الروح المعنوية للجند، فهد سعيد الحربي، ص 82، رسالة الماجستير، قسم السياسة الشرعية، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، 1421هـ.

الخلافات والمشكلات التي تكون قائمة، أو تلك التي تعمل الإشاعات على إيجادها كما في حالة الاضطرابات الداخلية والمشكلات الاجتماعية الأخرى، مستغلة الظروف والمواسم والمناسبات، وبعض هذه الإشاعات يكون الغرض منها النيل من سمعة وشرف من توجه إليه مباشرة أو بشكل غير مباشر للمساس بمركزه الاجتماعي أو التعرض لمكانته أحيانا، مثل الإشاعات التي مست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوجة الرسول ﷺ وهي (حادثة الإفك) وتلك التي مست مريم العذراء عليها السلام، كما تم بيانها.

رابعا: أغراض اقتصادية

تستغل الإشاعة بعض الظروف التي تحصل أحيانا مثل ظهور الفاقة وانتشار البطالة وارتفاع الأسعار، ونقص المواد والسلع، ويركز مروجوا هذه الإشاعات على تلك الظواهر لكي يشككوا بالوضع الاقتصادي ككل ويمكن تسلط على المنشآت الاقتصادية بقصد خلق كل ما من شأنه تعويق سير عملية الإنتاج والتنمية الاقتصادية، كما أن الدعاية المعادية، قد تتركز عليها بقصد النيل من المركز الاقتصادي للدولة التي توجه الإشاعة ضدها والنيل من الثقة المالية بها.

خامسا: أغراض عسكرية

وتهدف الإشاعة في هذا الحال إلى التأثير على الحالة النفسية، وإضعاف الروح المعنوية لدى المقاتل بقصد زرع الخوف والرعب في النفوس. وزعزعة الثقة بالقدرات والاستعدادات العسكرية وهذا شأن العدو الصهيوني في حربه المستمرة ضد أمتنا الإسلامية.

سادسا: أغراض لا أخلاقية

الأخلاق لها شأن كبير عظيم عند الأمم، فهي بلا شك من أهم الأهداف والأغراض التي تسعى العدو إلى تخطيمها، وتؤدي الإشاعات هنا دورا بالغ التأثير والخطورة في التشكيك بأخلاق الأمم وقيمها ومقوماتها.

أن الموارد الأخلاقية القائمة في المجتمع من أهم المجالات التي يستطيع مروجوا الإشاعات أن يستغلوها في نشر إشاعاتهم¹.

¹ الإشاعات وكيف نواجهها، محمد طلعت عيسى، ص 43، ط 1، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1964.

ويمكن القول أن الأساليب الحديثة للدعاية المعادية التي توجه الإنسان العربي المسلم حالياً من خلال استخدام كافة الوسائل الإعلامية، إنما تهدف بالدرجة الأولى إلى إضعاف الشعور بالانتماء وتنمية روح الأنانية، وحب الذات سعياً لتفتيت المقومات الاجتماعية والقيم الأخلاقية للأمة¹.

البند الثاني: أنواع الشائعات حسب التصنيف المكاني

أولاً: شائعات محلية:

هي التي تتناول المواضيع المحلية الخاصة بالمجتمع المحلي، وتمتد جذورها محيط الإطار المحلي الذي انطلقت فيه، وقد يكون هذا التحديد راجعاً إلى طبيعة الإشاعة أو لتوقف سريانها لأسباب خارجة عن طبيعتها وعي الجمهور وحده لها، وعدم تعاونها في نشرها أو توسيع إطارها أو بسبب انكشاف جوانب مضللة وخاطئة بفضل الإعلام السريع أو التحليل الناجح من جانب الأجهزة والهيئات المختصة في المستويات المحلية.

ثانياً: شائعات إقليمية:

هي التي تتناول قضايا ذات طابع إقليمي أو التي يهتم بها المجتمع في إطاره الإقليمي، فتجد من أسباب ذبوعها وانتشارها اهتمام أفراد الأمة بها، لأن هناك رابط يربط أفراد الأمة كالدين واللغة والثقافة، مما يجعل الإشاعة تنتشر على مستوى الإقليم وخاصة في حالة عجز السلطات والأجهزة المحلية عن توقيف سريانها، فتسري وتنتشر في جميع أنحاء المجتمع على المستوى الإقليمي.

ثالثاً: شائعات عالمية أو دولية:

قد يتسع إطار الإشاعة فتناقلتها العديد من المجتمعات. أو ومن الممكن أن يتعاون في توسيع الإطار المكاني للإشاعة تناقلها بوسيلة واحدة، أو أكثر من وكالات الأنباء العالمية إما عمداً، أو لوقوعها تحت تأثير التضليل والخداع، أو تكون المعلومات غير كافية.

¹ وسائل ترويج الإشاعات ودور أجهزة الأمن في مواجهتها، فؤاد علام، ص 61، ندوة علمية حول الإشاعة والحرب النفسية، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1410هـ.

البند الثالث: أنواع الشائعات بحسب الوقت أو السرعة التي تنتشر فيه الإشاعة

يمكن تقسيم الشائعة وفق هذا المعيار الزمني من حيث سرعة روابطها وانتشارها من عدمه إلى ثلاث أقسام وهو من أكثر التقسيمات استخداماً:

أولاً: الشائعات البطيئة أو الزاحفة أو الهامسة

وهي التي تنمو وتروج ببطء ويتناقلها الناس بشيء من السرية والحذر، وتنتهي في آخر الأمر إلى أن يعرفها جميع الناس. والإشاعة العدائية هي -عادة- من هذا النوع، وهي توجه ضد أهل الحل والعقد، والشخصيات القيادية السياسية والعسكرية، أو عند تشكيل الوزارات وغيرها¹.

والبطء إما أن يكون مبعثه صعوبة التوصيل، أو الترابط الاجتماعي، أو التخطيط من مطلق الإشاعة ومصدرها، أو لصعوبة تصديقها واستغراب الناس لها².

ثانياً: الشائعات السريعة أو العنيفة والمدمرة

هي التي تتصف بالعنف، وتنتشر انتشار النار في الهشيم، وهذا النوع من الشائعات ينتشر انتشاراً سريعاً بين جماعة كبيرة جداً في وقت قصير جداً، ومن نمط هذا النوع تلك التي تروج عن الحوادث أو الكوارث الطبيعية، أو عن الانتصارات الباهرة أو الهزيمة في زمن الحرب³.

ويعود السبب في انتشارها إلى أنها تملك من الدوافع الشعورية ومن الأهمية ما يدفع الناس إلى تناقلها والخوض فيها⁴.

ثالثاً: الشائعات الغائصة أو الغاطسة

وهي التي تروج في أول الأمر ثم تغوص تحت السطح لتظهر مرة أخرى عندما تهيأ الظروف والأحوال المناسبة، أو في حالات مشابهة لتلك التي ظهرت فيها، ولعل هذا النوع من الإشاعات أكثر

¹ سيكولوجية الإشاعة، أولبورت وليوبوستمان، ص 152.

² الإشاعة، أحمد نوفل، ص 79، ط 1، دار الفرقان، عمان، 1981.

³ الحرب النفسية في معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 241-242.

⁴ الإشاعة، المرجع نفسه، ص 79.

ما وجد وتكرر بوضوح منذ القدم، في مواقف الأقوام السابقين من رسلهم وأنبيائهم، فكانوا يفترون ويروجون ضدهم إشاعات كاذبة من نفس النوع رغم اختلاف الفترة الزمنية وتباعدها بين هؤلاء الأقوام. فهاهم يصفونهم تارة بالسحر، وتارة بالجنون، وأخرى بالكذب، إلى غير ذلك من الصفات الذميمة التي ليس لها أساس من الصحة، ولكنها صارت سلاحاً في وجه الرسل.

وللمثال فقط أشير إلى ما ورد في سورة الذاريات التي وردت فيها إشارات إلى معاناة رسول الله: إبراهيم ولوط وموسى وهود وصالح ونوح عليهم السلام مثلهم في ذلك كمثل سيد الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام الذي واجهته قريش بذات الأسلوب وبنفس الطريقة (الإشاعات الكاذبة) حتى قال تعالى في قريش ومن سبقها من أمثال هؤلاء: "كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ"¹.

فهذه الاتهامات وصور التشكيك ليست إلا إشاعات غائصة دورية من نوع واحد على مدار الزمان، أطلقتها أعداء الرسل والأنبياء، جمعهم عليها الهدف السيئ دونما ترتيب أو اتفاق سابق بينهم.²

ومن أمثلة هذا النوع من الإشاعات: الإشاعة التي تظهر من حين إلى حين وتزعم رؤية النبي ﷺ في المنام، ومضمون هذه الإشاعة أن خادماً الحجرة النبوية واسمه أحمد، قد رأى رسول الله ﷺ في المنام وأخبره أن الناس قد انحرفوا، وأن القيامة قريبة، وما إلى ذلك من افتراءات، ويقول في نهاية الأمر أنه يجب على من اطلع على هذه الورقة أن ينسخ منها عدداً من النسخ ويقوم بتوزيعها، وإلا أصابته الأمراض والمصائب. وقد رد عليها الشيخ عبد العزيز بن باز في رسالة قصية.

ومن أمثلة هذه الإشاعات: إشاعة تسميم مياه الآبار مثلاً. والإشاعة المتعلقة بفضائع العدو من قطع أيدي الأطفال وألسنة الأسرى... إلخ.

والإشاعة الغاطسة يمكن تفسيرها بطريقتين:

من المحتمل أنها تظل في حالة سبات في عقول بعض الأفراد حتى يستخرجونها بعد سنوات، وربما يتم ذلك دون تنبه منهم عندما يجدون أنفسهم في موقف بيئي مشابه لهذا الذي سمعوا فيه الإشاعة أول مرة.

¹ سورة الذاريات، الآية 52-53.

² الإشاعة ومخاطرها التربوية من منظور إسلامي، عبد الله مبارك المفلح، ص 17-18.

من الممكن أن تتمخض الحاجات البشرية في الظروف المتشابهة عن تولد قصص مماثلة¹.

البند الرابع: أنواع الإشاعات بحسب الدافع

أولاً: إشاعات الخوف واليأس:

هذا النوع من الإشاعات ينتشر في حالة سيطرة الخوف والقلق على الناس، وذلك لأن الإنسان في تلك الحالة مستعد لأن يتوهم أموراً كثيرة لا أساس لها من الصحة، وهو مستعد لأن يفسر الحوادث العادية تفسيرات خاطئة يملئها عليه الشعور بالخوف²، وهو أيضاً مستعد لأن يصدق كل ما يقال له، لوجود الخوف والهلع.

ولذلك تنتشر شائعات هذا النوع بين الناس في الأوقات التي تضطرب فيها أفكارهم وخواطرهم، ويستولي عليهم الخوف والقلق، ونشاهد ذلك بوضوح في أوقات الحرب، وأثناء الأزمات الاقتصادية أو السياسية أو الطبيعية.

وتسبب إشاعات الخوف والذعر أضراراً جسيمة، لأنها تعمل على نشر الخوف وإثارة الذعر في النفوس، وإذا استولى الخوف والذعر على النفوس ضعفت المعنويات وانهارت الثقة بها.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذا النوع من الإشاعات وحذر منه، لما له من خطر إشاعة القلق والخوف والارتباك عند الناس، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِمْ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا"³.

والمعنيون هنا هم جماعة من المسلمين الذين لم يكتمل ولاؤهم لمجتمعهم أو لقيادتهم. ذلك أن المجتمع المسلم كان يحتوي آنذاك على طوائف مختلفة ومتفاوتة في الإيمان والإدراك والولاء، فهذه الفئة من الناس قد ينقلون أخباراً، أو يفشون أسراراً، ويشيعون إشاعات عند قصد أو غير قصد، وتؤدي إلى إحداث

¹ الإشاعة، أحمد نوفل، ص 80.

² الحرب النفسية في صدر الإسلام، محمد المخلف، ص 351، ط 2، دار عالم الكتب، الرياض، 1417هـ.

³ سورة النساء، الآية 82.

إرباك في صفوف المسلمين، مما يترتب علي أمور يصعب معالجتها أو السيطرة عليها، فإشاعة الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام، قد تحدث فيه خلخلة وإرباكا، وقد تكون ذات أضرار بليغة. ومن أبرز أمثلة شائعات الخوف التي يروج لها هذه الأيام: الإشاعة عن تطوير العدو ل سلاح فتاك، أو سلاح نووي، أو الشروع في استخدام هذا النوع من السلاح، أو الإشاعة عن وصول شحنات جديدة من الأسلحة، إلى غير ذلك من الإشاعات التي تتعلق بزيادة الخوف والقلق والذعر لدى أحد الطرفين المتحاربين، أو في صفوف الذين أشيعت بينهم¹.

ثانيا: إشاعة الكراهية والعداء (دق الأسفين):

يصدر هذا النوع من الإشاعات ليعبر عن شعور الكراهية ودوافع العدوان التي تجيش بها نفوس بعض الناس، حيث تصدر الإشاعات للتنفيس عن هذه المشاعر والدوافع السلبية. هذا النوع من الإشاعات يعد من أخطر وأفتك الأسلحة النفسية التي تعصف بفرد أو جماعة، أو بأمة أو بطائفة، لأنه يساعد على نشر الخصومة والبغضاء وبث الفرقة بين الجماعات، كما أن هذا النوع من ينعش الفتن، ويفك وحده الأمة، ويضعف معنويات أفرادها، لذا نجد الأعداء غالبا ما يتفنون في اختلاق مثل هذا النوع من الإشاعات لنشر الفتن وتفكيك وحدة الأمة، حتى تصبح فريسة سهلة لأطماعهم السياسية والاستعمارية وغيرها².

هذا النوع ينشر بسرعة بين الناس، لأنه يشعرهم بشيء من الرضى والسرور، أو يخفف عنهم بعض المتاعب والآلام، وهو من أخطر أنواع الإشاعات لأنها تؤدي إلى الوقوع في مصيدة العدو، وكذلك تؤدي إلى التراخي وعدم المقاومة، ويزداد نشاط هذا النوع عند اقتراب النصر واستحداث وقوعه³ لذا حذر القرآن الكريم من الترويج لهذا النوع من الإشاعات، قال الله تعالى في كتابه العزيز: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْرِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا"⁴.

¹ الحرب النفسية في صدر الإسلام، محمد المخلف، ص352.

² أسس علم النفس الاجتماعي، مختار حمزة، ص247-248، ط1، دن، جدة، 1979.

³ الحرب النفسية في صدر الإسلام، المرجع نفسه، ص350.

⁴ سورة النساء، الآية 82.

فالإشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو تحدث نوعاً من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة لأن اليقظة النابعة من النحف للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر وفي ذلك قد تكون القاضية¹.

ومن أهم شائعات هذا النوع ما لجأ إليه المشركون في مكة في حربهم ضد الإسلام والمسلمين عندما روجوا شائعة بين المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، خلاصتها: أن المشركين هادنوا الإسلام وتركوا أهله أحراراً، وأن الإيذاء القديم انقطع، فلا بأس عليهم إن عادوا وقد تركت هذه الإشاعة أثرها في هؤلاء المسلمين فعاد منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، حتى إذا دنوا من مكة ظهرت لهم الحقيقة المحزنة، عرفوا أن المشركين أشد ما يكونون عداوة لله ورسوله والمؤمنين، وأن عداوتهم لم تنقطع يوماً، فدخل بعضهم مكة مستنجداً بمن يعرف من كبرائها الآخرون، ولكن قريشا أبت إلا أن تنكل بالقادمين، فلم ير الرسول ﷺ بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة ثانية إلى الحبشة².

ويتضح من ذلك أن المسلمين تأثروا بهذه الإشاعة، فقد أشعرتهم هذه الإشاعة بشيء من الرضا والسرور، وأشبعَت فيهم بعض الحاجات والرغبات، في العيش في سلام في بلدهم وبين أهلهم. وكانت نتيجة هذه الإشاعة التي غررت بهم أن عادوا إلى مكة قبل أن يتأكدوا من الحقيقة، وحدث لهم ما حدث نتيجة لانسياقهم وعدم تأكدهم، بالبحث والتحري عن حقيقة تلك الإشاعة³.

ثالثاً: إشاعات الرغبة والأحلام والأمان:

ينتشر هذا النوع من الإشاعة بين الناس، لأن لهم حاجات ورغبات وآمال فيها، وهي عبارة عن تنفيس لهذه الحاجات والرغبات والآمال.

وهذا النوع من الإشاعات ينتشر بسرعة بين الناس لأنها تشعرهم بشيء من الرضى والسعادة والسرور، أو تخفف عنهم بعض الأعباء والمتاعب والآلام، وهي أخطر الإشاعات لأنها تؤدي

¹ الإشاعة ومخاطرها التربوية من منظور إسلامي، عبد الله مبارك المفلح، ص 23.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج 3، ص 388.

³ بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد فريد عزت، ص 28-29، ط 1، دار الشروق، جدة، 1983.

إلى التراخي وعدم المقاومة، والعيش في الأحلام والأمان الكاذبة، ويزداد نشاط هذا النوع عند اقتراب النصر واستحداث وقوعه¹.

البند الخامس: الشائعات بحسب الأسلوب

أولاً: الشائعات الهجومية²

هي التي يبادر أصحابها خصومهم فيختلقون ضدهم الأكاذيب، ويثبون عنهم الأخبار الملفقة، بهدف تشويه صورتهم أمام الآخرين لتحقيق أهدافهم، ومن أبرز أمثلة هذا النوع الإشاعات التي أطلقها مشركوا مكة وكفارها، وبهოდ المدينة ومنافقوها ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، فقد رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكذب، ووصفوا المسلمين بالجهل والانقياد دون وعي أو علم.

ومن أمثلة الإشاعات الهجومية تلك التي تثار في وقت الحرب، وهي تهدف إلى بث الارتباك والحيرة والاضطراب، وإضعاف الروح المعنوية في الصفوف الطرف الآخر، وهذه الإشاعة لا تخرج في حقيقتها عن كونها دعاية أو قصة مختلقة يتداولها عدد قليل من الأشخاص، تكون مختصرة قصيرة سهلة التردد، سريعة الانتقال في هذا الجو المتسم بالغموض، فالإشاعة إنما تثار هنا لكي تلهب الأحقاد داخل الأمة حتى تكون من الممكن تحقيق انهيارها بصورة أيسر³.

ثانياً: الإشاعة الدفاعية

وهذا النوع من الإشاعات يعتمد على أسلوب الرد بالمثل على إشاعات يطلقها الطرف المعادي، ويمكن تسميتها بالإشاعات المضادة⁴.

ومن أمثلتها البارزة في التاريخ الإسلامي: ما حدث عقب غزوة أحد عندما أشاع مشركوا قريش إشاعة مفادها: أنهم عازمون على مهاجمة المدينة لاستئصال الإسلام، والإجهاز على من بقي من المسلمين، لا وقد قدم رجل من أهل مكة على رسول الله ﷺ فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال:

¹ الحرب النفسية في صدر الإسلام، محمد المخلف، ص 350.

² علم النفس الاجتماعي، حامد زهران، ص 403.

³ الإشاعة ومخاطرها التربوية من منظور إسلامي، عبد الله مبارك المفلح، ص 25.

⁴ الإشاعة، مصطفى الدباغ، ص 40، ط 1، مديرية التوجيه المعنوي، عمان، 1985.

نازلتهم فسمعتهم يتلأومون ويقول بعضهم لبعض: لم تضعوا شيئا يجمعون لكم، فعلم الرسول بما تخطط له قريش، وما أشاعته عن عزمها على مهاجمة المدينة، فأعلن في الناس أنه يريد الخروج لطلب العدو، وأمر المسلمين أن يتجهزوا لذلك كي تسمع قريش أن المسلمين مازالوا قادرين على مواجهتها رغم ما أصابهم في غزوة أحد.

قال ابن إسحاق: وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبا للعدو ليلغهم أنه خرج في طلبهم، لظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم¹.

وكان خروج الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد بعد معركة أحد بيوم واحد. نموذجاً لإشاعة دفاعية أراد عليه الصلاة والسلام منها رفع الروح المعنوية لدى المسلمين الذين أصيبوا في أحد، وإضعاف الروح المعنوية لدى قريش التي ظنت أنها أصابت من المسلمين مقتلاً، وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية أن معبد الخزاعي - وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکهم عيبة² نصح لرسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم³ - مر بالرسول ﷺ وهو يومئذ مشرك فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك منهم، ثم خرج ورسول بجمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب، ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه، وقالوا: أصبنا حد أصحابه وأشرفهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكون على بقيتهم فلنفرغن منهم، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه بطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون⁴ عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحذق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فو الله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، والله حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من الشعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص92.

² عيبة نصح: أي موضع سر.

³ صفقتهم معه: أي اتفاهم معه.

⁴ يتحرقون: أي يتلهبون من الغيظ.

إذ سألت الأرض بالجرء الأبايل¹ كانت تهد من الأصوات راحلي
 عند اللقاء ولا ميل معازيل² تردي بأسد كرام لا تنابلة
 فظلت عدوا أظن الأرض مائلة³ لما سمو برئيس غير مخذول
 فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم⁴ إذا تغطمت البطحاء بالخييل
 إني نذير لأهل البسل صاحبة⁵ لكل ذي إربة منهم ومعقول
 من جيش أحمد لا وخش قنابله⁶ وليس يوصف ما أندر بالقليل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه⁷، وحينئذ انهارت عزائم جيش أبي سفيان، وأخذته الفرع والرعب فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة، بيد أن أبا سفيان قام بترويج الإشاعات المضادة للمسلمين، واستأجر على ذلك جماعة من بني عبد القيس كانوا مسافرين إلى المدينة، فقال لهم أبو سفيان: هل أنتم مبلغون عني مُجداً رسالة، وأوقر لكم راحلتكم هذه زيبا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟ قالوا: نعم قال أبو سفيان: فأبلغوا مُجداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه، فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه وهم بحمراء الأسد، فأخبروه الخبر وقالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم - أي زاد المسلمين قولهم ذاك - إيماناً، كما في قوله عز وجل: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" ١٧٢

لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ١٧٢

مِنْ اللَّهِ وَبِضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٣

¹ تهد: تسقط لهول ما رأت. والجرء: عتاق الخيل. الأبايل: الجماعات.

² تردي: تسرع. التنابلة: القصار. والميل: جمع أميل وهو الذي لا يثبت على السرج. والمعازيل: الذين لا سلاح معهم.

³ العدو: المشي السريع. وسموا: علوا وارتفعوا.

⁴ ابن حرب: هو أبو سفيان. تغطمطت: اهتزت وارتجت. والجيل: الصنف من الناس.

⁵ أهل البسل: قريش لأنهم أهل مكة ومكة حرام. والضحاية: البارزة للشمس. والإربة: العقل.

⁶ الوخش: رزالة الناس وأخساؤهم. والقليل: القول

⁷ السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص93 وما بعدها.

⁸ سورة آل عمران، الآية 173-174.

فهاتان شائعتان مضادتان، تقابل إحداهما الأخرى، وقد ترتب على كل منها نتائج مختلفة، أما المسلمون فقد ازدادوا إيماناً وثقة بالله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولم تفت الإشاعة في عضدهم أو تنال من روحهم المعنوية، وأما المشركون فقد زعزعت الإشاعة المضادة موقفهم، وأهبطت روحهم المعنوية، وأخذ الفزع منهم مأخذه وتراجعوا عما كانوا قد عزموا عليه من مهاجمة المدينة¹.

كما يمكن تقسيم الإشاعات بحسب أسلوب نشر الإشاعات وترويجها إلى تقسيم آخر، وهي بهذا النظر قسمان:

1- أسلوب مباشر:

هي نقل من شخص إلى شخص آخر تأخذ الإشاعة فيه صورة الرواية الكلامية في أسلوبها القصصي المعروف.

2- أسلوب غير مباشر:

حيث يلجأ مروج الإشاعة إلى أساليب غير مكسوفة وغير مباشرة في نشرها وترويجها، ومن هذه الأساليب: الأغاني الشعبية، التمثيل، الدعاية، النكتة، الصورة أو الرسم الساخر (الكاريكاتيري) فهذه الوسائل تؤثر في الأوساط الشعبية، خاصة في نشر الإشاعات وتناقلها بين أفراد هذه الأوساط، وذلك بسبب الطابع الرمزي لها وما تحمله في جوانبها من تعليقات وانتقادات غير مباشرة. فالرسم الساخر (الكاريكاتيري) مثلاً، له قوة جاذبية بعيدة الأثر والمدى، ويمكن انتشاره بين المستويات الثقافية المختلفة، بل إن أثره قد يتعدى الإطار المحلي والقومي الذي يتواصل أفراد بلغة واحدة، إلى إطار أكثر اتساعاً، يتعامل أفراد بلغات متعددة لا يصلح معها انتشار الإشاعات الكلامية، مما يجعل للإشاعات المرسومة أثراً عميقاً وسريعاً في ذبوعها وانتشارها².

البند السادس: الإشاعة بحسب الهدف المباشر

يمكن تقسيم الإشاعة بحسب الهدف المباشر الذي تسعى لتحقيقه، أو الأثر الذي تستخدم من أجله إلى أنواع، من أبرز هذه الأنواع ما يلي:

¹ الإشاعة ومخاطرها التربوية، مبارك عبد الله المفلح، ص 250 وما بعدها.

² الإشاعات وكيف نواجهها، محمد طلعت عيسى، ص 10.

أولاً: إشاعة بث الرعب بين قلوب الأعداء وتحطيم قواهم النفسية والمعنوية

للتعريف بهذا النوع من الإشاعات نتذكر حديث الرسول ﷺ الذي رواه جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...))¹. وقد ورد تفسير ذلك عن السائب بن زيد الذي أفاد بأنه شهر خلفي وشهر أمامي، وإنما جعل مسافة الشهر لأنه لم يكن بينه وبين أحد من أعدائه أكثر من هذه المسافة.

ثانياً: إشاعة زعزعة الثقة بالنفس

هي من الأساليب التي يستخدمها أحد الطرفين المتخاصمين ليفقد الطرف الآخر الثقة بنفسه ويشككه بسلامة وعدالة الهدف الذي يسعى من أجله².

ومن أمثلتها البارزة: موقف المنافقين وضعاف الإيمان في غزوة الخندق عندما حاولوا تشييط المرباطين أمام الخندق وتحذيلهم وزعزعة ثقتهم بأنفسهم، وقد كشف الله عز وجل هذا الموقف بقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ بَرِيْقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا"³.

ثالثاً: إشاعة التفريق أو التفتين

هي التي يقصد بها شق صفوف الخصم، وتفريق الحلفاء من حوله، وتحييد القوى الأخرى وحرمانه من مخالفتها، ومن الأمثلة البارزة والمعروفة على هذا النوع من الإشاعات ما قام به الصحابي الجليل نعيم بن مسعود الغطفاني الذي استطاع أن يفرق صفوف الأحزاب، ويفتت وحدتهم، ويشتت شملهم بما أشاعه بينهم من شائعات التفريق والتشتيت.

¹ صحيح البخاري، البخاري، ج 1، ص 128، حديث رقم 328، كتاب التيمم. صحيح مسلم، مسلم، ج 1، ص 370، حديث رقم 521، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت. السنن الكبرى، النسائي، ت: عبد الغفار البنداري، وسيد عدوي حسن، ج 1، ص 209، حديث رقم 432، باب التيمم بالصعيد، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

² الإشاعة، أحمد نوفل، ص 99.

³ سورة الأحزاب، الآية 13.

رابعاً: إشاعة التوهيم أو التعميم أو ما يسمى بـ(شارة الدخان):

ويستخدم هذا النوع من الإشاعات في سبيل طمس الحقيقة أو الأخبار الصحيحة، وبهذا الأسلوب يصعب على العدو اكتشاف الأسرار الحقيقية والصحيحة من الأخبار الكاذبة، بسبب ما يحوطها من تعميم وتوهيم¹، كما حدث عن الحجاج بن علاط السلمي الذي أشاع في مكة أن اليهود قد أمكنوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين وأنه يجمع ماله في مكة يشتري من الغنائم التي استولى عليها اليهود. والواقع أن الحجاج أشاع في أهل مكة ما أشاع، لأنه دخل في الإسلام سرا و يريد جمع ماله واقتضاء ديونه عند أهل مكة، ولن يتحقق له ذلك إلا باستخدام هذا النوع من الإشاعة².

ومن هذا النوع من الإشاعات إشاعة الرسول ﷺ قبيل غزوة خيبر من أنه يريد غطفان، فأشاع ذلك واستطاع أن يفصل الجبهة المؤلفة من غطفان واليهود، قال ابن إسحاق: (بلغني أن غطفان لما سمعت بمنزّل رسول الله ﷺ من خيبر جمعت له، ثم خرجوا لظهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حسنا، فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم فرجعوا على أعقابهم، وأقاموا في أموالهم وأهلهم، ودخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر)³.

البند السابع: الإشاعة بحسب الانتشار

يمكن تقسيم الإشاعة بحسب مدى انتشارها، أو بحسب كثرة أو قلة الناس الموجهة إليهم أو الذين يتأثرون بها إلى قسمين:

أولاً: إشاعة ضيقة أو محددة

ويطلق عليها اسم الإشاعة الفردية، وهي توصف بأنها عمودية، لأنها توجه إلى هدفها بعناية بحيث تصل إليه في أقصر وقت وأقل جهد ممكن، وهذا النوع من الإشاعات قد يوجه إلى شخص بعينه فيكون هو المستهدف منها.

¹ الإشاعة، أحمد نوفل، ص 98.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج 3، ص 345.

³ المرجع نفسه، ج 3، ص 330.

ومن أمثلتها: ما حدث مع الطفيل بن عمرو الدوسي -رضي الله عنه- في مكة عندما سمع إشاعات قريش عن رسول الله ﷺ ووقع تحت تأثيرها بأن لا يكلم رسول الله ولا يسمع منه شيئا، حتى أنه وضع في أذنيه القطن قبل أن رسول الله ﷺ، وقد جاءت هذه الإشاعة على لسان رجال من قريش، واستهدفوا بها الطفيل بن عمرو التي وقع تحت تأثيرها، وكان أسيرها إلى أن شاء الله له أن يخرج من أسرها، ويدخل في الإسلام بعد أن سمع الدعوة إلى الإسلام من الرسول ﷺ مباشرة.¹

ثانيا: الإشاعة الممتدة أو المنتشرة، أو الجماعية، وتسمى المجتمعية

هي تستهدف الجماعة لا الفرد، ومن أبرز خصائصها أنها تنتشر لتشمل جمهورا كبيرا من الناس.² وقد تتناول هذه الإشاعة فئة من فئات المجتمع أو طبقة من طبقاته ذات طابع مهني أو اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي، كأن تروج إشاعة تتناول طبقة المدرسين أو الأطباء أو العمال أو الأغنياء أو الفقراء إلى غير ذلك من طبقات المجتمع.³

ومما يساعد على انتشارها بهذا الشكل عدم اهتمام أفراد هذا الجمهور ولمواجهتها أو التصدي لها، أو الرد عليها، للحد منها، وكشف زيفها أو تنفيذها، وسببان وراء ذلك هما:

1- أن موضوع الإشاعة قد لا يعنيتهم جميعا بشكل فردي أو شخصي.

2- أن هذه القطاعات من الناس كثيرة العدد واسعة الانتشار، والعلاقات التي تربط بين أفرادها-غالبا- ما تكون ضعيفة، فلا مجال لاجتماعهم لمقاومة أمر ما والتصدي له، خصوصا إذا كان هذا الأمر-بنظرهم- مجرد إشاعة.

ومن أمثلة هذا النوع من الإشاعات ما يروج بين الناس بشكل مستمر:

الإشاعة عن زيادة رواتب الموظفين التي يتناولها الناس من جوانب عديدة، فهل هي على الراتب الأساسي أو أنها علاوة إضافية؟ وما مقدارها؟

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج 1، ص 383 وما بعدها.

² الإشاعة، مصطفى الدباغ، ص 37.

³ الإشاعات وكيف نواجهها، محمد طلعت عيسى، ص 8.

وهل هي متساوية لجميع الموظفين، أو أنها متفاوتة حسب درجاتهم في السلم الوظيفي؟ وإلى غير ذلك من الأقاويل والإشاعات التي يرددها الجمهور، ويستمتع لأي منها وكأنها صحيحة، ولكنه (أي الجمهور) لا يرد على شيء منها بالرفض أو التكذيب لأن الأمر لا يعنيه بشكل فردي أو شخصي. ومن أمثلتها الأكثر وضوحاً في تاريخ الدعوة الإسلامية: ما كان من حملات الإشاعة أو التشكيك التي أطلقها كفار قريش حول الرسول ﷺ، فاتهموه بالجنون والكذب والسحر، وكانوا يتحدثون بذلك أمام الأعراب القاديين إلى مكة حتى يصدوهم عن اتباع الرسول ﷺ أو تصديقه، فكانوا يجلسون على طرقات القبائل القادمة إلى مكة والمغادرة منها، وفي مواسم العرب، وكان يحدثونهم عن الرسول ﷺ ويحذرونهم منه¹.

قال ابن هشام: (ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا به سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ... فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا المواسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره)².

المطلب الثاني: الدعاية

الفرع الأول: تعريف الدعاية

البند الأول: التعريف اللغوي

الدعاية في أصلها هي: الدعوة إلى مذهب أو رأي بالكتابة أو بالخطابة ونحوهما³، وكذلك عرفت بأنها الدعوة إلى شيء والترغيب في هذا الشيء، أو بمعنى آخر: الدعاية له⁴ وقد ارتبطت الدعاية بمعنى الدعوة، حيث إن كلمة الدعوة مشتقة من الفعل: دعا، يدعو، دعاء، ودعاوة⁵ ودعاية بمعنى: حث، وطلب، ونادى، ورغب. فدعاه إلى الأمر: يعني ساقه إليه، وحثه عليه، ودعا الرجل دعوا ودعاء: ناداه،

¹ الإشاعة ومخاطرها التربوية، مبارك عبد الله المفلح، ص 30-31.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج 1، ص 204.

³ لسان العرب، ابن منظور، ج 14، ص 257، ط 1، دار صادر.

⁴ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ج 1، ص 287.

⁵ أصول الإعلام الإسلامي، إبراهيم إمام، ص 22، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1985.

والاسم: الدعوة¹. ويتضح أن كلمة الدعوة، وكلمة الدعاية أصلهما اللغوي واحد، وأن اشتقاقهما من الفعل دعا.

البند الثاني: التعريف الاصطلاحي

عرّف العلماء الدعاية تعريفات كثيرة، فعلماء الاجتماع والنفس والإعلام والسياسة والقانون كل قد أدلى بدلوه في هذا المجال؛ فمن هذه التعريفات التعريف القانوني في الولايات المتحدة الأمريكية وبالضبط في قانون تسجيل الوكالات الأجنبية عام 1938 الذي عرّف الدعاية كما يلي: (يتضمن لفظ الدعاية السياسية أي اتصال بالسماع أو الرؤية أو الرسم أو الكتابة أو الصور أو أي اتصال أو تعبير آخر يقوم به الشخص بالشروط الآتية:

أ- أن يكون مديراً أو يعتنقه الشخص الذي ينشرها و يقصد أن ينشر به، أو يغير أو يقنع أو يسعى إلى تأثير من أي نوع كان على من يلقي عليه سواء أكان شخصا أو قطاعا من الشعب في داخل أو خارج الولايات المتحدة، ويهدد المصالح أو السياسية العامة أو السياسات والعلاقات المتبعة مع حكومة دولة أجنبية، أو حزب سياسي أجنبي أو السياسات التي تتبعها حكومة الولايات المتحدة مع الدول الأجنبية أو ينشر روح الانقسام العنصري أو الديني أو الاجتماعي.

ب- أن يناصر أو يؤيد أو ينشر أي اضطراب عنصري أو اجتماعي أو سياسي أو ديني أو عصيان مدني أو اصطدام تستعمل فيه القوة أو العنف في أية ولاية أمريكية أخرى أو الإطاحة بأية منظومة أو هيئة سياسية بأي أساليب تنطوي على استعمال القوة والعنف. ومن معاني كلمة "نشر" أن ينقل أو يتسبب في نقل الرسائل في الولايات المتحدة أو بأية وسيلة أخرى أو بأية طريقة بين الولايات وبعضها البعض أو التجارة الخارجية)².

¹ لسان العرب، ابن منظور، ج14، ص257.

² فن الدعاية والمخطط الصهيوني، فتحي الأبياري، ص42، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988.

التعريف الإعلامي: (الدعاية هي نشر معلومات ((حقائق، أو مبادئ أو مجادلات أو شائعات أو أنصاف حقائق أو أكاذيب)) وفق اتجاه معين من جانب فرد أو جماعة في محاولة منظمة للتأثير في الرأي العام، وتغيير اتجاه الأفراد والجماعات باستخدام وسائل الإعلام والاتصال بال جماهير)¹.

وهذا التعريف يشتمل إذا حللناه على:

- معنى الدعاية: وهي نشر المعلومات.

- لا مادة الدعاية: الحقائق أو المبادئ أو الأكاذيب.

- هدف الدعاية: تغيير اتجاه الأفراد والجماعات.

- وسائل الدعاية: وسائل الإعلام والاتصال بال جماهير من صحافة وإذاعة ورائي (تلفزيون) وغيرها...

والتعريف السياسي: (الدعاية هي ذلك النشاط أو الفن الذي يحمل الآخرين على سلوك مسلك معين ما كانوا يتخذونه لولا ذلك النشاط)². ومما دفع هؤلاء إلى القول بأن الدعاية فن هو أن القضية ليست قضية نشر معلومات فقط، وعرضها بدون اهتمام بالأسلوب الذي يجب أن تبث به الدعاية... وإلا كان نجاحها مشكوكا فيه... وبإدخال عنصر الفن على الدعاية يتضح أمامنا لماذا نجح بعض الزعماء في استمالة الجماهير إليهم ولم ينجح البعض الآخر؟.

الفرع الثاني: أقسام الدعاية³

خلال القرن العشرين حظيت الدعاية بكثير من الاهتمام والدراسة، وأصبح ينظر إليها على أنها تخصص علمي قائم بذاته؛ لأنها تركز على التأثير على الرأي العام واتجاهات ومواقف الأفراد والجماعات، ونتيجة لتطورها عبر العصور فقد قسمت إلى عدة أقسام، وسوف نتناول أهم وأبرز تقسيم كما يلي:

¹ علم النفس الاجتماعي، حامد زهران، ص 321.

² الدعاية السياسية وأثرها على مستقبل العالم، لندي فريزر، تر: عبد السلام شحاتة، ص 9، سلسلة الفكر العالمي، 1960.

³ قسم المختصون الدعاية إلى عدة أقسام، فهناك تقسيم وفق الأسلوب يتمثل في دعاية كامنة ودعاية ظاهرة، وتقسيم وفق الأهداف والوظيفة تلخصت في الدعاية الهدامة والدعاية الاندماجية والدعاية التحريضية. وهناك تقسيمات أخرى لجأ لها الباحثون حسب نظرة كل تخصص.

تقسيم الدعاية وفق المضمون

يقسم بعض علماء الاتصال والسياسة؛ الدعاية طبقاً لمضمونها إلى: دعاية بيضاء ورمادية وسوداء على النحو الآتي:

1-الدعاية البيضاء:

وهي دعاية معروفة المصدر، تطلقها دولة أو جهة معروفة ومعلنة؛ للتأثير على شعب أو جيش دولة خصم أو عدو، وتستند في نشر أخبارها إلى مصدر صحيح ومعروف وواضح إذ تعتمد على الحجة والبرهان والمنطق في تسويق أخبارها بحيث تظهر بشكل مقنع أكثر من أية جهة. ومثال على هذا النوع من الدعاية والإذاعات الموجهة التي تصدر عن دولة ما تعلن عن نفسها بوضوح، لكنها تستخدم لغة الدولة الخصم، وتستخدم الأساليب التي تجذب شعبها، كالأغاني والمواضيع المفضلة لهم أيضاً، بحيث تدس بين هذا وذاك بعض الأخبار التي ربما تكون صحيحة أو لا، لترك تأثير خاص في الشعوب أو الجيوش.

فالدعاية البيضاء عبارة عن النشاط العلني من أجل هدف معين، وتستهدف إعلام الشعوب الأخرى بنواحي التقدم في البلد في شتى مجالات الحياة: الاجتماعية والثقافية والفنية من ناحية. وإيجاد نوع من التقارب والتفاهم القائم على أساس المعرفة مع هذه الشعوب من ناحية أخرى. ولذلك تقترب الدعاية البيضاء من الإعلام، وإن اختلفت عنه من حيث وجود أهداف تأثيرية مسبقة وإخفاء بعض الجوانب السلبية، ولكي تنجح الدعاية البيضاء لابد أن تستند إلى شيء من الحقائق التي يدركها شعب أو جيش الخصم حتى لا يفقد الثقة بها، خاصة وأنها تصدر من مصدر معروف بعدائه وخصومته¹.

2- الدعاية السوداء:

وهي الدعاية التي تقترب من الإشاعات مجهولة المصدر والتي لا تكشف عن مصادرها الحقيقية، وتسعى دائماً إلى التنكر والتخفي وإلى الحيل والكذب والخداع، وتنمو بطرق سرية سوداء داخل أرض

¹ الدعاية أساليبها ومدارسها والحرب النفسية، منال مزاهرة، ص 106-107.

العدو أو على مقربة منه. وتستهدف إشاعة البلبلة وحرب الأعصاب والتشكيك والتحريض على العصيان، وتلحق أبلغ الضرر بالرأي العام الذي تمده بأخبار زائفة، وتحدث بلبلة في الآراء واضطراباً في الأفكار¹.

كما تنمو هذه الدعاية وتتوالد بطريقة خفية، وهي تتداخل مع حرب الشائعات والحرب النفسية التي تنشط خلال الحروب، حيث تقوم باستخدام وسائل الإعلام المختلفة والمتعددة، وخاصة الإذاعات السرية أو الموجهة، وتوزيع المنشورات والمطبوعات والوثائق المزورة، وصور الفوتوشوب والرسائل التي عادة لا تحمل أي توقيع، ولا تشير إلى أي مصدر في نشر أخبارها. وتقوم بهذا النوع من الدعاية أجهزة المخابرات والعملاء السريون.

ويعتبر صلاح نصر الدعاية السوداء من أخطر أنواع الدعاية وأكثرها استخداماً، وإن أحسن طريقة لضمان سلامة عمليات الدعاية السوداء هي عدم الكشف عن وجودها إلى أي شخص إلا إذا كانت هناك ضرورة تستدعي ذلك، وتظهر هذه الدعاية بأنها تبدأ داخل أراضي العدو أو الأراضي التي يحتلها أو بالقرب منها، وأن الذي يقوم بها عناصر هدامة بين الأعداء، ويلخص صلاح نصر الأمر كله في عبارة: إنها بالغة السرية ذلك لأن كشفها يقضي على فائدتها².

ومن أهم الأمثلة: إنشاء محطة إرسال سرية اسمها المذيع السري رقم 1، وكانت ترسل بريطانيا عليها إذاعات أحد رجال الدعاية الذي اتخذ لنفسه اسم الزعيم، وكان هذا الزعيم صحفياً بريطانياً اسمه سيفتون ديلمار sefton delmar، وكان يدعي أنه من كبار ضباط الجيش الألماني ممن لهم سجل حافل بالأعمال العظيمة في الحرب العالمية الأولى، وكان الزعيم يذهب إلى أبعد ما يمكن لكسب ثقة مستمعيه الألمان، ولم يساورهم الشك في أن هذه الإذاعة كانت من إذاعات الأعداء. وإلى جانب الإذاعة استخدمت الدعاية السوداء الصحف السرية التي تقلد في مظهرها الصحف اليومية المشهورة ومن الأمثلة البارزة تقليد صحيفة Soir واسعة الانتشار³.

¹ الدعاية: الأسس النظرية والنماذج التطبيقية، عاطف العبد، ص 47-48، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008.

² الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 437.

³ الدعاية أساليبها ومدارسها والحرب النفسية، منال مزاهرة، ص 108.

3- الدعاية الرمادية

هي دعاية مقنعة وموجهة وغير واضحة المصدر وتخفي أمورا غير تلك المعلنة، ولكن يمكن الوقوف على غاياتها الحقيقية من خلال التدقيق في أهدافها وطبيعة القوى التي تقف خلفها، وبالتالي يمكن فضحها والكشف عن غاياتها الحقيقية، تبدأ وتنتشر وربما تنتهي أيضا دون أن يظهر بوضوح من الذي أطلقها، ومن المستفيد منها بالتحديد. فالدعايات الرمادية تحتاج إلى أكبر قدر ممكن من الذكاء والحنكة نظرا لأنها لا بد أن تحمل بصمة واضحة ومحددة، لذا فمستخدمها ربما يكون خبيرا في مجاله وأستاذ إلى فن التعامل مع الجماهير، ومن الممكن أن تكون الدعايات الرمادية مقروءة أو مسموعة، أو حتى مرئية وفقا لمقتضيات الموقف، ونوع الوسائل المتاحة والمنتشرة، ويمكن أن تكون ضعيفة ومحدودة، أو شديدة التطور بحيث تخترق عبر شبكات الأنترنت، ورسائل المحمول، وغيرها. حيث تصدر الأخبار منسوبة إلى مصدر غامض مثل: (صرح مصدر مسؤول بـ:.....)، أو (ذكرت إحدى وكالات الأنباء أن أحد المراسلين أفاد في نبأ عاجل أن...)¹.

كما تعتبر الدعاية الرمادية خليطا من الدعاية السوداء والدعاية البيضاء، فقد لجأ بعض الباحثين إلى هذا التقسيم؛ لأنه يرى أن هناك دعاية بيضاء ودعاية سوداء، ودعاية رمادية بحسب دقتها أو مدى معرفة مصدرها. فالدعاية التي تعتمد على الصدق والوضوح هي دعاية بيضاء، أما الدعاية التي تقوم على الكذب والتشويه والاختلاق فهي سوداء².

وخلاصة هذا التقسيم هو: أن الدعاية البيضاء هي دعاية معروفة المصدر، محدودة الهدف، تسعى دائما إلى خدمة أهداف نبيلة، وهي تعبر عن الدعاية الموجهة للتنوير والإعلام الصادق. والدعاية السوداء هي غير معروفة المصدر، بل أحيانا تصدر من مكان معين غير التي تصدر فيه حقيقة كالإذاعات السرية مثلا التي تدار من أرض محايدة أو على مقربة منها وتكون مقنعة ومستترة خفية، خافية الغرض.

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص437.

² الدعاية: الأسس النظرية والنماذج التطبيقية، عاطف العبد، ص49.

والدعاية الرمادية وإن كان معروف المصدر أحياناً، لكنها ترمي إلى غايات ملتوية، ويبدو أن الأمريكيين قد نبغوا في هذا النوع منذ الحرب العالمية الثانية¹.

الفرع الثالث: أساليب الدعاية

تنوعت الأساليب التي تم استخدامها وما زالت تستخدم في الدعاية، إلا أن هذه الأساليب تختلف عن بعضها البعض باختلاف أهداف الدعاية والفئة الموجهة لها، لذا سنتطرق إلى الأساليب المتعلقة بموضوع أطروحتنا كما يأتي:

البند الأول: أسلوب التكرار والملاحقة

يعتبر هذا الأسلوب من أنجح الأساليب لتغيير الرأي العام، فقد كانت الدعاية الإعلانية تستخدم هذا الأسلوب وتؤمن بأنه الأسلوب المثالي لمخاطبة الجماهير، فقد وصف جوبلز وزير الدعاية الألمانية هذا الأسلوب حيث قال: (إنَّ سرَّ الدعاية الفعالة يكمن لا في إذاعة بيانات تتناول آلاف الأشياء، ولكن في التركيز على بعض حقائق فقط، وتوجه آذان الناس وأبصارهم إليها مراراً وتكراراً). فلقد كان هتلر صائباً عندما كان يقول إن الجماهير تأخذ وقتاً طويلاً حتى تفهم وحتى تتذكر، وبالتالي فالتكرار ضروري غير أنه يجب وقف التكرار عندما تتم تهيئة الجمهور؛ لأن التكرار عند هذه النقطة سيبدأ في إثارة شكوكه طالما أن هنالك تأكيدات سابقة². كما أن تكرار عبارات تحمل معلومات أو آراء تعتمد الدعاية تكرارها باستمرار وبطرق متنوعة بحيث يتعود الناس عليها ويألفوها ومن ثم يصدقوها ويتعاملون على أساسها. وهو ما قامت به بريطانيا خلال استعمارها لمصر عندما كانت تردد باستمرار أن مصر بلد زراعي ولا يصلح للصناعة، وقد صدق كثير من المصريين قبل ثورة 23 تموز 1952 هذه العبارة.

كما وقد استخدمتها الدعاية الصهيونية خلال الصراع العربي الإسرائيلي بحملاتها، وركزتها بجملة واحدة وهي: (إسرائيل التي لا تقهر)، فالذي ساعد الصهيونية على استخدام هذا الأسلوب هو سيطرة

¹ الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، ص300.

² الدعاية والاتصال: دراسة نظرية تطبيقية على الوثائق السرية البريطانية عن ثورة مصر سنة 1919، شاهيناز طلعت، ص153، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978.

اللوبي الإسرائيلي على وسائل الإعلام خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا من خلال امتلاكها لصحف ومحطات إذاعية وتلفزيونية، إضافة إلى وجود عدد كبير من اليهود العاملين بهذه الوسائل في شتى بقاع العالم¹.

البند الثاني: أسلوب الكذب

عادة ما تلجأ الدعاية أو الإعلام للكذب بدرجات مختلفة وذلك لتحقيق هدف ما، ويترافق الكذب غالبا مع تقديم معلومات غير صحيحة، أو اختلاق وقائع لم تحدث، فقد كان هتلر الزعيم النازي الألماني يقول: (إنه كلما كبرت الكذبة كلما صدقها الناس)²، وهو ما قام به الرئيس الأمريكي السابق بوش الابن، عندما كان يدعي أنه حقق النصر في العراق، ونشر فيه الديمقراطية، ولا يتحدث عن الكوارث التي حلت بالشعبين العراقي والأمريكي بسبب الحرب.

وبغض النظر عن حجم ومستوى الكذب فغنه يظل خداعا ويتلاعب بالحقائق، فالكذب عادة إذا ما استخدم بطريقة ماهرة وبكفاءة عالية يؤدي إلى أن يترسخ في أذهان الناس. ولعل من أمثلة الأكاذيب الكبيرة ادعاء الولايات المتحدة وبريطانيا أن العراق يمتلك أسلحة الدمار الشامل، وقد استخدمت هذه الكذبة لتبرير القيام بشن حرب ضد العراق لإسقاط نظام صدام حسين، وعندما دخلت القوات الأنجلو أمريكية العراق وقامت بتفتيش أراضيه لم تعثر على أي أثر لهذه الأسلحة.

ويقول براون إنه ومنذ الحرب العالمية الثانية إلى أن ذكر (هتلر) توصياته عن الكذبة الكبيرة، فإن الكذب كان دائما البضاعة محل تجارة رجل الدعاية³. ذلك أنه عندما تتحول الكذبة إلى حقيقة شائعة تصبح الحقيقة الصادقة هي المشكوك فيها، ويحدث هذا على مستوى الدول والجماعات والأفراد، فهي حقيقة أزلية في البشر، فمن السهل أن يصدق الإنسان أي كذبة سمعها ألف مرة من أن يصدق حقيقة لم يسمعها من قبل، من هنا يظهر الضعف البشري الذي يستغله الإعلام⁴.

¹ الدعاية الصهيونية ومسائلها وأساليبها وطرق مكافحتها، حامد ربيع، ص21، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1975.

² كفاحي، ادولف هتلر، تر: أميمة سعد، ص57، ط1، دار الأنوار، بيروت، دت.

³ Techniques of persuasion, J.A.C. Brown, p39, penguin Books, England, 1969

⁴ Propaganda Boo, A.J. Makenzi, p19, The Right Book club, London, 1938

البند الثالث: أسلوب افتعال الأزمات

يقصد بهذا الأسلوب استغلال بعض الأحداث أو الظروف من أجل خلق أزمة تؤثر في الرأي العام وتستفيد منها الدولة المستخدمة لهذا الأسلوب، فقد عرفت الإنسانية في تاريخها الطويل أزمات الدعاية سياسية واقتصادية واجتماعية وتركت آثارها الخطيرة على الإنسان ومستقبله فهذا الأسلوب يعتبر أحد أساليب الدعاية الحديثة لتغيير الرأي العام¹.

ومن الأمثلة على ذلك ما استخدمته إسرائيل في صراعها مع الأمة العربية بافتعالها أزمة مع سوريا في 1967، كبداية لشن عدوانها على الأمة العربية. واستخدامها -ببراعة- هذا الأسلوب في أثناء المفاوضات مع الفلسطينيين، حيث تفتعل أزمة تلو الأخرى من أجل إجهاض المفاوضات وكسب المزيد من الوقت والمكاسب².

ويلقي كتاب الحكومة الخفية أضواء على أساليب المخابرات الاستعمارية في افتعال الأزمات، ومن أمثلة ذلك ما كانت تقوم به الإذاعة السرية الموجهة إلى كوبا باسم راديو الأمريكتين، إذ كانت تحرض المعارضين لحكم كاسترو على إشعال الحرائق في مزارع القصب التي تمثل ثروة البلاد الرئيسية، وانتزاع أسلاك التلفون حتى تضطرب المواصلات التلفونية، وتحطيم أكبر عدد من الزجاجات؛ لأن إدارة المخابرات الأمريكية كانت ترمي إلى إحداث أزمة، كما ترمي من وراء ذلك إلى إقناع الرأي العام العالمي بوجود معارضة شعبية ضد كاسترو ليكون ذلك ذريعة للتدخل العسكري من جانب الولايات المتحدة الأمريكية³.

البند الرابع: إثارة الرعب والفوضى

يتضمن هذا الأسلوب إثارة الرعب والخوف في نفوس الجمهور، فقد كانت المخابرات النازية تستخدمه بصفة عامة في استغلال الدوافع لدى الجماهير من خلال إثارة الخوف والفرع لإرهاب الشعوب وإخضاعها من خلال استخدام الوسائل المختلفة لخلق حالة من الذعر والفوضى، وفي هذا

¹ الدعاية أساليبها ومدارسها والحرب النفسية، منال مزاهرة، ص 120.

² الحرب النفسية الإسرائيلية، مصطفى الدباغ، ص 45، ط 1، مكتبة المنار، عمان، 1986.

³ الرأي العام والحرب النفسية، مختار التهامي، ص 116.

يقول هتلر: (إن أسلحتنا هي اضطراب الذهن وتناقض المشاعر والحيرة والتردد والرعب الذي ندخله في قلوب الأعداء، فعندما يتخاذلون في الداخل ويقفون على حافة الثورة وتهددهم الفوضى الاجتماعية، عندها تحين الساعة لنفتك بهم بضربة واحدة).

وقد استخدمت الدعاية الغربية هذا الأسلوب بعد الحرب العالمية الثانية وحتى وقت قريب على نفس الأسس تقريبا كالتي كانت تسير عليها الدعاية النازية، حيث عمدت إلى المبالغة في إشاعة الخوف والذعر بين الشعوب من الغزو الشيوعي والخطر الأحمر القادم قبيل انهيار المجتمعات الشيوعية، انطلاقا من الدروس المستفادة من استخدام الدعاية الألمانية لأسلوب التخويف المباشر وسلاح الرعب بشكل فعال، ذلك أنه حتى عام 1942م كانت الفكرة التي تكررها الدعاية الألمانية تقوم على إظهار الدمار الذي لحق بالدول التي رفضت الاستسلام لألمانيا مكررة فكرة: لأن هذا هو ما حدث للآخرين.. وهو على وشك أن يحدث الآن.. وقد أدى الخوف الشديد والرعب اللذان انتشرا في ألمانيا إلى تدفق اللاجئين إلى الشوارع في فرنسا وعرقلوا بذلك حركة الحلفاء ومعداتهم العسكرية وعجلوا بهزيمة فرنسا¹. كما أن استغلال الاحتكاكات الغربية لهستيريا الحرب التي كانت تشيعها أجهزتها الدعائية قد مكنتها من إبقاء العالم في حالة من التوتر خدمة لمصالحها الاقتصادية وأطماعها التوسعية².

كما كان التخويف أو الرعب من أقدم أشكال الدعاية، فقد استغل النازيون سلاح الرعب بشكل فعال، فقد عملوا قبل غزوهم للنرويج على الوقوف من مشاهدة المسؤولين النرويجيين لفلم عن الحملة البولندية الذي أظهر أهوال الحرب الآلية وصفوفا لا تنتهي من الدبابات والعربات المصفحة، كما أظهرت المدن تنهال عليها القنابل كالمطر، والقليل من الأطفال والنساء مع ضوضاء وتحرك سريع للمناظر تعكس بوضوح مضاعفات الحرب الحديثة.

¹ الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، جيهان رشتي، ص159.

² الرأي العام والحرب النفسية، مختار التهامي، ص117.

الفصل الثاني: تاريخ الحرب النفسية وتطورها

لا خلاف في أنّ مصطلح الحرب النفسية، أطلق في العصر الحديث على الإجراءات والممارسات التي تستهدف العدو، وتحاول تحقيق الانتصار عليه، من دون الدخول معه في قتال حقيقي، إلا أن الحرب النفسية كممارسة وسلوك وتعامل عرفت مع الإنسان منذ أقدم الأزمنة، وذلك في إطار تعامله داخل مجتمعه ضد مجتمع آخر يستهدفه بالعداء، فقام الإنسان آنذاك، سواء كان منتمي إلى المجتمع، أو الدولة الغازية، أو المقصودة بالغزو، بأفعال وممارسات إجرائية أوقعت الرعب في نفوس الخصوم، أو ساهمت في تعزيز معنويات أفراد جيشه، أو شعبه مما حقق أثرا بالغاً في وحدة الصف وتماسك المجتمع، فحقق بذلك نصراً بإيهاام الخصم بقوة أو وحدة مبالغ فيها.

وهذه الأساليب في الحرب النفسية في صوره القديمة مازالت حتى الآن هي أساليب الحرب النفسية في الوقت الحاضر، إلا أنّ الوسائل ترقّت وتعدّدت بوجود وسائل الإعلام المتعدّدة المسموعة والمرئية والمكتوبة.

وبناء على ما تقدم، يتم تقسيم الفصل كما يلي:

الفصل الثاني: تاريخ الحرب النفسية وتطورها

المبحث الأول: الحرب النفسية في العصور القديمة

المطلب الأول: الحرب النفسية في وادي الرافدين ومصر القديمة

المطلب الثاني: الحرب النفسية عند اليونانيين والرومان

المبحث الثاني: الحرب النفسية في العصور الوسطى

المطلب الأول: الحرب النفسية والإسلام

المطلب الثاني: الحرب النفسية والمغول

المبحث الثالث: الحرب النفسية في العصر الحديث

المطلب الأول: الحرب النفسية في الحربين العالميتين

المطلب الثاني: الحرب النفسية ما بعد الحرب العالمية الثانية وفي الحروب الحديثة

المبحث الأول: الحرب النفسية في العصور القديمة

الحرب في جوهرها تبادل منظم للعنف. والحرب النفسية في جوهرها عملية إقناع منظمة، وبينما تهاجم الأولى الجسد، فإن الثانية تنقض على العقل، الأولى حسية، والثانية نفسية. وفي زمن الحرب، تهاجم الدعاية والأعمال الحربية النفسية، جزءا من الجسد لا تستطيع الأسلحة الأخرى أن تصل إليه، في محاولة للتأثير على طريقة أداء الأطراف المشاركة في ميدان القتال. إنهما تحاولان رفع معنويات أحد الجانبين وأن تنسفا إرادة القتال لدى الآخر.

وعلى هذا النحو، وعلى رغم أنهما لا تستطيعان - وحدهما - كسب الحرب، فإنهما سلاحان لا يقلان أهمية على السيوف أو البنادق أو القنابل. ومن المؤكد أن أسلحة العقل هذه، أصبحت معقدة بشكل متزايد مع ما تحقق من أنواع التقدم في التكنولوجيا وعلم النفس، غير أن الملحمة الشعرية أو الرسم في الماضي لا يزيدان - في الحقيقة - شيئا، عن الفيلم أو المذيع التلفزيوني الدعائيين الآن. وعلى الرغم من أن الدعاية للحرب قد زادت - تعقيدا واتساعا - زيادة مثيرة في القرن الحالي، فإنها نشاط يرجع إلى الزمن الذي التقط فيه إنسان ما، للمرة الأولى، عصا غليظة في سورة الغضب. ومنه نصل إلى نتيجة حتمية، هي أن الحرب النفسية قديمة قدم الحرب ذاتها.

المطلب الأول: الحرب النفسية في وادي الرافدين ومصر القديمة

الفرع الأول: الحرب النفسية في وادي الرافدين

امتدت حضارات وادي الرافدين العريقة جغرافيا وزمانيا إلى أرجاء وحقب طويلة وشاسعة، ومهدت هذه الحضارات (سومر، أكد، بابل، آشور) أمام الإنسانية سبلا للعلم والقانون والإدارة والفنون والتربية والآداب¹، حتى يكاد يُجمع الآثاريون وعلماء التاريخ أن هذه البقعة من الأرض شهدت أولى الكيانات الإنسانية المتحضرة في الكون، فعرفت في أرجاءها الكتابة والزراعة والمدنية، وقد أهلها ذلك للانتصار في حروب عدة حدثت فيها معارك طاحنة، وأخرى تحقق الانتصار فيها بعوامل وإجراءات تعدّ من وسائل الحرب النفسية الحديثة، مما يعني إدراك الإنسان ضمن هذه الحضارات لخطورة هذه الإجراءات

¹ العراق القديم، جورج رو، تر: حسين علوان حسين، ص23، ط1، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1984.

التي تخاطب النفس الإنسانية وتستهدفها لغرض وضعها كأداة رئيسة من أدوات النصر والهزيمة في الصراع القائم¹.

وقد كان من أقدم النصوص والشواهد على استخدام الحرب النفسية في القتال ضد الأعداء، ما ذكر في (نص شعري) يعود إلى ما قبل خمسة آلاف سنة تقريبا، وقد ورد ضمن لوحات كُتبت باللغة السومرية يشير إلى حادثة سياسية، اتبع فيها قائد (الوركاء) المسمى (اينمكار) أسلوبا ذكيا في التأثير على الأعداء من مدينة (أرتا) فقد صمّم هذا القائد على اتباع طريقة التعامل مع العدو المهاجم بحيث يجعل أهلها يتبعون آراءه وسياسته، فأفلح في كسر معنوياتهم وتثبيط همهم حتى وصل الأمر بهم -فعلا- إلى التخلي عن سيادتهم ليصبحوا تبعا لمدينة (الوركاء) فقد بث الرعب في قلوبهم تدريجيا، ثم أوصلهم إلى حالة من الإنذار الأخير بالتدمير الشامل إذا لم يستسلموا له ويخضعوا لإرادته².

كما أن نشوب الحروب بين المدن في بلاد ما بين النهرين، كان يشهر على الحجر وغيره من النصب. فقد كانت تقام على بوابات المدن أعمدة مرتفعة، ذوات رؤوس مثلثة الشكل، عرفت باسم: النصب المنقوشة، تصور الملك مع إلهه، أو مع عدوه المهزوم، وغالبا ما تصحب الصورة نقوش مطولة. ومن الأمثلة الباكورة، النصب الضخم الذي أقامه (إيناتوم) ملك مدينة لجش (2500 ق. م) وهو بلاطة مستطيلة مستديرة القمة من الحجر تصور (نين جورسو) إله لجش، وهو يأسر أعداءه، أولا في شبكة ثم في عربة حربية. وعلى الوجه الآخر تصور الملك (إيناتوم) وهو يتقدم على رأس كتيبة جيدة التسليح من المشاة، يسحق أعداءه تحت قدميه، بينما تمزق الأسود والنسور أجساد الموتى، وبينما يفر أمامه من تبقى من الأعداء، يسلم حكم الإعدام إلى ملك مدينة (أوما) المهزوم³.

إنّ مثل هذه النقوش، بطبيعتها الاحتفالية، تشير إلى إدراك أهمية الدعاية بعد وقوع الحدث، أما الشعارات والدروع المزخرفة وما يشبهها فتظهر استخدام الحرب النفسية في أثناء المعركة. ثم حين ضعفت المدن في إطار المرحلة السومرية، برزت الحاجة إلى نظام موحد يشمل الجميع في دولة قوية موحدة، فكان لا بد من قيام سلسلة من الصراعات والحروب الفعلية والنفسية،

¹ الحرب النفسية، اريائيل مراري، تر: مركز البحوث والمعلومات، ص7، ط1، مطبعة بالرونيو، بغداد، دت.

² ألواح سومر، كريم صموئيل، تر: طه باقر، ص70، ط1، دن، القاهرة، دت.

³ السلاح في عصور ما قبل التاريخ، تقي الدباغ، ج1، ص32، ط2، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1988.

والتي تكللت تاريخيا بعد ذلك في ظهور (لوكال زاكيزي) الذي قامت على يديه الإمبراطورية الأكديّة، وقد اتجهت هذه بدورها إلى تعزيز معنويات الأفراد داخل الدولة بإنشاء نظامين سياسيين شعبيين؛ لتمثيل الأفراد لدى الحكومة القائمة، مما ساهم في تقوية دور الأفراد، وتحصين المجتمع داخليا من الإشاعات أو حرب الدعاية الموجهة ضدهم من باقي المجتمعات المجاورة، وكذلك برزت في هذه المرحلة الحاجة الملحة إلى إخضاع إرادة أي طرف يعادي هذا الكيان الجديد، من دون الاضطرار إلى قتال فعلي، وذلك بإظهار القوة والمنعة وشدة التأزر ضد العدو. لهذا فإن التطور في ابتكار الأسلحة واستخدامها؛ إنما يعبر عن تطور معين في استنباط أساليب قتالية جديدة، وهذه بدورها لابد أن تترك آثارها على الحرب النفسية ذاتها¹.

وقد قام كل من سارجون الأول (2276-2221 ق. م) الذي وُحِد قبائله السامية من (آكاد) مع الدول -المدن السومرية- جاعلا منهم إمبراطورية واحدة، وحفيده نارامسين (2196-2160 ق.م) والذي أطلق عليه لقب (ملك أقطار العالم الأربعة)، بوضع اسم نجم قبل اسمه؛ لكي يرمز إلى الشخصية الإلهية. وفي خلال حملات سارجون العديدة، لم يكن في وسع جيشه الضخم المكوّن من أكثر من خمسين ألف رجل أن يعيش إلا على حساب الأرض التي يزحف عليها وينهبها². ولقد تحدّدت معنويات قواته -أساسا- وفق مقدرتهم على القيام بذلك. ويظهر النصب الذي أقامه نارامسين زيادة ملحوظة في استخدام الرموز المرئية، وهو النصب الذي نُحِت من الحجر على شكل مثلث، ويصور الغزاة المنتصرين في حالة هجوم وسقوط الأعداء متهاوين. وكانت مثل هذه النصب تقام غالبا عند نقاط دخول الغزاة لردع الهجمات في المستقبل. ولكن مثل هذه الهجمات ما كانت إلا لتفشل إذا شنت بعد مدة وجيزة؛ لأن الغزاة السابقين كانوا يتركون الأرض مخربة جرداء. ولكن حالما استردت الأرض عافيتها، فإن النصب كان يقوم بتذكير الغزاة بقوة الجيش المدافع ووحشيته³.

¹ العراق القديم، سامي سعيد الأحمد، ج1، ص226، ط3، دن، بغداد، 1987.

² الجيش والسلاح في العصر الأكدي، عامر سليمان، ج1، ص110، ط1، دن، دت.

³ الفن في العراق القديم، أنطوان مورتكان، تر: عيسى سلمان، طه التكريتي، ص156 وما بعدها، ط2، وزارة الإعلام، بغداد، 1977.

وتطورت أساليب ووسائل تحقيق الانتصار من دون قتال حقيقي إلى صور أخرى تعزز المعنويات وتحطم قوة العدو واندفاعه، ففي العهد الآشوري كانت الإشاعة والدعاية من أهم وسائل الحرب النفسية، فالآشوريون كانوا يخصصون عددا من الأفراد للقيام ببث الإشاعات عن حجم الجيش الآشوري وأساليب بطشه بالأعداء؛ من أجل زرع الخوف في قلب العدو¹. هذا فضلا عن الترانيم والقصائد البطولية الحربية. وتمدنا الإمبراطورية الآشورية بمصدر أكثر ثراء بكثير - للدعاية للحرب - مما أمدتنا به الإمبراطورية البابلية، ومن أقدم القصائد الملحمية - على رغم أنه لم تبق منها سوى شذرات متفرقة، - قصيدة كانت من تأليف الملك (أداد نيراري الأول 1307-1275 ق.م) في تمجيد حروبه مع الكاسيين. ثم ترجع إلى نحو نصف قرن بعد ذلك، الملحمة الآشورية ذات السبعمئة سطر من الشعر التي ألقت للملك توكولتي - نيتورتا الأول (1250-1210 ق.م) - والتي تمجد منجزات الملك الحربية وشهامته إزاء الكاسيين. وقد يبدو أن الأحداث التي تصورها القصيدة مختلفة إلى حد كبير، وأنها وضعت للاستهلاك العام عن طريق إنشادها الشفوي أمام حشود ضخمة من الأميين. ولقد كان هذا النوع من سرد الحكايات ولا يزال وسيلة رئيسية للاتصال في إفريقيا².

ولكن ماذا عن الدعاية السابقة على المعارك؟ إن الحكايات المحذرة من أخطار مسار محتمل للقتال، كان يقف وراء تأليفها كهنة سومر القدماء الذين كانوا قد بدأوا منافسة الملوك على ولاء الجمهور. وكانت النذور والتنبؤات والتكهنات - أيضا - أشكالا من الإقناع الاجتماعي، وكان الدين - مبدئيا - هو المصدر الذي استمدت منه الدعاية المتعلقة بالنتائج المتوقعة للحروب الوشيكة. وكان استحضار الآلهة وسيلة مثلى - بالطبع - للمحافظة على سلطة ومكانة الكهان في مجتمع تحكمه الخرافات، ولكنه أيضا وسيلة مناسبة لرفع المعنويات قبل القتال، إذا ما كان الكهنة والملوك على رأي واحد³.

ولكن الملوك كانوا هم من يشعلون الحرب ويخوضونها، وكانت مشاركتهم للآلهة هي التي تضفي الشرعية على أعمالهم، وكانوا يشنون الحرب باسم الدين وليس من أجل الغنائم أو الأرض. فقد أعلن

¹ الجيش والسلاح في العهد الآشوري، يوسف خلف، ص 78، ط 1، الدار العربية للطباعة، بغداد، 1977.

² التعبئة وأساليب القتال في الجيش الآشوري، فاروق ناصر الراوي، ج 2، ص 65، ط 2، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1990.

³ العراق القديم، جورج رو، تر: حسين علوان حسين، ص 64.

الآشوريون على سبيل المثال، أنهم كانوا يشنون الحرب ضد أعداء الإله آشور، لكي يظهر عظمة معبودهم ومجده. ولقد فعلوا ذلك بوحشية، حتى أن الكثيرين من الأعداء المحتملين استسلموا دون قتال¹.

وحيثما حلّت الألف الأولى قبل الميلاد، كان حكام الإمبراطورية الآشورية يتقنون استخدام الوثائق والنصب لكي يوحّدوا السلوك المطلوب بين رعاياهم، ولكي يظهروا المساندة الإلهية لهم ولكي يدعموا مركزهم الملكي. ولقد عكست التحصينات والقصور إلى جانب زخارف فيها من التماثيل واللوحات الجدارية؛ قوة الملك ومكانته وكشفت عن انشغاله المستمر بالحرب². وعلى الرغم من أن الدين قد وفر للدعاية للحرب - وهي علاقة ظلت وسيلة قوية لتبرير العدوان على طول التاريخ - فإن الآشوريون كانوا محبين للحرب أكثر منهم متدينين، فمثلا نرى على نصب الملك إيناتوم الإله ممسكا الشبكة التي تأسر أعداء الملك، بينما نرى على نصب سارجون الملك نفسه ممسكا بهذا الرمز المتكرر. وقد أصبحت القصور أكثر من المعابد هي المصدر الأكبر لمثل هذه الدعاية الاحتفالية³.

وأشارت النقوش الآشورية الملكية إلى الأنشطة الحربية خلال حملات بعينها في تقارير تكتب على شكل سجلات سنوية؛ وتصف تلك السجلات - المرة بعد المرة- زحف الملك وجيشه إلى الحرب، ثم المعركة والنصر المحتم والظفر وإنزال العقاب بالمهزومين، ثم التقرير الختامي الذي يقدمه الملك لإلهه. وبصرف النظر عن الحقيقة فإن الحرب كانت تصور باعتبارها إجراء دفاعيا أو عقابيا، وعملا مجيدا في ملكية كان انتصارها يحقق باسم معبود يتخذ بشكل متزايد طابعا شكليا أو رمزيا.

وقد وضعت أيضا سجلات مصورة داخل القصور لحملات الملوك الآشوريين، سجلت على قوالب الطوب المغطاة بالسيراميك مرفوعة على الأعمدة الحجرية. وكان الغرض هو استعراض قوة السطوة الآشورية التي لا تقاوم بإظهارها في أثناء عملها في القتال. فالعربات الحربية المهاجمة والجيوش الزاحفة والمدن المحاصرة والأعداء المتقهقرون موضوعات متكررة في الفن والمعمار الآشوريين، بينما يظهر الإله

¹ التعبئة وأساليب القتال في الجيش الآشوري، فاروق ناصر الراوي، ج2، ص88.

² الجيش والسلاح في العهد الآشوري، يوسف خلف، ص90.

³ الفن في العراق القديم، أنطوان مورتكان، تر: عيسى سلمان، طه التكريتي، ص166.

آشور على الدوام مساندا للملك. والمثل الجيد لتلك السجلات المصورة هي (المسلة السوداء) التي أقامها شالما نصر الثالث (859-824 ق.م) التي تشيد بذكرى اكتشاف الملك لمنبع نهر دجلة بعد حملة حربية، وتحمل المسلة نقشا يقول: (صنعت صورة عائلية لجلالتي، ومجد آشور إلهي وجلائل أعمالي، وكل ما حققته في الأرض، نقشته على هذا الحجر هنا في هذا المكان)¹.

كانت تلك سياسة لنشر الرعب ممتزجة بسياسة للدعاية، استهدفت الإبقاء على الشعوب المهزومة الخاضعة ساكنة مستسلمة، وتخويف الأعداء المحتملين بتلك الصور المنحوتة والدعائية والوحشية النفسية².

وكذلك نجح الآشوريون باستخدام (استراتيجية الرعب) عن طريق ما يسمى (الصدمة)؛ وذلك بمفاجأة العدو في بلاده بجيش قوي جرار يقاتل وفق طريقة حديثة، كما يستعمل أسلحة حديثة من شأنها إرباك العدو فلا يسعفه الوقت أو الخبرة الكافية لمعالجة هذه الأسلحة الجديدة، فتتهار معنوياته ويرد دافع القتال لديه، حتى تصبح الهزيمة أقرب إليه كثيرا من الانتصار. وما دونته النصوص في هذا الإطار، توضح أنهم كانوا يدركون التأثير النفسي في الحرب ضد الأعداء، فيعلق الملك الآشوري (سنحاريب) على حملة عسكرية له قائلا: (لقد غضبت كالأسد وهجمت كالزوبعة بجنودي القساة ووليت وجهي نحو (مردوخ بلان) الذي كان في (كيش) ذلك صانع الظلم، رأى تقديمي من بعيد فأصابه الرعب وترك جيوشه وهرب إلى بلاد قو(كوزمانو) وحققت النصر)³.

لقد استخدم العراقيون القدماء وسائل نفسية عدة في قتال الأعداء، فحاصروا المدن واستخدموا طرق القتال المبتكرة والأسلحة الجديدة في الميدان، كما عملوا على اغتيال القادة والرموز وتقوية التعزيزات، وفضحوا أسرى العدو أمام الجمهور ووسائل أخرى تعد بلا شك من أقدم النماذج التاريخية في اتباع طرق القتال النفسي.

¹ من مشاهير القادة الآشوريين، فاروق ناصر الراوي، ج 1، ص 92.

² العراق القديم، جورج رو، تر: حسين علوان حسين، ص 88.

³ الجيش وال سلاح في العهد الآشوري الحديث (911-612 ق.م)، يوسف خلف، ص 142.

الفرع الثاني: الحرب النفسية في مصر القديمة

عرف قدماء المصريين الشائعات¹ شأن أي شعب، ففي معركة (قادش) لعبت الإشاعة دورا كبيرا، حيث بدأت بظهور بَدَوِيَّيْن، وأشاعا أنهما شَرِدَا من جيش العدو، وأن ملك الحيثيين (عدوهم) قد تقهقر إلى مدينة حلب، خوفا من الجيش المصري. فظلّ المصريون في شك من هذا القول، وبعد أن تقدم الجيش المصري دون حذر، لتصديق إشاعة انسحاب عدوهم من الحيثيين، وفجأة ظهر العدو، وانقض عليهم، وأحاط بهم من كل مكان².

فإشاعة الأمن في مجتمع متيقظ ومستعد لا شك أنها توهن من عزائمه.

- كما عرف المصريون القدماء أيضا التعامل بأسلوب الدعاية وخداع العدو وتضليله بمعلومات كاذبة، واشتهر من بين أسماء القادة المصريين (أمنحوتب) الذي ذكره التاريخ بأنه كان بارعا في فنون الدعاية واستخدامها في الوقت المناسب³.

- لقد كانت الدعاية المستخدمة آنذاك في مصر القديمة يلفها نوع من الاستناد إلى الأساطير والقوى الغامضة، وتصوير المهمة بتقديس يدفع المقاتل لاتباع قاداته وتطبيق إرادته فيما يريدونه من خطط، أو تحقيقه من أهداف.

ومن تطبيقات الحرب النفسية في تلك الفترة ما روته المصادر عن ما جرى في عهد الحاكم (تحتمس الثالث) في حربه لفتح مدينة يافا في فلسطين، وقد استعصى على المصريين فتحها، فلجأ القائد المصري إلى استدراج حاكم يافا وخداعه؛ حين صور له في رسالة أنه ساخط من أعمال فرعون وسينقلب عليه، ولما اطمأن حاكم يافا أخذ القائد المصري يقص عليه أسرار انتصارات فرعون وأن ذلك بسبب عصا سحرية، يعرف مكانها هو ولا يستطيع أن يربها علنا ولأبيّ أحد، فاقنتع الحاكم يافا بكلامه وأنه يجب أن يراها معه على انفراد، ولما حصل لهما ذلك عاجله المصري بضربة قوية من سيفه فأرداه قتيلا، ثم إنّه أرسل حامية الملك المقتول إلى داخل المدينة، بعد أن أوهمهم أنهم يحملون رسالة وأحمالا إلى زوجة حاكم المدينة، ولم تكن هذه الأحوال سوى مائتان من حرصه الخاص.

¹ أطلقنا الخاص -الشائعات- وأردنا به العام-الحرب النفسية-، ولذلك نستخدم أشهر أساليب الحرب النفسية من إشاعة ودعاية وغيرها في التعبير عن موضوع الدراسة المتعلق بالحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة.

² الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 55.

³ الحرب النفسية، موسى زناد، ص 20.

ما أن دخلوا المدينة، حتى انقضوا على قصر حاكم يافا، فسيطروا عليه، ثم فتحوا المدينة أمام الجيش المصري.

لقد نجحت خدعة القائد المصري هنا وخداعه وتغريه بحاكم يافا في احتلال المدينة وإحراق الهزيمة بخصمه عن طريق إجراءات معروفة في الحرب النفسية، خطته تشبه حادثه (حصان طروادة) الشهيرة في التاريخ اليوناني¹.

واعتمدت أساليب المصريين قديما في التعامل مع أعدائهم على بث العيون والرقباء والجواسيس، وعلى عدم الثقة بأي مصدر من مصادر المعلومات والأنباء ما لم يكن موضوعا من قبلهم، فقد خرج رمسيس الثاني سنة 1274 ق.م على رأس جيش كبير، إلى مدينة قادش التي كان العدو قد اتخذها مركزا للفتن والمؤامرات. وقرب المدينة قبضت على رجلين ادعيا أنهما فاران من حاكم قادش، فلم يثقوا بهم وعاملوهما بقسوة لكي يعترفا فلم يقولوا شيئا، وعند ذاك حاصرت قوات (قادش) جيش المصريين وكادت المعركة أن تكون لصالحهم لولا تدخل (رمسيس) وحرسه الخاص لإنقاذ جيشه، أما الرجلان فقد صدق الشك فيهما، فقد كانا من جواسيس العدو وأرسلهما لنقل الأخبار، وزرع الفتنة².

كما كان الفراعنة من أوائل من اعترفوا بقوة تأثير الأبنية المعمارية العامة على نطاق واسع؛ لإثبات سمو مكانة الأسرة الحاكمة ومشروعيتها.

ومع ذلك فلقد كانت دعايتهم الحربية، مثل تلك التي صدرت عن الآشوريين متذبذبة ومبعثرة، إذ لم يكن لها نمط متماسك ولا نظام، واستخدم المكان الديني لتعميق الولاء ونشر الخوف بين المحكومين³.

ولما كان الملوك الأقدمون يؤمنون هم أنفسهم بالخرافات، فقد حرصوا على أن يسندوا دعايتهم بالرعب، سواء كان ذلك في زمن السلم أو زمن الحرب. وبتعبير آخر، إذا كان الدين قد أنتج أصول الدعاية للحرب، فإن الرعب يمكن أن يعتبر منتج أصول الحرب النفسية. ولكن هذه مصطلحات حديثة ولا تصف بشكل دقيق الأنشطة الرامية إلى الإقناع التي قام بها الحكام القدامى؛ فهي مصطلحات تفترض وجود تنظيم وفلسفة لم يكونا قد وجدا بالفعل.

¹ عندما حكمت مصر الشرق، شتيندورف، سيل، تر: محمد موسى، ص80، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990.

² مصر القديمة عصر رمسيس الثاني، سليم حسن، ج6، ص422، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992.

³ طيبة أو نشأة إمبراطورية، كلير لالويت، ص98، ط1، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

المطلب الثاني: الحرب النفسية في الحضارة اليونانية والرومانية

الفرع الأول: الحرب النفسية في الحضارة اليونانية

في اليونان، اعتبر جميع غير اليونانيين (برابرة). وكانت هذه الكلمة تعني الناس الذين لا يتكلمون اليونانية (كانت كلمة ((باء - باء)) هي الصوت الذي رددته لغاتهم في الأذان اليونانية). وفيما يتعلق بمرحلة ما قبل عصر البرونز (قبل 2000 ق.م)، تظل المصادر عن المجتمع اليوناني شحيحة في أقل ما يمكن أن توصف به تلك المصادر. ونحن نعرف أنه فيما بين (1200 و 800 ق.م) دخلت اليونان عصرا مظلما إثر انهيار مجتمع عصر البرونز. وفي ملحمة إلياذة، التي ربما تكون قد كتبت في القرن السابع ق.م، كتب هوميروس عن حرب نشبت بين بريام ملك طروادة وبين اتحاد من الدول الإغريقية (الأخائيين) تحت قيادة ملك ميسينيا، أجاممنون. وروى كتاب آخرون بعد ذلك عن الطريقة التي أسفرت بها الحرب عن واحد من أقدم أمثلة الخداع في الحرب، أي حصان طروادة¹. فبهذه الوسيلة تمكن الإغريق من خداع الطرواديين وجعلهم يعتقدون أنهم قد أنهوا حصارهم للمدينة² فهزموهم حينما تدفقت القوات -فيما زعموا- من جوف الحصان الخشبي بعد أن كان الطرواديون قد سحبوه إلى داخل المدينة³.

فبدءا من حوالي 750 ق.م، برزت المدن باعتبارها الوحدة السياسية السائدة في اليونان، لكي تحل محل الممالك القبلية في المراحل السابقة. وفي انعكاس لهذا المجتمع الذي ازداد انتظامه الهيكلي، أصبح العمل الحربي بدوره أكثر تنظيما، مع ظهور وتطور كتائب المواطنين ثقيلة التسليح وتساعد موجة الاستيطان⁴. فماذا يمكن أن نستنتج من هذا عن دعاية الحرب اليونانية؟ لم تكن المدن اليونانية موحدة إلا من خلال اللغة المشتركة و البحر. وكان لكل مدينة (بوليس polis) أربابها. وكانت كل منها تمجد منجزاتها الخاصة (كانت لمدينة أثينا ربتها أثينا، ولأرجوس هيرا، وهكذا).

ولقد تشكلت التحالفات، ولكن كثيرا ما حارب الإغريق الإغريق، ومع ذلك فإن الحرب كانت عملا موسميا مع مجيء الجنود المتطوعين أساسا من المزارع التي لم تكن تحتاج إلى من يربعها خلال شهور

¹ الإغريق تاريخهم وحضارتهم، سيد أحمد الناصري، ص 122، ط 4، دار النهضة العربية، القاهرة، دت.

² الأساطير الإغريقية، عبد المعطي شعراوي، ج 1، ص 62، ط 1، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1982.

³ ذهب طروادة، هاينريتش شليمان، تر: رشدي السيسي، ص 133، سلسلة الألف كتاب، رقم 550.

⁴ اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، لطفي يحيى، ص 66، ط 1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1999.

الشتاء. ولم يكن هناك جيش محترف دائم، وكان جميع المواطنين-المزارعين بالتحديد- جنودا يؤدون خدمتهم العسكرية سنويا فيما بين مواعدي البذر والحصاد. واستخدمت مختلف المدن أساليب مختلفة للتأثير في قواتها والسيطرة عليها. ولم تكن ثمة وحدة تجمع بين المدن المستقلة، إذ لم يكن هناك سوى الخصائص المشتركة¹.

وكانت المنافسة العظمى لأثينا، هي مدينة إسبرطة التي تفوقت في فن الحرب كما هو معروف تماما². فإذا كان المحاربون الإسبرطيون يدرّبون على الحرب -منذ سن الباكورة- بواسطة الدولة، فإنهم كانوا يصبحون متشبعين بميزات الحرب وقيم الشجاعة في ميدان القتال حين يأتي أوان إرسالهم إلى المعركة. وخلال ما تسمى بالثورة المسيية ضد الإسبرطيين، وهي الحرب المسيية الثانية التي دامت نحو عشرين سنة بعد العام 640 ق.م، كانت الجيوش الإسبرطية تستمد الشجاعة من أشعار تيرنابوس الحرية (كانت هذه الثورة هي التي فرضت إيجاد جيش محترف دائم، واحتاج النظام العسكري الإسبرطي إلى أن يشدد قبضته على العبيد)، وإذ بسط الإسبرطيون سيطرتهم على الجزء الجنوبي من (البليونيز) القرن السادس قبل الميلاد، وأصبحوا القوة العسكرية المسيطرة في أراضي اليونان الرئيسية بحلول 500 ق.م، فإنهم أصبحوا مستعدين لتسوية خلافاتهم مع أثينا وللعمل معها لصد حلفاء الآشوريين، أي الفرس تحت حكم داريوس³، حينما اندفع هؤلاء نحو بلاد اليونان الرئيسية وفي داخلها، خلال الجيل التالي. وفي معركة ماراثون العام 460 ق. م حقق الأثينيون النصر - على العكس تماما مما كان متوقعا- دون عون من إسبرطة؛ لأن الإسبرطيين تأخروا لانشغالهم بأحد الأعياد الدينية.

ويعد هيرودوتس⁴ هو مصدرنا الرئيسي للحروب الفارسية (490-449 ق.م)، فيصف سلسلة من البشائر التي دعمت المعنويات الأثينية في معركة ماراثون. وعلى رغم الهزيمة التي لقيها الفرس في تلك المعركة فقد عادوا بعد عشر سنوات، يقودهم أجزر كسيس خليفة داريوس. وكان السكان

¹ المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، عاصم حسين، ص 110.

² أثينا السوداء، مارتين برنال، تر: نخبة من أساتذة التخصص، ج 1، ص 42، دن، القاهرة، 1997.

³ داريوس الأكبر: ويعرف باسم (هستاسبس) وهو ملك فارس وموسع إمبراطوريتها (550-486 ق.م) بسحقه مدن الإغريق في آسيا الصغرى، قبل هزيمته وفراره في موقعة ماراثون 490 ق.م.

⁴ هيرودوتس: المدعو أبو التاريخ (485-425 ق.م)، اشتهر بكتاباته عن حروب الإغريق والفرس وأسبابها وأحداثها، وكتابته المشهور عن رحلته في بلاد الشرق.

المحليون الآن قد أصبحوا أكثر صلابة في مواجهة عمليات النهب والسلب مما كانوا في عصر سارجون، وعرف أجزر كسيس قيمة أن يحمل المؤن مع جيوشه، وأن لا يتركها تعتمد فقط على الإمدادات المحلية، أما الجنود المزارعون الإغريق فقد قيل لهم أن يجلبوا معهم مؤونة ثلاثة أيام من الطعام. كانت العمليات الحربية تزداد امتدادا بالنسبة لكل من الزمن والمسافة.

وجاءت البشائر هذه المرة أقل إيجابية بالنسبة للإغريق، وذلك على الرغم من تكوين المدن لاتحاد كونفيدرالي فيما بينها. ودمر الفرس أثينا في العام 480 ق.م على الرغم من البطولات التي أبدتها الإسبرطيون في معركة ثيرموبيلي، ولم ينقذ اليونانيين سوى سلسلة من أعمال الخداع الذكية، قام بها ثيميستوكليس قائد الأسطول الأثيني. فقد كان هناك الكثير من اليونانيين يقاتلون إلى جانب الفرس، الأمر الذي أوحى للقائد الأثيني بأن يستخدم سلاح المعلومات المغلوطة ضد الأعداء، وترك ثيميستوكليس لأجزر كسيس ما جعله يعتقد بأن اليونانيين الملتحقين بالجيش الفارسي لا يوثق فيهم وأنهم على وشك التمرد. وبناء على ذلك اختار أجزر كسيس ألا يوجه تلك القوات إلى الجبهة. وأرسل ثيميستوكليس ما أوحى إليه بأن أكثرية اليونانيين المرابطين في ميناء سالاميس على وشك الفرار، فأرسل الملك الفارسي نصف أسطوله لكي يوقع بهم. وإذا تمكن الإغريق بذلك من خفض حجم الجيش ثم الأسطول الفارسي، فقد استطاعوا أن يغروا أجزر كسيس بأن يهاجم في سالاميس وهم في أوضاع أفضل بكثير.

وقام ثيميستوكليس بعمليات عدة تظاهر فيها بأنه يوشك أن يتخلى على القضية اليونانية، وصدقه أجزر كسيس. فلماذا؟ لقد كانت حقيقة الأمر البسيطة، هي أن هذا النوع من الانشقاق كان شائعا في اليونان القديمة، لدرجه أنه لم يكن لدي أجزر كسيس ما يدعوه إلى عدم تصديق ثيميستوكليس¹. وأدى تشكيل (عصبة ديلوس) تحت قيادة أثينا بعد ذلك، إلى هزيمة الفرس في نهاية العام 449 ق.م، حيث وافقوا على ألا يخرجوا من آسيا الصغرى مرة أخرى².

¹ الإغريق تاريخهم وحضارتهم، سيد أحمد الناصري، ص 241.

² المرجع نفسه، ص 254.

وانتصر اليونانيون على الفرس، على الرغم من الشواهد القوية التي كانت تنبئ بعكس ذلك. ولا يمكن تجاهل الدور الذي لعبته المعنويات المتفوقة عندهم، والدافع القوي النابع من دفاعهم عن وطنهم ضد الغزاة البرابرة، ولا يمكن اعتبار هذه العوامل مجرد عوامل مساعدة. ولكن ثيميستوكليس أثبت - في معركة سالاميس - أنه أستاذ في فنون الدعاية والحرب النفسية¹.

لقد خاض اليونانيون حروبهم كما لو كانت مبارزات جماعية، فقد كانت الحملات قصيرة المدى، وعادة ما كانت المعارك حاسمة، وكان مدى تكتيكاتهم محدودا نسبيا، وقامت كل كتية بعملها على أساس اعتمادها الذاتي كجماعة واحدة على نفسها، عاكسة بذلك نظام المدينة - الدولة. ولم يُنح تشكيل القوات في صفوف متراسة متتالية من المشاة ثقيلي السلاح - وهم يتصدون لخصومهم مواجهة كتلة واحدة - الفرصة للبطولات الفردية من النوع الذي أشادت به القصائد الملحمية. وباستثناء الإسبرطيين ذوي النزعة الحربية الذين ربما أدت تنشئتهم العسكرية، من سن مبكرة، إلى نزع فكرة الخوف من عقولهم (أو أنها على الأقل جعلت الخوف من الفرار أكبر بكثير من خوف المعركة) باستثناء هؤلاء، فإن الجيوش اليونانية كانت تحتاج إلى الكثير من جهود رفع المعنويات. كان القتال واجبا ينبغي أدائه للدولة، ولكنه كان أيضا عملا مربعا. ودائما ما خطب القادة اليونانيون في قواتهم قبل المعارك في محاولة لرفع الروح المعنوية. وكان الجنود اليونانيون يصرخون وهم يندفعون إلى القتال (ومرة أخرى باستثناء الإسبرطيين الذين كانوا يسيرون ببطء إلى المعركة على صوت الموسيقى)².

ولم يكن انتشار الذعر أمرا نادرا، وهو ما كان أحد أسباب استخدام المرتزقة المحترفين (غالبا ما كانوا من غير الإغريق) الذين كان الريح دافعهم لأداء الواجب. ولكن القاعدة، وخاصة حينما تشتبك الكتائب الواحدة ضد الأخرى، كان من الضروري مواجهة الخوف والإجهاذ في القتال المتواصل المنتظم وجها لوجه، بواسطة مزيج من الانضباط الصارم ورفع المعنويات قبل اندلاع المعركة.

ومن هنا فقد أصبح للدين في الحروب اليونانية أهمية نفسية، فالبشائر والنذر والخوارق - التي ربما كانت ظواهر طبيعية كالعواصف الرعدية ذات البروق أو خسوف القمر - كانت تستخدم

¹ المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، عاصم حسين، ص 187

² معالم التاريخ اليوناني القديم، إبراهيم جندي، ج 1، ص 422، ط 1، المكتب المصري، القاهرة، 1999.

في الاستعدادات النفسية للمعارك بوصفها علامات من الأرباب. وأتاح العرّافون والعرّافات - وأشهرهن عرّافة دلفي- وجود واسطة بين الإنسانية والآلهة، وبينما كانت القوات تتجمع من كل أنحاء العالم اليوناني في بداية أي حملة جالبين معهم العديد من مختلف الخرافات والآراء، كانت نبوءة العرّاف توفر لهم وجهة نظر واحدة يمكن أن يتحد حولها الجنود: كلمة من الأرباب إلى شعب اليونان¹.²

بل إن الإسكندر الأكبر قد استغل هذه التجربة اليونانية الجماعية المشتركة حينما استخدم - قبل إحدى المعارك- ثعبانا مدربا مزودا برأس إنساني مصنوع من القماش؛ لكي يثبت لجنوده أن الإله أسكليبيوس (asklpios) الذي كان يرسم عادة على شكل أفعى، يقف إلى جانبهم. ولقد استخدمت خدع أخرى إضافة إلى تلك الخدعة، مثل كتابة كلمة (النصر) بمواد صباغية على كبد حيوان مذبوح كأضحية، وإظهاره للجنود قبل المعركة كعلامة من الأرباب. ولقد سيطرت هواجس النذر الخرافية على الإسكندر حتى أصبح مضطربا من الناحية النفسية بسبب سلسلة النذر التي سبقت موته المبكر، مثل مشاهدته للقتال بين الغربان وسقوط بعضها ميتا عند قدميه.

لقد كان الخداع وتشويه المعلومات أو نقصها- مثلما رأينا- ملامح رئيسية عضوية في أعمال الحرب اليونانية. فإذا كان من الممكن تحقيق النصر بمساعدة ما نسميه نحن الآن (الدعاية)، فإنه غالبا ما كان يستدعي تقديم تضحيات للآلهة أكثر بكثير مما يمكن أن يستحق أي نصر عسكري حقيقي. غير أن الدين ظل هو الوسيط الرئيسي لمثل هذا النشاط. وهذا هو المعنى نفسه الذي عبّر عنه شيشرون³ فيما بعد قائلا: (وأي ملك أو شعب هذا الذي لم يحدث أن استخدم الكهانة؟ لست أعني في زمن السلم وحده، وإنما أكثر في زمن الحرب حين يصبح الكفاح والنضال من أجل السلامة في أقوى صورته).

¹ المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، عاصم حسين، ص 190.

² الأساطير الإغريقية، عبد المعطي شعراوي، ج 1، ص 77.

³ شيشرون: خطيب روما وقنصلها، وأحد أشهر ساستها ومشريعها في أواخر عصر الجمهورية، عاش بين 106 و 43 ق.م، قتله عملاء مارك انتوني لتنديده به.

وكانت النذر السيئة تُخفى فلا يعرف بها الجنود. أما تلك التي لم يكن من الممكن إخفاؤها مثل سقوط نيزك أو حتى العطسة، فكان فلا بد من شرحها شرحا إيجابيا من جانب القادة سريعى البديهة ومن معهم من المفسرين، لكي يقنعوا رجالهم بأن النذر ما تزال تقف في صفهم¹. فقد حدث طبقا لما يقوله بلوتارخ عند الفجر وقبيل معركة سالاميس أن حطت بومة على شراع سفينة القائد الإغريقي، فارتفعت معنويات الأثينيين؛ لأن البومة كانت هي رمز مدينتهم. وبعد ذلك بقرن ونصف من الزمان، وقبل نشوب المعركة بين الإغريق وبين القرطاجانيين، قام القائد الإغريقي أجاثوكليس (Agathoklis) خفية بإطلاق بومات عدة وسط معسكره الحربي لكي يرفع معنويات قواته.

وثمة أمثلة أخرى حيث أدت النذر السيئة - كالأحلام أو ظهور بعض الحيوانات - إلى تأجيل المعركة أو إلى التأثير في خطط القتال. فقد كتب أحد المؤرخين: (من المحتمل أن ما أولاه القائد الإغريقي من اهتمام بتقديم القرابين والأضاحي المبشرة، إنما كان بسبب تأثيرها على عقل الجندي العادي وشجاعته واعتماده على هذا التأثير أكثر من ثقته - غير المؤكدة - في تلك القرابين بوصفها مؤشرا يحدد الخطة التي يتعين اتباعها)². ولقد شاع استخدام هذه الحيل النفسية في الحروب الإغريقية لرفع المعنويات. حتى أن كندريك بريتشيت الذي ربما كان أول من درس هذا الموضوع كتب يقول: (إن المشكلة... هي تفسير عدم استخدام الحيل وأنواع الخداع المختلفة، حين كان يمكن لها أن تؤدي إلى تحقيق مكاسب أو مميزات حربية). ونحن نعرف أنه إثر هزيمة الفرس، بدأت الحضارة الأثينية في الازدهار، وبشكل خاص في عهد بيريكليس (495-429 ق.م) وخلال حرب البلوبونيز³ التي دامت عشرين عاما ضد إسبرطة (431-404 ق.م) وكان مؤرخ هذا الصراع وهو ثيوسيديديز (455-400 ق.م) أثينيا خاض القتال، وهو الذي تعد روايته للصراع مثالا نموذجيا للتأريخ الذي يبدو موضوعيا، ولكنه يقوم بوظيفة الدعاية. إنه يظل وفيا للقضية الأثينية ولكنه يستطيع أن ينتقد الأثينيين أيضا حيثما كان ذلك مناسبا ويقدم الحجج المضادة. وعلى رغم أنه أكثر اهتماما بتفاصيل الحرب ومعاركها وسياساتها،

¹ الأساطير الإغريقية، عبد المعطي شعراوي، ج 1، ص 94.

² المرجع نفسه، ج 1، ص 96.

³ الإغريق تاريخهم وحضارتهم، سيد أحمد الناصري، ص 217 وما بعدها.

فإن ثيوسيديديز يقدم بالفعل ملاحظات ثمينة حول وسائل رفع المعنويات الإغريقية، فهو على سبيل المثال، يصف خطاب الملك الإسبرطي أرخيداموس في قواته قبل حملته على أثينا، حيث قال الملك: يا أهل البليونيز وحلفائهم، لقد اشتبك آبائنا في حملات عدة داخل البليونيز وخارجها، وكبار الرجال في جيشنا هذا ليسوا قليلي الخبرة في الحرب. ومع ذلك فإننا لم نزحف قط في عدد أكبر من عددنا الآن. ومثلما نتحرك نحن الآن في أعداد أكبر وبعزيمة أقوى مما كنا عليه في أي وقت مضى، فإن المدينة التي نزحف ضدها الآن تقف في ذروة قوتها، ولذلك فإننا يجب ألا نكون أقل من آباءنا، وألا نكون أقل مما عرف عنا واشتهرنا به. وإن هيلاس كلها تراقب تحركنا بلهفة... فتذكروا إذن أنكم تزحفون ضد مدينة عظيمة، وفكروا أيضا في المجد أو - إذا انعكست الأمور - في العار، الذي سوف تجلبونه لأسلافكم ولأنفسكم، وإذ تذكرون كل هذا، اتبعوا قائدكم وانتبهوا أعظم انتباه إلى النظام والأمن، وأطيعوا من فوركم ما تتلقونه من أوامر، فإن أفضل وآمن الأمور يكون حين تنتظم قوة عظيمة حتى لتبدو وهي تتحرك مثل رجل واحد¹.

ومثلما تكشف هذه الخطبة، عرف الإغريق بالفعل الكثير من أساليب رفع المعنويات، والتي استخدمت في أزمنة لاحقة كالتوجه إلى عصبية الأسرة والكبرياء القومي، والتذكير بأن جميع السكان يرقبون أداء القوات، وضرورة النظام والتماسك واحترام العدو، يضاف إلى هذا كله، دور القائد العسكري، وما يمثله من حافز².

ولم تسفر حرب البليونيز فقط عن هزيمة أثينا، وإنما أسفرت أيضا عن تدهورها بوصفها مركز الحضارة الذي فرض نفسه. وقضى على إسبرطة - التي خرجت منتصرة مؤقتا - أن تقتفي أثر أثينا خلال جيل واحد. فلقد أُنْهَكَ الإغريق إنْهاكا شديدا بسبب تجدد الحرب مع الفرس، واستمرار الحروب (الأهلية)، وهزيمة الإسبرطيين أمام جيش طيبة (thebes) في معركة ليوكترا العام 371 ق.م. وكان من الضروري أن يظهر أجنبي هو فيليب المقدوني (382-336 ق.م) لكي يوحدتهم ولكن ليس قبل أن يصطدم

¹ تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه، ابتهاال الطائي، ص132 وما بعدها، ط2، دار الفكر، عمان، 2017.

² معالم التاريخ اليوناني القديم، إبراهيم جندي، ج1، ص429.

بالأثينيين. فقد حاول الأثينيون مرتين أن يقاوموا فيليب تحت قياده ديموثينيز (384 - 322 ق.م) المرة الأولى في العام 348 ق.م، والثانية في العام 339 ق.م¹.

غير أن الخطابة البليغة -مهما كان من حذقها- لم تكن كافية لتطاول تفوق المقدونيين العسكري. وإثر هزيمة أثينا، كوّن فيليب (العصبة الكورنثية) التي وحدت غالبية الدول الإغريقية (باستثناء إسبرطة) وأعلن الحرب على فارس في العام 337 ق.م؛ لكي يثأر لتدمير المعابد الإغريقية على يدي أجزر كسيس. وكانت الذريعة هنا دينية الطابع، حيث كانت المعابد الإغريقية تحوي كنوزا ومكتبات إغريقية أيضا، ومن أجل أن يحقق أهدافه وأن يفرض الوحدة الإغريقية، وخاصة مع حقيقة أن المقدونيين لم يكونوا يُعدّون إغريقا وإنما برابرة، فقد فرض فيليب مستويات جديدة للتدريب والتجنيد في جيشه، وطوّر نظام الفيلق المقدوني الذي أثبت تفوقه على النظم الإغريقية، وثابر على إلقاء الخطب في قواته لكي يحثهم على أن يكونوا شجعانا، وأسس أوّل هيئة محترفة للمخابرات. وكان المقدونيون بالفعل مشهورين بخدعهم وجواسيسهم. وقدرتهم على منع وصول المعلومات الثمينة إلى العدو، فلم تتساو مع منجزات فيليب في ميادين المعارك سوى قدرته بوصفه رجل دعاية في جهوده لتكوين الوحدة الإغريقية².

واغتيل فيليب في العام 336 ق.م، فخلفه ابنه ذو العشرين ربيعا، الإسكندر الأكبر الذي حمل مواهب أبيه العسكرية والدعائية. بل أصبح الإسكندر شخصية أسطورية شبه معبودة - من فرط إعجاب الناس واهتمامهم به - واكتسب شهرة متزايدة بوصفه عبقرية حربية تقف جنبا إلى جنب بل تفوق - هانيبال وقيصر ونابليون الذين أعجبوا به جميعا. ويرجع الكثير ممّا نعرفه عن الإسكندر إلى تلك الشهرة الأسطورية، كما أنّه لا توجد سوى مصادر قليلة للغاية تكشف معلومات عن حياته. ومع ذلك فإن ما بقي من المعلومات يكشف - دون شك - عن قائد ملهم للرجال، وربما أول رجل دعاية -عسكري سياسي- حقيقي عظيم³.

¹ تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه، ابتهاج الطائي، ص162.

² معالم التاريخ اليوناني القديم، إبراهيم جندي، ج1، ص430.

³ الإسكندر المقدوني، أحمد الرفي الشريف، ص57، مجلة جامعة سيها، مج6، ع3، 2007.

فبعد نجاحاته الأولى ضد الفرس، أذاع الإسكندر أنباء انتصاراته في اليونان بوصفها انتصارا للعصبة الكورنثية، على رغم أنّ الإغريق لم يشكلوا سوى جزء من التحالف الذي تولّى قيادته، بل إن بعضهم حارب ضده إلى جانب الفرس.

وفي محاولاته لتوحيد رجاله المقدونيين مع الفرس، قام الإسكندر في مدينة سوسة بعمل رمزي، حين تزوج هو نفسه بابنة ملك الفرس داريوس وتزوج ثمانون من ضباطه بنبيلات فارسيات. بل إن عملية تأليهه بوصفه ابنا لكبير الألهة اليونانيين زيوس (Zeus) يمكن أن تعتبر عملا من أعمال الدعاية السياسية، ويعكس هذا قِطْعَ النقود التي أصدرها.

فقد سكّت دار الضرب في الإسكندرية قطعاً نقدية يحلّ فيها وجه الإسكندر محل وجه هرقل (الإبن الحقيقي) لزيوس، وأطلقت على الكثير من المدن - بالطبع - من مصر حتى الهند أسماء مستمدة من اسمه مع مسيرة حملته الهائلة لغزو معظم آسيا- وليس فارس وحدها- وهو الغزو الذي أشار إليه- مقدما- ما قام به وأذيعت أنباؤه على أوسع نطاق في مدينة جورديوم، حينما قطع بسيفه (العقدة الجوردية)، مقنعا الناس بذلك بأن الآلهة هب التي منحه ما قدر له من حكمه لآسيا¹.

ومثلما فعل والده، استخدم الإسكندر الفنانين والحرفيين الإغريق لكي يقيموا له لوحات وتمائيل من البرونز. غير أن أكثر ما بقي من رسوم له يعود إلى الفترة التالية مباشرة لموته في السن الثانية والثلاثين، العام 323 ق.م. وتصور تلك الرسوم الإسكندر مؤلها في أسلوب إغريقي أو شرقي، وقد اقتبس القادة والأباطرة الرومان الذين أرادوا محاكاته أو تقمص شخصيته هذه الصورة النمطية الثابتة². ذلك أن أحد العناصر الأساسية لنجاحه كان اهتمامه الشديد بالتفاصيل المتعلقة بالمعنويات- ليس فقط وسط قواته- وإنما بين شعوبه أيضا. لقد تبين أن الدعاية -الحرب النفسية - تمثل بديلا ممتازا لحضوره الفعلي. وهو ما يفسر سبب الظهور المستمر والدائم لصورته - على قطع النقود والمباني وفي التماثيل وقطع الفخار والأعمال الفنية - في طول إمبراطوريته وعرضها. لقد تطلب الاتساع- الهائل لفتوحه- في زمن كانت المواصلات فيه بطيئة تحفها الأخطار- استخدام الصور

¹ تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه، ابتهاال الطائي، ص165.

² الأساطير الإغريقية، عبد المعطي شعراوي، ج1، ص102.

والرموز التي تشير إلى قوته، والتي تؤكد مكانته بوصفه سيد للعالم، واستخدم الدين لتفسير نجاحاته، ولعب هنا أيضا على أوتار خرافات شعوبه¹.

إن مجرد حقيقة أن الإسكندر يظل واحدا من أعظم شخصيات التاريخ؛ لشهادة ليس فقط على نجاح دعايته أثناء حياته، وإنما نجاح تكريس الإعجاب به وتحويله إلى مرجع تدور حول سجله الحربي شخصيات تاريخية لاحقة له. فقد أتاح الإسكندر النموذج الذي اتبعه من جاؤوا بعده. وبصرف النظر عن الحقيقة، فإن (الصورة) هي التي سيطرت على الخيال و تملكته.

لقد بلغت الدعاية للحرب والشائعات سن الرشد عند الإغريق القدامى. وبدأت توجه منذ ذلك الحين بقدر متزايد من الإلتقان والتدبير.

الفرع الثاني: الحرب النفسية عند الرومان

كانت الحرب جزءا أصيلا من الحياة الرومانية الباكرة، وكانت هي مفتاح التوسع الروماني، أولا فيما وراء حدود المدينة إلى شبه الجزيرة الإيطالية، ثم إلى ما وراءها في أوروبا الأكثر اتساعا، لكي تمتد في أوقات متفاوتة من إسبانيا وبريطانيا وفرنسا في الغرب إلى مصر والخليج وبحر قزوين في الشرق. وكان أداء الخدمة العسكرية (فيما كان يمكن أن يصل إلى عشر حملات عسكرية سنويا) من المؤهلات الأساسية للحصول على منصب سياسي على مدى تاريخ الجمهورية الرومانية (بين 510 و 57 ق.م)².

وفيما يخص أرستقراطيا شابا يملؤه الطموح السياسي، كان الاختيار لمنصب ال(تربيون) العسكري (وكان هناك ستة منهم في كل فرقة) خطوة أساسية لحياته العملية بعد ذلك في مجلس الشيوخ، ومن أجل تعيينه في منصب القنصل (وكان هناك قنصلان يعيّنان كل سنة) وهو منصب كان يتطلب مهارات عسكرية وسياسية عدّة³.

¹ قصص العقول، فيليب تايلور، ص 52.

² فن الدعاية والمخطط الصهيوني، فتحي الأبياري، ص 29.

³ قصص العقول، المرجع نفسه، ص 56.

ولم يكن ثمة مكان لتلك التجربة التربوية التي تشكل مثل هؤلاء الرجال، سوى الجيش، وبتعبير آخر، كانت الحرب هي دماء الحياة القادرة على توفير الواجهة السياسية والعسكرية لأي أرستقراطي روماني. وفي مثل هذا المناخ المفعم بالطموح، لم يكن ثمة نقص في دوافع الذهاب إلى الحرب. كان الأمر على حد تعبير (سالوست sallust): (بالنسبة لرجال من هذا النوع، لم تكن ثمة مشقة تعتبر غير عادية ولا أرض تبدو لهم وعرة أو شديدة الانحدار ولا عدو شاكي السلاح يبدو مخيفاً. فقد كانت الشجاعة قد فرضت سيطرتها الكاملة. غير أن المنافسة الشديدة كانت دائرة فيما بينهم في سبيل المجد: فأسرع كل واحد منهم إلى ضرب عدوّ من الأعداء وهزيمته أو إلى أن يتسلق متراساً محصّناً حتى تبصره العيون وهو يقوم بمثل هذا العمل)¹.

ولكن كيف كان الجنود العاديون والمديون يُدفعون إلى تأييد مثل تلك الأعمال الحربية؟ يبدو جلياً أنه لم يحدث في أي وقت أن عارض الشعب قرار مجلس الشيوخ بشن الحرب. فهل كان الشعب مشبعاً بالعقلية الحربية ذاتها مثل الأرستقراطية؟ لقد لعب الدين دوره، مثلما أقرّ بذلك الكاتب الإغريقي بوليبيوس حينما كتب يقول: إن الرومان كانوا يتميزون بالحكمة بحيث اتخذوا سبيل إثارة الشعور الديني لمصلحة عوام الناس. أو مثلما قال شيشرون نحو العام 45 ق.م: (وهكذا فإننا يجب أن نقنع مواطنينا بأن الآلهة هم سادة وحكام كل شيء...لأنه من المؤكد أن العقول المشبعة بمثل تلك الأفكار لن تعجز عن أن تشكل آراء صادقة ونافعة)².

ولا شك أن ثيوسيديديز وأفلاطون كانا سيؤيدان بترحيب تلك الكلمات. ولقد كان إله روما الرئيسي هو مارس (Mars) إله الحرب - بالطبع-. وقد استخدم الدين و بشكل يفوق كثيراً ما حدث في اليونان، استخداماً نفعياً بوصفه أداة للسيطرة الاجتماعية. ولنعد مرة أخرى إلى كلمات من بوليبيوس: (يتمتع الرومان بفاعلية بالغة في لحظات الأزمة، في استرضاء كل من الآلهة والبشر).

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص42.

² الإعلام والدعاية والحرب النفسية، حسين طوالة، ص16، ط1، عالم الكتب الحديثة، عمان، 2006.

ويخبرنا بوليبيوس أنه قبيل معركه زاما في العام 202 ق.م، قال القائد الروماني سيبو الإفريقي لقواته إنه إذا ما هزم هانيبال¹: (فإنهم سوف يحققون لأنفسهم ولبلادهم هيمنة وسلطة لا ينافسهم فيها أحد على بقيه العالم). لقد أثير هنا الإحساس بكل من المجد والشرف، بوصفهما مثالين واقعيين، ليس في سبيل مدينه روما فقط، وإنما في سبيل الجمهورية ككل التي كان مجلس الشيوخ يحكم باسمها (شيوخ وشعب الرومان).

كان سيبو - قاهر هانيبال في النهاية وهو عبقرى عسكري وحربي في حد ذاته - مدركا تماما لقيمة الأسطورة والحرب النفسية والدعاية؛ في دفع الرجال إلى القتال. كتب ليفي (livy) يقول: (لقد اجتهد للتأثير في عقول الرجال منذ البداية)، فتعمد أن يروج لصورته باعتباره إنسانا أسمى أو متدينا ملهما. وثمة قصة تشبه ما روي عن الإسكندر، تقول إن أمه حملت به بعد أن واقعها ثعبان، ولم يحدث أبدا أن رواها بنفسه...

ولكنه ساعد على ترويحها -بالإحجام الماهر- ولقد أعانت مثل هذه الحيل، على تدعيم أسطوره بين قواته ومؤيديه.

كما وصف بوليبيوس قتل المدنيين واغتصابهم -دون تمييز- في مدينة قرطاجة الجديدة في إسبانيا على أيدي قوات سيبو الإفريقي خلال الحرب البونية الثانية² (219-202 ق.م) قائلا: (إن الهدف من هذه العادة فيما أرى هو بث الرعب في القلوب). وهذا هو ما كان، فلقد شجع القادة الرومان وأيدوا ما اشتهرت به القوات الرومانية من شراسة ووحشية، بوصفها حيلة دعائية لإخافة الخصوم الآخرين، ولعلّ هذا هو ما جعل سيبو إميليانوس خلال الحرب البونية الثالثة (149-146 ق.م) يأمر

¹ هانيبال: القائد القرطاجي الشهير، قاد جيوش بلاده في الحرب البونية الثانية ضد روما، وعبر جبال الألب مصطحبا الفيلة لكي يحاصر المدينة، وعلى رغم انتصاراته الأولى فإنه عاد لكي ينقذ قرطاجة من جيش روماني يقوده سيبو الإفريقي الذي هزم هانيبال في معركة زاما (202 ق.م)، واضطر هانيبال أن ينفي نفسه ثم ينتحر لكي يفلت من الأسر.

² الحروب البونية: سلسلة الحروب الثلاثة التي نشبت في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد بين روما وقرطاجة، بسبب التنافس على السيادة في غرب البحر المتوسط وإسبانيا وشمال إفريقيا. انتهت الحروب (46 ق.م) بهزيمة قرطاجة وإحراقها. من أشهر قادتها -في الحرب الثانية- هانيبال القرطاجي، وسيبو الروماني الأكبر المعروف ب الإفريقي وذلك لانتصاره على أعدائه على الساحل الإفريقي.

بقطع أيدي 400 متمرّد في إسبانيا، (على رغم أنه يقال إن هذا الرجل نفسه قد بكى حينما رأى قرطاجة وقد دمرت تماما في نهاية الحرب).

ولم يحدث أبدا أن صوّر المؤرخون الرومان روما في صورة المعتدي. عندهم قامت روما دائما بالدفاع عن مصالحها، وقهرت الشعوب الأجنبية؛ لكي تنقذها من نفسها. وقبل أن يشنّ أي هجوم، كان المبعوثون يرسلون دائما في محاولة متباهية لحل النزاع في مصلحة روما بوسائل أخرى غير الحرب. ولا تعلن روما الحرب إلا إذا رُفضت مثل تلك المحاولة، فتعلنها بدافع (عادل)، وبعد أن تكون الوسائل البديلة قد جُربت لإنقاذ السلام. وأمثال تلك الذرائع (لأنها لم تكن سوى ذرائع في غالب الأحوال)، هي ما أعانت روما على الدفاع عن سلامة قضيتها، ليس فقط أمام شعبها وإنما أمام حلفائها.

لقد أكّد الكتاب الرومان وخاصة ليفي وبوليبيوس أنّ روما كانت ضحيّة للعدوان. وخاصة في الحرب البونية ضد قرطاجة. بينما الحقيقة هي أن استيلاء روما على سردينيا، ثم التدخل الروماني في إسبانيا، هو ما دفع قرطاجة إلى إعلان الحرب. وكانت روما تعرف أن مطالب سفرائها التي قدموها إلى قرطاجة العام 218 ق.م، سوف تقابل بالرفض.

وتوضح المصادر الرومانية أيضا، أنّ مفتاح النجاح الحربي يكمن في تدريب الجيوش وتنظيمها، وكثيرا ما منحت هذه الحقيقة - بخاصة - للجيوش الرومانية ميزة نفسية على خصومها. فبعد أن رسخت روما شهرتها بأنها قوة لا تقهر - على رغم بعض النكسات كتلك التي أنزلها هانيبال بروما في معارك بحيرة تراسمين وكانا - أصبحت روما قادرة على أن تعتمد على شهرتها بقدرتها على أن تخسر بعض المعارك أحيانا وكسب الحرب على الدوام. وكان وجود شبكة المواصلات الرومانية من الطرق البرية والبحرية والاهتمام التفصيلي بوسائل النقل والمؤن اللازمة للقوات. كان هذا في حد ذاته سببا في ردع أشدّ المعتدين عزمًا. فالأمر هو كما أكّده الكاتب الحربي الفرنسي من القرن التاسع عشر آردان دي بيك في قوله: (لا يستحق جيش اسمه دون انضباط... والانضباط لا يمكن صنعه ولا تثبيته في يوم واحد. إنه مؤسسة وتقليد من التراث)¹.

¹ فن الدعاية والخطط الصهيونية، فتحي الأبياري، ص 30.

كان الانضباط والمعنويات العالية عنصرين أساسيين فيما يتعلق بأسلوب شن الرومان للحرب.¹ وقد ضمنت الأساليب التكتيكية للقوات الرومانية، حتى في حالة هزيمتها، أن تنزل بأعدادها خسائر فادحة؛ لأن الأعداء كانوا عادة أقل تنظيماً وأقل انضباطاً بصور متفاوتة. ويتحتم القول إنه ربما كان الانضباط هو سر فعالية الدعاية الحربية الرومانية بين قواتها، ولم يحدث أن تمكنت قوة معادية أقل تنظيماً من عبور الحدود الرومانية بأقل قليل من النجاح، إلا حينما تقاطعت قوات رومانية كوحدة من المرتزقة، موالية لمن يدفعون لها في الصراعات الأهلية العديدة التي انتشرت كالأوبئة في التاريخ الروماني.²

ولقد كان (يوليوس قيصر) واحداً من أعظم القادة العسكريين في التاريخ، وكان مثل القادة العظام، مدركاً تماماً الدور الذي تستطيع المعنويات أن تلعبه قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها. ولقد ضرب بنفسه المثال وهو يتولى القيادة، مخاطباً قواته، بعبارة: (زملائي الجنود) قبل المعارك تاركاً ثقته الشخصية بنفسه تتخلل الصفوف. وفي (تعليقاته) وصف قيصر اللحظة التالية لحدوث هجوم مفاجئ وكيف كان على القائد أن يقوم بكل شيء في لحظة واحدة، أن يأمر برفع الراية، إشارة إلى النداء العام لحمل السلاح، وبأن تدق الطبول، وبدعوة القوات من الخنادق، وإرسال رجال لإعادة من كانوا قد ابتعدوا بحثاً عن المواد الغذائية... وبأن يتشكل الصف، وبالقوات أن تهتف بصرخاتها الحماسية، وبإشارة القتال أن تعلن... ولم تكن الهتافات الحماسية سوى شحنة تذكر الجنود ببسالتهم المعهودة، وبأن يتحرروا من الخوف، وبأن يواجهوا هجوم العدو بشجاعة...

وقد كان قيصر مؤمناً متشدداً بالانضباط، فعاقب -بقسوة- الهاربين من الخدمة والمتمردين، ولم ينسأبداً الدور الذي تلعبه الأموال والغنائم في دفع جنوده إلى القتال. وكان واحداً من أوائل القادة والمسؤولين الرومان الذين دفعوا صورههم على قطع النقود أثناء حياتهم بدلاً من طبعها بعد الموت، كما كان يحدث قبلاً طبقاً لمرسوم مجلس الشيوخ الصادر عام 44 ق.م، فكان دفع الرواتب مثل تلك النقود لقواته كافياً لتذكيرهم باتجاه وموقع مصالحهم.³

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص 44.

² الحرب النفسية الدعائية، عبد الرحمان العيسوي، ص22، ط1، منشورات الحلبي، بيروت، 2004.

³ الإعلام والدعاية والحرب النفسية، حسين طوبالة، ص18.

أما خليفة قيصر، ابن أخته، الذي أصبح فيما بعد الإمبراطور (أغسطس) فقد كان رجل دعاية وحرب نفسية أكثر نجاحاً من حيث تمكنه من البقاء إلى أن مات ميتة طبيعية. وكان نجاح القوة الرومانية العسكرية بقيادة (أغسطس) في حد ذاته دعاية ممتازة، استخدمت لإخافة الخصوم المحتملين، مثلما كان يحدث حين يقوم المبعوثون الإمبراطوريون بزيارة بلاط ملوك البرابرة، مذكرين أو حاملين أنباء الانتصارات الأخيرة، كما جرى تثبيت ذلك النجاح العسكري وتخليده، بغرس الاعتقاد في القوة التي لا تقهر بالشكل الذي نراه في الأعمال الفنية والاحتفالات ومباريات الألعاب والعملات المعدنية (التي تحمل عبارات: انتصار فلان أو النصر الأبدي...)، بل حملتها صيحات القتال التي كان الجنود الرومان يطلقونها على حد قول فيجيتيوس: (يستطيع القائد أن يشجع وأن ينشط قواته بالصرخات والصيحات المناسبة... ولا بد أن يستخدم كل حجة قادرة على إثارة الغضب والكراهية وغرس الشعور بالازدراء - في عقول جنوده - ضد خصمهم). وحالما كان يتحقق انتصار ما، فإن دوره في العقل الروماني سرعان ما يثبت ويشهر في شكل (مسيرة النصر) التي تقطع شوارع روما¹.

وكانت النقود المعدنية وسيطا مهما من وسائل حمل الشائعة والدعاية الرومانية، ووسيلة ثمينة لنشر صور مرئية للانتصارات الرومانية في كل أنحاء الإمبراطورية. فلقد استخدمت قطع العملة المعدنية - على سبيل المثال - لنشر بيان أغسطس عن: (السلام والانتصار) بعد الحروب الأهلية، ولكي يعلن إثر ذلك منجزاته العسكرية والدبلوماسية مثل غزو واحتلال أرمينيا واستعادة الأعلام والألوية البارثية. ومع ذلك فعلى الرغم من التظاهر باستعادة الجمهورية، فإن (أغسطس) كان يؤسس في الحقيقة سلالة إمبراطورية، وهو ما عكسه بناء ضريحه في العام 28 ق.م².

كما كانت ذروة أي حملة من حملات الدعاية الحربية الرومانية تأتي مع موكب النصر الذي يعبر روما عقب كل نصر عسكري لهم. وعلى رغم أن إقامة مثل هذه الموكب لم يكن كثير التكرار - للمحافظة على مهابة المناسبة وروعها -، فإن شعبية تلك الموكب وسط الجماهير كانت هائلة، وخاصة في عصر الجمهورية. ولقد أصبحت وظيفتها - التي كانت وثنية الأصل - وظيفة سياسية من حيث إثباتها أهلية

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص 45.

² فن الدعاية والخطط الصهيونية، فتحي الأبياري، ص 16.

الإمبراطور للحكم، وهذا هو السبب في أنه لم يكن يسمح في عصر الإمبراطور إلا لأعضاء السلالة الأغسطسية بإقامتها. وكان الموكب بقواته ذات الأزياء والأسلحة الاحتفالية الزاهية، وبما كان يسير فيه من الأسرى والغنائم يُصمم بهدف شحن الجماهير الفقيرة بمعان محددة، وهي الجماهير التي تكون بالفعل في حالة فوران نفسي بالغ، حيث تأتي لحظة ظهور الإمبراطور في عربة نصره الذهبية.

كانت المغامرات المستتلة من العدو تستعرض في الموكب مع الأسرى، وقد تستمر الاحتفالات أياما بل شهورا في بعض الأحيان (استغرقت الاحتفالات بالانتصار الثاني للإمبراطور تراجان العام 106، 123 يوما). وكانت تقام مأدبة إفطار خاصة للقوات، تليها خطبة للإمبراطور، ثم يسير الموكب، وربما ينفذ الإعدام علنا في قائد العدو. وقد عفا الإمبراطور (كلوديس) عن الملك البريطاني (كاركاتاكوس) لكي يظهر الإمبراطور عظمته أمام الجميع. وعلى رغم أنه لم يتحقق سوى ثلاثة عشر انتصارا بين العامين 31 ق.م و 235 ميلادية، فإنها كانت مناسبات لا تنسى ووسائل ثمينة لتوثيق الرابطة بين الإمبراطور وبين كل من الجيش والشعب. غير أن الانضباط ظل حقيقة أساسية لا تنفصل عن الحياة العسكرية الرومانية، وقد اعترف بذلك (أغسطس) طبقا لما قاله سيوثونيوس، بل إنه أمر بتسريح الفيلق العاشر وتشتيته مجللا بالعار لعصيانه الأوامر. وكانت الوحدات أو الأفراد الذين ينهارون في المعركة يصرفون من الخدمة ويسرحون، كما كان الهاربون يعدمون، وتوقع عقوبات قاسية على من يرتكب غير ذلك من المخالفات، وكان يطبق نظام الاختيار العشري على مثل تلك الوحدات، لكي يقتل واحدا من كل عشرة جنود¹.

وعلى طول عصر الإمبراطورية الرومانية، حافظ الأباطرة الرومان المتعاقبون على ادعاء مظهري متقن؛ هو الادعاء بأن روما ما يزال يحكمها شعبها ومجلس الشيوخ، بينما كانت تحكم في الحقيقة بأسلوب الملوك الذين أسسوا روما، أي بوصفها إمارة فحسب. وقد قرّب (أغسطس) شعراء وكتّابا وأغدق عليهم، ومن بينهم فيرجيل² وهوراس³ لكي يساعدوه في مهمته. وقد امتدح بليبي الإمبراطور تراجان

¹ فن الدعاية والخطط الصهيونية، فتحي الأبياري، ص 30

² فيرجيل 70-19 ق م شاعر روماني اشتهر بتأليف ملحمة الإنبيادة نسبة إلى مؤسس روما، بناء على تكليف من أغسطس أوكتافيوس أول أباطرة الرومان.

³ هوراس 65-8 ق.م شاعر روماني وكتّاب ساخر قامت شهرته في زمنه على مدائحه في روما وأخلاق الرومان...

في العام 100م؛ لأنه لم يعجب بالدعاية المسرفة وكتب يقول: (يظهر الشاء الحقيقي عليك في القصائد الجادة، وتخلد ذكراك أبد الدهر في سجلات التاريخ، وليس في دعاية قصيرة العمر، من المؤكد أنه كلما ازداد الصمت بشأنك فوق المنصة ازداد إجماع الجمهور وهو ينهض كله؛ لكي يعرب لك عن احترامه وتقديره...) وكانت مثل تلك المدائح في حد ذاتها وسائل مثلى للدعاية الإمبراطورية، يتجلى من خلال الاعتراف بالمبدأ القائل بأن الأحسن دائما أن يقوم شخص آخر بالتغني بك و امتداحك، بدل من أن تقوم بذلك بنفسك. فقد كان المداحون يشبهون الكتاب الدعائيين العاملين على ترسيخ الانبهار، إلى حد التقديس بقادتهم الإمبراطورين، بسماع أقوالهم على نطاق واسع وترديدتها، بل ونشرها حتى تصل إلى القادرين على القراءة. ولقد كان ذلك موضع التقدير لبعض الوقت، وذلك كما يتضح في طلب شيشرون من أحد أصدقائه: (سوف يسعدني أن تتولى مسؤولية الاهتمام بكل مصالحى الأخرى وبأكثرها أهمية، سمعتي). في عصر بلغ فيه إطلاق الشائعات والقذف في حق الناس -ذروته- (وليست مصادفة أن يكون فن التهكم الهجائي satire يعتبر واحدا من مساهمات روما الثقافية العظمى) فإن الممارسة الجيدة للعلاقات العامة، كانت عاملا أساسيا من عوامل البقاء السياسي. وقد انطبق هذا بشكل خاص على الجيش الذي أصبح هو عماد سلطة الإمبراطور مع مجيئ القرن الثالث، أصبح الأمر بتعبير أحد المؤرخين: (لقد حكم الإمبراطور في البداية من خلال الجيش... وفي القرن الثالث حكم الجيش من خلال الإمبراطور)¹.

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص 48.

المبحث الثاني: الحرب النفسية في العصور الوسطى

استجاب سيدنا محمد ﷺ للوحي، وأعلن في الناس أنه رسول الله إليهم، فآمنت به طائفة، وكفرت أخرى، فوقفت الفئة الكافرة عقبة في سبيله، وأخذت تستخدم الوسيلة تلو الوسيلة في صدّ الناس عنه. إن ما تعرض له رسول الله ﷺ من المشركين والمنافقين واليهود؛ ليعدّ من أشد ما تعرض له صاحب دعوة... وأشكال محاربته ﷺ تعددت من حرب مادية إلى حرب نفسية، ويهمننا في هذا الفصل ما تعرض له ﷺ وصحابته ودولة الإسلام من حرب نفسية بأسلحتها المختلفة، من دعاية وشائعة وتكذيب وهزء، ومحاولات عديدة لإيقاف دعوته، بالإغراء بالمال والجاه والملك ثم بالتخويف والإرهاب.

المطلب الأول: الحرب النفسية والإسلام

الفرع الأول: الرسول ﷺ والحرب النفسية قبل الهجرة

كانت انطلاقة دعوة الرسول ﷺ إلى هذا الدين الخالد في مكة المكرمة، أشبه ما تكون بعملية اندلاع نور قوي مفاجئ من غياهب حلكة دامسة، فاصطدم العقل لأول وهلة، وعشي البصر، وارتجفت القلوب والأطراف بل الأبدان كلها. حتى إذا ما زال أثر الصدمة الأولى، أدركت الجاهلية أنها أمام امتحان عسير لا بد أن تجتازه، وأنها أمام مفترق طرق لا اختيار فيه، فإما الإيمان وإما الكفر.

وقد مثلت تعاليم الإسلام وأحكامه وتشريعاته نقطة تحول كبيرة في حياة قريش وبقية قبائل العرب قبل أن يصل هذا التحول إلى بقية العالم. وفي كل مجالات الحياة: العقيدة، والعبادات، والأخلاق ونظام المعاملات وغيرها. إلا أن هذا التحول في نظام الحياة الشامل لم يمر من دون اعتراضات أو تصد أو ردود فعل، بل بدأت قريش مع انطلاق الأيام الأولى للدعوة حرباً نفسية شرسة ضد المسلمين الأوائل، يساعدها في ذلك قلة المسلمين - آنذاك - وضعفهم، وجهل الناس بمحاسن الإسلام وفضله على العالم، وجبروت قريش التي كانت تتخذ من موقعها المتميز في الجزيرة العربية ومن الأصنام تجارة وعبادة. وإذا كانت الحرب في مفهومها العام تتخذ من عقل الإنسان وعقيدته ومعنوياته هدفاً، وبمختلف أساليب التأثير التي تلائم بيئة الصراع ونظرة الخصوم لعملية النصر والهزيمة، فإن مشركي قريش يستخدم أسواقهم الموسمية، وقوافلهم التجارية، وعلاقاتهم مع بقية القبائل، وبراعتهم في الشعر والخطابة، ومواسم الحج واللقاءات العامة، مناسبات للدعاية ضد الإسلام والمسلمين وإثارة الشائعات عنهم، وإرهابهم وتهديد

المسلمين بالعذاب والتهجير والطرْد ومصادرة الأموال والتنكيل والسخرية والإغراء وإحداث الشقاق بينهم؛ بقصد تشتيتهم، ووَاد الدعوة في دروب مكة، قبل أن تنطلق وتنتشر، فلا يستطيعون وقفها أو السيطرة عليها.

بل كانت هذه الحرب النفسية الموجهة إلى المسلمين تزداد قوة وضراوة كلّما نما الإسلام وانتشر وقوي عوده. أو كلّما فشل أسلوب من أساليبهم فانتقلوا إلى غيره لإحداث التأثير المطلوب.

ونستطيع أن نوجز أسلحة الحرب النفسية التي استعملت من قبل المشركين في العهد المكي بما يلي:

البند الأول: الشائعات والدعاية الكاذبة والافتراء

أشاعوا عنه ﷺ الجنون والسحر والكهانة؛ وأخبر القرآن الكريم عن ذلك في أكثر من آية منها: قوله عز وجل: "وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا أُلَٰهٌ نُّزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ" ¹.

قوله عز وجل: "وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ" ².

قوله عز وجل: "كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ" ³.

قوله عز وجل: "لَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ" ⁴ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ" ⁴.

قوله عز وجل: "وَلَا يَقُولِ كَآهِنٌ فَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ" ⁵.

فجاء السياق القرآني ينفي تلك الشائعات، مدافعا عن النبي ﷺ.

- ولما توقف الوحي في مكة عن المصطفى ﷺ أياما معدودة، سارعت قريش بنشر الشائعات،

بأنّ ربّ مُحمَّد قلى مُحمّدا، حتى شق عليه ﷺ⁶. فطمأنه الله عزّ وجلّ في قوله: "وَالصُّحُفِ" ⁷ وَالنَّيْلِ إِذَا

سَجَى" ⁷ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى" ⁷.

¹ سورة الحجر، الآية 6.

² سورة ص، الآية 03.

³ سورة الذاريات، الآية 52.

⁴ سورة القلم، الآية 1-2.

⁵ سورة الحاقة، الآية 42.

⁶ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ج8، ص454، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

⁷ سورة الضحى، الآيات 1-3.

كما أحسّت قريش أنها بحاجة إلى أسلوب الدعاية الكاذبة والافتراء؛ لخوفها من انتشار الإسلام أكثر داخل مكة وخارجها، لا سيما وأنهم قد وقفوا بأنفسهم على انتشاره القوي، فاستخدموا أسلوب الدعاية الشاملة ضد الدعوة الجديدة، بكل ما احتوته هذه الدعاية من تشويه وافتراء وأكاذيب ومجادلة، وظنوا أنّ حرب الافتراءات لا بد أن تُفيدهم (خاصة) مع القبائل العربية خارج مكة والذين كانوا يَفدون إليها في المواسم والأعياد للتجارة والحج، فكان هدفهم من ذلك أن يعود هؤلاء بصورة مشوهة عن الدين الجديد ودعوة الرسول ﷺ.

وقد سجّل القرآن الكريم جملة من هذه المفتريات، منها:
قال الله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ إِفْتَرَيْنَاهُ فَلْجَاءُ بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ¹.

قال الله تعالى: "بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْزَمٌ بَلْ إِفْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ" ².

قال الله تعالى: "وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ" ³.

قال الله تعالى: "وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ" ⁴.

غيرها الكثير من الآيات المباركات التي أكد فيها الله تعالى أسلوب المشركين في الصد عن سبيل الله باتباع سبل الحرب النفسية، وفي مقدمتها الافتراءات، وإطلاق الدعايات التي تغير وجه الحقيقة وتشوه الصورة الفعلية للإسلام ودعوته، حتى إنهم كانوا يجتمعون في ناديهم بمكة لاختيار أفضل الصور، وأنجح الكلمات، وأبلغ المعاني المؤثرة في التشويه والافتراء على الله، وكانوا ينتقلون بين الكلمات والصفات المذمومة المنفرة، حتى قال لهم الوليد بن المغيرة: قولوا إنه ساحر، (يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه

¹ سورة هود، الآية 13.

² سورة الأنبياء، الآية 05.

³ سورة ص، الآية 03.

⁴ سورة القلم، الآية 51.

وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته...) ¹. وافترؤا على رسول الله ﷺ أنه رجل بسيط يتيم وأن أمر الرسالة عظيم، لابد أن يختص به العظماء. وقال تعالى: "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ بَيِّنَاتٍ مَعَهُ نَذِيرًا" ².

وحاول النضر بن الحارث تعميق هذه الافتراءات وإطلاق الدعاية على القرآن بأنه من أساطير الأولين، وقد كان هذا الرجل قد تعلم من الفرس بعض حكاياتهم وأساطيرهم، فأخذ يقصها على الناس، موهمًا السامع أنه بذلك ينافس الرسول ﷺ في كلامه. فردّ عليه القرآن الكريم بطلان دعايته؛ بقوله تعالى: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا بِهِمْ تُمْلِكُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" ³.

وخلاصة القول: إنّ اتّهام الرسول ﷺ من قبل مشركي مكة بأنه راوي أساطير أو الكذب، وغيرها من صفات وألفاظ، إنّما كان يراد بها تشويه سمعته وصورته ﷺ، فلا يتبعه أحد، ويفارقه من اتبعه، وقد حققت حرب الدعايات هذه بعض النجاح في إبعاد الناس عن الإيمان بهذا الدين، عن طريق تشويه صورة الداعي إليه، ضمن حرب نفسية شرسة، تجسّد فيها الصراع على أشدّه بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر.

البند الثاني: السخرية والاستهزاء

ولجأت قريش إلى أسلوب آخر من أساليب الحرب النفسية، كثيرا ما اتّبع حديثا بصور مختلفة وهو أسلوب الهزء والسخرية من الرسول ﷺ ومن آيات الله المنزلة عليه، ومن معجزاته ﷺ.

و أسلوب السخرية والاستهزاء يُتبع لإسقاط الهيبة من الخصم في نفوس الناس، فضلا عن تغليف الحقائق بغلاف من عدم الجدية، لتميع هذه الحقائق وإبعاد الناس عن احترامها أو التفكير فيها، وفي كلا الحالين ابتعاد الناس عمّن توجه إليهم الحرب النفسية، (ولا تسل عن العربي إذا جهل كم هو خبير في فن الاستهزاء، ومع أنّنا نعلم أن السخرية كلام وفقاعات هواء، إلا أنّها في الواقع و الحقيقة تجرح أبلغ من جرح السنان ما لم تكن النفس على ثقة عظيمة بذاتها وما تحمل من حق، وحتى هذه النفس تحزن ويثقل عليها الأمر) ⁴.

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، ص271.

² سورة الفرقان، الآية 07.

³ سورة الفرقان، الآية 05.

⁴ الحرب النفسية من منظور إسلامي، أحمد نوفل، ص23.

وبدأ رسول الله ﷺ دعوته الجهرية بعد ثلاث سنوات من الدعوة سرا، بعد أن نزل قوله تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" ¹، فبدأ ببني هاشم حيث جمع منهم 45 رجلاً ليخبرهم أنه رسول الله، وأن الإنسان يبعث كما يستيقظ ويموت كما ينام، فانفض عنه قومه المقربون غير مصدقين به، بل واستهزأ أبو لهب به ﷺ، وأعلن أبو طالب حمايته له، ثم جمع الرسول ﷺ بطون قريش على الصفا لينذرهم قائلاً: ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَّئْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو هَبٍ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلْتَ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)) ². وكان أبو لهب من أشد الناس قسوة على رسول الله ﷺ وأكثرهم سخرية به ³.

وقد اتبعت قريش ⁴ هذا الأسلوب أيضاً، وقصص علينا القرآن في كثير من آياته حالهم هذا: فهم يسخرون من الرسول ﷺ حين رؤيته قال تعالى: "وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًّا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا" ⁵. وقال تعالى: "وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًّا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَعِمْرُونَ" ⁶.

وكذلك هم يستهزئون بآيات الله قال تعالى: "وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًّا" ⁷.

قال تعالى: "وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًّا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ" ⁸.

ومن صور استهزاء هؤلاء برسول الله ﷺ أنهم كانوا إذا رأوه أشاروا عليه في استهزاء وقالوا: انظروا إلى حفيد عبد المطلب الذي يدعي أن لديه خبر السماء ثم ادّعوا أنه (حاشاه) مجنون واتهمه بعضهم

¹ سورة الشعراء، الآية 213.

² صحيح البخاري، البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، ج4، ص1787، حديث رقم 4492، باب وأنذر عشيرتك الأقربين . واخضع جناحك.

³ تاريخ يعقوبي، يعقوبي، ج2، ص18، دط، دن، 1425هـ.

⁴ المستهزون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة هم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد، والأسود ابن عبد يغوث، الحرث بن الطلائع. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ج3، ص105، ط1، مكتبة المعارف بيروت، دت. فتح القدير، الشوكاني، ج3، ص44، دار المعرفة، بيروت، دت.

⁵ سورة الفرقان، الآية 41.

⁶ سورة الأنبياء، الآية 26.

⁷ سورة الكهف، الآية 55.

⁸ سورة الجاثية، الآية 08.

بالسحر، وقال عنه آخرون: قد تقمصه شيطان، ولما يكفهم الكلام في الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم بل أضافوا إليه الفعل، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان يصلي عند الكعبة، وجماعة من قريش ينظرون إليه حتى قال أبو جهل: ((أَيْكُم يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَيْفِي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَيْفِيهِ قَالَ فَاسْتَضَحُّكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ وَهِيَ جُورِيَّةٌ فَطَرَحْتُهُ عَنْهُ ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ فَلَمَّا فَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ وَكَانَ إِذَا دَعَا ثَلَاثًا وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحْكُ وَخَافُوا دَعْوَتَهُ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَى صَرَغَى يَوْمَ بَدْرٍ ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ)).¹

ومن صور هذه السخرية اللاذعة التي كانوا يعاملون بها الرسول ﷺ وهي من أساليب عمل الحرب النفسية، أن بعضهم كان يطلق عليه لقب (الأبتر) إشارة إلى أنه لا خلف له من الأولاد الذكور، فأنزل الله تعالى في ذلك: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ" ².

والله عز وجل لن يترك المستهزين، ولن يفلتوا من يده، والله كاف عبده محمدا ﷺ: "إِنَّا كَقَبَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" ³.

ولن يفرح المشركون كثيرا بما عندهم من العلم، وحق بهم ما كانوا به يستهزون: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبِيِّ بَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ" ⁴.

¹ صحيح مسلم، مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ج3، ص1418، حديث رقم 1794، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين. البداية والنهاية، ابن كثير، ج6، ص294.

² سورة الكوثر، الآيات 1-3

³ سورة الحجر، الآية 95.

⁴ سورة غافر، الآية 82.

وفي آية أخرى يترك مصير غير المستهزئين غير محدد إلا أن العذاب واقع بهم لا محالة، نتيجة استهزائهم: "وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتْوْا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾"، وقال الله تعالى: "فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتْوْا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣﴾".¹

يقول الشوكاني رحمه الله في تفسيره مبينا تسلسل موقف المشركين في مكة من النبي ﷺ: (...فالإعراض عن الشيء عدم الالتفات إليه، ثم انتقلوا عن هذا على ما هو أشد منه وهو التصريح بالتكذيب، ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشد منه وهو الاستهزاء كما يدل عليه قوله: "فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتْوْا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ" والأنباء هي ما يستحقونه من العقوبة آجلا وعاجلا. وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن وقال: "مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ" ولم يقل ما كانوا عنه معرضين أو ما كانوا به يكذبون، لأن الاستهزاء أشد منهما ومستلزم لهما وفي هذا وعيد شديد)².

ويقول الإمام الغزالي: (ولم تفلح طرق الاستهزاء في الصد عن سبيل الله أو تشويه معالمها، إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من نعرات ومخازن تستحق الفضيحة والاستئصال)⁴.

البند الثالث: التعتيم والتشويش

حينما يئست قريش من غلبة رسول الله ﷺ بالحجة والبرهان لجأت إلى ما يسمى اليوم (بالتعتيم الإعلامي) و (التشويش الإعلامي).

وهذا الأسلوب كثيرا ما تلجأ إليه الدول المتخاصمة، أو يلجأ إليه الحاكم المستبد، حتى لا تصل الحقائق إلى الآخرين، والتشويش على الحقائق الذي يذيعها الخصم....

ومعروف لدينا أجهزة التشويش الحديثة التي تستخدمها الدول الآن، وخاصة أثناء الحروب. وما صنعتها قريش لا يخرج عن هذا الإطار، وهذا بعد أن لجؤا في كفرهم وعنادهم "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

¹ سورة الشعراء، الآية 03-04.

² سورة الأنعام، الآية 06.

³ فتح القدير، الشوكاني، ج4، ص194. (تفسير سورة الشعراء)

⁴ فقه السيرة، محمد الغزالي، ص34، ط1، دار القرآن، بيروت، 1980.

لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْفُرْعَانِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٥﴾¹. أي إذا تلي لا تستمعوا له، كما قال مجاهد- وَالْعَوَا فِيهِ بِالْمَكَاءِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيطِ فِي الْمَنْطِقِ.²

وهكذا نجد أن هذه الآية تبين أسلوب الكفار في التعقيم والتشويش... ففي قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْفُرْعَانِ" التعقيم على القرآن الكريم في عدم سماعه والإنصات إليه... حتى لا يؤثر فيهم.

وفي قوله تعالى: "وَالْعَوَا فِيهِ" أي ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له... وقال الضحاك: أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول.³

بالإضافة إلى قول مجاهد: الْعَوَا فِيهِ بِالْمَكَاءِ وَالتَّصْفِيقِ وَالتَّخْلِيطِ فِي الْكَلَامِ حَتَّى يَصِيرَ لَعَوَا.⁴

وكل هذه المعاني تعبر عن مفهوم التشويش الواضح الدقيق في الوقت الحاضر...

ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن الكريم؛ لأنه يحمل سر الغلب، إنه الحق، والحق غالب مهما جهد المبطلون.

البند الرابع: ممارسه الضغوط العائلية والإغراءات العديدة

وحاولت قريش الضغط على رسول الله ﷺ حتى يكف عن دعوته، وتسفيه أصنامهم، فاستعانت بعمه أبي طالب وقالوا: (يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفئتنا وفي نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تكفه فافعل)⁵.

فقال أبو طالب للنبي ﷺ: (يا ابن أخي والله ما علمت إن كنت لي لمطاعاً وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديتهم تسمعهم ما يؤذيهم فإن رأيت أن تكف عنهم. فحلق ببصره

¹ سورة فصلت، الآية 25.

² تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: سامي محمد سلامة، ج7، ص174، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ت: هشام سمير البخاري، ج15، ص356، ط1، دار عالم الكتاب، الرياض، 2003.

³ فتح القدير، الشوكاني، ج4، ص514.

⁴ الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي القيسي القيرواني، ج10، ص6515، ط1، جامعة الشارقة، 2008.

⁵ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، ج5، ص428، ط1، دار الفكر، بيروت، 1992.

إلى السماء فقال: "والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار". فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط ارجعوا راشدين¹.

وفي رواية أخرى أن أبا طالب بعث لرسول الله ﷺ و: (يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا كذا وكذا فأبى علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك)².

فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه، وانه خاذله ومسلّمه، وضعف عن القيام معه. فقال رسول الله ﷺ: (يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ: يا ابن أخي فأقبل عليه، فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا)³.

وبعدما فشلت قريش في الضغط العائلي، اتبعت أسلوبا جديدا مع الرسول ﷺ، يتمثل في أسلوب الإغراء بالمال والملك، لتحويل وجهته ﷺ، وهذا الأسلوب طالما اتُّبع حديثا في الحرب النفسية التي تشنّ على الدعاة والمخلصين، وإغرائهم بالمال والوظائف العالية، وقد يستجيب أصحاب النفوس المريضة لهم، ويتخلوا عن مبادئهم...

واتبعت قريش أسلوب الإغراء هذا.. مع الرسول ﷺ ظانّة أن الأمر قضية شخصية، أو دعوة لآرائه وأفكاره..! ولننظر إلى محاوله الإغراء عند أهل السيرة: (قال ابن إسحاق:.. أن عتبة بن ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ - جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ - يزيدون ويكثرُونَ؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلّمه؛ فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ - فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث

¹ المعجم الأوسط، الطبراني، ج8، ص، ط1، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دت.

² دلائل النبوة، البيهقي، ج2، ص61.

³ السيرة النبوية، ابن كثير، ج1، ص464.

قد علمت من السِّطَّة¹ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله -ﷺ: "قُلْ يا أبا الوليد، أسمع"، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مألًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مألًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملكناك علينا: وإن كان هذا الذي يأتيك رِئًا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله -ﷺ- يستمع منه، قال: "أقد فرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم قال: "فاسمع مني"؛ قال: أفعل. فقال: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {حم؟، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا} ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله -ﷺ- إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك².

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم³.

فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم⁴.

¹ السِّطَّة: المنزلة الرفيعة.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، ص313-314. البداية والنهاية، ابن كثير، ج3، ص63.

³ الروض الأنف، عبد الرحمن السهيلي، ج3، ص61، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000.

⁴ البداية والنهاية، المرجع نفسه، ج3، ص64.

وهل تظن قريش أن المسألة خلاف شخصي أو غاية في النفس، يمكن أن يحل بتوسط كبير العائلة أو القبيلة...أو بعرض الدنيا الزائلة الفانية... إنها دعوة الله... التي هي أكبر من أي عرف ومن كل ضغط وإغراء، وموقفه ﷺ نموذج لمواقف الثبات على الحق والصلابة في الرأي... والتي يجب أن يسير على منوالها الدعاة إلى الله على مر التاريخ.

البند الخامس: حرب الإيذاء والاضطهاد

لم يكتف المشركون بأساليب التشويه والافتراء والإغراء مما يغلب فيها العقل أو التعامل غير المباشر للوصول إلى الهدف وهو إفشال مسيرة هذا الدين، فلجأوا إلى أساليب القوة والإيذاء وإرهاب المسلمين وصولاً إلى تعذيب من تصل أيديهم إليه في إطار حملة منظمة من الحرب النفسية التي تستهدف عقل مسلم وعقيدته وعلى رأسهم رسول الله ﷺ.

يقول ابن هشام: (ثم إنهم عدوا على من أسلم، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والعطش والجوع وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يَصْلُبُ لهم، ويعصمهم الله منهم)¹.

وقد مرّ بنا أنهم ألقوا على جسده الشريف وهو يصلي سلا جزور، وفي أخرى أنهم اتفقوا على قتاله حتى أخذوا بمجاميع ثوبه وأبو بكر يصرخ فيهم: أقتلوا رجلاً أن يقول ربي الله، ومنها أن أبا جهل قال لجماعة من المشركين: (واللات والعزة إن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب). ثم ما هي إلا أن عاد إليهم خائفاً وهو يتقي يديه، فسئل عن ذلك، فقال: (إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة)². فقال رسول الله: (لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ غُضُوًا غُضُوًا)³.

كما اتبعوا طريقة الإيذاء والتعذيب مع بقية المسلمين، عسى أن يتركوا بذلك إسلامهم وينفضوا عن رسول الله ﷺ. وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، ص339.

² البداية والنهاية، ابن كثير، ج15، ص141.

³ صحيح مسلم، مسلم، ج4، ص2154، حديث رقم 2797، باب قوله: (إن الإنسان ليطغى).

إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوهم في نواحي المسجد ضربا شديدا، ووُطئ أبو بكر، وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين...¹

أما بلال ابن رباح رضي الله عنه، فلم يكن له أحد يحميه كعشيرة أو جماعة، فلقي من المشركين أشد العذاب، فكان يلقي في طرقات مكة على حصاها المحرق ظهرا وهو نصف عار من ملابسه، وتوضع على بطنه الأحجار الثقيلة حتى يكاد يفارق أنفاسه، فلا يقول سوى: أحد، أحد، حتى اشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه في سبيل الله.²

ولقي عمار بن ياسر وأباه وأمه أشد العذاب والتنكيل، فكانت أسرة أسلمت وصبرت وصمدت حتى نالت رضا الله تعالى، فقد مات ياسر تحت التعذيب، وطعن أبو جهل سمية أم عمار أسفل بطنها حتى ماتت، ولقي عمار ما لقي من العذاب الشديد، فكان يمرّ رسول الله ﷺ وهم يعذبون، فيقول: (صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ)³.

وهكذا سار الأمر مع بقية الصحابة رضي الله عنهم، خاصة من لا عشيرة له ولا عائلة تحميه، حتى أثبت مشركو قريش بذلك الأسلوب من الحرب النفسية أنهم من صف عارض الإيمان، وعمل على وقف الدعوة الإسلامية بشتى الوسائل.

ويذكر رسول الله ﷺ ما لقيه من أذى قريش في مناسبات عدة، منها قوله: ((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُؤْذِيْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذِي أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلَا لِبَلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ دُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُؤَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))⁴.

وكان من أذاهم لرسول الله ﷺ، أنهم اجتمعوا على قتله في آخر ليلة له في مكة قبل هجرته إلى المدينة المنورة، في خطة خبيثة تشترك فيها سائر القبائل فلا تقوى بنو هاشم على الثأر له، فكان أن أنقذه الله تعالى من مكرهم بأمر الهجرة وإفشال خططهم في محاولة إيذائه ﷺ. قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه

¹ البداية والنهاية، ابن كثير، ج3، ص30. الرسول ﷺ، سعيد حوى، ج6، ص8.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، ص294.

³ شعب الإيمان، البيهقي، ت: محمد السعيد زغلول، ج2، ص239، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ.

⁴ مسند أحمد، أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، ج21، ص433، حديث رقم 14055، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001.

من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة.. يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

فقال بعضهم لبعض: إنّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به من أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيرا والنابعة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي¹: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب هذا الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلاؤشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي. فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وإلقتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبيته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير به إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذوا أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أو يروا فيه رأيا غير هذا. فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسييا وسيطا فينا ثم نعطي كل فتى سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا. فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل هذا الرأي ولا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم يجمعون له².

¹ الشيخ النجدي: إبليس لعنه الله في صورة شيخ اشترك مع أشرف قريش في دار الندوة للتأمر على النبي ﷺ. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ج3، ص175.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، ص480.

قال ابن إسحاق: فكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قوله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ" ¹، وقوله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ" ² فَلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ" ³. قال ابن إسحاق: فأذن الله لنبيه بالهجرة ⁴.

وكان علاج القرآن لحالة المسلمين هذه وتعرضهم للأذى والإرهاب والتعذيب هو بالصبر، وكان رسول الله ﷺ قدوتهم في ذلك صابرا محتسبا، مؤمنا بنصر الله له مهما تكن التضحيات، وكذلك استخدم بعض المسلمين ما عرف بين القوم بالجوار، فكان بعضهم يدخل في حماية أحد المشركين، ويعلن ذلك حتى لا يتعرضوا له بالعذاب، حتى إذا أخبر القرآن رسول الله ﷺ بعصمة الله وحمايته من المستهزئين، ردوا جوار المشركين وتصدوا لأذى الكفار بكل شجاعة وصبر وتحمل ⁴.

وكان في أمر رسول الله ﷺ لصحابته في الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، حربا نفسية مضادة أوهنت صف المشركين، وأضعفت صفهم، فكانت علاجا لحالة التعذيب التي مارسها المشركون في مكة.

البند السادس: التئيس والتعجيز (طلب الخوارق)

ولجأت قريش إلى ملاحقة خطوات الرسول ﷺ وهو يدعو إلى الله، لينفروا الناس من حوله، وليبعدوهم ما استطاعوا عن دعوته، لعلّه يفتّر ويأس. وهي وسيلة أخرى من وسائل الحرب النفسية المتبعة من قبل المشركين والتي تدل على أن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسيلة أخرى، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة ⁵.

¹ سورة الأنفال، الآية 30.

² سورة الطور، 28-29.

³ البداية والنهاية، ابن كثير، ج3، ص177.

⁴ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج1، ج2، ص180، ط10، دار الشروق، القاهرة، 1982.

⁵ السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، ص60، ط1، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، 2003.

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لقد كان رسول الله ﷺ يخرج في المواسم فيدعو القبائل، ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه، فقد كان يأتي القبائل بمحنة وعكاظ ومحنة¹ حتى يستقبل القبائل يعود إليهم سنة بعد سنة حتى أن القبائل منهم من قال: ما آن لك أن تيأس؟.

كما لجأت قريش إلى طلب خوارق العادات والمعجزات من الرسول ﷺ في محاولة لإحراج وإظهاره أمام الناس مدعياً وكاذباً، وفي هذا الأسلوب ما فيه من عظيم فتنة وابتلاء ما لا يخفى على أحد. فطالبوا أن يزحزح الرسول بطلب من ربه الجبال التي تحيط بمكة والتي ضيقت عيشهم، وطلبوا أن يفجر عيون الماء ليحل مشكلة المياه، وأن يحول القفار إلى جنان من نخيل وأعناب، وطلبوا كتابا ينزل من السماء يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم².

قال الله تعالى: "وَقَالُوا لَوْ نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَخْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُخْرِجَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ﴿١١﴾ أَوْ تُسْفِطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسَباً أَوْ تَأْتِيَ يَا اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ فَيَلًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَوْ نُؤْمِنُ لِرَفِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّفَرُّهُ، فُلْ سُبْحَنَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾"³

وقريش غفلت عن المعجزة الباقية في القرآن، فراحوا يطالبون تلك الخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم. (والخارقة ليست من صنع الرسول، ولا هي من شأنه، إنما هي من أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته، فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله في تدييره بمنعان الرسول أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به "فُلْ سُبْحَنَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا". يقف عند حدود بشريته، ويعمل وفق تكاليف رسالته، لا يقترح على الله ولا يتزبد فيما كلفه إياه)⁴.

¹ محنة وعكاظ ومنى هي مواضع قرب مكة المكرمة.

² تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج2، ص172.

³ سورة الإسراء، الآيات من 90 إلى 93.

⁴ في ظلال القرآن، سيد قطب، ج4، ص225.

ورغم مطالبة المشركين رسول الله ﷺ بتحقيق المعجزات من قبل ربه، فإن ذلك لم يتحقق. والحكمة في أنهم لم يجابوا؛ لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا أو شاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، ولظلوا في غيهم وضلالهم¹.

ولهذا قال الله تعالى: "وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَكِّيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَبَلَّأَ مَا كَانَ لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ" ².

وقال تعالى: "جَمَّ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ فَرَعَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا بِأَعْرَاضٍ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا فُلُونَنَا فِيْ اَكْبَنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَادَانِنَا وَقَرْوِمٍ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ بَاعْمَلِ إِنَّا عَمِلُونَ" ³.

وقول كفار قريش في الآية الأخيرة أنفا، إمعانا في العناد، وتيئيسا للرسول ﷺ ليكف عن دعوتهم، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع كلماته، على حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين.

قالوا: قلوبنا في أغطية فلا تصل إليها كلماتك، وفي آدانا صمم فلا تسمع دعوتك. ومن بيننا وبينك حجاب، فلا اتصال بيننا وبينك، فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا، أو أنهم قالوا غير مبالين: نحن لا نبالي قولك وفعلك وإنذارك ووعيدك، فإن شئت فامض في طريقك فإننا ماضون في طريقنا، لا نسمع لك وافعل ما أنت فاعل، وهات وعيدك الذي تهددنا به فإننا غير مبالين.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يجاب هؤلاء إلى ما طلبوا من المعجزات وخوارق العادات؛ لأن سنته تعالى أنه إذا طلب قوم فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا فقد حق عليهم العذاب عندئذ، كما حصل في الأمم السابقة وأخبر القرآن الكريم عنها.

وقد كان للأدب الرباني الذي تمتع به رسول الله ﷺ، وحكمته البالغة في تقدير عواقب الأمور والأحداث، ولأنه رحمة للعالمين، فلا يريد إيقاع قومه في حرج كهذا، لم يسع أو يطلب من ربه الجليل تحقيق هذه المعجزات بل كان جوابه مشهورا ومشهودا له بالحكمة البالغة. (مَا هَذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)⁴.

¹ السيرة النبوية، علي محمد الصلابي، ص 179، ط 3، دار المعرفة، بيروت، 2005.

² سورة الأنعام، الآية 113.

³ سورة فصلت، الآيات من 01 إلى 04.

⁴ السيرة النبوية، ابن هشام، ج 1، ص 458. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 10، ص 329.

لقد كان القرآن الكريم خصيم المشركين في أسلوبهم الضاغط هذا والمخرج لرسول الله ﷺ، فكانت الآيات المباركات تنزل من السماء مسجلة هذه الطلبات المعجزة، ومجبية إياهم أنهم لن يؤمنوا مع تحقق آية أو معجزة... وما من شك أن لهذه الطلبات التعجيزية أثرها على نفس الداعية، وهي معوق في نفوس المدعويين الذين لم يستتب لهم وجه الحق بعد، ولم تتحقق لهم المقاييس الصحيحة لمعرفة الوحي من الأساطير أو السحر.

خاصة وقد استمر مشركوا مكة في أسلوبهم الضاغط والمراوغ في طلب المعجزات، ولم يكتفوا بما لديهم من محاولات فاستعانوا باليهود في ذلك.

حيث أرسلت قريش النضر بن الحارث، وعقبه بن أبي معيط إلى المدينة لسؤال أحبار اليهود. فقال لهم اليهود: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح؟. وفعلوا ذلك لإحراج الرسول ﷺ. فأجاب القرآن الكريم عن أسئلتهم في سورة الكهف، ورغم أن أحبار اليهود قالوا لهم أنه إذا أجابكم آمنوا به، إلا أنهم لم يؤمنوا، ولم يؤمن اليهود أنفسهم بدعوته¹.

لقد كان جواب وأسلوب رسول الله ﷺ عن مطالبهم عقليا ومنطقيا، فقد أحالهم إلى العقل لإدراك منطقية ما يطلبون وعدمها، وإن الإدراك العقلي والتفكير المنطقي هو الذي يدل على وجود الله تعالى، وإذا كانت المعجزات آنية وغير خالدة، فإن معجزة العقل وثماره لا تنقطع ولا تنتهي، قال تعالى مفصلا كلام الرسول ﷺ: "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَّبِعُونَ" ².

البند السابع: المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية

ولجأت قريش إلى سلاح المقاطعة، وذلك عندما رأت أن الإسلام ينمو بين القبائل... ولم ينفع ملاحقة المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وأن حمزة أسلم وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقررت قريش مقاطعة الرسول ﷺ اجتماعيا واقتصاديا، وهو أسلوب من أساليب الحرب النفسية المعروفة، ويتبع لإيقاع الضرر بالخصم عن طريق محاربته بمنع الزواج والطعام وحجب مصادر قوته وتخفيف منابع الخير لديه حتى يفتقر، وتضطره الحاجة إلى التنازل عن آراءه وعقائده التي يعتقدها، ويترك أمر دعوته، فيستسلم للخصم من غير شروط، أو يتنازل لعدوه عن مبادئه. (كما لجأت قريش إلى مقاطعة

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، ص299-301.

² سورة الأنعام، الآية 51.

المؤمنين كسلاح من أسلحة المقاومة والتعذيب، ليحملوهم على ترك الإسلام ويصدّوا غيرهم عن الدخول فيه وكانت مقاطعتهم عامة في التجارة والمعاملة والمصاهرة والنفقة وكانوا يقصدون إفقار المؤمنين وكساد تجارتهم وبوار بناتهم وتجويعهم، وهو إسفاف في الحرب وفجر في الخصومة)¹.

ولقد لجأت قريش لهذه الطريقة حينما رأت فشل بقية الأساليب في ثني الرسول ﷺ عن الدعوة، فقررت المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية وذلك في كتاب يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يتاعوا منهم... ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة، ولا يخالطوهم ولا يجالسوهم ولا يكلموهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتوائقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم)².

وبقي الرسول ﷺ وصحابته ثلاث سنوات متواليات في هذا الحصار القاسي، لا بيع ولا شراء ولا زواج... واشتد عليهم البلاء والحاجة إلى الطعام حتى أكلوا أوراق الشجر، ورسول الله صابر رغم ما يؤلمه وما يراه، زوجه خديجة الطاعنة في السن وابنته فاطمة الصغيرة وعمه أبو طالب وبقية آله وأصحابه، ومع ذلك لم يتوقف يوماً عن تبليغ دعوته ليلاً ونهاراً، سرا وجهراً.

أخرج أبو نعيم عن سعد بن أبي وقاص، قال: كنا قوما يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومرنا عليه وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقة شيء تحت بولي فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرتين ثم استفتتها وشربت عليها من الماء فقويت عليها ثلاثاً.³

وبقي بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب حتى جهدوا من ضيق الحصار، وأكلوا ورق السمر⁴، وأطفالهم يتضاغون من الجوع حتى يسمع بكائهم من بعيد، وقريش تحول بينهم وبين التجار فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً حتى لا يشتروها...

هكذا ضرب الصحابة مثلاً رائعاً في الثبات على الحق، والصبر على الشدائد، والتضحية بكل غال في سبيل الله دون أن يتنازلوا قيد شعرة عن عقيدتهم... حتى انبرى قوم من المشركين على تمزيق أمر

¹ الجهاد في الإسلام، محمد شديد، ص 34، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.

² زاد المعاد، ابن القيم، ج 2، ص 46.

³ السيرة النبوية، ابن هشام، ج 1، ص 313-314.

⁴ السمر نوع من الشجر ويسمى شجر الطلح ينبت في شعاب مكة.

صحيفة الحصار خجلا من أقوال العرب في ذلك وشفقة على بني جلدتهم من أن يهلكهم الجوع، وكانت معجزة الله تعالى حاضرة حين وجدوا الأرضة قد أكلت جلد الصحيفة إلا عبارة (باسمك اللهم) فانتهى الحصار والمقاطعة من دون أن يحقق هدفه في استسلام المسلمين أو تراجع الرسول ﷺ عن أمر الدعوة¹.

وهكذا نجد أن هذه المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لم تزد الجماعة المسلمة إلا ثباتا على الحق.. وذلك بوجود الإيمان الصادق.. والذي تتحطم على صخرته كل الحروب النفسية والمادية.. لقد اتبع المشركون في العهد المكي وسائل وأساليب مختلفة من الحرب النفسية لإضعاف معنويات المسلمين وخنق دعوة الرسول ﷺ إلا أنها باءت بالفشل الذريع بعد أن استمرت قلوب الناس تهفو للدخول في هذا الدين وتدافع عنه مهما تكن الضغوط الموجهة إليها.

الفرع الثاني: الرسول ﷺ والحرب النفسية بعد الهجرة

لم يجد الرسول ﷺ بُداً في نهاية المطاف من الهجرة من مكة إلى الموطن الذي احتضن الدعوة والداعية.. إلى المدينة المنورة، ففي أواخر العهد المكي صعدت قريش من مقاومتها وطوّرت أساليبها إلى حدّ التآمر على قتل النبي ﷺ وتوزيع دمه على القبائل، كما خططوا لذلك في دار ندوتهم، وقد وصف القرآن مؤامرتهم بقوله: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ"².

قال الخربوطي: (وأخفقت الحرب النفسية التي أعلنتها قريش إخفاقاً تاماً، فهذه الحروب لا تؤثر إلا في النفوس الضعيفة، المزعزعة بالإيمان. ولقد كان للمسلمين الأولين من إيمانهم القوي ما جعل أفئدتهم وعقولهم في منأى عن التأثير بهذه الحملات المغرضة المضللة.

وأدركت قريش أنها أخفقت ولقيت هزيمة ساحقة في ميادين الحروب النفسية، فلجأت إلى أسلحة أخرى³.

استمرت قريش في كيدها للمسلمين وحرها عليهم في الفترة المدنية، وفي هذا الشأن يقول الأستاذ المباركفوري: (إنّ الدّ قوّة ضدّ الإسلام في قريش، وقد جرّبت حين كان المسلمون تحت يدها كلّ وسائل الإرهاب وأساليب التهديد والمضايقة وسياسة التجويع والمقاطعة، وأذاقتهم التنكيلات والويلات، وشنت

¹ السيرة النبوية، ابن كثير، ج2، ص43.

² سورة الأنفال، الآية 30.

³ الرسول والحرب النفسية، علي الخربوطي، ص8، ط1، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972.

عليهم حرباً نفسية مضمّنة مع دعاية واسعة منظمة، ثمّ لما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم، بل حبست وعدّبت من قدرت عليه، ثمّ لم تقتصر على هذا، بل تأمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ والقضاء عليه، وعلى دعوته، ولم تأل جهداً في تنفيذ هذه المؤامرة.

وبعد الهجرة قامت بدورها السياسي لما لها من الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب، بصفتها ساكنة الحرم ومحاورة بيت الله، فأغرت غيرها من مشركي الجزيرة ضد أهل المدينة، حتى صارت المدينة في شبه مقاطعة شديدة قلّت مستورداتها في حين كان عدد اللاجئين يزيد يوماً فيوماً.

إنّ ((حالة الحرب)) قائمة يقينا بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد¹. وإنا نرى أن نتحدث عن اليهود وحرصهم النفسية على رسول الله ﷺ، فلقد قدم ﷺ على موطن فيه أعقد شعب عرفته الأرض، وأخبث وأمكر وأدهى من على الأرض.

بعد أن وصل رسول الله إلى المدينة وجد أبناء عمّ محترّبين هم الأوس والخزرج، وقد كان اليهود يسعون الخلاف بين الفريقين، ويمدّون هؤلاء وهؤلاء بالسلاح حتى يبيدوا بعضهم بعضاً، وهي سياسة في الكافرين الطامعين معروفة قديمة.

وحلّ النبيّ الكريم ربوع المدينة، فقلب موازين القوى رأساً على عقب، وجعل المحترّبين جسداً واحداً كأثم بنيان مرصوص، وشعر اليهود أثمّ فقدوا بالإسلام وبرسول الله ﷺ امتيازاتهم وزعامتهم، فشكّلوا حلفاً شيطانياً مع المشركين. والتقى على المدينة بهذا طرفاً كماشة من العداوة، القرشيون ومشركو العرب من الخارج، وهم يمثلون التهديد المادي العسكري، واليهود وأشياعهم من المنافقين وهم يمثلون أدوات التعويق والتثبيط النفسي في الداخل.

ونختصر بعضاً من أنواع الحرب النفسية لليهود على رسول الله ﷺ في الآتي:

البند الأول: حرب الجدل

من المعروف عن اليهود أثمّ أهل جدل، فقد أتعبوا أنبياءهم بالتوائهم ومجادلتهم، وقصصهم مع موسى عليه السلام أشهر من أن يشار إليها.

وقد بدأت حرب الجدل بين النبي وبين اليهود مبكرة، نستطيع أن نقول بحلوله المدينة، وزاد من أوارها إسلام بعض أحبار يهود ومحاجتهم قومهم، ومن أوائل من أسلم منهم: عبد الله بن سلام، وهو حبر من كبار علمائهم ومخبريق.

¹ الرحيق المختوم، المباركفوري، ص 203.

وقد روى ابن هشام القصة الطريفة لإسلام ابن سلام فقال: (إنه طلب من الرسول ﷺ أن يكرم إسلامه حتى يسأل اليهود عن قدر ومنزلة ابن سلام فيهم، فأجابوه: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا، فخرج إليهم ابن سلام وقال لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله. فغيروا رأيهم بآبن سلام واتهموه بالكذب. فقال ابن سلام للرسول: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور)¹.

ومما يرويه ابن هشام عن اليهود وحرهم النفسية كذلك، أنه لما ضلّت ناقة رسول الله ﷺ، قال زيد بن اللصيت، أحد يهود قينقاع: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتة. فقال الرسول ﷺ: إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها. فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال².

ثم بلغ بهم أن حاولوا فتنة الرسول ﷺ، حين اجتمع نفر من الأحرار، وقالوا: إنك عرفت أننا أحرار يهود وأشرفهم وسادتهم، أننا إن اتبعناك اتبعناك يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك؟ فأبى النبي ﷺ ذلك³، ونزلت الآيات: "وَأَن حَكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ"⁴.

كما تطورت الصدامات الجدلية إلى مرحلة أوليّة من الصدام المادي، حين لطم أبو بكر رضي الله عنه عنقه حبرهم فنحاص في بيت المدراس حين تناول على الله عز وجلّ بقوله: ما بنا من فقر، وإنه إلينا لفقر، وما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنّا عنه لأغنياء، وما هو عتّا بغنيّ، ولو كان غنيّا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عتّا غنيّا ما أعطانا الربا. وأنزل فيه رب العالمين:

"لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَرِيرٌ وَنَحَسٌ أَغْنِيَاءَ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ"⁵.

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج2، ص163-164.

² المرجع نفسه، ج2، ص174.

³ دلائل النبوة، البيهقي، ج2، ص409.

⁴ سورة المائدة، الآية 51.

⁵ سورة آل عمران، الآية 181.

لقد تولّى إدارة الحرب النفسية في المدينة ضدّ المسلمين أحبار اليهود ودهاقنتهم الماكرون، وكان يتولّى الترويج لها في داخل الصفّ المسلم المنافقون، الذين شكّلوا طابورا خامسا في داخل المجتمع المسلم، وعينا للأعداء على خبايا وخفايا وأسرار المجتمع المسلم، ولسنا نعني بهذا أنّ هناك أمورا نخبئها ممّا يستحيي منه، ولكن أسرار قوّة المسلمين وإعدادهم وتحركاتهم كان يحاول هؤلاء أن يبلغوها لأعداء المسلمين حتى يبطؤوا عمل المسلمين ويفشلوا مساعيهم.

البند الثاني: بثّ الشكوك في الإسلام

ومن وسائل حربهم النفسية بثّ الشكوك في الإسلام، فقد عمد اليهود إلى إضعاف الإيمان في نفوس المسلمين وزعزعة ثقتهم بالإسلام، وذلك بإثارة الشكوك في قلوبهم وتلقينهم أنّ ما في الإسلام إنّما هو تحريف لبعض ما جاء في التوراة وأنّ في القرآن تناقضا وغير ذلك من شبهات. وذكر القرآن محاولات اليهود في صدّ المسلمين عن الإسلام بقوله: "وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٨﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٦٩﴾" ¹.

ومن مؤامراتهم لتشكيك المسلمين في دينهم ما ذكره القرآن: "وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالذِّمَّةِ الَّتِي آتَيْنَا عَلَى الْأَيْمَانِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٩﴾" ². جاء في أسباب نزول الآية أنّ بعض اليهود تحدّثوا فيما بينهم قائلين: أعطوهم الرضى بدينهم أوّل النهار واكفروا آخره فإنّه أجدر أن يصدقوكم ويعلموا أنّكم قد رأيتم منه ما تكرهون وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم. (أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس).

وقد أوضح القرآن الدافع النفسي لليهود وراء هذه المحاولات: "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْبُوا وَاصْبِرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾" ³.
 "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧١﴾" ⁴.

¹ سورة آل عمران، 68-69.

² سورة آل عمران، الآية 71.

³ سورة البقرة، الآية 108.

⁴ سورة البقرة، الآية 104.

جاء في صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم حول قول تعالى: " ..ءَامِنُوا بِالَّذِي نَزَّلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ .." تبيان خطر هذا الأسلوب ومقدار ما فيه من كيد ومكر (لم يكتف اليهود بتصميمهم على الكفر بما يعلمون صدقه وحقيقته، ولا بما يقومون به من تلبيس الحق بالباطل، ولا بما يكتمونونه مما يؤيد صدق محمد ﷺ، ولا بما ينكرونه من ذكر شخصيته وأوصافه، والبشارة به زاعمين أنه ليس هو الموصوف المبشر به، وإنما غيره ولم يأت زمانه بعد.

لم يكتف اليهود بكلّ هذا المكر المتنوع حتى لجأوا لزعزعة عقيدة المسلمين، واللعب بعقولهم، وتشكيكهم فيما هم عليه من الهداية كما أخبرنا الله سبحانه في قوله: " وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي نَزَّلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٠﴾ " .

وإنّما لطريقة خبيثة لئيمة خطيرة في إفساد القلوب، وبلبلة الخواطر، وترويج النفاق، وإشاعة الإرجاف، حيث جماعة منهم من ذوي المرونة والحدق في المكر والحيلة يظهرون إسلامهم أوّل النهار فيجذبوا المسلمين ويتمكنوا من قلوبهم، ويصولوا ويجولوا معهم، ويدعوا في قلوبهم أنّهم مسلمون مثلهم، غايتهم طلب الحق والرغبة فيه، فيبحثون في بعض شرائع الإسلام قاصدين التشكيك فيها، فإذا حصل لهم هذا أظهروا الكفر عسى أن يلحق بهم بعض المؤمنين ضعاف الإيمان.

ووجه الخطورة في هذه الحيلة أنّ العرب أمة أمّية كانت تعتقد أنّ أهل الكتاب أعرف منهم بما يتعلق بأمر العقيدة والألوهية. فإذا ارتدّ أهل الكتاب بعد إيمانهم ومخالطتهم للمسلمين، والنقاش معهم، حسب ضعفاء الإيمان من المسلمين أنّ هؤلاء لم يكفروا بما آمنوا إلّا لشعورهم بأنّ ما آمنوا به ناقص ومغاير لما في دينهم الأوّل.

فإنّما أن يكفر الضعفاء من المؤمنين بعد ذلك أو تخالجهم الشكوك فتجعلهم يتأرجحون بين الطرفين فيشكلوا طائفة المنافقين. ومكر اليهود هذا مبني على قاعدة ثابتة في العقل البشري وهي أنّ من علامة الحقّ أن لا يرجع عنه من عرفه.

ولعلّ الأمر النبوي بقتل المرتدّ عن الإسلام كان لزجر هؤلاء وتخويفهم حتى يرتدعوا عن تدبير المكائد لإرجاع الناس إلى الكفر بعد دخولهم في الإسلام وذلك بما يثبونه من التشكيك في فترة إسلامهم المؤقت، وبما تحدّثه ردّهم المصطنعة من بلبلة في الصف وزعزعة في العقيدة¹.

¹ صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمان الدوسري، مج4، ص151-152، ط1، دار المغني، الرياض، 2004.

ومن مواقف المعاجزة اليهودية أسئلتهم عن مسائل من التاريخ وحكايات الأولين وقصصهم، مدّعين أنّ العلم عندهم، وأن ليس وراء الذي عندهم شيء عند أحد، ولكن القرآن كان في كلّ مسألة يلقيهم حجراً يقطع حجّتهم ويكتم صوته.

ومن تلك المسائل سؤالهم عن ذي القرنين: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَلْيُفَصِّلْ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ " ¹.

ويذهب بعض الباحثين أنّ بني إسرائيل ما سألت عنه إلّا لارتباطهم التاريخي به، فهم من جهة يتعلمون بمعلوماتهم التاريخية، ومن جهة أخرى يتباهون بزعيم عالمي تاريخي كان له معهم تعاطف وهو الذي أعاد بناء هيكلهم بعد أن خرّبه والده ².

وسألوا عن فتية ذهبوا في الزمن الأول، ماذا كان من شأنهم، فإنّه كان لهم قصّة عجب، فأجاب القرآن: " أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٨٣﴾ " ³ وسرد قصتهم أجمل سرد وأنفعه وكذب بعض تصورات وتخرّصات أهل الكتاب عنهم وأحقّ الحقّ بكلماته، وبين قلة ذوق أهل الكتاب اليهود في هذه الكلمات: " سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ فُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا فَلِيلٌ ﴿٨٤﴾ * ثَمَنٌ ﴿٨٥﴾ فَلَا تَمَارٍ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٨٦﴾ " ⁴

والطريف أنّه في نفس السورة بعد أن أجاب عن سؤالهم تطرّق لقصّة عن نبيّهم موسى عليه السلام في موقف تلقى فيه العلم من غيره، وكأنّه يقول لليهود من طرف خفي، إنّ كما غابت عن نبيّكم وتعلّمها من عبدنا الصالح الخضر فتعلموا أنّهم من نبيّنا الصالح محمد صلى الله عليه وسلّم كما تعلم نبيّكم.

وكانه يقول لهم أيضاً سألتم نبيّنا فأجابكم عن سؤالكم، وزادكم معلومات تتعلق بنبيّكم، فثبت بهذا أنّه يعلم فوق الذي تعلمون، وأنّه مؤيد بوحى السماء.. ⁵

¹ سورة الكهف، الآية 82.

² الصراع بين الإيمان والمادية تأملات في سورة الكهف، علي الحسني الندوي، ص 105 وما بعدها، ط 1، دار القلم، الكويت، 1971.

³ سورة الكهف، الآية 8.

⁴ سورة الكهف، الآية 22-23.

⁵ القصص القرآني، عبد الغني الراجحي، ص 55.

ولو جئنا نتتبع الآيات لطال بنا المقام كثيرا، فكثير من آيات سورة البقرة في هذا، وفي سورة آل عمران والنساء وغيرها من السور آيات في محاجتهم، ومن ذلك: "يَلْبَسْنَ إِسْرَآءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ؕ أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي بِأَرْهَبُونَ ﴿٦٠﴾ وَعَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ ؕ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآئِنِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي بِآتِفُونَ ﴿٦١﴾ ﴿نصف﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾" ¹.

"يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ؕ وَتَوَافُوا الْكِتَآبَ ؕ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبُرِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٦٣﴾" ².

البند الثالث: الحصار الاقتصادي

ومن وسائل الحملة النفسية على المسلمين: الحصار الاقتصادي... فقد (قام بعض اليهود بمؤامرة تهدف إلى إبعاد المسلمين عن دينهم وذلك بمقاطعتهم اقتصاديا وامتناعهم عن دفع ما يجب عليهم دفعه من ديون وبيع وأمانات لمن اعتنق الإسلام مدعين أنّ ما كان لهم من حق إنما كان لهم قبل الإسلام، وأنّ دخولهم في هذا الدين أبطل حقهم فيه. وإلى ذلك يشير القرآن: "وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَآبِ مَنِ إِن تَأْمَنَهُ بِفِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنِ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَآيِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾" ³.

ويذكر المفسرون أنّ رجالا من أهل الجاهلية -أي قبل الإسلام- باعوا يهودا بضاعة ثمّ أسلموا ولما طلبوا من هؤلاء دفع الثمن قالوا: ليس علينا أمانة ولا قضاء عندنا؛ لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه، وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم. فقال الله تعالى في الآية الكريمة: "وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" ³.

ورفض رؤساء اليهود أن يقرضوا المسلمين مالا في أوّل عهدهم بيثرب، وقد كانوا في ضنك شديد.

¹ سورة البقرة، الآية 39 وما بعدها.

² سورة النساء، الآية 46.

³ سورة آل عمران، الآية 74.

فأرسل النبي أبا بكر إلى رؤساء يهود ليستقرض منهم مالا يستعين به على أموره موصيا إياه ألا يشتط في كلامه، وألا يلحق بهم أذى إذا رفضوا إجابته، فلما دخل أبو بكر (بيت المدارس) موضع عبادة يهود، وجد يهودا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص وهو سيد بني قينقاع وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع، فلما حدثه أبو بكر بما جاء به وعرض عليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه حتى إذا انتهى منه قال: أحتاج ربكم أن نمده؟ فنزل الوحي الإلهي: "لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ بَفِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَرٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْخَرِيبِ" ¹.

هذا ولابد أن نشير إلى الحرب النفسية المضادة التي قام بها رسول الله ﷺ والاستراتيجية النفسية في مواجهة أعداء الدين، والتي نلخصها في الآتي:

أولاً: الردع

وهي مستنتجة من قول الله عز وجل: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" ² ومن حديث: ((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)) ³.

فالنظرية الاستراتيجية للحرب في الإسلام هي الردع من خلال إعداد القوة الرادعة.

والعجيب أن نظرية الردع التي هي أول نظرية حربية في الإسلام تعتبر في القرن الواحد والعشرين مفتاح الاستراتيجية المعاصرة، وقد وصل إليها الفكر العسكري العالمي بعد معاناة قاسية وطويلة في حروب اكتوى العالم بنارها...

¹ سورة آل عمران، الآية 181.

² سورة الأنفال، الآية 60.

³ صحيح البخاري، البخاري، ج 1، ص 168، حديث رقم 427، باب قول النبي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً.

ثانيا: النصر بالرعب

قاد النبي ﷺ بنفسه سبعا وعشرين أو ثمان وعشرين غزوة، وكان القتال في تسع غزوات فقط، بينما فرّ المشركون في تسع عشرة غزوة، من دون قتال. أمّا السرايا التي بعث بها كانت سبعا وأربعين سرية¹.

وفي العام التالي لمؤتة أي في السنة التاسعة الهجرية، قاد النبي ﷺ بنفسه غزوة تبوك فأظهر قوّة المسلمين للروم المتربّصين بهم، ثم عاد إلى المدينة المنورة، فكانت تلك الغزوة غزوة استطلاعية، بالإضافة إلى تأثيرها المعنوي في الروم وحلفائهم الغساسنة.

وفي السنة الأخيرة من حياته ﷺ أعدّ سرية بقيادة أسامة بن زيد لمهاجمة الروم.

وهكذا وقف النبي ﷺ بثاقب نظره على أنّ أشدّ الأخطار التي يمكن أن تحلّ ببلاد المسلمين موطنها أرض الشام.

وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي فيما بعد صدق هذه الإشارة فكان الروم أشدّ المحاربين عنادا².

وكما مرّ معنا فإنّ أغلب غزواته كان يتمّ له السيطرة على عدوّه وميدان المعركة فيها بفرار العدو، وما أكثر ما تجد في كتب السيرة عن سيره ﷺ، أنّه سار إلى قوم فلان أو موقع كذا، ولم يلق كيذا، وما ذاك إلا لأن العدو انخلع قلبه قبل أن تصله قوات المسلمين.

وهذا النصر بالرعب لا يتأتى بدون أسباب ومقدمات؛ إذ هو ثمرة لجهد كبير ومقدمات ومواقف كثيرة يكون حصادها وجناها هذا الذي سمّاه رسول الله ﷺ: النصر بالرعب.

ثالثا: الاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو

مقابلة لما كان يحرص عليه النبي ﷺ من كفّ المعلومات عن أعدائه، سعى ﷺ على أن يعرف عن خصمه كل ما يستطيع، فقد كان مع عدوّه في حرب معلومات وصراع واستطلاع، أي الفريقين يستطيع أن ينفذ بعيونه إلى صفّ عدوّه، ويجوس خلال قواته...

ومن هذا الحرص على اكتناه ما عند عدوّه وسبر غوره أنّه كان عليه الصلاة والسلام يهتمّ باقتفاء أخبار العدو واستطلاع خباياهم، فكان يبعث العيون ليأتوه بخبرهم، فقد أرسل عبد الله بن جحش سنة

¹ الرسول القائد، جمال الدين محفوظ، ص412

² العسكرية الإسلامية، محمود شيت خطاب، ص38-39، المؤتمر الثالث للسيرة النبوية، قطر، 1400هـ.

2هـ في اثني عشرة مهاجرا بعد أن دفع إليه كتابا أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، فلما مضى اليومان نظر عبد الله في كتاب رسول الله ﷺ فإذا فيه: ((إذا نظرت إلى كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد لنا قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم))¹.

كما أن الرسول ﷺ عندما علم بعير أبي سفيان تحمل خيرات قريش كلها إلى الشام أمر نفرا من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله يجعلها لهم. فلما اقتربوا من الصفراء بعثوا بسيس بن عمرو وعدي ابن الرعاء إلى بدر يستطلعان أخبار العير، وقد ذهب رجالان من المسلمين إلى بدر يستقيان ويتنطسان الأخبار، وبينما هما كذلك إذ بجارية تطالب أخرى بدين عليها، فتجيبها صاحبتهما أن سوف تعطيها الذي لها عندما تأتي العير في الغد أو بعد الغد، فتعمل لهم، وتؤجر منهم، فيسرع الرجلان إلى رسول الله ﷺ يخبرانه بيوم قدوم العير².

ومعروفة قصة التحقيق مع اللذين أسرها علي والزبير يوم بدر، وقد سألهما النبي ﷺ كم ينحرون كل يوم فقالوا يوما تسعا ويوما عشرا، فقال عليه الصلاة والسلام القوم ما بين تسعمائة وألف، ثم سألهما عمّن فيهم من أشرف قريش.

وخبر حذيفة الذي أرسله رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ليستطلع له خبر القوم، مشهور معلوم. وإنّ الأخبار في هذا الشأن مستفيضة، نخلص منها إلى أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يضع قدمه إلّا على أرض ثابتة من معلومات يقينية، وكان يترك عدوّه تفتك به الحيرة ما الذي يدور عندنا نحن المسلمون، ومتى تكون الضربة القادمة وأين؟.

رابعا: الإعداد المعنوي للمعركة

إنّ الجيوش التي تعدّ للمعارك نفسيا وماديا هي التي تحقق الانتصار في المعارك. ولقد كان الرسول ﷺ يحرص على إعداد جيشه للحرب والقتال إعدادا شاملا كاملا. ولعلّ الإعداد المعنوي هو أهم قسمي الإعداد بل هو أساس كلّ إعداد. فلا بد من إعداد الجندي قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها، إعدادا معنويا كاملا حتى يستطيع أن يقوم بواجبه خير قيام.

¹ جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج4، ص302.

² نظم الحرب في الإسلام، جمال عياد، ص85.

وكان القرآن أعظم وسيلة تعبئة في الإعداد المعنوي.

لقد أعدّ الرسول جنده أولاً بالإيمان بالله عزّ وجلّ والإيمان بقدرته التي لا تحدّها حدود. وبالإيمان بقدر الله وأنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم...

وأعدّهم كذلك بالإيمان بنصر الله أو الشهادة في سبيل الله وإخوانهم سينتصرون من بعدهم.

ومن أنواع الإعداد المعنوي هذه التربية التي قام بها الرسول ﷺ حيث هدّب نفوسهم وراض قلوبهم وطوّعها لله عزّ وجلّ بأنواع المجاهدات النفسية والعبادات من صلاة وصوم وذكر: "يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" ¹

"يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَفِئَتُمْ بِقِيعَةٍ مُّبِئْتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ²

وكان الرسول ﷺ يشحذ الهمم ويشعل الحماس وهو في ميدان المعركة، وأقواله عليه الصلاة والسلام في بدر معروفة مشهورة حيث قال: ((لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)). وقال: ((قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)) قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: ((نَعَمْ)). قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ)). قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءً أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: ((فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا)) ³.

وعن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى مالت الشمس فقام فيهم، فقال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ، وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ)) ⁴.

¹ سورة البقرة، الآية 152.

² سورة الأنفال، الآية 46.

³ صحيح مسلم، مسلم، ج3، ص1509، حديث رقم 1901، باب ثبوت الجنة للشهيد.

⁴ المصدر نفسه، ج3، ص1362، حديث رقم 1742، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء.

أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيفاً يوم أحد، فقال: مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه، ويضرب به العدو حتى ينحني؟ فأخذه أبو دُجانة سمالك بن خَرْشَةَ الأنصاري، فلما أخذه اعتَمَّ بعمامة حمراء، وجعل يتبختر، - فقال رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : ((إِنَّهَا لِمِشْيَةِ يَبْغِضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فِي هَذَا الموطن))¹.

ومن باب التعبئة المعنوية في المعركة الدعاء، وهو وسيلة عملية قوية لرفع الروح المعنوية.

ودعاء النبي يوم بدر معروف².

وروى البخاري ومسلم من دعائه ﷺ يوم الأحزاب: ((اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ))³.

خرج النبي قاصدا خيبر فلما أشرف عليها أخذ يضرع إلى الله تعالى طالبا النصر والمعونة، فقال لأصحابه: قفوا، وأخذ يدعو وهم يرددون معه: ((اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا دَرَيْنَ، أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا))⁴.

والتأهيل المعنوي أو الروحي أو النفسي مهم جدا بالنسبة للجيش الإسلامي، وإن كان لا تهتم به الدول التي تعتمد على الأسلحة والتدريب وعدد الجنود؛ لأنّ ذلك هو الغاية التي تجتهد في تحصيلها، وتسعى دائبة لتوفيرها، ولكننا نعتقد أنّ هذا الجانب هو سرّ قوّتنا، ووسيلة تفوقنا، وأنّ ما عداه وسائل.. وهذا الجانب من التربية هو الفارق بين الجيش الإسلامي وغيره من الجيوش، بل هو العامل الذي حقق به الجيش الإسلامي تلك الانتصارات الباهرة... تلك هي الخصيصة التي تميّز بها جيش

¹ دلائل النبوة، البيهقي، ج3، ص183.

² صحيح مسلم، مسلم، ج3، ص1362 وما بعدها، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، ج4، ص80، ط1، دار سحنون، تونس، 1997.

³ صحيح البخاري، البخاري، ج3، ص1082، حديث رقم 2804، باب كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس. صحيح مسلم، المصدر نفسه، ج3، ص1362، حديث رقم 1742، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء.

⁴ سنن النسائي الكبرى، النسائي، ج5، ص256، حديث رقم 8826، باب الدعاء عند رؤية القرية التي يريد دخولها.

مُحَمَّد ﷺ، وتلك هي أهم وسائله لتحقيق انتصاراته، ولهذا حثَّ عليها القرآن والسنة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَفِيتُمْ بِعِصَّةٍ بَاطِلَةٍ بَاطِلَتُكُمْ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ¹.

المطلب الثاني: الحرب النفسية والمغول

يعدّ التخويف والإرهاب بإدخال الخوف والرعب في نفوس الآخرين من أهمّ غايات الحرب النفسية قديماً وحديثاً، وهو سبيل الطغاة الظالمين في كل زمان؛ لأن الظالم لا يحبّ أن يعترض عليه في ظلمه من ينطق بكلمة الحق ²، لقد كان الغزو المغولي للعالم الإسلامي عنيفاً كل العنف، فقد خرّب المغول كل شيء، ونكّلوا بالمسلمين وتفنّنوا في تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب المختلفة، يذكر ابن خلدون ³: (أنّ العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك ⁴ والتركمان والأكراد وأشباههم؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإتّما همّهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم)، ويؤكد ذلك قول ابن الأثير ولعلّ تصويره كان كافياً حيث قال: (ولعلّ الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنّى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج) ⁵. لقد عرف المغول كيف يمثلون هذه الصورة المرعبة بمهارة لزيادة فرص نجاحهم المادي عن طريق التأثير النفسي ⁶، لقد امتازوا بحفافل فرسانهم المخربة التي أوقعت الرعب في كل مكان وطأته أقدام خيولهم، ويحضرني هنا تصوير بليغ ورائع حيث قال الذهبي: (لا يقال كم أباد هؤلاء من بلد، وإنما يقال كم بقي) ⁷. وقد أشار ياقوت الحموي إلى مقدار الرعب الذي أصاب الناس بخوفهم من المغول حتى أخذوا يفرون أمامهم كالأغنام تاركين مدّهم قبل مجيئ المغول.

¹ سورة الأنفال، الآية 46.

² الحرب النفسية، فهمي النجار، ص 78.

³ العبر، ابن خلدون، ج 2، ص 120 وما بعدها.

⁴ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، مج 2، ص 23، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

⁵ الكامل، ابن الأثير، ج 5، ص 305. البداية والنهاية، ابن كثير، ج 9، ص 213.

⁶ الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ت: أحمد الشيخ، ص 255.

⁷ تاريخ الإسلام - الطبقة 62-، الذهبي، ص 49.

استعان المغول بوسائل شتى في ترهيب أعدائهم ومنها الفظائع التي ارتكبوها داخل الديار الإسلامية بطرق حصارهم للمدن، وكذا مطاردة حكام الأسرة الخوارزمية، وطرق قتلهم للحكام والأمراء، وبالتالي السكان الآمنين بما فيهم الأسرى، ولا أرى تصويراً أروع من هذا الشامل والكامل المؤثر. والذي صورهُ أحد الفارّين من الغزو المغولي لبخارى عام (616هـ-1219م) حيث قال: (أمدند وكندند وسوختند وكشتند وبردوند ورفتند)¹؛ لقد أتوا فخرّبوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها²، والحقيقة تؤكد أن قسوة المغول وشدهم قد جرت وفقاً لخطة موضوعة كي يثيروا من الخوف والرعب ما يشلّ حركة الذين سوف يتعرضوا لهجومهم، وقد رأوا أن بفعلهم هذا يكفل لجيوشهم الأمان ويجنبهم أي تمرد ضدهم³، وجاء في تاريخ الخلفاء: (ليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء يقتلون الرجال والنساء والأطفال وكأن قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال)⁴، ونتيجة ذلك أعطى المغول لضحاياهم تسميتهم أنهم كارثة من الله.

كلّ ذلك بالتأكيد جعل الناس لمجرد سماعهم باقتراحهم من مدينة أو قرية يفرون فإن رؤيتهم تثير الفرع في النفوس وبالتالي هجر الأراضي أو تقديم فروض الطاعة والولاء لهم⁵، والواقع أن قسوة المغول ووحشيتهم وعنفهم كانت تسبقهم إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد، فيُسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلباً للسلام وتجنباً لسوء العواقب⁶.

ولعلّ هذا يعتبر نوع من الدعاية التي استخدمها المغول، وتتمثل في عمل مذابح جماعية⁷ في البلاد التي كانوا يستولون عليها والتعامل بقسوة وعنف مع كلّ شيء داخل هذه البلاد بجانب التخريب والحرق والسبي والاغتصاب والتدمير بشكل مبالغ فيه، وبعد الانتهاء من أعمالهم التخريبية المنظمة كانوا يرسلون رجالاً من طرفهم متخفين مع من فرّ من مذابحهم إلى البلاد المجاورة لهم يقومون بوصف ما تمّ بداخل

¹ تاريخ فاتح العالم، الجويني، ج1، ص83.

² البداية والنهاية، ابن كثير، ج9، ص205.

³ الدولة الإسلامية المستقلة في الشرق، عصام الفقّي، ص305.

⁴ تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص365.

⁵ الإسلام والحضارة العربية، مُجدد كرد علي، ج1، ص322.

⁶ العصر المماليكي في مصر والشام، سعيد عاشور، ص28، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1965.

⁷ نهاية الأرب، النويري، ج27، ص385.

هذه البلاد مع المبالغة في قسوة وأوصاف المغول¹ وإيهامهم أنّ الحلّ هو ترك المدن خيرا من أن يلاقوا أصنافا متعددة من العذاب، وهنا يذكر ديفيد مرجان أن مبدأ جنكيز خان هو نفس المبدأ الذي سار عليه الرئيس الأمريكي ترومان وحول هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين في أنّ الأساس الواضح لكليهما أنّه إذا تعرّض السكان في واحدة من المدن لمذابح مخيفة، بالتالي ستسحب المدن التالية دون أي مقاومة.

مما لا شك فيه أنّ مظهر المغول البغيض وما يمتاز به من عادات قبيحة وكريهة ساعد في زيادة الفرع الذي استولى على القلوب بسبب ما عرف عنهم من غلظة لا تقف عند حدّ وقسوة لا مزيد عليها، وأنّ قسوتهم كانت متعمدة مبررا لإيقاع الرعب في قلوب أعدائهم حتى يشلّ الفرع حركتهم فلا يقدرّون على المقاومة أو الموافقة، كذلك يجدون ذلك آمنا لجيوشهم المظفّرة، وألا يتركوا وراءهم إلا الخرائب الملتهبة أو الأفران المملأى بالجنث الآدمية؛ لأنهم كانوا يخشون أن يبقوا على أحد بعد المعركة مخافة أن يثير لهم الفتن والقتال².

المتأمل لتلك القسوة والشدة والفوضى والرعب التي وصلت نفوس السكان الأمنين كان مردّه الأساس هو جنكيز خان ذلك الطاغية والذي أوصى أولاده بقوله: (إنيّ أحرم عليكم جميعا أن تظهروا أية شفقة نحو هؤلاء الأعداء إلا إذا أصدرت أمرا عاجلا بذلك. فالشدة وحدها هي التي تجعل الطاعة طابع هؤلاء الرجال، العدو المهزوم لا يذعن للسيد بل يبقى دائما كارها له)³.

إذن سياسة جنكيزخان العسكرية متمثلة في الشدة والقسوة مبررا ذلك أنّه السبيل الوحيد للخضوع، كما أنّ القسوة والشدة لاستسلام باقي المدن، ولم يبالغ المؤرّخون على وصفه بالجلّاد المجرّد من أي عطف، يأمر بتنفيذ أحكامه ولم يفرّق بين الغنيّ والفقير، والصغير والكبير، والمرأة والرجل، والمسلم والكافر⁴، وإن كانت قسوته وشدّته كانت أكثر على العالم الإسلامي⁵، ومن الممكن أن تكون المبالغة في استخدام البطش والقسوة والهلاك والدمار للحضارة والعمران مردّه لكي تصبح البلاد المفتوحة مراعي

¹ تاريخ المشرق العربي الإسلامي (447-923هـ/1055-1517م)، عصام شبارو، ص271، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1999.

² العراق في التاريخ، صالح العابد، عماد رؤوف، ص546، ط1، دن، بغداد، 1983.

³ جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، هارولد لام، تر: بهاء الدين نوري، ص113-114، ط1، مطبعة السكك الحديدية، بغداد، دت

⁴ تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، ص381.

⁵ جنكيزخان وجحافل المغول، هارولد لام، تر: متري أمين، ص113، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1962.

كافية للجموع المغولية¹؛ لذلك استحقَّ لقب أعظم العظماء، فقد كان له الحقُّ في ذلك؛ لأنه رجل هو الأكثر قوة وقسوة منذ أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا.

لقد قيل عن جنكيز خان أنه بالغ القسوة فهو لا يولي أي اعتبار للحياة البشرية أو تعاطف مع المعاناة الإنسانية، فهلك الملايين من أبناء المدن في حروبه... لقد كانت إمبراطوريته تركز على دعائم البؤس الإنساني².

وكان قد أمر قومه أن يذلولوا السيف في أهل البلاد التي تملكوها، ويقتلوا من فيها، وينهبوا الأموال؛ لتعظيم هيبتهم ويشتدَّ خوف الناس منهم³.

استطاع جنكيزخان إفناء عدوّه وتحقيق ذلك بأبشع الوسائل فكانت خطته وهم العدو بالحيلة والاحتياج كل شيء يوصله إلى الغرض ولو قلب البلدة إلى مقبرة كبيرة... وبعد ذلك تفلح الأرض وتنبت الحب وتنبعث الحياة من جديد⁴.

لن أتوسع في كم المذابح الجماعية في البلاد نتيجة اختلاف المؤرخين في تحديد أعداد القتلى، فسأورد القليل للتدليل لا الحصر، فقد قيل أنَّ جميع القتلى في الحروب في أدوار مختلفة وقرون متطاولة لم يبلغ قدر ما قتل في هذا الزحف المشؤوم⁵، وقد وصف أحد المؤرخين لجيش جنكيزخان أنهم يطعمون لحوم البشر، ولهم، جماجم من نحاس وأسنان من صخر وقلوب من فولاذ، تقذف أفواههم الحمم، وتشرب خيلهم الندى، لهم أجنحة كالطير، وتتغذى خلال المعركة على لحم البشر وهم صغار الأجسام إذا ما وقفوا ولكنهم عمالقة إذا ما امتطوا خيولهم⁶.

مما لا شك فيه أن التصوير به شيء كبير من المبالغة، ولكن الوصف يوضح مقدار شراستهم والفتك بأعدائهم، وطرق الفتك والتعذيب بالشعب الخوارزمي نجد مقدار كم الذين قتلوا، ففي عام 617هـ- 1220م وفي مدينة أترار أمر كل جندي مغولي أن يقتل أربعة وعشرين رجلاً خوارزمياً وكان تعداد الجيش المغولي مائة ألف رجل⁷.

¹ المماليك، السيد الباز العريني، ص41، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1967.

² تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، تر: نور الدين خليل، ج3، 298، دن، بيروت، 1988.

³ أخبار الأيوبيين، ابن العميد، ص7، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت.

⁴ القيادة والقادة العظام، السيد فرج، ص97.

⁵ أضواء على تاريخ توران، عبد المؤمن أكرم، ص56.

⁶ القيادة والقادة العظام، المرجع نفسه، ص106.

⁷ الدولة الخوارزمية والمغول، أحمد حمدي، ص143.

ولخص الجويني ذلك بقوله: (ومات الجميع: العجوز والأيم والفتى، فلم يبقى ذو الروح على هذه الدنيا)¹. إلا ما كان ذا منفعة لإمبراطوريته².

والويل كل الويل لمن تسوّل له نفسه قتل أحد أفراد القيادة المغولية، ففي عام 617هـ-1220م في إقليم خراسان وتحديدًا في مدينة نسا ونتيجة لمقتل (بلجوش) أخرجوا جميع السكان وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر، كما أمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قتل المغول جميع الرجال والنساء والأطفال، حتى قيل أنّ عدد من قتل من السكان بلغ أكثر من سبعين ألفاً³.

يوضح النسوي ذلك بقوله: (فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين... كأفهم قطعان الضائية تسوقها الرعاة، ولم يمدّ المغول أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسع بالصغار والنساء والضجيج يشقّ جلباب السماء، والصياح يسدّ منافذ الهواء ثم أمروا الناس بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلاناً)⁴. وفي واقعة نيسابور عام 618هـ-1221م ونتيجة لمقتل (تغاجار نويان) صهر جنكيزخان قاموا بقتل حاكم المدينة والمسّن والرجال والنساء، وظلّوا يفتشون البيوت ويهدمون المباني لمدة خمسة عشرة يوماً، وقد لجؤوا إلى قطع رؤوس القتلى وسوا المدينة بالأرض، وقد أمرت ابنة جنكيزخان بتخريب المدينة بحيث تصلح أرضها للزراعة وألا يدعوا الكلاب والقطط حيّة⁵، بل أنهم قطعوا رؤوس القتلى وبنوا أهرامات عالية أحدها للرجال والآخر للنساء وثالث للأطفال وبذلك ضمنوا أن لا ينجو مخلوق من سيوفهم.

وفي مدينة باميان ونتيجة لمقتل ابن جغتاي حفيد جنكيزخان، فقد أمر جنده بأن لا يتركوا في المدينة أسيراً ولا رضيعاً ولا حتى من في بطن أمه إلا قتلوه، ولم يعيش أحد بعد ذلك في هذه المنطقة⁶، وصار المغول ينعنون باميان بـ مووالياغ أي مدينة البؤس⁷ هؤلاء هم الذين حاولوا مقاومة الجيش المغولي ومنهم كذلك السكان الآمنين الذين لا حول لهم ولا قوة أما بالنسبة للأسرى فقد جاءت تحذيرات جنكيزخان لقومه حيث ذكر في الياسا أنه من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل،

¹ تاريخ فاتح العالم، الجويني، ج1، ص138.

² لم يبق المغول من جميع السكان إلا أصحاب الحرف والمهن. انظر: المغول، العربي، ص124.

³ الدولة الخوارزمية والمغول، أحمد حمدي، ص146.

⁴ سيرة السلطان جلال الدين، النسوي، ص51-52.

⁵ تاريخ إيران، عباس إقبال، ص90-91.

⁶ تاريخ فاتح العالم، المرجع نفسه، ج1، ص139-140.

⁷ تاريخ أفغانستان من قبيل الفتح الإسلامي حتى وقتنا الحاضر، فاروق حامد، ص32.

ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل¹، كان البعض منهم يتم صلبه على حمير من الخشب أو يقطعهم إربا أو يقلب أجسامهم في القدور أو يسلم جلودهم وهم أحياء². ولم يكن خلفاء جنكيزخان بأقل منه حيث أنّ هؤلاء الأمراء المغول الأشرار كانوا إذا سلّم بلد أو إقليم من عبث الأول جنكيزخان جاء الثاني هولاء فأتّم ما أغفل الأول، وإذا فرض أن نجا صقّ من الثاني فالثالث تيمور لنك يأتي عليه لا محالة³، المبالغة في القتل والترويع القصد منها هو إخافة سائر الملوك الخارجة عن طاعة المغول، ومن وسائل التهيب النفسي أيضا فن الحصار⁴ للمدن فمن المعروف عن جيشهم تنظيمه على الطريقة التقليدية للاستبس واعتمادهم على قوّة العشرة، وقوّة الخيالة ورمّة السهام وقوّة فن الحصار، ولا أدلّ على ذلك ما حدث لمدينة ميا فارقين عام 658هـ-1260م فبعد مرور عام ونصف من إحكام الحصار لم يبق في المدينة قوت ولا غذاء وهلك الدواب كذلك فبدأ الناس يأكلون الميتة حتى أكلوا الكلاب والقطط والفئران، وقد كتب الأمراء الباقون رسالة إلى قائد جيش المغول يقولون: أنّه لم يبق في المدينة أحد له طاقة وقدرة ماعدا عدّة أفراد أحياء بأرواحهم أموات بأجسادهم، فلو أقبل الجيش الآن فليس هناك مخلوق يستطيع مواجهته والنتيجة المتوقعة لما دخلوا وجدوا جميع سكانها موتى عدا سبعين شخصا نصف أحياء⁵، وما نظّهم إلا وقد هلكوا، هذا وقد يلجأ المغول إلى الخداع أثناء الحصار⁶.

ومن وسائل التهيب الأخرى مطاردة الحكّام وعلى سبيل المثال السلطان علاء الدين تطارده حفنة من الجيش المغولي لا تتعدى عشرون ألفا⁷.

مما لاشكّ فيه أنّ ذلك كان له عظيم الأثر في نفوس الشعب الخوارزمي وهو يجد سلطانه وهو من هو يطارده حفنة مغولية⁸، ويؤكد ذلك قول ابن الأثير: (ومن أعظم الأمور على المسلمين

¹ الخطط، المقرزي، ج2، ص220.

² تاريخ الإسلام، الذهبي، ص49-50.

³ الإسلام والحضارة العربية، مجّد كرد علي، ج1، ص221.

⁴ يقصد به الإحاطة بقرية أو بلد سواء كانت محصنة أو غير محصنة مدافعا عنه أم غير مدافع وذلك لمنع الدخول أو الخروج منها حتى تستسلم. انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص200، ط2، مكتبة الحياة، بيروت، 1960.

⁵ جامع التواريخ، رشيد الدين، مج2، ج1، ص321-322.

⁶ البداية والنهاية، ابن كثير، مج7، ج13، ص239-240.

⁷ الكامل، ابن الأثير، ج2، ص2709 وما بعدها.

⁸ البداية والنهاية، المرجع نفسه، مج7، ج13، ص96. تاريخ الإسلام - الطبقة 62-، المرجع نفسه، ص328.

أنّ سلطاتهم خوارزم شاه قد عُدِمَ لا يعرف حقيقة خبره¹، على أنّ ابنه السلطان جلال الدين لم يكن بأحسن حالا من أبيه، فيطارد حتى لقي مصرعه². فكأنها سنة في آل خوارزم شاه، وكذلك الحال في أوروبا³.

مقدار الرعب والخوف الذي أصاب الشعب الخوارزمي نتيجة فرار سلاطينهم، فالخوف والهلع أصاب حكامهم، ووصل إلى قلوبهم لذلك نرى نتيجة ذلك أنّ قسما من الجيش قد هجروه⁴، والحقيقة أنّ فرار الملوك قد أثر بالسلب على شعوبهم، وبخاصة إذا كانوا حكاما، لهم رهبتهم وهيبتهم، فغرض المغول من المطاردة للحكّام الخوارزميين هو إيقاع الرعب والهبة في قلوب الجند والرعية الخوارزمية، كما أنّه يعتبر نوع من الدعاية عن قوّة وبأس الجيوش المغولية.

ومن وسائل التهيب الأخرى التي لجأ المغول إليها، المبالغة في طرق قتلهم للحكام المسلمين وأولادهم، وإذا نظرنا لبعض الأمثلة للتدليل لا الحصر، ومن ذلك قتلهم لآف شاه وأزلاع شاه أولاد السلطان خوارزم شاه، فقد ذكر النسوي: أنّ المغول قد نصب رأسيهما على الرماح رغما للأحرار وكيا للنظار يدورون بهما في البلاد فتقوم القيامة على أهلها عند مشاهدة الرأسين وتجد لهم مصيبتهم في الحسن والحسين⁵، إذا الغرض من ذلك هو إمعانا في السخرية من الخوارزميين وإرهابا للأهالي المتمردين أي دعاية لهم لكل من تسوّل له نفسه التصدي لهم، كما كان مصير أخيهم كماخي شاه أصغرهم سنا الخنق⁶، ولم يكن (ينال خان) حاكم أترار أحسن حالا منهم، ولما لا؟ وهم أحد أسباب المصيبة الكبرى، لذلك عمد جنكيزخان إلى التنكيل به فأمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة على أن تسكب في عينيه وأذنيه، وهكذا نفّذ جنكيزخان وعيده في قاتل تجاره⁷، ولم يسلم ولدي جلال الدين الذين وقعا في قبضة المغول، فقد دُبحا دون شفقة أو رحمة⁸، ولم يمض سنوات كثيرة حتى كانت فاجعة سقوط الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم بالله في عام 656هـ-1258م واختلفت أقوال

¹ الكامل، ابن الأثير، ج2، ص2713.

² سيرة السلطان جلال الدين، النسوي، ص104 وما بعدها.

³ المغول، العربي، ص183.

⁴ المرجع نفسه، ص126.

⁵ سيرة السلطان جلال الدين، المرجع نفسه، ص130-131.

⁶ المرجع نفسه، ص97.

⁷ العبر، ابن خلدون، مج5، ص519.

⁸ قصة التتار، راغب السرجاني، ص56.

المؤرخين في موته، فمنهم من قال أنَّ هولاء قتلته خنقا وذلك لأنَّ لديهم خوف موروث مصدره خرافي قديم من إراقة الدماء الملكية¹. وقيل غُمَّ في بساط. وقيل جعله هو وولده في عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا. وقيل غرق في نهر دجلة²، وقيل بل ألقوا بجسمه الرقيق على الأرض وفصلوا أجزاء من جسمه عن بعضها بقوة الارتطام. ومَّا لا شكَّ فيه أنَّ صدى مقتل الخليفة العباسي على العالم الإسلامي كان أضدَّ صعوبة على الحكَّام والمحكومين على السواء، وأيا كانت الطريقة التي مات بها الخليفة العباسي، سواء جعل في بساط أو غرق أو خنق فهي دلالة على فظاعة موته.

ولم يكن الملك الكامل مُجَّد صاحب ميا فارقين بأحسن حالا بل أسوأ حالا، وذلك نتيجة المقاومة الباسلة التي أبلاها في التصدي للمغول، لذلك قاموا بتقطيع أجزاء من جسده وإرغامه على تناولها حتى لقي حتفه³.

وقد طاف برأس مقطوع مرفوع على رمح قصير معلق بشعره، وعلَّق رأسه بباب الفراديس إلى أن دخل قطر فأنزل الرأس ودفن بمشهد الحسين بباب الفراديس⁴؛ وذلك إرهابا للأهالي مما كان له أبلغ الأثر على الحالة النفسية لأهالي الشام والقوات الإسلامية⁵ على أنَّ مقتل الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق عام 658هـ - 1260م وعقب معركة عين جالوت، ف قيل: قتله هولاء بالسيف، وقيل: جمع له نخلتان وربط بينهما وافترقتا فذهبت كل واحدة بشق منه⁶، ولعلها كانت هذه (الطريقة الأخيرة) متبعة أصلا في بلاد خوارزم، كذلك ما صنعه المغول بعمالئهم وصنعائهم ومنهم معين الدين البروانه صاحب بلاد الروم، فقد قاموا بتمزيقه إربا وأنضجوا لحمه في وعاء، وأكل المغول كل أجزاء جسمه لإخماد نار الغضب⁷، كذلك صنيعهم بالملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ فقد وضعوا جسمه في دهن ولباد، وألقوه في الشمس حتى تحوّل الدهن إلى ديدان بعد أسبوع، فشرعت الديدان تأكل

¹ المغول، فؤاد الصياد، ص 269.

² مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ابن واصل، ت: عمر عبد السلام تدمري، ص 216، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، دت.

³ نهاية الأرب، النويري، ص 408.

⁴ المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء، ج 3، ص 203.

⁵ المغول وأوروبا، محمود سعيد عمران، ص 62.

⁶ جامع التواريخ، رشيد الدين، ص 317.

⁷ تاريخ إيران، عباس إقبال، ص 447.

كل جسده حتى مات على تلك الطريقة البشعة بعد شهرين¹ والجزاء من جنس العمل، بل أنهم قاموا بقتل ابنه ويلقب بعلاء الدين عن طريق شقه نصفين على ساحل نهر دجلة وعلق رأسه على باب الجسر². وسير بالملك الصالح وأخوه الملك الكامل إلى هولاكو، فأمر بالملك الصالح فسلخ وجهه وهو حي، ثم قتل أخوه وقتل أصحابهم وأتباعهم، وفي سنة 662هـ - 1264م طيف برأس جلال الدين بن مجاهد الدين أيك، وسليمان شاه إلى الموصل وحملت وعلقت ظاهر سور البلد.

والواقع أنّ الرعب كان لا يزال يسيطر على العالم منذ الهجمة الشرسة على الدولة الخوارزمية، حتى الهواء أصابه الفساد من المغول، فق ذكر ابن واصل: (ولما عرض في البلاد الوباء العام بسبب فساد عن جيف القتلى ببغداد لما فعل فيها المغول ما فعلوا)³، ولم يكن العلماء والشعراء والأدباء بعيدين عن القتل، وفي حين أنّ الجويني يقول: (إنّ علماء كلّ أمة وزهادها مكرمون معزّزون ويعدّون إكرامهم وسيلة للتقرب إلى الله وهم ينظرون إلى المسلمين نظرة توقيير)⁴.

ومن سقف العالم بلاد خوارزم إلى بغداد النائية كان الذين بقوا على قيد الحياة يعيشون في رعب إلى درجة أنّ معضهم لم يعودوا يحاولون حماية أنفسهم، فإنّ مجرّد رؤية أحد الفرسان الرّحل كان كافياً أن يدخل اليأس إلى قلوبهم⁵.

فنتيجة لوسائل التهيب المتعددة من طرق قتلهم السكان الآمنين، والأسرى، وتفننهم في الحصار وشدّته، ومطاردتهم للحكام، وبطشهم بهم وبأولادهم كلّ ذلك أثر بالسلب على الحكام وبالتالي المحكومين العزل.

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير: (وتكّن المغول من الناس في سائر البلاد، لا يجدون من يمنعهم ولا من يردعهم، وألقى الله سبحانه وتعالى الوهن والضعف في قلوب الناس منهم، فكانوا كثيراً يقتلون

¹ جامع التواريخ، رشيد الدين، ص330-331.

² العبر، ابن خلدون، مج5، ص544-5545.

³ مفرج الكرب، ابن واصل، ص238.

⁴ تاريخ فاتح العالم، الجويني، ج1، ص62.

⁵ جنكيز خان وجحافل المغول، هارولد لام، تر: متري أمين، ص118.

الناس فيقول المسلم: لا بالله، لا بالله، فكانوا يلعبون على الخيل ويغنون ويحاكون الناس لا بالله لا بالله¹.

الفرع الأول: الأثر النفسي في حروب المغول

الحرب دائما ما تحتوي على مفاجأة سواء منها ما كان في الجانب الاستراتيجي أو التكتيكي أو ما يتعلق بأنواع الأسلحة، وهذه المفاجأة تعدّ تربة خصبة للشائعات والتوقعات². وكلما زادت الأزمات واشتدت المحن ازدادت الشائعات وجاء دور الدعاية الضروري لحل الأزمة ومواجهة المحن حتى يتحقق الهدف المنشود وهو عودة الحالة للجماهير³. وقد قيل: ولدت الحرب إشاعة عن إشاعة⁴.

وقد وُجد أنّ الخوف من الشائعات يكون أخطر في حالة الحروب؛ لأنه يزيد الذعر والإحباط بسبب سياسات التهويل من التسلّط على بعض المسلمين ومع ضعف البصيرة وغياها قد يستحكم الأمر في حياة الأفراد والدول وتنتقل بالتالي من هزيمة نفسية للأفراد إلى هزيمة على أرض المعركة الحقيقية، لذلك كان من الضروري القضاء على الشائعات، وقد حدّر الهرثمي من المبالغة في الأخبار والأراجيف⁵. والواقع أنّ الشائعات بكلّ أنواعها تعدّ أخطر أسلحة الحرب النفسية والشواهد والأمثلة التي تعجّ بها أدبيات العمل الدعائي والنفسي، تقودنا إلى أكثر من نموذج، كان لبعضه أهميته وخطورته، سواء في أوقات السلم أو في أوقات الحروب، ولقد كانت تفاصيل المعسكر المغولي تشتمل على خطة راسية فيها المبالغة في نشر الشائعات؛ من حيث المبالغة في تقدير أعداد الجيوش المغولية للدول المراد إخضاعها⁶، وإذا ما تركنا الشواهد الأجنبية فإنّ ما قام به جنكيزخان⁷ في غزوه لبلاد ما وراء النهر

¹ البداية والنهاية، ابن كثير، مج 7، ج 13، ص 138.

² الإشاعة، أحمد نوفل، ص 95.

³ علم الاجتماع الجماهيري، مُجّد إسماعيل قباري، ص 490.

⁴ علم نفس الإشاعة، كامل مُجّد عويضة، ص 177.

⁵ مختصر سياسة الحروب، مصطفى العدوي، ص 66.

⁶ الدعاية والشائعات في حروب المغول على العالم الإسلامي، محمود البرعي، ص 166.

⁷ الحرب النفسية، حميدة سميسم، ص 145.

وتساقط المماليك الإسلامية وانتهاء بسقوط بغداد على يد هولاكو عام 656هـ - 1258م يعدّ نموذجاً آخر، يبرهن لنا على مدى خطورة الشائعات في حسم أغلب المعارك لصالح الغازي المغولي. ويكمن الخطر في حرب الشائعات أنّها تبدأ بنصف معلومة حقيقية وباقي المعلومات إشاعة وهو ما يؤثر على الأمن القومي.

أحاط جنكيزخان نفسه بهالة من الرعب جعلت أعداءه يهربونه، وعندما وصل إلى قلوبهم تهادى في إرعابهم وإرهابهم، ومن ذلك إطلاق الكثير من الشائعات.

ومما لا شك فيه أنّ فترة القرن السابع الهجري - الثالث عشر ميلادي - كانت تعدّ مرتعاً للشائعات حيث نمت في ذلك القرن كلّ أنواع الشائعات التي تمكّن جنكيزخان من الانتصار والتفوق على أعدائه باستخدام الشائعة حيث نجح في تضخيم عدد قواته والترويع بضرواتهم وشراساتهم، كانت الشائعات أحد الأسباب الرئيسية لهزيمة أعداء المغول، فقد عمل على بثّ الشائعات بين الخصوم وفي داخل صفوفهم من خلال المأجورين والعملاء، كانت طريقة المغول في ذلك هي جعل جواسيس الأعداء أنفسهم ووسائلهم غير المأجورين في بثّ الدعر في أقوامهم وترويع قواتهم¹، ولا أدلّ على ذلك ما حدث لجواسيس خوارزم شاه في عام 615هـ - 1218م وكان قد أرسل جواسيسه لينظروا كم مقدار ما معه من العسكر، وما يريد أن يعمل وذلك عقب مقتل تجّار جنكيزخان على يد حاكم أوترار، وقد عاد هؤلاء الجواسيس بعد مدّة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وأنّهم يخرجون على الإحصاء وأنّهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، يعملون ما يحتاجون إليه من سلاح بأيديهم².

لقد جاؤوا إلى خوارزم شاه بدعايات وشائعات وليتهم ما ذهبوا، وهنا يجب الربط بين الدعاية والشائعة، فعلى الرغم مما حملت ظاهرها دعايات إلا أنّها تركت الفرصة لترويج الكثير من الشائعات والواقع أنّ الشائعات الشائعات تنمو في وسط تلجأ فيه القيادة إلى الصمت وعدم توضيح أمور مهمّة تحتاج إلى إجابات مقنعة³.

¹ علم النفس الاجتماعي، محمود السيد أبو النيل، ص213، ط5، دن، 1987.

² حكومة المغول، عباس العزاوي، ص97.

³ تاريخ المخابرات الإسلامية عبر العصور، كرم حلمي فرحات، ص307.

ويوضح ياقوت الحموي مقدار الرعب والفرع نتيجة انتشار الشائعات التي ظهرت عن توجه المغول لخوارزم عام 617هـ - 1220م¹، وقد صدق ابن خلدون بقوله: (إنَّ من أسباب غلب الجيوش أمور خفية منها خداع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل)².

لقد كان من الطبيعي إبان ظهور أفق الحرب بين جنكيزخان وخوارزم شاه في الأيام المضطربة أن يسعى كل طرف من الأطراف إلى استخدام الأساليب الخاصة به في ترويج الشائعات والتي غالباً ما تظهر في وقت القلق والغموض³، والواقع أنَّ حرب الجواسيس بين الإمبراطور المغولي والخوارزمي كانت على أشدها مما فتح باب الشائعات على مصراعيه⁴.

ولقد كان للمبالغة في أوصافهم أثر كبير، مما سهّل الترويج لنشر الشائعات الكثيرة، ومن ذلك (يبدون كأسراب الجراد التي لا حصر لها)، (أنهم لا يتحدثون في شيء غير الحرب والدماء)، (يبدوا منهم التشوق إلى الدخول في غمرة الحرب حتى أنَّ ضباطهم يكابدون عناء كبح جماحهم)⁵، والناس عادة في أوقات الحروب والأزمات كثير منهم يميل إلى تصديق الشائعات دون محاولة للوقوف على الحقيقة.

وفي تلك الفترة انتشرت شائعة مراسلة الخليفة العباسي الناصر لدين الله للمغول وحثهم على القضاء على الدولة الخوارزمية، فكان من الضروري معرفة مدى صدقها ومن أطلقها ولما؟ وما هي نتائجها على العلاقات الإسلامية؟ وهل هي سهلت للمغول السيطرة على العالم الإسلامي؟⁶.

الواقع يوضح أنَّ المؤرخين اختلفوا في شائعة اتهام الخليفة العباسي بين مؤيد ومعارض للاتهام والآخر أهمل الحديث عنها، وهنا تظهر أساس المشكلة بين الخليفة العباسي وخوارزم شاه، لعلَّ أهمها هو هُوسُ التملك والسيطرة لدى خوارزم شاه.

¹ الغزو المغولي كما صوره ياقوت الحموي، بشار عواد معروف، ج2، ص50.

² المقدمة، ابن خلدون، ج2، ص277.

³ علم النفس الاجتماعي، مُجد إبراهيم عيد، ص219.

⁴ حكومة المغول، عباس العزاوي، ص98.

⁵ علم النفس الاجتماعي، المرجع نفسه، ص214.

⁶ الكامل، ابن الأثير، ج2، ص2738. تاريخ الأمم الإسلامية، مُجد بك الخضري، ص467.

كذلك سعى الخليفة لتأليب القوة المحيطة بالدول الخوارزمية والتي تمثلت في الإسماعيلية، عن طريق إرسال مجموعة من الفدائيين لقتل المعارضين له ومنهم الخوارزميين¹ ولأسباب أخرى كثيرة² سعى الخليفة لمحاولة إجهاض الدولة الخوارزمية بعد أن ذاع صيتها؛ وفي المقابل قلّت هيبة الخلافة العباسية وإذا تناولنا المؤرخين المؤيدين فنجد على رأسهم ابن الأثير حيث ذكر عن الخليفة الناصر لدين الله في أحداث عام 622هـ - 1224م، وكان سبب ما ينسب العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك وهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب³.

ويؤيد بعض المؤرخين أنّ ذلك تأييدا لصحة الشائعة وترجيحا لصدقها وإن لم يبينها ابن الأثير والكناية أبلغ من التصريح في مثل هذا المقام⁴.

وحقيقة ما هي إلا فترة قصيرة حتى تلقى الخان (جنكيزخان) على غير انتظار رسالة من خليفة بغداد في أقصى الغرب وكانت الرسالة سرية إذ أنها سطرت بالخير الملوّن على رأس أحد الحجاج بعد أن حلق شعره بالموس كما ترك فترة من الوقت حتى نما الشعر وأخفى الرسالة تحته، جاء فيها (الخليفة يلتمس العون من الخان العظيم ضد حاكم آخر هو محمد خوارزم شاه)⁵. هذا ما كان من المؤيدين للشائعة، أما المعارضون فإنهم يتحدثون عن أنّ جلال الدين هو الذي أطلق تلك الشائعة حيث يقول ابن كثير: (وعزم جلال خوارزم شاه على قصد الخليفة ببغداد؛ لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك)⁶.

ويجمع المؤرخون الموثوق بهم على أنّ هذه الشائعة أطلقها جلال الدين منكبرتي ليتخذها وسيلة للزحف الذي قام به على بغداد عام 622هـ - 1224م⁷، على أنّ بعض المؤرخين قد ابتعدوا

¹ الكامل، ابن الأثير، ج2، ص2749.

² المغول في التاريخ، فؤاد الصياد، ص70 وما بعدها.

³ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ج1، ص176. تاريخ الأمم الإسلامية، محمد بك الحضري، ص467.

⁴ حكومة المغول، عباس الغزوي، ص96.

⁵ الدعاية والشائعات في حروب المغول على العالم الإسلامي، محمود البرعي، ص170.

⁶ البداية والنهاية، ابن كثير، مج7، ج13، ص114.

⁷ كنز الدرر، ابن أيبك، ج7، ص269. موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلي، مج7، ص743.

عن الحديث في تلك الدعاية ومنهم النويري¹ ولكن ترجح الدراسة بعد البحث والتحري أنّ هذه إشاعة حقيقية من عمل المغول بغرض دقّ الإسفين² ومن مبدأ فرق تسد، حيث أنّ الإشاعة كالدعاية التي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً إنما تنشط وتدعم اتجاهات قائمة من قبل، أكثر مما تخلق اتجاهات جديدة³.

ومما يجب ذكره أنه كان لابد من منع قيام أي تحالف (خوارزمي - عباسي) ضد الخطر المغولي؛ لأن قيام مثل هذا التحالف معناه من الصعوبة جداً تحطّي المغول للدولة الخوارزمية وبالتالي استحالة الوصول إلى بغداد⁴ ومن الممكن تسمية تلك الشائعة بالسّامة أو إشاعة هدامة وهي مرتبطة بالأزمات⁵.

كما أنّها تعتبر إحدى شائعات التمويه وهي شائعات مقصودة تترجم أهدافاً محدودة مأن يقوم أحد المحاربين بتسريب بعض الأنباء الكاذبة فيصعب على الجانب الآخر اكتشاف الأسرار الحقيقية من الأخبار الكاذبة الأمر الذي يؤدي إلى حدوث الاضطراب وتحقيق عملية التمويه وهي الشائعة⁶، وسواء أطلقت الشائعة من قبل المغول أو حتى من قبل جلال الدين انطلاقا من مبدأ إشاعة الكراهية فإنّ هذه الشائعة كان لها خطورتها وأضرارها بالنسبة للعالم الإسلامي على حين كانت مفيدة بالنسبة للمغول حيث وسّعت الفجوة بين الدولة الخوارزمية من جهة والخلافة العباسية من جهة أخرى، مما سهل على المغول التوسّع في الأراضي الإسلامية، ومن المؤكد نتيجة للهجوم المغولي وتوسعهم على حساب جيّرائهم وما أحدثوه من الرعب والخوف الذي تسبب في ارتفاع الشائعات المزعجة⁷.

¹ نهاية الأرب، شهاب الدين النويري، ج 27، ص 300.

² أحد أنواع الشائعات القائمة على الأهداف والدوافع والجانب الوجداني وفيها شائعات الكراهية، وتظهر جلية في شائعات الخيانة والعدو والتفرقة والفتن وتسمى شائعات دق الإسفين، وهي من أخطر الشائعات على تماسك الجماعة أو المؤسسة، ووحدة الوطن. انظر: الحرب النفسية والشائعات، عبد الله عريف، ص 16.

³ علم النفس والإشاعة، كامل مُجّد عويضة، ص 135.

⁴ على الرغم من التنافر بين خوارزم شاه والخليفة العباسي إلا أن بعض المؤرخين أورد ميلهم الاثنين إلى الروافض، فقد ذكر ابن أبيك عن الخليفة الناصر أنّ فيه تشيع كثير وميل إلى مذهب الإمامية، كما ذكر عن خوارزم شاه أنه اعتنق مبادئ الشيعة وصرّح بأنّ الغرض هو إزالة الخلافة العباسية. انظر: كنز الدرر، ابن أبيك، ج 7، ص 271.

⁵ الموسوعة النفسية، عبد المنعم الحفني، ص 328.

⁶ الاتصال الفعال، هالة منصور، ص 183.

⁷ الدعاية والشائعات في حروب المغول على العالم الإسلامي، محمود البرعي، ص 172.

لم يدّخر المغول جهداً في نشر الكثير من الشائعات لسحق العالم الإسلامي فعند هجومهم على الخلافة العباسية عام 656هـ - 1258م، فقد تواترت الأخبار بمضايقة المغول لبغداد، ووردت الأخبار بأن المغول قد ملكوا بغداد وشاع أيضاً خبر باطل لا حقيقة له أنّ الخليفة قد لحق بالعرب، فقال الملك الناصر داوود¹ لا بد لي من اللحاق به فإن له في عنقي بيعة وقد لزمني الوصول إليه وأخذ بغداد عنه لا يسقط وجوب اتباع أمره والذي يخشاه الناس القتل وأنا لا أخشاه²، من الواضح أنها شائعة في غاية الأهمية حيث هروب خليفة المسلمين وما يترتب على ذلك من إضعاف للروح المعنوية للمسلمين فعلى الرغم من رد الملك الناصر داوود والذي عرف عنه الحماسة وغيرته على الإسلام ولكن ظهر الخنوع والضعف على بقية الأمراء والملوك الآخرين.

الواقع أن شائعات الخوف والترويع هي تلك التي تنير الخوف والقلق والرعب في نفوس الآخرين والجماعات حتى أنها تسمى بالمدفعية النفسية، وشائعات المغول³ كانت على أشدها أثناء الهجوم المغولي على بلاد الشام ففي أحداث عام 657هـ - 1259م يوضح المؤرخون كيف أن الأراجيف عظمت وكثرت بناء على قطع المغول لنهر الفرات⁴.

وكذلك ظهرت الشائعات عن الملك الناصر يوسف صاحب حلب دمشق⁵، وفي عام 680هـ - 1282م حدثت معركة حمص الثانية ونتيجة هزيمة الميسرة الإسلامية أمام ميمنة المغول، فلما وصلوا إلى دمشق شاع بين أهلها كسرة العالم الإسلامية، فتشوشت الخواطر وقلق البادي والحاضر، ودخل بعض المنهزمين ضعفى القلوب إلى جسر يعقوب، والآخرين إلى غزة. مما لا شك فيه أنه على الرغم من

¹ الناصر داوود ابن الملك عيسى ابن الملك العادل أبو بكر أيوب، ولد عام 603هـ وتوفي سنة 656هـ بالطاعون في قرية البويضا بدمشق. انظر: المختصر في أخبار البشر، أبو الفدا، ج3، ص195.

² مفرج الكروب، ابن واصل، ت: عمر عبد السلام تدمري، ص220.

³ الحرب النفسية، فهمي النجار، ص168.

⁴ مفرج الكروب، المرجع نفسه، ص261.

⁵ انتشرت الشائعات حول مقتل الناصر يوسف، فقد بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله فهرب إلى قلعة دمشق وهرب المماليك الذين يريدون قتله إلى جهة غزة ومهم الظاهر ببيرس وأشاعوا أنهم لم يقصدوا قتله وإنما كان قصدهم إلقاء القبض عليه وتولية أخاه الظاهر غازي. انظر: المختصر في أخبار البشر، المرجع نفسه، ج3، ص200.

انتصار المماليك بقيادة السلطان قلاوون في تلك الواقعة إلا أن هزيمة الميسرة الإسلامية أثرت عليها كثرة الشائعات وبخاصة من الجفال.

وما كانت الدعاية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشائعة من حيث أنها تحمل بين طياتها حقائق وأنصاف حقائق أحياناً، وأحياناً تتفق اتفاقاً تاماً مع الشائعة في كونها تحمل أكاذيب وأشياء غير حقيقية فكان لا بد من ذكر أخطر المعارك التي احتوت على الدعاية والشائعة وهي معركة (مرج المروج) التي وقعت عام 699هـ - 1299م فمع اقترابها قدم البريد بعبور غازان وهروب الناس من جهة الشام فاتجه السلطان الناصر مُحمَّد قلاوون إلى حمص، وبعث يستشرف الأخبار فإذا بالمغول قد وصلوا إلى (سلمية بالقرب من دمشق) وانتشرت الشائعات بين الناس بأن هذا العسكر (عسكر السلطان) مهزوم لا محالة¹.

أما الشائعة الثانية: فقد أشاع المغول أنهم قد قرروا العودة إلى ديارهم نتيجة علمهم بكثرة الجيوش واجتماعهم على قتالهم ولكن كان هذا الخبر مكيدة منهم.

أما الشائعة الثالثة: وهي الأخطر أنهم (أطلقوا شائعة بأن ملك المغول (غازان) غازان مُحمَّد مسلم وأن أغلب جيشه على ملة الإسلام² وأنهم لم يتعبوا المنهزمين، وبغد انفصال الواقعة لم يقتلوا أحداً ممن وجدوه وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه ويطلقونه فسكن بذلك روع أهل دمشق قليلاً³.

أما الشائعة الرابعة التي كان لها أسوء الأثر على جيش المسلمين أن المغول أذاعوا إشاعة كاذبة أنهم قد انتصروا⁴.

ومن خلال تحليل وتنفيذ تلك الشائعات والنتائج التي ترتبت عليها فسيظهر أن المغول نجحوا في نشر الكثير من الشائعات بين المسلمين حتى أنهم فقدوا الأمل في النصر عليهم في تلك الواقعة ونسوا أنه ليس ببعيد عنهم ما نالوه من الانتصارات كذلك تعتبر شائعة عودتهم نوع من الخدع الحربية أو ما يعرف

¹ البداية والنهاية، ابن كثير، مج7، ج14، ص10.

² قام جواسيس وعملاء المغول بنشر تلك الشائعة، فكان منهم من يقول: كيف تحاربون قوماً أسلموا وهم إخوان لكم في الدين؟ ويقول ابن تيمية: أنه لما شاع عند العامة أن المغول مسلمون أمسك العسكر عن قتالهم فانفصل عنهم بضعة عشر ألفاً. انظر: تاريخ حوادث الزمان، ابن الجزري، ج1، ص462. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مج15، ج28، ص316.

³ موسوعة التاريخ الإسلامي في العصر المملوكي، مفيد الزبيدي، ص51.

⁴ سلاسل الأمير التتري المسلم، مُحمَّد عبد الغني، ص49، ط1، مكتبة المدبولى، القاهرة، 2000.

بالحرب النفسية التكتيكية أما الشائعة الأخطر فهي دعاية المغول فكان لهذه أسوأ الأثر كما جاء في عفوهم عن المنهزمين نوع من إعطاء الطمأنينة والاستسلام وتعتبر نوع من شائعات العنف.

كما أنّ نشر تلك الشائعات جعل الرهبة والخوف تصل إلى أيدي الجنود ونجحت في بث سياسة فرق تسد، كما أنّ شائعة انتصارهم أثناء القتال تعطي الخضوع والاستسلام لهم وعدم جدوى القتال فأعطوهم شائعة الأمن لكي يحدث استسلام وجبن، ومن الممكن تسميتها بشائعات التفتيت، وفي واقعة شقحب عام 702هـ - 1302م ونتيجة خروج الشيخ ابن تيمية من باب النصر وقد تبعته جماعة ليشهد القتال نفسه ومن معه فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا أنت منعتنا من الهرب وها أنت هارب من البلد فلم يسلم العالم الجليل من حملة الافتراءات والأكاذيب والدسائس عليه.

وتأكيداً للشائعات والدعايات المغولية وقع كتاب مزور فيه أنّ الشيخ تقي الدين ابن تيمية والقاضي شمس الدين الحريري وجماعة من الأمراء الذين بباب السلطنة يناصحون المغول ويكاتبوهم، وكثرت الكتب الزورة تدريجياً للدعاية والشائعات، سعى المغول لترويج الشائعات بكل الطرق والوسائل.

الفرع الثاني: أثر الدعاية والشائعات في حروب المغول

تعد المعنويات من أهم وسائل الحرب النفسية، قال عنها سون تزو: (أنّ هناك خمسة أسس للنصر الثالث منها: أن من ينتصر هو من يتحرك جيشه بروح معنوية عالية وسائدة في جميع مستويات القادة والجنود)¹.

ولقد اعتمد المغول في حروبهم على أسس عسكرية رئيسية منها تحطيم الروح المعنوية عند أعدائهم والتجسس، وتفريق وحدة أعدائهم بالوقعة بينهم، والتشكيك في معتقداتهم، وإيهامهم بقوتهم التي لا تقهر وتخويفهم من قوتهم علة من يقاومهم، كما أنهم يعتمدون على المفاجأة².

¹ فن الحرب، سون تزو، ص26.

² دراسات في تاريخ الدولة العباسية، حسن الباشا، ص148، ط1، دار النهضة، القاهرة، 1990.

وقد نتج عن نجاح المغول في استخدام الدعاية والشائعات مكاسب عدّة منها تحطيم الروح المعنوية لأعدائهم، في المقابل كان جنكيز خان دائما ما ييثّ الحماس في جنوده، فقد كان دائم التحدث لهم لحسم نتيجة المعركة قبل وقوعها، مما يقوي معنوياتهم ويزيد الثقة في أنفسهم فيقول: (إنّ أماننا أفرحا كبيرة نحيتها في بلاد خوارزم وإني لأرى رؤى العين ديارهم قد انقلبت حقولا ترعى فيها خيولنا وأرى رجالهم يفرون من رجالنا قد قتلهم الخوف قبل أن يقضي فيهم السيف)¹ حتى قيل: إنه بمجرد أمر يصدره جنكيزخان على حدود الصين كفيل بأن ينزل أسعار السمك إلى الحضيض فيباع الخمسون منها بشلن².

وهذا الحديث له دلالة تثير الانتباه؛ لأن قرارا يصدره الخاقان الأعظم في الطرف الشرقي للكرة الأرضية بغزو روسيا أو أوروبا يصيب الشعب الإنجليزي من الطرف الغربي للعالم في رزقه وقوت يومه، إنّما يدلّ على أنه أكبر إنذار وإشارة للغرب الأوروبي كي يستعد للطامة الكبرى³.

إذن الخوف من المغول، أدى إلى كساد تجارة السمك في إنجلترا والحقيقة أنّ الخوف هو العدو الأول للروح المعنوية، والحرب النفسية من غاياتها هو زرع الخوف في قلوب الأعداء قبيل المعركة، بينما جنكيزخان كان دائما وأبدا ما يعمل على رفع الروح المعنوية لجنوده وتبشيرهم بالغنائم.

كما أنّ من صفاته العفو عن قائد جيشه في حالة الهزيمة فقد هزم (فوتوغو نويان) قائد جيشه أمام السلطان جلال الدين في معركة (بروان) عام 618هـ - 1221م، وعلى الرغم من هزيمة الجيش المغولي إلا أنّ ردّ فعل جنكيز خان أنه قال: (إنّ فوتوغو نويان تعود أن يخرج منتصرا في كل وقت من معاركه ولم يذق مرّة طعم الهزيمة وسوف يحتاط كثيرا في أمره بعد هذه الهزيمة)⁴.

كذلك عقب هزيمة قائد شيكاغو من السلطان جلال الدين لم يظهر جنكيز خان غضبه من القائد المغولي وقال: (إنّ قائده اعتاد النجاح، ولكن من الآن فصاعدا سيحرص على أن يكون حذرا كالذئب

¹ القيادة والقادة العظام، السيد فرج، ص111.

² المغول، العربي، ص186.

³ العلاقات بين المغول وأوروبا، عادل إسماعيل هلال، ص44-45.

⁴ تاريخ المغول، عباس إقبال، ص95-96.

طوال الوقت)¹، وإن دلّ ذلك إنّما يدلّ على أن هناك دافعا إيجابيا للروح المعنوية فكلّ سلوك يكمن وراءه دافع ووحدة الجماعة وتماسكها، ولا تكون بغير دوافع الأفراد الإيجابية تجعل من وحدة الجماعة هدفا لأفرادها².

وتعتبر التوصيات العديدة التي ينصح بها القادة لرفع الروح المعنوية لجنودهم ما هي إلا أموراً ثانوية، لا بأس بها من حيث سلوك القائد مع جنوده، كالإغراء المادي، والثناء الشخصي، وعدم احتقاره وإهانته، والتدريب المستمر والعمل مع الجماعة، كل هذه الأمور حسنة، ولكن ليست هي الأساس في رفع المعنويات³. ولا شك فيه أن جنكيز خان وأغلب قادة المغول كانوا من ضمن هؤلاء القادة والذين لهم بصمة مؤثرة في الفكر العسكري، وبخاصة أن الحرب النفسية المستترة والمتخفية من الصعب تطوير فكرها إلا عن طريق الماضي البعيد أمثال هؤلاء المغول وأسلافهم، أما الحرب المادية فهي قابلة للتطور حيث أن العدة والعتاد كل يوم يتجدد، ومما لا شك فيه أن الأسلحة المتطورة والحديثة تكون ذات أثر في رفع الروح المعنوية وفي المقابل إدخال الرعب في قلوب الأعداء، ومن ذلك ما حدث أن الجيش الخوارزمي قد دخل الرعب في قلوب جنوده جراء آلات الحصاد الجديدة التي استعملها المغول وهي ذات أصل صيني⁴.

وهذا ما ظهر أثره في القوة الخوارزمية (المكلفة بالدفاع عن بخارى عام 616هـ - 1219م) فعلى الرغم من أنها بلغت عشرين ألف رجل فإنها ما لبثت أن انهارت أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية وما يقابلها من ضعف في الروح المعنوية عند المسلمين⁵.

يقول سون تزو: (من ينتصر هو من يتحرك جيشه بروح معنية عالية وسائدة في جميع مستويات القادة والجنود)⁶. ومن ذلك أنّ هولوكو في عام 657هـ - 1259م عمل على رفع الروح المعنوية،

¹ جنكيز خان وجحافل المغول، هارولد لام، ص 118-119.

² علم النفس الاجتماعي، محمد إبراهيم عيد، ص 65 وما بعدها.

³ الحرب النفسية، فهمي النجار، ص 65.

⁴ العالم الإسلامي في العصر المغولي، برتولد شبولر، ص 31.

⁵ الدولة الخوارزمية في المغول، حافظ أحمد حمدي، ص 121 وما بعدها.

⁶ فن الحرب، سون تزو، ص 26.

فعند حصار قواته جُرح الأمير (قورجيان) و (أوجوسو كورجي) و (صادق قورجي) الذين كانوا من قواد الجيش في عدة مواضع من أجسامهم وخاصة وجوههم فكان الملك هولاکو يعطف عليهم ويشجعهم قائلاً: (كما أنّ اللون الأحمر يكون زينة النساء، فكذلك للرجال تكون الدماء الحمراء على وجوههم ولحاهم زينة لهم)¹ كما أتقن غازان فنون القتال ومجابهة العدو ووقف على أسرار هذه الفنون ولم يكن يبالي بالموت بل كان يحض جنوده دائماً على احتقار الحياة وعدم الخوف من لقاء العدو، وكان يستحضر قواده في الغالب وكان يوحى لجنوده بالاستفادة قبل كل شيء بالطرق والمرشدين والأدلاء.

والاستعانة بمدد جواسيسهم قبل التحرك لتأمين وسائل التموين والمؤونة وتحصيل المعلومات على أحوال العدو والمعنوية وتجهيزاته المختلفة² وهو بذلك يتشابه بعض الشيء مع جنكيز خان رغم افتراق الدين³، لذلك فالقائد البارع هو من يقهر العدو دون أي قتال، فهو يفتح مدن العدو ويحتلها دون حصار ويسقط نظامها الحاكم دون عمليات عسكرية طويلة في الميدان⁴.

وقد كان للمؤامرات وإثارة الاضطرابات دور في إضعاف الروح المعنوية وهو ما فعله الأويراتية عام 699هـ - 1299م وهي المؤامرة التي دبرت لخلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتعيين كتبغا مكانه قد تسببت في إضعاف الروح المعنوية لقواته⁵.

وتعدّ الحرب في المقام الأول مسألة نفسية؛ لأن الحرب عبارة عن صراع عقلي وبدني يقوم به الجسد⁶، ومن الأسباب التي تساعد على تشكيل القوة والتجهيز الفائق بالمعدات والتنظيم الجيد والتدريب الراقى والانضباط الصارم فضلاً عن الروح المعنوية العالية⁷.

غرس جنكيز خان وأحفاده الروح المعنوية والتي تعتبر بمثابة الروح التي تسيطر على المجموعات المعنوية والتي تعتبر نتائج القيادة الفائقة المسؤولة في وقت السلم عن التدريب الكامل والاعتزاز بالوطن والروح

¹ جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله، ص 306-307.

² تاريخ إيران، عباس إقبال، ص 465.

³ الشرق الإسلامي، فؤاد الصياد، ص 269.

⁴ فن الحرب، سون تزو، ص 24.

⁵ الشرق الإسلامي، المرجع نفسه، ص 291.

⁶ القوى المعنوية، محمد حلمي، ص 10.

⁷ حرب المستقبل، مارتين فان كريفلد، ت: السيد عطا، ص 131-132.

الحربية والنظام الذي يتولد منها في الميدان النصر الباهر، لذلك كان الجيش صاحب الروح المعنوية المرتفعة يتلأشاه القائد الماهر، وهذا هو فن دراسة الحالات النفسية¹، إذا اتضح أن هناك علاقة بين الدعاية والشائعة ودورها في إضعاف الروح المعنوية لتؤكد أن المعنويات السلام الرابع في المعركة مع الأخذ بأسباب النصر².

وبالتالي فإن ذلك يؤدي إلى الخوف والجبن الذي أدى ببعض الأمراء ومنهم (جمال الدين أقيوش الأفرم) إلى الهرب أثناء الحرب ضد غازان بعد نوبته الأولى ودخوله دمشق³.

اهتم العلم الحديث وبخاصة في المجال العسكري بالروح المعنوية⁴ وأن نسبتها تفوق نسبة الحرب المادية⁵ وتسعى بعض الدول في البحث عن معنويات الشعوب، لذلك يمكن تعريفها بأنها حالة الشخص من ارتياح أو عدمه في معيشتة الاجتماعية، فليست الروح المعنوية في المجتمع وللكلية والجيش و القومية... وغيرها⁶.

نستنتج مما سبق أن هناك علاقة بين الروح المعنوية والدعاية التي تخلق حالة من التشبث الذهني والغموض الفكري تسمح بتسهيل عملية الإقناع بالفكرة المطروحة وهو ما لم يكن يتحقق فيما لو ترك الفرد منطقته الذاتي يتطور تلقائياً دون أي ضغط معنوي⁷.

أسس جنكيز خان جيشه على روح معنوية مرتفعة، فلم يكن عنيفاً في مجازاته لقواده بل ترك القوة معهم والتسامح معهم في أحيان كثيرة وأظهر الكرم في توزيعه الغنائم والأسلاب، وعلى النقيض عمل على تقويض الروح المعنوية لأعدائه.

واستغل بعض العناصر التي شاركت المغول في ترويج الدعايات التي تقوي الروح المعنوية ومنهم الأمراء والوزراء كما استفاد المغول من المؤامرات والاضطرابات.

¹ فن الحرب، سون تزو، ص 48-49.

² تاريخ المخابرات الإسلامية عبر العصور، كرم حلمي فرحات، ص 75.

³ منادمة الحروب، أحمد رمزي، ج 1، ص 217.

⁴ المخابرات والعالم، سعيد الجزائري، ج 1، ص 505.

⁵ القوى المعنوية، محمد حلمي، ص 18.

⁶ ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية، جليفورد، ت: أحمد ذكي صالح وآخرون، ج 2، ص 743، ط 1، دار المعارف، القاهرة، دت.

⁷ الدعاية والإعلام في المغرب الإسلامي، أحمد عبد المقصود، ص 52.

كذلك كان الخوف والرعب أحد الأسباب الرئيسية لتقويض الروح المعنوية والذي كان مرده وسائل التهيب النفسي أحد وسائل الحرب النفسية.

كما استفادوا من الحملات الحربية الاستطلاعية لتقوية الروح المعنوية، استغلوا ظروف تفرق العالم الإسلامي، والفوضى، وسعوا إلى نشر الدعاية والشائعات مستخدمين الوسائل التهديدية والوعيدية للحكام المسلمين والتي حملت في الكثير منها الدعاية وانتقلت إلى السكان في صورة شائعة، كما جاءت الحملات الحربية وقوات الاستطلاع المغولية لبث الرعب في نفوس السكان فحملت معها دعاية لتضخيم الجيش المغولي وكذلك العرض العسكري والشعارات والصيحات وكذلك الأعلام، وجاءت الوسائل المتمثلة في الأشخاص الذين نقلوا الدعاية والشائعة بطرق مقصودة وغير مقصودة ومنهم الأمراء والوزراء والأسرى والتجار والجواسيس والرسل وبعض المؤرخين والكتاب في نقل الكثير من الدعايات والشائعات التي أثّرت على الجانب النفسي والمعنوي للمسلمين.

المبحث الثالث: الحرب النفسية في العصر الحديث

المطلب الأول: الحرب النفسية في الحربين العالميتين

الفرع الأول: الحرب النفسية في الحرب العالمية الأولى

بالرغم من أن الحرب النفسية قد عرفت منذ القدم، إلا أن أصولها من الناحيتين العلمية والفنية، لم تتضح إلا إبان الحرب العالمية الأولى، خاصة بعد ظهور علم النفس، وبدء تطبيق هذا العلم بأبحاثه المنهجية، ويمكن التأريخ للبدايات الأساسية للحرب النفسية، في الحرب العالمية الأولى، حيث استخدمها الحلفاء على شكل دعايات ناجحة لإضعاف الروح المعنوية للعسكريين والمدنيين الألمان، ولكسب تأييد الدول المحايدة، فقد أدى تحطيم الروح المعنوية الألمانية في الشهور الأخيرة لعام 1918م إلى إقناع الدول الكبرى في ذلك الوقت بأن الحرب النفسية كانت سلاحاً مؤثراً ورخيصاً نسبياً من أسلحة الحرب، فقد أعلن قائد القوات الألمانية لودندورف lundendorff أن الجيوش الألمانية كانت منتصرة ولكنها أوقفت القتال؛ لأن الروح المعنوية للمدنيين حطمتها دعاية الحلفاء في إطار حربهم النفسية¹.

لقد اكتشف الألمان أن التجديد في النشاط الحربي الألماني بدأ في ميدانين هامين²: الأول هو التوحيد التام أو شبه التام بين المجهودات الحربية ونشاط السياسة والحرب النفسية، والثاني هو الاستفادة مما أسفرت عنه بحوث علم النفس الحديث من نتائج في تحقيق الأهداف الحربية، ومنذ ذلك التاريخ، صارت الحرب النفسية سلاحاً لا يقل أهمية ولا أثراً عن الحرب الفعلية، بل إنها أقل تكلفة منها وتنوعت أساليب هذه الحرب وتكتيكاتها.

وخلال الحرب العالمية الأولى استخدمت كلمة الدعاية للإشارة إلى هذه المهمة، ولم يكن مفهوم الدعاية مقصوراً على طبع النشرات المخصصة للتوزيع السري بين جنود العدو والمدنيين، فقد كانت هناك دعاية بالأعمال، وهو اصطلاح يشير إلى الأهمية العاطفية للاغتيال والاستيلاء على المدن الهامة، أو أهمية المفاجأة وتطوير الأهداف الثورية ضد حكومات العدو³.

¹ [http:// www.moqatel.com](http://www.moqatel.com)

² الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص7.

³ علم الإشاعة والدعاية، مالك مخول، ص22، ط1، المطبعة الجديدة، دمشق، 1405هـ.

شهدت الحرب العالمية الأولى تحول الحرب النفسية من وسيلة عرضية إلى آلة عسكرية رئيسية، وقد كتب عن تاريخ تلك الحرب بأن الحرب النفسية كانت السلاح الذي كسب الحرب، وشكل ذلك اختباراً للعديد من التجارب المتعلقة بالحرب النفسية، واحتلت الحرب النفسية عند الطرفين مكان الصدارة.

وقد ارتبطت الحرب النفسية في البداية بالصراع العسكري وبدأت معالمها تتضح في الحرب العالمية الأولى، حيث شارك الناس خلف جبهة القتال في المعركة بنفس القدر الذي شارك فيه الجندي في الجبهة، أضاف اندلاع الثورة البلشفية سنة 1917م أبعاداً جديدة للحرب النفسية وذلك بظهور أول دولة اشتراكية في التاريخ، وذلك للأسباب التالية¹.

- لأن التناقض بين الأنظمة السياسية والاقتصادية أصبح حاسماً.
- لأن التناقض بين الإيديولوجيات أصبح حاداً و دائماً.
- لأن التناقض الاجتماعي والفكري أصبح واضحاً.

كانت غاية الحرب النفسية هي توجيه الحقد والكراهة المباشر للعدو وتثييط معنوياته، وإقناع الشعوب بأن كلا الطرفين يكافح من أجل قضية عادلة للاحتفاظ بالمعنويات مرتفعة، واكتساب صداقة المحايدين وعرض فكرة أن كل طرف على حق، وتقوية الصداقة مع الشعوب الحليفة في القتال.

واستطاع الألمان أن يحققوا الكثير في ميدان الحرب النفسية والدعاية ضد أعدائهم، وفي الميدان الداخلي كانت استراتيجية الألمان في رصد صفوف الشعب الألماني في كتلة واحدة تثير الفرع في العالم أجمع، وذلك بمخاطبة العواطف وإثارتها، وكانت العامل الأكبر في بث الرعب في المعارك².

وكان من الواضح أن تأثير الراديو داخليا كان كبيراً، ففي ألمانيا كانت كل وسائل الإعلام تتحدث بصوت واحد، ووُضعت عقبات في طريق المصادر الخارجية للمعلومات. وقد تمكن رجال الدعاية نتيجة لمعرفة الدقيقة بالجمهور في الداخل، من تكييف وسائلهم النفسية لتناسب مخاوف جمهورهم وآمالهم وتحيزاتهم. وقد حتمت طبيعة الدعاية نفسها أن تصبح احتكارية وتتحدث بعقل واحد. وكما قال هتلر في كتابه (كفاحي): (بمجرد أن تعترف الدعاية بأن هناك ولو قدر بسيط من الحقيقة فيما يقوله الآخر،

¹ الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص10.

² الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية، محمد حاتم، ص45.

نكون قد وضعنا الأساس للشك في القضية التي نؤيدها)، وكان الهدف خلق جمهور يؤثر عليه القائد وجيش الدعاية الذي مهمته تفسير فكر القائد وإرادته والترويج لأفكاره.

ومن المتناقضات الغريبة أن الراديو كان هو الوسيلة التي تحدث احتكار وزارة الدعاية الألمانية خاصة حينما بدأت هيئة الإذاعة البريطانية خدمتها الإذاعية الموجهة باللغة الألمانية في عام 1938م. ولكن قبل ذلك نجح النازيون في التفاوض لعقد اتفاقيات عدم اعتداء مؤقتة مع الاتحاد السوفيتي وبولندا، شملت أو غطت استخدام الدعاية وبشكل خاص الدعاية الإذاعية بين تلك الأطراف. وقد استخدم الألمان التشويش. ولكن نجحت إشارات الراديو الأجنبي بالرغم من ذلك في الوصول إلى المواطنين الألمان خاصة في السنوات الأخيرة للحرب وسببت قلقا شديدا عند القيادة السياسية. وبالرغم من ذلك لا يمكن أن ندعي أن تلك الإشارات أثرت على الشعب الألماني، فقد استمر يطيع توجيهات قادته ولم يتأثر إلى حد كبير بالرسائل الموجهة إليه من الخارج.

أصبحت الدعاية عنصرا رئيسيا من عناصر الحرب في أواخر الحرب العالمية الأولى، حيث تم إنشاء قسم خاص للرد على دعاية العدو، كما تكوّنت لجنة قومية لهذا الغرض، وتشكلت من أعضاء من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطاليا¹. وتحقيق أول استخدام علمي منظم للدعاية قرب نهاية الحرب، ففي تلك الفترة تحولت الدعاية من فن أو حرفة إلى علم له أصول وقواعد. ولكن لم تصل بريطانيا لهذه المرحلة حتى صيف سنة 1918م حينما أدرك الحلفاء أنه لكي تصبح الدعاية فعالة تماما، لا يجب فقط أن تعد إعدادا جيدا، ولكن يجب أن ينسق العمل الدعائي مع العمل السياسي والعسكري، وتُجنّد كل القوى لتحقيق الأهداف الموضوعة. ولكن في السنتين الأولى والثانية للقتال كانت الحكومات مشغولة بالجانب العسكري للحرب. وقد أدركت تلك الحكومات في سنة 1917م قيمة الدعاية كوسيلة هامة في الحرب الهجومية ضد العدو. وكانت حكومات دول الحلفاء الأولى في إدراك أهمية هذا السلاح، لذلك أنشأت كل دولة منها منظمة رسمية لتوجيه الدعاية إلى دول العدو. فأنشأت المملكة المتحدة إدارة للدعاية الموجهة للعدو، وعرفت باسم (كروهاوس crew house) في لندن².

¹ الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، جيهان رشتي، ص 85.

² الدعاية السياسية وأثرها على مستقبل العالم، لندي فريزر، تر: عبد السلام شحاتة، ص 32.

وبينما ظهر النظام الدعائي الأمريكي مرة واحدة، وبقي دون تعديل في الحرب، نجد النظام الدعائي البريطاني مرّ بسلسلة من التغيرات الطويلة والمعقدة. فقد ساد في الدول الغربية الخوف من الدعاية الحكومية التي قد تُستغل لتطوير مصالح الحكومة في الداخل، ولذلك تعرضت اللجنة الأمريكية والإدارة البريطانية المسؤولة عن الدعاية لقدر كبير من الانتقادات، وبذلت جهوداً كبيرة لتقييد أوجه نشاطها¹.

وقد بدأ تنظيم الجهود الدعائية في بريطانيا بإنشاء إدارة صغيرة في ولنجتون هاوس في مكتب المسؤولين عن إعداد النشرات الدعائية. وكانت إدارة ولنجتون تعمل وكأنها وكالة خاصة وليس وكالة رسمية. وفيما بعد أنشئت لجنة أخرى للإعلام واللاسلكي، ولكن كانت علاقتها بوزارتي الداخلية والخارجية غير متينة. ثم أنشئ مكتب صحفي في أوت سنة 1914 ألحق فيما بعد بوزارة الداخلية، وقد شاركت في تلك الفترة وزارة الخارجية في تزويد الصحافة في الدول المحايدة ليس فقط بالأخبار حول إنجلترا، ولكن أيضاً بالأخبار التي تهم تلك الدول خاصة تلك المتصلة بالتجار والعمالة والتجنيد وغير ذلك من الأنباء الهامة لأصدقاء بريطانيا، أي أن عدد المؤسسات الدعائية زاد في إنجلترا في سنوات الحرب العالمية الأولى، ولكن قام بتجميع أو توحيد تلك اللجان في عام 1916 إدارة المعلومات التابعة لوزارة الخارجية. وكان لهذه الإدارة أربعة أقسام رئيسية (قسم السينما وقسم الأخبار وقسم المعلومات السياسية وقسم إنتاج وتوزيع المادة الإعلامية للاستهلاك في الدول المحايدة وفي داخل بريطانيا). وتم أيضاً إنشاء لجنة وطنية مستقلة للأهداف الحربية، كانت مسؤولة عن الدعاية الموجهة للداخل. وكما هو الحال في فرنسا، قامت المؤسسات العسكرية أيضاً بالدعاية، وقد نسقت أوجه النشاط تلك تدريجياً مع نشاط الوكالات المدنية.

وبشكل عام كانت الدعاية حتى أوائل سنة 1918 تنفذ بدون تخطيط أو بأسلوب عشوائي غير علمي. ولكن نجحت المملكة المتحدة والولايات المتحدة قرب نهاية الحرب في تنظيم هيئة فعالة للدعاية، ونجحت في الوصول إلى المدنيين في ألمانيا وفي مختلف أنحاء الإمبراطورية النمساوية والمجرية. وكانت الدعاية الألمانية في الميدان أسرع، ونجحت - إلى حد كبير - في التأثير على الرأي العام في الدول المحايدة

¹ الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية، مُجد حاتم، ص 46

وإضعاف إرادة الانتصار عند أعدائها. ولكن كان على جهاز الدعاية البريطاني أن يبني نفسه من الأساس بعد إعلان الحرب، وركز لفترة من الزمن أساسا على الجبهة الداخلية. وكان للندن هدفان رئيسيان هما: زيادة الحماس والمساندة لقضية الحلفاء في الولايات المتحدة، وإيقاظ الأقليات العنصرية في أراضي العدو حتى تقوم بالثورة. وقد عمل البريطانيون والفرنسيون باستمرار على إشعال نار الدعاية في المناطق الحساسة للعدو¹.

ولكن ما مدى تأثير دعاية الحلفاء على ألمانيا؟ وإلى أي مدى ساهمت وبشكل خاص الدعاية البريطانية في انهيار حكومات الحلف المركزي؟.

بالرغم من فاعلية الدعاية البريطانية الموجهة إلى ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، إلا أنها لم يكن لها تأثير قاطع على مجرى الأحداث. فقد ادعى الألمان أن الدعاية البريطانية كانت شديدة الفاعلية، وساهمت بشكل أساسي في إيقاع الهزيمة². وقد انعكس هذا الإيمان في حالات محددة: ففي 31 يوليو سنة 1917م أصدر القائد العام لهيئة أركان القوات المسلحة منشورا انتقد فيه انتشار الشعور (بالضيق العميق) في الوطن، وعزى هذا الحزن أو الضيق العميق إلى تحريك أعداء معينين داخل ألمانيا. وفي 14 سبتمبر عام 1918م انتقدت جريدة Hanza واسعة الانتشار التي تصدر في هامبورج عدم الرضا، الضيق الظاهر في كل مكان في ألمانيا، وروح الانهزامية التي تحيط بشكل واضح بالشعب الألماني وتدمر توازنه الروحي، وقد عزت الجريدة ذلك لدعاية إنجلترا التي لا مبدأ لها. فهذه الدعاية وفقا للجريدة جعلت الفلاحين والعمال يتساءلون ويقولون: إذا كان العالم كله ضدنا فلا بد أن هناك سببا، وربما خدعنا قادتنا حول هذه الحرب منذ البداية... لماذا نقتل ونجوع من أجل قيادة تكذب علينا؟.

فقد وقّرت الدعاية البريطانية في الحرب العالمية الأولى مصدرا خصبا للألمان للقيام بدعاية مضادة لمعاهدات السلام في فرساي، وقال هتلر في كتابه ((كفاحي)): (في عام 1915م، بدأ العدو دعايته بين صفوف جنودنا، وابتداء من 1916م، أصبحت هذه الدعاية مكثفة أكثر فأكثر،

¹ مدخل في الرأي العام والإعلام والدعاية، رفيق سكري، ص 66، ط 1، جروس برس، طرابلس، 1984.

² علم النفس الحربي، عبد الرحمان عيسوي، ص 42.

وفي بداية 1918م، تضخمت وتحولت إلى غيوم عاصفة، وبإمكاننا الآن أن نلمس آثار هذا الإغواء التدريجي، وقد تعلم جنودنا أن يفكروا بالطريقة التي أراد العدو لهم أن يفكروا بها¹.

وادّعى هتلر أن الجيش الألماني لم يهزم في ميادين القتال، وإنما استسلم لتحطيم روحه المعنوية التي كانت تغذيها الدعاية البريطانية الماهرة، وبذلك قدم شرعية تاريخية لأسطورة (الطعنة من الخلف)². وبغض النظر عن الدور الحقيقي الذي لعبته الدعاية البريطانية أو البلشفية في انهيار ألمانيا، فإن الكثيرين كانوا يعتقدون أن تجربة بريطانيا في الدعاية في الفترة (1914-1918م) كانت ناجحة للغاية، وقدمت مثالا حذت حذوه حكومات أخرى. وقد أشاد هتلر نفسه بالبريطانيين عندما كتب قائلاً: (لم تدرك ألمانيا أن الدعاية سلاح بالدرجة الأولى، بينما استخدمه البريطانيون بمهارة فائقة وتدبير بارع).

ولقد احتلت الدعاية مكان الصدارة في الحرب النفسية؛ لأن الدول المشتركة في الحرب جعلت وسائل الاتصال الجماهيرية جزءاً من حياتها المدنية، وكانت جهود الحرب النفسية لكل من الدول المقاتلة البديل المباشر لدعايتها غير السياسية في أيام السلم، فأنشأت وزارة الخارجية البريطانية سنة 1914م مكتباً للدعاية، ولكن الجزء الأكبر من الجهد كان يتم بوساطة المؤسسات الخاصة. وكانت نتيجة الصعاب التنظيمية التي قابلها الإنجليز أن أصبح لديهم في نهاية الحرب وكالتان منفصلتان: الأولى تتكون من وزارة الاستعلامات ومعها إدارة المخابرات للقيام بأعمال الدعاية خارج بريطانيا، أما الوكالة الأخرى فهي اللجنة القومية لأغراض الحرب وتقوم بأعمال الحرب النفسية داخل بريطانيا³.

ولم ينجح الألمان في دعايتهم في الحرب العالمية الأولى ولا سيما في الجبهة الداخلية، فلقد بدأت الحكومة الإمبراطورية الحرب سنة 1914م واثقة من قوتها، ولكنها لم تقدر عوامل القوة بين صفوف الجماهير، فقد كان القيصر غليوم الذي ورث عن سلفه عرشاً وجيشاً كبيراً يؤمن بأن الأمر لا يعني به أحد سواه، أما الجماهير فيحسن أن يبعدوا أنوفهم عن هذه الأمور⁴.

¹ Powers of presentation, History Today, 10/1999

² مدخل في الرأي العام والإعلام والدعاية، رفيق سكري، ص 76.

³ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 132.

⁴ المرجع نفسه، ج 1، ص 133.

وكان لأمريكا في الحرب العالمية الأولى هيئتان للدعاية، الوكالة المدنية للمعلومات، والتي عرفت دوليا باسم لجنة كريل، نسبة إلى رئيسها مستر جورج كريل، ثم الوكالة العسكرية ولها قسم للدعاية أو للحرب النفسية في هيئة العمليات (G-2D) بمركز رئاسة الحملة الأمريكية. وقد وفقت لجنة كريل في الحصول على معونة منسقة من كل الإدارات الحكومية الأخرى إذ أنّ رئيسها كان موضع ثقة الرئيس الأمريكي. وأعدت اللجنة متحدّين متطوعين يتحدّثون في كل المجتمعات الأمريكية، وظهرت لافتات كتب عليها (Four Minutes Men) بمعنى أن المتحدّث لا يتكلم غير أربع دقائق، وأعدت أفلاما للدعاية عرضت في كل أنحاء العالم، وهدد كريل شركات العرض السويسرية بمقاطعتها ما لم تعرض أفلا الدعاية الأمريكية، كما أرسل كريل مبعوثوا الدعاية إلى فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وسويسرا، وهولندا، وإسبانيا، والمكسيك وغيرها من بلاد أمريكا اللاتينية وكذا الصين وروسيا¹.

ثم جاءت الثورة البلشفية في السنة الرابعة للحرب العالمية الأولى، واستندت هذه الثورة إلى الدعاية، ثم استمرت الدعاية السلاح الرئيسي الفعال في أيام البلشفية، ثم عند التحول إلى الشيوعية، وقد استخدمت الدعاية البلشفية الوسائل التالية²: تنظيمات الحزب الشيوعي، اتحادات العمال، المنظمات السرية، البعثات التجارية والقنصلية، النشرات التي ترسل بالبريد، الملصقات والكتب والصحف، والأفلام والإذاعة³.

إن ما حققته الشيوعية في ميدان الحرب النفسية، كان يعتبر دائما جزءا خاصا من تطبيقات الماركسية، ولم ينظر إليه على أنه فن يمكن أن تتعلمه أو تستخدمه أية شعوب أخرى لا تدين بالشيوعية. وكذلك اعتبر الاكتساح التاريخي الذي قامت به الجيوش الصينية الوطنية، بين عامي 1922 و1927 مسألة صينية بحتة، وأغفلت الدروس التي كان من الممكن تعلمها من الحرب النفسية التي قام بها الشيوعيون الصينيون. وفي أثناء هذا كانت ألمانيا تخوض غمار حرب نفسية داخلية، ولم يستيقظ العالم من غفوته ليدرك وجود هذا السلاح الجديد، إلا بعد أن وصل هتلر إلى مركز مستشار الرايخ⁴.

¹ الحرب الإذاعية، فؤاد بن حالة، ترجمة: انشراح الشال، ص24، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993.

² المرجع نفسه، ص25.

³ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص129.

⁴ قصف العقول، فيليب تايلور، ترجمة سامي خشبة، ص، سلسلة عالم المعرفة، ع256، دت.

وهنا يجب أن نشير إلى حقيقة هامة، فالنازيون من البداية لم يؤمنوا بالعقيدة التي يبشرون بها بنفس القدر الذي آمن الشيوعيون بعقيدهم. فمنذ البداية اعتبر الشيوعيون الدعاية سلاحا جديدا قاسيا يمكن أن يؤدي إلى تحقيق قوة حديثة. وكان الشيوعيون قد أوضحوا بأن أقلية لها رسالة مقدسة من اختراعها يمكن أن تحصل على تعضيد الجماهير لحكومة تزعم أنها تهدف للعمل من أجل الشعب وإن كانت لم تقم بواسطة الشعب ولا من بين صفوف الشعب، واتخذ النازيون هذا مثالا يحتذى.

وجاء جهاز النازية إلى حد بعيد تطبيقا للمثال الشيوعي، وإن كان التطبيق لغاية مختلفة. كانت الغاية بالنسبة للنازية حكم العالم، وكانت الغاية بالنسبة للشيوعية قيام الشيوعية الدولية¹. والمهم أن كليهما اعتبر أن أية وسيلة لها نفعها في أي وقت مادامت تؤدي إلى الغاية البعيدة. ولما كان زعماء الحزب هم وحدهم الذين يقررون ما إذا كان عملا معيناً يمكن أن يؤدي فعلاً إلى (الغاية)، أصبح هدف العمل هو تحقيق السيطرة والسلطة.

الفرع الثاني: الحرب النفسية في الحرب العالمية الثانية

قبل الحرب العالمية الثانية، استطاعت دول المحور أن تجعل شعوبها راضية عن القيام بحرب عدوانية، ثم قامت بتفتيت خصومها للحصول على النصر، وكان عليها أن تخيف أعدائها المباشرين. واقتضت كل المحاولات التي سبقت العمليات العدائية استخدام واسع النطاق للدعاية السوداء، ورغم ما بذل من جهد كبير لإخفاء تلك الدعاية، وحقق الألمان في ميدان هذه الدعاية انتصارات في المجال السياسي، يجعل كتلة كبيرة من الرأي العام الدولي ترى أن مستقبل العالم يتوقف على الاختيار بين الشيوعية والفاشية، وفي الميدان النفسي، باستخدام الذعر الكامل، لجعل الشعب الألماني نفسه يخشى من تصفية الشيوعية له، كما استخدم أفلام عمليات الحرب الخاطفة لإخافة الجماعات الحاكمة في دول أخرى، ولتخطيط المعنويات، وتسبب عن ذلك ما يسمى بـ (الانهيار العصبي للأمم)، وذلك بإبقائها دائما في حالة شك وعدم تيقن مما يمكن أن يحدث لها غدا².

¹ الدعاية السياسية وأثرها على مستقبل العالم، لندلي فريزر، ص 46.

² قصص العقول، فيليب تايلور، ص 364.

وفي الحرب العالمية الثانية، أصدر السوفييت نشرة أطلقوا عليها اسم (الحقيقة)، وفي أبريل سنة 1942م، كان قد صدر من هذه النشرة 250 عددا جملة ما طبع منها خمسة عشر مليون نسخة وزعت جميعها، وبذلك بدا كأنهم وجهوا للألمان خمسة عشر طلقة قاتلة دون إراقة أي دماء. وقد وجد السوفييت عند استجواب أسرى الحرب أن الكثير من الجنود الألمان قرأوا هذه النشرات، وبذلك كانوا على دراية بوجهات نظر السوفييت عن الحرب، وأسقط اليابانيون مثل هذه النشرات فوق (شونج كنج) وأجزاء أخرى من الصين، وكانت هذه الدعاية تحث الصينيين على أن ينظموا إلى اليابانيين للخلاص من عبودية بريطانيا وأمريكا¹.

وأسقطت قاذفات القنابل البريطانية الآلاف من الصحف المطبوعة على ورق رقيق على ألمانيا وعلى المناطق التي يحتلها الألمان، وكانت كل من هذه الصحف تتكون من أربع صفحات بمساحة 8 بوصات مربعة، ويمكن أن تلف لتكون أشبه بلفافة تبغ، وكانت تنشر فيها بعض الصور كما تتضمن أحداث الأبناء التي لا يمكن أن تميزها الرقابة الألمانية.

وفي الحرب العالمية الثانية نجد أمثلة كثيرة من الدعاية البيضاء والسوداء، كان الهدف منها تحطيم معنويات العدو، ونستطيع أن نحصر على سبيل المثال أمثلة من ذلك، فقد أُلقيت على الجنود اليابانيين الذين كانوا يتضورون جوعا في شمال بورما صورا ملونة عن الأغذية اليابانية اللذيذة الطعم، وفي ميدان جنوب غرب الباسفيك ألقى الأمريكيون رسوما كاريكاتورية توضح الجندي الياباني المحروم يقاتل في سبيل قضية خاسرة على حين أن ضباطه ينالون من متع الدنيا. كما أُلقيت نشرات على الجنود اليابانيين في شمال الباسفيك تخبرهم بأنهم سيتساقطون بقتالهم كما تتساقط أوراق الخريف.

وقد تبارت كل الأطراف المعنية في الحرب العالمية الثانية في استخدام الدعاية السوداء، ومن أمثلة ذلك ما قام به الألمان ضد الجنود الفرنسيين، فمثلا كان يرسل للجنود الفرنسيين الذين يحاربون خارج أرض الوطن خطابات من بلادهم تخبرهم بأن زوجاتهم يرتكبن الزنا أو أنهن مصابات بأمراض تناسلية معينة. ومثال آخر وهو لا يزال يستخدم بواسطة بعض الدول في وقتنا هذا في أثناء الحرب النفسية

¹ قصص العقول، فيليب تايلور، ص 365.

في الحروب المحدودة التي تقوم بين ربوع العالم، وهو استخدام الإذاعة في النداء على أسماء الجنود وذكر وحداتهم ثم تحتلق القصص الكاذبة ما يدور بين عائلاتهم في أرض الوطن من مخاز وخيانات زوجية مما يجعل جنود العدو في حالة يأس وقلق مستمر على ذويهم قد يؤدي بهم إلى انهيار عصبي.

ومن ناحية أخرى، لوحظ أن كلا من ألمانيا وبريطانيا وجدتا في الإذاعة وسيلة فعالة يمكن توجيهها إلى دول أوروبا على الموجات العادية، بل تستطيع كل منهما أن تتداخل في الإذاعة الأخرى، بالقيام بما يسمى (أعمال الشوشرة). والحق أن كلا منهما ركز اهتمامه لجذب انتباه أكبر عدد من المستمعين، والتأثير في معتقداتهم وعواطفهم وولائهم، سواء أكانوا أصدقاء، أو محايدين، أو أعداء.

وفي أمريكا، عين الرئيس روزفلت أحد رجاله منسقا للمعلومات وامتألت إدارته بالأخصائيين، ولا سيما في القسمين الخاصين بالبحوث والتحليلات، وجمعت أكواما من المعلومات السياسية والجغرافية والاقتصادية، ونسقت عمليات الإذاعة مع السياسة الخارجية، ثم أنشأ روزفلت (إدارة معلومات الحرب) في 13 يونيو 1942م لتتولى السيطرة المباشرة وغير المباشرة على كل الدعاية المحلية والخارجية، وأخذت هذه الإدارة قسم الإذاعة من إدارة التنسيق، والتي تغير اسمها إلى (إدارة الخدمات الاستراتيجية)، وحددت أغراضها بالآتي¹:

1- استمرار جمع المعلومات.

2- القيام بالدعاية السوداء

3- القيام بأعمال المؤامرات، بالتعاون مع السلطات العسكرية.

وقد أحسن اليابانيون استخدام الأنباء كوسيلة لاجتذاب المستمعين الأمريكيين، فقد استمرت نشراتهم بالإنجليزية، واستمرت أجهزة (مورس Mors) اللاسلكية في إرسال الأنباء إلى الصحف الأمريكية.

ومن جهة أخرى، نجح الروس في تجميع مواطنيهم وتكتيلهم ضد العدو، إذ طالبو الشعب بأداء الصلوات في الكنائس من أجل النصر، وتخلوا عن كثير من شعاراتهم الإلحادية، وأطلقوا على الحرب اسم

¹ <http://www.altebyan.com/vb/showthread.php>

(الحرب الوطنية الكبرى)، وبعثوا نصيحة بسمارك بعدم إلقاء جنودهم في أي مغامرة نحو الشرق من بلادهم، واستخدموا الأسرى الألمان في الدعاية¹.

وخلال الحرب، خططت ونفذت الحملات الناجحة من قبل شخصيات موهوبة إما في الإذاعات الموجهة أو الكتابة الصحفية. وكان لهذه الشخصيات المقدرة الفطرية على تحسس مشاعر الجماهير، ثم استغلال تلك المشاعر لإحداث رد الفعل. فقبل الحرب العالمية الثانية وخلال مراحلها الأولى كانت الحرب النفسية الهجومية من أنجح حملات الحرب النفسية الهجومية. فقد كان الألمان يروجون دعائيا لعظمة الجيش، وقوة وشجاعة الألمان. ثم لم يلبث هتلر أن أربع أوروبا من خلال استعراض جيوشه في المناسبات الرسمية، وهي تزحف في الميادين العامة في خطى واثقة موحدة وأسلحة حديثة ألهمت مشاعر الألمان إعجابا وفخرا بقواتهم المسلحة، وزرعت الخوف والرغبة في قلوب الخصوم².

وعند غزو الجيوش الألمانية لبلاد أعدائهم، قامت الدعاية الألمانية بإظهار براعة الجيش والطيران النازي في إلحاق الهزائم المزلزلة للأعداء في وقت قياسي، والتلويح بقدرة الألمان على إنزال الهزيمة المنكرة لكل من يقاوم تطلعاتهم.

ويمكن القول إنه خلال الحرب العالمية الثانية حقق اصطلاح الحرب النفسية المهمة التي حققها اصطلاح الدعاية خلال الحرب العالمية الأولى. وظهرت الكلمة للمرة الأولى في ألمانيا وأصبح لها أهمية كبيرة. فقد بحث الألمان الذين هزموا خلال الحرب العالمية الأولى عن أسباب هذه الهزيمة أو (الانهيار)، وآمن الخبراء في القيادة الألمانية بأن السبب أنهم لم يستخدموا إمكانيات الاتصال بالجماهير³، وأنهم فشلوا في ربط الدعاية بالإجراءات السياسية والعسكرية والاقتصادية والدبلوماسية، أي لم يستغلوا كل أسلحتهم بأقصى ما يمكن لتدمير إرادة العدو⁴.

وخرج الألمان مما يسمى (حرب الإذاعة) بدرس أو مبدأ أساسي، هو عدم السماح لإذاعتهم أن تسبق الحوادث، إذ كان الراديو الألماني يعد المستمعين أحيانا بأشياء لا يستطيع أن يحققها

¹ آراء عسكرية تحت المجهر، محمد نواز، ص 14، ط 1، مجلة الدفاع، السعودية، 1983.

² المرجع في الحرب النفسية، مصطفى الدباغ، ص 66، ط 1، دار الفاروق، عمان، الأردن، 2007.

³ التي كانوا يشيرون إليها دائما باصطلاح الدعاية.

⁴ المرجع في الحرب النفسية، المرجع نفسه، ص 44.

العسكريون، وكان الإنجليز ينتهزون تلك الفرصة بالتقاط هذه النداءات وتوجيه أنظار المستمعين إليها، مما جعل الألمان يضعون ضباط اتصال من الجيش في الإذاعة لمراقبة الإذاعيين في توجيه إذاعاتهم حتى لا يعدوا بما لا يمكن تحقيقه.

أما الولايات المتحدة فلم يكن لديها بعد بداية الحرب في الشرق الأقصى بل حتى بعد اشتراكها في العمليات الحربية بأوروبا أي أقسام مدنية أو عسكرية تتوافر لها وسائل الدعاية، ولكن كان لها في الواقع صلات غير مباشرة في كل أنحاء العالم أقامتها مجموعة صحف Fortune-life-tune فضلا عن الريدرزدايجست. وكان ممكنا أن تضع الحكومة يدها على كل صحيفة ومجلة وكل محطة إذاعة في البلاد، وأن تنسق هذه كلها للمصلحة القومية، ولكن هذا لم يكن مستطاعا مع وجود دستور ومع وجود محاكم تمكن من تنفيذ الدستور، وبذلك وضع أنه يجب توقع تدخل من جانب وسائل النشر الخاصة. وتبرز عملية (إيطاليا كومبات) Italia Combatte كيف استخدمت الحرب النفسية لتأييد عمليات حركة المقاومة، وتعتبر من حيث القيمة من أكثر الحروب التي تمت في منطقة البحر المتوسط في أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد جمعت هذه العملية بين النشرات وبين الإذاعة التي كانت تهدف إلى إسداء النصيحة ورفع الروح المعنوية في وحدات المقاومة الإيطالية الموالية للحلفاء، والتي كانت تقوم بعمليات وراء خطوط الأعداء¹.

لقد استمرت هذه الوحدات منذ وقت نزول الحلفاء لأول مرة على الأرض الإيطالية حتى نهاية القتال في إيطاليا، تتلقف بصورة منتظمة أي جريدة أو نشرة تعليمات. وكان يلقي بهذه الجرائد والنشرات الطيارون الأمريكيون والبريطانيون وكذا الطيارون الإيطاليون الذين كانوا يعملون مع الحلفاء. ولما لم يكن من الممكن تغطية المنطقة كلها بالنشرات فقد استكملت تلك التغطية باستخدام الإذاعة على موجات متوسطة وقصيرة.

وفي مارس سنة 1944، وضعت عملية (Italia Combatte) تحت إشراف ألبرت سبالدنج، عازف الكمان الأمريكي المشهور، واستمر في الإشراف على هذا النوع الهام من العمل حتى نوفمبر سنة

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص 239 وما بعدها.

1944 عندما اضطره المرض إلى العودة إلى الولايات المتحدة، وكان سبالدينج مؤهلاً لهذا العمل بدرجة كبيرة.

وخلال الحرب، أحيطت عمليات (إيطاليا كومبات) بسرية مطلقة، فكانت تجمع المعلومات من مصادر متعددة، سواء من مصادر الحلفاء، أو مصادر إيطالية، أو مصادر صديقة أو معادية. وبغض النظر عن المصدر الذي جمعت منه بعض الأوقات، كانت المعلومات هامة بدرجة أنها كانت تؤخذ مباشرة إلى القائد الأعلى للحلفاء في منطقة البحر الأبيض، من أجل استشارته ونصيحته.

وكانت (إيطاليا كومبات) موجهة أحياناً إلى روما قبل تحريرها، وكذلك إلى جماعات المقاومة الذين كانوا يعملون في شمال إيطاليا، وكانت أسماء الجواسيس الذين يتعاونون مع العدو تذكر في النشرات أو في الإذاعة، مما أدى إلى أن يقوم أفراد المقاومة بتنفيذ حكم الإعدام في عدد كبير من هؤلاء الجواسيس، وكانت تعطى تعليمات خاصة بارتكاب كل أنواع التخريب.

ولقد ذكر التقرير الرسمي للحرب النفسية للحلفاء في منطقة البحر المتوسط الذي أعد عام 1945 خصيصاً لوزارة الدفاع الأمريكية: (أنه ليس هناك أي شك في أن (إيطاليا كومبات) كان لها أثر هائل على النظام والسلوك العام الذي أظهرته جماعات المقاومة).

ونعطي هنا مثلاً يوضح استخدام الحرب النفسية بنجاح بغرض الضغط على أجهزة الأمن في الدولة الهدف¹. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية، قامت هيئة أفراد الحرب النفسية للحلفاء، بعملية (برادوك)، وكان الهدف هو أن تزيد من خطر ملايين العمال الأجانب في ألمانيا على هيئة الأمن الداخلي الألماني. وكانت الوسيلة التي استخدمت هي إسقاط من أربعة إلى خمسة ملايين لفافة من المتفجرات الحارقة الزمنية القوية ذات الحجم الصغير على مناطق في ألمانيا والنمسا حيث كان العمال الأجانب يتجمعون. وكانت كل رابطة من المواد المتفجرة تتضمن (كارت تعليمات) يصف طريقة الاستعمال ومكتوباً بتسع لغات، علاوة على (دليل) يشير إلى الأهداف المحتملة، وبالإضافة لذلك، استغلت الوسائل المألوفة في الحرب النفسية، فالدعوة إلى حمل السلاح كانت توجه في إذاعات خلال الليل من محطة إذاعة

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص240.

للحلفاء أطلق عليها Soldatensender calais ولم تكن هذه الإذاعة تعرّف نفسها على أنها إذاعة حليفة، كما استخدمت النشرات الرسمية التي كانت مذيلة بتوقيع الجنرال ايزنهاور.

كان هدف (برادوك) مزدوجاً: الاستفادة بأكبر قدر ممكن من أعمال التخريب الفعلية التي يقوم بها العمال الأجانب، وتحطيم أعصاب قوى أمن الأعداء إلى أقصى درجة ممكنة. وخلال الأسابيع الأولى من عام 1945م، عندما كان واضحاً من الموقف العسكري أن وضع حد سريع للحرب كان أمراً غير محتمل الوقوع، رفض هدف التخريب. وبالرغم من ذلك، فإن التقارير التي وردت إلى الحلفاء من العواصم المحايدة، مثل ستوكهولم وبرن، والتي استخلصت من الإذاعة الألمانية، قدمت الدليل على أن النداء الإذاعي أقلق المسؤولين النازيين وحيرهم كثيراً. واستمر العمل في تحقيق الهدف الثاني وهو: (شغل إدارة الأمن الألمانية بجعلها في حالة مستمرة من الخوف والترقب حتى أبريل سنة 1945، عندما اتضح أن نهاية الحرب قريبة)¹.

ودلت الاستجابات التي أجريت مع العمال الأجانب بعد انتهاء الحرب على وجود عقد نفسية في اتجاهاتهم. فليس مجرد الخوف من البوليس هو الذي خلق في هذه الجماعات روح التردد والإحجام عن القيام بأعمال التخريب، ولكن أول عقدة نفسية كانت لدى هؤلاء العمال حينما فكروا تفكيراً منطقياً بأن مجهوداتهم لتخريب المصانع الألمانية هي جهود لم يكن لها داع نظراً إلى التدمير الهائل الذي أحدثته قوات الحلفاء الجوية.

أما العقدة النفسية الثانية فهي قولهم بصراحة إن إحجامهم عن الاشتراك في أعمال تخريب يقوم على اعتبار أنهم لم يرغبوا في القضاء على سير العمل في مصانعهم. فالقضاء على سير العمل من شأنه أن يشكل عقبات شخصية لخسارتهم الأجور أو بطاقات التموين خلال الفترة المطلوب فيها إجراءات إصلاحات أو الانتقال لمصنع آخر. ولذلك كان رجال الدعاية في قوات الحلفاء غير واقعيين عندما طلبوا من العمال الأجانب أكثر مما يستطيع هؤلاء العمال أن يقدموا.

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج1، ص241.

المطلب الثاني: الحرب النفسية ما بعد الحرب العالمية الثانية وفي الحروب الحديثة

الفرع الأول: الحرب النفسية ما بعد الحرب العالمية الثانية

تمخضت الحرب العالمية الثانية عن صراع مذهبي كبير بين المنتصرين، وأدى هذا الصراع إلى أن عاش العالم في جو من الاضطراب والقلق، وبدرجة فاقت ما كانت تتوقعه الشعوب التي قاست كثيرا من مآسي الحرب العالمية الثانية. ودخلت الحرب النفسية في مرحلة لا هي حرب فعلية، ولا هي سلام حقيقي، إذ حاول كل من المعسكرين أن يعالج المشكلات الدولية بطريقته الخاصة، ومفهومه السياسي. وتسابق الطرفان في ميدان الحرب النفسية بشكل لم يظهر في التاريخ الحديث، مما أدى ما سمي بـ (الحرب الباردة) بأشكالها المختلفة.

في عام 1951م، أنشأ الرئيس الأمريكي (هيئة للاستراتيجية النفسية) من أجل تقديم المشورة لمجلس الأمن القومي. وفي عام 1953م، كان هناك مستشار شخصي في الحرب النفسية يعمل في البيت الأبيض لمعاونة الرئيس أيزنهاور¹.

إن معركة خليج الخنازير، وأزمة صواريخ كوبا التي وصل فيها الإرهاق النفسي لكل من المعسكرين إلى درجة تهدد باندلاع عاصفة عاتية قد تودي بالمدينة والحضارة الإنسانية، تعطيان صورة واضحة عما قام به الطرفان من استغلال الحرب النفسية في مفهومها الجديد على أوسع نطاق.

كما تعطيان الأحداث في فيتنام مظهرا ساخنا حلقة من حلقات الحرب الباردة بين المعسكرين، ولا سيما بين كل من الصين الشعبية والولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا. ومن المشاهد أن كلا من الولايات المتحدة وبريطانيا كانت تعمل بصفة خاصة لزيادة إحكام الحصار على الصين الشعبية في منطقة جنوب وجنوب شرقي آسيا بمحاولاتهما إقامة سلسلة جديدة من الأحلاف تكمل الحصار الذي يمثل حلف جنوب شرقي آسيا، وذلك بمحاولة إدخال اليابان، والفيليبين، ونيوزيلندا وفيتنام الجنوبية، وكوريا الجنوبية، وغيرها في نطاق هذه الأحلاف.

¹ العلاقات الاجتماعية في القوات المسلحة، حسين عبد الحميد رشوان، ص55، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1999.

إن المظاهر الأساسية للحرب النفسية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية أخذت أشكالاً عديدة، فأحد هذه المظاهر التسابق العنيف في التسلح النووي برغم الجهود التي تبذلها الأمم المتحدة نحو السلم، وكذا الحروب المحلية العديدة. ويمكن أن نقول أن الصراع المذهبي بين الكتلتين آنذاك والتحرر السريع لكثير من دول أفريقيا وآسيا قد جعل كلا من الطرفين يحاول أن يستعرض عضلاته التي تسند مذهبه الإيديولوجي، وقد أخذت معركة الإذاعة السوداء حظاً كبيراً في هذا الصراع وبشكل لم يظهر في التاريخ من قبل، وساعد على ذلك التطور الكبير في أجهزة الإرسال، والاستقبال، وانتشار أجهزة الراديو الرخيصة في جميع أنحاء العالم.

أما عملية (الدولار الأمريكي) فهي نوع آخر من استخدامات الحرب النفسية المستحدثة ونلخصها كما يلي¹: في 16 أبريل 1953م وقبل توقف القتال في كوريا بخمسة عشر أسبوعاً، استخدم السلاح الجوي الأمريكي سلاحاً جديداً أثبت فاعليته. وكنتيجة مباشرة لاستخدام هذا السلاح ظلت جميع طائرات الميج التابعة للجانب الآخر على الأرض لا تحلق لمدة ثمانية أيام. وحتى بعد أن بدأت الطائرات في التحليق من جديد كانت طائرات الميج التي تحلق في الجو أقل بكثير عن ذي قبل.

ولم يكن السلاح الجديد سلاحاً إلكترونياً جديداً ولم يكن مادة متفجرة ذات قوة فائقة، ولم يكن جهازاً فنياً من أي نوع، ولكنه كان (فكرة العمل) وهجوماً نفسياً على الطرف الآخر.

ولقد أطلق على السلاح الجديد اسم (عملية مولاه)؛ لأنها تضمنت عرض مكافأة قدرها 50000 دولار لأي طيار يسلم طائرة الميج إلى قوات الأمم المتحدة، علاوة على مكافأة إضافية قدرها 50000 دولار لأي طيار يقوم بهذا العمل.

وقد يبدو هذا أمراً سهلاً، ولكنه لم يكن كذلك. كان السلاح الجوي الأمريكي قد طالت به الرغبة لتوجيه هجوم مركّز على عقول الطيارين الشيوعيين لتشجيعهم على الهرب، ولكن السلاح الجوي لم يكن يعرف كيف يؤثر على نفسية هؤلاء الطيارين، ولذلك انتظر نتائج الأبحاث التي كانت تجريها جامعة هارفارد. ولم يكن السلاح الجوي يعرف ماهية الكلمات التي من شأنها أن تؤثر في نفوس الطيارين

¹ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 238.

الشيوعيين. وأكثر من كل ذلك، لم يعرف رجال السلاح الجوي مدى ما يمكن أن يحققه الهجوم النفسي من نتائج في ميدان القتال. وكشفت الأبحاث الأساسية التي أجرتها جامعة هارفارد على العقلية الشيوعية عن جوانب كثيرة في هذه العقلية، جوانب يسهل التأثير عليها عند شن هجوم نفسي. وكانت معظم هذه الجوانب مغلقة غير معروفة، وكل ما يمكن أن يقال هو إن (عملية مولاه) قامت على الضغط على عقلية الطيارين، وبث روح التمرد فيهم على النظام الذين يتبعونه.

والواقع أن مثل هذه العملية تعتمد على الرشوة المادية، بالإضافة إلى الحرب النفسية. وهذه الحرب التي استخدمت مثيلاتها في الماضي بصور متعددة قد تأتي برد فعل عكسي فتعمل على ازدياد المقاومة. فالمواطن الذي يذهب للحرب دفاعاً عن قضية يؤمن بها لا يمكن أن يرتشي. صحيح أن هناك نفوساً ضعيفة في كل مجتمع، ولكنها قلة بحيث لا تستطيع أن تؤثر على قضية تؤمن بها المجموع.

الفرع الثاني: الحرب النفسية في الحروب الحديثة

تعود جذور الحرب النفسية في حرب الخليج الثالثة إلى ما قبل هذه الحرب، فقد بدأت إدارة الرئيس بوش الأب بحملة إعلامية وسياسية ونفسية ضد النظام العراقي، ثم اشتدت هذه الحرب بعد الاجتياح العراقي للكويت، وتركزت جهود الحرب النفسية في المستوى الاستراتيجي على إقناع العالم بمدى الخطورة التي يشكلها العراق على السلم العالمي، وكان نصيب الشعب الأمريكي الجزء الأكبر من هذه الحملة. ونشطت الدبلوماسية الأمريكية في مجال تشويه صورة النظام العراقي، واستفادت من سيطرتها على كبريات وسائل الإعلام وعلى نفوذها داخل أروقة الأمم المتحدة وفي الأحلاف والمنظمات الدولية لتستصدر القرارات المتعلقة بنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية، وكان للمعارضة العراقية في الخارج النصيب الوافر من جهود الحملة النفسية¹.

جاءت عمليات الحرب النفسية التي صاحبت الغزو العراقي للكويت وما أعقبه من تطورات ليعكس حقيقة أن الحرب النفسية أصبحت عنصراً أساسياً من عناصر النجاح في أي عملية عسكرية، وقد اتخذت الحرب النفسية عدة اتجاهات، وكانت على درجة من التشابك والتعقيد، لكون الحرب

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 62.

يشارك فيها عرب ومسلمون ومسيحيون ضد عرب ومسلمين، وعلى أرض عربية بقصد إجبار بلد عربي على التخلي عن احتلاله لبلد عربي آخر، فعلى الجانب العراقي ركزت الحرب النفسية العراقية على عدة نقاط من أهمها¹:

- إضفاء الشرعية على احتلالها للكويت من خلال إعطاء ذلك بعدا تاريخيا وأن ذلك حقا للعراق تعمل على استرجاعه.

- إثارة حفيظة المسلمين إزاء التواجد الأجنبي على الأراضي السعودية، وأن ذلك يعتبر تدنيسا للمقدسات الإسلامية من خلال تواجد القوات الأمريكية والغربية بأفرادها من المسيحيين وربما اليهود كذلك.

- كسب تعاطف الشارع العربي والإسلامي من خلال ضرب إسرائيل بالصواريخ والتأكيد على أن أمريكا وحلفائها يسعون لتدمير القوة العراقية العربية المسلمة التي استطاعت بصواريخها أن تصل إلى تل أبيب.

- إثارة موضوع المال والثروة لدى بعض العرب وخاصة في دول الخليج في الوقت الذي فيه كثير من الدول العربية والإسلامية يعيش مواطنها حالت هي أقرب إلى الفقر كواحد من أساليب الحرب النفسية لكسب التأييد العربي الإسلامي.

- التأكيد على قوة العراق وقدراته العسكرية وإمكانية صموده مهما كانت التحديات.

- التهديد باستخدام المحتجزين من مواطني الدول الغربية لدى العراق كدروع بشرية في حالة تعرضها لضربات جوية.

- تحسين صورة الرئيس صدام حسين لدى الشعب العراقي وكذلك لدى الشعوب العربية والإسلامية بمختلف الطرق والوسائل.

أما على الجانب الآخر، وحول ممارسة الإدارة الأمريكية للحرب النفسية في حملتها على العراق، قد يكون من المفيد في هذا الصدد استحضار ما جاء في أحد الكتب التي ظهرت في أواخر سنة 1996م

¹ الحرب النفسية في الصراعات المسلحة الحديثة، كمال حجاب، ص8، مجلة الدفاع المصرية، ع319، س2012، مؤسسة الأهرام.

لمؤلفين أمريكيين يجمعان بين الصفتين الأكاديمية والعسكرية، ويعملان معا في معهد (راند) (Rand) للأبحاث الذي يقدم استشاراته لجهاز المخابرات الأمريكية وهما: (أولمان هارلانك، جيمس وود)، أما عنوان الكتاب فهو: (الصدمة والرعب)¹ (shock and Awe)، وفيه يذكر المؤلفان أن حروب المستقبل ستدار أساسا بالإعلام أكثر من أي سلاح آخر، وأن نشر الرسالة الإعلامية على أوسع نطاق سيربك العدو ويشتت قدراته، ويحقق النصر النهائي².

ومثلما تولت الولايات المتحدة قيادة العمل السياسي والعسكري في حرب تحرير الكويت، تولت كذلك قيادة العمل الإعلامي، فمنذ بداية الأزمة سعت أمريكا إلى خلق رأي عام إيجابي مع قراراتها، خاصة داخل أمريكا، من أجل إيجاد مبرر كاف لإرسال قوات أمريكية إلى خارج أراضيها، وفي نفس الوقت، تم تكريس الجهد لترسيخ مبدأ الكراهية للرئيس صدام حسين، وبأنه سعى إلى الحرب ويتحدى قرارات الأمم المتحدة. وقد نجحت الحرب النفسية في استثارة العواطف والإقناع بأن الأهداف التي من أجلها يذهب الجنود الأمريكيون للقتال أهداف منطقية، وهي لمساعدة الأصدقاء، وتأمين المصالح القومية الأمريكية، وقد نقلت شبكات التلفزيون على الهواء مباشرة لحظات الوداع المؤثرة للجنود الأمريكيين المتوجهين إلى صحراء العرب حيث يواجهون كما صورت وسائل الإعلام مصيرا مجهولا وهم يودعون أسرهم بالأحضان والدموع، وأنهم ذاهبون للدفاع عن سلام العالم ومصالحه³.

وعلى نفس نهج أمريكا سارت الدول الأخرى التي شاركت في التحالف ضد العراق في حربها النفسية، وخلال سير الأزمة انتهج إعلام هذه الدول الحليفة من خلال خطة الحرب الأسلوب التالي في الحرب النفسية ضد العراق⁴:

- تأكيد وترسيخ عدم مشروعية احتلال العراق للكويت، وبأنه اعتداء سافر وفيه تحد لكل الأعراف والتقاليد وسابقة خطيرة في تاريخ العلاقات العربية / العربية.

¹ shock and awe- ulmam ;james wode-1966

² مجلة الحرس الوطني، ع2006/11.

³ الحرب النفسية في الصراعات المسلحة الحديثة، كمال حجاب، ص10.

⁴ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص73.

- التأكيد على أن الكويت ليست منتهى طموح العراق، وإنما هي البداية لاحتلال دول خليجية أخرى.
- التأكيد على أن احتلال العراق للكويت ونيته للتوسع، فيه تهديد مباشر للمصالح الإقليمية والدولية في المنطقة.
- إن تصرف العراق اتجاه الكويت مخالف لتعاليم الإسلام، وإنكار للمعروف، وانتهاك لحقوق الجوار، وضد القيم والمبادئ العربية والإسلامية.
- تصوير الرئيس العراقي صدام حسين بأنه محب للحرب وسفك الدماء ومنتهاك للأعراض، وتشويه صورته وصورة جنوده أمام الرأي العام.
- تصوير القوة العراقية بأكبر من حجمها الحقيقي، والتهويل من قدرات العراق وأنه سيستخدم الأسلحة المتوفرة لديه في سبيل ترسيخ احتلاله للكويت وتحقيق أهدافه التوسعية الأخرى.
- تضخيم معاناة الشعب الكويتي داخل الكويت، وبأنه يتعرض للقتل والتعذيب وانتهاك الأعراض، والسب والنهب والتنكيل.
- وسُخر للحرب النفسية في هذه الحرب الكثير من الوسائل الحديثة والإمكانيات بشكل لم يسبق له مثيل، ذلك نظرا للتطور الهائل في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وجند لها خبراء على مستوى عال من الخبرة والكفاءة، ولعبت وسائل الإعلام دورا رئيسا وهاما كأداة فعالة ومؤثرة من أدوات الحرب النفسية، وكمثال عن ذلك فإن شبكة التلفزيون الأمريكي (CNN) قامت خلال فترة الأزمة من أغسطس 1990 وحتى نهاية فبراير 1991 بما يلي¹:
- (أ) إجراء مقابلات مع الرؤساء صدام حسين، حسني مبارك، والملك حسين.
- (ب) نقلت المحطة 78 رسالة تلفزيونية من بغداد، 1700 من السعودية، 160 من الكويت، 200 من الأردن، 360 من مصر و120 من أنحاء متفرقة من العالم العربي.

¹ الحرب النفسية في الصراعات المسلحة، الحديثة، كمال حجاب، ص13.

(ت) قدمت (CNN) 800 ندوة سياسية شارك فيها سياسيون عرب وصحفيون يعملون في الولايات المتحدة، وقدمت 300 شخصية عسكرية (عربية وأوروبية وأمريكية).

(ث) كان للمحطة 2500 مراسل ومترجم ومحرر ومقدم برامج يعملون خلال الأزمة على مدار 24 ساعة.

(ج) استخدمت المحطة 20 قمرا صناعيا.

ويذكر الكثير من الخبراء والمحللين العسكريين في دراستهم عن الحرب التي دارت بين القوات المتحالفة من جانب، والقوات العراقية من جانب آخر، أن الحرب النفسية التي خططت لها القوات المتحالفة كانت أشد تأثيرا من الأسلحة النيرانية التي استخدمتها في هذه الحرب، حيث أدت في كافة المراحل إلى انهيار معنوي كامل للقوات العراقية قبل أن يبدأ الاشتباك الفعلي والاتصال المباشر للقوات. فقد وصلت آثار هذه الحرب النفسية إلى كافة قوى الدولة العراقية (مدنية وعسكرية)، وأصاب الجهاز العصبي والتوازن النفسي لكافة قطاعات الدولة بالعطب والشلل، وحطمت إرادة القتال لدى أفراد القوات المسلحة على وجه الخصوص، ووجهت كافة أنشطتها إلى الكتلة السكانية باعتبارها أنها لو نجحت في تحطيم إرادة القتال لديهم كأنها بذلك تحقق أكبر انتصاراتها دون خسائر في الأرواح، وقد تطلب ذلك استخدام كافة الوسائل الإعلامية المهنية والتقنية في التوقيت المناسب.

أما قبل الحرب فقد ركز الإعلام الأمريكي على التفوق العسكري الأمريكي غير المسبوق، وعلى الإمكانات المربعة لأسلحة أمريكية لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل، وكان هذه الرسالة هدف مزدوج: إثارة الرعب في قلوب العراقيين وبث الطمأنينة في قلوب الأمريكيين، وتمثلت الرسالة الإعلامية الثانية في صياغة هدف يبدو مشروعا للقتال، وهو تخليص العالم من خطر امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، ومن ثم كافة الأمن لجيران العراق والعالم، وأيضا تحرير العراق من الحكم الديكتاتوري. وفي المقابل كانت الرسالة العراقية قبل الحرب شديدة التركيز ومفادها: (أنه غزو استعماري خائب سوف تقاومه وندحره)¹.

¹ مجلة الحرس الوطني، ع 2006/11.

وما إن بدأت المعركة ضد العراق عسكرياً حتى بدت ممارسات الإعلامية الأمريكية لما سمي بالدعاية المعادية والخداع الإعلامي. وهما عماد الحرب النفسية التي كان أولها إطلاق الشائعات عقب الضربة الأولى مباشرة، والمعروف أن الشائعات تستغل لإضعاف معنويات الأمم أو لاستدراج العدو لكلام في موضوع خاص لم يحن أوانه بعد، وتركزت تلك الشائعات في عدة اتجاهات:

1- شائعات تشكيكية: مثل ما أعلنته جريدة (يديعوت أحرونوت) الإسرائيلية في اليوم الأول لمعركة عن مقتل خمسة مسئولين عراقيين أثناء الهجوم الأمريكي على بغداد، وما أعلنه البنتاجون عن حرق العراقيين لآبار البترول في البصرة.

2- شائعات ردعية: مثل ما أذاعته إحدى القنوات الفضائية عن انضمام رئيس الأركان العراقي السابق للقيادة الأمريكية في قطر، القوات الأمريكية على محطات الإذاعة العراقية.

3- شائعات تعبوية: مثل قيام الولايات المتحدة الأمريكية باختبار قنبلة جديدة في العراق واستسلام الفرقة 51 مشاة ميكانيكية ومقتل نائبي الرئيس العراقي، وهروب أعداد كبيرة من القادة والجنود العراقيين، بل هروب الرئيس العراقي نفسه وأسرتة إلى فرنسا¹.

أما الأسلوب الثاني الذي مارسته الولايات المتحدة في عملياتها النفسية فكان إلقاء المنشورات، حيث ألقت قوات التحالف مليوناً و890 ألف منشور باللغة العربية منشور باللغة العربية على 29 موقعا جنوب وشرق العراق، وكانت في أغلبها تخص العراقيين على الاستسلام وعدم المقاومة، وتشرح لهم الطريقة الآمنة للاستسلام برفع الراية البيضاء، وأن يكون بين الفرد وسلاحه ما لا يقل عن متر وهو ملقى على الأرض أمام جنود قوى التحالف.

وشهدت الحرب الأخيرة ضد العراق ما عرف بسلاح المنشورات، والذي استخدمته القوات الأمريكية بكثافة. وقد لا تبدو حاملة الطائرات الأمريكية (كونسلتيشن)، البالغ وزنها 80000 طن أكثر من حاملة لقوة النيران الهائلة والطائرات المحملة بالقذائف، ولكن أكثر أسلحتها سرية من ترسانتها العسكرية عبارة عن طابعة صحفية ضخمة، هذه الطابعة، ومعها الملايين من أوراق الطابعة، استخدمت

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص74.

بشكل فعال بغرض الإسراع بالنصر في المعارك ضد العراق، حيث توفرت لدى الأمريكيين معلومات بأن الناس يتهافون على قراءة المنشورات¹.

وقبيل اندلاع الحرب على العراق بيومين ثم إسقاط علبتين، كل منهما تحمل 6000 منشورا من مستودع للقنابل، يستخدم عادة في إسقاط القنابل العنقودية. وتحمل هذه المنشورات وصفا لموجات معينة لأجهزة الراديو يمكن للعراقيين التعامل معها من أجل الحصول على المزيد من المعلومات التي تهدف إلى تعاونهم في أي عمليات هجوم مستقبلية، وتتضمن أيضا تحذيرات للعراقيين بالنأي بأنفسهم عن أسلحة الدمار الشامل².

وأولى الأمريكيون أهمية كبرى لهذه المنشورات التي يقولون أنها لعبت دورا مهما في عملية عاصفة الصحراء، عندما شرحت للعراقيين كيفية الاستسلام، وكان يتم اختيار الأوراق التي تكتب عليها التعليمات بوزن يناسب قابليتها على الرفرفة والطيران، ثم السقوط، وبإمكان الطابعة التي تحملها حاملة الطائرات الأمريكية نسخ 30000 منشورا في الساعة، قبل أن يتم قطعها أو حزمها بالأيدي، وأحد هذه المنشورات على شكل ورقة نقدية، ومكتوب عليها باللغة العربية، مع صورة لطائرة مقاتلة أمريكية، وإلى جانبها إحدى العوائل العراقية، وفي الصورة يقول الطيار لهم: (اذهبوا إلى عائلاتكم، ولا تجازفوا بحياتكم وحياة رفاقكم، وتأكدوا من أن أطفالكم سيعيشون في سعادة). وتتراوح الرسائل المضمنة في المنشورات ما بين التقنيات الخاصة بكيفية المحافظة على النفس، ومعلومات تحذر من إطلاق النار على طائرات التحالف، وما بين المعلومات التي تبين كيفية التعامل مع موجات الراديو و التلفزة الخاصة بالبلد الدعائي³.

واعتمدت الأسلوب الثالث على المشاهد التلفزيونية حيث تم بث مشهد لجمع من المواطنين يتدفقون لهدم تمثال للرئيس العراقي وانتزاعه من قاعدته بمساعدة دبابة أمريكية، وكذلك تم نقل مشاهد الجماهير العراقية وهي تمارس أعمال السلب والنهب في شوارع بغداد، وإن كان الخبراء يرون أنه جرى

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص75.

² الحرب النفسية في الصراعات المسلحة، الحديثة، كمال حجاب، ص16

³ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، المرجع نفسه، ص76.

تلاعب بهذه الصور، حيث لم تكن صورة المهللين لتحرير بغداد سوى لحفنة من المعارضين العراقيين العائدين من الخارج، أما ميدان الفردوس الذي شهد إسقاط تمثال صدام حسين فلم يكن مكتظا بالناس كما بدا في الصورة، وإنما كان خاويا تماما إلا من بضع عشرات ركزت عليهم زاوية اللقطة.

وكان الأسلوب الرابع هو أسلوب الضغط النفسي من خلال التحكم في الاحتياجات الأساسية للشعب العراقي، مثل قطع الكهرباء والمياه ومنع وصول المساعدات، وبث صور القتلى والجرحى العراقيين التي تشير بالعجز الكامل وقلة الحيلة وعدم القدرة على فعل شيء¹.

كان الهدف الذي تم تخطيطه لوسائل الإعلام الأمريكية هو تدمير معنويات العراقيين وإقناع كل القوى بعدم جدوى التصدي للمشيمة الأمريكية، وذلك من خلال الإغراق بالأخبار المربكة والشائعات المحيرة. وقد تم استخدام كافة تقنيات الاتصال (تلفزة، قنوات فائية، شبكات أنترنت، إذاعة مسموعة، صحافة، بالإضافة إلى ملايين المنشورات التي أُلقيت من الطائرات، والتي أطلقت تسميات مروعة للحملة العسكرية وثبت مزاعم عن تحرير شعب العراق من الظلم والطغيان)²

وكانت النتيجة أن تعرض العراقيون لحملة نفسية مصحوبة بعمليات حربية أمريكية ثم وضع خطة متعددة الجوانب اعتمدت في كافة أنشطتها على ما كان يدور عالميا في هذا الوقت شائعات وأقاويل حول القدرات العسكرية للقوات العراقية، ومنها الآتي³:

الإصرار على الربط بين الإرهاب ونظام الحكم في العراق استنادا إلى الذكرى الأليمة للشعب الأمريكي من أحداث 11 سبتمبر 2001م فكان لا يذكر الحكم في العراق إلا مقرونا بتنظيم القاعدة والديكتاتورية والإرهاب.

الإصرار على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل والتشكيك في أعمال لجان التفتيش التابعة للأمم المتحدة، والعمل على سرعة إنهاء مهمتها عندما بدأت تشيد بتعاون السلطات العراقية معها.

إشاعة أن شن الحرب على العراق ستكون بدعوى نزع الأسلحة مرة، مرة أخرى بدعوى تخليص الشعب العراقي من نظام الحكم الجائر متمثلا في صدام حسين الدكتاتور الظالم.

¹ مجلة الحرس الوطني، ع11/2006.

² العمليات النفسية ودورها وقت الحرب، أمين حسني، ص32، وزارة الدفاع، القاهرة، 1999.

³ لحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص77.

الإدعاء بأن هدف الحرب هو تحرير شعب العراق وإقامة الديمقراطية وإعادة التعمير والإسراف في إلقاء ملايين المنشورات التي تحمل هذه المعاني.

إقناع القوات المتحالفة بأن مهمتها سهلة ولن تستغرق أكثر من أسبوع، حيث سيرحب بهم شعب العراق المغلوب على أمره، وسوف تستسلم لهم القوات المسلحة المرغمة على تأييد النظام العراقي. الترويج لأسلحة التدمير الذكية التي تستخدم في غزوة العراق، وأنها ستثير الرعب والفرع والاستسلام ودون إصابة المدنيين لدقة التصويب على الأهداف المحددة.

إطلاق اسم التحالف على القوات الأمريكية البريطانية تشبهاً بتحالف تحرير الكويت وتبركا باسم الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

اللجوء إلى استطلاعات الرأي في أمريكا والإيحاء بأن الأغلبية تؤيد الحرب. التعتيم الإعلامي على أي مزايا للمقاومة العراقية واللجوء إلى إنكارها وتكذيبها أو إخفاء الحقائق إلى أن تنكشف فيتم الادعاء بأن ذلك يعود إلى نقص المعلومات أو الأخطاء في التعبير.

تهديد سوريا وإيران من مخاطر تقديم أي مساعدات للعراق. وهي رسالة كانت موجهة في الحقيقة لكل الدول الأخرى بهدف الردع الوقائي¹.

كان الغموض والتعتيم الإعلامي والكتمان في كثير من الأحيان هو الطابع الرئيسي الذي اتصفت به هذه الحرب، وكان الهدف من ذلك هو تحقيق ضغط نفسي على الشعب والجيش العراقي في إطار الحملة النفسية التي واكبت العمليات العسكرية منذ بدء الحرب، وكذلك تشتيت جهود القيادة العراقية في عدة اتجاهات، حيث وجدت نفسها أمام مواقف قد اتخذت بصددها قرارات وإجراءات عسكرية مخالفة للأسبقيات الموضوعة بالخطة. واستكمالاً للصورة المرسومة تم الإعلان عن أن القوات الأمريكية قريبة جداً، وأن الشعب العراقي يستطيع أن يحس ويلمس وجودها، وأنها تستطيع أن تنال ما تشاء وفي أي وقت تريده، وهي لا تريد الإضرار بالشعب العراقي أو البنية الأساسية.

وفي نفس الوقت، قامت القوات الأمريكية بمناوشات على كل الجبهات بهدف شغل القيادة العراقية عما يجري بخصوص عمليات الإمداد الخاصة بتعزيز القوات بنحو 130 ألف جندي لاقتحام بغداد،

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 77.

بالإضافة إلى تأمين وصول الإمدادات للقوات الأمريكية المحتشدة على مشارف بغداد بتركيز لم يسبق له مثيل بهدف إعطاء انطباع بأن الساحة العسكرية داخل بغداد أصبحت ملكا لها، وكذا إحداث أكبر خسائر في قوات الحرس الجمهوري ووسائل السيطرة والاتصالات كما ركزت في ادعاءاتها المخططة على فصل القيادة السياسية عن الشعب والجيش بتنفيذ بعض العمليات الخاصة ضد عدد من المنشآت العسكرية التي يوجد بها بعض القادة السياسيين، والترويج لمقتل أو هروب بعض هؤلاء القادة¹.

لقد كانت هذه الحرب النفسية نموذجاً فريداً غير مسبوق، لعبت فيه وسائل الإعلام الدور الرئيسي في كافة مراحلها مما كان له الأثر الفعال في تحقيق كل الأهداف المخططة بسهولة كبيرة فاقت كل تصور وخيال حتى أن فرقاً كاملة كانت تترك سلاحها وعتادها الحربي، مما أدى إلى تحقيق النصر الكامل للقوات المتحالفة بدون خسائر مادية تذكر، واستسلام قيادات وقوات عسكرية كانت تعتبر إحدى القوى المشهود لها عبر التاريخ الحديث².

وهناك عشرات القصص التي نشرتها وسائل الإعلام الأمريكية (كقصة تلك القوة التي أرسلت لاغتيال صدام حسين، ولكن سوء الأحوال الجوية حال دون ذلك... الخ، وكان الهدف منها تخويف صدام حسين من خلال التأكيد له بأن المخابرات الأمريكية أو مخبرات الحلفاء تعرف كل شيء عنه، وتعرف تفاصيل حياته اليومية ودقائقها، كذلك استخدم الإعلام الأمريكي أسلوب التضميل (كأن يقوم بنشر سيناريوهات الحرب وتكتيك الحرب ومحاور الهجوم...)، القصد من ذلك هو صرف صدام حسين عن الأهداف الحقيقية واستدراجه وبقية قادة جيشه إلى الوقوع في كمائن وفخاخ لم يكن يتوقعها³.

ولقد استخدم الأمريكيون ميدان القتال مباشرة ومن خلال العمليات الجوية على وجه التحديد، والتي كانت هي الحرب الفعلية في حقيقة الأمر (العمليات البرية لم تتجاوز الـ 100 ساعة) وفي هذا المجال، كان التركيز واضحاً على استخدام مكبرات الصوت والمنشورات التي أسقطتها الطائرات فوق

¹ العمليات النفسية ودورها وقت الحرب، أمين حسني، ص 33.

² الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 78.

³ الحرب النفسية في الصراعات المسلحة، الحديثة، كمال حجاب، ص 18.

هؤلاء الجنود تدعوهم للاستسلام، وتحدد لهم الطرق التي يسلكونها للفرار (بلغ عدد المنشورات 1.5 مليون منشور جرى إسقاطها فوق بغداد)، وعمليات تعني غسل أدمغة الجنود وتحثهم على رفض الحرب وتخريضهم على سياسة قائدهم، ودفعهم إلى التشكك فيما يقال عن أسباب هذه الحرب وأهدافها من قبل قادتهم.

الرسومات والعبارات التي تضمنتها المنشورات جرى تصميمها بمعاونة خبراء يجيدون اللغة العربية، أما العبارات التي كانت تذاع من خلال مكبرات الصوت فكانت تستخدم فيها أشرطة مسجلة بأصوات عراقية (من الأسرى أو المناهضين للنظام العراقي)، فضلا عن استخدام اللغة الإنجليزية في بعض الحالات. ولا شك أن هذا الأسلوب في الحرب النفسية قد نجح في تحقيق الهدف منه إلى حد بعيد، والدليل على ذلك ما ذكره الأسرى خلال استجواباتهم التي أقرروا بها.

ومن ناحية أخرى لم تكن الدعاية العراقية الموجهة إلى قوات الحلفاء الغربيين مؤثرة بأي حال من الأحوال، ذلك لأن الوصول إليهم لم يكن ميسورا إلا من خلال وسيلة الإذاعة بالراديو، وقد خصص العراقيون موجة إذاعية ناطقة بالإنجليزية في (صوت السلام)، أما الوسائل الأخرى من مطبوعات وأشرطة مسموعة أو مرئية، فلم يكن استخدامها ممكنا نظرا لأن العراقيين لم يكن باستطاعتهم توصيلها إلى قوات الحلفاء بأي طريقة من الطرق.

وعلى ذلك، ركزت الخطة الأمريكية للحيلولة دون وصول أي تشويش ذهني أو فكري لقواتهم وكانت الوسيلة إلى ذلك هي التركيز على تلبية ما يلي¹:

- احتياجات الأفراد الشخصية، فقد قامت وحدات الشؤون العامة والشؤون الإدارية بتأمين كافة الاحتياجات التي تربط المحاربين بأسرهم وأرض الوطن، ومن ذلك خدمات البريد التي كانت على مستوى عال من الانتظام والكفاءة.

- خصصت وحدة الشؤون العامة إذاعة منقولة على موجة خاصة تستقبل بواسطة أجهزة استقبال يحملها الجنود، وقد خصصت الإذاعة الأغاني التي يفضلها الجنود، ورسائل الجنود إلى ذويهم، وخدمة إخبارية متصلة وبشكل فوري مع شبكة CNN، وبالإضافة إلى هذا، فقد خصصت وحدات الشؤون

¹ الحرب النفسية حرب الكلمة والفكر، علي الكلباني، ص 79.

العامة عددا من الفرق الموسيقية تم توزيعها على عدد من الوحدات العسكرية المختلفة، وقد نجحت تلك الفرق في إقامة مئات الحفلات الترفيهية على مدى خمسة أشهر، وزيارات خاصة لنجوم الفن والغناء الأمريكي.

- كان هناك 2000 رجل وامرأة يعملون في مجال التوجيه الديني. وقد كان عمل المرأة في مجال الوعظ ضروريا نظرا لضخامة عدد النساء (34000 مجندة، موزعين في الجيش والأسطول ومشاة البحرية وفي القوات الجوية).

الباب الثاني

الباب الثاني: حكم الحرب النفسية في الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري

تمهيد وتقسيم:

مرّ بنا أنّ مصطلح الحرب النفسية أطلق حديثاً على أساليب وصور وردت قديماً في الحروب والصدامات التي وقعت بين البشر، والتي ذكرتها الأدلة التاريخية، بتسميات مختلفة. فمخاطبة النفوس والمعنويات ومحاولة التأثير فيها واستخدام الاقتصاد والإعلام في الصراع ومحاولات تحقيق النصر على العدو من غير قتال مباشر، ممارسات قديمة لتسمية حديثة أطلقت لتحديد ما ضمن مفهوم معيّن، وسنحاول في هذا الباب تلمّس حكم الحرب النفسية من خلال أثرها على أمن الدولة، باعتبار الحكم يكون دائراً مع الأثر الواقع على الدولة وأمنها إيجاباً أو سلباً، وهذا في كلّ من الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري. وعليه يتمّ تقسيم هذا الباب كما يلي:

الفصل الأول: حكم الحرب النفسية في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول: الحرب النفسية المشروعة في الفقه الإسلامي.

المبحث الثاني: الحرب النفسية المحرمة وأركانها في الفقه الإسلامي.

الفصل الثاني: تجريم الحرب النفسية في التشريع الجزائري

المبحث الأول: الأركان العامة لجريمة الحرب النفسية في التشريع الجزائري.

المبحث الثاني الأركان الخاصة لجريمة الحرب النفسية في التشريع الجزائري.

الفصل الأول: حكم الحرب النفسية في الفقه الإسلامي

أمر الله تعالى بالإعداد لمواجهة العدو وإرهابه وإظهار القوة له. والحرب النفسية بكل أسلحتها وأساليبها جزء من هذا الإعداد. فالإعداد في الجانب المعنوي لا يقل أهمية عن الإعداد في الجانب المادي. قال تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ لَخَيْلٍ تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" سورة الأنفال، 60. ومن ناحية أخرى، كيف يرى الإسلام حكم الإشاعات المغرضة داخل المجتمع الإسلامي، وكذلك التخويف والإرجاف والتشبيط...

وعليه ارتأينا تقسيم هذا الفصل على النحو الآتي:

المبحث الأول: الحرب النفسية المشروعة في الفقه الإسلامي.

المطلب الأول: الحرب النفسية زمن الحرب.

المطلب الثاني: الحرب النفسية الواقعة على العدو.

المبحث الثاني: الحرب النفسية المجرمة وأركانها في الفقه الإسلامي.

المطلب الأول: الحرب النفسية المجرمة في الفقه الإسلامي.

المطلب الثاني: أركان الحرب النفسية المجرمة في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول: الحرب النفسية المشروعة في الفقه الإسلامي

المطلب الأول: الحرب النفسية زمن الحرب

إن تحديد زمن الحرب في الشريعة الإسلامية، يتطلب تعريف الحرب في الشريعة الإسلامية، وتحديد متى تبدأ، ومتى تنتهي، وسأفصل ذلك في بنود كالتالي:

الفرع الأول: تعريف الحرب في الفقه الإسلامي

البند الأول: الحرب في اللغة: هي القتال بين فئتين (مؤنثة وقد تذكر على معنى القتال) والحرب الباردة¹. استعمل الفقهاء المسلمون كلمات مختلفة ترادف كلمة الحرب في معناها الحديث، مثل: السير، الجهاد، المغازي.

وقد وردت كلمة الحرب في القرآن الكريم في قوله عز وجل: " وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْهِنُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْقَاهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ " ².

البند الثاني: الحرب في الاصطلاح: هي بذل الجهد والطاقة في سبيل الله، باليد، باللسان و الأرواح، وبأوسع المعاني: رد العدوان عن الدولة، وتأمين للدعوة الإسلامية.

والحرب في الإسلام قائمة، سواء كان المعتدي دولة، أم مجموعة بشرية لم تكتمل لها بعد أركان الدولة، من سيادة، وشعب، وإقليم³.

والحرب في الإسلام لم تشرع إلا لضرورة ملجئة، والضرورة تقدر بقدرها⁴، فالعلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة سلم، وذلك يتبين من أن النبي ﷺ لم يرفع سيفاً على مخالفه، حتى كان منهم اعتداء

¹ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ج1، ص163.

² سورة المائدة، الآية 66.

³ الحرب والسلام في الفقه الدولي الإسلامي، محمد إمام، ص42، ط1، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004.

⁴ الجهاد في الإسلام، أحمد محمود كريمة، ص35.

بالفعل، أو تربص بالاعتداء، فلقد أقام المسلمون في مكة ثلاث عشرة سنة، يسامون سوء العذاب، ويصادرون في حريتهم الدينية، ويضطهدون في عقيدتهم التي اطمأنوا إليها، ويفتنون في أموالهم وأنفسهم، حتى أكرهوا على الهجرة¹.

فكان يأتي الصحابة -رضوان الله عليهم- بمكة للنبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج، فيقول ﷺ لهم اصبروا، فإني لم أؤمر بالقتال². حتى نزل قوله عز وجل: "إِذْ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَبَّحَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٧﴾" ³.

هذه هي أول آية نزلت في القرآن الكريم عن الجهاد والقتال، والناس الذين نزل الحكم بقتالهم في هذه الآية، لم يذكر سبب قتالهم، لأنهم يمتلكون أرضا خصبة أو لديهم تجارة وأسواق كبيرة، أو لأنهم يتبعون ديننا آخر، بل يتضح تماما أن جرمهم، هو أنهم يظلمون، ويخرجون الناس من ديارهم بغير حق⁴.

وورد تفسير الآية: (وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه ﷺ من قومه من المهاجرين، حنة فتنوهم عن دينهم، ونفوهم عن بلادهم، فمنهم من فر إلى أرض الحبشة، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم من صبر على الأذى، فلما عنت قريش على الله عز وجل، ورد أمره، وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا من آمن به ووحده، وعبدوه وصدق نبيه ﷺ، واعتصم بدينه. أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال، والامتناع، والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل: "إِذْ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا" ⁵. فأذن الله لهم أن يبدؤا قتال المشركين⁶.

¹ آداب العلاقات الإنسانية في الإسلام الحقوق والواجبات، نصر واصل، ص 127.

² السيرة الحلبية، علي الحلبي، ج 2، ص 343، ط 1، دار المعرفة، بيروت، 1400هـ.

³ سورة الحج، الآية 37-38.

⁴ شرعية الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، تر: سمير إبراهيم وعبد الحليم يونس، ص 38، ط 1، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1985

⁵ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 12، ص 69.

⁶ أحكام القرآن، محمد بن إدريس الشافعي، ت: عبد الغني عبد الخالق، ج 2، ص 13، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1400هـ.

الفرع الثاني: بدء الحرب ونهايتها

الحرب في الإسلام شرعت للدفاع رداً على الاعتداء، أو تأمينا للدعوة وذوداً عن حرية الاعتقاد¹. والحرب تكون بين فئتين هما: المسلمون والحريون² وذلك لامتناع الحرب شرعاً بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين الذميين³، والمعاهدين⁴، ونحوهم، طيلة التزامهم بالمعاهدات والمواثيق⁵.

البند الأول: بدء الحرب

قبل أن تتلاحم الصفوف، ويلتقي الجمعان، أمر الإسلام بإعلان الحرب⁶، وهناك خلاف بين الفقهاء المسلمين في إعلان الحرب، ويمكن لي رصد خلافهم فيما يلي:

الحالة الأولى: إذا كانت مع قوم قد بلغتهم الدعوة الإسلامية، والرأي هنا على ثلاث مذاهب: **المذهب الأول:** يجب إنذارهم، إلا أن يعجلوا المسلمين⁷.

وبه قال مالك، فورد في المدونة الكبرى: لا أرى أن يقاتل المشركون حتى يدعوا⁸. أي: للإسلام.

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يأتي:

أنّ فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا، ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين.

¹ الحرب والسلام في الفقه الدولي الإسلامي، مُجد إمام، ص70.

² الحريون: جمع حربي، والحربي هو: الذي ينتمي إلى دار الحرب. انظر: أحكام الحرب في الشريعة الإسلامية، محمود يوسف، ص139. دار الحرب: هي البلاد التي يغلب فيها حكم الكفار وبينها وبين المسلمين حرباً. انظر: قضايا فقهية العلاقات الدولية حالة الحرب، حسن أبو غدة، ص215، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2000.

³ الذميون: المواطنون غير المسلمين في الدولة الإسلامية.

⁴ المعاهدون: غير المسلمين من مواطني الدول التي بينها وبين المسلمين معاهدات.

⁵ قضايا فقهية العلاقات الدولية حالة الحرب، المرجع نفسه، ص75 وما بعدها.

⁶ آداب العلاقات الإنسانية في الإسلام الحقوق والواجبات، نصر واصل، ص126.

⁷ التمهيد، ابن عبد البر، ج2، ص215.

⁸ المدونة الكبرى، مالك بن أنس، ج3، ص2.

فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سببا ممिला لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصد المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك، وللدنيا، فيزيدون عتوا وبغضا¹.

المذهب الثاني: لا يجب إنذارهم. وإن كان يستحسن:

وبه قال أبو حنيفة، وأبو يوسف، ومُحَمَّد². ونافع مولى ابن عمر، والحسن البصري، والثوري، والشافعي، وأبو ثور، وابن المنذر³، فورد في شرح كتاب التوحيد: لا يجب إنذارهم، وإن كان يستحسن⁴.

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يأتي:

1. أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو من يقاتله، مع اشتهاار كلمته ودينه في جزيرة العرب، وعلمهم بمنابدته إياهم، ومحاربتة لمن خالفه⁵.

2. لما روي الرسول ﷺ بعث معاذًا في سرية، وقال: لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا، فلا تقاتلوهم، حتى يبدؤوكم، فإن بدؤوكم، فلا تقاتلوهم، حتى يقتلوا منكم قتيلا، ثم أروهم ذلك القتل، وقولوا لهم: هل إلى خير من ذلك سبيل؟⁶ لَأَنَّ يَهْدِيَّ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا خَيْرَ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ⁷.

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يغير على قوم، صبحهم، واستمع النداء، فإن لم يسمع النداء أغار عليهم. حتى روي أنه صبح أهل خيبر⁸، فلما لم يسمع النداء أغار عليهم.

وقال إسحاق بن ابراهيم: إن تقدم إليهم في الدعوة فحسن، يكون ذلك أهيب.

¹ شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الوهاب، ج1، ص655، ط2، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، دت.

² التمهيد، ابن عبد البر، ج2، ص216.

³ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ج12، ص36، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1392هـ.

⁴ شرح كتاب التوحيد، المرجع نفسه، ج1، ص110.

⁵ التمهيد، المرجع نفسه، ج2، ص215 وما بعدها.

⁶ المبسوط، السرخسي، ج10، ص31.

⁷ المعجم الكبير، الطبراني، ت: حمدي السلفي، ج1، ص315، حديث رقم 930، ط2، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1983.

⁸ المبسوط، المرجع نفسه، ج10، ص31.

وقال الشافعي: لا يقاتل العدو، حتى يدعوا، إلا أن يعجلوا عن ذلك، فإن لم يفعل فقد بلغتهم الدعوة¹.

3. بما روى سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي -كرم الله وجهه- يوم خيبر: إِذَا نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِمْ فَأَدْغُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِحُدَاكُ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ².

المذهب الثالث: تجوز الإغارة عليهم بغير دعاء:

وبه قال الإمام أحمد³.

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يأتي:

1- النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغَارَ عَلَى أَهْلِ خَيْبَرَ⁴.

2- كانت سرايا الرسول يبيتون الكفار، ويغيرون عليهم بإذنه ﷺ بعد أن بلغتهم دعوته⁵.

3- ما روي أن الرسول ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَهُمْ غَارُونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تَسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مَقَاتِلَهُمْ، وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمُئِذٍ جَوْبِيْرِيَّةَ⁶.

4- أن الدعاء كان أول الإسلام⁷، لأن الناس حينئذ لم تكن الدعوة بلغتهم، ولم يكونوا يعلمون على ما يقاتلون عليه، فأمر الدعاء، ليكون ذلك تبليغا وإعلاما لهم⁸، أما اليوم انتشرت الدعوة، فاستغني عن الدعوة، ثم القتال.

¹ سنن الترمذي، الترمذي، ج4، ص119.

² صحيح البخاري، البخاري، ج3، ص1077، حديث رقم 2783، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام. صحيح مسلم، مسلم، ج4، ص1872، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم 2406. مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي، ت: حسين سليم أسد، ج13، ص449، حديث رقم 5737، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1984.

³ المغني، ابن قدامة، ج9، ص172، ط1، دار الفكر، بيروت، دت.

⁴ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ج7، ص478، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

⁵ زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، ج3، ص422.

⁶ صحيح البخاري، المصدر نفسه، ج2، ص898، حديث رقم 2403، باب من ملك من العرب رفيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبي الذرية.

⁷ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ج12، ص36.

⁸ شرح معاني الآثار، الطحاوي، ج3، ص209.

قال أحمد: كان النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام قبل أن يحارب، حتى أظهر الله عز وجل الدين، وعلا الإسلام¹.

ويقاتل أهل الكتاب والمجوس، ولا يدعون، لأن الدعوة قد بلغتهم، ويقاتل عبدة الأوثان دون إعلان، إذا كانت الدعوة قد بلغتهم².

ونرى- فيما يبدو لنا: أنه لا يجوز قتالهم حتى يدعوا إلى الإسلام، إلا أن يعجلوا المسلمين، وأن الإمام أو نائبه (القائد أو غيره ممن ينييه) هما المسئولان عن هذا الأمر، ولهما أن يغيرا على أعدائهما من دون دعوة، إن تأكدا أن في دعوتهم ضارا على المسلمين، كأن يستعدوا أو يتحصنوا، أو تأكدا أنهم لن يجيبوا دعوة الإسلام، ولكن إن رأيا أن في دعوتهم خيرا للإسلام والمسلمين، أو أنهم سيجيبون الدعوة، أو ليس هناك ضرا على المسلمين من دعوتهم- وإن لم يستجيبوا للدعوة- مادام لم يترتب على دعوتهم ضرر، فيجب عليهما قبل أن يغزوهم، أن يدعوهما إلى الإسلام، وذلك لما يلي:

1- لقوله عز وجل: " مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٣٠﴾ " ³.

2- ولأن رسول الله ﷺ كان إذا أمر أميرا على جيش، أو سرية، أو صاه في خاصه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: أَعِزُّوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ أَغْزُوا لَا تَغْلُوا وَلَا تَعْدُوا وَلَا تُمْتَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ أَدْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأُخْرِهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأُخْرِهُمْ أَنْتَهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ

¹ المغني، ابن قدامة، ج9، ص172.

² المرجع نفسه، ج9، ص172.

³ سورة الإسراء، الآية 15.

أَبَوْا فَسَلَّهُمْ الْحَرْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ وَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخَفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخَفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ الْحِصْنِ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟¹

3- ولحديث ابن عباس، قال: مَا قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمًا حَتَّى دَعَاهُمْ².

الحالة الثانية: إذا كانت مع قوم لم تبلغهم الدعوة:

ذهب جمهور الفقهاء: نافع مولى ابن عمر، والحسن البصري، والثوري، والليث والشافعي، وأبو ثور، وابن المنذر: بأنه لا يجوز قتالهم، حتى يدعوا إلى الإسلام.
وقال ابن المنذر: هو قول أكثر أهل العلم³، لأنه لا يلزمهم الإسلام قبل العلم⁴، وأن شرط الحرب: بلوغ الدعوة باتفاق⁵.

واستدل الجمهور بما يأتي:

1. قول الله عز وجل: "مَنْ إِهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا" ⁶.

2. أن الرسول (ﷺ) إذا بعث أميرا على سرية، أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَعْدُوا

¹ صحيح مسلم، مسلم، ج3، ص1357، حديث رقم 1731، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بأداب الغزو وغيرها. سنن ابن ماجه، ابن ماجه، ج2، ص953، حديث رقم 2858، ط1، دار الفكر، بيروت، د.ت. صحيح ابن حبان، ابن حبان، ج11، ص42.

² مسند أحمد، أحمد بن حنبل، ج1، ص236، حديث رقم 2105. المستدرك على الصحيحين، النيسابوري، ج1، ص60.
السنن الكبرى، البيهقي، ج9، ص107، باب دعاء من لم تبلغه الدعوة من المشركين وجوبا، ط1، مجلس دائرة المعارف، الهند، 1433هـ
³ بداية المجتهد، ابن رشد، ج1، ص282. المذهب، الشيرازي، ج2، ص231، ط1، دار الفكر، بيروت، د.ت. روضة الطالبين، النووي، ج1، ص239. المبسوط، السرخسي، ج10، ص6. سبل السلام، الصنعاني، ج4، ص45.

⁴ المذهب، المرجع نفسه، ج2، ص231.

⁵ بداية المجتهد، المرجع نفسه، ج1، ص282.

⁶ سورة الإسراء، الآية 15.

وَلَا تَمْتَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيُّنَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْعَنِيَمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهُمْ الْجَزِيَّةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُنْصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا، وَإِنْ أَنْتَ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ¹.

3. وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- ما قاتل رسول الله ﷺ قوما، حتى دعاهم للإسلام، وهذا لأنهم لا يدرون على ماذا يقاتلون، وربما يظنون أنهم لصوص قصدوا أموالهم، ولو علموا أنهم يقاتلون على الدعاء إلى الدين، ربما أجابوا وانقادوا للحق فهذا يجب تقديم الدعوة².

وحكى المزني عن الشافعي: من لم تبلغهم الدعوة لم يقاتلوا، حتى تبلغهم الدعوة، ويدعون إلى الإيمان، قال: وإن قتل أحدهم قبل ذلك، فعلى قاتله الدية³، لبقاء صفة الحقن والعصمة إلا أن تبلغهم الدعوة. بينما ذهب رأي آخر بأنه: إذا قاتل المسلمون الكفار قبل دعوتهم، ولم تكن بلغتهم الدعوة، كانوا آثمين في ذلك، ولكنهم لا يضمنون شيئا مما أتلّفوا من الدماء والأموال. وبه قال السرخسي في المبسوط⁴.

وقال مالك: من قربت داره قوتل بغير دعوة، لإشهار الإسلام، ومن بعدت داره فالدعوة أقطع للشك، وروي سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن أبي عثمان النهدي - أحد كبار التابعين - قال: كنا ندعو، وندع⁵. وأرجح ما ذهب إليه الجمهور، للأدلة التي ساقوها، وما يلي:

¹ السنن الكبرى، النسائي، ج5، ص241، حديث رقم 8782.

² المبسوط، السرخسي، ج10، ص6.

³ التمهيد، ابن عبد البر، ج2، ص215 وما بعدها.

⁴ المبسوط، المرجع نفسه، ج10، ص30.

⁵ فتح الباري، ابن حجر، ج6، ص108.

ما ورد في الأثر أن قتيبة بن مسلم الباهلي دخل سمرقند، وقاتل أهلها من غير هذا التخيير - بين الإسلام، أو العهد، أو الحرب - فشكوا إلى عمر ابن عبد العزيز عليه السلام، وقالوا ظلمنا قتيبة، وغدر بنا، فأخذ بلادنا، وقد أظهر الله عز وجل العدل والإنصاف، وطلبوا أن يؤذن لهم ليقوموا على أمير المؤمنين عليه السلام، ويسيطروا قضيتهم، فأذن لهم، ولما علم بشكواهم، كتب إلى وإليهم ذلك الكتاب: (إن أهل سمرقند شكوا ظلما، وتحاملا من قتيبة عليهم، حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي، فاجلس إليه القاضي، فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم، فأخرج العرب إلى معسكرهم، قبل أن يظهر عليهم قتيبة، فأجلس الوالي لهم القاضي، ففرض أن يخرج العرب إلى معسكرهم، وينابذوهم على سواء، فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عن عنوة، فقال أهل الصف من سمرقند، بل نرضى بما كان، ولا نحدث)¹.
وعلق على هذا الأمر بما يأتي:

فأي مثل للعدالة أروع من هذا المثل وأي محارب يعامل محاربه هذه المعاملة، أرى التاريخ الإنساني أن منتصرا يتخلى عن الأرض من غير قوة تخرجه، بل يخرج استجابة لداعي العدالة التي حكم بها قاضيه، فيتخلى عن الأرض التي فتحها، وقتل فيها من قتل، ثم يعرض عليهم من جديد، إما الصلح، وإما الإسلام، وإما الحرب؟!

ولقد اختار أهل سمرقند لأنفسهم، فآثروا العافية، بل آثروا الحق والحق ودخلوا في الإسلام أفواجا أفواجا².

الحالة الثالثة: اذا كانت ضد معاهد:

أولا: إذا كانت الحرب ضد معاهدين، نقضوا العهد نقضا واضحا، متيقنا، وانتهت مدته - إن كان محدد المدة - فلا يحتاج الأمر إلى إعلان³، وذلك لما يلي:

1- لقوله عز وجل: "وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ" ٤

وورد في تفسير الآية: "وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً"، أي: غشا ونقضا للعهد،

¹ نظرية الحرب في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص 29. آداب العلاقات الإنسانية في الإسلام الحقوق والواجبات، نصر واصل، ص 129.

² نظرية الحرب في الإسلام، المرجع نفسه، ص 30.

³ سنن الترمذي، الترمذي، ت: أحمد شاكر، ج 4، ص 119، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

⁴ سورة الأنفال، الآية 59.

"بَأْنِيذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ"¹، أي أعلمهم وأذعنهم بالحرب، حتى يستوي علمك وعلمهم، بما عليه كل فريق منهم للفريق الآخر²، فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك فسخت العهد بينك وبينهم³، ولا يكتفى بمجرد الخوف، ولا يفعل ذلك إلا إمام⁴.
قال الشافعي: نزلت هذه الآية في أهل الهدنة، ولم يوف أهل الهدنة بجميع ما هادهم عليه، فله أن ينبذ إليهم⁵.

2- قال عز وجل: "الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٢٧﴾" **بِمَا تَثَفَّيْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ بِشَرِّدٍ بِهِمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٨﴾**⁶.
وقال القرطبي في تفسير: "الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٢٧﴾"، أي لا يخافون الانتقام⁷.

3- قال عز وجل: "وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ" **﴿٢٩﴾**⁸.

قال المحب الطبري في تفسير هذه الآية: "فإن نقض هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم من قريش عهودهم، من بعد ما عاهدوكم، ألا يقاتلوا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم، وطعنوا في دينكم، وقد حوا في دينكم - الإسلام - فثلموه وعابوه. "فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ" يقول: فقاتلوا رؤساء الكفر بالله. "إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ" يقول: إن رؤساء الكفر لا عهد لهم "لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ": لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم⁹.

¹ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج2، ص31.

² جامع البيان، الطبري، ج1، ص111.

³ المرجع نفسه، ج10، ص26.

⁴ الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ج4، ص345.

⁵ الأم، الشافعي، ج4، ص185.

⁶ سورة الأنفال، الآية 57-58.

⁷ الجامع لأحكام القرآن، المرجع نفسه، ج8، ص30.

⁸ سورة التوبة، الآية 12.

⁹ جامع البيان، المرجع نفسه، ج10، ص87.

4- لقوله ﷺ: ((مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحْلُلُهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمْدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ))¹.

5- وأيضا لحديث رسول الله ﷺ: ((لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))². وفي رواية أخرى: ((إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ))³.

ثانيا: أما إذا لم ينقضوا العهد، فما جعل الله للمسلمين عليهم من سبيل⁴.
 لقول الله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴿١٠١﴾ احِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْبَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٠٢﴾" ⁵.

البند الثاني: انتهاء الحرب

تنتهي الحرب في الشريعة الإسلامية إما بالدخول في الإسلام، أو يعقد معاهدات السلام، أو بعقد الأمان، أو بالنصر على الأعداء، أو ترك القتال، أو بالتحكيم⁶، أو بإعطاء الجزية. وسأفصل ما يحتاج التفصيل فيما يلي:

أولاً: الدخول في الإسلام

الإسلام في اللغة: سلم: انقاد ورضي بالحكم، والإسلام، إظهار الخضوع والقبول للدين الذي نزله الله عز وجل على محمد ﷺ⁷.

الإسلام شرعا: هو الاستسلام لله عز وجل المتضمن غاية الانقياد في غاية الذل والخضوع⁸. فالإسلام

¹ سنن الترمذي، الترمذي، ج4، ص143، حديث رقم 1580. زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ج5، ص88.

² صحيح البخاري، البخاري، ج3، ص1164، حديث رقم 3015، باب إثم الغادر للبر والفاجر.

³ صحيح مسلم، مسلم، ج3، ص1359، حديث رقم 1735، باب تحريم الغدر. صحيح ابن حبان، ابن حبان، ج16، ص336، حديث رقم 7341.

⁴ الحرب والسلام في الفقه الدولي الإسلامي، محمد إمام، ص71.

⁵ سورة المائدة، الآية 1، 2.

⁶ الجهاد في الإسلام، أحمد محمود كريمة، ص452 وما بعدها.

⁷ المعجم الوجيز، مادة سلم، ص319.

⁸ شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الوهاب، ج1، ص31.

هو الانقياد و الاستسلام. فكل طاعة انقاد العبد به لربه واستسلم فيها لأمره، فهي إسلام¹.

وكان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرا على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال : ((اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من ديارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تحفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تحفروا ذمة الله وذمة رسوله وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، وإن أنت حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تحفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تحفروا ذمة الله وذمة رسوله))².

قال عز وجل: "بِإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَفْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ بِلِئَالِ تَابُؤٍ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" ³. وإذا تأملنا هذه الآية الله عز وجل علق القتل على الشرك، ثم قال: "بِلِئَالِ تَابُؤٍ" والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله، وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة⁴.

¹ مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج7، ص154.

² سبق تخريجه.

³ سورة التوبة، الآية 05.

⁴ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج8، ص74.

فشرط في تخلية سبيلهم: التوبة، وهي: الإسلام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة¹، وخلع الأوثان، وعبادة ربهم².

ويقول عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" ³، ورد في تفسير هذه الآية: (ولما منع أن يقال لمن قال: لا إله إلا الله لست مؤمناً منع من قتلهم بمجرد القول)⁴.

وورد أن أسامة بن زيد بن حارثة- رضي الله عنهما- قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحَرَّةِ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِّنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ عَنْهُ، وَطَعْنَتْهُ بِرُحْمِي حَتَّى قَتَلْتُهُ؛ فَلَمَّا قَدِمْنَا، بَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قُلْتُ كَانَ مُتَعَوِّذًا؛ فَمَا زَالَ يُكْرِزُهَا حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ⁵.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس، قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية فيها المقداد ابن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فأهوى إليه المقداد، فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله، لأذكرن ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما قدموا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: "ادع لي المقداد، يا مقداد! أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟"⁶.

ولقول الرسول ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي

¹ المغني، ابن قدامة، ج2، ص156. بدائع الصنائع، الكاساني، ج7، ص110، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982.

² جامع البيان، الطبري، ج10، ص78. الدر المنثور، السيوطي، ج4، ص132.

³ سورة النساء، الآية 93.

⁴ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج5، ص34.

⁵ صحيح مسلم، مسلم، ج1، ص97، حديث رقم 96، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله. مسند أحمد، أحمد، ج5، ص200. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج30، ص370.

⁶ مسند البزار، البزار، ج2، ص196. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج2، ص232 وما بعدها.

دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ¹، وفي رواية أخرى: ((إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله))²، وفي رواية البخاري: ((أُمرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا وَصَلُّوا صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلُوا قِتْلَتَنَا وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا فَقَدْ حَرَمْتَ عَلَيْنَا دِمَاؤَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ))³.

ويتبين من الأحاديث السابقة، أنه من قال: لا إله إلا الله، لا يجوز قتله، وإن المسلمين إذا قاتلوا قوما ثم دخلوا في الإسلام، انتهت الحرب، لأنه لا يجوز القتال بين المسلمين، وذكر الفقهاء طرقا ثلاث، يحكم بها على الكون الشخص مسلما، وهي: الإسلام بالنص، والإسلام بالتبعية، والإسلام بالدلالة. **الإسلام بالنص**: هو النطق بالشهادتين، وما يقوم مقام النطق: كالكتابة، أو الإشارة المفهومية، والتبرؤ من كل دين غير دين الإسلام⁴.

قال رسول الله ﷺ: ((بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقام الصلاة، وإِيتاء الزَّكاة، والحج، وصَوْم رَمَضَانَ))⁵.

وتمثل الشهادتان الدعامة الأولى في الإسلام، والأساس الذي يقوم عليه سائر الأركان الأخرى⁶، والإقرار بالشهادتين واجب باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبق وجوب الصلاة. فأول ما يؤمر به العبد بالشهادتين⁷. ورد في نيل الأوطار: (والأحاديث تدل على أن الإنسان يصير مسلما بمجرد النطق بالشهادتين. قال الحافظ في الفتح: ثم الكلام على حديث: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله". في باب : قتل من أبي من قبول الفرائض من كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، ما لفظه: وفيه منع قتل من قال: لا إله إلا الله، ولم زرد عليها، وهو كذلك، لكن هل يصير بمجرد ذلك مسلما؟

¹ السنن الكبرى، النسائي، ج2، ص280، حديث رقم 3433.

² صحيح البخاري، البخاري، ج1، ص17، حديث رقم 25، باب " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم".

³ المصدر نفسه، ج1، ص153، حديث رقم 385، باب فضل استقبال القبلة.

⁴ الجهاد في الإسلام، أحمد محمود كريمة، ص456

⁵ صحيح البخاري، المصدر نفسه، ج1، ص12، حديث رقم 8، باب بني الإسلام على خمس.

⁶ في ظلال الشريعة الإسلامية، أحمد هاشم، ص7.

⁷ شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ج1، ص75، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، 1391هـ.

الراجح: لا، بل يجب الكف عن قتله، حتى يختبر، فإن شهد بالرسالة، والتزم أحكام الإسلام، حُكِمَ بإسلامه. وإلى ذلك الإشارة بالاستثناء بقوله: إلا بحق الإسلام¹.

وهناك رأي أورده النووي في شرحه على صحيح مسلم، وهو: أن نكف عنه في الظاهر، وأما بينه وبين الله سبحانه وتعالى، فإن كان صادقا مؤمنا بقلبه، نفعه ذلك في الآخرة، ونجا من النار، كما نفعه في الدنيا، وإلا فلا ينفعه، بل يكون منافقا من أهل النار².

وورد في حاشية ابن عابدين: وإنما اكتفى ﷺ بالشهادتين، لأن أهل زمنه كانوا مذكّرين لرسالته أصلا، أما اليهود والنصارى، فكان إسلامهم في زمنه (ﷺ) بالشهادتين، لأنهم كانوا يذكرون رسالته.

وفي شرح السير للسرخسي: وأما اليهود والنصارى اليوم بين ظهرائي المسلمين إذا أتى واحد منهم بالشهادتين، لا يكون مسلما، لأنهم جميعا يقولون هذا، ليس من نصرائي ولا زفر عندنا نسأله إلا قال هذه الكلمة، فإذا استفسرته قال: رسول الله إليكم، لا إلى بني إسرائيل. ثم قال: أنا مسلم. لم يكن مسلما بهذا، لأن لكل فريق يدعي ذلك لنفسه، فالمسلم هو المستسلم للحق، وكل ذي دين يدعي أنه منقاد للحق.

وكان شيخنا الإمام يقول: إلا المجوس في ديارنا، فإن من يقول منهم: أنا مسلم، يصير مسلما، لأنهم يأبون هذه الصفة لأنفسهم³.

وأرى أن من نطق بالشهادتين يصير مسلما، للأدلة السابقة، وإن كان في دار الحرب يختبر، فإن أتى بأحكام الإسلام، فهو صادق، وإن لم يأت بها فهو منافق.

الإسلام بالدلالة:

ويعني بذلك فعل الشخص ما اختص به شرعنا من وسائل العبادات، كالتييم ومقاصدها، وكالصلاة، وسجود التلاوة والحج، وغير ذلك مما هو خاص بالشرع الذي جاء به رسول الله ﷺ¹. كمن

¹ نيل الأوطار، الشوكاني، ج 8، ص 12، ط 1، دار الجليل، بيروت، 1973.

² المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ج 15، ص 178.

³ حاشية ابن عابدين، محمد أمين، ج 4، ص 228، ط 2، دار الفكر، بيروت، 1386هـ.

¹ الجهاد في الإسلام، أحمد محمود كريمة، ص 458.

صلى ولم يتكلم بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك من خصائص الإسلام، ولم يتكلم بهما، هل يصير مسلماً أولاً؟ والصحيح أنه يصير مسلماً بكل ما هو من خصائص الإسلام¹.

وورد في شرح النووي على صحيح مسلم: (ولقد كان رسول الله ﷺ يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك، وإلا أغار، فسمع رجل يقول: الله أكبر، الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ): على الفطرة، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسو الله ﷺ: خرجت من النار فنظروا، فإذا هو راعي معز.

وقوله ﷺ على الفطرة، أي: الإسلام. وقوله ﷺ: خرجت من النار، أي التوحيد، وقوله: فإذا هو راعي معزى، احتج به في أن الأذان المشروع للمنفرد. وهذا هو الصحيح المشهور في مذهبنا، ومذهب غيرنا.

وفي الحديث دليل على أن الأذان يمنع الإغارة على أهل ذلك الموضع، فإنه دليل على إسلامهم، وفيه أن النطق بالشهادتين يكون إسلاماً².

وأما من في دار الحرب، لو حمل عليه مسلم، فقال رسول الله ﷺ فهو مسلم، أو قال: دخلت في دين الإسلام، أو دين محمد ﷺ، فهو دليل إسلامه³.

يقول الله عز وجل: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَايِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" ⁴.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما - في سبب نزول هذه الآية: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمة، فأنزل الله عز وجل ذلك، إلى قوله:

¹ شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ج 1، ص 75.

² المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ج 4، ص 842.

³ حاشية ابن عابدين، محمد أمين، ج 4، ص 228.

⁴ سورة النساء، الآية 93.

"عَرَضَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا". وحمل رسول الله ﷺ ديته إلى أهله، ورد عليه غنيماته¹. وورد في تفسير الآية السابقة: (إذا سرتهم مسير الله في جهاد أعدائكم، فتبينوا وتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه، ولا كفره، ولا تعجلوا، فتقتلوا من التبس عليكم أمره، ولا تتقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه يقينا حربا لكم، والله عز وجل أو لرسوله ﷺ)².

الإسلام بالتبعية:

وهذا في حق إسلام الصغير بإسلام أحد أبويه وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا أسلم الأب وله أولاد صغار أو من في حكمهم - كالمجنون - فإن هؤلاء يحكم بإسلامهم تبعا لأبيهم³. وهناك خلاف بين الفقهاء في حالة ما إذا أسلم الحربي هل يتبعه أولاده ويحقن ماله ودمه، أم لا؟ ورصدت ذلك فيما يلي:

ذهب مالك والشافعي والأوزاعي إلى أنه: إذا أسلم الحربي في دار الحرب، حقن ماله ودمه وأولاده الصغار من السبي، وإن دخل دار الإسلام، وله أولاد صغار في دار الحرب صاروا مسلمين، ولم يجز سبيهم⁴. وأيد هذا الرأي الحنيفة، فقالوا: إن ولاء الأولاد لأبيهم بطريق التبعية، لأن للأب ولاية على ولده الصغير⁵. وبهذا قال الحنابلة، حيث قالوا: إذا أسلم الحربي في دار الحرب أحرز⁶، أولاده الصغار والمجانين، ولو حملا تبعا لأبيهم، ولا يعصم أولاده الكبار، لأنهم لا يتبعونه، ولا امرأته إذا لم تسلم⁷. وبذلك يتضح أن جمهور الفقهاء يرون أن الأولاد الصغار يحكم بإسلامهم تبعا لأبيهم، فالولد على دين الأب¹.

¹ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج5، ص336.

² جامع البيان، الطبري، ج5، ص221.

³ الجهاد في الإسلام، أحمد محمود كريمة، ص456.

⁴ المدونة الكبرى، مالك، ج4، ص307 وما بعدها. المغني، ابن قدامة، ج9، ص216.

⁵ بدائع الصنائع، الكسائي، ج4، ص172.

⁶ حرز، حرازة: امتنع وتحصن، أحرزه: حازه، وحرز الشيء: بالغ في حفظه. انظر: المعجم الوجيز، مادة حرز، ص144.

⁷ كشاف القناع، البهوتي، ج3، ص58، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1997.

¹ المدونة الكبرى، المرجع نفسه، ج4، ص308.

وهناك رأي لأبي حنيفة. أورد ابن قدامة في المغني: (ترك له ما كان في يديه من ماله ورقيقه ومتاعه ووله الصغار، وما كان من أمواله بدار الحرب، جاز سبيهم، لأنه لم يثبت إسلامهم بإسلامه، لاختلاف الدارين بينهم . بينما يرى ابن قدامة: أن أولاده أولاد مسلم، فوجب أن يتبعوه في دار الإسلام، كما لو كانوا معه في الدار، ولأن ماله مال مسلم، فلا يجوز اغتنامه، كما لو كان في دار الإسلام)¹، وأرى أن الحرب إذا أسلم، عصمت دماؤه وأمواله في دار الحرب ودار السلم، وتبعه أولاده الصغار، ومن في حكمهم ولا يتبعه زوجته وأولاده الكبار.

ثانيا: الهدنة

الهدنة لغة: السكون² والمصالحة، كالمهادنة، ومعناها: موادة أهل الحرب³. وهادن فلانا: وادعه وانصرف عن قتاله إلى حين. وتهادن القوم تصالحوا، أو أتركوا الحرب والخصومة إلى حين، وهي فترة تعقب الحرب، يتهى فيها العدوان للصالح، ولها شروط خاصة⁴.

تعريف الهدنة في الشرع:

عرفت الهدنة بأنها: عقد على ترك القتال مدة معلومة بقدر الحاجة، فإن زادت بطلت في الزيادة فقط⁵.

وعرفت في الإنصاف للمرداوي بأنها: (أن يعقد الإمام أوثابه عقدا على ترك القتال مدة، ويسمى مهادنة وموادة ومعاهدة)⁶.

وعرفها ابن قدامة في المغني بأنها: (أن يعقد لأهل الحرب عقدا على ترك القتال مدة بعوض وغير عوض، وتسمى مهادنة وموادة ومعاهدة)¹.

¹ المغني، ابن قدامة، ج9، ص216 وما بعدها.

² كشف القناع، البهوتي، ج3، ص111.

³ الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ج4، ص338.

⁴ المعجم الوجيز، ص646.

⁵ كشف القناع، المرجع نفسه، ج3، ص111.

⁶ الإنصاف، الرداوي، ج4، ص211.

¹ المغني، المرجع نفسه، ج9، ص238.

وعرفت في المبدع بأنها: (يعقد الإمام أو نائبه، على ترك القتال مدة معلومة لازمة، ويسمى مهادنة ومعاهدة ومسألة)¹.

مشروعيتها في القرآن الكريم:

قوله عز وجل: " بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُضُوا شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ " ²

قال القرطبي في تفسير: " أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ": (إلا من المعاهدين في مدة عهدهم. وقبل الاستثناء: منقطع، أي: أن الله بريء منهم، ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد، فأتموا إليهم عهدهم)، وفي: " ثُمَّ لَمْ يَنْفُضُوا شَيْئاً ": (يدل على أنه كان من أهل العهد من خان بعده، ومنهم من ثبت على الوفاء، فأذن الله عز وجل لنبيه ﷺ في نقض عهد من خان، وأمر بالوفاء لمن بقي على عهده إلى مدته ومعنى: " لَمْ يَنْفُضُوا شَيْئاً " من شروط العهد شيئاً، ولم يظاهروا لم يعاونوا)³.

وورد في تفسير الجلالين للآية " إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُضُوا شَيْئاً ": (من شروط العهد، ولم يظاهروا، ويعاونوا عليكم أحد من الكفار، فأتموا عهدهم إليهم، إلى انقضاء مدتهم التي عاهدتم عليها، إن الله يحب المتقين بإتمام العهود)¹. وقوله عز وجل: " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ " ².

¹ المبدع شرح المقنع، ابن مفلح المقدسي، ج3، ص398، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1400هـ.

² سورة التوبة، الآيات 1-4.

³ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج8، ص71.

¹ تفسير الجلالين، المحلى والسيوطي، ج1، ص240.

² سورة الأنفال، الآية 62.

وورد في تفسير "بَاَجْنَحْ لَهَا": أنها نزلت في بني قريظة، نسختها: "فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا غَلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَغْمَلَكُمْ" ﴿١﴾.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ بَاَجْنَحْ لَهَا" قال: (إن رضوا فارض. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رحمه الله في قوله عز وجل: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ بَاَجْنَحْ لَهَا" يقول: إذا أرادوا الصلح فأرده) ².

وقال الحب الطبري: (القول في تأويل قوله عز وجل: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ بَاَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" بقوله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: "وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً بَانِيذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ". وأذنبهم بالحرب. "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ بَاَجْنَحْ لَهَا": وإن مالوا إلى مسالمتك، ومتاركتك الحرب، إما بالدخول في الإسلام، أو بإعطاء الجزية، وإما بموادعة، ونحو ذلك السلم والصلح، "بَاَجْنَحْ لَهَا": قيل إليها. وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه) ³.

مشروعيتها من السنة:

أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح قريشا على وضع القتال عشر سنين ¹. وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم كثيرا من أهل البلاد على مال يؤدونه من ذلك خير ². وكذلك صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن بعده من الأئمة كثيرا من بلاد العجم على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه، وهم قادرون على استئصالهم.

¹ سورة محمد، الآية 36.

² الدر المنثور، السيوطي، ج4، ص98.

³ جامع البيان، الطبري، ج10، ص33.

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص235. السنن الكبرى، البيهقي، ج9، ص226، باب الهدنة على أن يرد الإمام من جاء بلده مسلما من المشركين.

² الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج8، ص40.

حكم الهدنة:

أجمع الفقهاء على جواز الهدنة لمصلحة¹، وإن لم يكن في الهدنة مصلحة تم عقدها²، لقوله عز وجل: "فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا أَغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَّتَرَكَكُمْ أَغْمَلَكُمْ" ³. ولا تجوز المهادنة مطلاً، لأن إطلاقها يقضي إلى ترك الجهاد بالكلي⁴ فلا يصح عقد الهدنة إلا حيث جاز تأخير الجهاد⁵. فيجوز للإمام أو نائبه، أو يهادن الكفار مدة معلومة، إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، كأن يكون بالمسلمين ضعف، فيهاندهم، حتى يقوى المسلمون، أو أن يطمع من إسلامهم أو أداء الجزية⁶.

عاقده الهدنة:

وهناك خلاف على عاقده الهدنة من المسلمين. وتفصيل ذلك فيما يلي: ذهب جمهور الفقهاء: أنه لا يصح عقد الهدنة إلا من الإمام، أو نائبه¹، لأنه يتعلق بنظر واجتهاد، وليس غيرهما محل لذلك، لعدم ولايته. وإن هادن الكفار غير الإمام، أو نائبه لم تصح الهدنة²، لأنه لو جعل ذلك إلى كل واحد، لم يؤمن أن يهادن الرجل أهل إقليم، والمصلحة في قتالهم، فيعظم الضرر، فلم يجز إلا لإمام أو نائبه³، وهناك رأي آخر ورد في الفروع والإنصاف: (وفي الترغيب لأحاد الولاية عقد الهدنة)⁴.

¹ إرشاد السالك في فقه الإمام مالك، عبد الرحمن البغدادي، ج 1، ص 93. بدائع الصنائع، الكاساني، ج 7، ص 108. المهذب، الشيرازي، ج 2، ص 260. الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ج 4، ص 338. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 8، ص 40.

² المهذب، المرجع نفسه، ج 2، ص 259 وما بعدها.

³ سورة محمد، الآية 36.

⁴ المبدع شرح المقنع، ابن مفلح المقدسي، ج 3، ص 398.

⁵ الإنصاف، المرداوي، ج 4، ص 211.

⁶ المغني، ابن قدامة، ج 9، ص 238.

¹ الفروع، ابن مفلح، ج 6، ص 231، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ. الإنصاف، المرجع نفسه، ج 4، ص 211.

المهذب، المرجع نفسه، ج 2، ص 259.

² كشف القناع، البهوتي، ج 3، ص 111.

³ المهذب، المرجع نفسه، ج 2، ص 256.

⁴ الفروع، المرجع نفسه، ج 6، ص 231. الإنصاف، المرجع نفسه، ج 4، ص 211.

ونرى أن الراجح ما ذهب إليه الجمهور من أنه لا يصح عقد الهدنة إلا من الإمام أو نائبه، فهو الراعي، وهو المسئول عن رعيته، ولأنه محل اجتهداد، وأنه عقد مع الكفار وليس ذلك لغيره؛ ولأنه يتعلق بنظر الإمام، وما يراه من مصلحة¹.

وإن عقدت الهدنة على مدة وجب الوفاء بها²؛ لقوله عز وجل: "إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُضُوا عَهْدَهُمْ وَاتَّخَذُوا لَكُمْ حَبْلًا مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا سُلُلًا وَلَئِنْ فَرَّقْتُمْ بَيْنَهُمْ فَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذِلَّ لَكُمْ أَعْدَاءَكُمْ وَيُسْخَرَكُمْ لَهُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَأْخُذُوا بِعَهْدِكُمْ وَأَنَّهُمْ هَارِبُونَ" ³.

وإن مات الإمام، أو عزل، وولي غيره، لزمه إمضاء الهدنة، لأنه عقد لازم⁴، لئلا ينقض الاجتهداد

باجتهداد⁵، فلا يجوز للحاكم نقض أحكام من قبله باجتهاده⁶؛ لما روي: أن نصارى نجران أتوا عليا -كرم الله وجهه- وقالوا: إن الكتاب كان بيدك، والشفاعة إليك، وإن عمر عليه السلام أجلانا من أرضنا، فردنا إليها. فقال علي عليه السلام إن عمر كان رشيدا في أمره، وإني لا أغير أمرا فعله عمر عليه السلام¹. وتنتهي الهدنة بانتهاء مدتها².

مقابل الهدنة:

يجوز عقد الهدنة بغير مال، وتجوز على مال يأخذ منهم، لأنه إذا جازت بغير مال، فعلى مال أولى³. واختلف الفقهاء على مدى جوان دفع مال هنا لعقد هدنة، ورصدت اختلافهم فيما يلي:

¹ المغني، ابن قدامة، ج 9، ص 239.

² المهذب، الشيرازي، ج 2، ص 256.

³ سورة التوبة، الآية 4.

⁴ الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ت: زهير الشاويش، ج 4، ص 342، ط 5، المكتب الإسلامي، بيروت، 1988.

⁵ كشاف القناع، البهوتي، ج 3، ص 111.

⁶ المغني، المرجع نفسه، ج 9، ص 239.

¹ المهذب، المرجع نفسه، ج 2، ص 261.

² المغني، المرجع نفسه، ج 9، ص 238.

³ الكافي في فقه ابن حنبل، المرجع نفسه، ج 4، ص 341.

ذهب بعض الفقهاء إلى جواز عقد الهدنة، ولو بمال منا¹. مثل: أن يخاف على المسلمين الهلاك والأسر، لأنه يجوز للأسير فداء نفسه بالمال، هكذا هنا². فدفع المال أهون من القتل، والأسر، أو سبي الذرية، واحتجوا بموادعة النبي ﷺ عينه بن حصن الفزازي، الحارث بن عوف المري، يوم الأحزاب، على أن يعطيها ثلث ثمر المدينة، وينصرف من الوقوف من غطفان ويخذلان، ويرجعوا بقومهم عنهم³. وكانت هذه المقالة مروضة، ولم تكن عقدا، فلما رأى رسول الله ﷺ منهما أنهما قد أنابا ورضيا، استشار سعد بن معاذ رضي الله عنه، وسعد بن عباد رضي الله عنه، فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبه، فنصنعه لك؟ أو شيء أمرنا الله به، فنسمع له ونطيع؟ وأمرت صنعه لنا؟ فقال ﷺ: بأمر أصنعه لكم، فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فقال له سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله، والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله عز وجل، ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمة إلا شراء، أو قرى، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، واعزنا بك، نعطيهام أموالنا، والله لا نعطيهام إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا بذلك رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: أنتم وذلك. وقال لعبيته والحارث: انصرفا، فليس لكما عندنا إلا السيف¹.

وفي رواية أخرى: أرسل رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وهو مع أبي سفيان - يعني يوم الأحزاب -، رأيته إن جعلت لك ثلث ثمر الأنصار، أترجع بمن معك من غطفان، أو تخذل بين الأحزاب؟ فأرسل إليه عيينة: إن جعلت الشطر فعلت. ولولا أن ذلك جائز لما بذله النبي ﷺ². ولأن ما يخاف من تعذيب الأسير أعظم في الضرر من بذل المال، فجاز دفع أعظم الضررين بأخفهما³، ولأن الضرر من الخوف أعظم من الضرر بالمال، فجاز دفع أعلاهما بأدناهما⁴.

¹ المبسوط، السرخسي، ج10، ص87. الإنصاف، المرادوي، ج4، ص211. المبدع، ابن مفلح، ج3، ص398.

² المغني، ابن قدامة، ج9، ص239.

³ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج8، ص41.

¹ المغني، المرجع نفسه، ج9، ص239.

² كشف القناع، البهوتي، ج3، ص112.

³ المهذب، الشيرازي، ج2، ص260.

⁴ الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ج4، ص341.

وهناك رأي ورد في الإنصاف يقول: (لا يجوز عقد البهدة بمال منا)¹، لأن في ذلك إلحاق صغار بالإسلام، فلم يجوز إلا لضرورة، كأن يحاط بالمسلمين، أو أسروا رجلا من المسلمين وخيف تعذيبه².
وورد في المغني: (وأما إن صالحهم على مال نبذ الله لهم، فقد أطلق أحمد القول بالمنع منه، وهو مذهب الشافعي، لأن فيه صغارا للمسلمين، وهذا محمول حال الضرورة.
فأما إن دعت إليه ضرورة، وهو أن يخاف على المسلمين الهلاك، أو الأسر، وسبي الذرية الذين يفضي سبيهم إلى كفرهم)³.

مدة الهدنة:

اختلف الفقهاء في تحديد مدة الهدنة، ورصدت اختلافهم فيما يلي:

الرأي الأول: لا تجوز أكثر من عشر سنين:

قال ابن قدامه في المغني: (ولا يجوز عقد الهدنة، إلا على مدة مقررّة معلومة، لما ذكرن.
وقال القاضي: وظاهر كلام أحمد أنها لا تجوز أكثر من عشر سنين. وهو اختيار أبي بكر، ومذهب الشافعي)¹.

وورد في الإنصاف للمرداوي: فمتى رأى المصلحة في عقد الهدنة، جاز له عقدها مدة معلومة، وإن طال.

هذا الصحيح من المذهب جزم به في الوجيز، والمنور. قال في المنتخب: يجوز مدة معلومة، وقدمه في الهداية، والكافي، والهادي والمحرر والفروع والرايعتين والحاويين، وصححه في الخلاصة وغيرها، وعنه لا يجوز أكثر من عشر سنين²، فإن زاد على العشر بطل في الزيادة³.

¹ الإنصاف، المرداوي، ج4، ص211.

² المهذب، الشيرازي، ج2، ص260.

³ المغني، ابن قدامة، ج9، ص239.

¹ المرجع نفسه، ج9، ص238.

² الإنصاف، المرجع نفسه، ج4، ص212.

³ المبدع، ابن مفلح، ج3، ص400.

واستدل أصحاب هذا الرأي بقوله عز وجل: " فَإِذَا بَلَغَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَفْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " ¹.

خص منها العشر لفعله ﷺ، فيبقى ماعده على مقتضى العموم، فإن زاد على العشر بطل في الزيادة؛ لأنه ممنوع ².

الرأي الثاني: لا تزيد عن السنة

إذا كانت القوة للمسلمين. وإذا كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين، ولا تجوز الزيادة.

قال القشيري: إذا كانت القوة للمسلمين، فينبغي ألا تبلغ الهدنة سنة، وإذا كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين، ولا تجوز الزيادة ¹.

الرأي الثالث: تجوز أكثر من عشر سنين

وهناك رواية عن أحمد وردت في المبدع: (وعنه لا يجوز في أكثر من عشر سنين، فإن زاد على العشر بطل في الزيادة. وفي العشر روايتان، وإن هادئهم مطلقا لم يصح، وظاهره أنه يجوز في الطويلة كالقصيرة على المذهب، لأنها تجوز في أقل من عشر، فجاوزت في أكثر منها، كمدة الإجارة، ولأنه إنما جاز عقدها للمصلحة، فحيث وجدت جازت تحصيلها للمصلحة، وعنه لا يجوز في أكثر من عشر سنين.

قال القاضي: هو ظاهر كلام أحمد، واختاره أبو بكر ².

وأنه يجوز عقد الهدنة في العشر، فجازت فيما زاد عليها، كالإجارة، فإن هادئهم أكثر من قدر الحاجة بطل في الزائد ³.

¹ سورة التوبة، الآية 5.

² المبدع، ابن مفلح، ج 3، ص 399.

¹ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 8، ص 40.

² المبدع، المرجع نفسه، ج 3، ص 399.

³ الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ج 4، ص 340.

وإن خاف الخيانة نقص عهدهم، لقوله عز وجل: "وَأَمَّا تَخَابَسٌ مِّنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ بَأْسٌ لِّهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنْ أَلَّفَهُ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ" ¹.

يعني: أعلمهم يا محمد بنقض العهد، حت يصير أنت وهم سواء في العلم ².

وإن نقض بعضهم العهد دون بعض فسكت باقيهم عن الناقض للعهد، ولم يوجد منهم إنكار على الناقض، ولا مراسلة الإمام في شأنه، ولا تبرؤ منه، فالكل ناقضون للعهد، لرضاهم بفعل أولئك، وإقرارهم لهم، وإن أنكر من لم ينقض على الباقي، أي: الناقضين بقول، أو فعل ظاهر، أو اعتزال، بأن اعتزلوا الناقضين، أو راسل الإمام: بأني منكر من فعله الناقض، مقيم العهد، لم ينتقض في حقه، أي حق من أنكر ³، لأن ناقة صالح عقرها واحد، فلم ينكر عليه قومه، فعذبهم الله جميعا، ولما هادن النبي ﷺ قريشا، دخلت خزاعة مع النبي ﷺ، وبنو بكر على خزاعة، وأعانهم نفر من قريش، وأمسك سائر قريش، فكان ذلك نقض عهدهم، فسار إليهم رسول الله ﷺ حتى فتح مكة ¹.

1- عقد الذمة أو الجزية:

الذمة في اللغة:

الذمة من: أذمه بذمه، إذا جعل له عهدا ².

والذمة هي: العهد، والأمان، والكفالة ³. وعقد الذمة: عقد معاوضة ⁴. وأهل الذمة: المعاهدون من أهل الكتاب، ومن جرى مجراهم. والذمي: الذي أعطي عهدا، يأمن به على ماله، وعرضه، ودينه ⁵. والجزية: من جزأت الشيء، إذا قسمته. ثم سهلت الهمزة.

¹ سورة الأنفال، الآية 59.

² المبدع، ابن مفلح، ج3، ص402 وما بعدها.

³ كشاف القناع، البهوتي، ج3، ص112 وما بعدها.

¹ الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ج4، ص344.

² المبدع، المرجع نفسه، ج3، ص311.

³ الوجيز، ص246.

⁴ المبدع، المرجع نفسه، ج3، ص332.

⁵ الوجيز، المرجع نفسه، ص246.

وقيل الجزاء، أي: لأنها جزاء تركهم ببلاد الإسلام، أو من الأجزاء، لأنها تكفي من توضع عليه في عصمة دمه¹.

شرعا:

عقد الذمة هو: إقرار بعض الكفار على كفره، بشرط بذله الجزية، والتزام أحكام الملة². وعرفه بأنه: أن يقر الحاكم أو نائبه بعض أهل الكتاب - أو غيرهم - من الكفار على كفرهم شرطين

الأول: أن يلزموا أحكام الإسلام في الجملة.

الثاني: أن يبذلوا الجزية³.

مشروعيتها في القرآن:

قوله عز وجل: "فَلْيَلْزَمُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" ¹.

ورد في تفسير "فَلْيَلْزَمُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ" : ولم يؤمنوا بالنبي ﷺ، ولا يحرمون ما حرم الله عز وجل ورسوله ﷺ، كالخمر، "وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ": الثابت محمود لغيره من الأديان، وهو: دين الإسلام.

وهذا بيان للذين أوتوا الكتاب، أي: اليهود والنصارى. "حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ": الخراج المضروب عليهم كل عام. "عَنْ يَدٍ": حال: أي منقادين، أو بأيديهم لا يוכלون بها. "وَهُمْ صَاغِرُونَ": أذلاء منقادون لحكم الإسلام².

¹ فتح الباري، ابن حجر، ج6، ص259.

² المبدع، ابن مفلح، ج3، ص332.

³ الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين، ج5، ص101، ط1، دار ابن الجوزي، الرياض، 1428هـ.

¹ سورة التوبة، الآية 29.

² تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ج1، ص244.

مشروعيتها من السنة:

ما ورد في حديث طويل للنبي ﷺ أنه بعث أميرا على سرية أو الجيش أوصاه، ومن تلك الوصايا قوله ﷺ: ((...فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا، فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن أبوا، فاستعن بالله عليهم، ثم قاتلهم...))¹.

وفي الحديث دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ كان يخير الكافرين بين الإسلام والقتال وإعطاء الجزية، لثبوتها بالكتاب والسنة.

وأیضا قول الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ قَالَ لِعَامِلٍ كَسَرَى : أَمَرْنَا نَبِيَّنَا ؟ أَنْ تُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ².

والإجماع على قبول الجزية ممن بذلها من أهل الكتاب، ومن لحق بهم، وإقرارهم بذلك في دار الإسلام، ومن له شبهة كتاب، كالمجوس¹.

طرفا العقد:

عاقدها من المسلمين: لا يصح عقد الذمة إلا من الإمام، أو نائبه².

ورد في المغني: (وبهذا قال الشافعي، ولا نعلم فيه خلافا)³. لأن ذلك يتعلق بنظر الإمام، وما يراه من المصلحة، ولأن عقد الذمة عقد مؤبد، فلم يجوز أن يفتات به على الإمام.

وورد في المغني أيضا: (وإذا مات الإمام، أو عزل وولي غيره، فإن عرف ما عقد عليه عقد الذمة من كان قبله، وكان عقدا صحيحا، أقرهم عليه، لأن الخلفاء الرادين - ﷺ - أقروا عقد عمر رضي الله عنه، ولم يجددوا عقدا سواه، ولأن عقد الذمة مؤبد، وإن كان فاسدا رده إلى الصحة، وإن لم يعرف،

¹ سبق تخريجه.

² صحيح البخاري، البخاري، ج3، ص1152، حديث رقم 2989، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة. السنن الكبرى، البيهقي، ج9، ص191، باب المجوس أهل كتاب والجزية تؤخذ منهم.

¹ المبدع، ابن مفلح، ج3، ص405.

² زاد المستقنع، الحجاوي، ج1، ص100، ط1، دار الوطن للنشر، الرياض، دت.

³ المغني، ابن قدامة، ج9، ص269.

فشهد به مسلمان، أو كان أمره ظاهرا عمل به، وإن أشكل عليه، سألهم، فإن ادعوا العهد بما يصلح أن يكون جزية، قبل قولهم وعمل به، وإن شاء استحلفهم استظهارا، فإن ظهر له بعد ذلك أنهم نقضوا. وإن قالوا: كنا نؤدي كذا جزية، وكذا، وكذا هدية، استحلفهم يمينا واحدا، لأن الظاهر فيما يدفعونه أنه جزية، واختار أبو الخطاب أنه: إذا لم يعرف ما عوهدوا عليه، استأنف العقد معهم، لأن عقد الأول لم يثبت عنده، فصار كالمعدوم¹.

المعقود لهم من غير المسلمين: ووقع خلاف بين المسلمين: ووقع خلاف بين الفقهاء في المعقود لهم من غير المسلمين في عقد الجزية، وتوضيح ذلك فيما يلي:

الرأي الأول: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، ومن له شبهة كتاب

وبه قال الشافعي - رحمه الله عليه - فورد في تفسير القرطبي، قال الشافعي: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة، عربا كانوا، أم عجماء، للآية السابقة¹، فلا يجوز عقدها إلا لأهل الكتاب، وهم: اليهود والنصارى²، والمجوس³، وبه قال أحمد وأبو ثور وهو مذهب الثوري، وأبي حنيفة، وأصحابه⁴.

واستدل أصحاب هذا الرأي بقوله عز وجل: "فَقَتِّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"  ⁵.

¹ المغني، ابن قدامة، ج9، ص288.

¹ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج8، ص110.

² زاد المستقنع، الحجاوي، ج1، ص100.

³ قيل: لهم شبهة كتاب؛ لأنه روي أنه كان لهم كتاب فرفع، فصار بذلك شبهة أوجب حقن دمائهم، وأخذ الجزية منهم. انظر: المبدع، ابن مفلح، ج3، ص405.

⁴ الجامع لأحكام القرآن، المرجع نفسه، ج8، ص110.

⁵ سورة التوبة، الآية 29.

وجه الدلالة: أن الله أباح أخذ الجزية من أهل الكتاب، فلا تؤخذ من غيرهم، بدلا من قتلهم¹. وإذا عقد عقد الذمة لكفار زعموا أنهم من أهل الكتاب، ثم تبين أنهم عبدة الأوثان، فالعقد باطل من أصله، وإن شككنا فيهم، لم ينتقض عهدهم بالشك، لأن الأصل صحته².

الرأي الثاني: تقبل الجزية من كل عابد وثني أو نار أو جاحد أو مكذب

وبه قال الأوزاعي ومالك، فورد في تفسير القرطبي، قال الأوزاعي: تؤخذ الجزية من كل عابد وثني، أو بار، أو جاحد، أو مكذب. وكذلك مذهب مالك، فإنه رأى أن الجزية تؤخذ: من جميع أجناس الشرك، والجدد، عربيا، أو عجميا، تغليبا، أو قريشيا، وكائن من كان، إلا المرتد¹. وفي المغني: (عن مالك: أنها تقبل من جميعهم إلا مشركي قريشا، لأنهم ارتدوا)².

الرأي الثالث: يجوز عقد الذمة لجميع الكفار إلا عبدة الأوثان

فورد في المبدع أنه: (يجوز عقد الذمة لجميع الكفار إلا عبدة الأوثان من العرب، لما روي عن الزهري، أن النبي ﷺ صالح عبدة الأوثان على الجزية، إلا من كان العرب)³، لأن عبدة الأوثان لهم القتال أو الإسلام⁴، لقوله عز وجل: "بِإِذَا بِنِْسَلَخِ الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ بِأَفْتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَآخِضْرُوهُمْ وَأَفْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ بِلِئَالٍ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" ⁵.

واستدل أصحاب هذا الرأي بحديث الرسول ﷺ: ((إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيُّهَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ

¹ الجهاد في الإسلام، أحمد محمود كريمة، ص 484.

² المغني، ابن قدامة، ج 9، ص 267.

¹ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 8، ص 110.

² المغني، المرجع نفسه، ج 9، ص 266.

³ المبدع، ابن مفلح، ج 3، ص 405.

⁴ الجامع لأحكام القرآن، المرجع نفسه، ج 8، ص 110.

⁵ سورة التوبة، الآية 5.

فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يُجْرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقَاتِلْهُمْ...¹). فكلمة عدوك تشمل كل محارب غير مسلم من أهل الكتاب، أو غيرهم، ويستثنى عبدة الأوثان؛ لأن الرسول (ﷺ) لم يأخذ الجزية منهم².

وورد في المغني: (وقول النبي ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم، وأموالهم، إلا بحقها)). وهذا عام خص من أهل الكتاب بالآية، والمجوس بقول النبي ﷺ: ((ستوا بهم سنة أهل الكتاب)). فمن عداهم من الكفار يبقى على العموم³.

● شروط أهل الجزية:

● للجزية شروط هي: البلوغ، والعقل، والحرية، والذكورية، ومن العلماء من اشترط من أن يكونوا من أهل الكتاب، أو ممن لهم شبهة كتاب⁴. فلا تؤخذ الجزية من صبي ولا من عبد⁵، لحديث معاذ رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن آخذ من كل حالم دينارا، أو عدله معافيا. ولأن الجزية تجب لحقن الدم، والصبي محقون الدم⁶، لما روي عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: لا جزية على مملوك، ولا تؤخذ الجزية من مجنون، أو امرأة، ولا من الخنثى⁷، لأن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمراء الجزية ألا تضربوا الجزية على النساء، ولا تضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموس⁸.

¹ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، ج2، ص341، حديث رقم 2614، باب في دعاء المشركين، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، دت.

² الجهاد في الإسلام، أحمد محمود كريمة، ص485.

³ المغني، ابن قدامة، ج9، ص266.

⁴ الغاية والتقريب، أحمد أبو الشجاع، ت: مصطفى الديب البغا، ج1، ص231، ط1، دار الإمام البخاري، دت.

⁵ زاد المستقنع، الحجاوي، ج1، ص100.

⁶ المهذب، الشيرازي، ج2، ص252.

⁷ دليل الطالب، مرعي الكرمي، ت: أبو قتيبة الفارابي، ج1، ص104، ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 2004.

⁸ المهذب، المرجع نفسه، ج2، ص252.

● مقدار الجزية، وأوجه إنفاقها:

المأخوذ منهم الجزية على ثلاث طبقات، فيؤخذ من أدناهم اثنا عشر درهما، ومن أوسطهم أربعة وعشرون درهما، ومن أيسرهم ثمانية وأربعون درهما¹.

وقال ابن قدامة في المغني¹: فيه ثلاث روايات:

أحدها: أنها مقدرة بمقدار لا يزيد عليه ولا ينقص منه. وهذا قول أبي حنيفة والشافعي، لأن النبي ﷺ فرضها مقدرة، بقوله لمعاذ ﷺ خذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافياً. وفرضها عمر ﷺ مقدرة بمحض من الصحابة، فلم ينكر فكان إجماعاً.

والثانية: مقدرة، بل يرجع فيها إلى اجتهد الإمام في الزيادة والنقصان.

قال الأثرم: قيل لأبي عبد الله: فيزداد اليوم وينقص، يعني: الجزية، قال: نعم، يزداد فيه وينقص على قدر طاقتهم، على قدر ما يرى الإمام.

وذكر: أنه زيد عليهم فيما مضى درهمان، فجعله خمسين. قال الخلال: العمل في قول أبي عبد الله على ما رواه الجماعة: بأنه لا بأس للإمام أن يزيد في ذلك وينقص، على ما رواه عنه أصحابه في عشرة مواضع، فاستقر قوله على ذلك. وهذا قول الثوري: وأبي عبيد، لأن النبي ﷺ أمر معاذاً أن يأخذ من كل حالم ديناراً، وصالح أهل نجران على ألفي حلة: النصف في المحرم، والنصف في رجب. رواهما: أبو داود.

وعمر ﷺ جعل الجزية على ثلاث طبقات: على الغني ثمانية وأربعون درهما، وعلى المتوسط أربعة وعشرون درهما، وعلى الفقير اثنا عشر درهما. وصالح بني تغلب على مثل ما على المسلمين من الزكاة. وهذا يدل على أنها إلى رأي الإمام، لولا ذلك لكانت على قدر واحد في جميع هذه المواضع، ولم يجوز أن تختلف.

والثالثة: أن أقلها مقدر بدينار - وهو اختيار أبي بكر - فتجوز الزيادة، ولا يجوز النقصان؛ لأن عمر ﷺ زاد على ما فرض رسول الله ﷺ، ولم ينقص منه. وروي أنه زاد على ثمانين وأربعين، فجعلها خمسين.

¹ الإنصاف، المرداوي، ج4، ص227.

¹ المغني، ابن قدامة، ج9، ص267.

يقول السرخسي في المبسوط: (إن ذلك يختلف باختلاف البلدان، فبالعراق من يملك خمسين ألفاً، يعد غنياً. فيجعل ذلك موكل إلى رأي الإمام)¹.

وأرى أن الجزية مقدرة، وليس للإمام أن يزيد عليها، إلا برضى أهل الذمة، أو بالاتفاق معهم، أو ينقص، للآيات والأحاديث الدالة على اتباع الرسول ﷺ.

فلا يجوز مخالفته ﷺ في تقدير الجزية، بل أن الرسول ﷺ قال: ((أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا وَانْتَقَصَهُ وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))¹.

وإذا كانت الزكاة مقدرة، فلم يجوز لنا النقصان عنها، وإن كان يجوز الزيادة لمن استطاع، فكذا الجزية: لا يجوز النقصان عنها، ولا تؤخذ الزيادة إلا بطيب نفس. فإن رأى الإمام ينفق الجزية في المرافق العامة للدولة²، كإعداد الجيش، وتعبيد الطرق، وإقامة المستشفيات، والمدارس، وإقامة المنشآت التي يحتاج إليها الناس، وكل ذلك يستفيد منه المسلم والذمي - فله أن **يشارك** فيه مادام يستفيد منه. وإن لم يرضى بالزيادة لا يؤخذ منه إلا مقدار الجزية، وتؤخذ منه رسوم عند استفادته بالمرافق التي تنشئها الدولة على قدر طاقته، لكي يعلم الذمي أن الإسلام دين العدل، وربما حبه ذلك في الإسلام.

● آثار عقد الذمة بالنسبة للمسلمين

إذا عقد عقد الذمة، فعلى الإمام حماية أهل الذمة من المسلمين، وأهل الحرب³، فيحرم قتل أهل الذمة، وأخذ ما لهم⁴، لقول النبي ﷺ: ((إذا قبلوا عقد الذمة فاعلمهم أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين))⁵.

ورد في المغني: (إذا أتلّف خمراً أو خنزيراً، فلا غرم عليه، وينهى عن التعرض لهم، فيما لا يظهره.

¹ المبسوط، السرخسي، ج10، ص78.

¹ السنن الكبرى، البيهقي، ج9، ص205، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم وما ورد من التشديد في ظلمهم وقتلهم.

² معاملة غير المسلمين في دولة الإسلام، إبراهيم عيسى، ص132، ط1، دار المنار، القاهرة، 1994.

³ دليل الطالب، مرعي الكرمي، 1، ص104.

⁴ المغني، ابن قدامة، ج5، ص173.

⁵ بدائع الصنائع، الكاساني، ج2، ص37.

وجملة ذلك: أنه لا يجب ضمان الخمر والخنزير، سواء كان متلفه مسلماً أم ذمياً لمسلم، أم ذمياً. نص عليه أحمد في رواية أبي الحارث، في الرجل أهرق مسكراً لمسلم، أو خمر لذي، فلا ضمان عليه، وبهذا قال الشافعي. وقال أبو حنيفة ومالك: يجب ضمانهما، إذا أتلّفهما على ذمي¹.
 وورد في المغني أيضاً: (قال أبو حنيفة: إن كان مسلماً بالقيمة، وإن كان ذمياً بالمثل، لأن عقد الذمة إذا عصم عينا قومها، كنفس الآدمي. وقد عصم خمر الذمي، بدليل أن المسلم يمنع من إتلافها، فيجب أن يقومها، ولأنها مال لهم يتمولونها، بدليل ما روي عن عمر رضي الله عنه: أن عامله كتب إليه: أن أهل الذمة يمرون، ومعهم الخمر. فكتب إليه عمر: ولهم بيعها، وخذوا منهم عشر ثمنها. وإذا كانت مالا وجب ضمانها. كسائر أموالهم²).

بالنسبة لأهل الذمة:

إذا عقد عقد الذمة، فعلى أهل الذمة أن يلتزموا بأربعة أحكام³ وهي:

أولها: أن يعطوا الجزية عن يد، وهم صاغرون.

ثانيها: ألا يذكروا دين الإسلام إلا بخير.

ثالثها: ألا يفعلوا ما فيه ضرر على المسلمين.

رابعها: أن تجرى عليهم أحكام الإسلام في نفس، ومال، وعرض، وإقامة حد فيما يحرمونه؛ كالزنا، لا فيما يحلون؛ كالخمر. وليس لهم أن يجاهرُوا بشيء يحرمه الإسلام.

فلو قتل أو قطع طرفاً أخذ به كالمسلم، ولو أتلّف مالا لغيره ضمنه⁴، وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى برجل وامرأة من اليهود، زنيا فرجمهما⁵.

ومما سبق يتضح أن على الذمي الالتزام بأداب الإسلام مادام في دار الإسلام، وألا يرتكب فعلاً

من شأنه الإضرار بالمسلمين، كترويج الشائعات وإشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم.

¹ المغني، ابن قدامة، ج 5، ص 173.

² المرجع نفسه، ج 5، ص 173.

³ دليل الطالب، مرعي الكرمي، ج 1، ص 104.

⁴ المبدع، ابن مفلح، ج 3، ص 416.

⁵ الكافي في فقه ابن حنبل، ابن قدامة، ج 4، ص 209.

العدالة في الجزية:

ضالة الجزية، وأن الجزية من غير المسلمين بمثابة الزكاة من المسلم، والرحمة في أخذ الجزية¹؛ لأنه لم يرو أن أحدا من الخلفاء أو أمراء المسلمين تعسف في أخذ الجزية، بل أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما وجد رجلا يسأل في الطريق، فقال له: ما الذي ألجأك إلى هذا؟ فقال: الجزية، والسن، والحاجة. قال عمر: من أي قوم أنت؟ قال: اليهود. فأخذه عمر إلى منزله، وأعطاه، وأسقط عنه الجزية. وكتب إلى عامله: انظر إلى هذا، وضرباه، فليس من العدل أن نأكل شبيبته، ثم نخذله عند الهرم. ولم يكتف عمر رضي الله عنه بذلك، بل رتب له قدرا من المال يكفيه². وهذا دليل على أن الجزية لا تؤخذ من الفقراء. بل وجد في أوراق البردي بمصر عدة شكاوى عن التأخر في دفع الجزية، والتراخي في أدائها³.

وهذا دليل على التساهل والتسامح مع أهل الذمة في أخذ الجزية، فالرسول ﷺ قال: ((أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا وَانْتَقَصَهُ وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بغيرِ طيبِ نَفْسٍ مِنْهُ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))⁴. بالإضافة إلى أن الجزية لا تؤخذ إلا ممن يستطيع العمل، بعد إخراج النساء، والصبيان، وكبار السن، والفقراء. وبذلك يتضح أن الجزية تؤخذ من نسبة ضئيلة من أهل الذمة، وأن الذمي بدفعه للجزية يأمن في ماله، وعرضه، ونفسه. وينتقض عقد الذمة بأن يلحق الذمي بدار الحرب⁵، ولو نقض بعض أهل الذمة، لم ينتقض عهد الباقيين، بخلاف الهدنة⁶.

فمن خلال ما سبق يتبين أن أهل الذمة والمعاهدين في دار الإسلام ملتزمون بأحكام الإسلام، وإذا بدر منهم ما يضر بالإسلام والمسلمين، كترويج الشائعات، أو إشاعة ما يؤدي إلى فساد المجتمع، وإلحاق الضرر به؛ يعاقبون كما يعاقب غيرهم من أهل الإسلام. وهذه هي قمة العدالة في الإسلام وشرعيته.

¹ معاملة غير المسلمين في دار الإسلام، إبراهيم سليمان عيسى، ص 140 وما بعدها، ط 1، دار المنار، القاهرة، 1994.

² الخراج، أبو يوسف، ص 72.

³ معاملة غير المسلمين في دار الإسلام، إبراهيم سليمان عيسى، ص 150.

⁴ السنن الكبرى، البيهقي، ج 9، ص 205، حديث رقم 19201، باب لَا يَأْخُذُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ثَمَارِ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلَا أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا بغيرِ أَمْرِهِمْ إِذَا أُعْطُوا مَا عَلَيْهِمْ.

⁵ تحفة الملوك، محمد الرازي، ت: عبد الله نذير أحمد، ج 1، ص 191، ط 1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1417هـ.

⁶ المغني، ابن قدامة، ج 9، ص 240.

المطلب الثاني: الحرب النفسية الواقعة على العدو

سأتطرق في هذا المطلب إلى بيان بعض ممارسات المسلمين للحرب النفسية في صدر الإسلام الأول، وكيف مارس المسلمون الحرب النفسية ضد كل من كفار قريش والمنافقين واليهود وغيرهم مع الاستدلال بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك بهدف إيضاح مشروعية الحرب النفسية الواقعة على العدو، وأيضاً بهذه إيضاح أهمية الحرب النفسية بالنسبة للمقاتل، كما أبين كل ذلك لمن أغفل دور المسلمين واستخدامهم الحرب النفسية منذ القدم¹.

لقد نظم الإسلام كافة أمور الحياة دينا ودنيا، فقد عالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية، ووضع خير المناهج والمبادئ لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وأساليب إدارتها وقوانينها وآدابها. والعسكرية الإسلامية تمثل جانبا رائدا من الحضارة الإسلامية، فلولا الله عز وجل ثم جهاد المسلمين الأوائل واسترخاصهم المال والنفس والولد في سبيل الله، لما تحقق للمسلمين ما تحقق من فتوحات عظيمة، ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور.

وبعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - من وجهة النظر الفنية للاستراتيجية العسكرية الإسلامية - الوثيقة الاستراتيجية الأساسية التي تشقي منها العقيدة العسكرية الإسلامية، ذات الطابع السلمي الدفاعي التي تتسم بالرحمة والعدل، لأن الإسلام رسالة الحق والخير والعدل والمحبة والسلام، وقد ارتضاه الله دينا لتوجيه الناس إلى الطريق المستقيم وإلى الهداية والخير، ليصلوا إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

وينظر الإسلام إلى الإنسانية عامة نظرة تكريم واحترام، ويضع من القواعد والأصول والأحكام ما يصون لكل كرامته الآدمية وحقوقه في الحياة، فالعدل والرحمة والمساواة في الحقوق والواجبات أمور يفرضها الله لجميع الناس ما لم يكن منهم اعتداء وخروج على حدود الله، وكرامة الإنسان حق ذكره الله في كتابه².

¹ مما يؤسف له أنه عند استعراض تاريخ الحرب النفسية في الكتب الأجنبية لا نجد فيها أية إشارة لممارسة المسلمين للحرب النفسية، وذلك إما لجهل الكتاب الأجانب بثقافة وتاريخ المسلمين، وهذا محال وإما لتعصبهم الأعمى ضد المسلمين، وهذا هو حالهم.

² المدخل إلى العقيدة الإسلامية، محمد جمال محفوظ، ص 34.

والجهاد في سبيل الله جوهر العقيدة الإسلامية العسكرية، لأنه يصون هذا الدين، والجهاد دعوة في سبيل الله لنشر عبادته في الكون، فالجهاد في الإسلام يلجأ إليه عند وجود قتال من عدو، وباعثه رد على العدوان والمحافظة على أرض الإسلام وعلى جماعة المسلمين، كما أنه قتال لإعلاء كلمة الله بإزاحة من يقفون عقبة ضد الدعوة الإسلامية، لتكون كلمة الله هي العليا، وتسود مبادئ الإسلام من عدل وخير وفضيلة في جميع أنحاء الأرض، وكل هذا وارد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" ¹.

وقال تبارك وتعالى: "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ" ².

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالسِّتِينَ)) ³.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ...)) ⁴.

وإنَّ من الحرب النفسية المشروعة نذكر: الجهاد باللسان، الخداع في الحرب، زرع الرعب في قلوب الأعداء، تحييد القوى وحرمان العدو من محالفتها، ويمكن تفصيل كل ذلك فيما يأتي:

¹ سورة الإسراء، الآية 70.

² سورة الحج، الآية 76.

³ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، ج2، ص318، حديث رقم 2506، باب كراهية ترك الغزو.

⁴ صحيح البخاري، البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، ج3، ص1026، حديث رقم 2634، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله.

الفرع الأول: الجهاد باللسان

قال رسول الله ﷺ: ((اهْجُوا بِالشَّعْرِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ كَأَنَّمَا يَنْضَحُوهُمْ بِالنَّبْلِ))¹.

وبدل هذا الحديث على أن الجهاد باللسان لا يفل أهمية ولا أثرا عن الجهاد بالنفس والمال، بل قد يكون أشد أثرا على الأعداء من القتال، وهو واحد من أساليب جهاد الأعداء من القتال، وهو واحد من أساليب جهاد الأعداء، وذلك بإقامة الحجة عليهم، ودعائهم إلى الله تعالى، ورفع الصوت عند اللقاء، ويزجهم ترويعا لهم، ونحو ذلك من كل ما فيه نكاية للعدو.

قال تعالى: "مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"  " ².

الفرع الثاني: الخداع في الحرب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِيَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَرْبُ خَدْعَةً³.

حدثنا صدقة بن الفضل أخبرنا بن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: ((الْحَرْبُ خَدْعَةٌ))⁴.

والخداع في الحرب أن يظهر أنه لا يقصد الحرب وهو يعد لها العدة، وأن يظهر بأنه يقصد إلى الهجوم من جهة وهو يتجه إلى غيرها، وأن يعمل جاهدا على إيقاع الفرقة والخلاف والنزاع بين أفراد الجيش الذي يحاربه، وأن يظهر سلاحا معينا ويخفي الأسلحة الأخرى الفعالة والخطيرة، وأن يكذب

¹ مسند أحمد، أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، ج25، ص87، حديث رقم 15796.

² سورة التوبة، الآية 121.

³ صحيح البخاري، البخاري، ج3، ص1102، حديث رقم 2864، باب الحرب خدعة.

⁴ صحيح مسلم، مسلم، ت: محمد عبد الباقي، ج3، ص1361، حديث رقم 1739، باب جواز الخداع في الحرب.

على الأعداء حتى يوقعهم في مكيدة المعركة، ويخفي كل ما يستطيع من معلومات عن الأعداء حتى لا يستفيدوا من أي معلومة قد تكون في صالحهم¹.

وبما أن الحرب خدعة، والرسول ﷺ وجه بعض جنده للتخذيّل عن جيش المسلمين، ولإضعاف العدو وزرع الفرقة والفتنة في صفوفهم، فيمكن استخدام بعض الوسائل الحديثة كنشر الإشاعة أو الدعاية بين الأعداء، أو التضليل الإعلامي بقصد بعثرة جمع العدو. والدليل على ذلك أنه لما جاء نعيم بن مسعود رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ مسلماً، قال: إني أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف التصدع الخفي في صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه، ويوسع شقته ويستغله لجانبه، فقال رضي الله عنه لنعيم بن مسعود: ((إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا الْحَرْبُ خَدْعَةٌ))². فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً³ في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، قال لهم: أن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبنائكم ونساؤكم، لا تقدرّون على أن تحلوا منه إلى غيره، وأن قريشا وغطفن قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهروهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نخزة أصابوها. وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به أن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، يكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تنجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم رجع حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمراً قد رأيت علي حقاً أن أبلغكم، نصحا لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: أنا قد ندمنا

¹ الإشاعة، مصطفى الدباغ، ص298.

² دلائل النبوة، البيهقي، ج3، ص445، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

³ نديماً: وضع للزوم ومنه سمي النديم نديماً لأنه يلازم المجلس. انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ج11، ص166.

على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالا من أشrafهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم أن نعم: فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا. ثم خرج حتى أتى غطفان إنكم أصلي وعشيري، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكموا عني. قالوا: فما أمرك. ثم قال لهم ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمسة للهجرة، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر¹. فاغدوا للقتال حتى نناجز مُجَدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم أن يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليهم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم مُجَدًا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز مُجَدًا، فإننا نخشى أن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش غطفان: والله وأن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق²، فأرسلوا إلى بني قريظة:

إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقاتل بنو قريظة، فقالت حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم ابن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم. وخلوا بينكن وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا على قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم مُجَدًا حتى تعطونا رهنا، فأبوا عليهم. وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم ريحا عاصفا في ليل شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنتهم³.

¹ الخف والحافر: كناية على الخيل والإبل.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ت: طه سعد، ج3، ص207-209، ط1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ.

³ المرجع نفسه، ج3، ص209.

قال الله تعالى " وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَةَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيفًا تَفْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ بَرِيفًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْغُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ " ¹.

وبذلك هزم الله الأحزاب ونصر المسلمين وكفاهم شر القتال.

من هذا الذي سبق يتبين لنا أهمية الخداع في الحرب، ولذلك أجازته الإسلام (واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب، وكيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل) ².

قال الله تعالى: "وَأَمَّا تَخَابَسٌ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً بَأْيُذٍ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٤٨﴾ " ³.

يأمر الله نبيه ﷺ أنه إذا كان بينه وبين قوم عهدا، فظهر منهم أمارات الغدر والخيانة ولم يصرحوا بذلك، يأمره أن يلقي إليهم عهدهم، ويرده عليهم، ويعلمهم بأنه إذا فسخ العهد الذي بينه وبينهم، حتى يصير هو وهم على سواء في العلم بأنه محاربهم، فيأخذوا للحرب آلتها، ويبرأ هو من الخيانة، فالله لا يحب الخائنين، بل يبغضهم أشد البغض، حتى ولو في حق الكفار ⁴.

ولقد جاءت الأحاديث الكثيرة في التحذير من الغدر، وذم فاعليه، والوعيد عليه، فعن أبي سعد قال: قل رسول الله ﷺ: ((لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ ⁵ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَّةٍ)) ⁶.

¹ سورة الأحزاب، الآيات 25-27.

² شرح صحيح مسلم، النووي، ج 12، ص 45.

³ سورة الأنفال، الآية 59

⁴ جامع البيان، الطبري، ج 14، ص 25. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 7، ص 107. تيسير الكريم الرحمان، عبد الرحمان السعدي، ص 324.

⁵ لواء: أي علامة يشهر بها في الناس. انظر: شرح صحيح مسلم، المرجع نفسه، ج 2، ص 43.

⁶ صحيح مسلم، مسلم، ج 3، ص 1361، حديث رقم 1737، باب تحريم الغدر.

لقد دل هذا الحديث على غلظ تحريم الغدر، وأن من عقوبة الغادر يوم القيامة أن ترفع له علامة بقدر غدره، كي يفصح أمام الخلائق، فالغدر قبيح محرم لا سيما في معاهدة العدو، (وقد يكون تعظيمه لغدر أمير العامة، لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته وسلطانه على الوفاء، كما عظم في حقه الكذب)¹.

إن النبي ﷺ قد أكثر من استخدام أسلوب الخداع في الحرب مما يثبت مشروعيته، ومن ذلك: اعتماده الثورية إذا أراد الغزو. حتى كان لا يغزو غزوة إلا وري بغيرها، والثورية في الحرب هي: أخذ العدو على غرة².

قال كعب بن مالك: ... ولم يكن رسول الله ﷺ يرد غزوة إلا وري بغيرها...³

ولقد جاءت السنة بأمثلة على تورية النبي ﷺ منها أنه لما عزم على فتح مكة وجه سرية إلى بطن إضم بقيادة أبي قتادة، وذلك زيادة في تعمية الأخبار عن أهل مكة، ولضمان تمام عامل المفاجأة والمباغنة. فعن عبد الله بن أبي حذر قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم في نفر من المسلمين، فهم أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومعلم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم⁴ مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي...⁵

زاد الطبري في روايته لهذا الحديث: فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم - وكانت قبل الفتح-⁶

قال ابن سعد: (قالوا: لما هم رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة، بعث أبو قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم... ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية)⁷.

¹ إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، أبو الفضل عياض، ج6، ص20.

² فتح الباري، ابن حجر، ج6، ص113.

³ صحيح البخاري، البخاري، ج4، ص1603، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل: " وعلى الثلاثة الذين خلفوا".

⁴ إضم: ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمينية. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج1، ص2014.

⁵ السيرة النبوية، ابن هشام، ج6، ص38. مسند أحمد، أحمد، ج6، ص11. السنن الكبرى، البيهقي، باب المشركين يسلمون قبل الأسر، ج9، ص115.

⁶ تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ج2، ص148.

⁷ الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج2، ص133.

ومن ذلك أنه ﷺ لما أراد غزو خيبر توجه نحو غطفان وكانوا حلفاء يهود خيبر.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر... نزل بواد يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر - وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ - قال ابن إسحاق: فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة¹ سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر².

لقد أصاب النبي ﷺ بهذه الخدعة أكثر من هدف، أولها أنه خدع خيبر فباغتهم، وثانيها أنه أشغل غطفان بأنفسهم فلم يفرزوا لنصرة حلفائهم من يهود خيبر، فخلوا بينه وبينهم، وأيضا فقد قطع الطريق عليهم فلا يستطيعون إمدادهم لا بعدة ولا بعتاد.

ومن الخداع الذي استخدمه النبي ﷺ في حربه ضد المشركين التعريض أو المعارض، والمعارض هي: (أن يتكلم الرجل بكلام جائز، يقصد به معنى صحيحا، ويتوهم غيره أنه قصد به معنى آخر)³.

ومن أمثلة ذلك ما فعله النبي ﷺ لما ركب هو وأبو بكر ليستطلع أخبار قريش، بعدما نزل بأصحابه قريبا من بدر، قال ابن إسحاق: ... حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشا قد خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقي، فهم بمكان

¹ المنقلة: المرحلة من مراحل السفر. لسان العرب، ابن منظور، ج6، ص4530.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج4، ص299-300.

³ الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ت: محمد ومصطفى عطا، ج6، ص120، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

كذا وكذا- للمكان الذي فيه قريش-، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: ((نحنُ مِنْ مَاءٍ)) ثم انصرف عنه، قال يقول: ما من ماء؟! أمن ماء العراق؟¹!

لقد سأل الرجل النبي ﷺ ممن أنتم، يعني بذلك من أي قبيلة، فأجابه النبي ﷺ بأنهم من ماء - يقصد أنهما خلقا من ماء- كما قال الله تعالى: "...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ..."².

وبهذه الخدعة حصل النبي ﷺ على ما يريد من أخبار قريش، دون أن يكشف عن حقيقته هو ومن معه.

ولما كان للخداع هذا القدر، وهذه الأهمية في الحرب، فإن الإسلام لم يقتصر على إجازة ما هو من باب المعارض والتمويه فقط، بل أجاز الكذب الصريح في الحرب إذا كان من باب الخداع، مادام لا يشتمل على نقض عهد، ولا إخلال بأمان. فعن حميد بن عبد الرحمان بن عوف، أن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط- وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن النبي ﷺ - أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: ((لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا))، قال ابن شهاب: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها³.

ولقد أذن النبي ﷺ للحجاج بن علاط، رضي الله عنه أن يقول ما شاء، ليسترجع ماله من أهل مكة، ومقتضى ذلك أنه لو احتاج للكذب فلا جناح عليه. فعن أنس بن مالك قال: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله، إن لي بمكة مالا، وإن لي بها أهلا، وإنني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك، فأذن له رسول الله ﷺ على أن يقول ما شاء⁴.

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص163.

² سورة الأنبياء، الآية 30.

³ صحيح مسلم، مسلم، ج4، ص2011، حديث رقم 2605، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه. صحيح البخاري، البخاري، ج2، ص958، حديث رقم 2546، باب ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس.

⁴ مسند أحمد، أحمد، ج19، ص400. السنن الكبرى، النسائي، ج6، ص215. المعجم الكبير، الطبراني، ج3، ص220.

قال ابن العربي: (الكذب في الحرب مستثنى الجائز بالنص وفقا بالمسلمين لحاجتهم إليه، وليس للعقل فيه مجال، ولو كان تحريم الكذب بالعقل ما انقلب حالاً)¹، وقال ابن حجر - بعد أن نقل قول ابن العربي - (ويقويه ما أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أنس في قصة الحجاج بن علاط الذي أخرجه النسائي وصححه الحاكم في استئذانه النبي ﷺ أن يقول عنه ما شاء لمصلحته في استخلاص ماله من أهل مكة، وأذن له النبي ﷺ، وإخباره لأهل مكة أن أهل خير هزموا المسلمين، وغير ذلك مما هو مشهور فيه)².

تبين لنا مما سبق أن تأثير الخداع في الحرب لا يقل أهمية عن تأثير السلاح، بل قد يكون تأثيره أعظم، وأكبر، بلف إن الحروب تعتمد اعتماداً أساسياً على الخداع، فلما كان الخداع لا يستغنى عنه في الحرب كان جائزاً في الإسلام لكن بضوابط، بينما يستخدمه الكفار دون ضابط، ولا خلق، فهم لا يتنزهون عن قبيح الأخلاق من غدر وخيانة، لا في حرب ولا في سلم.

الفرع الثالث: إثارة الرعب والتخويف في قلوب الأعداء

الرعب من أعظم الأسلحة النفسية في المعارك، فإن إثارة الرعب في نفوس الجنود يفقدهم الثقة في قوتهم وأسلحتهم وتجعلهم عاجزين عن اتخاذ القرار الصائب، وإذا تمكن الخوف من نفوس الجند، غدا السلاح الذي في أيديهم لا قيمة له. ولذلك أمر الله المؤمنين بإعداد ما يرهبون به أعداءهم من الكفار، قال الله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ..."³.

قال سيد قطب: (فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله، الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض، الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون، ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة)⁴، (وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع

¹ فتح الباري، ابن حجر، ج6، ص159.

² المرجع نفسه، ج6، ص159.

³ سورة الأنفال، الآية 60.

⁴ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج3، ج10، ص1544، ط12، دار الشروق، القاهرة، 1986.

الأسلحة والآلات خافوهم، وذلك الخوف يفيد أمورا كثيرة: أولها: أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام، وثانيها: أنه إذا اشتد خوفهم فرما التزموا من عند أنفسهم جزية. وثالثها: أنه ربما صار ذلك داعيا لهم إلى الإيمان. ورابعها: أنهم لا يعينون سائر الكفار. وخامسها: أن يصير ذلك سببا لمزيد الزينة في دار الإسلام¹.

والرعب هو أحد جنود الله في المعارك، هو الجندي الذي أيد الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، ونصره ومن معه من المؤمنين في معاركهم. فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...))².

لقد اختص النبي ﷺ بالنصر بالرعب ولو كان بينه وبين عدوه مسافة شهر، فإذا هم النبي الصلاة والسلام بغزو قوم كذب الله في قلوبهم الرعب، فتفرقوا وتبعثر جمعهم، وإن قاتلوا لم يثبتوا للقائه ولا لمقاتلته حتى يفروا هاربين منهزمين. (وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق، حتى لو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمتة من بعده؟ فيه احتمال)³.

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد نصر نبيه ﷺ بالرعب، فإن ذلك لم يمنعه ﷺ من الأخذ بالأسباب التي تزيد في الرعب في نفوس أعدائه، ومن ذلك أنه لما عسكر قرب مكة أمر المسلمين أن يوقدوا النار وذلك ليراهم القرشيون فيدب الرعب في قلوبهم. فعن عروة بن الزبير قال: لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفَتْحِ فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ⁴، فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرْفَةَ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ مَا هَذِهِ لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرْفَةَ فَقَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ نِيرَانُ بَنِي عَمْرِو فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ عَمَرُو أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ فَرَأَاهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذْرَكُوهُمْ فَأَخَذُوهُمْ فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا سَارَ قَالَ لِلْعَبَّاسِ احْبِسْ أَبَا

¹ مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ج 15، ص 148، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.

² صحيح البخاري، البخاري، ج 1، ص 168، حديث رقم 427، باب قول النبي: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا.

³ فتح الباري، ابن حجر، ج 1، ص 437.

⁴ مر الظهران: واد قرب مكة، انظر: الأماكن ما اتفق لفظه وافترق مسماه، ص 649.

سُفْيَانٌ عِنْدَ حَظْمِ الْخَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ فَمَرَّتْ كَتِيبَةً قَالَ يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ قَالَ هَذِهِ غِفَارُ قَالَ مَا لِي وَلِغِفَارٍ ثُمَّ مَرَّتْ جُهِينَةُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ وَمَرَّتْ سُلَيْمٌ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةً لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَالَ مَنْ هَذِهِ قَالَ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَعَهُ الرَّايَةُ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَا عَبَّاسُ حَبَدًا يَوْمَ الدِّمَارِ ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةً وَهِيَ أَقْلُ الْكَتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ وَرَايَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ مَا قَالَ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ كَذَبَ سَعْدُ وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعْظِمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ قَالَ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُرَكَّزَ رَايَتُهُ بِالْحُجُونِ قَالَ غُرُورُهُ وَأَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ جُبَيْرٍ بْنُ مُطْعِمٍ قَالَ سَمِعْتُ الْعَبَّاسَ يَقُولُ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَا هُنَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُرَكَّزَ الرَّايَةُ قَالَ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ مِنْ كَدَاءٍ وَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَدَاءٍ فُقُتِلَ مِنْ خَيْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ رَجُلَانِ حُبَيْشُ بْنُ الْأَشْعَرِ وَكُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفَهْرِيُّ¹.

زاد ابن عباس في حديثه، أن أبا سفيان قال: ما لأحد بمؤلاء قبل، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، قال قلت: قال: قُلْتُ: وَيْلَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ إِنَّهَا النُّبُوءَةُ قَالَ: فَتَعَمَّ، قَالَ: قُلْتُ التَّجِيُّ إِلَى قَوْمِكَ اخْرُجْ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ فِيمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ هُنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَأَخَذَتْ شَارِبَهُ فَقَالَتْ: اقْتُلُوا الْحَمِيَّتَ الدَّسَمَ فَبُئْسَ طَلِيعَةُ قَوْمٍ، قَالَ: وَيْلَكُمْ لَا تَعْرَنُكُمْ هَذِهِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ...²

لقد أفرغت النار أبا سفيان ومن معه، ودب الرعب في قلوبهم، حتى ذهب أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصحبة العباس، يطلب الأمان لنفسه ولقومه، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد

¹ صحيح البخاري، البخاري، ج4، ص1559، حديث رقم 4030، باب أين ركز النبي ﷺ الراية.

² سبق تخريجه.

أن يقضي على البقية الباقية من الروح المعنوية لدى أبي سفيان وذلك بعرض كتائب المسلمين عليه، تمر أمامه، فكلما مرت كتيبة ازداد رعبا وخوفا.

رجع أبو سفيان بعد هذه الحرب النفسية وقد انهارت روحه المعنوية، بل رجع إلى قريش يشن عليه حربا نفسية، وهذا يدل على مدى تأثيره بما رأى، وشدة أثر الرعب في نفسه.

وفعلا أدى هذا الإجراء النبوي الحكيم لتحقيق ما قصد منه حيث عاد أبو سفيان إلى قومه ملحا عليهم بأن يلقوا بأسلحتهم ويستسلموا للجيش الزاحف دون مقاومة، لأهم لا قبل لهم بما رأى، وفعلا استجاب أهل مكة لنداءات أبي سفيان بإلقائهم السلاح¹.

الفرع الرابع: الحصار وقطع المؤونة عن العدو

لا شك أن الحصار يسبب ضغطا كبيرا على نفوس المحاربين، فالإنسان لا يستطيع الحياة دون طعام أو ماء، وإن القيام بحصار يعني انقطاع هذه الأساسيات، وهذا يؤدي إلى القلق والإحباط، هذا ما يوقعه في نفوس المحاصرين من خوف ورعب، فينتج عن ذلك التشييط، وإحباط المعنويات، وهذه هي الهزيمة النفسية.

وأردت بداية أن أتكلم عن أصحاب الإيمان الصادق، والعقيدة الراسخة، الذين بذلوا الأموال والأنفس والمهج في سبيل الله وما فعله حصار كفار قريش بهم. لأصل إلى نتيجة حتمية وهي: إذا كان هذا حال من اختار الله إلى جانب رسول الله ﷺ فكيف يكون حال من لا إيمان له إذا حوصر؟!

إن الأحزاب لما تحزبوا وأتوا المدينة لغزوها وجدوا الخندق يحيط بالمدينة من جهاتها الثلاث، فحاصروا المدينة من فوقها، وكان من أسفل منها يهود بني قريظة الذين (نقضوا العهد، ومالئوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب، واشتد الأمر، وضاق الحال)². وأحيط بالمدينة من كل مكان، فكان الأمر كما وصف الله تبارك الله وتعالى: "إِذْ جَاءَوكُمْ مِّنْ بَوْفِكُمْ مِّنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ رَاغَبِ الْأَبْصَارِ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَاسُّوْنَ بِاللَّهِ الْإِسْنُونَ ﴿١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٢﴾" ³.

¹ الحرب النفسية في صدر الإسلام، محمد بن مخلف المخلف، ص 443.

² تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 11، ص 123.

³ سورة الأحزاب، الآية 10-11.

قال العز بن عبد السلام (ابتلي المؤمنون: بالحصار، أو الجوع، أصابهم بالخندق جوع شديد، أو امتحنوا بالصبر على إيمانهم)¹.

لقد بلغت بهم شدة الجوع أن أصابتهم مجاعة، حتى إن النبي ﷺ شد على بطنه حجرا.

فعن جابر رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفره، فعرضت كدية² شديدة، فجاءوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال ((أنا نازل)) ثم قام- وبطنه معصوب بحجر-، ولبثنا ثلاثة أيام لا ندوق ذوقا... فإن الناس أصابتهم مجاعة³.

أما الخوف فقد بلغ منهم مبلغه، وعمل عمله. لقد طلب النبي ﷺ منهم- وهم الصحابة- أن يذهب أحدهم فيأتي بأخبار المشركين، فما قام منهم أحد. فعن يزيد بن شريك التيمي، قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر⁴، فقال رسول الله ﷺ: ((أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: ((قُمْ يَا حَذِيفَةُ فَأَتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ))، فَلَمْ أَحِدٌ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِإِسْمِي أَنْ أَقُومَ.....⁵

لقد كان من شدة توقير لهم للنبي ﷺ وتعظيمهم إياه، أنه كان إذا أمرهم ابتدروا أمره، لكن هذا النبي ﷺ يطلب أن يذهب أحدهم ليأتي بأخبار المشركين فما قام أحد، بل يضمن لمن يذهب أن يرجع سالما، ثم يكون معه في الجنة فما قام أحد. وكرر الأمر فما قام أحد، بل بلغ بهم الخوف أن الواحد منهم لا يأمن على نفسه لو أراد أن يذهب لقضاء حاجته⁶، فكيف إذا أراد الذهاب إلى الأعداء بنفسه.

¹ تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، ت: عبد الله الوهي، ج1، ص895، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1996.

² الكدية: قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها الفأس. انظر: النهاية في غريب الحديث، الجزري، ج7، 239.

³ صحيح البخاري، البخاري، ج4، ص1505، حديث رقم 3876، باب غزوة الأحزاب.

⁴ يوم قر: يوم بارد. انظر: النهاية في غريب الحديث، المرجع نفسه، ج7، ص55.

⁵ صحيح مسلم، مسلم، ج3، ص1414، حديث رقم 178، باب غزوة الأحزاب.

⁶ دلائل النبوة، البهقي، ج3، ص435.

بعد هذا العرض الموجز أظن أن الإجابة باتت واضحة على السؤال المطروح آنفا: كيف يكون حال من لا إيمان له إذا ما حوَصِر؟ إذا كان هذا حال صحابة رسول الله ﷺ. ولا بأس الآن باستعراض أسلوب الحصار العسكري والاقتصادي الذي استخدمه رسول الله ﷺ من أجل تحقيق الأهداف المرجوة بأقل الأثمان، وتبياناً لمشروعيتها مادامت واقعة على العدو، ومن ذلك حصاره ليهود خيبر، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا... فأتينا خيبر فحاصرناهم...¹

لقد حاصر النبي ﷺ وأصحابه الكرام حصون خيبر حصنا حصنا حتى فتحها الله عليهم. وحاصر النبي ﷺ بني قريظة شهرا أو خمسا وعشرون يوما حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه. فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: خرجت يوم الخندق... وجعل سعد يقول: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة- وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية-، وكانوا ظاهروا المشركين على رسول الله ﷺ، "وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا"² فرجع رسول الله ﷺ، فضرب قبة على سعد في المسجد، فوضع المسلمون السلاح، ووضع سلاحه، فجاءه جبريل فقال: ((يا مُحَمَّدُ وضعت سلاحك، ولم تضع الملائكة أسلحتهم بعد! أخرج فقاتلهم))، فأمر رسول الله ﷺ بلامته- يعني: - الدرع - فلبسها، ثم خرج وخرج المسلمون معه، فمر ببني غنم، فقال: ((من مَرَّ بكم؟)) فقالوا: دحية الكلبي - وكان وجهه يشبه وجه جبريل ولحيته-، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليهم، وسعد في القبة التي ضرب رسول الله ﷺ، فحاصرهم شهرا أو خمسا وعشرين ليلة، فاشتد عليهم الحصار، فقيل لهم انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأشار أبو لبابة بن عبد المنذر إلى حلقه أنه الذبح، فقالوا: يا رسول الله، نزل على حكم سعد بن معاذ قال فانزلوا فنزلوا...³

¹ صحيح البخاري، البخاري، ج4، ص1537، حديث رقم 3960، باب غزوة خيبر.

² سورة الأحزاب، الآية 25.

³ مسند إسحاق بن راهويه، إسحاق بن راهويه، ت: عبد الغفور البلوشي، ج2، ص544، ط1، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، 1991.

المبحث الثاني: الحرب النفسية المجرمة وأركانها في الفقه الإسلامي

تفيد الدراسات والبحوث المتعددة التي أجراها الكثير من الباحثين، أن الحرب النفسية قادرة على تفتيت وتشتيت الصف الواحد والرأي الواحد وبعثرته، لأن الناس أمامها بين مصدق ومكذب حتى يصبح المجتمع بينها ممزقا ومتفرقا وأمن الدولة مهددا، والفئة الواحدة تصبح فئات متعددة.

والأخطر من ذلك أن العدو أو أعوانه من الجواسيس والخونة هم الذين يختلقون هذه الحرب النفسية، ثم يتلقاها ويروج لها مواطنون صالحون استخفت هذه الإشاعات والدعايات بعقولهم، فانجذبوا إليها وانساقوا أمامها حتى أصبحوا أدوات في ترديدها ونشرها، دون أن يدركوا أنهم كانوا صيدا سهلا، فوقعوا فريسة لأشد أنواع الحروب مكرًا ودهاء.

المطلب الأول: الحرب النفسية المجرمة في الفقه الإسلامي

لقد ربي الإسلام أتباعه على فضل الخيرات والبعد عن الشرور والمحرمات، قال تعالى: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ " ¹

كما فرض ديننا الحنيف على كل مسلم أن يحفظ لسانه عن الباطل أو أمره ألا يتكلم فيما لا يعلم، قال تعالى: " وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا " ².

وقال قتادة في تفسير هذه الآية الكريمة: (لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله) ³.

¹ سورة آل عمران، الآية 110.

² سورة الإسراء، الآية 36.

³ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج3، ص40.

من هذا المنطلق وقف الإسلام موقفا حازما من الحرب النفسية التي تسقط كيان الدولة وتهدد سلامة ترابها، وحرم كل الأفعال التي من شأنها أن تضرب المصلحة العليا للدولة، وسنذكر في هذا المطلب أنواعا من الحرب النفسية المحرمة على سبيل المثال لا الحصر. كما سنتطرق إلى أركان جريمة الحرب النفسية

الفرع الأول: الحرب النفسية داخل المجتمع الإسلامي

البند الأول: الإشاعة المغرضة

منذ أن جهر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله، وعالن قومه بضلال ورثوه عن آباءهم، قرّر المشركون ألا يألوا جهدا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه¹. وانفجرت مكة بمشاعر الغضب، وظلت عشرة أعوام تعدّ المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، وصاحب كل ذلك حرب عاتية من الشائعات المغرضة، والسخرية والتحقير، لتخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، وتحطيم نفسياتهم. وفي المدينة حيث كثر عدد المسلمين، فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والمخاتلة وترويج الشائعات، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهرا، وقلوبهم تغلي حقدا وكفرا، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي سلول العوفي².

إنّ من أبرز النماذج حول خطورة الشائعات المغرضة، وتهديدها لكيان الدولة الإسلامية، معركة أحد، وعليه سوف نستعرض ما حصل يومذاك بشيء من التفصيل.

كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال³ سنة ثلاث من الهجرة.

وكانت واقعة أحد من أهم الوقائع الإسلامية الحربية التي عاش المسلمون فيها حالة النصر، كأفضل ما يكون النصر، ثم حولوها إلى هزيمة بفعل الممارسات الخاطئة، التي انحرف فيها الكثير من المقاتلين عن الهدف الذي يفرض عليهم الانضباط، فيما تقتضيه خطة الحرب من مواقع ومواقف⁴.

¹ فقه السيرة، مُجد الغزالي، ص256، ط7، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976.

² المرجع نفسه، ص257.

³ السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص10.

⁴ من وحي القرآن، مُجد حسين فضل الله، 105، ط1، دار الزهراء، بيروت، 1981.

وهنا يمكن القول: إنّ غزوة أحد لم تكن معركة في الميدان وحده، إنّما كانت معركة كذلك في الضمير. كانت معركة ميدانها أوسع الميادين؛ لأنه ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانباً واحداً من ميدانها الهائل الذي دارت فيه، ميدان النفس البشرية، وتصوراتها ومشاعرها، وأطماعها وشهواتها، ودوافعها وكوابحها على العموم، وكان القرآن هناك يعالج هذه النفس بالطف وأعمق، وبأفضل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزال¹.

وكانت موقعة أحد فرصة سانحة، لكي يعالج القرآن فيها كثيراً من الجوانب الإنسانية المتحركة في المعركة، ويثير كثيراً من الأجواء بكل ما حفلت به المعركة من نقاط الضعف والقوة لتثير في وعي المسلمين الكثير من المفاهيم الإسلامية المتعلقة بحركة المعركة وموقع القيادة في خط السير، ومدى تأثير وجودها وغياها في الموضوع الالتزام بالمسيرة، والاستمرار على المبدأ، ويتابع المسلمين في المعركة وهم يتأملون ويخالفون ويندفعون ويواجهون الأعداء وينهزمون أمامهم، ولا حظ كيف تتحكم بهم جوانب الضعف البشري، ووقف معهم ليدفعهم إلى مواجهتها بشجاعة المؤمن الذي يعترف بها بصراحة، في محاولة لتحويلها إلى نقاط قوة بالجهد والإيمان والمعاناة، وأعطانا درساً عملياً في التأكيد على الجانب السلبي في الشخصية التاريخية بالقوة نفسها التي تؤكد على الجانب الإيجابي فيها، على أساس الواقعة الإنسانية في الإنسان، وعدم إغفال الضعف في التجربة الحية، بحجة أن ذلك يسيء إلى قداسة التاريخ وعظمة أبطاله².

وكانت هذه الحصيلة الضخمة التي استقرت في الجماعة المسلمة، من وراء الأحداث، ومن وراء التوجيهات القرآنية بعد الأحداث أكبر وأخطر، بما لا يقاس في حصيلة النصر والغنيمة، ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ما لم يتم هذا كله على أساس المنهج الرباني، في الانتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة، وتقرير الحق الذي

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 1، ج 4، ص 457.

² من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، ص 163-165.

أراد الله في حياة الناس، ليكون كل جهد في سبيل الله ومنهج الله، وإلا فهي جاهلية، تنتصر على جاهلية¹.

ومن بين جوانب المعركة، تبرز الإشاعة كأحد أخطر الأسلحة التي استخدمها المشركون ضد المسلمين.

ولو قدر لتلك الإشاعة أن تحقق كامل أهدافها لمني المسلمون بهزيمة مروعة، ولهددت دولة الإسلام الفتية يومذاك من الأساس.

والمسألة باختصار شديد:

كانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار، حيث قتل من هؤلاء سبعون من صناديدهم وأنهم أعداء الله وولّوا مدبرين. حتى انتهوا إلى نسائهم. وحتى شمّرت النساء ثيابهن عن أرجلهن هاربات! فلما رأى الرماة هزيمة المشركين وانكشافهم، تركوا مراكزهم التي أمرهم رسول الله ﷺ ألا يرحوها، وقالوا: الغنيمة، الغنيمة! فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة! فذهبوا في طلب الغنيمة، وأدخلوا الثغر في أحد!

عندئذ أدركها خالد ابن الوليد فكّر في خيل المشركين، فوجدوا الثغرة خاليا فاحتلوه من خلف ظهر المسلمين. وأقبل المنهزمون من المشركين حين رأوا خالدا والفرسان قد علوا المسلمين، فأحاطوا بهم!

وانقلبت المعركة، فدارت الدائرة على المسلمين، ووقع الهرج والمرج في الصف، واستولى الاضطراب والذعر، لهول المفاجأة التي لم يتوقعها أحد، وكثر القتل واستشهد من المسلمين من كتب الله له الشهادة.

وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ، وقد أفرد إلا من نفر يعدون على الأصابع، قاتلوا عنه حتى قتلوا، وقد جرح وجهه ﷺ، وكسرت سنه الرباعية اليمنى في الفك الأسفل، وهشمت البيضة على رأسه، ورماه المشركون بالحجارة حتى وقع لجنبه، وسقط في حفرة من الحفر، التي كان أبو عامر الفاسق قد حفرها وغطاها! يكيد بها للمسلمين، وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 1، ج 4، ص 458 وما بعدها.

وفي وسط هذا الهول المحيط بالمسلمين صاح صائح: أن مُحمَّدًا قتل! فكانت الطامة التي هدت ما بقي من قواهم، فانقلبوا على أعقابهم مهزومين هزيمة منكرة، لا يحاولون قتالا، مما أصابهم من اليأس والكلال¹.

قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، ومجاهد: إنا لما أرجف بأن النبي ﷺ قتل يوم أحد وأشيع ذلك، قال ناس: لو كان نبيا ما قتل، وقال آخرون: نقاتل على ما قاتل عليه حتى نلحق به².

وحدثت البلبلة والارتباك، وانكفأ الناس عن النبي ﷺ وما بقي معه إلا قليل، وقال البعض: ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان! وقال آخرون: لو كان مُحمَّدًا نبيا لما قتل، الحقوا بدينكم الأول، كما يروي المؤرخون ذلك وغيره، في الخط السلبي للقضية.

أما في الخط الإيجابي الذي يمثل الثبات على الإسلام، حتى في غياب الرسول القائد، فتمثله لنا القصة التي ينقلها الطبري في تفسيره: إن رجلا من المهاجرين مرّ برجل من الأنصار يتشحط في دمه، فقال للأنصاري أعلمت أن مُحمَّدًا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان مُحمَّدٌ قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

وفي رواية أخرى-يرويها الطبري أيضا- أن أنس بن النضر مرّ بعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال أنس: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل مُحمَّد.

قال: إن كان قتل مُحمَّد فإن رب مُحمَّد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه، موتوا على ما مات عليه³.

ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاؤوا به. ثم شدّ بسيفه فقاتل، حتى قتل رضوان الله عليه⁴.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 1، ج 4، ص 462.

² التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج 6، ص 3، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت. النكت والعيون، الماوردي، ج 1، ص 427، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

³ جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج 7، ص 257.

⁴ من وحي القرآن، مُحمَّد حسين فضل الله، ص 195-196.

وكان أصل هذه الشائعة أن مصعب بن عمير كان يقاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين انكشف المسلمون حتى قتل، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قريش وقال: قتلت محمدًا¹.

ويبدو أن شائعة قتل النبي ﷺ سرت على أفواه كثيرة، حتى إن أبا سفيان قائد المشركين، حين أراد الانصراف بعد انتهاء المعركة، رأى أن يتحقق من تلك الشائعة، فهي قتل محمدًا ﷺ فأشرف على الجبل، وطلب من عمر بن الخطاب أن يأتيه، ليعرف الحقيقة منه.

فقال رسول الله ﷺ لعمر: (آتيه فانظر ما شأنه)، فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتل محمدًا!

قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرّ وهو الذي زعم أنه قتل النبي ﷺ.

وسرت بسرعة بين المسلمين والمشركين على السواء، حيث توهم ابن قمئة، حيث قتل مصعب ابن عمير، أنه قتل رسول الله ﷺ، ثم أشاع هذا الوهم لما يعلم من أثر ذلك في تحطيم قوى المسلمين المعنوية، وتثبيطهم وتخذيلهم لو شاع هذا بينهم، وبالفعل تحقق له بعض ما أراد، حيث صدقها المسلمون والمشركون على سواء، لأن النفوس كما قلنا في وقت الحروب مستعدة لتصديق كل ما يشاع في أمثال هذه الأوقات.

لكن الرسول ﷺ لم يترك هذه الشائعة تسري بين المسلمين دون أن يتصدى لها، ويقاومها، ويظهر بطلانها وزيفها، ووجد أن أمضى سلاح لذلك هو أن يظهر بشخصه حتى يراه الجميع وتحمد الشائعة، لذلك أخذ رسول الله ﷺ يصيح بالمؤمنين (إلى عباد الله... إلى عباد الله)².

فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلاً، ومضى رسول الله ﷺ يدعو المسلمين إليه، واستطاع بالرجال القلائل الذين معه أن يصعد فوق الجبل، فأنحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار، وفرح النبي

¹ دلائل النبوة، البيهقي، ج3، ص187.

² الباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ج5، ص571، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

ﷺ بأن وجد بقية من رجاله يمتنع بهم، بعد أن قاوم تلك الشائعة وأخمدتها، وعاد هؤلاء المسلمون، إذ وجدوا رسول الله حيا، وهم يحسبونه قد مات.

وما أنزل الله سبحانه وتعالى في (أحد) من القرآن، في صدد هذه الشائعة - وهي شائعة قتل رسول الله ﷺ - قوله تعالى يعاتب المسلمين الذين سقط في أيديهم، وانكسرت همتهم، وتركوا المعركة يائسين، لما أشيع أن الرسول ﷺ قد مات: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾" ¹.
فهذه الحادثة التي أذهلت المسلمين هذا الدهول يتخذها القرآن مادة للتوجيه ويجعلها محورا لإشارات موحية ².

بعد تقرير هذه الحقيقة والتأكيد عليها، ينتقل النص إلى استنكار انقلاب البعض على عقبيه: "أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ"،. ليعقب هذا الاستنكار تهديد صريح: "وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا". وفي التعبير تصوير حي للارتداد: "انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ". "وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ".

فهذه الحركة الحسية في في الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة كأنه منظر مشهود. والمقصود أصلا ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة في المعركة، ولكن حركة الارتداد النفسية التي صاحبته، حينما هتف الهاتف: (إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ). فأحس بعض المسلمين أن لا جدوى إذن من قتال المشركين، وبموت محمد انتهى أمر هذا الدين، وانتهى أمر الجهاد للمشركين، وسقطت الدولة الإسلامية!

فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب، كارتدادهم في المعركة على الأعقاب! وهذا هو الذي حذرهم إياه النضر بن أنس ³.

¹ سورة آل عمران، الآية 144.

² بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد عزت، ص 52.

³ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 1، ج 4، ص 486.

وكانت المدينة لم تخلص بعد للإسلام، بل لا يزال المسلمون فيها نبتة غريبة إلى حد كبير، نبتة غريبة أحاطتها (بدر) بسياج من الرهبة، بما كان فيها من النصر الأبلج، فلما كانت الهزيمة في أحد تغير الموقف إلى حد كبير، وسنحت الفرصة لهؤلاء الأعداء المتربصين أن يظهروا أحقادهم، وأن ينفثوا سمومهم، وأن يجدوا في جو الفجائع التي دخلت كل بيت من بيوت المسلمين - خاصة بيوت الشهداء ومن أصابته الجراح المثخنة - ما يساعد على ترويح الكيد والدس والبلبل في الأفكار والصفوف: " يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّوكُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٤١﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿٤٢﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَبَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَاقَبَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ * ﴿٤٥﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتَوْنَاكُمْ غَمًّا يَغْمُّ لِكَيْلًا تَخْزَنُوا عَلَىٰ مَا بَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٧﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَيْنِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَاقَبَا اللَّهَ عَنْهُمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٩﴾ وَلَيْسَ فُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَيْسَ مِثْمُكُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُخْشَرُونَ ﴿٥١﴾" ¹ وحين نظر في هذه المجموعة من الآيات نظرة فاحصة نجدها قد ضمت جوانحها

¹ سورة آل عمران، الآية من 149 إلى 158.

على حشد ضخّم من المشاهد الفائضة بالحيوية، ومن الحقائق الكبيرة الأصلية في التصوير الإسلامي، وفي الحياة الإنسانية، وفي السنن الكونية...نجدها تصور المعركة كلها بلمسات سريعة حية متحركة عميقة، فلا تدع منها جانبا إلا سجلته تسجيلا يستجيش المشاعر والخواطر، وهي بدون شك أشد حيوية وأشد استحضارا للمعركة بجوها وملابساتها ووقائعها، وبكل الخلجات النفسية، والحركات الشعورية المصاحبة لها... من كل تصور آخر ورد في روايات السيرة- على طولها وتشعبها- ثم نجدها تضم جوانحها على ذلك الحشد من الحقائق، في صورتها الحية الفاعلة في النفوس، البانية للتصور الصحيح¹.

وسنحاول هنا الوقوف سريعا أمام المشاهد ذات العلاقة بالبحث: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُوا كُفْرَكُمْ عَلَىٰ أَغْفِيَكُمْ".

هذا خطاب للمؤمنين يحذرهم الله من أن يطيعوا الكفار، وبين أنهم إن أطاعوهم ردّوهم كافرين، والمعنى بـ "الَّذِينَ كَفَرُوا" - كما قيل - صنفان:

أحدهما: عن الحسن، وابن جريج قالا: إنهم اليهود والنصارى، أي إن تستنصحوهم وتقبلوا رأيهم يردّوكم خاسرين.

ثانيهما: عن السدي قال: أراد: إن تطيعوا أبا سفيان وأصحابه يرجعوكم كافرين. والطاعة موافقة الإرادة المرغبة في الفعل².

ولا يبعد أن يستفاد من السياق أن الكفار كانوا أيام نزول الآيات بعد غزوة أحد، يلقون إلى المؤمنين- في صورة النصح- ما يثبطهم عن القتال، ويلقي التنازع والتفرقة وتشتت الكلمة واختلافها بينهم، وربما أيده ما في آخر هذه الآيات من قوله: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ" إلى أن قال: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"  ³.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 1، ج 4، ص 490.

² التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج 3، ص 14.

³ سورة آل عمران، الآيات 173-175.

وربما قيل: إن الآية إشارة إلى قول اليهود والمنافقين يوم أحد: (إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قَتَلَ فَارِجُوعًا إِلَى عَشَائِرِكُمْ)¹.

لقد انتهر الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقذح، ليثبطوا عزائمهم، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتل وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم، وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبليلة القلوب، وخلخلة الصفوف، وإشاعة عدم الثقة في القيادة، والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء، وتزيين الانسحاب منها، ومسألة المنتصرين فيها، مع إشارة المواجه الشخصية والآلام الفردية، وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة، ثم لهدم كيان العقيدة، ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين.

وفي مكان لاحق من السورة يأتي قوله تعالى: "الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا"².

وعلى ما يبدو إن هذه التقولات، التي كان المتربصون والمخلفون يشيعونها بين صفوف المسلمين قد شقت طريقها إلى ذوي النفوس الضعيفة، الذين راحوا بدورهم يرددون ما يقوله المتصيّدون في الماء العكر بأسلوب آخر، وتساؤل آخر: "يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ". "يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا"³!

وهذا هو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة حينما تصطدم في موقعة بالهزيمة. وحينما تعاني آلام الهزيمة! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن، وأن الثمرة أشدّ مرارة مما كانت تتوقع... وحين تفتش في ضمائرها فلا ترى الأمر واضحا ولا مستقرا، وحين تتخيل أن تصرف القيادة هو الذي ألقى بها في هذه المهلكة، وكانت في نجوة من الأمر لو كان في يدها! وهي لا يمكن - بهذا الغش في التصور - أن ترى يد الله وراء الأحداث، ولا حكمته في الابتلاء، إنما المسألة كلها في اعتبارها

¹ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج4، ص42، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1974.

² سورة آل عمران، الآية 168.

³ سورة آل عمران، الآية 154.

خسارة في خسارة! وضياح في ضياح! أما أولئك الذين حاولوا خلخلة الصفوف والنفوس فإنهم لم يكتفوا بالتخلف - والمعركة على الأبواب - وما يحدثه هذا التخلف من رجّة وزلزلة الصفوف والنفوس، وخاصة أن عبد الله بن أبي (رأس النفاق) كان ما يزال سيدا في قومه، ولم يكشف لهم نفاقه بعد، ولم يصفه الله بهذا الوصف الذي يهز مقامه في نفوس المسلمين منهم. بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة في قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة وهم يقولون: "لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا" ... فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة، ويجعلون من طاعة رسول الله ﷺ وأتباعه مغرما ومضرة. وأكثر من هذا كلّ يفسدون التصور الإسلامي الناصح لقدر الله ولحتمية الأجل، ولحقيقة الموت والحياة، وتعلقهما بقدر الله وحده... ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع الذي يرد كيدهم من ناحية ويصحح التصور الإسلامي ويجلوا عنه الغش من ناحية: "قُلْ بَادِرُكُمْ أَنْفُسَكُمْ الَّتِي مَاتَتْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٠﴾".

فالموت يصيب المجاهد القاعد، والشجاع الجبان، ولا يرده حرص ولا حذر يؤجله جبن ولا قعود... والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء... وهذا الواقع هو الذي يحببهم به القرآن الكريم، فيرد كيدهم اللئيم ويقر الحق في نصابه ويثبت قلوب المسلمين، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين.

ومّا يلفت النظر في الاستعراض القرآني لأحداث المعركة تأخيره ذكر هذا الحادث - حادث نكول عبد الله بن أبي ومن معه من المعركة - وقد وقع في أول أحداثها وقبل ابتدائها، وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية، فقد أخره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الإسلامي التي قررها، وحتى يقرّ في الأخلاق جملة المشاعر الصحيحة التي أقرّها، وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التي وضعها...¹

ثم يشير هذه الإشارة إلى "الَّذِينَ تَأْبَفُوهَا" وفعلتهم وتصرفهم بعدها، وقد تهيأت النفوس لإدراك ما في هذه الفعلة وما في هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح، وعن القيم الصحيحة في الميزان الصحيح... الصحيح.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 1، ج 4، ص 516.

البند الثاني: التخويف والإرجاف والتشيط

ما بين أحد والأحزاب اشتدت المحنة على المسلمين، فكان هناك اليهود ومشركو مكة، وهناك ثالثة الأثافي، المنافقون، وهم ذوو قوة وشوكة، وقد بان يوم أحد أن لهم عددا لا ينقص عن نصف عدة المؤمنين بكثير، وكانوا يقلبون الأمور على رسول الله ﷺ ويتربصون به الدوائر، ويشبطون المؤمنين وفيهم مرض القلوب سمّاعون لهم¹.

على أنّ ثمة مفردة برزت لدى البعض، ممن يبطّء نفسه عن الجهاد في سبيل الله، ومن يبطّء غيره، ثم يحسبها غنيمة إذا لم يخرج فمسلم، على حين أصابت المسلمين مصيبة! كما يعدها خسارة إذا لم يخرج وغنم المسلمون؛ لأنه لم يكن له سهم في الغنيمة، وبذلك يشتري الدنيا بالآخرة².

وها هو قوله تعالى يفصح عن هذه المسألة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانهِرُوا ثَبَاتٍ آوِإِنْهَرُوا جَمِيعاً ﴿٧﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لِّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٩﴾" ³.

بعض المفسرين رجحوا أن تكون هذه الآيات قد نزلت في وقت مبكر، وتحديدًا في الربع الثاني من زمن إقامة رسول الله ﷺ بالمدينة، كما يذهب إلى ذلك العلامة الطباطبائي⁴، وربما كان ذلك بعد غزوة أحد، وقيل الخندق، كما يذهب إليه بعض المفسرين، ويستدل على هذا الترجيح بقوله: (فصورة الصف المسلم التي تبدو من خلال هذه الآيات توحى بهذا، توحى بوجود جماعات متنوعة في داخل الصف، لم تتضح بعد، أو لم تؤمن إنما هي تنافق! وتوحى بأن الصف كان في حالة إلى جهود ضخمة من التربية والتوجيه، وهن الاستنهاض والتشجيع.

¹ الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ج4، ص415.

² في ظلال القرآن، سيد قطب، مج2، ج5، ص702.

³ سورة النساء، الآيات 70-72.

⁴ الميزان في تفسير القرآن، المرجع نفسه، ج4، ص415.

فهنا نرى تصويرا منفردا للمبطلين يبدو فيه سقوط الهمة، وحب المنفعة القريبة والتلون من حال إلى حال، حسب اختلاف الأحوال!، وكذلك نرى التعجب من حال أولئك الذين كانوا شديدي التحمس في مكة للقتال، ولما كتب عليه في المدينة عراهم الجزع¹.

قال تعالى: "لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" ²

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:- رحمه الله:- (فأخبر أن المنافقين لو خرجوا في جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالا، و لكانوا يسعون بينهم مسرعين يطلبون لهم الفتنة، وفي المؤمنين من يقبل منهم ويستجيب لهم، إما لظن مخطئ أو لنوع من الهوى أو لمجموعهما)³.

وقد ذكر الفقهاء أنه يلزم ولي أمر المسلمين منع المرجفين والمخذلين وكل مفسد وصاحب فتنة من الخروج مع الجيش والانضمام في صفوفه.

قال ابن قدامة - رحمه الله:- (ولا يصحب الأمير معه مخذلا، وهو الذي يثبط الناس عن الغزو، ويزهدهم في الخروج إليه والقتال والجهاد، مثل أن يقول: الحر، أ، البرد شديد، والمشقة شديدة، ولا تؤمن هزيمة الجيش، وأشباه هذا، ولا مرجفا، وهو يقول: قد هلكت سرية المسلمين، وما لهم مدد ولا طاقة لهم بالكفار، والكفار لهم قوة ومدد وصبر، ولا يثبت لهم أحد، ونحو هذا، ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار واطلاعهم على عورات المسلمين، ومكاتبتهم بإخبارهم ودلائتهم على عوراتهم، أو إيواء جواسيسهم، ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ويسعى بالفساد، لقوله تعالى: "... وَلَئِنْ كَرِهَ اللَّهُ ابْنِيعَاتِهِمْ تَبَطَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعَدُوا مَعَ الْفَاعِدِينَ ﴿٤١﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ...")⁴.

¹ في ظلال القرآن، السيد قطب، مج2، ج5، ص 703.

² سورة التوبة، الآية 47.

³ درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، ج2، ص105، ط، دار الكنوز الأدبية، الرياض، 1391هـ.

⁴ المغني، ابن قدامة، ج10، ص366.

وقال الشافعي -رحمه الله-: (ومن ظهر منه تخذيل للمؤمنين وإرجاف بهم أو عون عليهم منعه الإمام الغزو معهم، لأنه ضرر عليهم، وإن غزا لم يسهم له)¹.

ويقول الماوردي: (وهذا صحيح، ينبغي للإمام أن يتفقد الغزاة إذا خرجوا حتى يغزو من يرجى نفعه ويرد من يخاف ضرره، لقوله تعالى: "لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا" وفيه تأويلان:

أحدهما يعني فسادا.

والثاني: يعني اضطرابا.

ولأوضحوا خلالكم فيه تأويلان:

أحدهما: لأوقعوا بينكم الاختلاف

والثاني: لأسرعوا في تفريق جمعكم.

يبغونكم الفتنة فيه تأويلان:

أحدهما: الهزيمة

والثاني: التكذيب بوعد الرسول ﷺ

وفيكم سماعون لهم، فيه تأويلان:

أحدهما: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم.

والثاني: وفيكم عيون منكم ينقلون إليهم أخباركم.

فإذا ثبت هذا، فمن ذوي الأضرار المردودين من الغزو مع المسلمين من ذكره الشافعي، وهم ثلاثة أصناف:

¹ مختصر المزني، المزني، ص353، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998. الحاوي الكبير، الماوردي، ج14، ص273، ط1، دار الفكر، بيروت، دت.

أحدهما: من ظهر منه تخذيل المؤمنين بما تضعف به قلوبهم من تكثير المشركين وقوتهم، وتقليل المؤمنين وضعفهم، والأخبار بما يخاف من شدة حر أو برد، أو عطش أو جذب، وبما يجري مجرى هذه الأمور التي تضعف بها القلوب وتفضي إلى الهزيمة.

والصنف الثاني: من يرجف بالمؤمنين فيخبر بهزيمتهم، أو بمدد يرد بعدهم أو بكمين لهم وراءهم، أو أنهم قد ظفروا بأسرى، أو سبوا ذراري، أو قطعوا ميرة، وما جرى مجرى هذه الأراجيف التي تفضي إلى الفشل والوجل.

الصنف الثالث: من يكون عوناً للمشركين بإطلاعهم على عورات المؤمنين وإرشادهم إلى أسباب الظفر، وتحذيرهم من وقوع الضرر وإيواء عيوتهم إذا وردوا، والذب عنهم إذا ظفروا إلى ما جرى مجرى هذه المعونة لهم القوية لأمرهم. فتزد هذه الأصناف ومن شاكلتها، لأن المقصود من الانتفاع بهم معدوم، والمخوف من الضرر بهم موجود¹.

- ولا بأس في هذا الموطن أن نستعرض بعض النماذج المنتقاة من صور لإرجاف والتخويف والتخذيل، والمخاطر المروعة والآثار السلبية الموهلة التي تتركها وسط الصفوف، منها ما يهدد الدولة وأمنها.

وهؤلاء تبلى بهم المسيرات، فهم دائماً يخفون الخطي، ويستعجلون النتائج فيحرقون المراحل، وبالتالي فإن بؤادر الإنهاك تصيبهم قبل غيرهم، ويصبحون عامل إعاقة وتشبيط وشماتة!.

وحينما تصل درجة خطورتهم إلى هذا الحد، يأتي الخطاب القرآني موجهاً ومخدراً، من مغبة استشرء هذه المفردة، ولكي لا تتحول إلى ظاهرة أو حالة تكون المواجهة (انفروا جماعات نظامية، أو انفروا جميعاً، ولا ينفر بعضكم ويتثاقل بعضكم - كما هو واقع - وخذوا حذرکم، لا من العدو الخارجي وحده، ولكن كذلك من المعوقين المبطلين المخذلين، سواء كانوا يبطئون أنفسهم، أي يقعدون متثاقلين - أو يبطئون غيرهم معهم، وهو الذي يقع عادة من المخذلين المثبطين!.

¹ الحاوي الكبير، الماوردي، ج 14، ص 273 وما بعدها.

ولفظه (ليبطن) مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر، وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدها شداً، وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في حربها، وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة¹.

إطالة مدة العمل بقلّة الانبعاث، وضده الإسراع، وهو قصر مدة العمل للتدبير فيه، تقول بطؤ في مشيه يبطؤ بطاء: إذا ثقل وتباطأ تباطي وبطأه تبطيا واستبطأ استبطاء: وأبطأ إبطاء إذا تأخر². والمراد هنا من ليتثاقل ويضع العراقيل والعقبات في طريق الجهاد³.

وكذلك يشي تركيب الجملة كلها: "وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ"، بأن هؤلاء المبطلين - وهم معدودون من المسلمين - (منكم) يزاولون عملية التبطئة كاملة، ويصرون عليها إصراراً، ويجتهدون فيها اجتهداداً، وذلك بأسلوب التوكيد بشقّ المؤكّدات في الجملة!، مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة، وشدة أثرها في الصف المسلم، وشدة ما يلقيه منها!.

ومن ثمّ يسلط السياق الأضواء الكاشفة عليهم، وعلى دخيلة نفوسهم، ويرسم حقيقتهم المنفرة، على طريقة القرآن التصويرية العجيبة.

فها هم أولاء، بكل بواعثهم، وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم... ها هم أولاء مكشوفون للأعين، كما لو كانوا قد وضعوا تحت المجهر، يكشف النوايا والسرائر، وبكشف البواعث والدوافع.

ها هم أولاء - كما لو كانوا على عهد الرسول ﷺ وكما يكونون في كل زمان وكل مكان. ها هم أولاء: ضعاف. منافقون. صغار الاهتمامات أبيض، لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر، ولا أفقا أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة، فهم يريدون الدنيا كلها على محور واحد، وهم هذا المحور الذي لا ينسوه لحظة!.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج2، ج5، ص705.

² البيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج5، ص255.

³ التفسير المبين، محمد جواد مغنية، ص112، ط1، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، 1983.

إنهم يبطئون ويتلكؤون، ولا يصارحون ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال!، وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذي يليق بالمنافقين الضعاف الصغار¹.

قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريح وابن زيد: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يثبطون الناس عن الجهاد، فإذا أصابتهم مصيبة فيه، من قتل أو هزيمة، قالوا قول الشامت بهم في تلك الحال: "فَدَأْنَعَمَ اللَّهُ عَلَىٰ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا"  "أي حضورا."

وقال أبو جعفر: (من يتمنى التأخر عن جماعة المسلمين، لا يكون إلا كافرا)، فقلوه: "وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئُ" خطاب للمؤمنين وإنما أضاف المنافقين إليهم لأمرين. أحدهما: أن من عددكم دخلاؤكم.

الثاني: أي منكم في الحال الظاهرة، أو حكم الشريعة من حقن الدم، نحو ذلك من الموارثة والمناكحة². وأيا كان المقصودون في الخطاب (المنافقون أو ضعاف الإيمان)³، فإن السياق يمضي محاولا أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطلين المثقلين بالطين!، وأن يوقظ في حسهم التطلع إلى ما هو خير وأبقى... الآخرة، وأن يدفعهم على بيع الدنيا وشراء الآخرة.

ويعدهم على ذلك فضل الله في الحالتين، وإحدى الحسينين: النصر أو الشهادة: "بَلَيُفْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُفْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"  ⁴.

وإنه لا يقاتل لمجد شخص، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس، إنما يقاتل في سبيل الله: لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولتمكين منهجه في تصريف الحياة. ولتمتع البشرية بخيرات هذا

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج2، ج5، ص705-706.

² التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج5، ص245.

³ تفاوت المفسرون في هذه النقطة، فمنهم من يرى أن المقصود بهم هم المنافقون وهناك من يذهب إلى أنهم هم ضعاف الإيمان.

⁴ سورة النساء، الآية 73.

المنهج، وعدالة المطلق (بين الناس) مع ترك كل فرد حراً في اختيار العقيدة التي يقتنع بها، في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام¹.

ثمّة طائفة أخرى ابتلي بها الصف المسلم في تلك الفترة، كما هو في كل زمان ومكان... يسلط القرآن الضوء عليها بعد ست آيات فقط مما تقدّم، ليحكى السياق عن حال طائفة أخرى - في الصف المسلم - أم لعلها هي طائفة المنافقين يذكر عنها فعلاً جديداً! ومع الحكاية التنفير من الفعل، ومع التنفير التعليم والتوجيه والتنظيم... كل ذلك في آيات قليلة، وعبارات معدودة: "وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا" ².

إنّ هذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله يسمع من القرآن وما فيه من التكليف.... قالوا: "طَاعَةٌ"... قالوها هكذا جامعة شاملة... طاعة مطلقة، لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء! ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ﷺ حتى تبیت طائفة منهم غير الذي تقول، وتروح فيما بينها تتآمر على عدم التنفيذ، وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكليف، وهي صورة ترسم تلك الخلخلة بعينها في الصف المسلم، فإن هؤلاء مندسون فيه على كل حال، وتصرفهم على هذا النحو يؤذي الصف ويخلخله، والجماعة المسلمة تخوض المعركة في ميادينها وبكل قوة³.

قال المبرد: التبييت كل شيء دبر ليلاً، ومعنى "بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ" أي غير ما تقول بأن أضمرنا الخلاف فيما أمرتهم به أو نهيتم عنه، هذا قول ابن عباس وقتادة والسدي. وقال الحسن: قدرت طائفة منهم غير الذي تقول على جهة التكذيب⁴، بمعنى أنهم كانوا يمارسون نوعاً من إشاعة الشبیط، ولو على نطاق محدود، تمهيداً لمرحلة قادمة، يوضحها بشكل جلي موقف لاحق، يرسمه القرآن بدقة رائعة.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج2، ج5، ص707.

² سورة النساء، الآية 80.

³ في ظلال القرآن، المرجع نفسه، مج2، ج5، ص720.

⁴ التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج5، ص269.

لقد ابتلي الصف المسلم ببعض ضعاف الإيمان ممن يسمحون لأنفسهم أن يكونوا واسطة لترويج الإشاعات المغرضة التي يتلقفونها حال سماعها، وينطلقون يرددونها دون الالتفات إلى مغبة عواقب ما يقومون به: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافٍ أَذَاعُوا بِهِ"¹.

وممن أذاعوا به: أعلنوه وأفشوه، في قول ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريح، وأصله إشاعة الخبر في الجماعة، ويقال: أذاعه إذاعة وأذاعوا به. قال الشاعر (أبو الأسود الدؤلي):

أذاع به الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

وأصل الإذاعة التفريق: وذاع الخبر ذيعا: ورجل مذيع: لا يستطيع كتمان خبر، وأذاع الناس بما في الحوض: إذا شربوه.... وإذاعة السر: إظهاره، والإذاعة والإشاعة والإفشاء والإعلان والإظهار نظائر، وضدها الكتمان، والإسرار والإخفاء.²

يقول الطباطبائي: (الإذاعة: في النشر والإشاعة، وفي الآية ذم تعبير لهم في شأن هذه الإذاعة)³.

وبهذا التشخيص لإحدى ثغرات الطريق اللاحب يمضي السياق يصور حالة طائفة أخرى. أو يصف فعلة أخرى لطائفة في المجتمع المسلم: " وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافٍ أَذَاعُوا بِهِ " والصورة التي يرسمها هذا النص، في صورة جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها.

وقد تكون قاصمة لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها مالا يخطر ببال، ومالا يتدارك بعد وقوعه بحال! أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر.

وهذا لا يعينهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك، وإذا عنها حين يتلقاها لسان عن لسان سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف... فكلتاها قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة!

¹ سورة النساء، الآية 82.

² التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج5، ص272-273.

³ الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ج5، ص210.

فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة العدو... تحدث نوعاً من التراخي، مهما تكن الأوامر باليقظة، لأن اليقظة التابعة من التحفز للخطر غير اليقظة التابعة من مجرد الأوامر! وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية!... كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الإقدام بسبب هذه الطمأنينة.

وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكاً، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف... وقد تكون كذلك القاضية!

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل ولاؤه لقيادته أوها معاً... ويبدو أن السمة وتلك كانتا واقعيتين في المجتمع المسلم حينذاك، باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان، ومختلف المستويات في الولاء¹.

وعلى ما يبدو أن النص يتطرق إلى حالتين متضادتين في الشكل منسجمتين في المضمون، وبعبارة أخرى فإن خطورة إذاعة الأمن في حالة الاستنفار كخطورة إذاعة الخوف حالة الطمأنينة، وبدأ تغدو الصورتان المتنافرتان في الظاهر متفقتين في النتيجة، فهما أشبه ما يكونان وجهين لعملة واحدة!

ويذهب الكثير من المفسرين - كما يظهر من النص - إلى أن الأمر الذي جاءهم من الأمن والخوف كان بعض الأراجيف التي كانت تأتي بها أيدي الكفار ورسلمهم المبعوثون لإيجاد النفاق والخلاف بين المؤمنين، فكان الضعفاء من المؤمنين يذيعونه من غير تدبر وتبصر فيوجب ذلك وهنا في عزيمة المؤمنين، والمتدبر في الآية الكريمة وأجوائها لا يرتاب في أن الله سبحانه يذكر بحادثة بدر الصغرى، وهو ما ورد في موضوع آخر متقدم: "الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾" الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٧﴾" إلى قوله تعالى: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾"².

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج2، ج5، ص723-724.

² سورة آل عمران، الآيات 172 إلى 175.

والآيات كما نرى تذكر أن رسول الله ﷺ كان يدعو الناس بعدما أصابهم القرع - وهو محنة أحد- للخروج إلى الكفار، وأن أناسا كانوا يخذلون الناس، ويخذلوهم عن النبي ﷺ يخوفونهم جمع المشركين¹.
ويكاد يجمع المفسرون على أن الآية بصدد التنديد بهذه الفئة (سواء كانوا من ضعفة المسلمين أو المنافقين)، فهم موضوع الكلام في السياق السابق، لأنهم كانوا مما يفعلونه حينما يصل إليهم خبر من أخبار الحرب والسياسة- سواء أكان سارا أو مسيئا أو مطمئنا أو مثيرا للخوف- أن يذيعوه بين الناس².

وفي شوال من العام الخامس للهجرة، كانت غزوة الأحزاب (الخنندق) امتحانا عسيرا للمسلمين وهم يواجهون الخطر الذي يزلزل القلوب، ويزيغ الأبصار، ويهز القناعات: "إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ قَوْمِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَدَٰثُتُنَا بِاللَّهِ إِلَٰهِنَا ۖ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا" وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ * ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا" ³.

¹ رغم وضوح هذه الحقيقة، من خلال الأجواء التي تثيرها الآية الكريمة، فإن مفسرا جليلا كالسيوطي يحاول أن يبعدها عن ذلك، فيحاول حصرها بإشاعة حول تطبيق الرسول ﷺ نساءه، إذ يقول: (روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالخصى ويقولون: طلق رسول الله نساءه، فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوت: لم يطلق نساءه، فنزلت هذه الآية "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ" فكنت أنا استنبط ذلك الأمر). انظر: لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص 63-64.

بينما في تفسيره (الدار المنثور) ينقل السيوطي، إلى جنب هذه الرواية، عدة روايات عن ابن عباس هي أقرب للحقيقة والسياق. (عن ابن عباس في قوله تعالى: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ"، قال: هذا في الإخبار، إذا غزت سرية من المسلمين خبر الناس عنها، فقالوا أصاب المسلمين من عدوهم كذا وكذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا... فأفشوه بينهم، من غير أن يكون النبي ﷺ هو يخبرهم به). انظر: الدر المنثور، السيوطي، ج2، ص 600-601، ط1، دار الفكر، بيروت، 1993.

² التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ج8، ص 180، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383هـ.

³ سورة الأحزاب، الآيات 10-13.

إنها صورة الهول الذي روع المدينة والكرب الذي شملها، والذي لم ينجح منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة، من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله، وسلوكها في الشدة وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج.

ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لا تردد فيه.

لقد كان الموقف خطيرا، بل غاية في الخطورة، وقد وصف الله تعالى المشهد وصفا معبرا عن شدة الأمر وهول الموقف، وقد زاغت الأبصار فبلغت القلوب الحناجر... حيث " هُنَالِكَ آتَتْهُنَّ الْمُؤْمِنُوتُ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا " والهول الذي يزلزل المؤمنين لا بد أن يكون هؤلاء مروعا رهيبا¹.

ويزداد الموقف حراجه وشدة وهولا، كلما كانت قريش وحلفاؤها يضيقون خناق حصارهم على المسلمين، وما يعكسه ذلك من تداعيات الموقف المهول، وما يفرزه من اضطراب شديد داخل الصف المسلم، ولتصل الأمور مدياتها المرعبة حين تحرك (الطابور الخامس) المتمثل يومئذ بالمنافقين والذين في قلوبهم مرض، لاستكمال حلقات المخطط الجهنمي: هجوم عسكري من الخارج، وإشاعة البلبلة وإطلاق الأراجيف من الداخل، بغية بث روح الهزيمة وإحداث الانكسار الداخلي تمهيدا للاستسلام والارتداد: "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا".

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق، فرصة للكشف عن خبيثة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتوهين والتخذيل، وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك.

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر من الأجيال والجماعات، على مدار الزمان¹، حيث لا نعدم وجود هذا النمط ماثورا

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 5، ج 21، ص 2837.

هنا وهناك متشبثا بذرائعته وحججه الواهية، حتى لو يفلح بإقناع نفسه بما قبل إقناع الآخرين. فالمهم لديه أن يظل هذا النهج خياره الوحيد، لزعة الهمم وتعميق الانهزامية والسلبية، أو لإبعاد الشبهة عن حقيقة موقفه وخبيثة نواياه، ويعمد البعض إلى أسلوب لعن الحقيقة تحت لافتة (مراعاة المصلحة العليا) تارة، و(عدم تفويت الفرصة) ثانية، و(ضرورة الحضور) أخرى... إلخ. ويظل سادرا في تسويق هذه المبررات بطريقة لا تخلو- في أحيان كثيرة- من الاستخفاف بعقول الناس واستغفالهم، لحد يرقى إلى درجة الاستحمار!

والمسألة باختصار: إنّ المسلمين حينما كانوا محصورين بالمشركين داخل الخندق، أخذ المرجفون والمنافقون يروجون لشائعات التخويف من العدو، في صفوف المسلمين، فعندما عظم البلاء، واشتد الخوف بين المسلمين، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، وناق ناس كثيرون، وتكلموا بكلام قبيح، ومنه ما قاله معتب بن قشير: كان مُجَدِّ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كَنُوزَ كَسْرَى وَقِصْرَ، وَأَحَدُنَا الْيَوْمَ لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ، وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا"²، والأصل الذي اعتمد عليه معتب بن قشير، في اختلاف تلك الشائعة التي عمل على ترويحها بين المسلمين، لتوهينهم وتشكيكهم في وعد الله ووعد رسوله، حادثة كانت وقعت أثناء حفر الخندق حول المدينة قبل وصول المشركين، فقد روى ابن إسحاق أن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: (ضربت في ناحية من الخندق فغلظت علي صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني فلما رأياني اضرب، ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة ألمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى. ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى.

قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: (أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟)

قلت: نعم.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 5، ج 21، ص 2838.

² سورة الأحزاب، الآية 12.

قال: (أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام، والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح بها المشرق)¹.

وفي هذه الآونة جاءت الأخبار أن بني قريظة نقضوا معاهدتهم مع رسول الله ﷺ، وانضموا إلى كتائب الأحزاب التي تحاصر المدينة، ووجم المسلمون حين علموا بهذه الأخبار².

وكانت فرصة متاحة لكي يبيث المنافقون والمرجفون سمومهم وإشاعاتهم وتشكيكهم لخلخلة الوضع وتهوينه. وهنا بادر رسول الله ﷺ لمسك زمام المبادرة لتفادي العواقب الوخيمة، فأخذ يبدد مخاوف المسلمين، ويبث فيهم روح الحماس ويبشرهم بفتح الله ونصره: (والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله).

بيد أن ذلك لم يمنع طائفة أخرى من نشر التوهين والبلبل والتخذيل في صفوف المسلمين: "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا".

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف والعودة إلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم. وفي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذراري، والخطر محقق والهول جامح، والظنون لا تثبت ولا تستقر: "وَيَسْتَلِدُّ قَوْمٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ".

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو، متروكة بلا حماية³.

والمقصود بـ (العورة) هنا وجود خلل فيها وأنها قاصية مكشوفة لا يأمن صاحبها دخول السارق إليها وملاحقة العدو إلى هناك.

ثم بين الله كذبهم بقوله: "وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ"، وبين قصدهم وما تكن صدورهم، وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف⁴.

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج2، ص219.

² بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد عزت، ص45-56.

³ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج5، ج21، ص2838.

⁴ مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ج1، ص3629، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ويجردهم عن العذر والحجة... ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار: "لَنْ يُرِيدُوا إِلَّا فِرَارًا".

ويقف السياق عن هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفرع والمراوغة يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض... بمجرد مصادقة غير مبقين على شيء ولا متجملين لشيء¹.

وبعد رصده لموقف البلبلة والفرع والمراوغة، وتفريعه لأولئك يستطرد القرآن الكريم إلى تقرير علم الله بالمعوقين، الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود، ويقولون لهم: "لَا مَقَامَ لَكُمْ بِأَرْجَعُوا".... ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة. وهي -على صدقها- تنير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرر في الناس... صورة للجبن والانزواء، والفرع والهلع في ساعة الشدة. والانتفاش وسلطة اللسان عند الرخاء، والشح على الخير والظن ببذل أي جهد فيه. والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد..

والتعبير القرآني يرسم هذه الصورة، في لسان فنية مبدعة، لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها في غير سياقها المعجز: "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾" ².

ويبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذي يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة. الذين يدعون إخوانهم إلى القعود: "وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا" ³.

وبينما كان هذا الطابور المثلث، (المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون) يمارس دوره التخريبي، من داخل الصف المسلم، عبر الترويج للأراجيف والإشاعات، والتشبيط عن القتال، في واحدة

¹ في ظلال القرآن، السيد قطب، مج5، ج21، ص2839.

² سورة الأحزاب، الآية 18-19.

³ في ظلال القرآن، المرجع نفسه، مج5، ج21، ص2840.

من أشد المواقف وأحرجها... كان هناك في مقابل المسلمين يقف التحالف المثلث: (مشركو قريش، يهود بني قريظة، غطفان)... ولقد عبر القرآن أصدق تعبير عن هذا الموقف الرهيب بقوله: " هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا " ¹.

الفرع الثاني: الحرب النفسية ضد الأعداء حالة السلم

إنّ المتمعن لنصوص القرآن والسنة يجد أنّ الإسلام أمر أتباعه بالتحلي بالأخلاق الإسلامية والمحافظة عليها في معاملة الناس وسياستهم مهما توافرت المغريات وتهيأت الفرصة لذلك. (فعلى مسلمين أن لا يظلموا، ولا يهضموا حقا ولا يغدروا ولا يخونوا ولا ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ولا يخفروا ذمة مسلم فإذا تخوفوا من قوم خيانة فليعلموهم بانتهاك العهد الذي كان بينهم أو بإلغائه حتى يكون المسلمون وأعدائهم على سواء من الأمر) ²، ولا شك أن من الظلم إشاعة الشائعات ونسج الافتراءات حول الأعداء ما لم يدعوا إلى ذلك ضرورة ملحة ومصلحة راجحة للمسلمين كالتحذير منهم وتوضيح فساد مناهجهم وسوء أحوالهم.

والمسلمون أصحاب رسالة ربانية فعليهم أن يجعلوا من أنفسهم مثلا حيا لرسالتهم التي لا يدعون الناس إليها، سواء كان ذلك في أخلاقهم ومعاملاتهم فيما بينهم أو في أخلاقهم ومعاملاتهم مع خصومهم أو أعدائهم.

فالأخلاق عند المسلم الصادق ذات صورة ثابتة لا تتبدل بتبدل الأشخاص الذين يعاملهم، لأن الأخلاق الإسلامية مرتبطة ارتباطا وثيقا بأوامر الله ونواهيه لا تنفك عنها في حال من الأحوال ³. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل ونهى عن الظلم مع الأولياء، أو مع غيرهم فالمسلم الصادق لا يجانب مسلک العدل حتى مع أعدائه قال تعالى: "وَأذْكُرُوا اللَّهَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" يتأيتها الذين آمنوا كونوا قوامين

¹ سورة الأحزاب، الآية 11.

² مكائد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص 132، ط 5، دار القلم، دمشق، 1985.

³ المرجع نفسه، ص 133.

لِلَّهِ شَهَادَةٌ بِالْإِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾¹.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يوفوا بعهودهم ومواثيقهم ولا ينقضونها ما لم يخل بها الذين عاهدوهم من المشركين قال تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُضُوا عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَا يُمَظِّهِرُوا عَلَيْكُمْ ۚ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ۚ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" ² قال الرازي: واعلم أنه تعالى وصفهم بأمرين الأول: قوله: "ثم لم ينقضوهم" والثاني قوله: "ولم يظاهروا عليكم أحدا"، والظاهر أن يكون المقصود من الأول: "أن يقدموا على المحاربة ومن الثاني أن يهيجوا أقواما آخرين وينصروهم ويرغبوهم في الحرب" ³، وقال تعالى: "كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمَا اسْتَقْلَمُوا لَكُمْ فَاسْتَفِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" ⁴ وهذه إشارة إلى الوفاء بالعهد للكافرين ما لم يبادروا إلى نقضه، ولا ريب في أن الإمساك عن ترديد الشائعات وترويجها بين الناس من الفضائل التي نبهنا إليها الإسلام وأمرنا أن تحلى بها حتى مع أعدائنا ما لم يبدؤونا هم بالعداوة لسانا أو يدا.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في سورة النساء ما يقرب من عشرة آيات يبرئ فيها يهوديا أتهمه أحد الذين يظهرون الإسلام ورماه بخطيئته بقتل زورا وظلما وعدوانا، قال تعالى: "وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿٢﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ ۚ وَهُوَ مَعَهُمْ ۚ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿٣﴾ هَآنَتُمْ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٤﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ

¹ سورة المائدة، الآية 8-9.

² سورة التوبة، الآية 4.

³ مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ج 15، ص 323.

⁴ سورة التوبة، الآية 7.

عَفُوراً رَحِيماً ﴿١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٤﴾¹،

وسبب نزول هذه الآيات عند جمهور المسلمين² حادثة رواها الترمذي وحاصلها أن أخوة ثلاث يقال لهم بشير ومبشر أبناء أبيرق وقيل أبناء طعمة بن أبيرق وقيل إنما كان أحدهم يكنى أبا طعمة وهم من بني ظفر من أهل المدينة، وكان بشير شرهم وكان منافقا يهجوا المسلمين بشعر يشيعه وينسبه لغيره وكان هؤلاء الإخوة في فاقة وكانوا جيرة لرفاعة بن زيد وكانت عير قد أقبلت من الشام بدرمك (وهو دقيق الحواري أي السميد) فابتاع منها رفاعة بن زيد جملا من درمك لطعامه، وكان أهل المدينة يأكلون دقيق الشعير فإذا جاء الدرملك ابتاع منه سيد المنزل شيئا لطعامه فجعل الدرملك في مشربة له وفيها سلاح فعدي بن أبيرق عليه فنقبوا مشربته وسرقوا الدقيق والسلاح، فلما أصبح رفاعة ووجد مشربته قد سرقت أخبر ابن أخيه قتادة بن النعمان بذلك فجعل يتحسس فأنبئ بأن بني أبيرق استوقد تلك الليلة نارا ولعله على بعض طعام رفاعة، فلما اتضح بنو أبيرق طرحوا المسروق في دار أبي خليل الأنصاري وقيل في دار يهودي اسمه زيد بن السمين وقيل لبيد بن سهل وجاء بعض بني ظفر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فاشتكوا إلى أن رفاعة وأخيه اتهما بالسرقة أهل بيت إيمان وصلاح فرميتهم بالسرقة على غير بينة" وأشاعوا في الناس أن المسروق في دار أبي خليل الأنصاري أو دار اليهودي فما لبث أن نزلت هذه الآيات واطلع الله ورسوله على جليلة الأمر، معجزة له، حتى لا يطمع أحد أن يروج على رسول الله ﷺ باطلا، وقد جاء في كتاب أسباب النزول للواحدي وفي بعض روايات الطبري سوق للقصة مخالفة لما ذكرته: وإن بني ظفر سألوا رسول الله ﷺ أن يجادل عن أصحابهم كي لا يفتضحوا ويبرئهم، ويتهم اليهودي وأن رسول الله ﷺ، هم بذلك³.

¹ سورة النساء، الآيات من 105 إلى 112.

² زاد المسير في علم التفسير، الجوزي، ج2، ص202، ط1، دار الفكر، بيروت، 1987. تيسير التفسير، المجدد اطفيش، ج3، ص332، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 1998.

³ أسباب النزول، الواحدي، ج1، ص174، ط1، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1968.

قال الرازي:¹ (قال العلماء هذا يدل على أن طعمة وقومه كانوا منافقين وإلا لما طلبوا من الرسول ﷺ، نصره الباطل في إلحاق السرقة باليهودي على سبيل الخرص والبهتان ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِوْنَكَ مِنْ شَيْءٍ "، واعلم أن في الآية تهديد شديد، ذلك لأن النبي ﷺ لما مال طبعة قليلا إلى جانب طعمة، وكان في علم الله أن طعمة كان فاسقا فالله تعالى عاتب رسوله على ذلك القدر من إعانة المذنب فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظلما ثم يعينه على ذلك الظالم بل يحميه عليه ويرغب فيه أشد الترغيب)².

وقوله "يبيتون" قال الزمخشري: (يدبرون ويزورون وأصله أن يكون بالليل) مالا يرضاه من القول وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد ليسرق دونه ويحلف ببراءته)³ وقوله تعالى: "هَآنَتْكُمْ هَآؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْفَيْمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٤﴾"؛ قال الرازي: (هذا الخطاب مع قوم مؤمنين كانوا يذودون عن طعمة وعن قومه بسبب أنهم كانوا في الظاهر من المسلمين)⁵ وقوله تعالى: "وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٦﴾" عمل السوء من الناس، وهو الاعتداء على حقوقهم ومعنى "يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا" ينسبه إليه ويحتال لترويج ذلك فكأنه ينزع ذلك الإثم من نفسه ويرمي به البريء والبهتان الكذب الفاحش وجعل الرمي بالخطيئة والإثم مرتبة واحدة في كونه إثما مبينا لأن رمي البريء بالجريمة في ذاته كبيرة لما فيه من الاعتداء على حق الغير ودل على عظم هذا البهتان بقوله "إِحْتَمَلَ" تمثيلا لحال فاعله بحال عناء الحامل ثقلا و"المبين" أي إثما ظاهرا لا شبهة فيه⁷.

¹ التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج4، ص191. 192. الكشف، الزمخشري، ج1، ص561. مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ج11، ص23.

² مفاتيح الغيب، المرجع نفسه، ج11، ص28.

³ الكشف، الزمخشري، ج1، ص562.

⁴ سورة النساء، الآية 108.

⁵ مفاتيح الغيب، المرجع نفسه، ج11، ص37.

⁶ سورة النساء، الآية 111.

⁷ التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج4، ص196.

ويتضح من سياق الآية والروايات التي رويت سببا لنزولها وما قاله قدامى المفسرين أن الله سبحانه وتعالى وفي الوقت الذي كان فيه اليهود ينشرون الأكاذيب ويولبون المشركين ويشجعون المنافقين ويرسمون لهم الطريق، ويطلقون الإشاعات، ويضللون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية ويشككون في الوحي والرسالة، ويحاولون تفسيح المجتمع الإسلامي من الداخل، وفي الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه في الوحي والرسالة، والإسلام ناشئ في المدينة، ورواسب الجاهلية ما يزال أثرها في النفوس ووشائح القربى والمصلحة بين المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم تمثل خطرا على تماسك الصف المسلم وتناسقه، في هذا الوقت الحرج، الخطر شديد الخطورة كانت هذه الآيات كلها تنزل على رسول الله ﷺ لتنصف رجلا يهوديا، اتهم ظلما بسرقة، ولتدين الذين تأمروا على اتهامه، وهم بيت من بيوت الأنصار في المدينة- والأنصار يومئذ هم عدة الرسول ﷺ، وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ومن خول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة.

يقول سيد قطب -رحمة الله عليه-: (أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي. ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذه القمة السامقة؟ وكل كلام، وكل تعليق، وكل تعقيب، يتهاوى دون هذه القمة السامقة، التي لا يبلغها البشر وحدهم إلا أن يقادو بمنهج الله إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء)¹.

وإذا كان هذا حال الإسلام مع اليهود وهم أشد الناس كيدا له وتأليباً عليه وعلى رسول الله ﷺ وأكثر الناس ترويجا للشائعات المسمومة ضد الإسلام وأهله فكيف يكون حاله مع غيره من الأعداء المسلمين المواعدين بالملتزمين بعهودهم .

ويتبين لنا أيضا أن نظافة المسلم وعدالته كفيلتان بأن يجعلاه يتورع عن رمي المسلمين من أعدائه وإشاعة قالت سوء عنهم حتى وإن فعلوا هم ذلك إلا وقت الحرب وعليه فإننا نستأنس بما مضى من آيات ونصوص وقول المفسرين لنؤكد أن الشائعة لا يجوز تعاطيها وترويجها حتى ضد الأعداء في وقت السلم.

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج2، ج5، ص751.

المطلب الثاني: أركان الحرب النفسية المجرمة في الفقه الإسلامي

يجعل الفقهاء المسلمون للجريمة أركاناً¹، لا يعد الفعل جريمة إلا إذا تكاملت فيه هذه الأركان، وإن هذه التجزئة - في ركن الجريمة - تتلاقى في الجملة مع أقوال شراح القانون الوضعي. ولكن وجب الإشارة إلى الخلاف في تحديد الأركان العامة للجريمة عند الفقهاء، أذكره فيما يلي:

الرأي الأول: من الفقهاء من يرى أن للجريمة أركاناً عامة متمثلة² في:

- **الركن الشرعي:** وهو أن يكون هناك نص يحظر الجريمة، ويعاقب عليها

- **الركن المادي:** وهو إتيان العمل المكون للجريمة، سواء كان فعلاً أم امتناعاً.

- **الركن المعنوي:** أن يكون الجانب مكلفاً، أي: مسؤولاً عن الجريمة.

* **الرأي الثاني:** للجريمة ركن واحد وشرطان.

الركن: هو الفعل المادي.

الشرطان: هما:

1- وجود نص يجرم الفعل، ويعاقب عليه.

2- أن يكون الجاني مكلفاً، أي: مسؤولاً عن الجريمة.

فالجريمة هي وحدها الفعل الذي ارتكب، ولكن لا عقاب عليه إلا بالنص، وأن يكون المرتكب أهلاً لتحمل التبعية.³

* **الرأي الثالث:** للجريمة ركنان، مادي ومعنوي:

¹ الجريمة، محمد أبو زهرة، ص 155.

² التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، ج 1، ص 110، ط 1، مكتبة نادي القضاء، القاهرة، 1984. السياسة الجنائية في الشريعة الإسلامية، أحمد فتحي بھنسي، ص 24، ط 1، دار الشروق، القاهرة، دت. الجريمة والعقاب في الفقه الإسلامي، يونس السيد، ص 27، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت.

³ الجريمة، محمد أبو زهرة، ص 157.

فالركن المادي يتحلل إلى ثلاثة عناصر، هي: الفعل أو النشاط أو السلوك، والنتيجة الإجرامية، ورابطة السببية المادية التي تربط بين الفعل والنتيجة¹

* وأرى أن الراجح: ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثاني، والقائل بأن الجريمة ركنا واحدا وشرطين، وذلك لأن ركن الشيء هو ماهيته التي لا يتحقق في الوجود بدونها، وهو أحد الجوانب التي يستند إليها الشيء ويقوم بها، وجزء من أجزاء حقيقتها. بينما الشرط ما لا يتم الشيء إلا به، ولا يكون داخلا في حقيقته.

ووجود نص يجرم الفعل ويعاقب عليه، وأن يكون الجاني مكلفا، ليس جزءا من أجزاء الجريمة، وإنما هما شرطان لا تقوم الجريمة بدونهما. وشرط وجود نص يجرم أفعال الحرب النفسية من شائعات ودعايات وأراجيف واضح من الآيات والأحاديث التي قمنا بسردها فيما سبق، ولا داعي لسردها منعا للتكرار. ويبقى أن أتكلم عن الركن المادي، واشتراط التكليف في الجاني. وسأجعل لكل نقطة شرحا خاصا بها كما يلي:

الفرع الأول: الركن المادي

لكل جريمة ركن مادي²، وهو: الفعل أو القول الذي ترتب عليه الأذى بآحاد الناس، أو الإفساد في المجتمع³.

وفي تعريف آخر هو: ارتكاب الفعل أو القول للأمر الذي ورد به النهي، وقررت له عقوبة يطبقها القضاء.

وبتعريف أعم من كل هذا هو: ارتكاب ما قرر الشارع له عقابا ليشمل بذلك جرائم الترك. فيتوفر الركن المادي للجريمة بإتيان الفعل المحظور، سواء كانت الجريمة إيجابية أم سلبية. وعناصر الركن المادي، هي: الفعل، والنتيجة الإجرامية، وعلاقة السببية بينهما⁴.

¹ الأحكام العامة للنظام الجنائي في الشريعة الإسلامية والقانون، عبد الفتاح الصيفي، ص 51، ط 1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1997.

² دراسات مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الجنائي شرعية الجرائم والعقوبات، خالد فراج، ص 30، ط 1، دار المعارف، القاهرة، 1967.

³ الجريمة، محمد أبو زهرة، ص 330.

⁴ نظرية الجرائم والعقوبات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، محمد نبيل الشاذلي، ص 152، ط 1، دار النهضة العربية، القاهرة، 2005.

وسأوضح المراحل التي يمر بها الفعل الإجرامي فيما يلي:

البند الأول: الفعل الإجرامي

وهو سلوك المجرم حينما ارتكب الجريمة أي تصرفه الذي نهي الشارع عنه وقرر من أجله العقوبة¹. والحد الفاصل بين الفعل الإجرامي وغير الإجرامي ليس هو القصد، إنما الفاصل هو الأذى والفساد الذي ترتب عليه العقاب، فما لا فساد فيه ولا عقاب لا يعد جريمة وما فيه الفساد يلزمه العقاب ولو أخرويا فيعد جريمة في لسان الشرع الإسلامي. فأى فعل يترتب عليه الفساد و الأذى يعد جريمة، والفعل الإجرامي هنا هو الإرجاف والتخويف وإذاعة الشائعات والدعايات وترديدها بأية وسيلة من شأنها إلحاق الضرر بالمسلمين.

والفعل الإجرامي لأية جريمة يمر بمراحل ثلاث، هي: التفكير والبدء في الأعمال التحضيرية للجريمة والبدء في تنفيذ الفعل الإجرامي.

المرحلة الأولى: التفكير

لا تقع الجريمة عادة دفعة واحدة، بل إنها قبل أن تتحقق تمر بعدة أدوار تطول وتقصّر بحسب ظروف الجريمة، وتبعاً لاختلاف الجرائم، فتبدأ الجريمة فكرة أم تتردد هذه الفكرة حتى تستقر في ذهن الجاني فيصمم عليها وهي في ذلك كله لا تخرج عن حيز النفس ولا يكون لها وجود مادي². وقد قرر الإسلام انه لا عقاب على ما يكون في القلب ولا يخرج إلى العمل ، فقد وردت الآثار المتضافرة التي تثبت انه لا عقاب في الدنيا ولا في الآخرة، عما توسوس به النفس³، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ ، قال الله عز وجل: ((إِذَا هُمْ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً. فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا))⁴.

¹ الفقه الجنائي الإسلامي - الجريمة -، محمود نجيب حسني، ص 359، ط 1، دار النهضة العربية، القاهرة، 2007.

² دراسات مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الجنائي، خالد فراج، ص 31.

³ الجريمة، محمد أبو زهرة، ص 332.

⁴ صحيح مسلم، مسلم، ج 1، ص 117، حديث رقم 128، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسية لم تكتب.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحُسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً))¹.

قال القرطبي: معنى ((فلم يعملها))، أي: لم يعزم على عملها².

وعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسَّوَسْتُ أَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ))³. فالقاعدة في الشريعة أنه لا عقاب على حديث النفس في الجريمة قبل ارتكابها⁴.

قال السيوطي: (ووقع في فتاوى قاضي القضاة تقي الدين بن رزين ان الإنسان إذا عزم على معصية، فإن كان قد فعلها ولم يتب منها فهو مؤاخذ بهذا العزم، فهو مؤاخذ بهذا العزم لأنه إصرار. وقد تكلم السبكي في الحلبيات على ذلك كلام مبسوطاً أحسن فيه جداً، فقال: الذي يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب:

الأولى: الهاجس، وهو ما يلقي فيها، ثم جريانه فيها، وهو الخاطر، ثم حديث النفس: وهو ما يقع فيها من التردد، هل يفعل أولاً؟ ثم الهم: وهو ترجيح قصد الفعل، ثم العزم، وهو قوة ذلك القصد والجزم به. فالهاجس لا يؤاخذ به إجماعاً، لأنه ليس من فعله وإنما هو شيء ورد عليه لا قدرة له ولا صنع. والخطر الذي بعده كان قادراً على دفعه بصرف الهاجس أول ورود، ولكنه هو وما بعده من حديث النفس مرفوعان بالحديث الصحيح، وإذا ارتفع حديث نفس ارتفع ما قبله بطريقه الأولى. وهذه المراتب الثلاثة أيضاً لو كانت في الحسنات لم يكتب له بها أجر)⁵.

¹ صحيح البخاري، البخاري، ج 5، ص 2380، حديث رقم 6126، باب من همّ بحسنة أو سيئة.

² الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 4، ص 215.

³ صحيح البخاري، المصدر نفسه، ج 6، ص 2454، حديث رقم 6287، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان.

⁴ نظريات في الفقه الجنائي الإسلامي، أحمد فتحي بجنسي، ص 40، ط 2، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1969.

⁵ الأشباه والنظائر، السيوطي، ج 1، ص 33، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1403 هـ.

وقال الشافعي: (فإنه جل وعز ظاهر عليهم الحجاج فيما جعل إليهم من الحكم في الدنيا بآل يحكم إلا بما ظهر من المحكوم عليه، وألا يجاوزوا أحسن ظاهره)¹.

ويقول أيضا: (وبذلك مضت أحكام رسول الله ﷺ فيما بين العباد من الحدود وجميع الحقوق، وأعلمهم أن جميع أحكامه على ما يظهرون، وأن الله يدين بالسرائر)².

ومما سبق يتضح أن الشريعة الإسلامية لا تعاقب على ما يدور في عقل الإنسان من تفكير في تدبير الجرائم، ما لم يبدأ في التنفيذ.

فلا يعد التفكير في الجريمة والتصميم على ارتكابها معصية يستحق العقاب عليها، وبالتالي جريمة يعاقب عليها³، فلا يعاقب مروج الشائعات داخل المجتمع الإسلامي على تفكيره في ترويج الشائعات، ومثله المرجف والمثبط وباقي أفعال الحرب النفسية المحرمة.

المرحلة الثانية: المرحلة التحضيرية للجريمة

يتبع التصميم على الجريمة التحضير لارتكابها، فيهيئ الجاني الوسائل التي توصله إلى تحقيق غرضه⁴.

وتعد الأعمال التحضيرية المظهر الخارجي للتفكير والتصميم والعزم على ارتكاب الجريمة⁵.

والوسائل التي يستخدمها الجاني لارتكاب الجريمة قد تكون وسائل في أصلها مباحة، وقد تكون في حد ذاتها معصية، وتعد مرحله التحضير معصية، وتعاقب عليها الشريعة إذا كانت حيازة الوسيلة، أو إعدادها مما يعد ذاته معصية، كمسلم أراد سرقة إنسان بواسطة إسكارة، فإن شراء المسكر أو حيازته يعد بذاته معصية يعاقب عليها، دون حاجة لتنفيذ الغرض الأصلي⁶.

وحدث خلاف بين الفقهاء في حالة ما إذا كانت الأعمال التحضيرية في أصلها مباحة، وقد جاء في كتاب الجريمة للإمام محمد أبي زهرة رصد هذا الخلاف (ذهب المالكية والحنابلة باعتبارها جريمة، بينما

¹ الأم، الشافعي، ج7، ص295.

² المرجع نفسه، ج7، ص296.

³ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، ج1، ص347.

⁴ دراسات مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الجنائي شرعية الجرائم والعقوبات، خالد فراج، ص30.

⁵ نظريات في الفقه الجنائي الإسلامي، أحمد فتحي بھنسي، ص42.

⁶ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، المرجع نفسه، ج1، ص374.

لا يعتبرها الفقه الشافعي والحنفي جريمة، وأساس هذا الخلاف هو النظر إلى البواعث في التصرفات، لأنها تتصل بالنيات، وأن الله عز وجل قد تجاوز عما توسوس به النفس.

أما الحنابلة والمالكية فيرون أن البواعث النفسية إذا بدأ من العمل ما يدل على المقصد، وأنه متجه إليها فإنها لا تكون خواطر، أو نيات مجردة بل تكون عملاً مجرماً إذا اخذ طريقه إلى الحرام، والاحتياط لحرمات الله عز وجل توجب الضرب على يد الآثم وقت ابتداء السير في الطريق، لكيلا يصل إلى غايته¹.

والوسائل التي تستخدم في ترويج الأراجيف والشائعات قد تكون أوراقاً، أو طابعة، أو مذياعاً، أو غير ذلك من الوسائل، وهي وسائل في أصلها مباحة.

ونرى - والله أعلم - مصادرة تلك الوسائل من المتهم ومعاقبته عقاباً دون عقاب الجريمة الأصلية، كونها تحضيراً للجريمة، إذا تأكد القاضي أنه سيستخدمها في ترويج الشائعات والأراجيف مثلاً، وذلك لأن ترويج الشائعات والأراجيف تهدد أمن الدولة، ويهرب الجيش المسلم، فينبغي الضرب على أيدي المرجفين حتى لا تنتشر الشائعات فالشريعة الإسلامية تأمر بالحيطة فتوجب على قائد الجيش استعراض الجيش قبل الغزو وإخراج المرجفين منه، أما إذا لم يتأكد القاضي من أن الجاني سيستخدمها في ترويج الشائعات والأراجيف، فحيازة تلك الوسائل المباحة، وذلك لأن يخطئ القاضي في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة.

المرحلة الثالثة: تنفيذ الجريمة

في هذه المرحلة يرتكب الجاني الفعل الذي يتم به جريمته، وهو نتيجة للأعمال التي ابتدأها، سواء أكانت من أعمال الجوارح أم كانت من فعل اللسان².

وهناك خالف بين الفقهاء في تحديد بدء التنفيذ، أرصده على النحو التالي:

الرأي الأول: يقول أحمد فتحي بهنسي: (ذهب غالبية الفقهاء إلى اعتبار الجاني بدا في تنفيذ جريمته، عندما يقوم بأحد الأفعال التي يتكون منها الركن المادي، أو يبدوه في فعل من هذه الأفعال)³.

¹ الجريمة، محمد أبو زهرة، ص 336.

² المرجع نفسه، ص 336.

³ نظريات في الفقه الجنائي الإسلامي، أحمد فتحي بهنسي، ص 43.

الرأي الثاني: جاء في كتاب نظريات في الفقه الجنائي الإسلامي: (يرى آخرون - ومنهم الشافعي والحسن والسيدة عائشة: أن العبرة بنفسية الجاني، فإذا دخل اللص المكان الذي ينوي سرقة، وجمع المتاع المراد سرقة، وضبط قبل خروجه، عد فعله جريمة سرقة تامة، وليس بدءا في تنفيذ الجريمة)¹، ويشترط في الأراجيف والشائعات الماسة بأمن الدولة والتي يرددها الجاني في هذه المرحلة، أن يكون فيها اعتداء على حق الجماعة. ويكون التنفيذ بكل قول، أو فعل من شأنه أن يحدث أذى، أو الفساد الذين حرّمهما الشارع الحكيم. فيشترط في الأراجيف والشائعات الماسة بأمن الدولة أن يكون من شأنها إحداث الأذى أو الفساد، ولا يشترط وسيلة معينة.

الفرع الثاني: أن يكون الجاني مكلفا

المسؤولية هي: تحميل الإنسان نتيجة عمله²، والمسؤولية الجنائية في الشريعة الإسلامية هي: أن يتحمل الإنسان نتائج الأفعال المحرّمة التي يأتيها مختارا، وهو مدرك لمعانيها ونتائجها³. فيكون الجاني مسؤولا عن أفعال جريمته متى ارتكب الجريمة، وهو متمتع بإدراكه وإرادته، وألا يكون في ذلك مستعملا لحق، أو قائما بواجب عليه⁴. فمن أتى فعلا لا يريده - كالمكره، والمغمى عليه - لا يُسأل جنائيا عن فعله، ومن أتى فعلا محرّما، وهو يريده، ولكنه لا يدرك معناه - كالطفل، أو المجنون - لا يُسأل أيضا عن فعله⁵. فالمسؤولية الجنائية في الشريعة الإسلامية تقوم على الأسس الآتية:

1- إتيان فعل محرّم.

2- أن يكون الفاعل مختارا.

¹ نظريات في الفقه الجنائي الإسلامي، أحمد فتحي بهنسي، ص44.

² المسؤولية الجنائية في الفقه الإسلامي، أحمد فتحي بهنسي، ص45.

³ جرائم أمن الدولة وعقوبتها في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، يوسف عبد الهادي الشال، ص25، ط1، المختار الإسلامي، القاهرة، دت.

⁴ دراسات مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الجنائي، خالد فراج، ص32.

⁵ جرائم أمن الدولة وعقوبتها في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، المرجع نفسه، ص25.

3- أن يكون مدركا.

4- ألا يكون في ذلك مستعملا لحق، أو قائما بواجب عليه.

فإذا ارتكب الإنسان حال اختياره، وإدراكه فعلا نصّت الشريعة على تحريمه، عدّ مسؤولا مسؤولية جنائية¹.

وسأبين ذلك فيما يلي:

البند الأول: إتيان فعل محرّم

من المبادئ الأساسية في الفقه الإسلامي ألا مسؤولية جنائية بدون عصيان، فالخطأ أساس المسؤولية الجنائية، إذا انعدم فلا يُسأل عمّا حدث².

ومن المتفق عليه أنّ الأفعال المحرّمة يؤمر بها، أو يُنهى عنها؛ لأنّ في إتيانها أو في تركها ضرر بنظام الجماعة، أو عقائدها، أو بحياة أفرادها، أو بأموالهم، أو بأعراضهم، أو بمشاعرهم، أو بغير ذلك من الاعتبارات التي تمس مصالح الأفراد، أو مصالح الجماعة، ونظامها³. فارتكاب المعصية هو سبب المسؤولية⁴.

والفعل المحرّم هنا هو: الأراجيف والدعايات والشائعات وترديدها.

فإذا لم يأت المتهم بالفعل الإجرامي فليس ثمة جريمة يُسأل عليها.

البند الثاني: أن يكون مدركا مختارا

إذا لم يكن الجاني مدركا أو مختارا فلا عقاب؛ لأنّ المكلف بإتيان فعل، أو تركه يجب أن يفهم الخطاب الموجّه إليه، أي: الأمر والنهي، وهو لا يستطيع أن يفهم ذلك إلّا إذا كان عاقلا⁵.

يقول الأمدى في الأحكام: (اتفق الفقهاء على أنّ شرط المكلف أن يكون عاقلا، فاهما للتكليف؛ لأنّ التكليف خطاب، وخطاب من لا عقل له، ولا فهم محال، كالجماد والبهيمة)⁶.

¹ نظرية الجرائم والعقوبات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، مُجد نبيل الشاذلي، ص 157.

² المسؤولية الجنائية في الفقه الإسلامي، أحمد فتحي بهنسي، ص 45.

³ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، ج 1، ص 383.

⁴ من الفقه الجنائي المقارن بين الشريعة والقانون، أحمد مواني، ص 170 ط 1 المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1965.

⁵ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، المرجع نفسه، ج 1، ص 385-387.

⁶ الأحكام، الأمدى، ج 1، ص 199.

فيقوم التكليف في الإسلام على العقل الكامل، لا على مجرد التمييز، فالعقل أداة الفهم والتفكير، وبزواله ينتفي أعظم مقوم للإنسانية، ويكون التكليف كتكليف البهائم لا يصلح به أمر، ولا تندفع به حجة¹.

فلا يكلف المجنون، ولا الصبي، ولا النائم، ولا السكران؛ لأنهم حين تلبسهم بهذه الأوصاف لا يفهمون دليل التكليف، فلا يعقل توجيه الخطاب إليهم².

ولهذا قال رسول الله ﷺ: ((رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيْقَ))³. ومؤدى هذا الحديث أن الجريمة لا يحمل تبعاتها أي: لا يُسأل عنها غير المميز. وعن ابن عباس -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَنِ الْخَطَا وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))⁴.

فالإكراه -بلا شك- يتضمن التهديد بأذى ينال المكروه، إما في ماله، أو في جسمه، أو بالأذى له بما دون ذلك، كالسب⁵؛ لذلك المكروه، أو المغمى عليه إذا أتى فعلا محرّما، وهو لا يريده لا يُسأل جنائيا عن فعله⁶. فالأفعال المحرّمة تباح بالإكراه، كما تباح المحرّمات بالاضطرار. ويشترط لوجود الإكراه ما يلي⁷:

- 1- أن يكون الوعيد ملجئا، أي: ممّا يستتضر به ضرر كبير؛ بحيث يعدم الرضا.
- 2- أن يكون الوعيد بأمر يوشك أن يقع، إن لم يستجب المكروه.
- 3- أن يكون المكروه قادرا على تحقيق وعده.
- 4- أن يغلب على ظن المكروه أن التهديد سيقع، لو لم يمتثل إلى ما دُعي إليه.

¹ أصول التشريع الإسلامي، علي حسب الله، ص 337، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1959.

² المرجع نفسه، ص 337.

³ صحيح ابن حبان، ابن حبان، ج1، ص 355، حديث رقم 142.

⁴ سنن الدارقطني، الدارقطني، ت: عبد الله بمان، ج4، ص 170، حديث رقم 33، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1966.

⁵ الجريمة، أبو زهرة، ص 450.

⁶ الجريمة في الفقه الإسلامي، حسن صقر زايد، ص 60.

⁷ المبادئ العامة في الفقه الجنائي الإسلامي، مُجد إسماعيل فرحات، ص 185، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1997.

فالعقل والإرادة الحرة المختارة هي: مناط تحمل التبعية تحملا كاملا من حيث النتائج والغايات؛ ولذلك أجمع الفقهاء على أنّ العاقل الكامل العقل المريد المختار الذي يعلم النتائج ويرتضيها؛ عليه تبعة كاملة، فيتحمل العقوبة¹.

فإذا رَوَّج المتهم الشائعات والأراجيف، وهو عالم بأنّ من شأنها تهديد المصالح التي تحميها الشريعة الإسلامية، وارتضى ذلك، تحمّل تبعة فعله.

القصد الجنائي (قصد العصيان)

هو تعمّد إتيان الفعل المحرّم، أو تركه، مع العلم بأنّ الشارع يحرمّ الفعل، أو يوجبّه². وفي تعريف آخر للقصد الجنائي هو: القصد إلى الفعل مع الرضا بنتائجه، وطلبها³.

وحاول البعض التفرقة بين العصيان، وقصد العصيان، فقال: (وينبغي ألا يفوتنا إدراك الفرق بين العصيان، وقصد العصيان؛ فالعصيان عنصر ضروري، ويجب توفره في كلّ جريمة، سواء كانت الجريمة بسيطة أم جسيمة من جرائم العمد أو من جرائم الخطأ، فإذا لم يتوفر عنصر العصيان في الفعل فهو ليس جريمة).

والعصيان هو: فعل المعصية، أي: إتيان الفعل المحرّم، أو الامتناع عن الفعل الواجب دون أن يقصد الفاعل العصيان، كمن يُلقِي حجرا من نافذة؛ ليتخلّص منه، فيصيب به مارا في الشارع، فهو قد فعل معصية بإصابة غيره، ولكنه لم يقصد بأيّة حال أن يصيب غيره، ولم يقصد بالتالي فعل المعصية. أما قصد العصيان، فهو: اتجاه نية الفاعل إلى الفعل، أو الترك مع علمه بأنّ الفعل أو الترك محرم، أو هو: فعل المعصية بقصد العصيان⁴.

وهناك من ذهب إلى أنّ كلمة العصيان تحوي قصد العصيان، وإن لم يذكر القصد مقرونا بها⁵.

¹ الجريمة، أبو زهرة، ص 367.

² التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، ج 1، ص 409.

³ الجريمة، المرجع نفسه، ص 347.

⁴ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، المرجع نفسه، ج 1، ص 409.

⁵ المسؤولية الجنائية في الفقه الإسلامي، أحمد فتحي بھنسي، ص 45.

والتفرقة بين العصيان وقصد العصيان تقابل التفرقة بين الإرادة وتعمد الفعل المحرم أو تركه، وبين القصد، وهو: تعمد النتيجة المترتبة على الفعل المادي¹. ويستوي في الشريعة أن يكون القصد سابقا للجريمة، أو معاصرا لها، فالعقوبة في الحالتين واحدة؛ لأن أساس تقدير العقوبة، هو: القصد المقارن للفعل².

القصد العام للعصيان، والقصد الخاص

الباحث في الفقه الإسلامي يجد أنّ فقهاء الإسلام قد عرفوا هذين المصطلحين، وإن كانوا لم يطلقوها على مدلوليهما؛ حيث يوجد عندهم: أنّ من يأخذ شيئا لغيره، ويعدمه في مكانه لا يعدّ سارقا، بل مرتكبا لجريمة إتلاف، وكذلك من استهلك شيئا في محله؛ بأن أكله مثلا، أو شربه لا يعدّ سارقا، إلّا إذا أخذ هذا الشيء وحرزه³.

ويتوفر القصد العام كلّما تعمد الجاني ارتكاب الجريمة، مع علمه بأنه يرتكب محظورا. وأكثر الجرائم يُكتفى فيها بتوفر القصد الجنائي العام، كجريمة الجرح، والضرب البسيط، فإنّه يكفي فيها أن يتعمد الجاني إتيان الفعل المادي مع علمه بأنّه يأتي فعلا محرّما. وفي بعض الجرائم لا يكفي الشارع بالقصد العام بل يشترط أن يتوفّر قصدا خاصا؛ كتعمد نتيجة معينة، أو ضرر خاص⁴.

ومن المسلم به أنّه ينبغي أن يتعمد الجاني الفعل المحرم؛ حتى يقع تحت طائلة العقاب، لكن: هل القصد المطلوب في الجريمة موضوع البحث هو القصد العام، أم القصد الخاص؟.

في الحقيقة إن فقهاء الشريعة الإسلامية اهتموا بمعالجة العمد في مجال الجنايات والحدود، وفي القليل من جرائم التعزير، ولم يهتموا بدراسة القصد الجنائي في بعض جرائم التعزير. ويمكن لنا أن نرجع عدم اهتمامهم بتحديد القصد الجنائي في بعض جرائم التعزير، إلى أنّ غالبية جرائم التعزير - وهي كثيرة - يحددها وليّ الأمر، ويحدّد العقوبة التي يراها مناسبة، ويحدّد القصد المطلوب لتوفّر المسؤولية الجنائية⁵.

¹ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، ج1، ص410.

² الجريمة والعقاب في الفقه الإسلامي، يونس السيد الشافعي، ص159.

³ القصد الجنائي بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي، سعد الجبالي، ص37، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، دت.

⁴ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، المرجع نفسه، ج1، ص413.

⁵ الأحكام العامة للنظام الجنائي في الشريعة الإسلامية والقانون، عبد الفتاح الصيفي، ص335.

ونرى أنّ القصد المطلوب في الجريمة محلّ الدراسة، هي القصد العام. فيكفي تعمّد الجاني ترويج الأراجيف والشائعات وغيرها من أشكال الحرب النفسية، مع علمه بارتكاب محذور بإرادة حرّة مختارة؛ وذلك لأنّ منهج الشريعة الإسلامية في مواجهة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة منهج وقائي، وآخر عقابي.

فالمرحلة الأولى في مواجهة الحرب النفسية: مواجهة وقائية، تتمثل في دروع واقية وضعتها الشريعة الإسلامية؛ لوقاية الأمة من الأراجيف والدعايات والشائعات.

والمرحلة الثانية: تتمثل في المنهج العقابي.

وهذا يدلّ على أنّ الشريعة الإسلامية اعتبرت كل ما يقع على أمن الدولة من حرب نفسية جرائم خطر، فواجهتها بمنهجين: وقائي، وعقابي، والقصد العام يتمشى مع منهج الشريعة الذي وضعته لمواجهة الحرب النفسية الماسّة بأمن الدولة؛ ذلك أنّ القصد الخاص هو: تطلّب نتيجة معيّنة، فإذا اشترط القصد الخاص في هذه الجريمة، لأمكن لبعض المروجين الإفلات من العقوبة.

ولما كان قصد العصيان في الفقه الإسلامي عبارة عن إرادة تتعلّق بالسلوك الإجرامي، الذي يفترض أن يكون صاحبه عالما بالنهاي عنه، كان غُضْرًا هذا القصد هما: الإرادة الآثمة، والعلم بالسلوك المنهي عنه.

فيشترط لقيام المسؤولية الجنائية أن يكون مروج الأراجيف والشائعات والدعايات عالما بالفعل الذي يرتكبه مريدا له، فيشترط أن يكون الجاني أراد الإضرار بمصلحة من المصالح التي ترعاها الشريعة الإسلامية، ويعلم أنّ ذلك منهي عنه.

الفصل الثاني: تجريم الحرب النفسية في التشريع الجزائري

إنّ دراسة الأحكام القانونية الخاصة بالجريمة-أي جريمة- يوجب بيان أمرين:

الأول: الأركان العامة التي تقوم عليها تلك الجريمة.

الثاني: الأركان الخاصة لتلك الجريمة.

وفي الأركان يتم تحديد الضوابط التي قام عليها الوصف القانوني للجريمة، وذلك يوجب بيان مختلف العناصر والشروط والأوصاف التي حددها النص القانوني المنشئ للجريمة، سواء في ذلك ما حدده صراحة أو ما اقتضاه ضمنا. وفي العقوبة يتم تحديد أنواع ومقادير الجزاءات المقررة للجاني، وتحديد الأسباب الموجبة- أو المجيزة- للتشديد أو التخفيف، ومن ثم فإننا في بياننا لأحكام الحرب النفسية في التشريع الجزائري نحتاج إلى بيان هذين الأمرين في مبحثين كالآتي:

المبحث الأول: الأركان العامة لجريمة الحرب النفسية في التشريع الجزائري.

المطلب الأول: الركن الشرعي لجريمة الحرب النفسية.

المطلب الثاني: الركن المادي لجريمة الحرب النفسية.

المطلب الثالث: الركن المعنوي لجريمة الحرب النفسية.

المبحث الثاني: الأركان الخاصة لجريمة الحرب النفسية في التشريع الجزائري.

المطلب الأول: محل جريمة الحرب النفسية.

المطلب الثاني: صفة الجاني.

المطلب الثاني: الأركان الخاصة لجريمة الحرب النفسية في التشريع الجزائري.

المبحث الأول: الأركان العامة لجريمة الحرب النفسية في التشريع الجزائري

تقوم جريمة الحرب النفسية على أركان ثلاثة¹ هي:

الركن الشرعي: الذي يعني النصوص المحددة للجريمة والمبيّنة لعقوبتها.

الركن المادي: الذي يقوم على أفعال الحرب النفسية من شائعات ودعاية وإذاعة، وعلى نتيجة مفترضة هي الإضرار بمصالح معينة محمية بنصوص الشرع والقانون.

الركن المعنوي: الذي يتخذ صورة القصد الجنائي.

المطلب الأول: الركن الشرعي لجريمة الحرب النفسية

إنّ وصف الحرب النفسية بأنها جريمة يعني أن نصوص القانون قد وضعت لها حكما محددًا هو التحريم، إذ لا جريمة ولا عقوبة أو تدابير أمن بغير قانون²، والحديث في الركن الشرعي لهذه الجريمة يوجب بيان الأمور الآتية:

- حصر النصوص المبيّنة لأحكام هذه الجريمة في التشريع الجزائري.
- بيان حدود التحريم وحالات الإباحة.
- بيان العلة التي من أجلها وضعت هذه النصوص.

الفرع الأول: النصوص المبيّنة لأحكام هذه الجريمة

إنّ المقنن الجزائري لم يتكلّم عن جريمة الحرب النفسية بهذا المصطلح بالذات، ولكن تحدث عن أفعال الحرب النفسية بشكل عام، والمتتبع لقانون العقوبات الجزائري أو قانون الإجراءات الجزائية وقانون

¹ وهذا التقسيم الثلاثي للأركان التي تقوم عليها جريمة الحرب النفسية هو تطبيق للأركان العامة للجريمة بصفة عامة، وذلك بحسب المذهب الغالب في فقه القانون، والأصل أن تكون إلى جانب الأركان العامة أركان خاصة بكل جريمة على حدى، تناسب طبيعتها وتسهل التعرف عليها، وتميزها عن سواها مما يشتبه بها من جرائم، وفي جرائم الحرب النفسية يمكن الكشف عن أركان خاصة بها تضاف إلى الأركان العامة المشار إليها، وأهمها: موضوع الجريمة، أي المحل الذي تنال منه هذه الجريمة، أو المصلحة التي توقع هذه الجريمة أضرارًا بها، وكذلك صفة الجاني الذي يقارن هذه الجريمة. انظر: الوسيط في قانون العقوبات - القسم العام -، أحمد فتحي سرور، ص 256، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1981.

² المادة 01 من الأمر رقم 66-156 المؤرخ في صفر عام 1386 الموافق ل 8 يونيو سنة 1966، الذي يتضمن قانون العقوبات الجزائري، المعدل والمتمم.

القضاء العسكري، يجد عبارة المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية، وهو ما ورد في الفصل الأول الخاص بالجنايات و الجنح ضد أمن الدولة، قسم جرائم الخيانة والتجسس من قانون العقوبات الجزائري في المواد 62، 64، والقسم الثاني الخاص بجرائم التعدي على الدفاع الوطني أو الإقتصاد الوطني في المادة 75 منه، وكذا عبارة الأخبار أو الأنباء الكاذبة أو المغرضة الماسّة بالأمن العمومي أو النظام العام في القانون رقم 20-06 الذي يعدّل ويتمم الأمر رقم 66-156 قانون العقوبات في المادة 196 مكرر وهو الجديد الصادر سنة 2020¹. ونفصّل كما يلي:

المادة 4/62 ق.ع.ج: يرتكب جريمة الخيانة ويعاقب بالإعدام كل جزائري وكل عسكري أو بحار في خدمة الجزائر يقوم وقت الحرب بأحد الأعمال الآتية:

المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش أو للأمة يكون الغرض منه الإضرار بالدفاع الوطني مع علمه بذلك².

المادة 64 ق.ع.ج: يرتكب جريمة التجسس ويعاقب بالإعدام كل أجنبي يقوم بأحد الأفعال المنصوص عليها في المادة 62 (المذكورة آنفا)، ويعاقب المحرّض على ذلك بذات العقوبة³.

المادة 75 ق.ع.ج: يعاقب بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات كل من يساهم وقت السلم في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش يكون الغرض منه الإضرار بالدفاع الوطني وهو عالم بذلك⁴.

المادة 196 مكرر ق.ع.ج: يعاقب بالحبس من سنة (1) إلى 3 (سنوات) وبغرامة من 100.000 دج إلى 300.000 دج كل من ينشر أو يروج عمدا، بأيّ وسيلة كانت، أخبارا أو أنباء كاذبة أو مغرضة بين الجمهور يكون من شأنها المساس بالأمن العمومي أو النظام العام.

¹ القانون رقم 20-06، المؤرخ في 28 أبريل 2020، المعدل والمتمم للأمر رقم 66-156 والمتضمن قانون العقوبات، الجريدة الرسمية رقم 25، بتاريخ 29 أبريل 2020م

² المادة (4/62) من الأمر رقم 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

³ المادة (64) من الأمر رقم 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

⁴ المادة (75) من الأمر رقم 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

تضاعف العقوبة في حالة العود¹.

الفرع الثاني: حدود التجريم وحالات الإباحة

الأصل في الحرب النفسية وأفعالها، أنها إخبار بأمر ما على نحو مثير، بحيث يكون من شأن ذلك الإخبار أن يحدث أثرا، إما بالنظر إلى طبيعته، أو بالنظر إلى الهيئة التي قدم بها، أو بالنظر إلى الظروف المحيطة بها.

وهذا الأثر قد يكون ضارا ممنوعا، وقد يكون نافعا مطلوبا، ولا تكاد تخرج الحرب النفسية في حقيقتها عن كونها سلاحا يمكن استخدامه لتحقيق نتائج محرمة واستخدامه لتحقيق نتائج مباحة، بل ومطلوبة، بل ولازمة وضرورية.

وعلى مقتضى هذا المفهوم يمكن أن نحدد حدود الحرمة وحدود الإباحة في أعمال الحرب النفسية.

البند الأول: حدود التجريم في أفعال الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة

من المعلوم أن الأصل في الأفعال الإباحة، وأن هذا الأصل لا يهدم إلا بدليل قائم على علة ظاهرة معلومة أو خفية مفهومة، ولا شك أن أوضح العلل التي من أجلها تحرم الأفعال هي كون الفعل مضرا بمصالح جديرة بالحماية².

ومن هذا المنطلق يمكن فهم أحكام الحرمة في أفعال الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة إذ أنها لا تخرج عن هذا الأصل، وهذا يعني أن الحرب النفسية تكون مجرمة كلما كانت محدثة ضررا بمصلحة أو أكثر من المصالح العامة، أو من شأنها إحداث ذلك الضرر.

¹ المادة (196 مكرر) من القانون رقم 20-06 المؤرخ في 05 رمضان 1441هـ الموافق 28 أفريل 2020، يعدل ويتمم الأمر رقم 66-156 ق.ع.ج، ج.ر، ع25، س57، 29 أفريل، 2020.

² شرح قانون العقوبات الجزائري، عبد الله سليمان، ج1، ص117، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 2009.

ولا شك أن من حق كل أمة أن تضع على مصالحها العامة سياجا حاميا يكف عنها أيادي وألسنة وأعمال العابثين، فتحرم كل عمل يضر بتلك المصالح بما في ذلك أعمال الحرب النفسية المغرضة المضرة بالمصالح العليا للأمة، سواء كان في ذلك في زمن الحرب أو زمن السلم، وسواء وقع الفعل من وطني أو أجنبي، وسواء وقع داخل البلاد أو خارجها، ولها في سبيل ذلك وضع القيود المناسبة على حرية النشر والبت وحرية التلقي والاستقبال، كما أن لها أن تشوش على وسائل البث الموجهة نحوها مادام مستهدفا للإضرار بمصالحها¹، وأن تمنع وتصادر وتتلغ المنشورات والمطبوعات الضارة بمصالحها العامة.

إن للدولة الحق أيضا في إسقاط الجزاء على كل شخص أو فئة تبث أخبارا مثيرة تستهدف الإضرار بأي مصلحة وطنية. ولكن لا بد أن يكون ذلك كله في إطار الشرعية العامة، وفي حدود الضوابط المقررة قانونا، وبعد استنفاد كافة وسائل الدفاع الأخرى، وهذا يعني وجوب سن القوانين المنظمة لأعمال الحرب النفسية وغيرها من أعمال المخاطبات، بحيث تحدد الأفعال المحرمة وتبين الجزاءات المقررة لكل فعل منها. ومن أجل ذلك وضع المشرع الجزائري النصوص العقابية المذكورة آنفا، ليحدد الفعل المجرم والمعاقب عليه بشيء من العموم والمتمثل في: المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية وفيه إشارة واضحة للحرب النفسية. ومع ذلك فقد تطرأ ظروف عارضة تدعو لتحريم ما لم يكن محرما، كما هو الشأن في حالات الظروف الاستثنائية سواء كانت ظروف حرب أو اضطرابات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، إذ يصح في ظل تلك الظروف التوسع في حالات الحظر والتشدد في الجزاءات العقابية بحسب ما تقتضيه ظروف الوضع الاستثنائي وفي حدوده. ومن جهة أخرى فإن جسامه الجرم ووقته يجب أن تكون دائرة مع جسامه الضرر الذي أحدثته الحرب النفسية، أو أن من شأنها إحداثه، ومن أجل ذلك تدرجت العقوبة الجزائية واختلفت بين زمن الحرب وزمن السلم².

¹ ذكر بعض الباحثين أن أول تشويش إذاعي في العالم كان في عام 1934م، عندما وضعت حكومة النمسا صفارة قوية على الموجة التي ترسل عليها الإذاعة الألمانية. انظر: الحرب الإذاعية، فؤاد بن حالة، ص58، ط2، دار نهر النيل، القاهرة، 1989.

² المادة 4/62 ق.ع.ج: يرتكب جريمة الخيانة ويعاقب بالإعدام كل جزائري وكل عسكري أو بحار في خدمة الجزائر يقوم وقت الحرب بأحد الأعمال الآتية:

المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش أو للأمة يكون الغرض منه الإضرار بالدفاع الوطني مع علمه بذلك .

ولا شك أنه يصعب حصر جميع الأخطار والأضرار التي تنجم عن الحرب النفسية، لكن من أعظم الأخطار محاولة غرباك صانعي القرار بضفة عامة واحتمال التسرع أو الإبطاء في إصدار القرارات في بعض القضايا المهمة، إضافة إلى احتمال سوء الحكم على أمور جوهرية أو طمس الحقائق أو الحق مما يؤدي إلى إحداث البلبلة في الفكر والسلوك وإشغال المسؤولين والمواطنين عن مصالحهم الجوهرية والانشغال بقضايا فرعية، فإن أيا من ذلك قد يشكل خطرا على أمن أي مجتمع وله آثار سلبية على أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والأمنية¹.

وخلاصة القول: أن حدود التحريم في أفعال الحرب النفسية هي كل فعل يستهدف إلحاق الضرر العام مهما كان نوعه سواء كان عسكريا أو سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا...

البند الثاني: حدود الإباحة² في أعمال الحرب النفسية

إذا كانت القواعد العامة تقتضي بتحريم كل أعمال الحرب النفسية من دعاية وإشاعة ونشر...تحمل في طياتها نتائج ضارة على أمن الدولة، فإن هذه القواعد ليست مطلقة بل ترد عليها قيود، ترجع إما لانتفاء الضرر العام في حالات خاصة أو لرعاية مصلحة أولى بالرعاية، ويكون ذلك في الحالات الآتية:

<

المادة 75 ق.ع.ج: يعاقب بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات كل من يساهم وقت السلم في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش يكون الغرض منه الإضرار بالدفاع الوطني وهو عالم بذلك.

¹ الإشاعة وأثرها على أمن المجتمع، محمد القحطاني، ص 63، ط 1، دار طويق، الرياض، 1418هـ.

² لا تنحصر مصادر الإباحة في قانون العقوبات، كما هو الشأن في نصوص التجريم أو تقرير العقوبات، التجريم أو بيان أنواع التدابير، ففي الإباحة يجوز القياس وليس في ذلك تعطيل لمبدأ الشرعية، حيث أننا لا نحرّم فعلا مباحا. وزيادة على ذلك يجوز فيها الاستناد إلى قواعد العرف أو الشريعة الإسلامية أو إلى نصوص القوانين الوضعية الأخرى لتقرير وجوب سبب إباحة. وهذا ما جعل أحد فقهاء القانون (محمود نجيب حسني) يقول بأن أسباب التبرير تكون قد وردت في قانون العقوبات على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر، علما أن غالبية الفقه يرى أن أسباب الإباحة قد وردت في قانون العقوبات على سبيل الحصر لا المثال، وإن جاز فيها الأخذ بالقياس أو العرف أو ما تقره القوانين الأخرى. وفي قانون العقوبات الجزائري نجد أنه حدد أسباب التبرير في كل فعل يأمر أو يأذن به القانون أو في حالة الدفاع الشرعي (المادتان 39 و 40) وعليه فلا يجوز إضافة أي سبب آخر لهذه الأسباب التي وردت على سبيل الحصر. انظر: شرح قانون العقوبات الجزائري، عبد الله سليمان، ج 1، ص 117-118.

أولاً- ما يأمر أو يأذن به القانون

تجدر الإشارة أنه لا يقتصر معنى القانون هنا على قانون العقوبات، غد يقصد به كل قاعدة قانونية بمعنى عام، فيدخل ضمنه العرف والشرعة الإسلامية والقوانين الوضعية الأخرى¹.

وفي موضوعنا الخاص بالحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، تستخدم هنا الحرب النفسية استخدام السلاح في أعمال المواجهة ضد العدو أو ضد العصابات الإجرامية في الداخل، أو ضد الأشخاص المتمردين على النظام والقانون، فيتعين الواجب بإطلاق إشاعات مثلاً موجهة لإحداث آثار مقصودة وإن كانت غير صادقة، كالإشاعات التي تطلقها أجهزة الدعاية والإعلام الوطني في زمن الحريق أو عند مواجهة الفتن أو الكوارث أو عند التصدي لأعمال إجرامية أو نحو ذلك. ولكن ينبغي أن تكون أعمال الحرب النفسية عندئذ منتظمة وهادفة بالقدر الذي لا يظلل الناس أو يخدعهم، بمعنى أنه لا بد أن تكون بالقدر والأسلوب الذي يحقق النفع ويتجنب الضرر.

ثانياً: الدفاع الشرعي

نصت المادة 39 ق.ع.ج على: (لا جريمة

- 1- إذا كان الفعل قد أمر أو أذن به القانون.
 - 2- إذا كان الفعل قد دفعت إليه الضرورة الحالة للدفاع المشروع عن النفس أو عن الغير أو عن مال مملوك للشخص أو للغير بشرط أن يكون الدفاع متناسباً مع جسامة الاعتداء)².
- يرى غالبية الفقه بأن الدفاع الشرعي يقوم على فكرة المقابلة أو الموازنة بين المصالح، وتقديم مصلحة أولى بالرعاية تحقيقاً للمصالح العام. ففعل الدفاع يصون حق المعتدى عليه، وهو الحق الأجدر بالرعاية في نظر المشرع³.

¹ قانون العقوبات - القسم العام -، مأمون سلامة، ص 181، ط 6، دار النهضة العربية، القاهرة، 1998.

² المادة (39) من الأمر 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

³ شرح قانون العقوبات - القسم العام -، محمود نجيب حسني، ص 193-194، ط 6، دار النهضة العربية، القاهرة، 1989.

مما سبق يتضح أن الحرب النفسية المستخدمة لمواجهة حرب نفسية أخرى، من أجل إبطال أثرها أو عكسها لتحديث نتائج ضارة في صفوف العدو، لا بد أن تكون مباحة بنص القانون صراحة على أنها من الأفعال المبررة، ولكونها لم تعد مستهدفة للإضرار بمصالح الأمة العامة أو الخاصة، وإنما مستهدفة للدفاع عنها.

ويدخل في هذا الحكم كافة أفعال الحرب النفسية المضادة التي تقع في زمن السلم أو الحرب، أو في زمن الفتن أو الكوارث مادامت هي الأسلوب المناسب لمقاومة الحرب النفسية الضارة وصددها.

الفرع الثالث: علة تجريم الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة

تعد الحرب النفسية أشد فتكا ودمارا من الأسلحة النووية؛ لأنها تستهدف العقول والأعصاب والمعنويات، وتحطم الشعب والوطن والجهة الداخلية بالجملة، كما تفتت الوحدة الوطنية في السلم والحرب على السواء، ومن ثم لا يقتصر تدميرها على مدينة بعينها كالأسلحة الاستراتيجية (النووية، الكيميائية، الجرثومية...). كما يصعب إثباتها والاحتجاج بها طبقا للقوانين الداخلية والدولية.

إن الحرب النفسية من أخطر الحروب المدمرة للمجتمعات أو الأشخاص، وكم أقلق من أبرياء، وحطمت من عظماء، وهدمت وشائج، وتسببت في جرائم وفككت من علاقات وصدقات، وكم هزت من جيوش وأخرت من سير أقوام؟¹

وعندما يفتقد الوطن خاصية الإدراك والوعي وثوابت الاستقرار، كالأمن والدين والقيم، فإنه بطبيعة الحال يتأثر وتتعرض جبهته الداخلية لهزات عنيفة، ربما أدت إلى نشوب مخاطر يصعب معالجتها، ولذلك تختلف المجتمعات في درجة تأثرها بالحرب النفسية بحسب درجة ثقافة الأفراد ووعي المجتمع وحجم العلاقة بين أفرادها، والوظائف بين المؤسسات، وعمق المفاهيم والقيم داخل الأسرة، فالمجتمعات المتخلفة بيئات صالحة لانتشار الدعايات والإشاعات كما أن غياب المعلومة، وبعد الأفراد عن مصادرها أو المساهمة في اتخاذ القرار، كل ذلك يحدد درجة التأثير بها. ولا يخفى أن هدف الحرب النفسية دائما هو

¹ الإشاعة وأثرها على أمن المجتمع، محمد القحطاني، ص 64.

عقل الإنسان وقلبه ونفسه وليس جسده، أي أنها تتجه إلى معنوياته لا ممتلكاته أو عتاده، كما تستهدف الحرب النفسية الفكر والعقيدة والروح لتحطيم المعنويات للمدنيين والعسكريين¹.

فنجد الحرب النفسية تثير روح الانقسام في صفوف المجتمع، وتحطم معنوياته، وتزعزع إيمانه بمبادئه وأهدافه، وتساعد على تشجيعه على الاستسلام عن طريق بث اليأس حتى يشعر أنه أمام قوة جبارة وأن جهده ضائع دون أية فائدة... (إذا أردت أن تسحق شعبا، فأقنعه بأنه لا شيء، وإذا أردت أن تهزمه، فأقنعه بأنه ضعيف فاشل يحتاج إلى حمايتك دائما، وإذا أردت أن تربكه، فاجعل المصائب تحاصره من كل جانب، بما في ذلك تجنيد العملاء والجهلة لإثارة الفتن والبلبله والفوضى، وإثارة الخلافات المناطقية والقبلية بحجج لا يقبلها عقل ولا يقرها منطق سليم، ولا مبرر لها سوى أنها من إنتاج عملاء وسفهاء لا يحسبون للنتائج السيئة حسابا. والحقيقة أن هدفهم هو تقويض أمن الدولة والتشويش لمنع بنائها على أسس سليمة...)².

الحرب النفسية الخبيثة تتضمن عدیدا من العوامل النفسية المعادية، فإن الذين خلقوها وروجوها يهدفون أولا إلى خلق البلبله والتأثير على أفكار ومعتقدات المجتمع، وإيهامهم بأن هناك خسائر فادحة في أرواح أبنائهم الذين يحاربون في الجبهة مثلا³.

وتأخذ الحرب النفسية فداحة الخسائر في الأرواح والمعدات تأثيرا كبيرا في زمن الحرب، ويرجع ذلك إلى التوتر العاطفي للشعب نتيجة الخوف والقلق النفسي اللذين تسببهما الحرب⁴.

والحرب النفسية لها تأثير على الروح المعنوية خاصة للمواطنين، وإن اختلفت درجة تأثيرها تبعا لنوعها والدوافع التي تكمن خلفها. والحرب النفسية تشيع عدم الثقة في جدوى المجهودات العسكرية مما يؤدي بدوره إلى إشاعة الروح الانهزامية⁵.

¹ الحرب النفسية، أحمد نوفل، ص 49.

² الحرب النفسية وأثرها في السلم والحرب، عمرو يوسف، ص 14.

³ الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج 1، ص 247.

⁴ الحرب النفسية وأثرها في السلم والحرب، المرجع نفسه، ص 15.

⁵ الحرب النفسية في الوطن العربي، ربيع حامد، ص 43.

إن الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، هي مجموعة من الممارسات والوسائل العلمية، والنظرية تهدف إلى تدمير الروح المعنوية للجيش القتالية، وإشاعة روح الهزيمة والتدمير بين مكونات الجبهة الداخلية، بقصد إحداث تشويش، وإرباك وشل حركة العدو، وإحداث تشرذم وتفكك بين قادة الجيوش، والقادة السياسيين من جهة، وبين هؤلاء القادة والشعب من ناحية أخرى بهدف تحطيم الجبهة الداخلية وتفكيك مؤسسات ومكونات الدولة وضرب بعضها ببعض، تمهيدا لاحتلال الدولة وفرض التخلف عليها دائما، أو توجيه ضربة عسكرية، أو اقتصادية، أو دبلوماسية أو سياسية تعزلها عن المجتمع الدولي، أو غير ذلك...

وتجدر الإشارة إلى أن الحرب النفسية الماسة بأمن الدولة، لا تنحصر فقط في الشؤون العسكرية والاجتماعية بل أثرها متعدد وخطورتها بالغة ومنها نذكر الحرب النفسية الاقتصادية، فمن أخطر ما يهدد اقتصاد أي دولة هو غياب المعلومات الصادقة، وانتشار الشائعات الكاذبة المغرضة الممنهجة، التي من مآربها أكل أموال الناس بالباطل، وتهدد الدولة بالأزمات، ويترتب على ذلك هروب الاستثمارات والأموال إلى خارج الدولة، وينتهي الأمر إلى الحياة الضنك للفئات الفقيرة، ويقود ذلك إلى المظاهرات والاضطرابات، ولا بد من التصدي لهذه الجرائم الاقتصادية، ومنعها. وهذه مسؤولية الحكومة، وأجهزة الإعلام ومنظمات المجتمع المدني والمواطنين..¹ كذلك سوق الأسهم مثلا يعد من أكثر الأسواق عرضة لانتشار الإشاعات، نتيجة لانعدام الشفافية الذي يساعد على سرعة سريان الإشاعة في أوساط المتعاملين، وتأخذ الإشاعة المتعلقة بسوق الأسهم أشكالا مختلفة وأنماطا متعددة، جميعها تستهدف التأثير على كمية الأسهم المتداولة وأسعارها الاسمية، وجميعها يؤدي إلى أرباح وخسائر غير مبررة، ومن أهم أنماط الإشاعة في سوق الأسهم إشاعة قرب توزيع أرباح الأسهم، إشاعة اندماج شركات، إشاعة زيادة أرباح الشركة، إشاعة دخول مستثمرين مؤثرين، إشاعة توسع مستقبلي للشركة، إشاعة خفض سعر الفائدة أو زيادته ونحو ذلك من الأقاويل المؤثرة في سلوك ومنهج المتعاملين في سوق الأسهم.

¹ دور وسائل الإعلام في نشر الشائعات، عزام محمد الجويلي، ص 123، ط 1، مكتبة الوفاء القانونية، الإسكندرية، 2014.

وبشكل عام فإن انعدام الشفافية يساعد بعض المستثمرين على إطلاق إشاعات مختلفة، تخدم أغراضهم الاستثمارية على حساب المستثمرين الآخرين، مما يؤدي إلى تقلبات غير مبررة في أسواق السلع والخدمات بشكل عام، وفي سوق الأسهم بشكل خاص، ولعل من أبرز السلبيات المتعلقة بانتشار الإشاعة في سوق الأسهم أثرها السلبي على إعادة توزيع الثروة بين المستثمرين وفق منهج وهمي لا يستند في مضمونه على حقائق ودلائل سوقية منطقية، ولا يتفق مع معطيات السوق وقواعدها الفاعلة، كما أن أبرز النتائج السلبية للإشاعات في سوق الأسهم حرمان المجتمع من الفرص الاستثمارية الجيدة التي تدعم الاقتصاد الوطني، وجر المستثمرين إلى خسائر كبيرة تؤثر على أمن واستقرار المجتمع¹.

إن الآثار السلبية الاقتصادية للحرب النفسية لا تتوقف فقط عند سوق الأسهم، بل تمتد إلى مجالات أخرى كثيرة، نذكر منها مثلاً: العملة الوطنية، حيث تلعب الإشاعة دوراً كبيراً مؤثراً في السياسة النقدية للدولة، خاصة في ظل انعدام الشفافية اللازمة للقضاء على الغموض الذي يكتنف طبيعة التعامل النقدي للدول في العالم الثالث تحديداً. ونظراً للأهمية الخاصة للنقد المرتبطة بكونها تلعب دور الوسيط في التبادل والمقياس الأنسب للقيم والوسيلة المثلى لدفع الأجل والمستودع الآمن للثروة، فإن سوق التعامل في العملات عادة يستجيب وبسرعة هائلة وبحساسية شديدة للإشاعات الصادرة مما يجعلها عرضة للتقلبات غير لمعللة، ويعرض المتعاملين فيها للمخاطر والخسائر الكبيرة².

ويمكن توضيح أثر الإشاعة على سوق النقد، ولنفترض انطلاق إشاعة مفادها سعي السلطات التنفيذية في الجزائر إلى تخفيض قيمة الدينار الجزائري أمام الأورو والدولار، فإذا لم تستطع السلطات من خلال وزارة المالية كشف الغموض اللازم، فإن أهمية النقود ستكون كافية لإعطاء الإشاعة قوة دفع هائلة وسرعة انتشار كبيرة، ستؤدي إلى آثار اقتصادية سلبية تنعكس على كافة أفراد المجتمع³. حيث أن هاته الإشاعة ستؤدي إلى محاولة المواطنين والمقيمين في الدولة التخلص من الدينار الجزائري خوفاً من انخفاض قيمته في المستقبل، وفي المقابل يزداد الطلب على الأورو والدولار، رغبة في الاستفادة

¹ محددات الإشاعة في السلم والحرب شرعاً ونظاماً، عبد الله بن متعب، ص 100.

² الآثار الاقتصادية المصاحبة لانتشار الشائعات، مفرج الحقباني، ص 128-129، ط 1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2014.

³ الشائعات ودور وسائل الإعلام في عصر المعلومات - بتصرف -، هباس الحربي، ص 134، ط 1، دار أسامة، عمان، 2013.

من ارتفاع سعره في المستقبل مما سيؤدي إلى زيادة الكمية المطلوبة من الأورو والدولار، وزيادة الكمية المعروضة من الدينار.

في الوقت نفسه يمكن أن يؤدي انتشار إشاعة تخفيض العملة، (سواء بالاستدانة الخارجية، أو بطبع النقود)، إلى تنشيط التعاملات النقدية التي تتم خارج دائرة التعامل الرسمي أو ما يعرف بالسوق السوداء للتعاملات النقدية، مما يضعف من سيطرة السلطات النقدية ويحد من قدرتها على تحديد الكمية اللازمة لتصحيح الخلل في السوق النقدية، كما أن المصارف الرسمية قد تعاني من صعوبات تمويلية نتيجة لتوجه بعض المتعاملين إلى استبدال عملتهم المحلية عن طريق العناصر النشطة في السوق السوداء، والذي بدوره قد يؤدي إلى خسائر مالية هائلة ناتجة عن قيام البعض بالحصول على العملات الصعبة بالسعر الرسمي وبيعها في السوق السوداء بأسعار مرتفعة¹.

وإذا أضفنا إلى النتيجة السابقة المخاوف التي قد تحدث للتجار نتيجة تخوفهم من انخفاض قيمة العملة المحلية، فإن من المتوقع أن يزداد الطلب على السلع الأجنبية في الوقت الحاضر، رغبة في تلافي الارتفاع المستقبلي في قيمة العملة الأجنبية، مما سيؤدي إلى زيادة إضافية في عرض العملة المحلية وزيادة إضافية في الطلب على العملات الأجنبية. وهذا بدوره سيؤدي إلى استنزاف أكبر لرصيد الدولة من العملات الصعبة، نتيجة لحاجة السلطات النقدية لكميات أكبر من العملات الأجنبية لسد حاجة السوق المتزايدة عليها².

ومن المخاطر الاقتصادية المترتبة على إشاعة تخفيض قيمة العملة، سعي العاملين الأجانب إلى التوسع في تحويلاتهم إلى الخارج، حرصا منهم على استغلال القيمة المرتفعة للدينار الجزائري في الوقت الحاضر، مما سيتسبب في عرض إضافي من العملة المحلية وطلب متزايد على العملات الأجنبية بالإضافة إلى عجز أو نقص فائض في ميزان المدفوعات المحلي. والذي بدوره سيؤدي إلى المزيد

¹ الآثار الاقتصادية المصاحبة لانتشار الشائعات، مفرج الحقباني، ص 129.

² المرجع نفسه، ص 131.

من الأعباء الإضافية على المؤسسات النقدية الملتزمة في الأصل بتأمين احتياجات السوق من العملات الأجنبية¹.

ومن النتائج السلبية المترتبة على الحرب النفسية الاقتصادية حدوث حالة التضخم، أي الارتفاع في المستوى العام للأسعار، نتيجة لزيادة عرض العملة المحلية الغير مصحوبة بزيادة في القدرة الإنتاجية للدولة، والذي سيؤدي إلى بروز حالة التضخم التي يمكن وصفها بالحالة التي تكون فيها نقود كثيرة مقابل سلع وخدمات قليلة².

وأخيرا فإن من المتوقع أن يحرص التجار على الاستفادة من الإشاعة، وذلك من خلال التقليل من المعروض من السلع؛ بهدف تحقيق أرباح مرتفعة بعد تحقق التخفيض على أرض الواقع، كما سيحرص المستهلكون على التوسع في الطلب في الوقت الحاضر خوفا من ارتفاع الأسعار في المستقبل، ما سيؤدي إلى زيادة في الطلب الكلي ونقصان في العرض الكلي، وارتفاع حقيقي وإضافي في المستوى العام للأسعار، وإذا تحقق التضخم فإن هذا يعني أن السلع المحلية قد فقدت قدرتها التنافسية في الأسواق العالمية، مما سيؤدي بشكل تلقائي إلى نقص في السلع المصدرة وزيادة في السلع المستوردة، وإلى صعوبات إضافية في الميزان التجاري للدولة واستنزاف أكبر للعملات الأجنبية³.

ينبغي التنبيه أيضا على درجة التهديد الذي تمثله الحرب النفسية الإلكترونية (سواء بواسطة شبكات التواصل الاجتماعي أو غيرها من المواقع على الشبكة العنكبوتية) للأمن الوطني⁴، وما الثورات والانتفاضات التي شهدتها المنطقة العربية، والتي أدت إلى إسقاط عدد من الأنظمة في تلك البلدان إلا دليل ساطع على أثرها الخطير، الأمر الذي يدفعنا إلى إعادة التفكير في مدى ما تمثله من خطورة

¹ الشائعات ووظيفة المؤسسات الاجتماعية في مواجهتها، إبراهيم الجوير، ص32، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1416هـ.

² محاضرات في النظريات والسياسات النقدية، بلعزوز بن علي، ص140، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 2006.

³ الآثار الاقتصادية المصاحبة لانتشار الشائعات، مفرج الحقباني، ص132.

⁴ تأثير الشائعات على الأمن الوطني، متعب الهماش، ص7، ندوة علمية حول أساليب مواجهة الشائعات، كلية التدريب، الرياض، 2013.

على الأمن الوطني، لا سيما مع استعانة الدول المعادية والجماعات المتطرفة بشبكات التواصل الاجتماعي كأداة فعالة للحرب النفسية والتأثير على الرأي العام¹.

إن من حق الدولة أن تحمي نفسها من شبكات الإعلام والاتصال الداخلية والخارجية المستعملة كأداة في الحرب النفسية والتي لا تحترم القوانين، أو تمثل خطراً على أمنها؛ لأن الأمن الوطني لم يعد قاصراً على البعد العسكري التقليدي، ولكنه اتسع ليضم عدة أبعاد أخرى لا تقل أهمية عن البعد العسكري، بل ربما تفوقه أهمية، باعتبارها تهديدات غير مباشرة، ويمكنها أن تؤدي إلى الخلل في بنية المجتمع والدولة معاً، فرغم فعالية شبكات التواصل الاجتماعي في نقل الأحداث بشكل آني، إلا أنها في المقابل بيئة خصبة للشائعات والدعايات وإثارة الفتن، فإساءة استخدام هاته الوسائل يسهم في زعزعة الأمن والاستقرار وذلك عن طريق ترويع وإفزاز الأفراد وإشاعة الفوضى وتقويض حالة الأمن والاستقرار وزعزعة الطمأنينة وبث روح الكراهية بين مختلف طبقات المجتمع، أو منع السلطات العامة من ممارسة صلاحياتها، أو تعطيل تطبيق الدستور والقوانين، وتقويض النظام العام، ما يترتب عليه تشتيت الجهود وانخفاض الروح المعنوية للمواطنين، بالإضافة إلى الانتقام من المجتمع وتهديد أمن وسلامة أفراد². وبقدر ما تتعدد منصات النشر، بقدر ما تزيد المسؤولية في البحث عن المصدر الأصلي للخبر للتأكد من مصداقية المعلومة. إن سرعة تداول الأخبار وسهولة التخلص من حسابات مثل فيسبوك وتويتر، وصعوبة وصول الجهات الأمنية إلى المصدر في وقت سريع، أسباب جعلت الدولة المعادية والمنظمات المتطرفة تتخذها واجهة إعلامية لتوصيل حربها النفسية من خلال ما يعرف اليوم (بالذباب الإلكتروني)، والهويات المستعارة أو المزيفة³.

وتختلف الحرب النفسية الإلكترونية في طبيعتها وهدفها والمجتمع المستهدف من ورائها، فبعض منها تكون ذات هدف اقتصادي أو سياسي كخلق روح العداء، وزعزعة الأمن في المجتمع، وقد تكون الحرب

¹ دور وسائل الإعلام في نشر الشائعات، عزام محمد الجولي، ص 121.

² الإعلام والاتصال بال جماهير، إبراهيم إمام، ص 236، ط 1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1998.

³ البروباغندا الرقمية.. كيف يعمل الذباب الإلكتروني؟، بوعلام برزق، ص، www.basaer-online.com/2018/11/page/6، 30 أكتوبر 2020.

النفسية حول أوامر صحية مثل انتشار بعض الأمراض والأوبئة مما يؤدي إلى بث الخوف والرعب بين أفراد المجتمع وغير ذلك، وهو ما حصل مع وباء فيروس كورونا (covid19) خلال عام 2019 واستمر من بعد ذلك¹.

لقد بات واضحاً أن انتشار الحرب النفسية الإلكترونية بصورة واسعة في المجتمعات، هو إحدى سمات عصر الثورة المعلوماتية (التكنولوجية) وابتكار التقنيات ووسائل الاتصالات الحديثة؛ لأن كل شيء يدور في هذا العالم الافتراضي يتم التعامل معه على أساس أنه معلومة بغض النظر على صحته أو خطئه، وما إذا كانت مفيدة أو غير ذلك. كما أن المعلومة لم يعد إنتاجها حكراً على جهة معينة أو شخص محدد يمتن إنتاج المعلومات، كالصحفيين أو المؤسسات الإعلامية وفقاً لمعايير محددة. فقد أصبح بإمكان أي شخص يمتلك الوسيلة المناسبة وبعض المهارات التقنية أن يكون بنفسه منتجا وناشرا للمعلومة. وفي ظل هذه الوفرة المعلوماتية والمحدودية مصادرها، فإن مشكلة شديدة التعقيد ظهرت حين أصبح من الصعب على من يتلقى هذا الكم من المعلومات أن يميز الصحيح من الخاطئ والجيد من الرديء والحقيقة من الإشاعة. في وقت أصبحت الحرب النفسية من أهم العوامل الأساسية في ارتكاب العديد من الجرائم بحق الفرد وحق المجتمع ككل، وعلى رأس هذه الجرائم تلك التي تمس الأمن الوطني للبلد².

وهنا تنثور مشكلة مع نصوص المواد: 4/62، 64، 75³؛ لأن المواد القانونية أشارت بشكل عام حول المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش والأمة (62، 64)، واقتصرت على الجيش في المادة 75. ونرى أن هذه النصوص لا تكفي مع درجة خطورة الحرب النفسية وتطورها الهائل ومنه الحرب النفسية الإلكترونية وتهديدها لأمن الدولة، خاصة أن التكييف القانوني للمواد السابقة لا يكون محل اتفاق. وكذلك المادة 75 والتي أشارت إلى حالة السلم، واقتصرت فقط

¹ الصراع الرمزي والحرب النفسية في أزمة انتشار وباء كورونا، نُجدد الراجحي، www.studies.aljazeera.net . 26 أبريل 2020

² تأثير الشائعات على الأمن الوطني، متعب الهماش، ص 8.

³ الأمر رقم 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

على إضعاف الروح المعنوية للجيش، وأهملت تماما أن أمن الدولة مفهوم واسع متعدد المجالات، ولا ينحصر فقط في المجال العسكري التقليدي.

الفرع الرابع: الطبيعة القانونية لجرائم الحرب النفسية

بالرغم من خلو التشريع الجنائي الجزائري من استخدام لفظ الحرب النفسية، للتعبير عن الجرائم المرتكبة بأساليب هي صميم الحرب النفسية، كالمساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية، والأخبار الكاذبة أو المغرضة الماسّة بالأمن العمومي أو النظام العام. إلا أنه يمكننا القول عموما بأن الحرب النفسية تعد جريمة من جرائم أمن الدولة، وهو ما عبّر عنه قانون العقوبات الجزائري في الفصل الأول بعنوان الجنايات والجنح ضد أمن الدولة، من الباب الأول الخاص بالجنايات والجنح ضد الشيء العمومي، ضمن الكتاب الثالث الموسوم بـ: الجنايات والجنح ضد الشيء العمومي¹. وكذلك عبر عنه في التعديل الجديد الصادر سنة 2020، القانون 06-20 في الفصل السادس مكرر بـ: نشر وترويج أخبار أو أنباء تمس بالنظام والأمن العموميين.

جرّم المشرع الجزائري الحرب النفسية باعتبارها من الجرائم التي تمس أمن الدولة من جهة الخارج ومن جهة الداخل.

فللدولة كما للأفراد مصالح وقيم وحقوق أساسية، تعتمد إلى صونها بالعقوبة الجزائية، ومن هذه الحقوق ما يتعلق بالدولة بصفته شخصاً من أشخاص القانون الدولي².

والجرائم التي تقترب ضد الدولة بصفته هذه، وتهدف بالتالي إلى إضاعة استقلالها أو الانتقاص من سيادتها أو تهديد سلامة أراضيها كالاتصال بالعدوّ والتعاون معه، وحمل السلاح، في صفوفه واقتطاع جزء من أرض الوطن وضّمّه إلى دولة أجنبية، وشتى ألوان الخيانة والتجسس كلّها جرائم تنال من الدولة في وجودها وقد يكون من شأنها هدم كيان الدولة، ويطلق عليها اصطلاح الجرائم الواقعة على أمن الدولة الخارجي³.

¹ الأمر 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

² الموسوعة القانونية المتخصصة، عيسى مخول، مج2، ص461، ط1، دن، سوريا، دت.

³ المرجع نفسه، مج2، ص461.

أو بعبارة أخرى يراد بها تلك الجرائم التي تنطوي على الاعتداء، أو الإضرار، أو المساس باستقلال الدولة، أو سياستها، أو مصالحها.

فيدخل في نطاق التجريم كل أفعال الحرب النفسية التي تمس استقلال الدولة، أو تهدد أمنها وسيادتها في المجتمع.

أمّا جرائم الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الداخلي، فهي تلك الجرائم التي تؤثر على قوة الدولة، وإقليمها، وسكانها، ومؤسساتها العامة الأساسية، واستقلالها وسلطانها¹.

فأمن الدولة الداخلي يستوجب الحفاظ على قوة وسلامة مكونات الدولة من سلطة وإقليم وشعب؛ بإبعاد كل ما من شأنه أن يلحق ضررا بالنظام الدستوري القائم أو وحدة الوطن أو زعزعة الأمن الداخلي.

المطلب الثاني: الركن المادي² لجريمة الحرب النفسية

يعاقب القانون على الأفعال المادية التي تتطابق مع نص التجريم، والتي تكون ماديات الجريمة. فالقانون لا يعاقب على النوايا مهما كانت خبيثة أو شريرة، مادامت محبوسة في نفس الجاني، ودون أن يعبر عنها بفعل مادي ملموس ينتج أثره في العالم الخارجي.

وجريمة الحرب النفسية تقوم على ركن مادي قوامه الفعل الحقيقي والنتيجة المفترضة؛ لأن الفعل أمر لازم في كل جريمة، إذ لا يمكن أن تنهض بغيره الجريمة، أما النتيجة - التي تعني الأثر الذي يحدثه الفعل - فهي أمر افتراضي في هذه الجريمة، إذ يصح تخلفها مادام أن الفعل قد استهدفها وكان من شأنه إحداثها بحسب الجرى المعتاد للأمور، وباعتبار أن هذه الجريمة تعد من جرائم الخطر.

مما سبق، نقسم هذا المطلب إلى فرعين نتناول فيه ما يلي:

- الفعل الذي تقوم عليه هذه الجريمة.
- النتيجة الإجرامية في جرائم الحرب النفسية.

¹ الحماية الجنائية لأمن الدولة، إبراهيم اللبيدي، ص 3، ط 1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2004.

² شرح قانون العقوبات الجزائري، عبد الله سليمان، ج 1، ص 144.

الفرع الأول: الفعل الذي تقوم عليه هذه الجريمة

نقصد به ذلك السلوك المادي الصادر عن إنسان والذي يتعارض مع القانون، فالجريمة هي في المقام الأول، فعل آدمي؛ أي سلوك صادر عن إنسان، فالفعل هو جوهر الجريمة ولهذا قيل: (لا جريمة دون فعل).

وفي جرائم الحرب النفسية (بكل أساليبها) يقع الفعل بكل نشاط يُرى بالعين أو يُسمع بالأذن أو يُحس أو يُلمس... وبالرجوع إلى نصوص قانون العقوبات الجزائري نجد أن المشرع أجمل ولم يفصل وذلك باستعمال التعبير الآتي: (...المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش أو الأمة...) وترك المجال واسعا للسلطة التقديرية للقاضي، وسنحاول تبين بعض الأفعال التي تدخل ضمن هذا السلوك الإجرامي. لكن قبل ذلك نقف مع المادة 4/62 ق.ع.ج. والمادة 64 ق.ع.ج.¹ حسب ما أورده الفقيه القانوني صبحي نجم²:

يتكون الركن المادي لهذه الجريمة من فعل ((التدخل في تدبير لمصلحة العدو، ومعنى التدخل القيام بدور مهما كانت طبيعته في هذا التدبير، سواء أكان هذا التدبير أو الدور معنويا كتحرير الغير على الانضمام إلى هذا التدبير، أو ماديا كمن يقدم وسيلته مادة للاستعانة بها على إتمام التدبير، ولفظ التدخل إذا قومناه على ضوء النظرية العامة للمساهمة الجنائية نجده يشمل الفاعل الأصلي والشريك مهما كانت صورة اشتراكه.

أما التدبير فهو يدلنا على استلزام نوع من التنظيم الهادئ للخطة المرسومة وهذا لا يتم إلا بعد مضي مدة زمنية، ويستلزم التدبير أن يكون هناك أكثر من شخص ولهذا لا يكفي لقيامه أن يكون بصدد شخص واحد، ونرى من هذا أن فكرة التدبير تقابل فكرة التنظيم الجماعي المستمر نسبيا في الزمان، وكما قال الفقيه الفرنسي (جارو) في أنه يمكن أن تتحقق زعزعة إخلاص القوات المحاربة بالغش الذي يقوم به عمدا أحد الموردين للجيش وتعمره توريد أغذية فاسدة أو مغشوشة لاستهلاك أفراد القوات المنوط بها الدفاع على البلاد³.

¹ الأمر رقم 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

² شرح قانون العقوبات الجزائري - القسم الخاص -، صبحي نجم، ص 198، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 2000.

³ المرجع نفسه، ص 198.

أما بالرجوع إلى نص المادة 196 مكرر من القانون 06-20 نجد أن من المحظورات التي أقرها القانون الجديد، نشر الأخبار أو الأنباء الكاذبة أو المغرضة التي بإمكانها أن تؤدي إلى المساس بالأمن العمومي أو النظام العام، كالمساس بدعائم الوحدة الوطنية، أو الأخبار التي من شأنها إثارة العصبية وتحريك النعرات العرقية، أو إحداث البلبلة في صفوف الشعب...

والمقصود بالأخبار المغرضة: (تلك التي تنطوي على بعض الحقيقة ولكنها تدّعي بشيء من التحريض أو الخوف، مما يجعلها في حكم الأخبار الكاذبة، فالخبر المحرف الذي فيه لي للحقيقة مع وجه يشوهها هو خبر مغرض)¹.

وبالتالي فالخبر المغرض يقترب من حيث المعنى من الخبر الكاذب إذ جاء في تعريف الأخير: (هو الذي لا يطابق الحقيقة كلها أو جزء منها سواء كان عن طريق الحذف أو الإضافة أو غير ذلك من الوسائل التي تناقض الحقيقة في صورة من صورها)².

وعليه فإن الأخبار الكاذبة والمغرضة تشكل مجانبة جزئية أو كلية للصدق والحقيقة، بسبب التحريف والتشويه والإضافات التي تمارس عليها بصفة أو بأخرى.

ومعلوم أن من خصائص جرائم أمن الدولة صفة المرونة، وعليه سنحاول التفصيل والتوسع أكثر في الأفعال التي تدخل ضمن هذا السلوك الإجرامي على النحو الآتي:

البند الأول: إذاعة أخبار أو بيانات أو شائعات كاذبة³ ومغرضة⁴ أو بث دعايات مثيرة

¹ الجرائم التعبيرية جرائم الصحافة والنشر، عبد الحميد المنشاوي، ص 210.

² المرجع نفسه، ص 211.

³ يرى جانب من الفقه أن إذاعة أخبار من شأنها إضعاف الروح المعنوية يبقى مجرماً، ولو كانت صادقة، مادامت السلطات لم تأذن بالنشر أو الإذاعة. حيث لا يجوز لشخص أن يذيع أخباراً، لا أصل لها، أو يتناول الأخبار بطريقة تشوه حقيقتها، وتغير من معناها، فقد يكون الخبر صحيحاً، أو فيه جزء من الحقيقة، ويتناوله من يذيعه بطريقة تشوه، وتغير من طبيعته. ويعد الجاني في هذه الصورة أنه أذاع كذبا يؤخذ عليه، لا بإيراده الخبر الصحيح، ولكن بما علق به عليه ويكون هذا التعليق بمثابة بيانات كاذبة تؤثر حتماً في صحة الخبر الذي اقترنت به. انظر: الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج في قانون العقوبات والتشريع المقارن، محمود إبراهيم إسماعيل، ص 186.

⁴ تعني هذه الصفة بأن الخبر ليس كذبا فهو صدق، إلا أنه أشيع لتحقيق غرض سيء، أي أنه استخدم على الرغم من صدقه بصورة تجعله منتجاً أثراً ضاراً، فتكون هذه الصورة مثلاً لتوظيف الحقائق، لتحقيق خلاف مقصدها، لينطبق عليها القول المشهور ((كلمة حق

طبقا لنص المادة 196 مكرر ق.ع.ج، يتحقق الركن المادي لجريمة نشر الأخبار الكاذبة أو المغرضة في القانون الجزائري، باكتمال عملية نشر أو إذاعة الأخبار الكاذبة أو المغرضة التي من شأنها أن تمس الأمن العمومي أو النظام العام، مع الإشارة إلى أن المصطلحين الأخيرين تعдан من الألفاظ العامة، وبالتالي تتعدى المفهوم الكلاسيكي المتمثل في الأمن العسكري ليشمل الأمن الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وغيرها من الجوانب المكملة لأمن الدولة.

كما يكفي لتحقيق هذا الركن أن يكون جانبا من الأخبار المنشورة كاذبا أو مغرضا إذ: (تتحقق عدم صحة الخبر من خلال امتناع صاحبه عن نشر بعض التفاصيل الهامة، والتي تعطي للخبر مدلولاً خاطئاً أو مغرضاً)¹. فقد يحدث وأن تكون الواقعة صحيحة لكن نشر وقائع حدوثها بطريقة مزيفة من شأنه أن يمس أمن الدولة وذلك انطلاقاً من طبيعة الواقعة وما تحمله من تأثير على المجتمع². وإذاعة الأخبار، أو البيانات أو الشائعات أو الدعايات: هي تداول روايتها، وبثها، وجعلها منتشرة بين الناس.

فالإذاعة تقتضي أن يتواتر الخبر أو النبأ، فينقله بعض الناس إلى بعض، أو يعلمه فريق منهم في وقت واحد، كما إذا أذيع عليهم مجتمعين بوسيلة أو بأخرى، كأن يقوم الجاني بنقل الخبر الكاذب إلى كل من وجده أو صادفه، حتى يستفيض الخبر، ويعرفه عدد ملحوظ من الأفراد، ولو كانوا في بلد واحد، ويعتبر ذلك إذاعة، ولو لم يبلغ الخبر على كافة الناس³.

فلا بد من نشر الخبر ليتوفر معنى الإذاعة، ولكن إذا قيل الخبر عرضاً فلا تعتبر إذاعة. وتتم الإذاعة بأية كيفية، وعلى أية صورة من صور الإخبار والتي هي: القول، الكتابة، الإشارة.

< أريد بما باطل)). ولا يمنع صدق الخبر من اعتباره شائعة ممنوعة مادامت إذاعته في ذلك الزمان والمكان والظروف تجعله مؤثراً تأثيراً ضاراً. انظر: أحكام الشائعات في القانون العقابي المقارن، علي الشرفي، ص 155.

¹ ركن العلانية في جرائم الإعلام، عادل سعود، ص 92.

² الجرائم التعبيرية جرائم الصحافة والنشر، عبد الحميد المنشاوي، ص 210.

³ الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج في قانون العقوبات والتشريع المقارن، محمود إبراهيم إسماعيل، ص 181.

أ- **الإخبار القولي:** ويعني التلفظ بالكلام المفهوم المسموع وله صور، فقد يكون بالمشافهة المباشرة، أو بواسطة الوسائل الإعلامية كالتلفون والإذاعة والتلفزيون وغير ذلك.

ب- **الإخبار الكتابي:** وهو يعني التحرير المقروء مباشرة عبر الرسائل والكتب والصحف وسائل المحررات، أو بالوسائط الإعلامية كالإنترنت والتلفزيون ومواقع التواصل الاجتماعي...¹

ت- **الإخبار بالإشارة:** وهو يعني الرمز الذي تظهره الحركة العضوية التي هي دون الكلام، فيشم ذلك حركات اليد والرأس، والعينين ونحو ذلك، ويلحق بذلك كافة الصور الرمزية كالرسومات والعلامات والصور المنظورة مباشرة أو عبر الوسائل الإعلامية كالتلفزيون والسينما ونحو ذلك.²

والإذاعة تكون بفعل إيجابي، إذ أن مجرد الاستماع - وهو موقف سلبي - لا تتحقق به هذه الجريمة.³ ويستوي أن تتم الإذاعة بفعل واحد، وذلك كما لو تمت إذاعة الخبر في مكان عام، وبأفعال متعددة، كما لو قام الشخص بإذاعة الخبر إلى كل شخص يقابله على انفراد، أو يصادفه.

تجدر الإشارة إلى أن التعبير عن فكرة خاصة، أو عن رأي شخصي، أو عقيدة خاصة، ولا يراد بها بأن يصدقها الجمهور لا تعتبر من قبيل المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية ولا مسئولية فيها إذا شأها الكذب، لأنها لا تعبر إلا عن رأي شخصي لقائلها أو لكاتبها. ويمكن التمييز بين الخبر الكاذب، والرأي الخاص من خلال الرجوع إلى الملابس التي تحيط بالواقعة، والأثر الذي قد يتأثر بها سامعها أو قارئها.

ومثال الأخبار المغرضة: من يذيع أن العدو سيضرب المدن التي تقاومه بالقنابل النووية، أو الغازات السامة.⁴

فيهدف مذيع تلك الأخبار إلى إثارة المشاعر، وتحريك عواطف الكراهية، أو الضجر عند الجمهور، والتي تسلمه إلى القلق، والانزعاج، ولا يستلزم في هذا النوع من الأخبار أن يكون مكذوبا، فقد يكون

¹ أحكام الشائعات في القانون العقابي المقارن، علي الشرفي، ص153.

² المرجع نفسه، ص154.

³ الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، عبد المهيم بكر، ص219.

⁴ المرجع نفسه، ص221.

ما يذاع صحيحا في فحواه، وإنما قصد مذيعة أن يميل بالإحساس العام إلى الاضطراب والفرع ومن ثم إضعاف الروح المعنوية بشكل عام¹.

ومثال البيانات الكاذبة: البيانات التي تنتشر عن سير الحرب البرية، أو البحرية، أو الجوية، أو البيانات التي تتعلق بنقص محصول من المحاصيل الرئيسية في البلاد².

وتنتشر دائما البيانات الكاذبة والمغرضة في زمن الحرب، وأوقات الأزمات والكوارث، ويرجع ذلك إلى ندرة المعلومات، وذلك بسبب عدم إفصاح الدولة على تلك المعلومات، لذلك يجب على الدولة بكل مؤسساتها أن تبلغ الناس - على قدر المستطاع - بأخبار الحرب والأزمات، حتى لا يقع الناس فريسة سهلة لبيانات كاذبة، قد يكون من وراءها العدو، ويهدف منها إثارة الفرع بين الناس، وإضعاف روح المقاومة لديهم.

ومن قبيل الإشاعات الكاذبة: الزعم كذبا بأن قنبلة قتلت ألف شخص، أو أن العدو له حصون منيعة يصعب علينا اختراقها، أو أن العدو لا يقهر، وأن جنده يستحيل علينا هزيمته.

ومثال الإشاعات المغرضة: نشر أخبار الهزيمة التي لحقت ببعض وحدات الجيش في المعركة، بقصد إضعاف الروح المعنوية للمقاتلين، أو إذاعة خبر وفاة أحد القادة الميدانيين في وقت يؤثر فيه ذلك الخبر على معنويات الجند، وهو ما يعتبر إشاعة ممنوعة ما دام قد صدر بقصد سيء.

والإشاعات تلعب دورا هاما في الحروب، فللشائعات تأثير كبير على الروح المعنوية لأفراد الأمة، فضلا عن التوتر الذي يعيش فيه الشعب في تلك الآونة. وعبئ إثبات أن الخبر، وما إليه كاذب أو مغرض يقع على عاتق الدولة، التي تستعين بكافة طرق الإثبات، ومنها البينة والقرائن³.

أيضا من قبيل صور إضعاف الروح المعنوية الدعاية المثيرة، وهي تلك الدعاية التي يكون لها من الأثر في النفوس، ما لإذاعة الأخبار الكاذبة، أو المغرضة، من حيث إلقاء الرعب بين الناس وإضعاف الجلد في الأمة.

¹ الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الخارج في قانون العقوبات والتشريع المقارن، محمود إبراهيم إسماعيل، ص 186.

² المرجع نفسه، ص 184.

³ جرائم الشائعات وإجراءاتها، طه أحمد متولي، ص 148، ط2، دن، دت.

ويحرص العدو دائما على نشر الدعاية المثيرة قبل الحرب وأثنائها، لذلك يجب على الدولة بجميع مؤسساتها أن توضح للأمة الدعاية المثيرة، وأن يكون هناك رد وتبصير للشعب عن كل دعاية تثار، وتوضيح أهداف العدو من إذاعتها¹.

البند الثاني: حيازة أو إحراز محررات أو مطبوعات متضمنة مشروعا لإضعاف الروح المعنوية

والجريمة هنا شكلية وذات حدث مادي، هو إيجاد الفاعل صلة بين شخصه ومحررات أو مطبوعات تتضمن ذلك النوع من الأخبار، أو البيانات، أو الإشاعات الكاذبة أو المغرضة، أو الدعايات المثيرة بغرض تفتيت الروح المعنوية للجيش والأمة².

والمقصود بالحيازة: تملك الشيء بغض النظر عما إذا كان بين يدي صاحبه، أو لم يكن³.

فمعلوم أن الحيازة في القانون الجنائي، هي: سلطة أو سيطرة على الشيء، يباشرها الحائز، سواء كانت تامة، أم مؤقتة، أم مادية.

أما الإحراز: فيقصد به هذا الشيء بين يدي الشخص، و لو لم يكن يملكه. فمجرد ضبط الجاني وهو يوزع المنشورات المحظورة يعد أنه حائز، فالإمسك المادي بالشيء موضوع الجريمة، والسيطرة الكافية عليه بغض النظر عن الباعث يعد إحرازا⁴.

ولذلك يكتفى لتحقيق هذه الصورة مجرد الحيازة العرضية، طالبت أم قصرت لمحررات، أو المطبوعات التي تتضمن إضعافا للروح المعنوية سواء كانت شائعات كاذبة، وما في حكمها، أيا كان الباعث عليها، وأيا كانت اللغة المحررة بها، ولو كان على سبيل الأمانة⁵.

¹ الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، عبد المهيم بكر، ص224.

² العدوان على أمن الدولة الداخلي العدوان على الناس في أشخاصهم وأموالهم، رمسيس بھنام، ص195، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1982.

³ جرائم الشائعات وإجراءاتها، طه أحمد متولي، ص236.

⁴ موسوعة شرح قانون الأحكام العسكرية، عزت مصطفى إسماعيل، ص533، ط1، دار محمود للنشر والتوزيع، القاهرة، دت.

⁵ الشائعات في قانون العقوبات المصري والقوانين الأخرى تأصيلا وتحليلا، محمد هشام أبو الفتوح، ص339، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1995.

ويشترط أن يعلم الجاني بطبيعة المحررات التي يحوزها، وكنهها¹، وذلك لأنه ليس من المعقول أن يعاقب الإنسان على مجرد الحيازة، لأنه قد لا يعلم ما بهذه المحررات، لذلك يشترط أن يعلم الجاني بطبيعة المحررات التي يحوزها، وأن ما بها ما يعتبر مساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش أو الأمة زمن الحرب، أو للجيش زمن السلم سواء كانت أخبارا أو بيانات، أو إشاعات، أو دعايات أو غيرها، وأن من شأن ذلك تكدير الأمن العام، وأن هذه المحررات معدة للتوزيع، أو لاطلاع الغير عليها، ومع ذلك يتمسك بحيازتها².

فيعاقب الجاني على حيازة أو إحراز المحررات، أو المطبوعات المتضمنة مساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش أو الأمة زمن الحرب، وللجيش زمن السلم، إذا كانت معدة للتوزيع، أو لإطلاع الغير عليها، ولا بس ضبطها ظرفا لا يمكن معه إلا اعتبار هذه المحررات، أو المطبوعات معدة للتوزيع أو لإطلاع الغير.

ونشير إلى أنه يعد في حكم المحررات والمطبوعات حيازة كل ما يعتبر مساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية، عن طريق الوسائل الحديثة اليوم من أجهزة حاسوب، وهواتف نقالة، ومواقع تواصل اجتماعي وأقراص مضغوطة،...

فالتقدم العلمي يفرز لنا كل يوم وسائل، يمكن أن تتضمن دعايات أو شائعات أو غيرها من أسلحة الحرب النفسية، وتشكل تهديدا حقيقيا لأمن الدولة، وما دام أن المشرع الجزائري أجمل ولم يفصل في نصوص المواد السابقة، فيترك المجال واسعا أمام فهم هذه النصوص ومواكبة التطور الهائل خصوصا في مجال الإعلام والاتصال.

¹ العدوان على أمن الدولة الداخلي العدوان على الناس في أشخاصهم وأموالهم، رمسيس بھنام، ص 197.

² شرح الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، رمسيس بھنام، ص 303.

الفرع الثاني: النتيجة الإجرامية في جرائم الحرب النفسية

المفهوم القانوني¹ للنتيجة يتمثل فيما يسببه سلوك الجاني من ضرر أو خطر، يصيب أو يهدد مصلحة محمية قانوناً².

تعتبر النتيجة العنصر الثاني من عناصر الركن المادي للجريمة، وبما أن الحرب النفسية هي من جرائم الخطر، فالنتيجة هنا هي نتيجة مفترضة، ونتيجة نفسية ذات أثر مادي.

تقوم جرائم الحرب النفسية على أمر مفترض، يعرف بالنظر إلى كون الفعل من شأنه إحداث أثر ضار، ويكون من شأن الفعل إحداث ذلك الأثر إذا كان صالحاً لإحداثه، وكان الأثر ممكن الحدوث، وذلك وفق المجرى المعتاد للأمور، فإذا كان الفعل - مشروع لإضعاف الروح المعنوية - قد صدر على نحو مؤثر بذاته وفي ظروف تسمح له بالتأثير الضار، فإن القانون يسمح بمعاقة الجاني الذي أحدثه دون أن ينتظر تحقق الأثر الضار على وجه الحقيقة، وذلك لأمرين:

الأول: هو أن الفعل المقترن بتلك الظروف لا بد أن يكون محدثاً أثراً قليلاً أو كثيراً.

الثاني: هو صعوبة حصر ذلك الأثر وضبطه على وجه الدقة، نظراً لكونه متعلقاً بالجاني نفسه.

- أما بالنسبة للنتيجة النفسية ذات الأثر المادي: فجرائم الحرب النفسية إنما توجه إلى النفوس لتحدث تأثيرها عليها في هيئة قناعات، فهي تبني معتقدات وتهدم أخرى، غير أن هذا الأثر - وهو الأصل - ليس هو الضار في حد ذاته، وإنما هو مدخل للضرر، أما الضرر الحقيقي الذي يمثل النتيجة النهائية التي هي

¹ اختلف الفقهاء حول مفهوم النتيجة، بين رأي يقول بالمفهوم المادي (الطبيعي) للنتيجة، وآخر يقول بالمفهوم القانوني لها. ويقصد بالمفهوم المادي للنتيجة، الأثر المادي الذي يحدث في العالم الخارجي كأثر للسلوك الإجرامي، فالسلوك قد أحدث تغييراً حسياً ملموساً في الواقع الخارجي ومثاله: إزهاق الروح في جريمة القتل، وانتقال الحياة في جريمة السرقة، وسقوط الجنين في جريمة الإجهاض. وعليه فمفهوم النتيجة كعنصر في الركن المادي للجريمة يقوم على أساس ما يعتد به المشرع ويرتب عليه نتائج، بغض النظر عما يمكن أن يحدثه السلوك الإجرامي من نتائج أخرى، أما المفهوم القانوني فينظر إليها باعتبارها العدوان الذي يمس حقاً أو مصلحة حماها الشرع أو القانون أو منع المساس بها ومثالها في جريمة القتل: العدوان على الحق في الحياة، وفي جريمة الضرب والجرح العدوان على الحق في سلامة الجسم... انظر: قانون العقوبات - القسم العام، مأمون سلامة، ص 125. شرح قانون العقوبات - القسم العام -، محمود نجيب حسني، ص 280 وما بعدها. النظرية العامة للنتيجة الإجرامية، علي يوسف حربة، ص 19 وما بعدها.

² شرح قانون العقوبات الجزائري، عبد الله سليمان، ج 1، ص 150.

علة التجريم، فإنه التأثير على مصلحة من المصالح السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، بأي صورة، وعلى أي نحو.

غير أن القانون لا ينتظر حتى يتحقق ذلك الضرر، وإنما يكتفي بما يحدثه الفعل من أثر نفسي.

وبالرجوع إلى قانون العقوبات الجزائري، وما نص عليه في المواد السالفة الذكر (4/62، 64، 75)¹، نجد النتيجة المفترضة هي: مشروع لإضعاف الروح المعنوية سواء للجيش، أو الأمة، ويكون الغرض منه الإضرار بالدفاع الوطني.

أما بالنسبة لمشروع إضعاف الروح المعنوية، فقد تحدثنا عنه بشيء من التفصيل ضمن علة التجريم².

المطلب الثالث: الركن المعنوي لجريمة الحرب النفسية

يتخذ الركن المعنوي في هذه الجريمة صورة القصد الجنائي³، فهي من الجرائم العمدية، وضابط العمد في هذه الجريمة أن يكون الجاني قد قصد ارتكاب الفعل أو الأفعال المنشئة لها. أي أن يكون قاصدا إذاعة الأخبار أو الدعايات أو الشائعات أو البيانات أو غير ذلك مما يعد من أفعال الحرب النفسية الماسة بأمن الدولة، مدركا أيضا أنها كاذبة، أو جزئيا، أو مدركا ما تنطوي عليه من مبالغة أو تهويل أو إثارة، أو مدركا أنها مغرضة، ومتوقعا آثارها الضارة، ومريدا إحداث تلك الآثار أو على الأقل راغبا فيها. وهذا يعني أنه لا بد أن تتوفر لاكمال ركن العمد الأمور الآتية:

¹ الأمر 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

² راجع الصفحات 299 وما بعدها.

³ لم تعرف القوانين بوجه عام القصد الجنائي وكذلك فعل المشرع الجزائري أسوة بغيره من القوانين، ماعدا قانون العقوبات الإيطالي في المادة 43 والتي جاء فيها: (تكون الجريمة عمدية حينما يتصور الجاني النتائج الإجرامية الضارة أو الخطورة الناجمة عن فعله أو امتناعه ويريدها). وكذلك قانون العقوبات اللبناني في المادة 188: (النية إرادة ارتكاب الجريمة على ما عرفها القانون). وقد حاول الفقه القيام بهذه المهمة فقيل بتعريفات عديدة، لا تختلف في مضمونها إذ تدور حول نقطتين: الأولى وجوب الإرادة إلى ارتكاب الجريمة والثانية، ضرورة أن يكون الفاعل على علم بأركانها، فإذا تحقق هذان العنصران معا (العلم والإرادة) القصد الجنائي، وبانتفاهما أو بانتفاء أحدهما ينتفى القصد. وبناء عليه تعريف القصد الجنائي بأنه ((العلم بعناصر الجريمة وإرادة ارتكابها)). انظر: النظرية العامة للقصد الجنائي، محمود نجيب حسني، ص50. مبادئ القسم العام من التشريع العقابي المصري، رؤوف عبيد، ص222.

1- العلم بحقيقة الفعل، فيعلم الجاني أنه يقوم بأعمال الإذاعة أو النشر أو الترويج أو الإخبار، فإذا لم يفهم حقيقة ما يفعل لكونه فاقد الوعي أو صغير السن قاصر الفهم فإن العمد لا يكون متوفرا لديه. والعلم بحقيقة الفعل هو قضية واقعية تتحقق بمجرد كون الشخص بالغاً عاقلاً قادراً على أن يفهم حقيقة أفعاله، وأن يميز ما تشتمل عليه من حسن أو قبح.

2- العلم بحقيقة الموضوع محل النشر، فيدرك الجاني أنه ينشر أموراً كاذبة ومبالغاً فيها، أو أنها صادقة لكن لم يكن نشرها في ذلك الوقت مناسباً، فإذا جهل ما تنطوي عليه تلك الأمور التي يقوم بنشرها من كذب أو مبالغة أو جهل حقيقة الظرف الذي يرشح تلك الأمور لأن تكون مصدر إثارة فإن الجريمة لا تقع منه، فالذي يقع في أسر العدو فيخضع لعمليات إقناع متواصل حتى يسلم بأمور تجافي الحقيقة ثم ينال حريته فيعود إلى وطنه ليذيع ما سمعه أو شاهده على نحو يؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية دون أن يشعر بذلك أو بقصده فإنه لا يكون مرتكباً لجريمة الحرب النفسية نظراً لعدم توفر القصد الجنائي لديه.

3- توقع النتائج الضارة، فيدرك أن ما ينشره أو يذيعه هو من الأمور ذات النتائج السلبية، فإن ظن أن ما بقوله أو بفعله إنما يبعث على إتقان العمل، أو يوقظ الهمم، أو يطلق الروح المعنوية، ويؤجج الحماس أو يقوم بعمل النقد البناء، فإن القصد الجنائي لا يكون متوفراً لديه، فالذي يعتمد في زمن الحرب على إلقاء الخطب الحماسية أو ينشر بيانات مثيرة ويذكر ما يتمتع به العدو من مزايا عسكرية، ثم يذكر مكائد العدو ومكره وقوة جيشه، ويقارن ذلك بما يعاني منه الجيش الوطني من ضعف ونقص، وكان قصد ذلك الخطيب و الناشر حث الأمة على التضحية والفداء أو حث القيادة على إعادة ترتيب أوضاع الجيش فغنه لا يكون مرتكباً جريمة أو التأثير السلمي، إذ لا يكفي أن يكون الفعل ضاراً أو على درجة من الخطورة بل لا بد من أن تكون مضاره ومخاطره مقصودة.

ومثل ذلك الذي يجلس مع عصابة إجرامية دون أن يعلم حقيقتها فيسمع منها أو يرى ما يغرس في ذهنه ميلاً إلى الجهر بأقوال وأخبار مثيرة بقصد حث الناس على أخذ الحيلة والحذر، أو دفعهم إلى اتخاذ مواقف يراها نافعة ومفيدة، فإنه لا يكون مرتكباً جريمة نشر الشائعات وتخطيم الروح المعنوية حتى ولو ترتب على فعله آثار ضارة نظراً لأنه لم يكن يقصدها أو يتوقع حدوثها.

وفي هذا الشأن جاء عن أحمد نوفل في كتابه الحرب النفسية بيننا وبين العدو الإسرائيلي، ما أطلقه العدو من إشاعات كاذبة أثناء المعركة أو قبلها، فيتناقلها الناس بنية حسنة دون أن يدركوا فيها من كيد ومكر، فتصيبهم نتائجها الضارة، وفي هذا المعنى ذكر الباحثين مثلاً بشائعة أطلقها اليهود أثناء حزيران عام 1967 وهم يتقدمون باتجاه القدس وقراها، مفادها أن الجيش الإسرائيلي يقوم بذبح الشباب في كل مكان يدخله، فنشر عملاؤه هذه الشائعة بسوء قصد، أو بحبث، وتناقلها آخرون بحسن نية بقصد التحذير لأخذ الحيطة ولتجنب الوقوع في يد اليهود، فترتب على ذلك نزوح ما لا يقل عن مائة ألف شاب من الضفة الغربية¹.

ويظهر من نصوص قانون العقوبات في المواد: 4/62، 64، 75، أن المشرع الجزائري لم يكتف بالقصد الجنائي العام²، بل ذهب أبعد من ذلك في جرائم الحرب النفسية الماسة بأمن الدولة، واشترط القصد الجنائي الخاص³.

¹ الحرب النفسية بيننا وبين العدو الإسرائيلي، أحمد نوفل، ص 64، ط 2، دار الفرقان، عمان، 2003.

² إن القصد الجنائي العام يقوم على عنصري العلم والإرادة المنصرفين إلى أركان الجريمة، وهو القصد في أبسط صورة الذي يكتفي به القانون عادة في أغلب الجرائم، ويتمثل أساساً في انصراف إرادة الجاني إلى تحقيق الواقعة الإجرامية مع علمه بكافة العناصر التي يتطلبها النموذج القانوني للجريمة. والملاحظ أن جل الجرائم العمدية أو القصدية تقوم على توافر القصد العام، إذ يكفي فيها مجرد إتيان الفاعل لسلوكه عن إرادة واعية واتجاهها لارتكابه، وهو يعلم - أي مرتكب جريمة - بتوافر أركان الجريمة، كجرائم القتل والضرب أو الجرح والإيذاء البدني أو المساس بالسلامة الجسدية للمجني عليه واستعمال الوثائق المزورة. وقد نص قانون العقوبات الجزائري في العديد من الجرائم عن اتجاه إرادة الجاني إلى ارتكاب الجريمة وهو يعلم بأركانها وذلك بمصطلح (العمد)، وهو شرط أساسي في الجرائم العمدية لتمييزها عن الجرائم غير العمدية مثلما هو منصوص عليه في المادتين 254 و 288 من قانون العقوبات الجزائري في جريمة القتل العمد وجريمة القتل الخطأ على التوالي. وينحصر القصد العام في حدود تحقيق الغرض من الجريمة، فلا يمتد لما بعده، وآية ذلك هو أن يكتفي القانون بربط القصد الجنائي بالغرض الذي يسعى له الجاني بغض النظر عن الغاية أو الباعث الذي يحركه أو يبتغيه، وعلى ذلك يعد تحقيق الغرض أو محاولة تحقيقه هو الأمر الضروري لقيام القصد الجنائي العام بوصفه الهدف الفوري والمباشر للسلوك الإجرامي. انظر: شرح قانون العقوبات - القسم العام -، عبد الله أوهابيه، ص 335، ط 1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011. أركان الجريمة وطرق إثباتها، إبراهيم بلعليات، ص 122، ط 1، دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

³ يتطلب القانون في بعض الجرائم أن يتوافر لدى الجاني إرادة تحقيق غاية معينة من الجريمة، فلا يكفي بمجرد تحقق غرض الجاني كما في القصد الجنائي العام، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيتغلغل إلى نوايا الجاني ويعتد بالغاية التي دفعته إلى ارتكاب الجريمة، والسؤال الذي يثور هنا: ما هي الغاية؟.

المبحث الثاني: الأركان الخاصة لجريمة الحرب النفسية في التشريع الجزائري

المطلب الأول: محل جريمة الحرب النفسية

والحل في جريمة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة هو الإضرار بالدفاع الوطني. فهنا يثور التساؤل: ما المقصود بالدفاع الوطني؟ وما هي خصائصه وعناصره؟ وما العلاقة التي تجمع بين الدفاع الوطني والأمن القومي؟

-ترتبط الحرب النفسية في العصر الحديث بفكرة الدفاع الوطني على نحو وثيق، حتى أنه يمكن لنا القول: إن الحرب النفسية هي في حقيقتها كل نشاط يستهدف الإضرار بالدفاع الوطني لدولة معينة، بقصد تحقيق امتياز لمصلحة دولة أجنبية أخرى.

الغاية هي الهدف الذي يبغيه الجاني من تحقيق غرضه المباشر في ارتكاب الجريمة، ويمكن أن يستدل عليها بمعرفة ما يمكن أن يدل على غاية الجاني، وإذا كان الغرض لا يختلف في الجريمة الواحدة بين جان وجان آخر فإن الغاية تختلف. وتختلف الغاية عن الباعث أو الدافع لارتكاب الجريمة أيضا، فالباعث كما يرى الفقهاء هو الدافع النفسي لتحقيق تخليص المريض من آلامه والباعث هو الشفقة، فيقال عندئذ القتل بدافع الشفقة، وعلى ذلك فإن الباعث هو الأصول النفسية التي تحرك الجاني للقيام بجريمته وهو في المثال السابق (الشفقة). وقد يكون الباعث (الدافع) هو الانتقام، وإذا قيل بأن هناك باعث شريف أو نبيل وباعث حقير ولا يعتد القانون على وجه العموم بالباعث إلا إذا نص عليه المشرع صراحة وهو أمر نادر كما هو الحال في المادة 293 مكرر في جرائم الخطف، لأنه يخرج عن دائرة الركن المعنوي للجريمة، فمن يقتل يكون قد ارتكب جريمة القتل بغض النظر عن الدافع لذلك. وتتوسط الغاية بين الدافع والغرض، فإذا كان الغرض أمرا مطلوبا في كل الجرائم العمدية لاكتمال القصد الجنائي وإذا كان الدافع أمرا غير مطلوب ولا يعتد به على وجه العموم، فإن الغاية قد تكون مطلوبة في بعض الجرائم دون غيرها.

فإذا تطلب النص غاية محددة لاكتمال القصد أصبح القصد المطلوب قصدا جنائيا خاصا، ويكون المشرع بذلك قد أقحم عنصرا جديدا على الركن المعنوي (الغاية) واعتد به. فالغاية التي يتطلبها القانون لتكوين القصد الجنائي ليست عنصرا في تكوين الواقعة الإجرامية- من حيث الأصل- وإنما هي وقائع خارجة عن وقائع الجريمة تؤدي في حالة تطلبها ووجودها إلى اكتمال الركن المعنوي للجريمة.

ولا يختلف القصد الخاص على القصد العام من حيث العناصر التي تكون كلا منها. فطبيعتهما واحدة تقوم على توافر ذات العناصر أي عنصري: العلم والإرادة. ولكن القصد الخاص إذ يعتد بإرادة الجاني في حدود اتجاهها لتحقيق غاية محددة، وإنما يعطي للقصد الجنائي لونا خاصا يميزه عن القصد الجنائي العام.

وقد تسعفنا النصوص في قانون العقوبات الجزائري في كثير من الحالات لتبيان القصد الخاص، إذ يلاحظ استعمال بعض العبارات مثل (القصد، قصد الإضرار، بغرض، بطريقة الغش). كما هو وارد في كثير من النصوص منها: المواد 61، 62، 69، 70، 74، 77، 210، 225، 363، ... انظر: شرح قانون العقوبات الجزائري-القسم العام-، عبد الله سليمان، ج1، ص262 وما بعدها.

وهذا يعني أنه لا وجود للحرب النفسية، ما لم يكن هناك سلوك يستهدف العدوان على المقومات والركائز التي يعتمد عليها الدفاع الوطني في دولة معينة وفي فترة زمنية معينة أيضا، فالمصلحة المحمية في جرائم الحرب النفسية تتمثل في حقيقة الأمر في حق الدولة في الدفاع الوطني عم وجودها وكيانها.

إن فكرة الدفاع الوطني هي فكرة حديثة نسبيا، إذ أنها ترتبط أولا وقبل كل شيء بمفهوم الدولة المستقلة ذات الشخصية القانونية المنفصلة عن شخصية حكامها، وقد نشأت هذه الفكرة لتصبح أساسا ومرتكزا لتحقيق أمن الدولة الخارجي، ووسيلة للحد من النشاطات المعادية للدولة الأجنبية وذلك عن طريق تجنيد مختلف قوى الأمة لمواجهة تلك الأنشطة¹، فالدفاع الوطني بذلك يعني (مجموع القوى التي تملكها الأمة، والتي يمكن تسخيرها في الوقت المناسب لتحقيق الأمن القومي وحمايته ضد العدوان الخارجي أو مجرد التهديد به)²، فالدفاع الوطني بهذا الوصف يمثل جهاز المناعة الأول في جسد الدولة.

إن المعنى المشار إليه آنفا حول فكرة الدفاع الوطني هو الذي أشارت عليه أغلب التشريعات، فقد جاء مثلا في المادة 01 من مرسوم 7 جانفي 1959 الفرنسي (إن الدفاع الوطني يهدف إلى حماية أمن وسلام الإقليم وحياة الشعب ضد كل أشكال العدوان في كل الظروف وفي كل الأوقات)³.

ويتضح من هذا النص أن الدفاع الوطني يرتبط بالوسائل التي تدخرها الدولة بقصد حماية كيانها السياسي في مواجهة الأخطار أو التهديدات الخارجية، وسواء كانت هذه الوسائل مادية أو معنوية وسواء تعلقت بالموارد الاقتصادية أو الصناعية أو العسكرية أو العلمية أو السياسية⁴.

¹ ولعل أول إشارة لمفهوم الدفاع الوطني، هي تلك التي وردت في نص المادة الأولى من قانون 18 أفريل 1886 المتعلق بالتجسس في فرنسا، حيث جرمت هذه المادة أفعال الحصول أو الإنشاء أو النشر أو التسليم التي تقع على المخططات أو المحررات أو الوثائق السرية التي تهم الدفاع الإقليمي أو الأمن الخارجي للدولة. انظر: الجاسوسية والأمن القومي، محمود سليمان موسى، ص118، المكتب العربي الحديث، القاهرة، مصر، 2010.

² يرى مُجد طلعت الغنيمي بأن أول ما يشغل بال الدولة هو حرصها على سلامة شخصيتها الدولية، من حيث أن هذه السلامة هي مفتاح أي حق يمكن أن تعيه، فحق الدولة في البقاء هو حقها في أن تفعل كل ما هو لازم لبقائها. ولذلك ركز فقه القانون الدولي على هذا الحق إلى حد جعله مصدرا للحقوق الأخرى. انظر: القانون الدولي العام قانون الأمم زمن السلم-، مُجد طلعت الغنيمي، ص282

³ Article 1 de l'ordonnance du 7 janvier 1959, « la défense a pour objet d'assurer en tout temps, en toute circonstances et contre toute les formes d'agression, la sécurité et l'intégrité du territoire ainsi que la vie de la population »

⁴ التجسس الدولي والحماية الجنائية، محمود سليمان موسى، ص121، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2001.

فالدفاع الوطني بذلك يعتبر وسيلة الدولة في صيانة وجودها بين الأمم الأخرى، وهو بهذا يتسم بخصائص تبرز أهميته وسمو مكانته ولعل أهم هذه الخصائص تتمثل في:

الخصيصة الأولى: الشمول:

- وهي تعني أن الدفاع الوطني يشمل كل قطاعات الدولة والأمة معا. إذ ليس هناك نشاط يمكن أن يكون خارج نطاق مخطط الدفاع الوطني، وأن يكون بعيدا عن الاهتمامات الأساسية للدفاع عن البلاد، لأن العدوان الخارجي أو مجرد التهديد به يقلق الدولة بكاملها ويفزع الأمة في مجموعها، وهذا ما يضفي بدوره على الدفاع الوطني سمة الشمول من خلال ما يركز عليه من المقومات والعناصر التي تساهم بدور محدد في مهمة المحافظة على الكيان السياسي للدولة.

الخصيصة الثانية: الدوام:

إن شمولية الدفاع الوطني تقتضي أن تكون مؤسسات ثابتة ودائمة، وديمومة الدفاع الوطني وبقائه لا يتوقفان على وجود الصراع المسلح أو الحرب أو التهديد بالعدوان، لأن المفهوم الحديث للدفاع قد أسقط نهائيا التمييز التقليدي بين حال الحرب وحالة السلم، خاصة في ظل التحالفات السياسية والمتغيرات الدولية المتلاحقة التي يتولد عنها قيام حالة دائمة من الشعور بالخطر والإحساس بالتهديد، وهذا بدوره يفرض على الدولة أن تتبنى نظاما دائما للدفاع الوطني.

الخصيصة الثالثة: الدفاع الوطني يمثل مصلحة قومية عليا:

إن الدفاع الوطني وبالنظر إلى أهدافه وغاياته يمثل على الدوام مصلحة قومية عليا تضافى عليه طابع التفوق والسمو على غيره من المهام الأخرى التي تضطلع بها الدولة¹. ولعل هذه الحقيقة قد فرضت

¹ ويراد بالمصلحة القومية المصالح المرتبطة بكيان الدولة وبقاؤها والتي تهدف إلى حماية استقلالها الوطني، فهذه الفكرة قد حلت محل المفاهيم القديمة التي كانت تعبر عن الولاء أو التقديس للحكام في العهود الماضية، غير أنه وبعد ظهور الدولة الحديثة وانزواء التغييرات القديمة، كان لابد من حلول مفاهيم جديدة تعكس الولاء الجديد للدولة كشخص معنوي مستقل وقائم بذاته ومنفصل عن شخصية حاكميه، فكان تعبير "المصلحة القومية" أحد هذه المصطلحات الجديدة، ويلاحظ هنا أن المشرع الفرنسي في قانون العقوبات الجديد المعمول به اعتبار من أول مارس 1994 قد أخذ بهذه الفكرة وذلك التعبير عن المصالح الأساسية للأمة في الدفاع الوطني والاستقلال السياسي وسلامة التراب الإقليمي في وجه العدوان الخارجي، وهذا ما تضمنته المادة 1/410 عقوبات، وذلك بعد أن هيمنت فكرة أمن الدولة على نظام القانون الفرنسي لمدة تزيد عن قرنين من الزمن (1791-1994) وجاء المفهوم الجديد ليواكب التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية في هذا العصر. انظر: الجاسوسية والأمن القومي، محمود سليمان موسى، ص 120.

نفسها فقط على المشرع العادي وإنما على المشرع الدستوري أيضاً، وذلك من خلال إسناد مهمة توجيه سياسة الدفاع الوطني إلى أعلى السلطات في الدولة مع تحويلها صلاحيات استثنائية تتفق مع طبيعة الرسالة السامية للدفاع الوطني،، فكل حكومة- أيا كان شكلها الدستوري، ومنها الحكومة الجزائرية- تتمتع باختصاصات سيادية عند ممارسة المهام المحددة في مخطط الدفاع الوطني.

وليس معنى ذلك أن السلطة التنفيذية، ممثلة في الحكومة، تملك حرية التصرف المطلق في تحقيق أهداف الدفاع الوطني بإرادتها المنفردة، لأن الصلاحيات المسندة إليها محددة في الدستور، والقانون، ومقيدة بمقتضيات الدفاع عن الأمة، كما أن تفويض هذه السلطات بتلك الصلاحيات يرجع إلى طبيعة هذه السلطات وما تملكه من كفاءة ومقدرة على تنسيق كافة الوسائل والجهود الوطنية وتسخيرها في مخطط الدفاع الوطني، فالحكومة هي بالفعل أكثر السلطات في الدولة قدرة وجدارة بالاضطلاع بتلك المهمة السامية والخطيرة. وهذا يتفق مع طابع السمو والسيادة التي يتسم بها الدفاع الوطني، الذي يتنافس مع فكرة التجزئة أو تقسيم الصلاحيات المنوطة بالجهاز الحكومي أو توزيع المسؤوليات، فذلك يتعارض مع ما تتسم به مهمة الدفاع الوطني من السمو والدوام وهذا يقتضي أن تكون السلطة التي تضطلع بأداء هذه المهمة مختصة على نحو انفرادي بكافة الصلاحيات التي يلزم القيام بها لتحقيق الأهداف والغايات المحددة في مخطط الدفاع الوطني¹.

على أنه يشترط أن تكون هذه الأهداف والغايات المنشودة ذات طابع قومي أو وطني، بمعنى أن يكون الباعث عليها هو حماية الكيان السياسي للأمة في مواجهة العدوان الخارجي أو خطر التهديد به وأن تكون التدابير التي تتخذها الحكومة في هذا المجال صادرة عنها بوصفها سلطة الحكم العليا، وليس باعتبارها سلطة إدارية² وذلك لأن التدابير المتخذة في إطار مخطط الدفاع الوطني وسواء في مرحلة الإعداد أو التنفيذ، ذات طبيعة سيادية بحتة³.

¹ جرائم الاعتداء على المصلحة العامة، أحمد صبحي العطار، ص212، ط1، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1993.

² ومعنى ذلك أن الحكومة حين تمارس المهمة الموكولة إليها في إطار مخطط الدفاع الوطني، إنما تقوم بأعمال تتعلق بالسيادة العليا في الدولة، بمقتضى السلطات المخولة إليها بموجب الدستور أو القانون وذلك لتحقيق الحماية الفعالة لأمن وكيان الدولة والدود عن سيادتها. انظر: الجاسوسية والأمن القومي، محمود سليمان موسى، ص121.

³ وفكرة الدفاع الوطني معروفة منذ القدم في النظام الإسلامي وذلك تحت معنى (الجهاد) وهو فرض كفاية في حالة السلم أو عند وجود من يقوم بأدائه، وأساس الجهاد يكمن في رد العدوان والحفاظة على كيان المجتمع الإسلامي، ويستند على نصوص قاطعة الدلالة

أما إذا لم يكن الغرض من هذه التدابير هو تحقيق حماية أمن الدولة الخارجي، فإننا لا نكون في هذه الحالة بصدد تدابير تتعلق بالدفاع الوطني، ولكن قد نكون إزاء إجراءات تتعلق بالأمن الداخلي، وهي في الغالب من الأحوال ذات طبيعة إدارية، ويترتب على ذلك أن جرائم التجسس أو الخيانة هي فقط الأفعال التي تستهدف العدوان أو المساس بالدفاع الوطني الذي هو وسيلة الدولة في تحقيق حماية كيائها ضد الأخطار الخارجية، أما الأفعال الأخرى التي تشكل مساساً بالنظام الداخلي للدولة فلا تدخل في نطاق تجرمات التجسس أو الخيانة، إلا إذا كان الهدف من هذه الأفعال هو تحقيق مصلحة، دولة أجنبية¹.

أما فيما يخص العناصر أو المقومات التي يتألف منها الدفاع الوطني فهي متعددة، ولا تنحصر في جانب معين دون غيره، فالدفاع الوطني في الدولة المعاصرة يتسم بأنه مركب شامل يتكون من مختلف قوى الأمة ومصادرها، وتأتي في مقدمتها القوات المسلحة. بمختلف فروعها وأجهزتها ومرافقها، أو ما يمكن أن يعبر عنه الجانب العسكري الذي يشمل كذلك قطاعات أخرى يناط بها واجبات محددة في مخطط الدفاع الوطني كالشرطة والحرس الجمهوري،...

<

في وجوبه وفرضيته في القرآن الكريم والسنة الشريفة، ومن ذلك قوله تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِصَبْرٍ وَصَابِرٍ وَرَآبِطُونَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" سورة آل عمران، الآية 200 ، وقوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِمُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" سورة الأنفال، الآية 60 وقوله تعالى: "إِنْهَزُوا حِزْبًا بَاقًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" سورة التوبة، الآية 41 ، وقوله ﷺ: ((لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)). مسند البزار، البزار ج2، ص355.

والجهاد بهذا المعنى هو وسيلة في يد السلطة العامة لحماية الدعوة أو الدفاع عن الدولة الإسلامية، وهو وسيلة متعلقة وليس وسيلة بطش أو تهديد للأمم الأخرى، علما أن مفهوم الدفاع الوطني في التشريعات الوضعية، وذلك لأنه لا ينحصر فقط في مقاومة العدوان الخارجي الذي تقوم به دولة أجنبية، ولكنه يشمل كذلك مقاومة الطغيان والاستبداد الداخلي الذي يمارس من قبل الحكام وأذنانهم ومن يلوذ بهم. انظر: نظرية الحرب في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص6 وما بعدها، المجلة المصرية للقانون الدولي، مج14، س 1958، رقم 9. آثار الحرب في الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، ص90، ط2، دار الفكر، بيروت، 1965.

¹ الجرائم المضرة بالمصلحة العمومية، علي أحمد راشد، ص346، ط1، مطابع الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 1955.

على أن الدفاع الوطني لا ينحصر فقط في الجانب العسكري، بل يشمل كذلك الجوانب الاقتصادية والصناعية، ويمتد ليشمل النشاط التجاري والنقدي ويتجاوز ذلك إلى الدفاع المدني. ومعنى ذلك أن الأسرار التي تمس الدفاع الوطني قد تكون عسكرية أو صناعية أو سياسية أو اقتصادية أو علمية بل وقد تكون ذات طابع نفسي عندما يتعلق الأمر بالحالة المعنوية للشعب أو الجيش في مواجهة المخاطر الأجنبية¹.

يبقى لنا أن نتحدث عن العلاقة بين الدفاع الوطني والأمن القومي، حيث يعد هذا الأخير من أكثر المفاهيم غموضاً وصعوبة، فهو مفهوم مرن وواسع، ويمكن استعماله في العديد من المواقف والمجالات بدءاً من الإجراءات البسيطة التي تقوم بها سلطة الدولة بقصد تأمين المواطنين ضد الأخطار المحتملة التي تمس أنفسهم وأموالهم، إلى الإجراءات الخاصة بتأمين الدولة نفسها في مواجهة غيرها من الدول الأخرى.

والأمن بهذا المعنى الأخير يمكن أن يستوعب في نطاقه معان عديدة تندرج من مجرد قيام الدولة بإجراءات وقائية لحماية نفسها من المخاطر الأجنبية، بوضع القواعد المناسبة لحراسة حدودها وشواطئها وأجوائها، والمحافظة على أسرارها الوطنية، وبناء القوات المسلحة أو عمل الأحلاف العسكرية، إلى حد قيام الدولة بإجراءات عملية لتحقيق أمنها.

وقد اختلف الفقه و الشراح في تحديد (مصطلح الأمن القومي) فذهب بعضهم إلى أن الأمن القومي هو (قدرة الدولة على حماية مصالحها الداخلية من التهديدات الخارجية)² أو أنه يعني تأمين الدولة من الخضوع للقوى الخارجية)³. ويعرفه آخرون بأنه: (الإجراءات التي تسعى الدولة من خلالها إلى حماية حقها في البقاء)⁴.

¹ يرى مُجد مصطفى القللي بأنه قد استفحل شر الجاسوسية في أيام السلم وامتد أيضاً إلى الميادين والمعنوية، وأصبحت الدعاية الخبيثة من أمضى أسلحتها، تعمل على تفكيك وحدة الأمة بشتى الوسائل وتضعف من روحها المعنوية، بالوعد والوعيد والاختلاف والتشهير... انظر: في المسؤولية الجنائية، مُجد مصطفى القللي، ص93، ط1، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1948.

² تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي، مُجد عقيدة، ص255، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1988

³ الجاسوسية والأمن القومي، محمود سليمان موسى، ص124.

⁴ المرجع نفسه، ص124.

أو هو مجموعة المصالح الحيوية للدولة ومن ثم فإن تحقيق أمن الدولة إنما يتم بحماية مصالحها الحيوية. ويمكن القول بأن الأمن القومي يعني تأمين كيان الدولة ضد الأخطار التي تتهدد داخلها أو خارجيا وتأمين مصالحها وتهيئة الظروف لتحقيق أهدافها القومية التي تعبر عن الاتفاق العام في المجتمع¹. ويعبر عن ذلك بأن للأمن القومي مفهوما مزدوجا يشمل الخطر الداخلي الذي يمس أو يهدد البنيان أو الشكل الدستوري للدولة، والخطر الخارجي الذي يؤثر تأثيرا مباشرا على الدولة في مواجهة غيرها من الدول الأخرى، فالمصلحة المحمية في الجرائم المضرة بالأمن القومي الخارجي هي شخصية الدولة على صعيد المجتمع الدولي، أما المصلحة المحمية في الجرائم المخلة بالأمن القومي الداخلي فهي السلطات الحاكمة سواء كانت سلطات تنفيذية أو تشريعية أو قضائية، أي هي شخصية الدولة على صعيد المجتمع الداخلي.

ويتضح من ذلك أن العلاقة بين الأمن القومي والدفاع الوطني هي علاقة عضوية، فالدفاع الوطني يتحدد بالوسائل والإجراءات التي تقوم بها الدولة في سبيل حماية أمنها القومي أو كيانها السياسي، ولا يتصور وجود أي منهما بدون الآخر، على أن مفهوم الأمن القومي في الواقع هو أكثر اتساعا وشمولا من فكرة الدفاع الوطني، وذلك لأن المفهوم الأول يشتمل على أمن الدولة بوجه عام، الداخلي والخارجي معا²، أما الدفاع الوطني فهو ليس إلا مجرد وسيلة لتحقيق حماية ذلك الأمن في جانبه

¹ ويعرف الأمن القومي بأنه: (حماية كيان الدولة من التهديدات في الداخل أو في الخارج لإيجاد الظروف الملائمة لكي تتمكن الدولة من تحقيق أهدافها القومية، وهو في نفس الوقت تأمين الدولة داخلها، ودفع التهديدات الخارجية عنها بما يكفل لشعبها التقدم والازدهار، وهو أيضا مجموعة التدابير التي تتخذها الدولة لدعم أنشطتها الرئيسية وقدرتها على حماية مصالحها وقيمتها). انظر: الأمن القومي والأمن الجماعي الدولي، ممدوح كامل، ص 67.

² يقوم هذا المفهوم على أساس التمييز بين الأمن الخارجي والأمن الداخلي، فالجرائم التي تقترب ضد الدولة بصفتها شخص من أشخاص القانون الدولي وتهدف بالتالي إلى إضاعة استقلالها أو الانتقاص من سيادتها أو تهدد سلامة كيانها الوطني، فهذه الجرائم تنال الأمة في كينونتها، والوطن في وجوده وقد يكون من شأنها هدم كيان الدولة أو محوها أو تجزئتها ويطلق عليها عادة الجرائم المضرة بالأمن الخارجي للدولة، أما الجرائم التي ترتكب ضد الدولة باعتبارها شخصا من أشخاص القانون الداخلي، وتهدف بالتالي إلى الانتقاص على أجهزة الحكم أو التمرد على مؤسساته أو إجراء تعديل على القواعد التي وضعها الدستور لتحديد شكل الحكم وأصول ممارسته أو تعيين علاقات السلطة بعضها ببعض أو اغتصاب سلطة سياسية أو مدنية أو عسكرية، فيطلق عليها تعبير الجرائم المضرة بأمن الدولة من جهة الداخل، وهي لا تمس الدولة في كينونتها أو في موضوعها، أو في علاقاتها بالدول الأخرى، وإنما تمس الحكومة وأجهزتها، وهذه كلها صفات وصيغ وأشكال عارضة، ولا يقوض الدولة استبدال شكل الحكم بشكل آخر، وقد لا يضر الأمة الاستعاضة عن

الخارجي، والعلاقة بينهما - أي بين الأمن القومي والدفاع الوطني - هي كالعلاقة بين الغاية والوسيلة، ومن هنا كان الدفاع الوطني بمثابة (كائن مادي ملموس) لأنه يتعلق بالموجودات التي تدخرها الدولة على الصعيد الدولي، فهو بذلك يعد وسيلة تهدف إلى تحقيق غاية معينة تتمثل في (الأمن القومي) الذي يعبر في واقع الأمر مجرد الإحساس الذاتي أو الشعور المعنوي للدولة في أنها في مأمن من الأخطار أو التهديدات الخارجية ويعتبر مثل هذا الشعور أو ذلك الإحساس أحد أهم حقوق الدولة في العصر الحديث¹.

المطلب الثاني: صفة الجاني (أن يكون جزائرياً)

الفرع الأول: أسباب كسب الجنسية الجزائرية²

البند الأول: أسباب كسب الجنسية الأصلية

< حكومة غيرها أو دستور بآخر وهذا ما يبرر التمييز بين هاتين الطائفتين من الجرائم، فالشعور العام يرى أن جرائم الأمن الخارجي هي أكثر خطورة من جرائم الأمن الداخلي، فالأخيرة إنما تستهدف شكل النظام الحاكم ومؤسساته، وقد تكون في أغلب الأحوال مجرد صدى لمشاعر البغض والعداء لدى بعض فئات الشعب اتجاه الحكم القائم، وتستهدف تغييره، ومتى كانت الظروف مواتية لنجاح هذه الاتجاهات فإن النظرة إلى مرتكبي هذه الأفعال ستتغير ويصبح أولئك هم أبطال الأمة ومنقذوها، وهذا بخلاف الجرائم التي تستهدف كيان الدولة، إذ تكون دوافع الجناة شخصية ومنحرفة وشريرة، فالفرق شاسع بين طائفة الخونة والجواسيس الذين يهتكون حرمة الولاء الذي يربطهم بأمتهم ويبيعون وطنهم بثمن بخس، وبين طائفة الأبطال والمصلحين من أصحاب المبادئ أو العقائد السياسية الذين يثورون على واقع الحكم الفاسد المتخلف بغية إصلاحه أو الإطاحة به تحقيقاً للخير العام للأمة. انظر: الجرائم الواقعة على أمن الدولة، محمد الفاضل، ص48 وما بعدها.

¹ يرى جانب من الفقه بأن أهم مظهر من مظاهر حق البقاء هو حق الدولة في الدفاع عن نفسها إذا وقع عليه عدوان لرد هذا العدوان ودفع الخطر الناتج عنه بكافة الوسائل اللازمة، ويثبت حق الدفاع الوطني للدولة كنتيجة لحقها في البقاء بنفس الشروط التي يثبت به للأفراد طبقاً للقانون الداخلي. انظر: قانون السلام، محمد طلعت الغنيمي، ص282.

² تعتبر الجنسية من أهم المواضيع التي نظمها المشرع الجزائري، حيث أصدرت الجزائر أول قانون للجنسية سنة 1963 والذي طبع بأحكام اتفاقيات إيفيان التي اشترطت على الجزائر إضفاء الجنسية على بعض الأجانب المقيمين في الجزائر، لذلك وصف هذا القانون بالتشريع الظرفي. وبعد مرور سبعة أعوام من صدور هذا القانون تم إلغاؤه بموجب الأمر 70-86 المؤرخ في 15 ديسمبر 1970 المتضمن قانون الجنسية الجزائرية، والذي جاء أكثر تشديداً في إجراءات وشروط التمتع بالجنسية الجزائرية. وبعد مضي أزيد من ثلاث عقود صدر الأمر 05-01 ليعدل ويتم قانون الجنسية السابق بما يتماشى وتطور المجتمع الجزائري خاصة على الصعيد الاجتماعي والسياسي. انظر: الجنسية الجزائرية في ظل التعديلات الجديدة، جلييلة بن عياد وخالد بعوني، ص37، ط2، دار الأمل، الجزائر، 2016.

أولاً: الجنسية الجزائرية الأصلية على أساس الدم: جاء في المادة السادسة من قانون الجنسية الجزائرية ما يلي: (يعتبر جزائرياً الولد المولود من أب جزائري أو أم جزائرية)¹.

من خلال هذه المادة يتبين أن الولد المولود لأب جزائري أو أم جزائرية يتمتع بالجنسية الأصلية دون أي شرط آخر.

أ- الجنسية الجزائرية الأصلية القائمة على حق الدم من جهة الأب: حتى يتمتع الولد - ذكرًا كان أو أنثى - بالجنسية الجزائرية الأصلية على أساس رابطة الدم من جهة أبيه يجب توفر شرطين هما: أن يكون الأب جزائرياً، وأن يثبت نسب الولد إليه قانوناً.

- الجنسية الجزائرية للأب: إن العبرة بنقل الجنسية الجزائرية الأصلية على أساس الدم من جهة الأب هي تمتع هذا الأخير بها لحظة ميلاد ولده، ومن خلال المادة 06 من قانون الجنسية الجزائرية (يعتبر جزائرياً الولد المولود من أب جزائري...).

يحصل الولد لحظة ميلاده على الجنسية الجزائرية الأصلية بغض النظر عن نوع الجنسية التي يتمتع بها أبوه أصلية كانت أو مكتسبة، وسواء كان الأب مفرد الجنسية أو مزدوج الجنسية أو متعدد الجنسيات ما دام متمتعاً بالجنسية الجزائرية².

والوقت الذي يعتد فيه ثبوت الجنسية الجزائرية للأب حتى تنتقل إلى ولده هو وقت ميلاد هذا الأخير، بصرف النظر عن وقت الحمل، حيث إذا كان الأب جزائرياً وقت الحمل ثم زالت عنه الجنسية الجزائرية قبل الميلاد ولده فلا تثبت لهذا الأخير الجنسية الجزائرية من جهة أبيه³.

- ثبوت نسب المولود:

لا تعتبر الولادة للطفل من أب جزائري وحدها شرطاً كافياً لإضفاء الجنسية الجزائرية الأصلية عليه، وإنما يشترط ثبوت نسبه إلى الأب الجزائري دون سواه، حيث تنص المادة 40 من قانون الأسرة الجزائري

¹ الأمر رقم 70-86 المؤرخ في 17 شوال 1390 الموافق لـ 15 ديسمبر 1970، المتضمن قانون الجنسية الجزائرية المعدل والمتمم بالأمر 05-01 المؤرخ في 27 فيفري 2005.

² المرشد في قانون الجنسية الجزائرية، لحسين بن شيخ آث ملويا، ص38، ط1، دار هومة، الجزائر، 2017

³ القانون الدولي الخاص الجزائري، تنازع الاختصاص القضائي الدولي - الجنسية -، بلقاسم أعرا ب، ج2، ص180، ط6، دار هومة، الجزائر، 2011.

على أنه: (يثبت النسب بالزواج الصحيح أو بالإقرار أو بالنية أو بنكاح الشبهة أو بكل زواج تم فسخه بعد الدخول طبقا للمواد 32 و 33 و 34 من هذا القانون.

يجوز للقاضي اللجوء إلى الطرق العلمية لإثبات النسب)¹.

وما جاء في المواد 32 و 33 و 34 من قانون الأسرة الجزائري هي الأنكحة الفاسدة والباطلة والتي إن بطل فيها عقد الزواج أو فسخ بعد الدخول، وأثمرت العلاقة الزوجية بمولود فلا يحرمه القانون من ثبوت نسبه لأبيه.

ت- الجنسية الجزائرية الأصلية القائمة على حق الدم من جهة الأم

الأصل أنه يعتد في بناء الجنسية الأصلية على حق الدم بجنسية الأب، باعتباره رب الأسرة الذي يتحدد به حق التربية (الفكرة الاجتماعية في الجنسية) على أن المشرع الجزائري وفي ظل العولمة، وحرصا على تنفيذ الجزائر لالتزاماتها الدولية لاسيما انضمامها لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، وأيضا إعمالا لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، والحد من ظاهرة انعدام الجنسية. فقد أضفى الجنسية الجزائرية الأصلية بالاعتماد على الجنسية الجزائرية للأم. وهو ما تجلّى في المادة 06 من قانون الجنسية (يعتبر جزائريا الولد المولود من أب جزائري أو أم جزائرية). حيث يحصل المولود على الجنسية الأصلية على أساس الدم من جهة أمه الجزائرية بقوة القانون بمجرد ولادته، ولم يشترط المشرع من خلال المادة السابقة في جنسية الأم أن تكون أصلية أو مكتسبة ولا مكان الولادة أن تكون في الجزائر أو في الخارج، وإنما الشرط الوحيد أن تكون الأم عند الولادة حاملة للجنسية الجزائرية².

ثانيا: الجنسية الجزائرية الأصلية على أساس الإقليم

إن القصد بأساس أو رابطة الإقليم هو أن تمنح الدولة جنسيتها الأصلية لكل مولود يولد على إقليمها بصرف النظر عن جذوره العائلية³، وقد أخذ المشرع الجزائري بأساس الإقليم لمنح الجنسية الجزائرية للمولود على إقليم الجزائر كأساس استثنائي يتم تفعيله في حالة عدم إمكانية تفعيل الأساس الأصلي وهو

¹ القانون رقم 84-11 المؤرخ في 9 رمضان 1404 الموافق لـ 09 يونيو 1984، المتضمن قانون الأسرة، المعدل والمتمم بالأمر 05-02 المؤرخ في 27 فيفري 2005.

² القانون الدولي الخاص الجزائري، بلقاسم أعراب، ص 184.

³ القانون الدولي الخاص الجزائري، نسرين شريقي وسعيد بوعلي، ص 120، ط 1، دار بلقيس للنشر، الجزائر، 2013.

رابطة الدم، والمقصود بالإقليم الجزائري ما ورد في المادة 5 من قانون الجنسية الجزائرية، حيث تنص على أنه: (بقصد بعبارة (بالجزائر) مجموع التراب الجزائري والمياه الإقليمية الجزائرية والسفن والطائرات الجزائرية)¹.

وقد قيد المشرع حالات لمنح الفرد الجنسية الجزائرية الأصلية بناء على حق الإقليم في المادة 07 من قانون الجنسية الجزائرية والتي نصت على أنه: (يعتبر من الجنسية الجزائرية:

1- الولد المولود في الجزائر من أبوين مجهولين:

غير أن الولد المولود في الجزائر من أبوين مجهولين يعد كأنه لم يكن جزائريا قط إذا ثبت خلال قصوره، انتسابه إلى أجنبي أو أجنبية وكان ينتمي إلى جنسية هذا الأجنبي أو هذه الأجنبية وفقا لقانون جنسية أحدهما.

إن الولد الحديث الولادة الذي عثر عليه في الجزائر يعد مولودا فيها ما لم يثبت خلاف ذلك.

2- الولد المولود في الجزائر من أب مجهول وأم مسماة في شهادة ميلاده دون بيانات أخرى تمكن من إثبات جنسيتها).

يظهر من خلال هذه المادة، أن الاستفادة من الجنسية الجزائرية الأصلية باعتماد أساس الإقليم ينحصر في ثلاث حالات هي: المولود من أبوين مجهولين والثابت ولادته على الإقليم الجزائري، اللقيط الذي تم العثور عليه في الإقليم الجزائري وهو حديث الولادة، والمولود من أب مجهول وأم مسماة في شهادة ميلاده دون معرفة جنسيتها.

البند الثاني: أسباب كسب الجنسية الطارئة

أولا: اكتساب الجنسية الجزائرية بالزواج

أجاز المشرع الجزائري اكتساب الجنسية الجزائرية للشخص الطبيعي الأجنبي، المتزوج مع حامل الجنسية الجزائرية مساويا في ذلك بين الجنسية الأصلية والمكتسبة وبين المرأة والرجل، وهذا ما جاءت به المادة 09 مكرر من الأمر 05-01 والتي نصت على أنه: (يمكن اكتساب الجنسية الجزائرية بالزواج من جزائري أو جزائرية بموجب مرسوم متى توفرت الشروط الآتية:

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

- أن يكون الزواج قانونيا وقائما فعليا منذ ثلاث (3) سنوات على الأقل عند تقديم طلب التجنس
 - التمتع بحسن السيرة والسلوك
 - إثبات الوسائل الكافية للمعيشة
- يمكن ألا تؤخذ بعين الاعتبار العقوبة الصادرة في الخارج¹.

ويتضح من خلال هذه المادة أن المشرع لم يجعل الزواج من جزائري أو جزائرية سببا كافيا للأجنبية أو للأجنبي لاكتساب الجنسية الجزائرية، وإنما أدرج شروطا لا بد من توفرها في طالب التجنس عند تقديم طلبه.

ثانيا: اكتساب الجنسية الجزائرية بالتجنس

التجنس هو الطريق المفتوح أمام جميع الأجانب، نساء كانوا أم رجالا؛ لاكتساب جنسية الدولة في تاريخ لاحق على الميلاد².

ويعدّ التجنس من أهم وسائل الدخول في جنسية دولة أجنبية في العصر الحديث، حيث يتاح للفرد الدخول في جنسية هذه الدولة بناء على طلبه³. ومتى توافرت فيه الشروط المطلوبة في كل قانون مثل قانون الجنسية الجزائرية في المادة 10 والتي نصّت على: (يمكن للأجنبي الذي يقدم طلبا لاكتساب الجنسية الجزائرية أن يحصل عليها بشرط:

- 1- أن يكون مقيما في الجزائر منذ 07 سنوات على الأقل بتاريخ تقديم الطلب.
- 2- أن يكون مقيما في الجزائر وقت التوقيع على المرسوم الذي يمنح التجنس.
- 3- أن يكون بالغاً سن الرشد.
- 4- أن تكون سيرته حسنة ولم يسبق الحكم عليه بعقوبة تخلّ بالشرف.
- 5- أن يثبت الوسائل الكافية لمعيشته.

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج، المعدل والمتمم بالأمر 05-01.

² الجنسية ومركز الأجانب في الفقه والتشريع الجزائري، بن عبيدة عبد الحفيظ، ص66، ط1، دار هومة، الجزائر، 2005.

³ "ص القانون الدولي الخاص، عكاشة محمد عبد العال، ص146، ط1، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 1996.

6- أن يكون سليم الجسد والعقل.

7- أن يثبت اندماجه في المجتمع الجزائري.

ويقدم الطلب إلى وزير العدل الذي يستطيع دائما رفضه ضمن شروط المادة 26 بعده¹.

وقد جاءت المادة سابقة الذكر المحددة لشروط اكتساب الجنسية الجزائرية بسبب التجنس كقاعدة عامة، فيما أوردت المادة 11 من القانون نفسه حالات استثنائية يستفيد من خلالها بعض الأجانب من اكتساب الجنسية الجزائرية بصرف النظر عن أحكام وشروط المادة 10 والتي تمّ ذكرها. حيث جاء في المادة 11 من قانون الجنسية الجزائرية: (يمكن للأجنبي الذي قدّم خدمات استثنائية للجزائر أو المصاب بعاهة أو مرض جرّاء عمل قام به خدمة للجزائر أو لفائدتها، أن يتجنس بالجنسية الجزائرية، بغض النظر عن أحكام المادة 10 أعلاه.

ويمكن أيضا للأجنبي الذي يكون في تجنسه فائدة استثنائية للجزائر أن يتجنس بالجنسية الجزائرية، بغض النظر عن الشروط المنصوص عليها في المادة 10 أعلاه.

إذا توفي أجنبي عن زوجه وأولاده وكان بإمكانه أثناء حياته أن يدخل في الصنف المذكور في الفقرة الأولى أعلاه، فيمكن لهؤلاء أن يطلبوا تجنسه بعد الوفاة في نفس الوقت الذي يطلبون فيه تجنسهم².

ثالثا: اكتساب الجنسية الجزائرية بالاسترداد

إن خيار استرداد الجنسية يعتبر رخصة خولها المشرع الجزائري للشخص الذي كان يتمتع بالجنسية الجزائرية الأصلية وفقدتها لسبب من الأسباب التي سيتم توضيحها فيما بعد.

وقد جاء في المادة 14 من قانون الجنسية الجزائرية ما يلي:

(يمكن استرداد الجنسية الجزائرية بموجب مرسوم لكل شخص كان متمتعاً بها كجنسية أصلية وفقدتها، وذلك عن طريق تقديم طلب بعد 18 شهرا على الأقل من الإقامة المعتادة والمنتظمة في الجزائر)³.

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

² الأمر 70-86، المصدر نفسه.

³ المصدر نفسه.

ويتبين من خلال هذه المادة أن المشرع أورد شروطا يسيرة لاكتساب الجنسية الجزائرية بسبب الاسترداد مقارنة باكتساب الجنسية بسبب الزواج والتجنس، لأن الهدف الأساسي لوضع شروط التجنس هو إمكانية اندماج طالب التجنس في المجتمع الجزائري. وبما أن طالب التجنس بسبب الاسترداد كان يتمتع بالجنسية الجزائرية الأصلية يعتبر اندماجه في المجتمع مفترضا.

الفرع الثاني: فقد الجنسية الجزائرية وآثارها

فقد الجنسية أو زوالها، معناه انقضاؤها عن الشخص بعد تمتعه بها، ويكون ذلك بإرادة من الفرد في التنازل عن جنسيته سواء الأصلية أو المكتسبة، حيث تكون لإرادته تأثيرا في خلق سبب زوال الجنسية عنه، كما قد تزول عنه الجنسية بخلاف إرادته على سبيل العقوبة، أو إذا ما توافرت فيه شروط قانونية من شأنها إزالة هذه الصفة بقوة القانون¹. و تفصيل ذلك كما يلي:

البند الأول: فقد الجنسية الجزائرية الأصلية

تزول الجنسية الجزائرية الأصلية عن الشخص الطبيعي المتمتع بها إما بسبب الفقد الإرادي وفقا للحالات المنصوص عليها في المادة 18 من قانون الجنسية الجزائرية، أو بقوة القانون طبقا لأحكام المادة 07 من نفس القانون. وعليه سيتم تفصيل ذلك في الآتي:

أولا: زوال الجنسية الأصلية بالفقد الإرادي:

نظم المشرع الجزائري حالات فقد الجنسية الأصلية في الفقرات 1، 2، 3 من المادة 18 من قانون الجنسية الجزائرية والتي نصت على أنه: (لا يفقد الجنسية الجزائرية:

- 1- الجزائري الذي اكتسب عن طوعية في الخارج جنسية أجنبية وأذن له بموجب مرسوم في التخلي عن الجنسية الجزائرية.
- 2- الجزائري، ولو كان قاصرا، الذي له جنسية أجنبية أصلية وأذن له بموجب مرسوم في التخلي عن الجنسية الجزائرية.

¹ القانون الدولي الخاص الجنسية -دراسة مقارنة-، غالب علي الداودي، ط1، دار الثقافة، عمان، 2009.

3- المرأة الجزائرية المتزوجة بأجنبي وتكتسب جراء زواجها جنسية زوجها وأذن لها بموجب مرسوم في التخلي عن الجنسية الجزائرية.

4- الجزائري الذي يعلن تخليه عن الجنسية الجزائرية في الحالة المنصوص عليها في الفقرة 02 من المادة 17 أعلاه.¹

يتبين من الفقرات 1، 2، 3 من هذه المادة أن الفقد يرد على كل جزائري سواء كان أصيلاً أو طارئاً²، أما الحالة الواردة في الفقرة الأخيرة فهي خاصة بفقد الجنسية الجزائرية المكتسبة دون الأصلية.

ثانياً: فقد الجنسية الجزائرية الأصلية بقوة القانون:

لا يمكن أن يفقد الشخص المتمتع بالجنسية الجزائرية الأصلية جنسيته بقوة القانون إلا في الحالتين المذكورتين في المادة 07 من قانون الجنسية الجزائرية، وهما حالة الولد المولود في الجزائر من أبوين مجهولين وحالة اللقيط الذي عثر عليه في الإقليم الجزائري، متى توافرت فيها شروط الفقد.

البند الثاني: آثار فقد الجنسية الجزائرية الأصلية

يترتب عن فقد الجنسية الجزائرية الأصلية وفقاً للحالات الخاصة، سواء كان سبب الفقد بإرادة الفرد، أو بقوة القانون، مجموعة من الآثار تتعلق بالزمن الذي ينتج فيه الفقد أثره، إضافة إلى ما يترتب عنه من آثار فردية وأخرى جماعية.

أولاً: بدء سريان أثر الفقد

نص المشرع الجزائري على أن سريان فقد الجنسية الجزائرية الأصلية يبدأ من تاريخ نشر المرسوم الخاص بالإذن في التخلي عن الجنسية الجزائرية إذا كانت لإرادة المعني بالأمر دخلاً في الفقد، وهذا ما نصت عليه المادة 20 من قانون الجنسية الجزائرية، حيث جاء في فقرتها الأولى الآتي: (يبدأ أثر فقد الجنسية الجزائرية:

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

² لمزيد من الشرح انظر: القانون الدولي الخاص الجزائري، تنازع الاختصاص القضائي الدولي - الجنسية -، بلقاسم أعراب، ج2، ص221 وما بعدها.

1- في الحالات المنصوص عليها في الفقرات 1، 2، 3 من المادة 18 أعلاه، ابتداء من نشر المرسوم الذي يأذن للمعني بالأمر في التنازل عن الجنسية الجزائرية في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية...¹.

ويعتبر الأمر منطقي بالنسبة للحالات المذكورة في المادة 18، الفقرة 1، 2، 3 وهي حالة الجزائري الذي اكتسب عن طوعية في الخارج جنسية أجنبية، والجزائري الذي له جنسية أجنبية أصلية، والمرأة الجزائرية المتزوجة من أجنبي، لأن الفقد يستوجب صدور مرسوم يأذن فيه بالتخلي عن الجنسية الجزائرية الأصلية².

أما عن سريان الفقد للجنسية الجزائرية بقوة القانون والذي يشمل حالة المولود لأبوين مجهولين وحالة اللقيط المذكورتين في المادة 07 من قانون الجنسية، فمتى توافرت شروط الفقد، تزول عنهم الجنسية الجزائرية بأثر رجعي أي منذ لحظة ميلاده، وهو الواضح من عبارة (...يعد كأنه لم يكن جزائريا قط...) المذكورة في المادة.

ثانيا: الآثار الفردية لفقد الجنسية الجزائرية الأصلية

بمجرد فقد الشخص لجنسيته الجزائرية الأصلية، تنقطع عنه صفة المواطنة، ويصبح أجنبيا تحكم وضعيته في الجزائر القوانين المنظمة لهذه الفئة، حيث يتم سحب منه الوثائق الخاصة بالهوية الجزائرية، كما تزول عنه جميع الحقوق الممنوحة للمواطن الجزائري، وخاصة المتعلقة بالحقوق السياسية إضافة إلى إقصائه من دائرة تطبيق القانون الجزائري في مسائل الأحوال الشخصية، كذلك لا يحق لفقد الجنسية الجزائرية أن يطالب بالحماية الدبلوماسية من البعثات الجزائرية في الخارج، ولا الاستفادة من خدماتها³.

وبما أن حالة المولود لأبوين مجهولين أو اللقيط تعتبر وضعها خاصا فإن فقد الجنسية في هذه الحالة لا يؤثر على صحة العقود المبرمة من قبل المعني، ولا بصحة الحقوق المكتسبة من قبل الغير المتعامل معه

¹ الأمر 70-86، المصدر نفسه.

² الوسيط في الجنسية الجزائرية، الطيب زروقي، ص 500.

³ المرجع نفسه، ص 501.

أثناء فترة تمتع الأول بالجنسية الجزائرية، وهذا طبقاً لأحكام المادة 08 من قانون الجنسية الجزائرية، وغاية المشرع الجزائري من هذا هو تطبيق مبدأ استقرار المعاملات والحفاظ على المراكز القانونية¹.

ثالثاً: الآثار الجماعية الناجمة عن فقد الجنسية الجزائرية الأصلية:

نص المشرع الجزائري على الآثار الجماعية الناجمة عن فقد الجنسية الجزائرية الأصلية في المادة 21 من الأمر 05-01 والتي جاء فيها ما يلي: (لا يمتد أثر فقدان الجنسية الجزائرية في الحالات المنصوص عليها في المادة 18 أعلاه إلى الأولاد القصر).

يتبين من هذه المادة أن فقدان الجنسية الجزائرية من طرف الوالد لا يمتد أثره إلى أولاده القصر بالنسبة لجميع الحالات الواردة في المادة 18، بمعنى أن يبقى هؤلاء محتفظين بالجنسية الجزائرية بالرغم من فقد والدهم لجنسيته الجزائرية².

البند الثالث: زوال الجنسية الجزائرية المكتسبة

بحسب أحكام قانون الجنسية الجزائرية، تزول الجنسية الجزائرية المكتسبة إما بسحبها من المعني أو بتجريدته منها أو بإرادة المكتسب لها. وقد نظم المشرع أسباب زوال الجنسية المكتسبة وكذلك الآثار المترتبة على زوالها.

أولاً: السحب كسبب لزوال الجنسية الجزائرية المكتسبة

يعتبر السحب إجراء عقابي تتخذه السلطة الجزائرية ضد المتمتع بالجنسية الجزائرية عن طريق التجنس دون سواه³. حيث نصت المادة 13 من قانون الجنسية الجزائرية على ما يلي: (يمكن دائماً سحب الجنسية من المستفيد إذا تبين خلال عامين (2) من نشر مرسوم التجنس في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، بأنه لم تكن تتوفر فيه الشروط المنصوص عليها في القانون أو أنه استعمل وسائل الغش في الحصول على الجنسية).

¹ المرشد في قانون الجنسية الجزائري، لحسين بن شيخ آث ملويا، ص 109.

² القانون الدولي الخاص الجزائري، نسرين شريقي وسعيد بوعلي، ص 146.

³ القانون الدولي الخاص الجزائري، تنازع الاختصاص القضائي الدولي - الجنسية -، بلقاسم أعراب، ج 2، ص 212.

يتم سحب (الجنسية بنفس الأشكال التي تم بها منح التجنس، بعد إعلام المعني بذلك قانونا ومنحه مهلة شهرين(2) لتقديم دفعه.

عندما تكون صحة العقود المبرمة قبل نشر قرار سحب الجنسية متوقفة على حيازة المعني بالأمر صفة جزائري، فإنه لا يمكن الطعن في صحة هذه العقود بحجة أن المعني بالأمر لم يكتسب الجنسية الجزائرية).

ثانيا: التجريد كسبب لزوال الجنسية الجزائرية المكتسبة

إن حق الدولة في اللجوء إلى تجريد الأشخاص المتمتعين بجنسيتها مبدأ معترف به في القانون الدولي العام، وعادة ما تلجأ الدولة لاعتماد هذا الإجراء إذا تبين لها أن أحد وطنيها انفصل عن جماعتها، أو غير ولائه نحوها وأصبح غير جدير بحمل جنسيتها¹.

وقد نص المشرع الجزائري على التجريد من الجنسية الجزائرية في المادة 22 من قانون الجنسية الجزائرية بأنه: (كل شخص اكتسب الجنسية الجزائرية يمكن أن يجرّد منها:

- 1- إذا صدر حكم من كل فعل يعد جنائية أو جنحة تمس بالمصالح الحيوية للجزائر.
 - 2- إذا صدر حكم ضده في الجزائر أو في الخارج يقضي بعقوبة لأكثر من(5)سنوات سجنا من أجل جنائية.
 - 3- إذا قام لفائدة جهة أجنبية بأعمال تتنافى مع صفته كجزائري أو مضرّة بمصالح الدولة الجزائرية.
- ولا يترتب التجريد إلا إذا كانت الأفعال المنسوبة إلى المعني قد وقعت خلال العشر(10) سنوات من تاريخ اكتساب الجنسية الجزائرية.

ولا يمكن إعلان التجريد من الجنسية إلا خلال أجل خمس(5) سنوات اعتبارا من تاريخ ارتكاب تلك الأفعال)².

يتبين من هذه المادة أن المشرع قصد التجريد من الجنسية الجزائرية على الشخص المكتسب لها دون المتمتع بها كجنسية أصلية، مساويا في ذلك بين كل المكتسبين بصرف النظر عن سبب الاكتساب،

¹ الوسيط في الجنسية الجزائرية، الطيب زروقي، ص504.

² الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

إذ يمكن تجريد كل وطني طارئ من جنسيته الجزائرية متى وقع في الحالات المنصوص عليها في المادة 22 أعلاه، وأضاف المشرع التجريد بمدد لا بد من احترامها.¹

وأبرز ما يلاحظ في هذه المادة، وما يتعلق بموضوع الأطروحة، هو الفقرة الأولى من المادة 22، والتي تدور حول الحكم بإدانة في جنائية تمس بالمصالح الحيوية للدولة، حيث أجاز المشرع تجريد الجزائري الطارئ من جنسيته الجزائرية، إذا ارتكب فعلا مجرما سواء كان جنائية أو جنحة، وسواء ارتكب الفعل المجرم وقت السلم أو في وقت الحرب، وذلك تماشيا مع قانون العقوبات الجزائري.²

وبالرجوع إلى قانون العقوبات لم يحدد المشرع الجرائم الماسة بالمصالح الحيوية للدولة، لأن المصالح الحيوية للدولة، لأن المصالح الحيوية قد تكون أمنية، اقتصادية، اجتماعية، سياسية،...

لكن في المقابل نظم المشرع الجرائم الماسة بأمن الدولة في الأمر 66-156 المعدل والمتمم في المواد من 61 إلى 90.³ وبالرجوع إلى الجرائم ضد أمن الدولة نجد أول فئة خصصها المشرع الجزائري ما يتعلق بموضوعنا وهو جرائم الخيانة والتجسس والتي منها: المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش أو للأمة وهو ما يعبر عنه بالحرب النفسية ضد أمن الدولة، فإذا ثبتت الوقائع المنسوبة فإنه يجرد من الجنسية الجزائرية يستوي في ذلك أن يكون فاعلا أصليا أو شريكا.⁴

كذلك ما يتعلق بموضوع بحثنا الفقرة الثالثة من المادة نفسها، والتي تدور حول انتفاء صفة الولاء للدولة الجزائرية من خلال القيام بأعمال مضرّة بمصالح الدولة الجزائرية ولصالح دولة أجنبية ومنها كل ما يعد من أفعال الحرب النفسية ضد أمن الدولة، لأن المشرع الجزائري لم يحدد الأعمال المؤدية للتجريد من الجنسية الجزائرية، واكتفى بالوصف العام لهذه الأعمال. مما يجعل كل الأعمال المادية أو المعنوية في أي مجال حيوي للدولة الجزائرية، وسواء قام بها المعني بصفة مؤقتة أو مستمرة، يؤثر عليها أو يقدمها مجانا، في الداخل أو في الخارج، يترتب عليها التجريد من الجنسية الجزائرية.⁵

¹ الجنسية الجزائرية في ظل التعديلات الجديدة، جلييلة بن عياد وخالد بعوني، ص 150.

² الأمر 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

³ الوسيط في القانون الجزائري العام، أحسن بوسقيعة، ص 47، ط 13، دار هومة، الجزائر، 2013.

⁴ الوسيط في الجنسية الجزائرية، الطيب زروقي، ص 506.

⁵ القانون الدولي الخاص الجزائري، نسرین شريفي وسعيد بوعلي، ص 146-147.

ثالثا: الفقد كسبب لزوال الجنسية المكتسبة

يتم فقد الجنسية الجزائرية المكتسبة بنفس حالات فقد الجنسية الأصلية التي تم الحديث عنها سابقا، وهي الحالات الأولى التي نصت عليها المادة 18 من قانون الجنسية الجزائرية، إضافة إلى الحالة المذكورة في الفقرة الرابعة من نفس المادة والخاصة فقط بالجنسية المكتسبة حيث جاء في المادة 18: (يفقد الجنسية الجزائرية:.....

4- الجزائري الذي يعلن تخليه عن الجنسية الجزائرية في الفقرة المنصوص عليها في الفقرة 02 من المادة 17 أعلاه¹.

وما جاء في الفقرة الثانية من المادة 17 هو حرية الأشخاص الذين اكتسبوا الجنسية الجزائرية أثناء قصورهم كأثر لاكتساب والدهم (الأب والأم) هذه الجنسية في التنازل عنها، وذلك خلال سنتين ابتداء من بلوغهم سن الرشد.

حيث أفر لهم المشرع بحق رفض الجنسية الجزائرية خلال الفترة الممتدة بين 19 و 21 سنة من عمرهم، وأساس التخلي هنا، هو إعطاء الفرصة لمن فرضت عليه الجنسية الجزائرية بقوة القانون أثناء قصوره للتعبير عن رفضه إياها إذا شاء عند بلوغه سن الرشد².

البند الرابع: آثار سحب الجنسية الجزائرية المكتسبة

يترتب على صدور مرسوم سحب الجنسية الجزائرية المكتسبة من المستفيد آثارا فردية وأخرى جماعية:

أولا: الآثار الفردية

تتمثل الآثار الفردية المترتبة عن سحب الجنسية الجزائرية من الجزائري الطارئ، أن تزول عنه من تاريخ نشر مرسوم السحب في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ويصبح أجنبيا منذ ذلك التاريخ، ويعامل كأجنبي وفقا للقانون الخاص بالأجانب، ويفصل من كل وظيفة تقلدها بحكم صفته

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

² الوسيط في الجنسية الجزائرية، الطيب زروقي، ص 484.

الجزائرية، كما يمكن أن يتعرض للإبعاد أو المنع من الدخول إلى الإقليم الجزائري إذا صدر المرسوم أثناء تواجده في الخارج¹.

ثانيا: الآثار الجماعية

لم ينص المشرع الجزائري صراحة على امتداد سحب الجنسية الجزائرية إلى أولاد المعني الذين اكتسبوا الجنسية أثناء قصورهم تبعا لاكتساب والدهم إياها، غير أنه يفهم من الفقرة الثانية من المادة 13 من قانون الجنسية الجزائرية أن صدور مرسوم سحب الجنسية يؤدي على سحبها من المستفيد الأول وهو المتجنس، كما يمتد إلى أولاده الذين اكتسبوا كآثر جماعي أثناء قصورهم، وهذا ما عبر عنه المشرع بـ: (...يتم سحب الجنسية بنفس الأشكال التي تم بها منع التجنس...)، أما في حالة الأطفال المولودين خلال فترة تمتع والدهم بالجنسية الجزائرية، لا يمكن سحبها منهم باعتبار أن جنسيتهم أصلية وإجراء السحب لا يطبق على الجزائري الأصل، وبالتالي يبقوا محتفظين بجنسيتهم الجزائرية المتمتعين بها طبقا للمادة 06 من قانون الجنسية الجزائرية، فيما يخص الأولاد المكتسبين للجنسية عند قصورهم وأصبحوا بالغين قبل سحب الجنسية من والدهم يمتد إليهم إجراء السحب بنفس الشكل الذي منحهم الجنسية².

البند الخامس: آثار التجريد من الجنسية الجزائرية

يترتب على التجريد من الجنسية الجزائرية نفس الآثار الفردية للشخص المسحوب منه جنسيته الجزائرية، وبالتالي يصبح أجنبيا على الجزائر مما يجعله يخضع للقانون 08-11 المتعلق بدخول الأجانب إلى الجزائر وإقامتهم بها وتنقلهم فيها، أما عن بدأ أثر التجريد لم يتعرض إليه المشرع صراحة.

¹ بالرجوع إلى نص الفقرة الأخيرة من المادة 13 من قانون الجنسية الجزائرية فإن سحب الجنسية من المكتسب لها لا يؤثر على التصرفات والمعاملات التي أجراها المعني بالأمر خلال الفترة ما بين اكتسابه الجنسية الجزائرية وسحبها منه، إذ تبقى صحيحة ولا يمكن الطعن فيها. وعدم المساس بصحة العقود المبرمة من قبل الشخص المعني بالسحب، ولا بصحة الحقوق المكتسبة من طرف الغير يعد تكريسا لمبدأ استقرار المعاملات، وأيضا حفاظا على المراكز القانونية القائمة في ظل تمتع الفرد بالجنسية الجزائرية خلال تلك الفترة إضافة إلى كون التصرفات القانونية وكقاعدة عامة يطبق عليها القانون السري المفعول وقت إبرامها، وهو الأمر نفسه بخصوص الحقوق المكتسبة. انظر: المرشد في قانون الجنسية الجزائري، لحسين بن شيخ آث ملويا، ص 109.

² الجديد في قانون الجنسية الجزائرية والمركز القانوني لمتعدد الجنسيات، محمد طيبة، ص 96، دار الهدى، عين مليلة، 2012.

وبما أن مرسوم التجريد ينشر في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، وبالرجوع لأحكام المادة 29 من قانون الجنسية الجزائرية والتي تنص على ما يلي: (تنشر المراسيم المتعلقة باكتساب الجنسية في الجريدة الرسمية الجزائرية الديمقراطية الشعبية وتحدث أثرها اتجاه الغير ابتداء من تاريخ هذا النشر)¹.

وقد نشأ خلاف فقهي وتباينت أحكام القضاء حول مسألة بدء إحداث التجريد أثره، والرأي الراجح في ذلك هو أن مرسوم التجريد من المراسيم الفردية ويعد بمثابة قرار إداري، ومن مبادئ القانون الإداري أن القرارات الإدارية المتضمنة إنشاء أوضاع ضمن نطاق القانون العام تحدث أثارها من تاريخ صدورها بالنسبة إلى المعني بها بغض النظر عن تاريخ نشرها².

ولعل القصد من وراء ذكر المشرع الجزائري أن المرسوم يحدث أثره بالنسبة إلى الغير من يوم نشره يعني بمفهوم المخالفة أن التجريد يحدث أثره بالنسبة إلى المعني بالأمر بدءا من تاريخ صدوره. ومن الواضح أن الشخص المجرد من الجنسية الجزائرية يكون على علم بعزم الدولة الجزائرية على تجريده من جنسيتها مادام القانون قد منحه مهلة شهرين لتقديم ملاحظاته وهذا قبل صدور المرسوم، وعليه تزول الجنسية الجزائرية عن الشخص المجرد منها من يوم صدور المرسوم، أما بالنسبة إلى الغير فيحدث التجريد آثاره ابتداء من تاريخ نشر المرسوم في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، وتعتبر التصرفات التي يقوم بها المجرد من الجنسية في الفترة الممتدة بين صدور المرسوم ونشره صحيحة وذلك من أجل استقرار المعاملات وحماية لحقوق الغير متعامل معه³.

أما عن الآثار الجماعية التي يربتها التجريد بالنسبة إلى أسرة المعني، فستكلم عن مرحلة ما بعد تعديل 2005م

نصت المادة 24 من قانون الجنسية الجزائرية بعد تعديلها بموجب الأمر 05-01 على أنه: (لا يمتد أثر التجريد من الجنسية إلى زوج المعني وأولاده القصر.

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

² الجنسية ومركز الأجانب في الفقه والتشريع الجزائري، عبد الحفيظ بن عبيدة، ص 170.

³ المرجع نفسه، ص 170.

غير أنه يجوز تمديد التجريد من الجنسية إلى الأولاد إذا كان شاملا لأبويهم¹.

بما أن التجريد عبارة عن عقوبة توقعها الدولة الجزائرية على الوطني الطارئ متى توفرت أسباب التجريد المنصوص عليها في المادة 22 من نفس القانون، وتطبيقا لمبدأ شخصية العقوبات، لا يمكن أن يمتد التجريد إلى زوج المعني وأولاده القصر وهذا كأصل عام، ومن باب أولى أن لا يمتد إليهم إذا كانوا يتمتعون بالجنسية الجزائرية الأصلية وهذا ما حكمت به الفقرة الأولى من المادة المذكورة، والهدف من إدراج هذه الفقرة يتمثل في تفادي انعدام الجنسية بالنسبة للزوج الآخر والأولاد القصر إذا كانوا لا يتمتعون بأي جنسية عدا الجنسية الجزائرية المكتسبة².

إلا أنه وبهدف المحافظة على وحدة الجنسية في الأسرة، أقر المشرع الجزائري في الفقرة الثانية من نفس المادة إمكانية تمديد التجريد للأولاد إذا كان شاملا لأبويهم في نفس الوقت، وقد يمس التجريد من الجنسية الجزائرية الزوجين معا إذا كانت الأفعال الموجبة لهذه العقوبة ارتكبت من كليهما، ذلك أنه لا يمكن تمديد أثر التجريد من الجنسية الجزائرية إلى الزوج الآخر بناء على تجريد زوجه وهذا ما حكمت به الفقرة الأولى من المادة 24، ومن الملاحظ أن المشرع استعمل في الفقرة الثانية عبارة (الأولاد)، وهذه العبارة تشمل الأبناء القصر والراشدين على حد سواء، إلا أنه ومن المؤكد أن المشرع تجنب التكرار، وقصد الأولاد القصر والراشدين بناء على كون الفقرة الثانية تشكل استثناء من الفقرة الأولى وبالتالي لا يمكن الأخذ بأحكام الفقرة الثانية بمعزل من الفقرة السابقة لها³.

البند السادس: آثار فقد الجنسية الجزائرية المكتسبة

نظم المشرع الجزائري آثار فقد الجنسية الجزائرية المكتسبة في المادة 20 الفقرة الثانية والمادة 21 من قانون الجنسية الجزائرية.

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

² المرشد في قانون الجنسية الجزائرية، لحسين بن شيخ آث ملويا، ص 153-154.

³ الجنسية الجزائرية في ظل التعديلات الجديدة، جلييلة بن عياد وخالد بعوني، ص 162-163.

● بدء أثر الفقد

تنص المادة 2/20 من قانون الجنسية الجزائرية على أنه: (يبدأ أثر فقدان الجنسية الجزائرية... 2- في الحالة المنصوص عليها في الفقرة 04 من المادة 18 أعلاه، ابتداء من يوم ثبوت تاريخ الطلب المقدم بصفة قانونية من المعني بالأمر والموجه إلى وزير العدل)¹.

الشخص المعني بهذه الفقرة هو مكتسب الجنسية الجزائرية أثناء قصوره تبعا لاكتساب أحد والديه لها طبقا للفقرة الأولى من المادة 17 من نفس القانون، والذي أجازت له الفقرة الثانية من ذات المادة التنازل عنها في الأجل المحدد، حيث يبتدئ أثر الفقد بالنسبة لهذا الشخص من ثبوت تاريخ الطلب المتضمن لإعلانه التنازل عن الجنسية الجزائرية، ويعد هذا الأمر منطقيين لأن المشرع لم يقرن التنازل عن الجنسية الجزائرية بحسب هذه الحالة بمجرد تقديم الطلب بصفة قانونية².

ويوم ثبوت تاريخ الطلب المقدم بصفة قانونية هو يوم تسجيله في سجل البريد الوارد للمصلحة المختصة في وزارة العدل، بحيث تمنحه رقما تسلسليا مع ذكر تاريخ وروده³.

● امتداد أثر الفقد

يترتب على فقد الجنسية الجزائرية المكتسبة نفس الآثار الفردية الناجمة عن السحب والتجريد، أما عن الآثار الجماعية فقد نصت عليها المادة 21 من قانون الجنسية الجزائرية والتي جاء فيها: (لا يمتد أثر فقدان الجنسية الجزائرية في الحالات المنصوص عليها في المادة 18 أعلاه إلى الأولاد القصر)⁴.

يفهم من هذه المادة أن الأشخاص المذكورين في الفقرة الرابعة من المادة 18، يقتصر أثر فقدهم للجنسية الجزائرية المكتسبة عليهم فقط، دون أن يمتد إلى أولادهم القصر⁵، ذلك أن الأولاد في هذه الحالة يتمتعون بالجنسية الجزائرية الأصلية، ولا سبيل لفقد الجنسية الأصلية بقوة القانون.

¹ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

² الجنسية الجزائرية في ظل التعديلات الجديدة، جلييلة بن عياد وخالد بعوني، ص 146.

³ المرشد في قانون الجنسية الجزائري، حسين بن شيخ آث ملويا، ص 146.

⁴ الأمر 70-86، المتضمن ق.ج.ج.

⁵ المرشد في قانون الجنسية الجزائري، المرجع نفسه، ص 146.

وخلاصة ما سبق تستلزم جرائم الخيانة في مرتكبها أن يكون جزائرياً، وهذا أمر طبيعي تحتمه رابطة الولاء التي تربط بين المواطن ووطنه، أما الأجنبي فغير مخاطب بأحكام جرائم الخيانة، ذلك أن هذه الجرائم علاوة على أنها تمس الأمن الخارجي للدولة، إلا أن التشدد في فرض العقوبات على مرتكبها، سببه أن الغدر يأتي من شخص يفترض أن يقدم حياته فداء لوطنه في وقت الشدة¹.

إلا أن المشرع الجزائري توسع في هذا المفهوم، وافترض أن هذه الجريمة (الخيانة) في المادة (4/62) تقع من الجزائري ومن الأجنبي إذا كان يعمل كعسكري أو بحار المهم أنه في خدمة الجزائر؛ لأن خيانة الوطن لا يمكن أن تنسب إلا لمن يحمل جنسية هذا الوطن الجزائري.

ويستوي أن تكون جنسية الجاني أصلية (أي كونه من أب جزائري أو أم جزائرية، وهو ما يسمى بحق الدم، أو الميلاد على إقليم الجزائر وهو ما يسمى بحق الإقليم، وإما بصفة عرضية وذلك عن طريق التجنس أو التبعية) كتبعية الزوجة الأجنبية لجنسية زوجها الجزائري في الحدود القانونية)، ويرجع تحديد صفة الجاني إلى قانون الجنسية الجزائرية الذي يكون مطبقاً وقت ارتكاب الجاني للجريمة ولا عبء بالقانون السابق أو اللاحق عليه، ويترتب على زوال الجنسية بالسحب أو السقوط عدم مساءلة الجاني، هذا ولا يحول دون توقيع العقاب على الجاني إذا ما تجنس بجنسية أجنبية مادامت جنسيته الجزائرية لم تسقط عنه أو لم تسحب منه بعد²، ويقع على النيابة العامة عبء إثبات صفة الجاني؛ لأن جنسية الجاني ركناً من أركان الجريمة بانعدامها لا تقوم.

فمن يرتكب جريمة الخيانة وكان حين ارتكابه إياها متمتعاً بالجنسية الجزائرية أياً كانت وسيلة اكتسابه لها فإنه يسأل جزائرياً عن هذه الجريمة وهو نفس الحكم على العسكريين والبحارة ما داموا في خدمة الجزائر.

¹ دروس في شرح قانون العقوبات الجزائري - القسم الخاص -، عبد الله سليمان، ص43، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989.

² شرح قانون العقوبات الجزائري - القسم الخاص -، محمد صبحي نجم، ص194، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.

الباب الثالث

الباب الثالث: العقوبات المقررة على الحرب النفسية والوقاية منها في الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري.

تمهيد وتقسيم:

إنّ الأمن والاستقرار مطلب إنساني ضروري لا يقلّ أهميّة عن المطالب الأخرى، ومن دونه لا يستطيع الإنسان أن يقوم بممارسة حياته اليومية على الوجه الأمثل، فضلا عن أن يبدع فكرة بناء أو يقيم حضارة راقية. وقد انتبه الإنسان إلى ضرورة الأمن منذ بداية حياته، وظلّ يعبر عن هذا الشعور أو هذه الحاجة بشتى الوسائل، ومع تعقد حياته الاجتماعية وتطورها، عبّر عن تلك الحاجة بالدولة والقوانين؛ من أجل توفير الأمن العام، ولحسم ما ينشأ من تحديد لاستقرار المجتمع من الأخطار الداخلية والخارجية، وخاصة من الحرب النفسية والتي تعتبر وسيلة لهدم أعظم الدول بأقلّ وقت؛ لذلك نصّت الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي على عقوبات رادعة لها، واتبعت سياسة للوقاية من أخطارها الفادحة.

وعلى هذا نقسم الباب إلى فصلين يندرج تحتهما مبحثين كما يلي:

الفصل الأول: عقوبة الحرب النفسية والوقاية منها في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول: عقوبة الحرب النفسية في الفقه الإسلامي.

المبحث الثاني: الوقاية من الحرب النفسية في الفقه الإسلامي.

الفصل الثاني: عقوبة الحرب النفسية والوقاية منها في التشريع الجزائري.

المبحث الأول: عقوبة الحرب النفسية في التشريع الجزائري.

المبحث الثاني: تصور للوقاية من الحرب النفسية في التشريع الجزائري.

الفصل الأول: عقوبة الحرب النفسية والوقاية منها في الفقه الإسلامي.

وصلنا من خلال الباب السابق إلى أنّ الحرب النفسية الماسّة بأمن الدولة في الفقه الإسلامي لها حكمان، وهذا تأسيسا على الأثر الواقع. فالأول مشروع وهو ما كان زمن الحرب وأيضا ضد الأعداء، والثاني محرّم وهو ما تعلّق بالشائعات والأراجيف داخل المجتمع الإسلامي، أو ما كان ضد الأعداء حال السلم.

وفي هذا الفصل سنتطرق إلى جزء العقوبات المقررة في الفقه الإسلامي على الحرب النفسية الماسّة بأمن الدولة في شقّها المحرم، وكذلك آليات الوقاية الناجعة منها. وعليه تم تقسيم الفصل إلى:

المبحث الأول: عقوبة الحرب النفسية في الفقه الإسلامي.

المطلب الأول: عقوبة التعزير

المطلب الثاني: تفريد العقوبات الشرعية

المبحث الثاني: الوقاية من الحرب النفسية في الفقه الإسلامي

المطلب الأول: أخلاقيات أساسية لمقاومة الحرب النفسية

المطلب الثاني: طرق وأساليب مقاومة الحرب النفسية

المبحث الأول: عقوبة الحرب النفسية في الفقه الإسلامي.

لشريعة الإسلامية في تقسيم الجرائم والعقوبات مسلك فريد، فقد نص فيها على عدد قليل من الجرائم فرضت لها عقوبات محددة، وسميت هذه العقوبات في بعض منها بالحدود، وسميت في البعض الآخر بالقصاص، أما باقي الجرائم فلم تفرض لها عقوبات محددة، بل ترك شأنها لأولياء الأمر والقضاة، يفرضون منها في كل حالة ما يناسبها من عقوبات تسمى بالتعزيرات ومنها الحرب النفسية. وأرى من المناسب ومما تقتضيه الضرورة العلمية تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين.

المطلب الأول: عقوبة التعزير

حرّمت الشريعة الإسلامية كل الأفعال التي تضر بالمصلحة العامة، وعاقبت عليها بالتعزير، فيما ليس فيه عقوبة مقدرة، ومن الأفعال التي هي من هذا القبيل الحرب النفسية بشتى أشكالها.

الفرع الأول: مفهوم التعزير

التعزير في اللغة من العزر، والعزر له معان، منها اللوم، و الرد، والمنع، يقال: عزره يعزره عزرا¹.

أما التعزير فيطلق على معان منها:

- النصر والإعانة والتقوية، وبه فسّر قوله تعالى: "وَتَعَزَّزُوا"² أي تنصروه.

- التفخيم و التعظيم، وفسّر به قوله تعالى: "وَعَزَّزْتُمُوهُمْ"³.

- التأديب بالضرب، أو أشد الضرب.

ويلاحظ أن المعنيين الثاني والثالث متضادان، ولذلك وصف اللغويون (التعزير) بأنّه

من الأضداد.

¹ لسان العرب، ابن منظور، ج4، ص561.

² سورة الفتح، الآية 9.

³ سورة المائدة، الآية 12.

قال ابن فارس¹: (العين والزاي والراء كلمتان، إحداهما: التعظيم و النصر، والكلمة الأخرى: جنس من الضرب)².

أما التعزير شرعا فنجد بعض الاختلاف في عبارات الفقهاء، ولنستعرض أشهر هذه التعاريف في مختلف المذاهب الفقهية لنتبين هذا الاختلاف.

الحنفية:

قال ابن الهمام³، وابن عابدين⁴، وابن نجيم⁵: (التعزير هو: تأديب دون الحد).

المالكية:

قال ابن فرحون: (التعزير: تأديب استصلاح وزجر على ذنوب لم يشرع فيها حدود ولا كفارات)⁶.

الشافعية:

قال الرملي: (هو التأديب في كل معصية لله أو لآدمي لا حد لها ولا كفارة)⁷.

¹ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج4، ص311، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979

² قد ذكر غير واحد من أهل اللغة أن معاني التعزير بمعنى التأديب لغة . ويطلق على (الضرب بما دون الحد المقدر) لكن الرملي من علماء الشافعية تعقب ذلك مبينا أن هذا وضع شرعي لا لغوي تجمعهما حقيقة التأديب لغة، ويفترقان في القيد الشرعي وهو قولهم (بما دون الحد المقدر)؛ لأنه قبل ورود الشرع ليس ثمة حدود مقدرة فقال رحمه الله تعالى مشيرا إلى رد هذا الإطلاق لغة (والظاهر أن هذا الأخير غلط، إذ هو وضع شرعي لا لغوي لان هلم يعرف إلا من جهة الشرع فكيف ينسب لأهل اللغة الجاهلين بذلك من أصله والذي في (الصحاح) بعد تفسيره بالضرب : ومنه سمي ضرب ما دون الحد تعزيرا، فأشار إلى أن هذه الحقيقة الشرعية منقولة عن الحقيقة اللغوية بزيادة قيد: هو كون ذلك الضرب دون الحد الشرعي، فهو كلفظ الصلاة، الزكاة، ونحوهما، المنقولة لوجود المعنى اللغوي فيها زيادة). انظر: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي، ج8، ص18-19

³ شرح فتح القدير، ابن الهمام، ج5، ص345، ط2، دار الفكر، بيروت، دت.

⁴ حاشية رد المحتار، ابن عابدين، ج4، ص178.

⁵ البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم، ج5، ص67، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

⁶ تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج2، ص288، ط1، القاهرة الحديثة للطباعة، القاهرة، 1986.

⁷ نهاية المحتاج، المرجع نفسه، ج8، ص19.

الحنابلة :

قال ابن قدامة: (التعزير هو: العقوبة المشروعة على جناية لا حد فيها)¹.

وقال البهوتي، وابن مفلح: (التعزير اصطلاحاً: التأديب)².

وقال البعلي: (التعزير هو: تأديب دون الحد)³.

ونلاحظ في هذه التعريفات عدة ملاحظات منها:

أن هناك شبه اتفاق بين الفقهاء في الجزء الأول من التعريف وهو (التأديب).

كما أن بعض التعريفات قيدت التعزير بأن يكون في معصية لا حد فيها، وبعضها قيدته بقيدتين: لا حد فيها، ولا كفارة، ولعل الذين اقتصروا على قولهم (لا حد فيها) انطلقوا من أن التعزير قد يجتمع مع الكفارة، ولذلك فلا داعي لإدخال كلمة (ولا كفارة) في التعريف.

أما الذين أدخلوا القيد الأخير في التعريف فذهبوا إلى أن التعزير لا يجتمع مع الكفارة، واعتبروا المسائل التي ورد فيها اجتماع التعزير مع الكفارة مسائل مستثناة، والاستثناء لا يخرم القاعدة، ومن هذه المسائل: إفطار رمضان بالجماع فإن فيه التعزير مع الكفارة.

والتعريف المختار للتعزير - والله أعلم - هو: (التأديب في كل معصية لا حد فيها ولا كفارة)، وآثرنا - والله أعلم - إدخال قيد (ولا كفارة) لأن التعزير لا يجتمع مع الكفارة إلا في مسائل مستثناة لا تفرض حذف هذا القيد من التعريف.

مشروعية التعزير في الشريعة الإسلامية:

التعزير مشروع بالكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب قوله تعالى: "وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ"

بِعَظْمِهِمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي أَلْمَاضِاجٍ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنِ اطَّعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ

¹ المغني، ابن قدامة، ج12، ص523

² كشف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، ج5، ص103.

³ المطلع على أبواب المقنع، البعلي، ص275، ط1، المكتب الإسلامي، دمشق، 1963

عَلِيًّا كَثِيرًا"¹. ففي هذه الآية مشروعية تعزير الزوج لزوجته إذا استعصت عليه وخرجت عن طاعته .
ويلاحظ في الآية التدرج في التعزير عند خوف النشوز، فالله سبحانه وتعالى ذكر الوعظ ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب. أما عند تحقق النشوز فيجوز الجمع بين الثلاثة المذكورة في الآية. ومنه فالآية تدل على أمرين: مشروعية التعزير، والتدرج في التعزير.

وأما ما يدل على مشروعية التعزير في السنة، ما روي عن أبي بردة الأنصاري أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((لَا تَجْلِدُوا فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ))².

ومنه ما رواه أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ حبس رجلا في تهمة³. ومنه كذلك ما روي عن أبي هريرة: ((أَتَى النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : «اضْرِبُوهُ» . قَالَ فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ وَمِنَّا الضَّارِبُ بِنَعْلِهِ وَمِنَّا الضَّارِبُ بِثَوْبِهِ))⁴.

وفي رواية: ((ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لِأَصْحَابِهِ « بَكِّتُوهُ » . فَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَقُولُونَ مَا اتَّقَيْتَ اللَّهَ مَا حَشَيْتَ اللَّهَ وَمَا اسْتَحَيْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ))⁵.

ومن السنة أيضا ما روي عن النبي ﷺ أنه عزر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية، وكانت عقوبتهم أن النبي ﷺ أمر الصحابة أن لا يكلموا

¹ سورة النساء، الآية 34

² صحيح ابن حبان، محمد بن حبان، ج10، ص306، حديث رقم4453، باب التعزير، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993.

³ سنن الترمذي، الترمذي، ج4، ص28، حديث رقم1417، باب ما جاء في الحبس في التهمة .

⁴ صحيح البخاري، البخاري، ج6، ص2477، حديث رقم6395، باب الضرب بالجريد والنعال.

⁵ سنن أبي داود، السجستاني، ج4، ص277، حديث رقم4478، كتاب الحدود، باب الحد في الخمر، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.

هؤلاء الثلاثة، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة، وتغير لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضائق عليهم بما رحبت، وضائق عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة، ثم أنزل الله توبتهم¹.
كما أجمع فقهاء الأمة في مختلف المذاهب على مشروعية التعزير في كل معصية ليس فيها حد بحسب الجناية وحسب الجاني².

يبقى أن نشير في هذا الفرع إلى بعض أوجه الفروق بين التعزير وغيره من عقوبات الحدود والقصاص والديات كما يلي:

- 1- العقوبة المقررة لجرائم الحدود والقصاص والديات، هي عقوبة مقدرة معينة، فهي عقوبة لازمة ليس للقاضي أن يستبدل بها غيرها، وليس له أن ينقص منها أو يزيد فيها ولو كانت بطبيعتها ذات حدين كالجلد؛ لأن تقديرها وتعيينها يجعلها في حكم العقوبة ذات الحد الواحد أما التعازير فهي عقوبات غير مقدرة، فللقاضي أن يختار من بينها العقوبة الملائمة.
- 2- إن العقوبات المقدرة لجرائم الحدود والقصاص والدية لا تقبل العفو ولا الإسقاط من ولي الأمر، أما التعازير فتقبل العفو من ولي الأمر سواء كانت الجريمة ماسة بالجماعة أو بالأفراد.
- 3- عقوبات جرائم الحدود والقصاص والدية ينظر فيها إلى الجريمة ولا اعتبار فيها بشخصية المجرم، وأما التعزير فينظر فيها إلى الجريمة وإلى شخص المجرم معا.

الفرع الثاني: أنواع التعزير

للتعزير في الشريعة الإسلامية أنواع كثيرة: منها ما يكون بالقول كالتوبيخ و التهديد ونحوه، ومنها ما يكون بالفعل كالهجر و الجلد ونحوه.

¹ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ص624، ط1، مركز الملك فيصل، الرياض، 1992.

² تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج2، ص289.

وكل هذه الأنواع وغيرها تتنوع بحسب الشخص وجنانيته، أو بحسب اجتهاد القاضي أو الإمام؛ لأن أحوال الناس فيه مختلفة، فمنهم من ينزجر بالنصيحة، ومنهم بالتوبيخ والضرب ونحوه.

البند الأول: التعزير بالعقوبات البدنية والنفسية

أولاً: عقوبة الجلد

تعتبر عقوبة الجلد من العقوبات الأساسية في الشريعة الإسلامية، فهي من العقوبات المقررة للحدود والتعازير، وهي من العقوبات الرادعة للمجرمين الذين اعتادوا الإجرام. كما أنها عقوبة مشروعة في الكتاب والسنة، فمن الكتاب قوله تعالى: "وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ"¹. فالشاهد قوله تعالى: "وَاضْرِبُوهُمْ". يدل على مشروعية التعزير بالضرب، وإن كان المراد بالضرب هنا الضرب غير المبرح أي الخفيف.

ومن السنة قوله ﷺ: ((إِذَا وَجَدْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ غَلَّ فَأَخْرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ))². فالشاهد فيه قوله ﷺ: ((وَاضْرِبُوهُ))، فيه دلالة على مشروعية التعزير بالجلد؛ لأنه نوع من أنواع الضرب.

وأما مقدار التعزير بالجلد فقد اتفق العلماء - رحمهم الله تعالى - على عدم تحديد أقله وأنه متروك لاجتهاد القاضي أو الإمام ولم يخالف في ذلك إلا العلامة القدوري وهو من علماء الحنفية، فذهب إلى تحديد أقله بثلاث جلدات ولكن الراجح عند الحنفية عدم التحديد³.

واختلف العلماء في بيان أكثر التعزير بالجلد، ونوضح آراءهم باختصار فيما يلي:

¹ سورة النساء، الآية 34

² سنن أبي داود، السجستاني، ج2، ص86، حديث رقم 2713، كتاب الجهاد، باب في عقوبة الغال.

³ الجانب التعزيري لجرمة الزنا، محمد بن علي سنان، ص53، دن، 1982

المذهب الحنفي:

ذهب الحنفية إلى تحديد أكثر التعزير بالجلد، واختلفوا في هذا التحديد¹، فقليل أن أكثره 39 جلدة، وهو قول أبي حنيفة و محمد بن الحسن.

ودليلهم ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((مَنْ بَلَغَ حَدًّا فِي غَيْرِ حَدِّ فَهُوَ مِنَ الْمُعْتَدِينَ))².

المذهب المالكي:

التعزير عند المالكية غير محدود أقله و أكثره، فهو مفوض لتقدير الإمام أو القاضي بما يراه كافيا لزجر المتهم و ردعه - حتى لو زاد عن الحد - ، ودليلهم أن معن بن زائدة زور كتابا على عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - ونقش خاتما مثل خاتمه، فجلده عمر مئة جلدة، ثم جلده مئة أخرى، ثم جلده بعد ذلك مئة أخرى³. قال القرافي: (ولم يخالفه أحد فكان ذلك إجماعا)⁴.

المذهب الشافعي:

التعزير بالضرب عند الشافعية غير محدود أقله، أما أكثره فمحدود، وفي تحديده عندهم خلاف، والراجح من المذهب التحديد بتسع وثلاثين سوطا فما دونها للحر، فلا يبلغ تعزيره أربعين جلدة، وبتسع عشرة سوطا للعبد، فلا يبلغ العشرين، قال الشيرازي: (ولا يبلغ بالتعزير أدنى الحدود فإن كان على حر لم يبلغ به أربعين، وإن كان على عبد لم يبلغ به عشرين)⁵.

المذهب الحنبلي:

ذهب الحنابلة إلى آراء متعددة، أرجحها أنه لا يبلغ بالتعزير على معصية قدر الحد في جنسها، فلا يبلغ بالتعزير على النظر أو التقييل أو المباشرة دون الزنى أو المفاخذة حد الزنى،

¹ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، ج7، ص64.

² السنن الكبرى، البيهقي، ج8، ص327، كتاب الأشربة، باب ما جاء في التعزير وأنه لا يبلغ به أربعين.

³ تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج2، ص293.

⁴ الفروق، القرافي، ج4، ص178.

⁵ المهذب، الشيرازي، ج2، ص288.

ولكن يجوز إذا كان الفاعل محصنا أن يجعله مائة جلدة فأكثر¹.

المذهب الظاهري:

قال ابن حزم: (وقالت طائفة: أكثر التعزير عشرة أسواط فأقل لا يجوز أن يجاوز به أكثر من ذلك و هو قول الليث بن سعد وقول أصحابنا. إن هذا بيان جلي لا يحل لأحد أن يتعده)².

ثانيا: عقوبة الحبس

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية الحبس بقوله: (الحبس الشرعي ليس هو السجن في مكان ضيق وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، سواء كان في بيت أو مسجد أو كان بتوكيل نفس الخصم أو وكيل الخصم)³.

والحبس مشروع بالكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب فبقوله تعالى: "وَالَّذِينَ يَأْتِيَنِ الْفِتْنَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ بَايَعْتُمْ عَلَيْهِنَّ شَهَادَةً أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا بِأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَبَّيْهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا"⁴.

أما السنة: فقد ثبت أن الرسول ﷺ حبس بالمدينة أناسا في تهمة دم وحكم بالضرب والسجن، وأنه قال فيمن أمسك رجلا لآخر حتى قتله:

¹ المغني، ابن قدامة، ج10، ص324.

² المحلى بالآثار، ابن حزم، ج1، ص402، ط1، دار الفكر، بيروت، دت.

³ مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج5، ص398، دن، دت.

⁴ سورة النساء، الآية 15.

((أَقْتُلُوا الْقَاتِلَ وَاصْبِرُوا الصَّابِرَ))، وفسرت العبارة ((وَاصْبِرُوا الصَّابِرَ)) بحبسه حتى الموت؛ لأنه حبس المقتول للموت بإمساكه إياه¹.

أما الإجماع: فقد أجمع الصحابة -رضي الله عنهم- ومن بعدهم على المعاقبة بالحبس واتفق الفقهاء على أن الحبس يصلح عقوبة في التعزير، ومما جاء في هذا المقام أن عمر رضي الله عنه سجن الحطيئة على الهجو، وسجن صبيغا على سؤاله على الذاريات، والمرسلات، والنازعات، وأن عليا سجن بالكوفة،...² والحبس قسمان:

الأول: إلى أمد محدود وهو في الجرائم العادية، إذا كان تعزير الجاني بالضرب غير رادع فيضاف إليه الحبس كالامتناع عن أداء الحقوق والدين مع القدرة. وأقله غير مقدر عند الفقهاء، بل هو راجع إلى اجتهاد القاضي، وأما أكثره فغير محدود عند الجمهور بل راجع إلى اجتهاد الحاكم³.

الثاني: الحبس غير المحدود

ويكون في حالة ارتكاب الجاني لأكثر من جريمة أو ارتكابه لجريمة معينة أكثر من مرة ولم ينزجر بضرب ولا حبس مؤقت، فحينئذ لا مانع من سجنه حتى يتوب أو يموت في السجن ليسلم الناس من شره، والأصل أن تقدير مدة السجن يرجع إلى الحاكم مع مراعاة فروق الشخص والجريمة والزمان والمكان⁴.

¹ السنن الكبرى، البيهقي، ج 8، ص 51، كتاب الجنائيات، باب الرجل يحبس الرجل للآخر.

² الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج 12، ص 268، ط 2، دار السلاسل، الكويت، 1982.

³ الجانب التعزيري لجريمة الزنا، محمد سنان، ص 72.

⁴ الموسوعة الفقهية الكويتية، ج 12، ص 269.

البند الثاني: عقوبة القتل تعزيرا

اختلف الفقهاء في جواز أن يبلغ بالتعزير القتل فذهب بعضهم إلى عدم جواز ذلك؛ لأن الأصل في عقوبة التعزير أنها تكون للردع والزجر والتأديب، لا أن تكون عقوبة مهلكة.

ولكن كثيرا من الفقهاء تجاوزوا هذه القاعدة العامة، والأصل المتبع هو أنه إذا اقتضت المصلحة العامة تعزير الجاني بعقوبة القتل فيجوز؛ لأن بعض المجرمين لا يزول فساده وضرره إلا بالقتل. وكان مذهب المالكية هو أوسع المذاهب في ذلك بجواز القتل، وقد جاء في كتاب تبصرة الحكام: (وإذا قلنا أنه يجوز للحاكم أن يجاوز الحدود في التعزير فهل يجوز أن يبلغ بالتعزير القتل أو لا؟ فيه خلاف. وعندنا يجوز قتل الجاسوس المسلم إذا كان يتجسس للعدو... وأما الداعية إلى البدعة المفرقة للجماعة المسلمين فإنه يستتاب فإن تاب أو قتل)¹، وأبعدها عن التعزير بالقتل مذهب الحنفية، وإنهم مع ذلك جوزوا التعزير به للمصلحة العامة ويسمون بالقتل سياسة، ومما جاء في كتاب تبين الحقائق: (واللواطة ليست مثل الزنا لأن في اللواطة قصورا دون الزنا... ولئن صح فهو محمول على السياسة وهو جائز عندنا حتى لو رأى الإمام في قتل من اعتاده مصلحة جاز قتله)². وإن طائفة من الشافعية وأخرى من الحنابلة أجازوا القتل تعزيرا في بعض الجرائم، وما نسب إلى الشافعية في ذلك ما جاء في روضة الطالبين في شأن اللواط: (إيلاج الفرج في الفرج يدخل فيه اللوط... ففي عقوبة الفاعل قولان أظهرهما أن حده حد الزاني فيرجم إن كان محصنا ويجلد ويغرب إن لم يكن محصنا، والثاني: يقتل محصنا كان أو غيره)³.

¹ تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج2، ص297

² تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي، ج2، ص181، ط2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، د.ت

³ روضة الطالبين، النووي، ج7، ص309، ط1، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، 2003

وعند الحنابلة مما روي عنهم في شأن القتل تعزيراً، ما جاء في كشف القناع: (... ويكون التعزير بالضرب والحبس... وإذا كان المقصود دفع الفساد لم يندفع إلا بالقتل قتل وحينئذ فمن تكرر منه جنس الفساد ولم يرتدع بالحدود المقدرة بل استمر على الفساد فهو كالصائل لا يندفع إلا بالقتل فيقتل)¹.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد يستدل على أن المفسد متى لم ينقطع شره إلا بقتله فإنه يقتل، بما رواه مسلم في صحيحه: عن عرفة الأشجعي رضي الله عنه)

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يَفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَأَقْتُلُوهُ))².

والتعزير بالقتل ليس لازم كالحل بل هو تابع للمصلحة دائر معها وجوبا وعدما. وهو ما يناسب جرائم خطيرة منها ما يهدد الأمن والنظام العام مثل الموضوع محل الدراسة.

ضوابط تطبيق التعزير بالقتل:

لما كان التعزير بالقتل من العقوبات الخطيرة فإن مجال تطبيقه على الجرائم لابد أن يكون متناسبا مع خطورة هذه العقوبة وجسامتها. فأهم الجرائم التي يجوز لولي الأمر أن يلجأ فيها إلى التعزير بالقتل تتمثل في التجسس لصالح العدو، اللواط، تكرار السرقة، تكرار شرب الخمر، القتل بالمثل، والدعوة إلى البدعة. وجدير بالذكر أن ذكر هذه الأمثلة لا يعني أنها على الحصر وإنما يرجع الأمر إلى ولي الأمر لينظر إلى جسامته الجريمة وخطورتها وأحوال المجرم، إذ هناك فرق في حالة المخطئ الذي غالبته الشهوة، فتطبق في حقه مشروعية تخفيف العقوبة عند تطبيق عقوبة التعزير، وبين من اعتاد على ارتكاب الجريمة ويتنوع في ارتكاب أشكال الجرائم.

¹ كشف القناع، البهوتي، ج5، ص106

² صحيح مسلم، مسلم، ج3، ص1479، حديث رقم 1852، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

البند الثالث: عقوبات أخرى

أولاً: عقوبة النفي (التغريب)

التعزير بالنفي مشروع بلا خلاف بين الفقهاء ودليل مشروعيته الكتاب والسنة:

أما الكتاب قوله تعالى: " أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ " ¹. ومن السنة أن النبي ﷺ قضى بالنفي تعزيراً في المخنثين، إذ نفاهم إلى المدينة، لحديث أن النبي ﷺ أتى بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالخناء فقال له النبي ﷺ: ((مَا بَالُ هَذَا؟)). فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَتَشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ فَأَمَرَ بِهِ فَنُفِيَ إِلَى النَّقِيعِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَقْتُلُهُ قَالَ: إِنْ نُحِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ ².

ثانياً: عقوبة الوعظ

يقوم القاضي بالوعظ على المعاصي المرتكبة البسيطة، فالوعظ عقوبة تعزيرية في الشريعة الإسلامية وللقاضي أن يكتفي بالوعظ إذا رأى أن في الوعظ ما يكفي للإصلاح والردع. وقد تكون عقوبة الوعظ لها أثر في نفس العاصي إذا فطن القاضي أن هذه العقوبة تصلح الجاني من العودة إلى المعاصي مرة أخرى.

قال ابن عابدين: (ولا يخفى أن الفاعل إذا كان ذا مروءة في الدين والصلاح، ويعلم من حاله الانزجار من أول الأمر؛ لأن ما وقع منه لا يكون عادة إلا من سهو وغفلة، ولذا لم يعزر في أول مرة ما لم يعد بل يوعظ ليتذكر إن كان ساهياً، وليتعلم إن كان جاهلاً) ³. وقد نص القرآن صراحة على عقوبة الوعظ حيث قال الله تعالى: "وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُورَهُمْ بَعِظُوهُمْ" ⁴.

¹ سورة المائدة، الآية 33.

² سنن أبي داود، السجستاني، ج2، ص70، حديث رقم4928، كتاب الأدب، باب الحكم في المخنثين.

³ حاشية رد المختار، ابن عابدين، ج4، ص244.

⁴ سورة النساء، الآية 34.

ثالثا: عقوبة التعزير بالعزل

أعطى النبي ﷺ راية الأنصار في غزوة الفتح لسعد بن عباد، فلما مر سعد بأبي سفيان، وهو محتجز على مضيق الوادي لعرض الجيش الإسلامي عليه لإدخال الرعب في قلبه ثم تحطيم معنويات قومه بواسطته، قال له سعد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا، فلما حاذى الرسول ﷺ أبا سفيان قال له: يا رسول الله ألم تسمع ما قاله سعد؟ قال: وما قال، قال: كذا وكذا، فأرسل الرسول ﷺ إلى سعد فتنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس¹. وقال ابن تيمية: بلغ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن بعض نوابه يتمثل بأبيات في الخمر فعزله².

البند الرابع: التعزير بالعقوبات المالية

أولا: التعازير بإتلاف المال

يجوز إتلاف المال الذي تمت فيه المعصية، أو تمت به المعصية ومن أمثلته تكسير أواني الخمر وتحريق الحانات التي يباع فيها.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بتحريق حانوت كان يباع فيه الخمر لرويشد الثقفي وقال له: إنما أنت فويسق لا رويشد³.

وقال ابن القيم رحمه الله: إن بعض الفقهاء قالوا إن لولي الأمر أن يفسد على المرأة المتبرجة إذا خرجت متزينة ثيابها بجبر ونحوه⁴.

¹ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج 8، ص 12.

² السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، ص 137، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

³ مجموع فتاوى ابن تيمية، ابن تيمية، ج 28، ص 113-114، ط 2، مكتبة ابن تيمية، الرياض، 1967.

⁴ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، ص 406.

ثانيا: التعزير بأخذ المال

وهي إما أن تكون غرامة أو مصادرة. روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سئل رسول الله ﷺ عن التمر المعلق فقال: ((مَنْ أَصَابَ فِيهِ مِنْ ذِي حَاجَةٍ غَيْرَ مُتَّخِذٍ حُبْنَةً فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ وَمَنْ خَرَجَ بِشَيْءٍ مِنْهُ فَعَلَيْهِ غَرَامَةٌ مِثْلِيهِ وَالْعُقُوبَةُ وَمَنْ سَرَقَ مِنْهُ شَيْئًا بَعْدَ أَنْ يُثْوِيَهُ الْجَرِيرُ فَبَلَغَ ثَمَنَ الْمَجَنِّ فَعَلَيْهِ الْقَطْعُ ، وَمَنْ سَرَقَ دُونَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ غَرَامَةٌ مِثْلِيهِ وَالْعُقُوبَةُ))¹.

وقد صادر عمر بن الخطاب أموالا لأبي هريرة -رضي الله عنه- قال أبو عبيد القاسم: (... لما قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر: يا عدو الله وعدو كتابه أسرقت مال الله، قال: لست بعدو الله ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما ولم أسرق مال الله، قال: فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم؟ فقال: خيلي تناسلت، وعطائي تلاحق وسهامي تلاحقت، فقبضتها منه، قال أبو هريرة: فلما صليت الصبح استغفرت لأمر المؤمنين)².

هذا وتجدر الإشارة أن العقوبة بأخذ جزء من المال أثارت جدلا كبيرا بين الفقهاء حول مشروعيتها، نلخصها فيما قاله الأستاذ القماطي: (والحق أن مخاوف بعض الفقهاء وخشيتهم من إجازة العقوبات المالية، مخاوف في محلها ولها ما يبررها، غير أن انتظام شؤون الدولة، والرقابة على أموالها، وأيلولة الأموال التي تؤخذ كعقوبات لصالح الخزنة العامة، وسن العقوبات عن طريق الهيئات المختصة بالتشريع، وعدم توقيع العقوبة إلا عن طريق القضاء كل ذلك ربما يكون كفيلا لعدم اتخاذ العقاب بالمال سلاحا لأكل أموال الناس بالباطل).

وأخيرا أود أن أجب على ما قد يسأله القارئ، ما علاقة دراسة مسائل التعزير مع هذه الدراسة؟ والجواب، إن عقوبة التجسس عقوبة تعزيرية على ما ذهب إليه جمهور العلماء، ولما كانت أنواع

¹ سنن أبي داود، السجستاني، ج1، ص534، حديث رقم 1710، كتاب اللقطة، باب التعريف باللقطة.

² كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم سلام، ص288، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1984

العقوبات متعددة ومتنوعة، فأحببت أن أبين العقوبات التي يجوز فرضها على الجاسوس، مع ذكر بعض العقوبات التي اختلف العلماء فيها كالتعزير بالقتل والتعزيرات المالية وغيرها.

الفرع الثالث: قواعد عقوبات التعزير

تقتضي الضرورة العلمية دراسة هذا الفرع دراسة نظرية مقارنة مع المذاهب الفقهية؛ للزيادة في فهم قواعد العقوبات التعزيرية وأبعادها، ومن أجل التوصل لوضع اقتراحات وتوصيات حول موضوع التجسس، قد تفيد في مجال القضاء.

البند الأول: العقوبة على قدر الإجرام

وهذه قاعدة عظيمة من قواعد التعزير عبر عنها الباحثون بالتناسب أو الملائمة بين الجريمة والعقوبة¹. ونصوا على أنها ضابط أو قاعدة من قواعد التعزير، وسأذكر أقوال الأئمة المتقدمين حسب ما يتيسر لي:

قال أبو يوسف -رحمه الله -: (وكان أحسن ما رأينا في ذلك والله أعلم أن التعزير إلى الإمام على قدر عظم الجرم وصغره)².

وقال ابن الهمام - رحمه الله -: (ولأن الرق منقوص للنعمة، فيكون منقصا للعقوبة؛ لأن الجناية عند توافر النعم أفحش، فيكون أدعى إلى التغليظ. والرجل والمرأة في ذلك سواء؛ لأن النصوص تشملهما)³.

ولما تكلم القراني - رحمه الله - في الفرق بين الحد والتعزير، فقال عن التعزير: (واتفقوا على عدم تحديد أقله، فعندنا هو غير محدود بل بحسب الجناية). أي أن العقوبة تكون على حسب الجرم الذي يرتكبه الجاني. ثم قال أيضا: (إن التعزير على وفق الأصل من جهة اختلافه باختلاف الجنايات)⁴.

¹ الظروف المشددة والمخففة في عقوبة التعزير، ناصر الخليلي، ص 266، ط 1، د.ن، القاهرة، مصر، 1992.

² الخراج، أبي يوسف، ص 167، ط 1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت

³ شرح فتح القدير، ابن الهمام، ج 5، ص 233

⁴ الفروق، القراني، ج 4، ص 144-145

وقال الماوردي - رحمه الله - : (لأنه يعاقب في قلة الجرم، بأخف العقوبات، وفي كثرة الجرم بأغلظها)¹.

وقال ابن قدامة - رحمه الله - : (ولأن العقوبة على قدر الإجرام و المعصية).

معنى القاعدة ودليلها:

إن العقوبة لا بد أن تتناسب مع الجريمة، فإذا ارتكب الجاني جرمته كان من الواجب أن تتلاءم العقوبة الموقعة عليه مع الجريمة التي ارتكبها، حتى يتحقق الغرض المنشود من العقوبة، والذي يكون فيه الصلاح للمجتمع، وقمع الفساد واجتثاثه، ودليل هذه القاعدة هو ما يلي:

قال الله تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَبا وَأَصْلَحَ فَأُجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ"².

قال تعالى: "وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَيْسَ صَبْرُتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ"³.

قال تعالى: "... فَمَنْ إِعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا إَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ"⁴.

وجه الدلالة من هذه الآيات: إن الشارع الحكيم جعل الجزاء من جنس العمل، فينبغي أن لا يتعداه القاضي بالعقوبة، ويجب عليه أن يقرر من العقوبات ما يراه مناسبا مع الجريمة وملائماتها⁵.

<

¹ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الماوردي، ص386، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1984.

² سورة الشورى، الآية 40.

³ سورة النحل، الآية 126.

⁴ سورة البقرة، الآية 194.

⁵ العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة، مطيع الله اللهبي، ص155، ط1، حمادة، جدة، السعودية، 1983.

ومن فروع القاعدة مثلاً، أنه يزداد في العقوبة على الحد إذا تعلقت الجريمة بزمان، أو مكان محترمين من قبل الشارع سبحانه، كمن شرب الخمر في شهر رمضان¹. وذلك لأنه لم يكتف بارتكابه كبيرة من كبائر الذنوب، بل زاد عليها بشربه في شهر عظيم انتهك حرمة. وقد أتى علي عليه السلام بالنجاشي الشاعر وقد شرب في رمضان، فضربه الحد ثم ضربه عشرين أو بضع عشرة، وقال: هذا لاجترائك على الله عزوجل في شهر رمضان.

البند الثاني: تناسب العقوبة مع الجاني

وهذه قاعدة من القواعد المهمة، والتي تجعل الحاكم ينظر إلى ظروف الجريمة، وإلى أحوال المجرم معاً، فإن ظهر له أن تلك الظروف تقتضي التشديد، شدد أو إن رأى أنها تقتضي التخفيف خفف، لذلك قال المرغيناني -رحمه الله- : (فيقدر - أي : التعزير - بقدر ما يعلم أنه ينزجر؛ لأنه يختلف باختلاف الناس)².

قال ابن عابدين -رحمه الله- شارحاً قول السرخسي: (وأحوال الناس فيه مختلفة: فمنهم من ينزجر بالنصيحة، ومنهم بالطمعة، ومنهم من يحتاج إلى الحبس)³. مما يدل على أن التعزير يتفاوت بتفاوت الأشخاص، ويختلف باختلاف الجناة، فمن عرف بالشر شدد عليه في العقوبة، ومن كان يعرف بالدين والصلاح خفف عليه في ذلك. ولما تكلم ابن فرحون عن العقوبة واختلافها قال: (وتختلف مقاديرها، وأجناسها، وصفاتها، باختلاف الجرائم، وكبرها وصغرها، وبحسب حال المجرم في نفسه، وبحسب حال القائل والمقول فيه)⁴.

¹ تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج2، ص182

² الهداية، المرغيناني، ج2، ص218، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت

³ حاشية رد المختار، ابن عابدين، ج5، ص69

⁴ تبصرة الحكام، المرجع نفسه، ج2، ص294

وقال الغزالي في باب التعزير: (إذ المصلحة تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، وكم تجاوز رسول الله ﷺ عن أقوام أساءوا آدابهم)¹.

وقال ابن تيمية في معرض حديثه عن الذين يرتكبون المعاصي والمحرمات التي ليس فيها حد مقدر ولا كفارة: (فهؤلاء يعاقبون تعزيرا وتنكيلا، وتأديبا، بقدر ما يراه الوالي، على حسب كثرة ذلك الذنب في الناس وقتله، فإذا كان كثيرا زاد في العقوبة، بخلاف ما إذا كان قليلا، وعلى حسب حال المذنب، فإذا كان من المدمنين على الفجور زيد في عقوبته، بخلاف المقل من ذلك)²

معنى القاعدة ودليلها:

إن الناس يتفاوتون في قدر جرماتهم، فهم وإن كانت الجريمة واحدة، ولكن لا بد من النظر إلى فاعلها، فمنهم من تكفيه وتصلحه العقوبة القليلة كالتوبيخ والإهانة والتحقير ونحو ذلك، فتجعله يستحي على حاله ويخجل من نفسه وفعله، وكيف أنه أقدم على هذه الفعلة، وزلت به القدم، ومنهم من لا يكفيه إلا الزجر والردع بعقوبة شديدة، تقمع فساد، وتستأصل شروره، إذ من الحكمة التي تسعى لها هذه الشريعة أن تتلاءم العقوبة مع الجاني وحاله.

ودليل القاعدة قوله تعالى: "بِإِذَا أَحْصَيْتُمْ إِنْ آتَيْنَ بِهَلْ حِشَّةٍ فَعَلَيْهِمْ نَصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ"³.

وجه الدلالة: أن الشرع الإسلامي جعل الحرية وهي كمال في الإنسان سببا في تشديد العقوبة على الحر؛ لأن وقوع الجريمة منه أشنع من وقوعها من غير الحر، فناسب ذلك أن تكون قوبته ضعف عقوبة العبد، وجعل العبودية وهي نقص في الإنسان، سببا في تخفيف العقوبة لمن اتصف بها⁴.

¹ الوسيط، أبي حامد الغزالي، ج6، ص247، ط1، دار السلام، الرياض، السعودية، د.ت

² السياسة الشرعية، ابن تيمية، ص151.

³ سورة النساء، الآية 25.

⁴ الظروف المشددة والمخففة في عقوبة التعزير، ناصر الخلفي، ص262.

وقول النبي ﷺ: ((أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ))¹.

وجه الدلالة: فيه استحباب العفو عن زلة ذوي الهيئة، والمكانة الشريفة، والذي لم يعرف عنه الشر والتمادي في المنكر، مما يدل على أهمية مراعاة حال الشخص الذي ارتكب الجرم. ومن فروع القاعدة نذكر مثلاً قتل الجاسوس المسلم، والذي يدل العدو على عورات المسلمين، ويكشف لهم أسرارهم².

البند الثالث: التدرج في العقوبة

وهذه قاعدة مهمة، ينظر فيها إلى جانب الجاني من جهة، وجانب العقوبة من جهة أخرى والتي ستوقع عليه، حيث يراعى جانب الترتيب العقابي المناسب لحال الجاني، لذا يقول الزيلعي وابن عابدين: (فينبغي أن يبلغ غاية التعزير في الكبيرة، كما إذا أصاب من الأجنبية كل محرم سوى الجماع، أو جمع السارق المتاع في الدار ولم يخرج، وكذا ينظر في أحوالهم، فإن من الناس من ينزجر باليسير، ومنهم من لا ينزجر إلا بالكثير)³.

فالتدرج في العقوبة مطلوب حسب حال الجاني وجنانيته.

وذكر الخطاب قول مالك: (من قال لرجل: يا كلب فذلك يختلف، فإن كانا معا من ذوي الهيئة عوقب القائل عقوبة خفيفة يهان، ولا يبلغ به السجن، وإن كان القائل من ذوي الهيئة، والمقول له من غير ذوي الهيئة عوقب بالتوبيخ، ولا يبلغ به الإهانة، ولا السجن، وإن كان القائل من غير ذوي الهيئة والمقول له من ذوي الهيئة عوقب بالضرب)⁴. ففي هذا الكلام - وإن كان له علاقة بالتناسب بين العقوبة والجاني - يلاحظ فيه التدرج في العقوبة من توبيخ إلى إهانة إلى سجن...

¹ سنن أبي داود، السجستاني، ج2، ص538، حديث رقم4375، كتاب الحدود، باب في الحد يشفع فيه.

² السياسة الشرعية، ابن تيمية، ص151.

³ تبين الحقائق، الزيلعي، ج3، ص208.

⁴ مواهب الجليل، الخطاب، ج8، ص118، ط1، دار عالم الكتاب، الرياض، السعودية، 2003.

وقال الماوردي: (فتدرج في الناس على منازلهم، فإن تساوا في الحدود المقدرة، فيكون تعزير من جل قدره بالإعراض عنه، وتعزير من دونه بالتعنيف له، وتعزير من دونه بزواج الكلام، وغاية الاستخفاف الذي لا قذف فيه ولا سب، ثم يعدل بمن دون ذلك إلى الحبس الذي يجسسون فيه على حسب ذنوبهم، وبحسب هفواتهم. ثم يعدل بمن دون ذلك إلى الضرب، ينزلون فيه على حسب الهفوة في مقدار الضرب، وبحسب الرتبة في الامتهان)¹. فيتدرج في التعزير من الأخف الأدنى، إلى الشديد الأعلى.

وقال ابن تيمية: (إن كل من عليه مال، يجب أدائه.. فإنه إذا امتنع من أداء الحق الواجب، من عين، أو دين، وعرف أنه قادر على أدائه، فإنه يستحق العقوبة، حتى يظهر المال، أو يدل على موضعه، فإذا عرف المال، وصير في الحبس، فإنه يستوفي الحق من المال، ولا حاجة إلى ضربه، وإن امتنع من الدلالة على ماله، ومن الإلغاء، ضرب حتى يؤدي الحق، أو يمكن من أدائه، وقال أيضا: (فيعاقب الغني المماطل بالحبس، فإن أصر عوقب بالضرب حتى يؤدي الواجب)². فإن الحاكم يبدأ بترتيب العقوبة، والتدرج فيها، فإن لم ير الحبس نافعا، انتقل إلى الضرب مع الحبس، حتى تحقق العقوبة الغرض الذي شرعت من أجله.

معنى القاعدة ودليلها:

إن على الإمام أو القاضي مراعاة الترتيب والتدرج في العقوبة التي توقع بالجاني حسب حاله وظروفه وحسب إن كان مسلما أو ذميا أو حريبا، ودليل هذه القاعدة قوله تعالى: "...وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاذْهَبُوا بِهِمْ إِلَى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنْ اطَّعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا"³.

¹ الأحكام السلطانية، الماوردي، ص 386.

² السياسة الشرعية، ابن تيمية، ص 66.

³ سورة النساء، الآية 34.

ووجه الدلالة هو أن العقوبات تكون على الترتيب، حيث جاءت الجزاءات في الآية مختلفة، ومتفاوتة، فوردت على سبيل التدرج من الضعيف إلى القوي إلى الأقوى حسب ما يوصل إلى الغرض من التعزير.

البند الرابع: يراعى في التعزير المصلحة العامة

وضع أبو يوسف كتاب الخراج لأمر المؤمنين هارون الرشيد، فقال في مقدمته: (... إنَّ أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة، راع سعدت به رعيته، ولا ترغ فتزيع رعيته، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه، مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله. وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإذا ترك ذلك أضاعه، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة إليه أسرع، وبه أضر، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك، ووقاه الله، أضعاف ما وقى له، فاحذر أن تضع رعيته فيستوفي ربها حقها منك، ويضيّعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم... وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد)¹.

في هذا النص يبيّن لنا أبو يوسف أن الوالي يجب عليه أن يتصرف في أمور رعيته بما فيه صلاح أمرها وبما يجلب النفع لها، وألا يكون تصرفه صادرا من الهوى والغضب.

وقد نص على هذه القاعدة ابن نجيم، في كتابه الأشباه والنظائر بقوله: (القاعدة الخامسة: تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة)². والقراي في كتابه الفروق في الفرق السادس عشر بعد المائة، بين قاعدة استحقاق السلب في الجهاد، وبين قاعدة الإقطاع، وغيره من تصرفات الأئمة، ثم تحدث عن سلب المقتول الذي يقتله المجاهد المسلم، وأن المجاهد لا يستحق السلب بمجرد القتل، وإنما يستحقه بقول الإمام فقال: (فإذا جعل ذلك موقوفا على قول الإمام، اندفعت هذه المفاسد، بسبب أنه

¹ الخراج، أبو يوسف، ص 3-4.

² الأشباه والنظائر، ابن نجيم، ص 104.

إنما يتصرف بحسب المصلحة)¹. ويعني بالمفاسد أن الإنسان سيقاقل من أجل السلب، لا لنصرة الدين، فيؤدي هذا إلى ضياع ثواب الآخرة وهو أعظم المفاسد.

معنى القاعدة ودليلها:

ترسم هذه القاعدة حدود الإدارة العامة، والسياسة الشرعية مدى سلطة الولاية، وتصرفاتهم على الرعية، وأن جميع أعمالهم يجب أن تبنى على مصلحة الجماعة، والحرص على نفعها، فكل عمل أو تصرف منهم على خلاف هذه المصلحة، مما قصد به استئثار أو استبداد²، أو كان يؤدي إلى فساد أو ضرر فهو غير جائز. ودليل هذه القاعدة من السنة والآثار ما يلي:

1- قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ ، وَلَا يَنْصَحُ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةُ))³.

2- قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً ، فَلَمْ يَحْطُهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ))⁴.

وجه الدلالة من الحديثين هو: الوعيد الشديد للإمام الذي استرعاه الله رعية فخانهم، وظلمهم، ولم يحطهم بنصحه، ولم يعمل معهم بما يصلحهم، وينفعهم في دينهم، ودنياهم⁵.

¹ الفروق، القرافي، ج2، ص10.

² المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا، ج2، ص1050، ط1، دار القلم، دمشق، 1989.

³ صحيح مسلم، مسلم، ج1، ص125، حديث رقم 143، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

⁴ صحيح البخاري، البخاري، ج6، ص214، حديث رقم 6731، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح.

⁵ فتح الباري، ابن حجر، ج13، ص222.

3- قول عمر رضي الله عنه: (إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته، وإن استغنيت استعفت)¹.

وجه الدلالة: أن أمير المؤمنين عمر يفعل بأموال المسلمين ما تمليه عليه المصلحة العامة لهم، لا بالتشهي والهوى.

ومن فروع هذه القاعدة، أنه ليس لولي الأمر أن يمنع تعزير الفسقة، والعصاة، والجواسيس، فليس له العفو عنهم، خاصة من عرفوا بالشر والإجرام.²

وكذلك ليس لولي الأمر أن يسمح بشيء من المفاصد المحرمة شرعا، كالزنا، شرب الخمر...³

المطلب الثاني: تفريد العقوبات الشرعية

يهتم الإسلام بصيانة أسرار المسلمين الحربية، فلا يجوز للمسلم أو رعية من رعايا الدولة الإسلامية من أهل الذمة، أو المستأمنين أن يقوم أحدهم بالتجسس على المسلمين وكشف أخبارهم للأعداء، لذلك وجبت العقوبة على كل من يجعل نفسه جاسوسا أو عينا للأعداء، سواء كان ذميا أو مستأمنا أو حربيا أو كان مسلما. وكل حالة تنفرد بأحكام خاصة؛ لذلك أقسم هذا المطلب إلى أربعة فروع كالآتي:

الفرع الأول: عقوبة الجاسوس الذمي

يتمتع الذمي بعصمة كاملة مع المسلمين، فله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ما دام ملتزما بعقد الذمة، فيجب عليه حماية دار الإسلام بقدر ما يحميه المسلمون. لكن قد يتورط الذمي بالتجسس على المسلمين لصالح أعداء المسلمين. فما حكم هذا الجاسوس الذمي؟
لقد اختلف الفقهاء في حكم الجاسوس الذمي، هل ينتقض عهده أم لا ؟.

¹ الأحكام السلطانية، الماوردي، ص388.

² المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا، ج2، ص 1053.

³ المرجع نفسه، ج2، ص 1051 .

البند الأول: الآراء الفقهية حول نقض العهد

الرأي الأول: ينتقض عهد الذمي بالتجسس إذا اشترط عليه الإمام الانتفاض به في عقد الذمة، ولا ينتقض إن لم يشترط عليه ذلك. وذهب إلى هذا التفصيل الحنابلة¹ في أحد قوليهما والشافعية² في قول لهم، ومما جاء في المذهب أن الجاسوس الذمي بين حالين.

الحال الأول: إذا لم يشترط عليه الكف عن التجسس حين عقد الذمة فهنا لا ينتقض عهده إذا تجسس.

الحال الثانية: إذا اشترط عليه الكف عن التجسس حين عقد الذمة ثم تجسس ففي الحكم عليه ههنا وجهان:

الوجه الأول: لا ينتقض عهده وإن تجسس وخالف الشرط المأخوذ عليه.

الوجه الثاني: أنه ينتقض عهده بالتجسس لمخالفته ما شرط عليه³.

وقد استدل أصحاب هذا القول على ما ذهبوا إليه بما يلي:

1- إن دم الكافر مباح بدون العهد، والعهد عقد من العقود يجب الوفاء به، فإن لم يف أحد المتعاقدين بما عاقد عليه فأما أن ينفسخ العقد بذلك أو يتمكن العاقد من فسخه، وهذا أصل مقرر في عقد البيع والنكاح وغيرها من العقود.

والحكمة ظاهرة: فإنه التزم العقد بشرط أن يلتزم الطرف الآخر بما التزمه، فإن لم يلتزمه الطرف الآخر صار العقد غير ملزم، والحكم المعلق على الشرط لا يثبت كحكم بعينه عند عدم وجود الشرط، فإن لم يشترط الكف عن ذلك في العقد لم ينتقض عهده لبقاء ما يقضي العقد من التزام أداء الجزية، والالتزام أحكام المسلمين والكف عن قتالهم.

¹ الإنصاف، علاء الدين المرداوي، ج 4، ص 182، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1998

² مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد الخطيب الشربيني، ج 6، ص 121، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001

³ المذهب، الشيرازي، ج 2، ص 257

ولذا فإن عقد الذمة لا ينتقض بالتجسس ما لم يشترط انتقاضه به، فإذا شرط انتقاض العهد بالتجسس انتقض وإلا فلا. وشرطه عليهم يقتضي النقض إذا ارتكبتها.

2- إن العقد شريعة المتعاقدين يلزم كل منه الوفاء به، وإذا اشترط على الذمي في عقد الذمة عدم التجسس على المسلمين فتجسس عليهم انتقض عهده؛ لأن المعلق على الشرط لا يتحقق إلا بتحقيق ذلك الشرط¹، وجاز قتله لأنه مباح الدم أصلا، وإنما حقن دمه بسبب العقد فإذا خان العهد أهدر دمه.

3- ومن بين أدلتهم على انتقاض عهد الذمي قالوا: إنه قد شرط على أهل الذمة أن لا يؤووا جاسوسا في كنائسهم، ومنازلهم بالشروط التي اشترطها عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- المعروفة بالشروط العمرية² على أهل الشام عندما فتحها أبو عبيدة واعترفوا بهذه الشروط، ثم قال ابن القيم:

¹ أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ج3، ص291، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002

² قال ابن القيم: (قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني أبو شرجيل الحمصي عيسى بن خالد قال: حدثني عمي أبو اليمان وأبو المغيرة قالوا: أخبرنا إسماعيل ابن عياش قال: حدثنا غير واحد من أهل العلم قالوا: كتب أهل الجزيرة إلى عبد الرحمن بن غنم: إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أنا شرطنا لك على أنفسنا وإلا نحدث في مدينتنا كنيسة، ولا فيما حولها ديرا ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا مكان منها في خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابنا للمارة وابن السبيل، ولا نقوي فيها ولا في منازلنا جاسوسا، وألا نكتم غشا للمسلمين، وألا نضرب بنو قيسنا ألا ضربا خفيا في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليبا، ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نخرج صليبا ولا كتابا في سوق المسلمين، وألا نخرج باعوثا. قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر _ ولا شعانين، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر شركا، ولا نرغب في ديننا، ولا ندعو إليه أحدا، ولا نتخذ شيئا من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألا نمنع أحدا من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم زينا حيثما كان، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكزهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكنائهم، وأن نجز مقام رؤوسنا، ولا نفرق نواصينا، ونشد الزناير على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحد منا مسلما في تجارة ألا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة=

(وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها فإن الأئمة تلقوها بالقبول. وذكروها في كتبهم واحتجوا بها ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها)¹.

وقال ابن تيمية: (وهذه الشروط ما زال يجدها عليهم من وفقه الله تعالى من ولاية أمور المسلمين)².

4- كما استدلل بعض الشافعية على عدم انتقاض العهد بالقياس، فقالوا: إن التجسس لا يزول منه إيمان المسلم كما يؤخذ ذلك من قصة حاطب بن أبي بلتعة إذ سماه الله مؤمنا في قوله تعالى: " يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوِيًّا... " ³، وكما سمي أبا لبابة بن عبد المنذر حين استشاره بنو قريظة مؤمنا فقال الله تعالى: " يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ " ⁴.
فالتجسس إذا فعله المسلم على المسلمين لا يزول به إيمانه فكذلك إذا فعله الذمي لا يكون ناقضا لعهد.

5- لأن عقوبة هذه الأفعال تستوفي عليه من غير شرط، فوجب أن يكون لشرطها تأثير ولا تأثير إلا أن يكون قد نقض العهد.

= وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمه من أوسط ما نجد، ضمنا لك ذلك على أنفسنا وذرائنا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق فكتب بذلك عبد الرحمن بن غنم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: أن أمض لهم ما سألوا، وألحق فيهم حرفين أشرطتهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألا يشتروا من سبايانا شيئا، ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده فأنفذ عبد الرحمن بن غنم ذلك، وأقر من أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط.

¹ أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ج3، ص189.

² مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج28، ص654.

³ سورة الممتحنة، الآية 1.

⁴ سورة الأنفال، الآية 27.

ومما قاله الشيرازي: (روي أن نصرانيا استكره امرأة مسلمة على الزنا فرفع أمره إلى أبي عبيدة ابن الجراح فقال: ما على هذا صالحناكم وضرب عنقه؛ ولأن عقوبة هذه الأفعال تستوفي عليه من غير شرط فوجب أن يكون لشرطها تأثير ولا تأثير إلا ما ذكرناه من نقض العهد)¹.

الرأي الثاني: ينتقض عهد الذمي بالتجسس بإطلاق سواء اشترط عليه انتقاض العهد عند الذمة أو لم يشترط. وذهب إلى هذا القول المالكية وبعض الحنابلة، وبعض الشافعية وقول لأبي يوسف.

قال ابن القاسم: (ينتقض عهده بهذه الثمانية وهي: أن يجمعوا على قتال المسلمين أو يزي أحدهم بمسلمة أو يصيبها باسم نكاح أو يفتن مسلما عن دينه أو يقطع عليه الطريق أو يؤوي للمشركين جاسوسا أو يعين على المسلمين بدلالة فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين أو يقتل مسلما أو مسلمة عمدا ولا فرق بين أن تشرط عليه أم لم تشرط)².

كما ذكر أبو يعلى في الأحكام السلطانية أنه يلزم أهل الذمة ترك ما فيه ضرر للمسلمين أو أحدهم في مال أو نفس وقال: (وهي ثمانية: الاجتماع على قتال المسلمين، وأن لا يزي بمسلمة ولا يصيبها باسم النكاح، ولا يفتن مسلما عن دينه، ولا يقطع عليه الطريق، ولا يؤوي للمشركين جاسوسا ولا يعاون على المسلمين بدلالة أعني لا يكاتب المشركين بأخبار المسلمين، ولا يقتل مسلما أو مسلمة، فإن فعلوا ذلك أو شيئا منه نقض العهد في إحدى الروايتين)³.

¹ المذهب، الشيرازي، ج2، ص257.

² التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية، محمد أركان الدغمي، ص166.

³ الأحكام السلطانية، أبي يعلى الفراء، ص158 وما بعدها، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000.

وفي مغني المحتاج وردت ثلاثة أوجه في انتقاض عهد الذمي بالتجسس، وذكر منها في الوجه الثاني الانتقاض مطلقا حيث قال: (... أو دل أهل الحرب على عورة أي خلل للمسلمين الموجود فيهم ضعف أو غيره، أو آوى جاسوس ثم ذكر الأوجه، وقال: ينتقض مطلقا لما فيه من الضرر)¹.

وقد روي عن أبي يوسف -رحمه الله- في خطبة لهارون الرشيد -رحمه الله- حول هذه المسألة:

(وسألت يا أمير المؤمنين عن الجاسوس. فإن كانوا من أهل الحرب، أو من أهل الذمة ممن يؤدي الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فاضرب أعناقهم)².

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يلي:

1- الجاسوس الذمي الذي يتجسس على عورات المسلمين لصالح الأعداء أو يؤوي عيوتهم، ينتقض عهده، ويخرج من ذمته والدليل على ذلك حديث فرات بن حيان. ذلك أن النبي ﷺ أمر بقتله وكان عينا لأبي سفيان فمر بمجلس الأنصار فقال: إني مسلم، فذهبوا به إلى رسول الله فقالوا: إنه يزعم أنه مسلم فقال: ((إن منكم رجالا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان))³.

وجه الاستدلال أن رسول الله ﷺ أراد قتل فرات بن حيان بل أمر بقتله باعتباره عينا لأبي سفيان. وكان يعيش في كنف المسلمين ويعتبر من رعايا الدولة الإسلامية ويعمل جاسوسا لعدوهم، فلما عرف ﷺ أمره، طلب قتله، من أجل جاسوسيته ولولا أنه أقلع عن عمله المشين وأعلن إسلامه لكان مصيره القتل. لكن الرسول ﷺ صدّقه ووكّله إلى إيمانه. فالمانع من قتله هو قوله: إني مسلم وفي ذلك دليل

¹ مغني المحتاج، الشريبي، ج6، ص 121

² الخراج، أبي يوسف، ص 190

³ سبق تحريجه.

على جواز قتل الجاسوس الذمي¹، وهذا يستلزم أنه قد انتقض عهده.

2- لقد شرط على أهل الذمة أن لا يؤووا جاسوسا في كنائسهم، ومنازلهم بالشروط التي اشترطها عمر بن الخطاب المعروفة بالشروط العمرية على أهل الشام، واعترفوا بهذه الشروط، والجواسيس عين للمشركين وأعداء للمسلمين، فإن فعل ذلك أهل الذمة أو آووه في كنائسهم ومنازلهم انتقض بذلك عهدهم، وحل دمهم، وما لهم، فالصلح نافذ على ما أنفذه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى يوم القيامة، وإن من شروطهم أن لا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ولا يدلّوهم على عورات المسلمين، ولا يشترط ذلك عليهم بل يكتفى بشرط عمر رضي الله عنه فإن وجد في أرض الإسلام ذميا كاتب أهل الشرك بعورات المسلمين يقتل ليكون نكالا لغيره، وفيه نقض للعهد الذي عليهم².

3- إن العهد معناه بذل مزيد أمان الذمي، ولا يتصور أن يقابل هذا بالخيانة منه، التي منها اطلاعه العدو على عورات المسلمين دونما أن ينقضي عهده بدعوى أنه لم يشترط عليه الانكفاف عن ذلك عند العقد³.

4- إن عقد الذمة عقد أمان كالمهدنة، وهي تنتقض بالمخالفة من غير شرط، ضف إلى هذا أن من مستلزمات هذا العقد ترك ما فيه ضرر بالمسلمين من قول أو فعل، فإذا ارتكب الذمي أمرا يضر بالمسلمين كالتجسس عليهم انتقض عهده وجاز قتله.

¹ نيل الأوطار، الشوكاني، ج8، ص285، ط1، دار الجيل، بيروت، 1973.

² أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ج3، ص298.

³ الضرر في الفقه الإسلامي، أحمد مواني، ج1، ص404 وما بعدها، ط1، دار ابن عفان، 1997.

الرأي الثالث: ينتقض العهد إذا جعل الذمي من نفسه طليعة للأعداء، بأن بعثوه ليكون من أهل الذمة ليتجسس على المسلمين، فإن لم يبعثوه لذلك وإنما طراً عليه لا ينتقض عهده، وهذا ما جاء عند الحنفية. ففي الدر المختار ورد الكلام الآتي:

(وينتقض عهدهم بالغلبة على موضع للحرب أو باللاحاق بدار الحرب أو بالامتناع عن قبول الجزية أو يجعل نفسه طليعة للمشركين بأن يبعث ليطلع على أخبار العدو فلو لم يبعثوه لذلك لم ينتقض عهده وعليه يحمل كلام المحيط وصار الذمي في هذه الأربع كالمرتد في كل أحكامه)¹.

استدل أصحاب هذا الرأي بأن أهل الذمة إذا تغلبوا على موضع ليحاربونا أو التحق أحدهم بدار الحرب، فصاروا حرباً علينا، يعرى عقد الذمة عن الفائدة، وهو دفع شر الحرب، فينتقض العهد ضرورة، وفي معنى ذلك من أرسله الأعداء ليحصل على عقد الذمة ليتجسس على المسلمين لصالح المشركين ينتقض عهده؛ لأنه في معنى المحارب؛ ولأنه علم أن من أرسله الأعداء لذلك لم يقصد العهد، بل قصد أن يجعل عقد الذمة وصلة للإضرار بنا².

الرأي الرابع: لا ينتقض عهد الذمي مطلقاً إذا تجسس على المسلمين سواء شرط عليه ذلك أم لم يشترط وقال بهذا الرأي بعض الحنفية وبعض الشافعية وبعض الحنابلة.

ومما جاء في كتاب المبسوط: (فإن صار ذمة ثم وقفت منه على أنه يخبر المشركين بعبورة المسلمين، ويقر عيونهم لم يكن هذا منه نقضا للعهد، ولكن يعاقب على هذا ويجبس... وإن كان أهل البغي قد استعانوا بقوم من أهل الذمة على حربهم فقاتلوا معهم لم يكن ذلك منهم نقضا للعهد، ألا ترى أن هذا الفعل من أهل البغي ليس بناقض للإيمان فكذلك لا يكون من أهل الذمة نقضا للعهد)³.

¹ حاشية رد المحتار، ابن عابدين، ج4، ص396.

² البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم، ج5، ص125، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1989.

³ المبسوط، السرخسي، ج10، ص85، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1989.

وما ورد أيضا في كتاب الأم: (ما أحدث أهل الذمة الموادعون مما لا يكون نقضا قال الشافعي: وإذا أخذت الجزية من قوم فقطع قوم منهم الطريق أو قاتلوا رجلا مسلما فضربوه أو ظلموا مسلما أو معاهدا أو زنى منهم زان أو أظهر فسادا في مسلم أو معاهد حد فيما فيه الحد وعوقب عقوبة منكلة... ولم يكن هذا نقضا للعهد يحل دمه)¹.

وأما عن الأدلة التي استدلت بها أصحاب هذا الرأي فكانت تتمحور حول الآتي:

1- حديث حاطب بن أبي بلتعة المتقدم الذي رواه علي بن أبي طالب، ونزل فيه قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوِيًّا"².

ووجه الاستدلال هو أن حاطب بن أبي بلتعة بتجسسه على المسلمين وهو مسلم لم يكن فعله هذا ناقضا لإيمانه حيث سماه الله تعالى مؤمنا وكذلك إذا فعله الذمي لا يكون ناقضا لأمانه³.

2- حديث أبي لبابة بن المنذر المتقدم وفيه نزل قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ

وَالرَّسُولَ"⁴. وقصته فيما أخبر به بني قريظة معروفة حيث استشاروه فأشار بأصبعه على حلقه يعني الذبح، ومع ذلك سماه الله تعالى مؤمنا. فلم يكن فعله هذا ناقضا لإيمانه. فإن كان إيمان المؤمن لا ينتقض، ولا يزول بالتجسس فكذلك لا يزول به أمان الذمي ولا ينتقض عهده، شرط عليه ذلك بالعقد أم لم يشرط⁵.

¹ الأم، الشافعي، ج5، ص449، ط1، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 2001.

² سورة الممتحنة، الآية 1.

³ المبسوط، السرخسي، ج10، ص86.

⁴ سورة الأنفال، الآية 27.

⁵ المبسوط، المرجع نفسه، ج10، ص86.

3- إن مقتضى عقد الذمة هو التزام الذمي أداء الجزية والتزام أحكام الإسلام، والكف عن قتال المسلمين، أما ما فيه ضرر على المسلمين، كالتجسس لصالح العدو، أو إيواء جاسوس للأعداء فإنه لا ينتقض العهد؛ لأنه لم يُخْلَ بمقصود العقد لبقاء ما يقتضيه من أداء الجزية والالتزام بالأحكام والكف عن القتال، سواء شرط عليهم

انتقاض العهد بالتجسس أم لم يشترط، فعند عدم وجود الشرط لا ينتقض العهد بالتجسس لبقاء ما يقتضي العهد¹. وإن شرط لا ينتقض العهد به أيضاً؛ لأنه لا ينتقض به من غير شرط، فلا ينتقض به مع الشرط؛ ولأن المعتبر بشرطها عليهم هو تركها، والامتناع عن مثل هذه الأفعال وليس المقصود انتقاض العهد بفعالها ومثلها لا يخل بمقصود العقد.

4- إن فعل ما فيه ضرر على المسلمين معصية من المعاصي ارتكبتها الذمي وهي دون الكفر في القبح والحرمة، وكما هو معلوم فالذمة تبقى مع الكفر، وبالتالي بقاؤها مع المعصية أولى².

5- إن الذمي لو قطع الطريق وأخذ المال لم يكن فعله نقضا لعهد³، وإن كان قطع الطريق محاربة لله ورسوله بالنص القرآني: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنَبَّأُوا مِنَ الْأَرْضِ"⁴. وعليه لا ينتقض عهده بالتجسس من باب أولى.

وترانا نميل إلى ما ذهب إليه أصحاب الرأي الرابع لقوة ما استدلوا به؛ ولأن التجسس جريمة من الجرائم ولا علاقة بينها وبين أمان الذمي، فالذمي صار مواطناً في المجتمع المسلم وتسري عليه الأحكام كما تسري على المسلمين.

¹ روضة الطالبين، النووي، ج 10، ص 329.

² المبسوط، السرخسي، ج 10، ص 86.

³ الذخيرة، القراني، ج 3، ص 462، ط 1، دار الغرب، بيروت، لبنان، د.ت.

⁴ سورة المائدة، الآية 33.

البند الثاني: مقدار عقوبة الجاسوس الذمي

اتفق الفقهاء أن على الجاسوس الذمي جزاء بما فعل، ولكن اختلفوا في مقدار العقوبة المناسبة له؟ ذلك لأن منهم من قال: أن عقوبة الذمي المتجسس التعزير والرد إلى مأمنه بحيث يصير حربيا. ومنهم من قال: يعاقب بما يراه الحاكم مناسبا. ومنهم من ذهب إلى أنه يكون كالمرتد، ومنهم من رأى أنه يقتل إلا إذا أسلم ومنهم من تشدد وقال أنه يقتل مطلقا. وتفصيل ذلك كالآتي:

القول الأول: من انتقض عهده من أهل الذمة بالتجسس يعزر ويرد إلى مأمنه بحيث يصير حربيا، وبه قال بعض الشافعية¹، وبعض الحنابلة²، وقد جاء في كتاب الأم: (...وقيل قد تقدم لك أمان بأدائك للجزية وإقرارك بها وقد أجلناك في أن تخرج من بلاد الإسلام ثم إذا خرج فبلغ مأمنه قتل إن قدر عليه وإن كان عينا للمشركين على المسلمين يدل على عورائهم عوقب عقوبة منكلة ولم يقتل). والمراد بالمأمن هو المكان الذي يأمن فيه على نفسه وهو أقرب بلاد الحرب من المسلمين ولا يلزم إلحاقه ببلده الذي يسكنه إلا أن يكون بين بلاد الكفر ومسكنه بلد للمسلمين يحتاج المرور عليه.

والمراد بردهم إلى مأمنهم، ما جاء عند الماوردي: (... وإذا نقض أهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم ولا غنم أموالهم ولا سبي ذراريهم مالم يقاتلوا ووجب إخراجهم من بلاد المسلمين آمنين حتى يلحقوا مأمنهم من أدنى بلاد الشرك، فإن لم يخرجوا طوعا أخرجوا كرها).

ومن بين ما استدل به أصحاب هذا القول، أن الذمي بوجوده في دار الإسلام له أمان، وعندما يحدث ضررا بالمسلمين ينتقض أمانه، والذمي يعتقد أن له أمانا كالكافر الذي يدخل دار الإسلام بأمان صبي يعتقد أن له أمانا، وفي حقيقة الأمر أن إعطاء الصبي أمانا غير معتبر، فهنا يرد الكافر إلى

¹ الأم، الشافعي، ج4، ص199

² الأحكام السلطانية، الماوردي، ص262

مأمنه، وكذا من نقض عهده من أهل الذمة يرد إلى مأمنه¹؛ ولأنه حصل في دار الإسلام فلم يجز قتله قبل الرد إلى مأمنه، كما لو دخل دار الإسلام بأمان صبي. وهو ما جاء في كتاب الروض، باب الأمان: (إن أئمنه صبي ونحوه فظن صحته بلغناه مأمنه)².

القول الثاني: يعاقب الجاسوس الذمي بما يراه الإمام من القتل أو الاسترقاق أو المنّ أو الفداء كالأسير الحربي. وهو الراجح عند الشافعية والمشهور عند الحنابلة وقول للمالكية³. ومما جاء في منح الجليل: (...) وإن كان الجاسوس ذميا عندنا أو حربيا... نقل عن سحنون إن رأى الإمام استرقاقه فهو له). وقد استدل أصحاب هذا القول بفعل النبي ﷺ بالقتل تارة والفداء تارة أخرى، وبالاسترقاق أحيانا؛ لأن من نقض عهده نقض أمانه، فيعود حربيا كما كان قبل العهد، وقد وجد بين أيدينا، فهو أسير يخير فيه الإمام. أو كلص حربي وجد في دار الإسلام⁴.

ويختار الإمام ما فيه الأصلح للإسلام والمسلمين وفقا للقاعدة الفقهية القائلة بأن (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة)، وقد ثبت عن النبي ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد أسرهما في غزوة بدر⁵. كما أهدر ﷺ دم بعض المشركين في فتح مكة منهم عبد العزى بن أخطل، أمر بقتله وهو متعلق بأستار الكعبة⁶.

¹ الأحكام السلطانية، الماوردي، ص262.

² نهاية المحتاج، الرملي، ج8، ص87.

³ روضة الطالبين، النووي، ج10، ص282 / كشف القناع، البهوتي، ج5، ص3031.

⁴ الأحكام السلطانية، المرجع نفسه، ص161.

⁵ السيرة النبوية، ابن هشام، ج2، ص644.

⁶ زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ج3، ص411.

كما يجوز للإمام أن يمن على الأسير وهذا مصداقا لقول الله تعالى: "...بِمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا..."¹.

وللإمام أيضا أن يفادي به بمال أو بمن أسر من المسلمين لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين. كما فدى رسول الله ﷺ أسارى بدر بالمال، وأدنى درجات فعله عليه الصلاة وأزكى التسليم الجواز والإباحة².

وللإمام أيضا أن يسترق كما استرق رسول الله ﷺ عددا من أسرى المشركين، ولفعل الصحابة رضوان الله عليهم جميعا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر قوله تعالى: "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِرَ فِي الْأَرْضِ"³ بيوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أمر الله في الأسرى بالمن أو الفداء. فجعل الله تعالى للرسول في الأسرى الخيار، إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استعبدوهم. وقال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، أن للإمام أن يمن على من يشاء من الأسرى ويقتل من شاء ويفدي من شاء، واختار بعض أهل العلم القتل على الفداء.

القول الثالث: إذا ثبت على الذمي فعل التجسس فإنه يقتل إلا إذا أسلم، وقد ذهب إلى هذا القول بعض الحنابلة⁴، ومن بين ما استدلو به ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بعين للمشركين اسمه فرات بن حيان، فأمر به أن يقتل، فصاح: يا معشر الأنصار، أقتل

¹ سورة محمد، الآية 4

² بدائع الصنائع، الكاساني، ج 5، ص 483

³ سورة الأنفال، الآية 67

⁴ شرح الزركشي على المختصر الخرقى، شمس الدين الزركشي، ج 3، ص 231، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002

وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. فأمر به النبي ﷺ فخلى سبيله. ثم قال: ((إِنَّ مِنْكُمْ رَجَالًا نَكِلُهُمْ إِلَى إِيْمَانِهِمْ ، مِنْهُمْ فُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ))¹.

ووجه الاستدلال أن رسول الله ﷺ أمر بقتل فرات بن حيان، الذي كان من رعايا الدولة الإسلامية، ولا خلاف بين أهل العلم في كونه ذمياً يعيش في كنف المسلمين فلما عرف ﷺ أمره، أمر الصحابة بقتله من أجل جاسوسيته، ولولا إعلان إسلامه لكان مصيره القتل؛ لأن الرسول ﷺ صدّقه ووكله إلى إيمانه وفي ذلك دليل على جواز قتل الجاسوس الذمي.

القول الرابع: عقوبة الجاسوس الذمي هي القتل مطلقاً حتى وإن أسلم، ذهب إلى هذا القول بعض المالكية²، وبعض الحنابلة منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والذي ورد عنه الكلام الآتي: (ومن قطع الطريق على المسلمين، أو تجسس عليهم، أو أعان أهل الحرب على سبي المسلمين وأسروهم وذهب بهم إلى ديار الحرب، ذلك مما فيه مضرة على المسلمين، فهذا يقتل ولو أسلم)³.

ومن بين الحجج والبراهين التي اعتمدوا عليها نذكر منها:

1- عموم الآيات الدالة على قتل ناقض العهد بما فيه ضرر على المسلمين، من ذلك قوله تعالى: "فَقَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"⁴.

¹ سنن أبي داود، السجستاني، ج2، ص55، حديث رقم 2652، كتاب الجهاد، باب في الجاسوس الذمي.

² مواهب الجليل شرح مختصر خليل، الخطاب، ج4، ص553.

³ الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ج5، ص543، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1964.

⁴ سورة التوبة، الآية 29.

ووجه الدلالة من الآية أن الله أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى "الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ... وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ" حتى يتحقق الشرط المتمثل

في "حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما ولا غيره بل لا تقبل إلا من أيديهم وهم صاغرون¹. فإن أحدثوا ضررا بالمسلمين ومنه التجسس لصالح العدو أحدث ضررا بالمسلمين ليس براض بهما، فلا عهد له ويجب أن يقاتل، وكل من أمرنا بقتاله من غير المسلمين فإنه يقتل إن قدرنا عليه.

2- قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا"². وقوله تعالى: "وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهَ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا"³. ووجه الدلالة بالنسبة للآية الأولى: أن من يؤذ الله ورسوله ملعون، ولا شك أن إحداث الضرر بالمسلمين أذى لله ورسوله، فمحدثه ملعون، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا، فيجب أن يكون هذا الملعون عادم النصر مطلقا، فلو كان دمه معصوما لوجب على المسلمين نصرته، وفي هذا مخالفة صريحة لقوله تعالى: "فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا" ولا يكون عادم النصير بالكلية إلا بقتله⁴.

3- قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا أَلَيْسَ مِنَ قَبْلِهِمْ"⁵.

¹ تيسير الكريم الرحمان، عبد الرحمان السعدي، ص225، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2002.

² سورة الأحزاب، الآية 57.

³ سورة النساء، الآية 52.

⁴ أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ج3، ص315.

⁵ سورة المجادلة، الآية 5.

ووجه الدلالة كما جاء في كتاب أحكام أهل الذمة: (أن الله تعالى أخبر أن من يحادد الله رسوله مكبوت، والمحادّة هي المعادة، والمخالفة والمنازعة، فمن تجسس لصالح العدو فهو محاد فيجب أن يكبت. فهذه المعاني كلها تدور حول الإذلال والخزي فيجب أن يكون المحاد مكبوتا لا آمنا، وحتى يكن كذلك لا بد من قتله)¹.

4- عموم الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ الدالة على قتل ناقض العهد بأذى الله ورسوله، من ذلك قتل أبي رافع، حيث روى البيهقي وغيره عن البراء بن عازب قال: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعِ الْيَهُودِيَّ وَكَانَ يَسْكُنُ أَرْضَ الْحِجَازِ فَتَدَبَّ لَهُ سَرَايَا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَتِيكَ وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ... فَأَنْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسَطَ عِيَالِهِ لَا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ مِنَ الْبَيْتِ فَقُلْتُ: أبا رَافِعٍ. قَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَأُهْوِيَ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً غَيْرَ طَائِلٍ وَأَنَا دَهْشٌ فَلَمْ أَغْنِ عَنْهُ شَيْئًا وَصَاحَ فَخَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ فَمَكَّثْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أبا رَافِعٍ؟ فَقَالَ: لَأُمِّكَ الْوَيْلُ رَجُلٌ فِي الْبَيْتِ ضَرَبَنِي قُبَيْلُ بِالسَّيْفِ قَالَ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً ثَانِيَةً وَلَمْ أَقْتُلْهُ ثُمَّ وَضَعْتُ ضُبَابَةَ السَّيْفِ فِي بَطْنِهِ ثُمَّ أَتَكَيْتُ عَلَيْهِ حَتَّى سَمِعْتُهُ أَخَذَ فِي ظَهْرِهِ فَعَرَفْتُ أَنِّي قَدْ قَتَلْتُهُ فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الْأَبْوَابَ بَابًا بَابًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ فَوَضَعْتُ رِجْلِي وَأَنَا أَرَى أَنِّي قَدْ انْتَهَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ فَانْكَسَرَتْ رِجْلِي فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَتِي ثُمَّ إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ قُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ أَنِّي قَدْ قَتَلْتُهُ أَوْ لَا فَلَمَّا صَاحَ الدَّيْكَ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ فَقَالَ: أُنْعِي أبا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ. فَانْطَلَقْتُ أَتَعَجَّلُ إِلَى أَصْحَابِي فَقُلْتُ النَّجَاءَ قَدْ قَتَلَ اللَّهُ أبا رَافِعٍ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ: «ابْسُطْ رِجْلَكَ». فَبَسَطْتُهَا فَمَسَحَهَا فَكَأَنَّمَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ).²

¹ أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ج3، ص313.

² السنن الكبرى، البيهقي، ج9، ص80، حديث رقم 18565، باب قَتْلُ أَبِي رَافِعٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَقْبِقِ وَيُقَالُ سَلَامٌ بِنِ أَبِي الْحَقْبِقِ

ووجه الدلالة: كون الرسول ﷺ بعث مجموعة الأنصار لقتل أبي رافع بإمرة عبد الله بن عتيك وقد تمت هذه العملية بنجاح، وفي ذلك دليل واضح على جواز قتل ناقض العهد.

ومن ذلك أيضا ما جاء في قصة كعب بن الأشرف الذي كان من أشد اليهود حنقا على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله ﷺ، وتظاهرا بالدعوة على حربه. وكان من قبيلة طيء من بني نبهان وأمه من بني النضير، وكان غنيا مترفا معروفا بجماله في العرب، شاعرا من شعرائها، كان حصنه في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير. ولما بلغه أول الخبر عن انتصار المسلمين وقتل صناديد قريش في بدر قال: أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس. والله إن كان مُحَمَّدٌ أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين... وعندما كان بمكة سأل أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين مُحَمَّدٍ وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلا، وفي ذلك نزل قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ وَثَّوْا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا"¹. ثم رجع كعب إلى المدينة، وأخذ يشبب في أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم أشد الإيذاء. هنالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله رسوله)). فقام مُحَمَّدٌ بن سلمة² فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: ((نعم)). فقتله فعلا... فلما انتهوا إلى النبي ﷺ قال: ((أفلحت)) الوجوه، قالوا: ووجهك يا رسول الله. ورموا برأس الطاغية بين يديه فحمد الله على قتله.

وجه الدلالة: أن الأمر باغتيال كعب كان واضحا من اللفظ الأول في الحديث من قوله: ((من لكعب بن الأشرف)). وازداد بالقتل وضوحا من قول سيدنا مُحَمَّدٌ بن سلمة: أتحب أن أقتله؟ وأجابه ﷺ بقوله: نعم. ومما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا الخصوص: (وقد جعل عليه الصلاة والسلام علة

¹ سورة النساء، الآية 51.

² الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، ص 285-286.

³ الصارم المسلول على شاتم الرسول، ابن تيمية، ج 1، ص 85-86، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1995.

الندب إلى قتله أنه أذى الله ورسوله وأذى الله ورسوله اسم مطلق ليس مقيدا بنوع ولا قدر، فيجب أن يكون أذى الله ورسوله علة للانتداب إلى قتل من فعل ذلك من ذمي وغيره ومنه يتبين أن الجنس المباح للدم ولا فرق بين قليله وكثيره وغليظه وخفيفه في كونه مبيحا للدم، سواء كان قولاً أو فعلاً، كالردة والزنا والمحاربة ونحو ذلك³.

5- حكم سعد بن معاذ على بني قريظة، وفيه قال رسول الله عليه وسلم: ((قوموا إلى سيدكم أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك))، قال: (تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم)، فقال النبي ﷺ: ((قضيت بحكم الله))¹.

6- الآثار الواردة عن الصحابة رضوان الله عليهم و التي تدل على قتل ناقض العهد، ومن ذلك ما روي أن نصرانيا استكره امرأة مسلمة على الزنا فرفع إلى أبي عبيدة بن الجراح فقال: ما على هذا صالحناكم وضرب عنقه . كما ثبت أن الصحابة لم يظفروا بمعاهد أذى الله ورسوله بطعن في الدين أو نحو ذلك إلا وقتلوه².

الفرع الثاني: عقوبة الجاسوس المستأمن

يجب على المستأمن اجتناب كل ضرر يعد على المسلمين، كمقاتلتهم، وإعانة أعدائهم عليهم، أو التجسس عليهم ونقل أخبارهم. وأكبر الضرر الذي تسبب في حدوث آثار سلبية على الأمة ظاهرة التجسس، فما حكم من أعطي الأمان ثم تبين بعد ذلك أنه عين للكفار؟
اتفق الفقهاء على وجوب قتل الكافر الحربي إذا قام بفعل التجسس على المسلمين. جاء في الخراج لأبي يوسف، وقد سأله هارون الرشيد عن حكم الجواسيس فقال: (وسألت يا أمير المؤمنين عن الجواسيس فإن كانوا من أهل الحرب فاضرب أعناقهم)³.

¹ المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ج12، ص13، حديث رقم 4571، كتاب الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد.

² الصارم المسلول، ابن تيمية، ج1، ص273.

³ الخراج، أبي يوسف، ص190.

واختلفوا في الجاسوس المستأمن على رأيين:

الرأي الأول: ذهب المالكية، وأبو يوسف من الحنفية، والحنابلة إلى أنه يجوز للإمام قتل المستأمن إذا تجسس على أحوال المسلمين، وأخبر العدو بأسرارهم، أو آوى عيونهم¹. قال الدردير: (وجاز قتل عين -أي الجاسوس- يطلع على عورات المسلمين، وينقل أخبارهم للعدو وإن أمن، أي دخل بلادنا بأمان؛ لأن التأمين لا يتضمن كونه عينا ولا يستلزمه، ولا يجوز عقد عليه).

ونقل الشيخ محمد عlish عن سحنون جواز استرقاق الإمام له، ويصبح حكمه حكم الأسير يخير فيه الإمام بين القتل والرق والمن والعفو².

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بما يأتي:

1- ما روي عن فرات بن حيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بقتله، وكان ذميا وكان عينا لأبي سفيان، وحليف لرجل من الأنصار فمر بحلقة من الأنصار، فقال: إني مسلم، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله إنه يقول إنه مسلم، فقال رسول الله ﷺ: ((إن منكم رجال نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان))³. ووجه الاستدلال: أن ظاهر الحديث يدل على جواز قتل الجاسوس الذمي وأن عمله في التجسس يعتبر ناقضا للعهد، ومثله المستأمن.

2- حديث سلمة بن الأكوع، قال: أتى النبي ﷺ عين وهو في سفر، فجلس عند بعض أصحابه يتحدث ثم انسل فقال النبي ﷺ: ((أطلبوه فاقتلوه. فسبقتهم إليه فقتلته فنفلني سلبه)). ووجه الدلالة أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دم هذا المنسل بفعل التجسس⁴.

<

¹ مواهب الجليل، الخطاب، ج4، ص553 / أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ج3، ص232.

² حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، شمس الدين محمد الدسوقي، ج2، ص211، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

³ سبق تخريجه. انظر: ص375.

⁴ شرح السير الكبير، السرخسي، ص337.

3- أن المستأمن حين دخل دار الإسلام بأمان فقد التزم بأن لا يفعل شيئا فيه ضرر على المسلمين كالتجسس وغيره، فإذا فعله كان ناقضا للعهد بمباشرة ما يخالف موجب العقد ولو لم يكن ناقضا للعهد لرجع إلى الاستخفاف بالمسلمين¹.

الرأي الثاني: ذهب الحنفية والشافعية إلى أن المستأمن إذا كاتب العدو أو خرج بنفسه يخبرهم بعورة المسلمين، عوقب عقوبة منكّلة، يحبس ولا يقتل ولا ينقض عهده² قال الإمام الشافعي: (وإذا كان عينا للمشركين على المسلمين يدل على عورتهم عوقب عقوبة منكّلة ولم يقتل، ولم ينقض عهده)³.

واستدل الحنفية لهذا بحديث حاطب بن أبي بلتعة وأبي لبابة بن المنذر السابقين وما نزل فيهما من القرآن الكريم؛ حيث أنه لو فعله مسلم لم يكن به ناقضا لإيمانه، فكذلك إذا فعله مستأمن لا يكون ناقضا لأمانه أيضا.

فلو تجسس المستأمن على المسلمين فإنه لا يصير بذلك ناقضا لأمانه؛ بمنزلة ما لو قطع الطريق وأخذ المال فإنه لا يكون ناقضا للعهد مع أن ذلك محاربة الله ولرسوله نصا، فهذا أولى. إلا أنه ارتكب مالا يحل له، وقصد بفعله إلحاق الضرر بالمسلمين ولذا فإنه يعاقب في جميع ذلك⁴.

الفرع الثالث: عقوبة الجاسوس المسلم

للعلماء في حكم قتل الجاسوس المسلم أقوال متعددة، وبعضها متداخل مع بعض، وقد يضع بعضهم قيودا يغفلها غيرهم. ولكن مدارها على الآراء التالية:

¹ أحكام الذميين والمستأمنين، عبد الكريم زيدان، ص243.

² المبسوط، السرخسي، ج10، ص86.

³ الأم، الشافعي، ج5، ص613.

⁴ شرح السير الكبير، ج5، ص164.

الرأي الأول: عند الحنفية، الشافعية وظاهر مذهب أحمد، والأوزاعي. إذا صار المسلم عينا للكفار لا يقتل بل يعزره الإمام بما يراه مناسبا من ضرب أو حبس، أو غير ذلك¹.

وأدلة أصحاب هذا الرأي كما يلي:

1- ما روي عن علي رضي الله عنه قال: بعثني الرسول ﷺ أنا والزيبر والمقداد فقال: ((انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ²، فإن بها ظعينة، ومعها كتاب، فخذوه منها)). قال فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة³ قلنا لها أخرجي الكتاب قالت ما معي كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لنلقي الثياب قال فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من خاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خاطب ما هذا قال يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأ مخلصا في قريش يقول كنت حليفا ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين من هم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتحذ عندهم يدا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقكم فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم⁴)).

ووجه الدلالة: أن الرسول ﷺ لم يقتل خاطبا ومنع سيدنا عمر رضي الله عنه من قتله. فدل ذلك على عدم جواز قتل الجاسوس المسلم.

¹ الأم، الشافعي، ج5، ص 609 / الخراج، أبي يوسف، ص 190 / زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ج3، ص 422.

² روضة خاخ: مكان بين مكة والمدينة.

³ الظعينة: المرأة في الهودج.

⁴ صحيح البخاري، البخاري، ج3، ص 1095، حديث رقم 2845، باب الجاسوس.

2- قصة فرات بن حيان: أن رسول الله ﷺ أمر بقتله، وكان عينا لأبي سفيان فمر بمجلس الأنصار فقال: إني مسلم فذهبوا به إلى الرسول، فقالوا إنه يزعم أنه مسلم، فقال: ((إنَّ منكم رجالا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان))¹.

ووجه الدلالة: أن الرسول ﷺ رفع عنه القتل ووكله إلى إيمانه بعدما أعلن فرات إسلامه، وهذا دليل على عدم جاز قتل المسلم إذا تجسس لصالح الأعداء.

هذا بالإضافة إلى أن الله سماه مؤمنا كما سمي حاطبا مؤمنا أيضا. قال تعالى في حق فرات: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ..."²

وقال تعالى في حق حاطب: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوِيَاءَ..."³. ولهذا قالوا: للإمام تقرير العقوبة الرادعة والمناسبة.

3- قال رسول الله ﷺ: ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ))⁴.

ووجه الدلالة: أن الحديث يدل على أنه لا يحل دم من ثبتت له حرمة الإسلام، إلا أن يقتل أو يزني بعد إحصان أو يكفر كفرا بيّنا بعد إيمان ثم يثبت على الكفر، ولما كان الجاسوس

¹ نيل الأوطار، الشوكاني، ج8، ص283.

² سورة الأنفال، الآية27.

³ سورة الممتحنة، الآية 1 .

⁴ صحيح البخاري، البخاري، ج6، ص2521، حديث رقم 6484، باب قوله تعالى: " النفس بالنفس والعين بالعين..." / صحيح مسلم، مسلم، ج3، ص1302، حديث رقم 1676، باب ما يباح به دم المسلم.

لم يفعل أيا منها فلا يخرججه تجسسه عن الإيمان إذا كان اعتقاده سليما كما كان حاطب حيث قصد حماية أقرابه¹.

نقول يمكن أن ينطبق هذا الحكم على الجاسوس الذي يكون له سبب مقنع كسبب حاطب وهو حماية أقرابه، أو أنه جهل بما يفعله ثم تاب عن ذلك ولم يكرره، أما إذا كان مقصده الخيانة والإضرار بالمسلمين، أو كرهه للمسلمين وحبه للكفار، فإنه يعتبر مرتدا في الباطن فلا بد أن يأخذ جزاءه على حسب ما يراه ولي الأمر مناسبا.

4- إن عقوبات الحدود ليس للإمام أن يعطلها بحال، وذلك بخلاف العقوبات الأخرى فللإمام أن يرى فيها ما يناسب المصلحة العامة. قال الإمام الشافعي: (أما التعزير فللإمام تركه على الاجتهاد وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود))². فإن كان هذا من الرجل ذي الهيئة بجهالة منه، كما كان هذا من حاطب بجهالة غير متهم أحببت أن يتجافى له، وإن كان من غير ذي هيئة كان للإمام -والله تعالى أعلم- تعزيره³. فدل على أن عقوبة الجاسوس المسلم تندرج ضمن التعازير؛ لأنها لو كانت حدا لما تركها النبي ﷺ.

5- لو كان شهود بدر مانعا من إقامة الحد لما أقام عمر بن الخطاب حد الجلد على قدامة ابن مظعون لما شرب الخمر، وهو بدري وعمر شهد قصة حاطب وهو أحرص الناس على طاعة الرسول ﷺ⁴.

¹ الأم، الشافعي، ج5، ص609.

² السنن الكبرى، البيهقي، ج2، ص334، كتاب الأشربة والحد فيه، باب الإمام يعفو عن ذوي الهيئات.

³ الأم، المرجع نفسه، ج5، ص612.

⁴ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج8، ص120، ط1، المطبعة السلفية، مصر، 1959.

الرأي الثاني: عند مالك وأحمد في أحد الوجهين إذا صار المسلم جاسوسا للكفار فإنه يقتل¹. وقال سحنون في المسلم الذي يكتب لأهل الحرب بأخبار المسلمين إنه يقتل ولا يستتاب ولا دية لورثته كالمحارب. وقيل يقتل إلا أن يتوب.

ومن الأدلة التي ساقها أصحاب هذا الرأي القائل بوجوب قتل الجاسوس المسلم نذكر:

1- قصة حاطب بن أبي بلتعة.

وجه الدلالة: تتمثل في أن علة عدم قتل حاطب رضي الله عنه: كونه من أهل بدر لا كونه مسلما فقط، ولذلك لم يقل رسول الله ﷺ: لا يحل قتله إنه مسلم بل قال: ((وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم)). ومما قاله ابن القيم بهذا الخصوص: (...) لأنه علل بعله مانعة من القتل منتفية في غيره، ولو كان الإسلام مانعا في قتله لم يعلل بأخص منه؛ لأن الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير. وهذا أقوى والله أعلم².

وعلى ذلك يكون عدم قتل الجاسوس المسلم خاصا بأهل بدر فقط، وأما ما عداهم من المسلمين فيقتل من تجسس لصالح لصالح العدو³. ولذلك عدّه سحنون بأنه كالمحارب يقتل ولا يستتاب⁴، ويؤيدوه ابن رشد بقوله: هذا قول صحيح.

2- إن النبي ﷺ قد أقر عمر على إرادة القتل لولا وجود المانع وهو شهود غزوة بدر.

3- إن التجسس لصالح العدو جريمة خطيرة لا تقتصر على جانب واحد أو جماعة بل إنها تعرض البلاد جميعها لأفدح الأخطار بل للدمار والضياع. فوجوب قتل الجاسوس المسلم سياسة شرعية أخذها بما قرره الفقهاء في جرائم عناصر الشر وهو أمر لا يمكن أن يكون محل تردد.

¹ مواهب الجليل، الخطاب، ج4، ص553. / زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ج3، ص422.

² زاد المعاد، المرجع نفسه، ج3، ص115.

³ الخرشبي على خليل، الخرشبي، ج3، ص119.

⁴ تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج2، ص194.

الرأي الثالث: ذهب بعض المالكية إلى أن المسلم إذا صار عينا للكفار لا يقتل إلا إذا تكرر منه التجسس¹.

استدلوا بقصة حاطب بن أبي بلتعة المتقدمة، لكن من جهة أخرى تخالف جهة القائلين بالرأيين الأول والثاني. وجه الدلالة عند أصحاب هذا الرأي هو أن حاطب تجسس مرة واحدة فقط ولم يتكرر منه التجسس فلم يقتل لهذا السبب، ولذا فإن المرء لا يكون جاسوسا حقيقة إلا إذا اتخذ التجسس عادة ومهنة له. فإن عرف بذلك تكن عقوبته القتل، وإن لم يعرف بذلك عزر وضرب ونكل به، كما حصل مع حاطب.

الترجيح:

نرى والله تعالى أعلم أنه يجب التفريق بين حالتين:

1- إذا كان الجاسوس لم يشكل خطرا على المسلمين نهائيا، ولم يشترك في ضياع أرض المسلمين أو في قتل أحدهم وأنه لم يعمل معهم بشكل متكرر، ولديه تأويل مقنع أو عذر مقبول معقول كالذي حدث مع حاطب بن أبي بلتعة، ولم يفعل ذلك حبا في الأعداء، وكرها للمسلمين، فإننا نقول برأي الحنفية والشافعية - الرأي الأول - وهو أن لا يقتل الجاسوس ولكن يعزر تعزيرا يتناسب مع جرمه الذي اقترفه، فيترك ذلك لاجتهاد الإمام. وذلك لقول الرسول ﷺ: ((أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود))². لأنه يمكن أن يكون له سبب مقنع في ذلك أو أنه قد أخطأ مرة ولم يكرر ذلك الفعل فيتوب الله عليه. وكذلك الأمر إذا أمسك بالجاسوس المسلم قبل تسرب لأسرار الأمة إلى الأعداء.

2- إذا كان الجاسوس قد فعل ذلك وهو مقتنع به فاعتاد على عمله أو أنه تسبب بضياع أرض المسلمين فإنه يجب قتله تعزيرا على رأي المالكية - الرأي الثاني - وذلك للمصلحة العامة ودفعاً للمفسدة وأيضا للأسباب الآتية:

- التجسس منهى عنه في كتاب الله العزيز وفي سنة رسوله الكريم.

¹ مواهب الجليل، الخطاب، ج3، ص 357.

² سبق تحريجه.

- يعتبر الجاسوس من المفسدين في الأرض الذي لا يزول فسادُه إلا بقتله وذلك للمصلحة العامة الدائرة للمفسدة.

- إن الجاسوس المسلم يعتبر أشد خطرا من المحارب العدو؛ ولأنه من الصعب التعرف عليه وكشفه.

- نظرا لما يترتب على عمل الجاسوس من أضرار على المسلمين ومصالحهم العامة والخطر البالغ على سلامتها وسلامة أمنها لا يعقل أن يكون مسلما صادقا في إيمانه، فالمسلم الحق لا يقوم بهذا العمل وهذه الخيانة للدين والوطن، وفي موالة الكفار والابتعاد عن المصلحة العامة للمسلمين، بل وإصراره على المفسدة العامة لهم وحقده عليهم وموالاته للكفار وأعداء الإسلام، فباستمراره وإصراره على ذلك العمل ضد الإسلام والمسلمين فإنه لا يبقيه على إيمانه، بل ينقض الإيمان ويهدمه حتى يصل به إلى الارتداد والكفر فذلك يجب اجتنابه من المجتمع من دون أي توان؛ لأنه إذا ترك فسوف يزيد فسادُه على المسلمين وعلى بلاد المسلمين، فلا بد من قتله تعزيرا، والله تعالى أعلم.

الفرع الرابع: عقوبة الجاسوس الحربي

اتفق الفقهاء - ماعدا الهادوية - على قتل الجاسوس الكافر الحربي¹، وفي ذلك قال وهبة الزحيلي: (واتفق العلماء على أنه يقتل الجاسوس الحربي الكافر ...)².

والدليل على ذلك ما جاء في رواية البخاري قال: حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو العميس عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل فقال النبي ﷺ: اطلبوه واقتلوه فقتله، فنفلني سلبه.

وفي رواية النووي جاء عن أبي سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن فبينما نحن نتضحى مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه ثم انتزع طلقا

¹ مواهب الجليل، الخطاب، ج4، ص553. / الخراج، أبي يوسف، ص190.

² الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ج7، ص517، ط4، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ت.

من حقه فقيد به الجمل ثم تقدم يتغدى مع القوم وجعل ينظر وفينا ضعفة ورقة في الظهر وبعضنا مشاة إذ خرج يشتد، فأتى جملة فأطلق قيده ثم أناخه وقعد عليه فأثاره، فاشتد به الجمل، فأتبعه رجل على ناقة وركاء، قال سلمة: وخرجت أشدت فكنت عند ورك الناقة ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته، فلما وضع ركبه في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه فاستقبلني رسول الله ﷺ الناس معه، فقال: من قتل الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع قال: له سلبه أجمع¹.

ووجه الاستدلال بهذا الحديث، أن الباعث على قتله أنه اطلع على عورة المسلمين وبادر ليعلم أصحابه، فيغتموا غرة المسلمين، هذا ولا يستحق الحربي تبليغ المأمن؛ لأن دخول مثله فيه خطر على المسلمين وضرر بمصلحتهم العامة وقد قال رسول الله : ((لا ضررَ ولا ضرارَ))².

ولذلك يقتل جاسوس الكفار الذي ينقل أخبار المسلمين للعدو ويضر بمصالحهم، وإنه لا راد لشر الجاسوس الحربي إلا القتل وهذه عقوبة تقابل الذنب الذي ارتكبه في حق المسلمين، ولا يعامل معاملة أسرى الحرب لما تنطوي عليه الأعمال التي يقوم بها من تهديد خطير لسلامة الدولة وكيانها. كما أن الدلالة على عورات المسلمين حرب على الدين الإسلامي، ولذا لا بد أن تكون العقوبة صارمة، حيث أن جرم الجاسوس أشد خطورة من جرم الحربي في ميدان القتال. ولهذا فإن قتله سلامة للمسلمين وعدم الضرر بهم، والعدالة تقتضي ذلك.

وفي اعتقادنا أنه إذا كان بالإمكان الاستفادة من الجواسيس الكفار في الحصول على بعض الأسرار عن الأعداء، أو أمكن تجنيدهم كعملاء، فنرى عدم قتلهم في هذه الحالة؛ لأن فيه فائدة ومصلحة للمسلمين أكثر من قتلهم. وفي السيرة النبوية شواهد على ذلك منها: استفادة الرسول ﷺ من جاسوس هوازن بعد أن أعطاه الأمان، فحصل منه على معلومات كانت في غاية الأهمية، واستفاد منها الجيش المسلم فائدة عظيمة. ولم يقتل النبي ﷺ ذلك الجاسوس الكافر.

¹ المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ج12، ص66، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتل.

² سنن ابن ماجه، ابن ماجه، ج3، ص64.

كما أن سيدنا علي عليه السلام قبض على الجاسوس إبان قيامه بقيادة سرية إلى بني سعد فاستفاد من المعلومات التي لديه ولم يقتله . وكذلك سيدنا عكاشة بن محصن قبض على جاسوس من بني أسد أثناء سيره إليهم وقد حصل منه على معلومات مهمة. وبعدها أطلق صراحته ولم يقتله¹.
أما إذا كان الجاسوس كافرا ولا يرجى منه الحصول على معلومة تفيد الأمة ولا يمكن الاستفادة منه كعميل، فهذا يجب قتله كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر بقتل الجاسوس الذي قتله سيدنا بن الأكوع رضي الله عنه كما مر معنا آنفا.

المبحث الثاني: الوقاية من الحرب النفسية في الفقه الإسلامي

إنّ معاناة المسلمين الأوائل الشديدة من الحرب النفسية التي شنها الأعداء ضدهم جعلهم بحاجة ماسة إلى ما يحصنهم منها ويجنبهم شرها، وكان لابد من إعداد العدة اللازمة لصد تلك الحرب الشرسة المغرضة. وقد تكفل ربّ العزة برّد تلك الهجمة على الإسلام ورسوله بآيات قرآنية كريمة تفضح الخائنين وتكبت المروجين وتفسد تدبير الكائدين، كما تكفل رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدّ شائعات الأعداء وكيدهم في مناسبات عديدة. ورسمت تلك الآيات وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام منهجا متكاملا يمكن أن يعتمد كسياسة فعالة لمواجهة الحرب الدعائية المغرضة المسلطة على المسلمين في كل زمان ومكان.

المطلب الأول: أخلاقيات أساسية لمقاومة الحرب النفسية

إن الأخلاقيات الإسلامية تعتبر سياجا منيعا وملادا قويا بالنسبة لأفراد المجتمع الإسلامي تحميه من الأخطار الناجمة عن تصرفات أبنائه أو الموجهة إليه من طرف أعدائه، ولعلّ أكبر مصدر لهذه الأخطار هو اللسان لما يحدثه من تفتيت للصفوف وتمزيق للروابط والوشائج وشرخ للصفوف وتوهين للعزائم.

والحرب النفسية بأساليبها المختلفة تعتبر في جوهرها آفة من آفات اللسان بالدرجة الأولى²، باعتبارها ترويجا واختلاقا لأحداث ووقائع قد لا تكون صحيحة أو تحمل جزءا ضئيلا من الحقيقة ويبالغ فيها

¹ الحاوي الكبير، الماوردي، ج25، ص426.

² الحرب النفسية من منظور إسلامي، أحمد نوفل، ص44.

ويسارع في نشرها وتوظيفها لأغراض دنيئة وخبيثة، ومن ثمة فلا تعدوا الشائعة والدعاية وهي أبرز الأسلحة للحرب النفسية - كما رأينا سابق - أن تكون كذبا أو غيبة أو قذفا أو بهتانا أو شهادة زور... إلخ.

وكل ما ذكرنا هو جملة من آفات اللسان. ونظرا لما تحدثه الحرب النفسية من أضرار داخل المجتمع، وداخل الدولة، وخاصة في مثل هذه الظروف التي تكالب فيها الأعداء على الأمة الإسلامية، وتفننهم في الكيد لها، كان لازما على أبناء الأمة الإسلامية الالتزام بالفضائل الأخلاقية التي من شأنها أن تقيهم من شر الدعايات والشائعات وتجنبهم الكثير من الآلام والمتاعب التي طالما ألحقها بهم الأعداء بالدس والترويع والإرجاف والإشاعة¹.

ومن خلال تتبعنا للقرآن الكريم والتوجيهات النبوية وجدنا أن هناك جملة من الفضائل الأخلاقية التي يمكن أن تلعب الدور الوقائي من الحملات المسعورة في الحرب النفسية التي يشنها علينا أعداؤنا وتقلل من خطورتها وتعصم الأمة من الوقوع في فخاخ العدو وحبائله وسنستعرض في هذا المبحث جملة من الأخلاقيات التي إن التزم بها أبناء الأمة الإسلامية مكنتهم من رد كيد أعدائهم إلى نحورهم وإفشال مخططاتهم الماكرة والمهادفة إلى القضاء عليهم واستئصال شأفتهم كما أن التزام المسلمين بهذه الأخلاقيات يمكنهم من الحفاظ على وحدة الصف وقوته وصلابته وطهارته وعفته.

الفرع الأول: الصدق

الصدق هو الدعامة الأساسية للمنهج الإسلامي القويم في مجال نقل الأخبار. وقد بنى الإسلام على هذه القاعدة المتينة جميع نشاطاته في شتى الميادين سواء الحرية أو الاجتماعية أو الإعلامية ... وقضى بأن يكون هذا المبدأ هو المحتوى الحقيقي للإنسان المسلم².

ويعرف الصدق بأنه قول الحق، وبأنه القول المطابق للواقع والحقيقة. ويعرف بعضهم الصدق بأنه الكلام المطابق لاعتقاد المتكلم سواء طابق الواقع والحقيقة أو لم يطابق. وهذا التعريف معترض عليه بأنه

¹ الإشاعة، أحمد نوفل، ص 123

² سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية، ناصر العمر، ص 242.

لو جاز أن نسمي ما طابق اعتقاد المتكلم صدقا لكان قول المشركين فيما يعتقدون لشركائهم، كلاما صادقا، مع أنه كذب ظاهر مخالف للواقع والحقيقة¹.

وأرى التفريق بين الكلام والمتكلم فإذا تحدث الإنسان بخبر ما وكان كلامه الذي قاله مطابق لما يعتقد في الذي تحدث به ومخالف للواقع، فإنه منسجم مع نفسه، وهو في حديثه صادق غير كاذب، إلا أن كلامه هو بحد ذاته كذب مخالف للواقع والحقيقة. أما إذا تحدث الإنسان بخبر ما وكان كلامه الذي قاله مخالفا لما يعتقد في الموضوع الذي تحدث به، ومطابق للواقع والحقيقة فإنه غير منسجم مع نفسه، وهو في حديثه كاذب غير صادق، إلا إن كان كلامه بحد ذاته صدق؛ لأنه مطابق للواقع والحقيقة. ولهذا فقد نصف المتكلم بأنه كاذب لأنه تكلم على خلاف اعتقاده، مع أن كلامه قد يكون موصوفا بالصدق لأنه موافق للواقع والحقيقة فلكل من الكلام والمتكلم وصف ملائم لواقع حاله². ومن أمثلة ذلك قول المنافقين المتظاهرين بالإسلام، إذ قالوا: بألسنتهم كلاما حقا مطابقا للواقع، وهو كلام بحد ذاته صدق إلا أنهم لا يعتقدونه، فهم كاذبون في إعلانه ولذلك وصفهم القرآن بأنهم كاذبون لأنهم منافقون لا يعتقدون ما يقولون³. قال تعالى: "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ" ⁴. والصدق في الإسلام يعتبر من أعظم الفضائل الأخلاقية التي تميز بها الخير الإسلامي عن غيره والالتزام بالصدق صفة بالغة الأهمية بالنسبة للإعلام الناجح، لأن تحري الحقائق والالتزام بروايتها كما وقعت، هما الضمانة الأساسية لتحقيق الغاية التي يعمل عليها الإعلام الإسلامي، وأن هذا من شأنه أن يحقق الفوز برضى الله سبحانه وثقة الناس الذين هم غرض المادة الإعلامية⁵.

¹ خواطر الشعراوي، الشعراوي، مج25، ص12، ط1، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، دت.

² المرجع نفسه، مج25، ص13.

³ الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص479-480، ط1، دار القلم، بيروت، 1979.

⁴ سورة المنافقون، الآية 01.

⁵ منهج الإعلام الإسلامي، سليم حجازي، ص35.

والصدق في نقل الأخبار، يعصم الناقل من الوقوع في نقل أكاذيب الأعداء ومفتريا تهم وترويجها، وتحري الحقيقة في النقل والإذاعة يعصم أفراد الشعب من ترويج الدعايات والشائعات المزلزلة لكيان الأمة بسبب فلتات اللسان التي لا يلقي لها بال.

والمؤمن الملتزم بالصدق لا يخول لنفسه صياغة أخبار كاذبة ويعمل على ترويجها بين المؤمنين ولا يقوم بذلك إلا كذاب منافق مخادع. وليس أولى على أهمية الصدق وتحري الحقيقة في الإعلام الإسلامي من تاريخ الوقائع الإسلامية نفسها، فقد أثبتت حوليات التاريخ الإسلامي أن الأكاذيب والأساطير التي واجهت دعوة الإسلام، قد سقطت كلها أمام الاستقامة والصدق... والفضائل التي كان يتميز بها رجال الإعلام الإسلامي¹.

والصدق لا يتجزأ كما أن الكذب لا يتجزأ وإن اتخذ ألوانا زاهية أو غير زاهية. وهناك صدق إعلامي، وكذب دعائي والكذب الدعائي قد يصل إلى الناس بالحذف في الخبر وقد يكون أخطر ما فيه حينما تنعدم الثقة بين الناس وبين وسيلتهم الإعلامية من جراء هذا الاتجاه. لذلك يحرص الإسلام على أن تكون وسيلته الإعلامية صادقة الخبر وصدوقة المقال صحيحة النبأ حتى يصبح من الوسائل الموثوقة والتي تتجافى عن قول الزور وتبين للناس جميعا قيمة الصدق الإعلامي². والوسيلة الإعلامية الصادقة هي الوسيلة التي تنقل الأخبار للناس كما وقعت دون تحريف أو تزيف بالزيادة أو النقصان وهي أسمى من أن تحتلق الأخبار الكاذبة وتروج للأخبار المغرضة قصد تشويه سمعة الناس أو بلبلة أفكارهم وعقولهم أو الحط من مكانتهم الاجتماعية.

والصدق سمة هامة من سمات رجل الإعلام المسلم في نشر الخبر وفي كتابة المقال وفي الحديث الذي يذاع؛ لأنه جوهر الدعوة الإسلامية ولبابها وصمام الأمان فيها، وكذلك كان من أعظم صفات الرسول ﷺ أنه الصادق الأمين. قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف: ((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ

¹ منهج الإعلام الإسلامي، سليم حجازي، ص 35-36.

² بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد عزت، ص 86.

صَدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا¹.

وقد بين الحديث أن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفاجر لا يتقي الله في هتك أعراض الناس بإشاعة قالة السوء عنهم، والترويج لأخبار الفتن والتشيط والتوهين التي يكون لها أثرها السلبي في صفوف الأمة وما من شك في أن وسائل الإعلام في العصر الحاضر تحاول أن تخرج عن نطاق واجبها الأصلي وعن مهمتها الأساسية التي وجدت من أجلها وهو الصدق والإنصاف والبعد عن الهوى والأمانة في نقل الأخبار وروايتها على حقيقتها إلى خلقها وتحريفها. يقول الدكتور عبد العزيز شرف محذرا من ذلك: ينبغي على وسائل الإعلام أن تروي الأخبار ليس عليها أن تصنعها. وحذار من رواية نصف الحقيقة دون الحقيقة كلها، وإلا حق على المندوب قول القائل، وما آفة الأخبار إلا روايتها فالخير لا بد أن تكون روايته صادقة كاملة دقيقة سليمة وبعيدة عن الهوى، ومسجلا لما وقع من أحداث والخبر سواء كان بسيطا مجردا أم طويلا مركبا هو ما اجتمعت له عناصر الصدق والواقعية، قبل أن تجتمع له مقوماته وتحتم علينا قواعد الإعلام الإسلامي مراعاة الصدق والدقة والموضوعية والإنصاف في بعض وجهات النظر المتباينة وهي القواعد المستمدة من القرآن الكريم².

وإذا كانت الحرب النفسية تركز على اختلاق أخبار وتحريف أخرى بالزيادة أو النقصان فإن الوسيلة المثلى لتجنبها وتجنب آثارها السيئة هو الالتزام بالصدق من طرف أبناء الأمة كلها حتى لا يبقى مجالا للمروجين يتحركون فيه بإشاعتهم للأخبار الكاذبة أو الوقائع المزيفة والمخرقة.

إن التزام رجل الإعلام بالصدق والتزام أبناء الأمة كلها بذلك يصد الأبواب في وجه المروجين والمرجفين بالأخبار الكاذبة ويظهر الجو من سموم الكاذبين والحاقدين على الأمة ويكشف زيفهم وحقيقة المنافقين المندسين للإيقاع والتشيط والتوهين حين تكسد بضاعتهم ولا يجدون لها رواجاً في أوساط الأمة

¹ مسند أحمد، أحمد بن حنبل، ج 1، ص 184.

² فن التحرير الإعلامي، عبد العزيز شرف، ص 146، ط 1، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، دت.

المتحلية بالصدق والدقة والموضوعية ومن ثمة يرد كيدهم إلى نحورهم. وتبوء حملاتهم بالبوار والخسران؛ لأنهم لم يجدوا آذانا صاغية لهم وأفواها تلوك كل ما يقال لها.

كما أن قيام رجل الإعلام بالتغطية الإعلامية التامة للأحداث دون إهمال أي جزء منها يفوت الفرصة على أولئك الذين يتحينون الفرصة لبث سمومهم وترويج شائعاتهم المميتة. كما أن إزالة الغموض ورفع الالتباس عن أي حدث من الأحداث التي تهم أفراد الأمة وإبرازه بالكيفية التي وقع بها من طرف رجل الإعلام يجلي الحقيقة ناصعة ولا يعطي فرصة للمروجين اللذين يستغلون الفراغ الإعلامي من جهة والغموض الذي يكتنف بعض الأحداث الهامة من جهة أخرى لبث الشائعات والدعايات وترويجها وتقديمها كمادة إعلامية للناس في أوقات الضيق والحرج التي يكونون فيها أحوج ما يكونوا إلى معلومات تفسر لهم تلك الأحداث التي تحيط بهم ومن ثمة يقبلون عليها دون ترو وتدقيق وتمحيص.

الفرع الثاني: التبين والتثبت

ومن الأخلاق الأساسية التي أشار إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لمقاومة الحرب النفسية، خلق التبين والتثبت.

والتبين فيه معنى التبصر والاستبصار والاستيضاح والتأكد من الأمر قبل الحكم له أو عليه.... والبيئة هي العلامة التي توضح الشيء سواء كان حسيا أم عقليا، وبينت الشيء أوضحته وأظهرته، وتبين الإنسان الشيء تأمله حتى ظهر له واتضح، وتبين الأمر تدبره على مهل غير متعجل ليظهر له جليا¹.

وفي المجال الأخلاقي فالتبين فضيلة من الفضائل التي دعا إليها القرآن الكريم وهدى إليها الإسلام؛ لأنها تؤدي للسير على البصيرة والتصرف بحكمة، وتصون من التهور والاندفاع، وشأن المؤمن أنه كَيِّس فطن وأنه يقدر لرجله قبل الخطو موضعها كما عبر القائل الحكيم. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَيْتُمْ إِلَيْكُمْ أَلَسْتُمْ مَوْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ

¹ موسوعة أخلاق القرآن، أحمد الشرباصي، ج3، ص16، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1981.

أَلَدُنْهَا بَعْدَ اللَّهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣﴾¹. وروي في سبب نزول هذه الآية أن مرداس بن نهيك من أهل فذك أسلم ولم يسلم من قومه غيره، فذهبت سرية الرسول ﷺ إلى قومه وأميرهم غالب بن فضالة، فهرب القوم وبقي مرداس لثقتة بالإسلام، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل، فلما تلاحقوا وكثروا كبر ونزل، وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد وساق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجدا شديدا وقال: قتلتموه إرادة ما معه².

ويتضح من سياق الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين في إصدار الحكم وترك فضيلة التبيين وقد كررها المولى سبحانه وتعالى مرتين في الآية تقوية للحث على هذه الفضيلة.

وفي الجانب الإعلامي فإن فضيلة التبيين والتثبت أؤكد لما يحاك للأمة من مؤامرات ويروج من شائعات وعليه فإن التمسك بهذا الخلق والاتصاف به يشكل الملاذ القوي للأمة من الأخبار الكاذبة والشائعات المغرضة، التي يروجها أعداؤها من اليهود والمشركين والمنافقين بل وحتى بعض أبنائها الفسقة؛ قال تعالى: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ قَاسٍۭ بَنِي تَبَيَّنُوا أَل تَصِيْبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا بَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿١٦﴾"³ وقد أبان الحارث بن ضرار الخزاعي عن سبب نزول هذه الآية فقال:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتي بصدقاتهم فلما بلغهم مجيئه ، أو لما استبطأوا مجيئه ، فإنهم خرجوا لتلقيه أو خرجوا ليلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح ، وأن الوليد بلغه أنهم خرجوا إليه بتلك الحالة وهي حالة غير مألوفة في تلقي المصدقين وحدثته نفسه أنهم يريدون قتله ، أو لما رآهم مقبلين كذلك على اختلاف الروايات خاف أن يكونوا أرادوا قتله إذ كانت بينه وبينهم شحنة من زمن الجاهلية فولّى راجعاً إلى المدينة... وأن الوليد جاء إلى النبي

¹ سورة النساء، الآية 93.

² مفاتيح الغيب، الرازي، ج 11، ص 189.

³ سورة الحجرات، الآية 6.

صلى الله عليه وسلم فقال: إن بني المصطلق أرادوا قتلي وأنهم منعوا الزكاة فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يبعث إليهم خالد بن الوليد لينظر في أمرهم... وفي رواية أخرى أنهم ظنوا من رجوع الوليد أن يُظن بهم منع الصدقات فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج خالد إليهم متبرئين من منع الزكاة ونية الفتك بالوليد بن عقبة... وفي رواية أنهم لما وصلوا إلى المدينة وجدوا الجيش خارجاً إلى غزوهم¹.

ومهما اختلفت الروايات فإنها تؤكد على معنى وهو الظن وعدم التبين والتثبت.

والآية صريحة في تأكيدها على التبين والتثبت (حتى لا يشيع في الجماعة المسلمة الشك في كل ما ينقله أفرادها من أنباء فيقع ما يشبه الشلل في معلومتها... فالأصل في الأمة المسلمة أن يكون أفرادها موضع ثقتها وأن تكون أخبارهم صادقة، أما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره وبذلك يستقيم الأمر للأمة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء ولا تعجل في تصرف بناء على خبر فاسق فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع).

(ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيأخذ خبره لأن هذا هو الأصل في الأمة المسلمة وخبر الفاسق استثناء والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره، أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة ومعطل لسير الحياة وتنظيمها)².

هذا وإن كثيرا من الشائعات تتناقل بين الناس ويروج لها دون التثبت من مصدرها بل ودون النظر إلى قائلها فتجد الناس يتحدثون بسمعة كذا وكذا ولو سألتهم من الذي قال هذا؟ وعمن نقله ومن صاحب الخبر الأول في القضية؟ لو فعل المسلم هذا وتساءل عن هذه الأمور المبدئية لتبددت كثير من الشائعات أو لوقف على اليقين مما يقال وعندها ينتهي الإشكال. إننا لو فعلنا هذا وتثبتنا مما نسمع

¹ التحرير والتنوير، طاهر بن عاشور، ج26، ص228.

² في ظلال القرآن، سيد قطب، مج6، ج26، ص3341.

ومما يقال لأوصدنا الباب في وجه المتربصين من أعدائنا وأبطلنا كيدهم ورددناه إلى نحورهم... قال تعالى: "وَلَا تَفُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا" ¹، فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن ومنهج الإسلام الدقيق... فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ولا يحكم العقل حكما، ولا يبرم الإنسان أمرا إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة، فلم يبق هناك شك ولا شبهة في صحتها². وقال ﷺ: ((كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع)) ولو استمسك المسلمون بهذه التوجيهات القرآنية والأحاديث النبوية لاتقوا شرا كثيرا مما يروج ويداع بينهم من أخبار مزيفة وشائعات مختلقة، ولو تأكدوا من مصادر أخبارهم وتبينوا من أقوالهم قبل النطق بها لأوقفوا كل مرجف عند حدّه ولحافظوا على وحدتهم وتماسكهم في وجه الأعداء الذين لا يدخرون وسيلة لحربهم وخداعهم وتضليلهم. فمن واجب المسلمين عامة، ومن واجب قادتهم خاصة السياسيين والإداريين والعسكريين على وجه الخصوص التدبر في جميع أمورهم، ودراسة احتمالاتها بدقة متناهية، بعيدا عن البت المرتجل؛ لأنه كثيرا ما يوقع في الزلل، وبعيدا عن أجواء مثيرات الانفعالات؛ لأن الانفعالات تغشى على البصيرة، فتمنع عنها الرؤية الصحيحة الدقيقة لمسالك العمل السياسي والإداري والعسكري والإعلامي، مثلما تغشى زوابع الغبار على الأبصار فتمنع الرؤية الصحيحة لمسالك الطريق³.

وكلّما صاحب هذا التدبر ودراسة الاحتمالات بدقة متناهية تبين وتثبت مما تنامي إلى أسماعهم من معلومات بخصوص العدو؛ لأنه قد يطلق سيلا من الشائعات تتضمن بعض المعلومات الصحيحة لتكون كستارة دخان في سبيل طمس الحقيقة والأخبار الصحيحة فيضطرب الخصم فيما وصله من معلومات لعلها من سبيل السيل الذي يسمعه من الشائعات وبهذا الأسلوب يصعب على الجانب الآخر اكتشاف الأسرار الحقيقية والأخبار الصحيحة من الأخبار الكاذبة فيتهاون في إعداد العدة

¹ سورة الإسراء، الآية 36.

² في ظلال القرآن، سيد قطب، مج4، ج15، ص2227.

³ مكائد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمان حبنكة الميداني، ص128.

اللازمة لمواجهة تلك الشائعات (وشياطين السياسة العالميون يجدون في القادة الذين توجه الانفعالات سياستهم مواطن ضعف كثيرة، يستطيعون التحكم فيها، وتوجيهها لما يشتهون، فإذا أرادوا توجيه خصومهم لجهة فيها مزالق كثيرة، أو شرور مستطيرة، اصطنعوا لهم أمرا يثيرون به انفعالاتهم، فتطيش مع الانفعال أحلامهم، وتضطرب أعصابهم، وتحتل تصرفاتهم فيبتون أمرا يؤدي بهم إلى التهلكة بينما تدور عقولهم ونفوسهم مع دوامة الانفعال الآني)¹.

وعليه فلا بد من التدبر في الأمور كثيرا، والتدبر لا يكون دقيقا محكما إلا إذا صاحبه خلق الثبوت والتبني من الأمور؛ لأن الأعداء قد يخلطون صدقا بكذب قصد التمويه والمخادعة وعليه فالتمحيص ضروري للتخلص من كيد الأعداء ومكرهم وخداعهم والأعيبهم الشيطانية.

الفرع الثالث: الحذر والحيلة

ومن الأخلاق الإسلامية التي يجب توافرها في الأمة عامة وقادتها خاصة لمقاومة الشائعات والتخلص من كيدها، خلق الحذر والحيلة، والحذر يدل على التيقظ والتحرز والانتباه، والرجل الحذور المتيقظ المتحرز، وحذرون خائفون، ولذلك قيل: الحذر احترازا من مخيف، والمتحلي بصفة الحذر يكون صاحب خشية فهو يقدر لرجله قبل الخطو موضعها، وهو لا يتكلم إلا عن تفكير وبصيرة، ولا يتصرف إلا عن تدبر وحكمة، وهو يحسب لكل أمر حسابه، ويعد لكل نازلة عدتها، فلا يأخذ على غرة، ولا يخدعه غيره بسهولة²؛ لأن الرسول ﷺ يقول: ((الْمُؤْمِنُ كَيْسٌ فَطِنٌ))³ والكيس العاقل المتبصر في الأمور، الناظر في العواقب⁴ وقال أيضا: ((لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ))⁵ وسبب هذا الحديث: أن النبي ﷺ أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر، فذكر له فقره وعياله، فمنّ عليه النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم

¹ مكائد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمان حبنكة الميداني، ص128.

² الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الخولي، ص213، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1982.

³ الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، ج4، ص161، حديث رقم 9158، ط2، دار الفكر، بيروت، دت.

⁴ الأدب النبوي، المرجع نفسه، ص213.

⁵ صحيح البخاري، البخاري، ج5، ص2271، حديث رقم 5782، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

وأطلقه بغير فداء، وعاهد ألا يحرض عليه ولا يهجو، فلهق بقومه، ثم رجع إلى التحريض والهجاء، ثم أسر يوم أحد، فسأله المن، فقال: لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سخرت بمحمد مرتين؟ وأمر به فقتل وقال ((لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ)) أي ليكن المؤمن حازما حذرا كيّسا فطنا لا يؤتى من ناحية الغفلة... ولعلك عرفت بهذا أن الإيمان لا يتفق والغفلة، بل يقتضي الحذر والحيلة وأن أولئك الذين يضحك عليهم، ولا يتعظون بالماضي ولا يستفيدون من التجارب، لم يكمل الإيمان في نفوسهم... فالمؤمن كيّس فطن، من خلقه الاعتبار لكل بلاء¹.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالحذر من اليهود وألأعيبهم الفكرية وحيلهم الإعلامية الذين يحاولون دسها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا؛ قال تعالى: "وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ" ² والله سبحانه وتعالى في هذه الآية يأمر نبيه بأن لا يتبع أهواء أعداء الإسلام من اليهود، فيما وضعوا له من مزالق وحذره من أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه بوسائلهم الخادعة الغادرة وحيلهم المغرية³، وأمر الله سبحانه وتعالى أيضا بالحذر من المنافقين فقال تعالى: "وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُمُوشٌ مُّسْتَنَدَةٌ يَّخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَلَّهْمُ اللَّهُ أَنْبَىٰ يَوْبَكُمْ" ⁴. وفي هذا توجيه شديد إلى واجب الحذر من المنافقين؛ لأنهم مخالطون محتبئون في الصف يعرفون مواطن القوة ومواطن الضعف، وخبيرون بالثغرات التي يمكن أن ينفذ منها العدو الخارجي، والحذر من هؤلاء المنافقين يكون بتجميد طاقتهم، وحجبهم عن كل مراكز التأثير وتسخيرهم في الأعمال التي ليس فيها نفوذ

¹ الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الخولي، ص 159-160.

² سورة المائدة، الآية 51.

³ مكائد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمان حبنكة الميداني، ص 120.

⁴ سورة المنافقون، الآية 04.

وسلطان وليس فيها قوة مادية تغريهم بالشر والفتنة ويكون أيضا بعدم الاستجابة لوساوسهم أو الإصغاء إلى حربهم النفسية المثبطة.

وفي الجانب الإعلامي فالحذر مطلوب من إيجاءات الأعداء وإلقاءاتهم وشائعاتهم التي يروجونها بين المسلمين. وإذا اتصفت الأمة بالحذر والحيلة تجاه كل ما يأتي من عدوها تمكنت من رد كيده وإفشال مخططاته الرامية إلى تشكيكهم في منهجهم الذي يتبعونه وقيادتهم التي تقودهم وسلامة ونبل الهدف الذي يعملون من أجل تحقيقه.

وركون المسلمين إلى من عرف منهم بالمكر وظهرت عليه أمارات الخداع والنفاق والذين لم تصفو قلوبهم للإسلام يهيئ لهؤلاء أوفر الشروط لسلوك سبل الخداع والمكر وإحكام الكيد، وهم في مأمن من رقابة المستهدفين بمكرهم وكيدهم.

والركون إلى هؤلاء لون من ألوان الغفلة المبالغة والجهالة المستحكمة والسذاجة القاتلة التي لا يرضاها الله لعباده، كما أنها ليست من صفات المسلم الحازم القوي البصير بنفسه، البصير بما يحيط به، الحذر من مكائد عدوه.

والركون إلى فرد أو جماعة لا يكون إلا أثرا من آثار الثقة بالفرد أو الجماعة أو الأمة والثقة إنما يولدها في النفس أخوة صادقة، أو تجربة شخصية طويلة، أو أخلاق عريقة عرفت بها أمة على مدى قرون عديدة، ومن المعلوم أن أيا من هذه الشروط غير متحققة في أعداء الإسلام لا سيما اليهود بل المتحقق هو عكسها تماما، فهم مخالفون في العقيدة، كما أن التجارب قد أثبتت أنهم ما يفتنون يكيّدون للإسلام والمسلمين ويتربصون بهم الدوائر ثم أن أخلاقهم الغدر والخيانة ورغبتهم عارمة في هدم الإسلام وتفتيت المسلمين، فكيف يصح الركون إليهم واطمئنان القلب لهم عند العرف الخبير بل إن الركون إليهم بعد كل هذا هو من جهة أولى عنوان الجهالة والغباء والانسياق وراء الشهوات الجاحمة، وهو من جهة أخرى دليل ضعف الإيمان¹ قال تعالى: "وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ

¹ مكائد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمان حبنكة الميداني، ص 123-124.

مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾¹، ومن الحذر عدم اتخاذ بطانة من الأعداء لقطع طريق الدس عليهم واستراق السمع وإثارة الفتن وقد نهي الله المسلمين عن اتخاذ بطانة من دونهم إذ كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، كما كان رجال من المسلمين يوادون رجالا من اليهود قد أظهروا الإسلام نفاقا وهم بكفرهم مستمسكون، ولباطلهم متعصبون منهم رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث وهما من أحبار يهود بني قينقاع وكان بعض المسلمين يوادونهما ويجلسون إليهما؛ لأن هؤلاء لا يتوانون في الدس بين المسلمين، ونشر أعمال الفساد التي تنال المسلمين بشر وأذى وقلوبهم تمتلأ حقدا وغيضا عليهم² قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ" ³.

والحذر والحيلة خلقان كفيلان بإراحة الأمة من كيد أعدائها ودسائسها؛ لأن الغفلة تمكن العدو من الولوج إلى داخل الأمة وبت سمومه وإذا لم تكن الأمة يقظة حذرة تمكن العدو من زعزعة صفها، وشق وحدتها وتشتيت شملها بما يبثه من سموم وينشره من شائعات فتاكة وخاصة إذا كان قريبا من دسا وسط الصفوف وبالتالي تكون له دراية كبيرة ومعرفة دقيقة بمدخل النفوس ونقاط الضعف ومن ثمة تكون سهامه مسددة إلى المقاتل ويفلح في تحقيق هدفه.

الفرع الرابع: الشورى

وهي من الفضائل الإسلامية التي ندب إليها القرآن وحضت عليها السنة النبوية المطهرة وهي من الدروع الواقية من سموم الحرب النفسية وفتكها؛ لأنها محكمة للتدبير الذي لا ينمو في ظل الاستبداد؛ لأنه يستدعي دراسة دقيقة للاحتتمالات وإحصاء جميع الأشباه والنظائر وحصر

¹ سورة هود، الآية 113.

² مكائد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمان حبنكة الميداني، ص122.

³ سورة آل عمران، الآية 118.

كل الأقوال وجمع كل ما يروجه الأعداء وتمحيصه وهذا ما لا يتأتى لفرد بمفرده، بل يحتاج إلى جماعة تتدارسه وتحصيه وتخطط لإعداد الوسيلة الملائمة للرد عليه.

والمشاورة مأخوذة من قولهم شرت العسل أشوره إذا أخذته من موضعه، واستخرجته وقيل مأخوذة من قولهم شرت الدابة شورا، إذا عرضتها والمكان الذي يعرض فيه الدواب يسمى مشورا كأنه بالعرض يعلم خيره وشره فكذلك بالمشاورة يعلم خير الأمور وشرها¹.

والشورى فضيلة قرآنية أرشد إليها الله سبحانه وتعالى وأمر بها نبيه ﷺ قال تعالى: "وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ"² قال الزمخشري: (يعني في أمر الحرب ونحوه مما لا ينزل فيه عليك وحي لتستظهر برأيهم ولما فيه من تطيب النفوس والرفع من أقدارهم... وقيل كان سادات العرب إذ لم يشاوروا في الأمر شق عليهم فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم)³. وتنمية ثقتهم فيه وكلها أمور تسد المنافذ في وجه الأعداء المتربصين. كما أن الشورى تحول دون التناجي بين بعض أفراد الأمة فيما بينهم مما يضطرهم إلى استخدام الكلمات الخافتة التي تتبنى الشائعات والدعايات المغرضة قصد التشكيك في القيادة وتحويلها في نظر الأتباع بل قد تتعدى ذلك إلى إشاعة الفاحشة عنها والتشهير بها وقذفها وشتمها وتحقيرها، وكل ذلك لا يعدو أن يكون نموذجا من الدعايات التي تزعزع ثقة الأتباع بقيادتهم، وتشيع فيهم روح الكسل والتهاون، مما يجعلهم لقمة سائغة لأعدائهم المهيين للاستفادة من كل غفوة يغفونها أو هفوة يرتكبونها.

وتوسيع قاعدة الشورى والالتزام بها كقاعدة أساسية من قبل القيادة هو ما يجنبنا من هذه الشرور وغيرها كثير، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((مَا شَاوَرَ قَوْمٌ إِلَّا هُدُوا لِأَرْشَادِ أَمْرِهِمْ))⁴، (وبما أن الإنسان -مهما علا شأنه- لا بد أن يخضع للمؤثرات الشخصية أو الأهواء الذاتية -إلا نبينا معصوما-

¹ مفاتيح الغيب، الرازي، ج 9، ص 67.

² سورة آل عمران، الآية 159.

³ الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، ج 1، ص 459، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

⁴ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، ج 5، ص 298، ط 1، مكتبة الرشد، الرياض، 1409 هـ.

فلا مندوحة له من استشارة ذوي الرأي السديد والرجوع إلى أهل الحل والعقد، ليساعده على تحليل حقيقة ما هو فيه ويشير عليه بما يروونه أقرب إلى الصواب وأدنى إلى تحقيق النجاح والظفر فإن أصاب فلن يخفض من شأنه عند الناس إنه قد عمل بمشورة كبار ذوي الرأي عنده، وإن أخطأ فيشترك معه وجوه ذوي الرأي في تحمل المسؤولية ويساندونه لمؤازرته وتخفيف أثر الصدمة عنه وعن الأمة إذا وقعت¹ وفي الشورى تجميع لكل طاقات الأمة حول قيادتها والاستفادة من خبراتها ومعارفها في ردّ كيد الأعداء وخاصة في مجال لإعلام والدعاية والشائعات التي أصبحت تستخدم فيها وسائل متقدمة يصعب على القيادة مواجهتها إذا لم تستعن بذوي الاختصاص والخبرة في الميدان، وهذا لا يكون إلا بإشراكهم في الرأي واستشارتهم والاستفادة منهم، ومن جهة أخرى فإن توسيع قاعدة الشورى تعصم الصف من التمزق والانشقاق الذي قد يؤدي إليه الاستبداد بالرأي من طرف فرد أو فئة قيادية، الأمر الذي يجد فيه العدو مدخلا يلج منه ويعكر على الأمة صفوها بالدس والدعاية والإشاعة والترويع فضلا عما تحققه الشورى من تماسك أفراد الأمة والتفافهم حول قيادتهم².

ومّا سبقت الإشارة إليه من أخلاق حميدة يتضح أن للمسلمين منهجا كاملا يقيهم من الحملات الدعائية المغرضة والشائعات المدمرة ويحصن الأمة ضد الدعاية الموجهة إليها في كل زمان، ويسد منافذ ولوج الأعداء المتربصين بها. ولعلنا بالإشارة إليها نكون قد وضعنا أيدي الباحثين على مفاتيح تمكنهم من الاستئناس بها لإجلاء المنهج الإسلامي وخاصة فيما يتعلق بمواجهة مكائد الأعداء وردّ دعايته المغرضة وشائعاته الهدامة وحرية النفسية الشرسة.

المطلب الثاني: طرق وأساليب مقاومة الحرب النفسية

إن المتتبع للمسيرة الإسلامية في عهد النبوة يجد أن المشركين واليهود والمنافقين، وكل من كانت له مصلحة في محاربة الإسلام، قد نظموا حربا دعائية مغرضة، تستهدف تخطيم وحدة الصف، وزعزعة ثقة المسلمين عن طريق التشكيك، واختلاق الأكاذيب والإشاعات وترويجه بين أبناء الصف المسلم.

¹ مكائد يهودية، عبد الرحمان حبنكة الميداني، ص131.

² الحرب النفسية من منظور إسلامي، أحمد نوفل، ص118.

وإذا كان بعض هذه الحملات الدعائية قد نجح في تحقيق أهدافه لبعض الوقت إلا أن النهاية كانت القضاء عن تلك الحملة الدعائية الشرسة، حيث تكفل الوحي السماوي برد الحرب النفسية إلى محور مروجيها، وتكذيب ادعاءاتهم وتسفيه أحلامهم. ووجه المسلمين إلى كيفية تحصين أنفسهم من تلك الحملة الدعائية المغرضة ومقاومتها. كما ساهمت التوجيهات النبوية والتصرفات الحكيمة الصادرة عن الرسول ﷺ مساهمة فعالة في مقاومة تلك الحملة الخبيثة.

ما أحرانا نحن مسلمي اليوم أن نتأسى بالسلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ، ونسير على نهجهم في هذا الصدد، حتى ننجح في مقاومة الحملات الدعائية التي تحيط بالإسلام والمسلمين من كل جانب، بهدف تخطيط الإسلام ووقف انتشاره وإذا كان الوحي السماوي قد انقطع ورسول الله ﷺ قد التحق بالرفيق الأعلى فإن آيات الله باقية وهدى رسول الله ﷺ في متناول أيدينا، وبإمكاننا أن نستخلص الكثير من القواعد والتوجيهات والأساليب التي يمكن استخدامها في زماننا هذا للاستئثار بها في دفع التأثيرات السلبية الناجمة عن الحرب النفسية وسمومها التي ينفثها أعداؤنا في الوقت الحالي، وسنحاول أن نقدم أهم تلك التوجيهات والقواعد والطرق والأساليب المستخلصة من الآيات القرآنية والتوجيهات النبوية والتصرفات الحكيمة للنبي عليه الصلاة والسلام علّها تكون نبراسا يضيء الطريق الوعر المحفوف بكيد الأعداء ومكرهم.

الفرع الأول: المسؤولية الجماعية في مقاومة الحرب النفسية

إن مسؤولية مقاومة الحرب النفسية تقع على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع وأدنى دور يمكن أن يقوم به الفرد من أفراد الأمة عدم الإصغاء للأعداء وترديد شائعاتهم ونقلها وبالتالي المساهمة في نشرها وترويجها. كما يجب على كل فرد إبلاغ الجهات المعنية والمسؤولة بكل تحرك دعائي أو شائعة مغرضة فور سماعها ومن ثمة يقضى عليها في مهدها قبل أن يستفحل أمرها وتنتهي عند الشخص الذي يقوم بتبليغ الجهات الرسمية المسؤولة والمعنية ولا تتعداه إلى غيره ممن لم يسمعوا بها ثم ينتظر الإجابة الصحيحة والتفسير السليم من المسؤولين والمعنيين الذين أبلغهم بذلك¹.

¹ الحرب النفسية من منظور إسلامي، أحمد نوفل، ص 137.

والقرآن الكريم يحضنا على ذلك ويرسم لنا الطريق المستقيم والسنام القويم في مواجهة الحرب النفسية ومن ذلك قوله تعالى ضمن التوجيهات التي وردت في مقاومة شائعة الإفك الدنيئة التي فعلت فعلها في صفوف المسلمين؛ لأنهم لم يلتزموا بتلك التوجيهات.

قال تعالى: "إِذْ تَلَفَّوْنَهُ بِالْإِسْتِكْمِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِ لَئِنْ سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾" ¹.

وهي صورة حيّة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام واختلت المقاييس واضطربت القيم وضاعت الأصول بسبب تلك الشائعة الخطيرة الخبيثة وهي صورة للخفة والاستهتار والتسرع، لسان يلوك وأذن تتلقى بلا تدبر ولا ترو ولا تفحص ولا إمعان نظر، إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستقر في المدارك وتمحصها العقول ويعتقد الناقل والمردد أن هذا الأمر يعفيهما من المسؤولية على أساس أنه قول شائع بين الناس مع أن لذلك عند الله وزر عظيم ينبغي أن تقشعر الأبدان وتجفل القلوب لمجرد سماعه وأن تحرس الألسن قبل النطق به وأن لا تستأنس به كموضوع للحديث والخوض، وفي النهاية تحذير من ترديد مثل تلك الشائعة والعودة لمثل هذا الأمر العظيم ².

هذا هو واجب المسلمين عند سماعهم لأي شائعة تردد بين صفوفهم في أي وقت من الأوقات أن يكفوا عن التردد والنقل وأن يعصموا أنفسهم من الوقوع في الزلل؛ لأن كثرة التردد يملأ بها المجتمع وتصبح هي الحقيقة وقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)) ³.

¹ سورة النور، الآية 15-17

² في ظلال القرآن، سيد قطب، مج4، ج18، ص2502-2503.

³ صحيح البخاري، البخاري، ج5، ص2377، حديث رقم 6113، باب حفظ اللسان. مسند أحمد، أحمد، ج14، ص135، حديث رقم 8411.

(وقد نقل عن ابن وهب أن المراد بها التلفظ بالسوء والفحش وقال القاضي عياض: يحتمل أن تكون تلك الكلمة من الخنى والرفث وأن تكون في التعريض بالمسلم أو بمجوس أو باستخفاف بحق النبوة والشرعية وإن لم يعتقد ذلك قال ابن عبد السلام هي الكلمة التي لا يعرف القائل حسناتها من قبورها فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبورها وقال النووي في هذا الحديث حث على حفظ اللسان، فينبغي لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقوله قبل أن ينطق، فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم وإلا أمسك)¹.

وتأسيسا على هذا الفهم وبناءا على هذه النصوص من القرآن والسنة النبوية يتضح لنا أن المسؤولية في الإسلام جماعية بالنسبة لمواجهة الحرب النفسية ودعاية الأعداء وشائعاتهم وكل أساليب مكدهم وخداعهم وأن كل فرد مسؤول أمام الله تعالى عما يقول وما يسمع وما يردد بين الناس وعليه أن يراقب نفسه قبل التلفظ بأي كلمة؛ لأن وزر ذلك عند الله عظيم جدا.

بل القرآن الكريم لا يطلب من المسلمين في مثل هذه المواقف تجنب التردد والنقل والترويج فقط بل يطلب منهم أكثر من ذلك، إبلاغ الجهات المسؤولة والمعنية بالأمر فور سماعهم وانتظار الرد الموضح والإجابة الصحيحة والتفسير السليم لتلك الحادثة وأن لا يعطوا لأنفسهم الحق في الخوض والتحليل والتفسير دون الرجوع إلى الجهات المعنية.

قال تعالى: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْرِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاغُوا بِهِءَ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا" ².

فقد كان في الصف من يتناول الشائعات فيذيع بها قبل الرجوع إلى قيادته التي يتبعها ويذيعها غير مدرك للمخاطر الناجمة عن تلك الإذاعة في خلخلة الصف وفتح الثغرات أمام الأعداء وخاصة في أوقات الحن والملمات والمصائب التي طالما استغلها رجال الدعاية واستثمروها لتحقيق أغراضهم

¹ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج6، ص31، دار المعرفة.

² سورة النساء، الآية 82.

وقد تكون قاصمة للظهر، فقد تجر كلمة عابرة وزلة لسان من العواقب على الشخص ذاته وعلى أمته كلها ما لا يخطر ببال المردد والمروج وما لا يمكنه تداركه بعد وقوعه بأي ثمن كان. والقرآن الكريم يدل المسلمين على الطريق الصحيح بأن يردوا ما يبلغهم من شائعات الأمن أو الخوف إلى رسول الله ﷺ في زمنه وإلى أولي أمرهم وقادتهم في كل زمان ومكان القادرون على استنباط الحقيقة واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة والملابسات المتراكمة التي لا يكون للرعية علم ولا دراية بها، والوقوف على كنه وحقيقة الدعاية وما يراد من ورائها وتهدف إليه¹.

ومهمة المسلم في دولته حين تبلغ إلى أذنيه شائعة من الشائعات أيا كان نوعها وحين يتحسس دعاية الأعداء أن يسارع إلى الجهات المسؤولة والمعنية فيخبرها بما تناهى إليه لا أن ينقلها ويروجها بين من لا شأن لهم؛ لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك التفسير الصحيح لتلك المقولات وتملك أيضا تقدير المصلحة في الإذاعة بهذا الأمر حتى بعد ثبوته أو عدم إذاعته².

ولنا فيما فعله في هذا الصدد زيد بن أرقم دليل على إحساس المسلم بالمسؤولية الملقاة على عاتقه حين سمع من المنافقين سارع إلى إخبار رسول الله ﷺ بصفته قائد المسلمين آنذاك، فعندما أشعل ابن أبي بن سلول تلك الفتنة الخطيرة للتفريق بين المهاجرين والأنصار في أعقاب غزوة بني المصطلق وانتصر المسلمون فيها، مستغلا الشجار الذي وقع بين جهجاه بن مسعود أجير عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسنان بن وبر الجهني من الخزرج فصّرّح الجهني يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين وقال ابن أبي قولته التي قالها لإحياء ما أماته الإسلام من نعرات الجاهلية وقد سمعه زيد بن الأرقم فذهب إلى رسول الله ﷺ: ((جنبا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالإيمان ويتخذونها جنة))³.

ونزلت سورة المنافقون وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم وتكذيب المنافقين الذين أقسموا ما قالوا تلك القولة الخسيسة الدنيئة. قال تعالى: "هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

¹ الشائعة من منظور الإعلام الإسلامي، علي العاتري، ص 147-148.

² في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 2، ج 5، ص 733-734.

³ المرجع نفسه، ج 28، ص 79.

حَتَّى يَنْقَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾¹ فأخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم وقال: ((هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِأُذُنِهِ))².

الفرع الثاني: التوعية والتفنيد استنادا إلى الحجج والبراهين المنطقية

ومما يساعد على مقاومة الحرب النفسية القيام بعملية التوعية بالنسبة للمجتمع ضد سموم الشائعات التي يروجها الأعداء والمرجفون وإشاعة الثقة في الناس وتنمية الوعي العام بين أفراد الأمة، وذلك عن طريق الندوات والمحاضرات والجلسات واللقاءات، واستخدام وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزة وغيرها، والتفنيد المحكم لهذه الحرب النفسية عبر هذه الوسائل المذكورة آنفا بالحجج المنطقية والبراهين الساطعة والوقائع الحقيقة التي لا تدع مجالا للشك واللبس.

ويجب أن ننبه هنا إلى قضية أساسية وهي أن وسائل الإعلام قد لا تكون لها مصداقية عند الشعب وبالتالي لا يصدقها عند قيامها بعملية التوعية وحتى الجهات الرسمية قد لا تكون محل ثقة المواطن وبالتالي فإن عملية التوعية التي تقوم بها السلطة عبر وسائل الإعلام بكل أشكالها قد لا تكون مجدية إذا لم تكن هناك ثقة كبيرة بين المواطن وقيادته ووسائلها الإعلامية وعليه فمسألة الثقة مسألة جوهرية في هذا المجال. لنا أسوة في رسول الله ﷺ حيث استخدم هذا الأسلوب (أسلوب التوعية والتفنيد) مرات عديدة عندما كان أعداء الإسلام يثيرون الفتن وينشرون الشائعات ومنها على سبيل المثال:

عندما مر شاس بن قيس اليهودي على قوم من الأوس والخزرج وغازاه ما رأى من صلاح ذات بينهم على الإسلام، فأمر فتى يهودي أن يجلس معهم ويذكرهم بيوم بعثت التي اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل الإسلام وما زال الفتى بهم حتى تنادوا للحرب وكاد يقع بينهم الصدام فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءهم وخطب فيهم قائلا: ((يا معشر المسلمين الله-الله، أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم

¹ سورة المنافقون، الآية 7-8.

² صحيح البخاري، البخاري، ج4، ص1862، حديث رقم 4623، باب: قوله "هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزان السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون".

بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم))¹.

ومن هذه الكلمة البليغة للنبي الكريم ﷺ عرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين وقد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى: "فَلْيَأْتِ كُلَّ الْمُكْتَبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ آوَوْا أَلَمْ يَكْتَبَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَالْهَرِيرِ ﴿١١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَبِكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾" ².

وفي هذه الرواية نلاحظ أن رسول الله ﷺ قام بتوعية أصحابه وتفنيد ما روجه المرجفون بينهم وإشاعة الثقة بينهم.

وفي شائعة الإفك حين أحس رسول الله ﷺ الخطر من هذه الشائعة، خطب في المسلمين يكذبها وقال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ. مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونِي فِي أَهْلِي وَيَقُولُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْحَقِّ ! وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُنَّ إِلَّا خَيْرًا، وَيَقُولُونَ ذَلِكَ لِرَجُلٍ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ إِلَّا خَيْرًا))³. ثم ما كان من حديث أسيد بن حضير من الأوس وسعد بن عباد من الخزرج، وكانت هذه الشائعة ستزداد استفحالا لولا أن حسمها القرآن الكريم ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها ونزل قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤﴾

¹ جامع البيان، الطبري، ج28، ص41. فتح القدير، الشوكاني، ج2، ص222.

² سورة آل عمران، الآيات 99-101

³ مسند أبي يعلى، أبو يعلى، ج9، ص316.

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَلٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾¹.

ونجد في هذه الحادثة أن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه مهمة التوعية والتفنيذ من خلال هذه الآيات الكريمة التي جاءت تعقيبا على هذه الشائعة، وكان رسول الله ﷺ قد خطب في المسلمين مقدما الأدلة والبراهين والحجج المدحضة لتلك الشائعة.

وعندما راجت الشائعات بعد توزيع غنائم هوازن على المؤلفة قلوبهم ولم يكن للأنصار منها شيء طلب رسول الله ﷺ من سعد بن عباد أن يجمع الأنصار، حيث تحدّث إليهم ﷺ وأوضح لهم الأمر في خطبة بليغة مستندة إلى البراهين والحجج المنطقية والحقائق الواقعية اختتمها بقوله: ((أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّائَةِ وَالْبُعْبُعِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ))² وقد أطفأ كلامه ﷺ كل ما في قلوب الأنصار من موجدة وعتب وإذا عيونهم تفيض بالدمع حتى بللت لحاهم وقالوا رضيينا برسول الله قسما وحظا وبذلك قضى على تلك الشائعة التي عمل المنافقون على إشعالها لتوغر صدور الأنصار على قائدهم، وتنفرهم منه وتضعف إيمانهم بعقيدتهم ببياناته وتوضيحاته وحججه المنطقية وبراهينه الساطعة التي قدمها كدليل على ما قام به بالنسبة لتوزيع غنائم هوازن على غيرهم.

¹ سورة النور، الآيات 11-18.

² مسند أحمد، أحمد بن حنبل، ج18، ص255، حديث رقم 11730.

الفرع الثالث: الأفضل أن يكون التكذيب من شخصيات كبيرة ومعروفة ومحبوبة

إن سريان الشائعة وانتشارها لها تأثير سلبي ومن الأحسن أن يتصدى لتكذيبها رجال معروفون ولهم مكانتهم في الأوساط الشعبية وشخصيات محبوبة لدى الجماهير حتى يكون لكلامهم تأثير بالغ ومن ثمة يستلون من القلوب ما تسرب إليها من إلقاءات وإجاءات المرجفين ويصدقهم الناس في كلامهم ويكفوا عن الترويج والإشاعة طالما أنهم سمعوا تكذيبا من مصادر موثوقة وصادر عن رجال لهم فيهم الثقة التامة¹.

وقد رأينا في النماذج السابقة أن رسول الله ﷺ وهو الشخصية الفذة والمعروفة والمحبوبة في الأوساط الكافرة والمنافقة، يتصدى بنفسه لمواجهة تلك الشائعات وتفنيدها وتكذيبها بالأدلة وتكذيبها بالأدلة والبراهين القاطعة ولم يدع أي مجال للشك وقضى على تلك الشائعات في مهدها وأنقذ المسلمين من أضرارها وأوزارها وجنبهم مخاطر جمة كان يمكن أن تنجم عن التردد والإشاعة بل وجدنا جانبا منها كاد أن يستفحل ويحدث شرخا كبيرا لولا أن حسمها القرآن الكريم نفسه.

والقادة والزعماء والموجهون والمربون مطالبون بالتصدي بذواتهم لما يروج من شائعات ولكن شريطة أن يكون للناس ثقة فيهم وإلا انعكست الأمور حيث أنه طالما تأكدت شائعة لدينا بمجرد سماع تكذيب من مسؤول ما لأن الثقة منعدمة ومن ثمة يكون التكذيب منه دليلا قاطعا على ثبوت تلك الشائعة.

وقد رأينا من صور اهتمام الدول بمقاومة الشائعات أنها تخصص لها أكفأ رجالها وأجهزتها الإعلامية والاستخبارية والمنظمات الشعبية والسياسية لكبح تقدمها وتغلغلها في الأمة، ومكافحتها ورأينا أن رئيس دولة أمريكا بنفسه كان يخصص جزءا من وقته اليومي لمناقشة وتفنيد ما يدور من شائعات على ساحة المعارك بين قوات بلاده وقوات المحور².

¹ الشائعة من منظور الإعلام الإسلامي، علي العاتري، ص153.

² الحرب النفسية، أحمد نوفل، ج1، ص104.

الفرع الرابع: عدم إعادة الشائعة أثناء تكذيبها

إن محارب الشائعة قد يواجه موقفا حرجا ويقع في ورطة حيث إنه لو سكت عن الشائعة ازدادت انتشارا ورواجا وشيوعا ولو حاول تكذيبها - وهي أكثر الطرق استخداما- إلا أنها ليست الطريقة المثلى لأن تكذيبها يتضمن الإعلان عنها وسيجعل من لم يسمع بهذه الشائعة يسمعها عن طريق المكذب نفسه زيادة على أن من يقوم بالتكذيب يكرر الشائعة ويردها وبالتالي يساهم في نشرها وإشاعتها وهو المتصدي لمحاربتها وهناك أناس يصدقون الشائعة ولا يصدقون تكذيبها.

يقول الدكتور عبد القادر حاتم: وكثيرا ما يجد رجل الدعاية أن من الصعب محاربة الشائعة فلو سكت عليها قد تزداد انتشارا ولو حاول تكذيبها فسيجعل من لم يسمع هذه الشائعة يسمعها عن طريقه هو. ولذلك فإن الوسيلة المثلى لتكذيب الشائعة غما أن يكون بطريق غير مباشر أو يكشف مصدر الشائعة ومقصد العدو فيها، وهذا يتطلب مهارة من رجل الدعاية، كما يمكن مقاومتها بوسيلة خلق الوعي ضد شائعات العدو¹.

ويتضح مما مر معنا أن الوسيلة الناجعة والطريقة المثلى في رأي خبراء علم النفس والاجتماع والإعلام لمحاربة الشائعات أن يكون التكذيب بطريق غير مباشر دون إعادة سرد الشائعة من جديد بكل تفاصيلها، أو يكشف مصدر ومقصد مروجيها منها وخاصة إذا كان مصدر الترويج محل ثقة لدى الجماهير وهذا ما يتطلب مهارة وخبرة كبيرتين ممن يتصدى لهذه المهمة، الأمر الذي لا يتأتى لكل من هب ودب ومن ثم ذكرنا في النقطة الأولى في حديثنا عن هذه الأساليب أنه يجب إبلاغ أولي الأمر بالشائعة حتى يتسنى لهم مكافحتها وتكذيبها وإيقاف انتشارها والحد من رواجها.

ومن الأمثلة الواضحة في حياة النبي ﷺ ما فعله ﷺ عندما عمل على التصدي للشائعة التي عمل على ترويجها شاس بن قيس اليهودي بين الأوس والخزرج حيث أوضح ﷺ أن أصل هذه الشائعة دعوى جاهلية تستهدف الوقعة بينهم ولم يشر ﷺ إلى تفاصيل الشائعة. بل أشار إلى مروجها وهدفه منها².

¹ الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية، عبد القادر حاتم، ج2، ص98.

² الشائعة من منظور الإعلام الإسلامي، علي العاتري، ص154.

وكذلك قوله ﷺ في تكذيب شائعة الإفك: ((ما بال رجال يؤذوني في أهلي ويقولون عليهن غير الحق))¹ حيث إنه لم يصرح بتفاصيل وقائع شائعة الإفك وما لاكته الألسن وتناقلته الأذان واكتفى بالتكذيب بطريق غير مباشر وركز على عفة وطهارة أهل بيته وأشار أيضا إل مصدر الترويج وهدف المروج الخبيث الماكر.

كما نلاحظ أن القرآن الكريم لم يشر في آياته إلى تفاصيل تلك الشائعة وتعرض لها بطريق غير مباشر و أشار فقط إلى التوجيهات والآداب التي كان يجب أن يتحلى بها المسلمون في مثل هذه الحالات وتضمنت الآيات التنفيذ القطعي للشائعة دون إعادة سرد ما روجه المنافقون ولاكته ألسنة بعض المؤمنين أيضا.

الفرع الخامس: تحويل الأنظار عن الشائعة إلى مجالات أخرى مفيدة

من أهم الأساليب الناجحة لمقاومة الشائعة تحويل الأنظار عن الشائعة إلى مجالات أخرى مفيدة للناس تستوعب جهدهم وتفكيرهم فلا تدع لهم الفرصة اللازمة للخوض في الشائعة ونقلها من شخص إلى شخص، وبعبارة أخرى شغل الناس بما يفيدهم وعدم تركهم في حالة فراغ؛ لأن ذلك الفراغ يعد مجالا لانتشار الشائعات فرصة للترويج عن أنفسهم والتنفيس عنهم... وكما يقال الجند البطال مصدر للمشاكل².

ولا نقصد من ذلك ما تعتمد إليه بعض الدول حاليا من محاولة شغل الناس بما لا يفيد وصفهم إلى أمور تافهة كالتعصب الأعمى لفرق كرة القدم مثلا أو إلى الاشتغال بالغناء والرقص عن طريق إقامة الحفلات والسهرات أو ما شابه ذلك قصد شغلهم بهذه التوافه عن التفكير فيما يرتكبه حكام تلك الدول في حماقات ضد مصلحة شعوبهم أو لتغطية عجزهم عن تلبية حاجات مواطنيهم الملحة كالطعام والشراب والمسكن...إلخ، أو لصرفهم عن التفكير فيما هم فيه من نكبات حلت بهم نتيجة لجهل حكامهم واستبدادهم والبطش بخصومهم لا لشيء إلا لمجرد أنهم يعارضون سياساتهم أو يجادلونهم بالحجة والرأي السديد.. وإنما المقصود بتحويل الأنظار عن الشائعة إلى المجالات المفيدة

¹ أحاديث أم المؤمنين عائشة، مرتضى العسكري، ج4، ص83، ط5، مطبعة صدر، بغداد، 1994.

² بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد عزت، ص69.

التي تعود على المواطنين بالنفع والفائدة من ناحية، وتساعد على صرفهم عن التفكير في تلك الشائعة والانغماس في ترديدها ونشرها ويقضي على الشائعة ويتم إنقاذ المواطنين من شرورها وأضرارها¹.

ومما فعله رسول الله ﷺ للقضاء على الأوضاع الخاطئة التي نتجت في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث أمر الناس بالسير في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرحل فيها ومتابعة السير حتى الإعياء ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الجهني يا للأنصار وصياح جهجاه يا للمهاجرين بعد الواقعة التي أحدثها بينهما ابن أبي بن سلول وكادت تؤدي إلى ما لا يحمد عقباهن وليصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار عن ذلك فقد مشى بهم فلم يلبثوا أن وقعوا نياما من التعب، فانشغلوا بذلك عن الخوض في تلك الشائعة التي كادت توقع بين المهاجرين والأنصار وتفسد ما كان بينهم من مودة والصفاء في ظل الأخوة الإسلامية النادرة².

وواضح أن رسول الله ﷺ شغل الصحابة رضوان الله عليهم عن الحديث في ذلك الأمر والتفكير فيه بالسير الطويل الذي أتعبهم فاستسلموا للنوم مباشرة ولم يترك لهم الفرصة للخوض وترديد لما قاله المنافق ابن أبي بن سلول وفي كلا الأمرين السير والنوم فائدة ومنفعة لذلك الجيش العائد من الغزو.

الفرع السادس: إحباط الشائعة بالحجج أفضل من التكذيب

لقد مر معنا في النقطة السابقة أن تكذيب الشائعة بطريق مباشر عمل غير مجدي وقد يؤدي ذلك إلى انتشارها كما أن إذاعتها أثناء التكذيب يساهم في رواجها من جديد بين الناس ومن ثم نصح في حاجة إلى تكذيب جديد، كما أن نفي الشائعة من أساسها وتكذيبها نهائيا بحجة لا أساس لها من الصحة أمر صعب التصديق والمثل السائد يزعم أن وجود الدخان يقطع بوجود نار، والشائعة كما مر معنا سابقا قد تحمل جزءا ولو ضئيلا من الواقع ومن ثمة فإن التصدي لها بدعوى أنها مختلفة لا يحقق كثيرا من النتائج المرجوة بل يفقد ثقة الناس في الجهات المتصدية للتكذيب والرد على الشائعات بحقائق ساطعة ووقائع ناصعة تحمل التكذيب وتقضي على الشائعة دون الإشارة إليها وإعادة ذكرها.

¹ بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد عزت، ص 69.

² البحر المديد، أحمد الحسني الإدريسي، ج 8، ص 49 وما بعدها، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

والشائعة تترعرع في حالة نقص الأخبار ولذلك يجب علينا أن لا نتوانى عن نشر الأخبار بصدق وصراحة وبصفة كاملة لأن الشائعة تنتشر دائما عندما لا تكون هناك أخبار، وقد كانت الشائعات مشكلة تثير قلقا عاما بالغا بين عامي 1942-1943 الذين سادها التوتر في الحرب العالمية الثانية ففي ذلك الوقت قد مسؤول كبير في مكتب مصلحة الاستعلامات الأمريكية تعليلا لوجود الشائعات واقتراحا بكيفية السيطرة عليها وكان هذا التعليل وذلك الاقتراح صائبين إلى حد ما فقد قال: (إن الشائعة تنتشر إذا انعدمت الأخبار ولذلك يجب علينا أن نقدم للناس أدق الأنباء الممكنة كاملة وبسرعة)¹.

ويمكن اللجوء إلى وسيلة أؤكد من نشر الأخبار الصادقة للقضاء على الشائعات وخاصة في بعض المواقف الحرجة وهي المظاهر العملية الحية التي تتضمن التكذيب القطعي للشائعة دون ذكرها.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك: (أنه لما شاع المشركون في غزوة أحد أنهم قتلوا رسول الله ﷺ ففرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل اختلطت على الصحابة أحوالهم نتيجة لهذه الشائعة الخبيثة رأى رسول الله ﷺ أن أمضى سلاح يقضي على هذه الشائعة دون أن يعيد ذكرها هو الظهور بشخصه حتى يراه الجميع وتحمد الشائعة ويعود المسلمون إلى ميدان المعركة لذلك أخذ يصيح بالمسلمين: إلي عباد الله... إلي عباد الله ومضى يدعو ﷺ المسلمين حتى تجمعوا حوله من جديد بعد أن رأوا بأعينهم رسول الله ﷺ بآذانهم كلامه وفي هذا دليل قاطع على تكذيب الشائعة دون إعادة لذكرها واكتشف المسلمون أنهم خدعوا بتلك الشائعة وفرحوا أن رسول الله ﷺ ما زال حيا، وعاد إليهم حماسهم وحاربوا المشركين من جديد حتى ردوهم مدحورين خاسرين)².

¹ الرأي العام وتأثيره بالإعلام والدعاية، عبد القادر حاتم، ص181 نقلا عن كتاب قرن من الصراع

Stefian Possony: A century of conflict. First ed, 1955, p.48

² البداية والنهاية، ابن كثير، ج17، ص68. تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج2، ص67.

وواضح أن ظهور رسول الله ﷺ بشخصه الكريم في تلك الظروف الحرجة يتضمن أدق وأعرق تكذيب لما روج عن قتله ﷺ يقول الدكتور محمد الصادق عفيفي وهو يتحدث عن هذه الحادثة¹: وقد حدث في غزوة أحد أن أطلق المشركون سهما من سهامهم الغادرة مفاده أن رسول الله ﷺ قد قتل فأحدث ذلك اضطرابا في صفوف المسلمين فسارع رسول الله ﷺ يهتف ويذيع في الناس بصوته الكريم ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))².

و المثال الثاني الذي يجسد هذه الوسيلة الناجحة في مقاومة الشائعات ما حدث في عمرة القضاء حين أشاع المشركون أن رسول الله ﷺ وأصحابه يعانون عسرة وجهدا واصطفوا عند دار الندوة ليتشفوا منهم و يروا ما بهم من الجهد والمشقة والضعف والهزال قول ابن الأثير وهو يصف ذلك الحدث الهام (فلما سمع أهل مكة خرجوا عنها وتحدثت قريش بينها أن النبي ﷺ وصحابته في عسر وجهد وحاجة فاصطفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه ولأصحابه معه فلما دخلها اضطبع بردائه فأخرج عضده اليمنى ثم قال: رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه)³.

(وقد قصد رسول الله ﷺ بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضطباع والهرولة ورفع الأصوات بالتلبية، أين يهرب قريشا، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم ومناعة جهتهم)⁴، والرد على ما أشاعوه حوله وأصحابه من أنهم يعانون جهدا وعسرة ومشقة وهو تكذيب عملي دقيق، مقنع، ومكبت.

الفرع السابع: البحث عن مصادر كل دعاية وشائعة والقضاء عليها في مهدها

تتسم الشائعة والدعاية بسرعة السريان والانتشار ومن ثمة كان من أهم الأساليب والطرق التي استخدمها الإسلام لمكافحة البحث عن مصادرهما والقضاء عليها في منبعها قبل أ، يستفحل أمرها

¹ الإسلام والعلاقات الدولية ، محمد الصادق عفيفي، ص216، ط2، دار الرائد، بيروت، دت.

² كنز العمال، المتقي الهندي، ج10، ص720، حديث رقم 30051، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1989.

³ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج2، ص154. والروض الأنف، عبد الرحمان السهيلي، ج4، ص69.

⁴ منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، سليم عبد الله الحجازي، ص314.

ويعظم خطرهما وقد عمل الإسلام على كشف المدبرين للشائعات وكشف المروجين لها قبل مباشرتهم للإذاعة والترويج.

ومن أمثلة ذلك ما فعله رسول الله ﷺ عندما كان يتجهز للخروج إلى تبوك لحرب الروم... فقد بلغه: أن أناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يشبطون الناس حتى لا يخرجوا في هذه الغزوة... فتصدى رسول الله ﷺ لمصدر الشائعة وقضى عليها في منبعها، حيث بعث إليهم طلحة بن عبيد الله مع نفر من الصحابة وأمره أن يحرق عليهم البيت. فنفذ طلحة ما أمره به رسول الله ﷺ وتخلص المسلمون من الشرور التي تنبعث من تلك البؤرة الفاسدة ولما خرج ومعه جيش المسلمين إلى تبوك أخذ بعض المنافقين يشيرون إليهم ويقولون: أتחסبون جلاد بني الأصفر (يعني الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا. والله لكانا بكم غدا مقرنين في الجبال... وذلك إرجافا وتوهينا للمؤمنين فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن رأى ضرورة القضاء على هذه الشائعة في مهدها فقال ﷺ لعمار بن ياسر: ((أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بل قلت كذا وكذا" فذهب إليهم عمار وقال لهم ذلك... "فأتوا رسول الله وقالوا يا رسول الله إنا كنا نخوض ونلعب"))¹ فأنزل الله عز وجل في ذلك: "وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَلَ إِبْرَاهِيمَ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ"² ومن خلال ما ورد سابقا يتضح جليا أن النبي ﷺ أراد نهائيا على منابع تلك

الشائعات قبل استفحالتها وخاصة في تلك الظروف العصيبة التي كان المسلمون يمرون بها أثناء تجهيز جيش العسرة وعليه فلم يعط فرصة للمبشرين والمرجفين وأخذ نيرانهم في مهدها وأبطل كيدهم في حينه وفضحهم أمام الملأ وأثبت كذبهم ونفاقهم حتى لا تصغي إليهم أذن (ويردد ما قالوه لسان بل تجاوز ذلك إلى حد حرقهم واستئصال شافتهم نهائيا كما في الحادثة الأولى) ومن الأمثلة على ذلك (موقف رسول الله ﷺ من مسجد الضرار الذي بناه المنافقون للالتقاء فيه وحدهم بعيدين عن الأنظار، والكيـد

¹ السيرة النبوية، ابن هشام، ج2، ص524.

² سورة التوبة، الآية 65.

للإسلام تحت ستار التجمع على العبادة... فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك وتخرج موقف المنافقين وانكشفت خباياهم أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد، وأمرهما أن يحرقاه ويهدماه، ونفذ الصحابييان الأمر، ودمر آخر ما شيد النفاق من حيل¹ ونزل في ذلك قوله تعالى: "الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيفًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّفْوِيءِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٢﴾" وهذا المسجد (مسجد الضرار) لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين والكفر بالله وستر المتأمرين على الجماعة المسلمين، الكائدين في الظلام والتعاون مع أعداء الدين على الكيد له تحت ستار الدين³.

ولا شك أن النبي ﷺ ما فعل ذلك إلا قضاء على مركز للنفاق ومصدر لإثارة الفتن وبث السموم والشائعات المنظمة ومن ثم قضى على البؤرة نهائيا بحرق المسجد وتهديمه حتى لا يبقى مجعاً للمنافقين والمرجفين والكائدين لدين الله يجتمعون فيه ويخططون ويدبرون للقضاء على الإسلام وأهله.

الفرع الثامن: تنمية الثقة بالنفس والإيمان بالله ونصره

من الأساليب التي اعتمدها الإسلام لمقاومة الشائعات تنمية الثقة بالنفس والإيمان بالله ونصره والصمود وعدم اليأس وحث الناس على المساهمة الإيجابية في كل مجال يقول الدكتور إبراهيم إمام: (يبدو أن خير وسيلة لمقاومة الشائعات ومواجهة الحرب النفسية هي تحصين الشعب عن طريق دعم إيمانه بوطنه وأهدافه وتوعية الجماهير وإيقاظ الضمائر وهي مهمة لا بد وأن تتضافر على أدائها هيئات التربية والتعليم والثقافة والإعلام والتنظيمات السياسية إن التعبئة النفسية للجماهير وتمسكها بأيدولوجيتها عن إيمان واقتناع من أهم الدعائم الضرورية لمواجهة الشائعات والحرب النفسية)⁴.

¹ فقه السيرة، محمد الغزالي، ص 448-449. السيرة النبوية، ابن هشام، ج 4، ص 173-174.

² سورة التوبة، الآية 107-108.

³ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 3، ج 11، ص 1710-1711.

⁴ الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، ص 306.

ومع نقلنا لكلام الدكتور إبراهيم إمام إلا أن لنا عليه بعض التحفظات. فالإيمان كما يراه المؤمن هو الإيمان الشامل لكل ما يجعل المؤمن في هذه الحياة عبدا خالصا لله تعالى، وليس الإيمان بالوطن فقط كما يقول الدكتور إمام فالوطن في مفهوم المؤمن هو جزء يسير من الحياة الشاملة التي يجب أن تكون كلها لله.

فالمؤمن يعيش في هذا الوطن أو بعبارة أصح في هذه الأرض مستخلفا فيها من قبل الله عز وجل ليقوم العدل ويحكم فيها بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ويغير هذا المفهوم الحقيقي للإيمان الذي يقره الإسلام ويحرص عليه ويوحى به، ومن توجيهات الإسلام في هذا الصدد أن مشركي مكة أطلقوا الشائعات ضد رسول الله ﷺ وقالوا أنه ساحر قصد تشويه شخصيته في نظر أتباعه وفي نظر الذين يتطلعون لأتباعه، ليصرفوا عنه وعن الإسلام... لذلك كان رسول الله ﷺ يثبت عناصر الثقة في قلوب رجاله ويقبض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب. وقد اتخذ المستهزون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم وكان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ يتغامزون بهم ويقولون قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا على ملك كسرى وقيصر ثم يصفرون ويصفقون¹. ومن ذلك أيضا ما أورده ابن إسحاق: فَلَمَّا اسْتَقَلَّ رَسُولُ اللَّهِ؟ وَسَارَ، لَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ النُّبُوَّةِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ رُحْتُ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ، مَا كُنْتُ تَرُوحُ فِي مِثْلِهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ الْجُزْءُ الثَّانِي؟ {أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟ قَالَ: وَأَيُّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ؟ قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ تُخْرِجُهُ مِنْهَا إِنْ شِئْتُ. هُوَ وَاللَّهُ الدَّلِيلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. أَرْفُقْ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَنَا اللَّهُ بِكَ، وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظِمُونَ لَهُ الْحَزَرَ لِيُتَوَجَّهُوا، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّكَ قَدْ اسْتَلَبْتَهُ مُلْكًا². ومن هذا الحديث تتضح التعبئة الروحية ضد الشائعات وتنمية الثقة بالنصر.

¹ تفسير روح البيان، لإسماعيل الإسنوي، ج4، ص327، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

² السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص304.

ومن المواقف أيضا التي حرص عليها الرسول ﷺ على بث الثقة في روح جنود المسلمين: أنه عندما اشتد الكرب على المسلمين، وهم محاصرون بالمشركين داخل الخندق في غزوة الأحزاب روج المنافقون شائعات الخوف في صفوفهم وزاد من كرههم ما جاءهم من الأخبار بنقض بني قريظة معاهدتهم مع رسول الله ﷺ، وانظموا إلى الأحزاب، هنا تجلت حكمة القائد المؤيد بوحي السماء، فأخذ يث روح الأمل والحماس في نفوس جنده، ويبشّرهم بفتح الله ونصره¹ وقال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُفَرِّجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنَ الشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ فَإِنِّي لَأَرْجُو أَنَّ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ آمِنًا وَأَنْ يَدْفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ وَلِيَهْلِكَ اللَّهُ كِسْرَى وَفَيَصَرَ وَلَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ))².

ومن هذا الحديث يتبين ما كان يقوم به رسول الله ﷺ في الظروف الصعبة والأوقات الحرجة من إشاعة الأمل وبث الثقة في نصر الله وتأييده لهم في أوقات المحن والملمات والمصائب.

وللظروف العصيبة التي اكتنفت إعداد جيش العسرة الذهاب إلى تبوك لحرب الروم نزلت آيات تتعلق بهذه الغزوة، وهي أطول ما نزلت في قتال بين المسلمين وخصومهم، وتفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة... وقد بدت تلك الآيات باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام، وإفهام المسلمين مغبة تقصيرهم في أداء الفريضة، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه، قال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا فِيلَ لَكُمْ إِنهَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٨﴾ إِلَّا تَنْهَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾"³ ومضت الآيات تتحدث في صراحة وعن ففضحت المنافقين، وكشفت المترددين، وأهانت طلاب الدعة والراحة، الذين آثروا ظل القعود في بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء وعناء السفر ومتاعب الجلال⁴.

¹ فقه السيرة، محمد الغزالي، ص 326

² السنن الكبرى، البيهقي، ج 9، ص 31، حديث رقم 18320، باب من ليس للإمام أن يغزو به بحال.

³ سورة التوبة، الآية 38-39

⁴ فقه السيرة، المرجع نفسه، ص 437.

وقال تعالى: "بَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْهَازُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدَّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ" ¹.

كما أن رسول الله ﷺ كان يحث أهل الغنى على إخراج ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته من الرواحل والخيول والسلاح في سبيل الله، ومنهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أنفق في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، وتقدر هذه النفقة بألف دينار، حتى أن رسول الله ﷺ عجب من كثرة ما أنفق وقال: ((اللهم ارض عن عثمان فيني راض عنه)) ².

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد ونحن نسوق اهتمامات رسول الله ﷺ ببث الثقة في نفوس أصحابه ووعدهم بنصر الله لهم حتى في أحلك الظروف شدة - وهي ظروف الحرب - كما سبق ذكره لم يعمد رسول الله ﷺ إلى خداع أتباعه والتغريب بهم بالكلام المعسول، أو يمينهم بأمانى تخدعهم ويعددهم بوعود كاذبة كما يفعل أعداء الإسلام بل كان رسول الله ﷺ لا يقول إلا الصدق والحق، وقد تحققت كل كلمة نطق به ﷺ في تلك المواقف جميعا وعلم المسلمون مدى صدق رسول الله ﷺ عندما كان يتكلم عن المستقبل المشرق والنصر المظفر والفتح المبين من خلال مواقف حرجة وظروف صعبة لا توحى ظواهرها بأي خير للمسلمين ³.

الفرع التاسع: الإجهاز على دابر الشر بقطع أسبابه وحسم علته

وهو أسلوب حاسم في القضاء على الشائعات وغيرها مما يحيكه العدو من مؤامرات، قد تبدو صغيرة فإذا أهملت نمت واستفحل أمرها وتعاضم خطرها، وعليه لا بد من البحث عن الأسباب والدوافع الحقيقية التي تحرك هذا الشر وتغذيه وبتريها ولا ندع لها أثرا لأنه متى استفحل الشر صعب استئصاله وتشعبت أسبابه وتكاثرت علله وعظمت في البلاء نتيجته.

¹ سورة التوبة، الآية 82.

² الروض الأنف، عبد الرحمن السهيلي، ج7، ص386.

³ بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد عزت، ص75.

والأمثلة التي جاءت في سيرة النبي ﷺ قتله للشاعرين اليهوديين الذين سلطا لسانيهما لهجاء النبي ﷺ والتحريض على قتاله وقد كان الشعر أهم وسيلة إعلامية تستخدم للتحريض وإثارة الشائعات آنذاك، وهما أبو عفك وكعب بن الأشرف.

أما أبو عفك فقد كان شيخا كبيرا يقول الشعر هاجيا للنبي ﷺ ويحرض على قتاله فنارت ثائرة أحد المؤمنين اسمه (سالم بن عميرة) فنذر أن يقتله أو يموت دونه ثم مازال يترصد به حتى قتله¹.

وأما كعب بن الأشرف فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ وكان يشبب في أشعاره بنساء الصحابة فلما كانت وقعة بدر ذهب إلى مكة وجعل يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين ثم رجع إلى المدينة على تلك الحال، فقال رسول الله ﷺ: ((مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟)). فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ قَالَ: «قُلْ». فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَحَدَنَا بِالصَّدَقَةِ وَقَدْ عَنَّا وَقَدْ مَلَأْنَا مِنْهُ فَقَالَ الْحَبِيبُ لَمَّا سَمِعَهَا وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمْلُئُنَّهُ أَوْ لَتَمْلُنَ مِنْهُ وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَمْرَكُمْ سَيَصِيرُ إِلَى هَذَا قَالَ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُسَلِمَهُ حَتَّى نَنْظُرَ مَا فَعَلَ وَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ نَدْعَهُ بَعْدَ أَنْ اتَّبَعْنَاهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيْ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ وَقَدْ جِئْتُكَ لِتُسَلِّفَنِي تَمْرًا... فَجَاءَهُ لَيْلًا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَقَامُوا فِي ظِلِّ النَّخْلِ وَأَتَاهُ مُحَمَّدٌ فَنَادَاهُ: يَا أَبَا الْأَشْرَفِ. فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَخِي أَبُو نَائِلَةَ فَنَزَلَ إِلَيْهِ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ تَنْفُخُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: مَا أَحْسَنَ جِسْمَكَ وَأَطْيَبَ رِيحَكَ. قَالَ: إِنَّ عِنْدِي ابْنَةَ فُلَانٍ وَهِيَ أَعْطَرُ الْعَرَبِ. قَالَ: فَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَشْتُمَهُ. قَالَ: نَعَمْ. فَأَدْخَلَ مُحَمَّدٌ يَدَهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَشْتُمَهُ أَصْحَابِي؟ قَالَ: نَعَمْ فَأَدْخَلَهَا فِي رَأْسِهِ فَأَشْتَمَ أَصْحَابَهُ ثُمَّ أَدْخَلَهَا مَرَّةً أُخْرَى فِي رَأْسِهِ حَتَّى أَمِنَهُ ثُمَّ إِنَّهُ شَبَّكَ يَدَهُ فِي رَأْسِهِ فَنَصَّاهُ ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: دُونَكُمْ عَدُوَّ اللَّهِ فَخَرَجُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَخْبَرَهُ².

ومن هاتين الروايتين يتضح أن رسول الله ﷺ أراد القضاء على الشر في مهده بقطع أسبابه وعقله؛ لأن هذين الشاعرين كانا مصدرا للسموم ومنبعا للفتنة وأصلا للتدبير ومنطلقا للشائعات التي تروج بين المسلمين.

¹ المغازي، الواقدي، ج1، ص174، ط1، عالم الكتب، بيروت، دت.

² زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ج3، ص102.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضا إجلاء النبي ﷺ لليهود من المدينة فقد أجلى رسول الله ﷺ بني قينقاع عن المدينة حينما رأى أن وضعهم قد أصبح منذرا بخطر العدو كما أجلى بني النضير حينما كشف الله له تأمرهم على قتله وأصبح بقاؤهم في المدينة منذر بخطر فتن مهلكة بعد أن افتضح غدرهم وخيانتهم وأجهز أخيرا على بني قريظة الذين نقضوا عهدهم في أشد الأوقات وأحلك الظروف وأرادوا طعن المسلمين في ظهورهم بينما هم منهمكون في صد الأحزاب الذين يحاصرون المدينة ومعهم معظم قوات العرب يومئذ¹.

ولا شك أن هذا الإجهاز من الرسول ﷺ على هؤلاء اليهود لم يكن إلا للقضاء على منبع الشر والفتنة وقلعه من جذوره. وقد كان اليهود بمساعدة المنافقين يوم ذاك هم مبعث كل شر وأصل كل بلاء ومصدر كل شائعة تروج بين المسلمين.

وقد كان رسول الله ﷺ وهو القائد الحكيم يهدف إلى تطهير المنطقة من سموم أولئك الكائدين الحاقدين الذين لا يغفلون لحظة عن الكيد للإسلام وأهله ولا يتوانون برهة في استخدام الشائعات المسمومة والمعرضة لتحطيم قوة المسلمين آنذاك.

وبإجلاء اليهود انقطع دابر الشر ومصدر الخطر بالنسبة للمؤمنين في المدينة المنورة لأنهم كانوا منبع كل شائعة راجت بين المسلمين في صراعهم ضد الكفر والطغيان والظلم والجهل.

¹ مكائد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص 136.

الفصل الثاني: عقوبة الحرب النفسية والوقاية منها في التشريع الجزائري

إنّ وصف الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة بأنها جريمة، يعني أن النصوص القانونية قد وضعت لها حكما محددًا وهو حكم الحرمة، وهذا الذي تم التطرق إليه في الباب السابق من البحث، إذ من المتعارف عليه في كل قوانين العالم مبدأ لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص. فنجد المشرع الجزائري اهتم بجرائم أمن الدولة عامة ومنها الحرب النفسية (حتى وإن لم تذكر بهذا الاسم ولكن ذكرت كوصف)، ووضع لها الجزاءات المناسبة وهو الذي سنتطرق إليه في هذا الفصل، وأيضا تصور للوقاية من هذه الجريمة الخطيرة في نظر القانون الجزائري. ومنه نقسم الفصل كالتالي:

المبحث الأول: عقوبة الحرب النفسية في التشريع الجزائري

المطلب الأول: عقوبة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الخارجي

المطلب الثاني: عقوبة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الداخلي

المبحث الثاني: تصور للوقاية من الحرب النفسية في التشريع الجزائري

المطلب الأول: المؤسسات التربوية ودورها في مكافحة الحرب النفسية

المطلب الثاني: دور المؤسسات الإعلامية في مكافحة الحرب النفسية

المبحث الأول: عقوبة الحرب النفسية في التشريع الجزائري

عاقب المشرّع الجزائري على جريمة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، هذه الأخيرة مجسدة في صورة المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية، أو نشر الأخبار الكاذبة أو المغرضة الماسة بالأمن العمومي أو النظام العام، بعقوبات متفاوتة، بين ما كانت عقوبة جنحية وما كانت عقوبة جنائية تصل إلى حد الإعدام. وهو ما سنوضحه فيما يلي:

المطلب الأول: عقوبة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الخارجي

طبقا لنص المواد 4/62، 64، 75 من قانون العقوبات، فإنّ المشرّع الجزائري نستطيع القول بأنّه عاقب على جريمة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الخارجي (المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية سواء للجيش أو للأمة) بعقوبات متفاوتة تصل إلى حد الإعدام، وهذا في حالتي التجسس أو الخيانة وبتوافر الظرف المشدد وهو وقت الحرب. أما إذا وقعت وقت السلم وكانت ماسة بالجيش فالعقوبة هي السجن المؤقت وتراوح بين الخمس سنوات والعشر.

الفرع الأول: عقوبة الإعدام

الإعدام لغة: مشتقة من لفظ (عدم) وتعني: أفقر وأزال والعدم هو فقدان الشيء وذهابه والعدم الفقير الذي لا مال له، فالإعدام بهذا المعنى ينصرف إلى الإفقار والإزالة¹.
أمّا الإعدام اصطلاحا فلا يوجد تعريف جامع حوله. ومما جاء من التعريفات تعريف محمود نجيب حسني: الجزاء الذي يقرره القانون ويوقعه القاضي من أجل الجريمة ويتناسب معها².
وكذا تعريف عبد الله سليمان أنّها: أقدم العقوبات وأشدّها على الإطلاق وتعني إزهاق روح المحكوم عليه، فهي في جوهرها عقوبة استتصالية³.
وفي نطاق موضوعنا سلّطت عقوبة الإعدام على جرمي التجسس والخيانة مع ظرف مشدد وهو وقت الحرب وهو ما سنتطرق إليه:

¹ لسان العرب، ابن منظور، ج12، ص392، دار صادر.

² شرح قانون العقوبات -القسم العام-، محمود نجيب حسني، ص667.

³ شرح قانون العقوبات الجزائري، عبد الله سليمان، ج1، ص432.

البند الأول: مفهوم التجسس والجاسوس في القانون الوضعي

لم تتطرق معظم التشريعات ومنها التشريع الجزائري لتعريف جريمة التجسس، لذلك سنتطرق لتعريف الفقه القانوني لجريمة التجسس.

لم يتفق فقهاء القانون على تعريف واحد للتجسس، وإنما وسع بعضهم من مدلول التجسس، حتى ليكاد يشمل في رأيهم كل فعل يخدم مصالح الدول الأجنبية، وضيق بعضهم الآخر من مداه، حتى أصبح يقتصر على من يتسلل متخفيا أو منتحلا صفات أو أعدارا كاذبة إلى خطوط جيش محارب، حتى يجمع المعلومات التي تفيد العدو وينقلها إليه. لأجل ذلك وردت عدة تعريفات منها القديم والتقليدي والحديث وهو ما سنعرضه في الآتي:

أولا: التعريف القديم للتجسس

أهم هذه التعريفات هو تعريف روبير ديتورييه حيث يرى بأن التجسس هو: (البحث عن أي نوع من المعلومات، خفية عن دولة معينة، بهدف إيصالها لدولة أجنبية، وذلك بنية الإضرار بالدولة المتجسس عليها)¹.

نلاحظ من خلال التعريف أن التجسس عند ديتورييه يقوم على ثلاثة عناصر هي:

العنصر الأول: البحث عن المعلومات.

العنصر الثاني: أن يكون الفعل قد تم خفية.

العنصر الثالث: تبليغ المعلومات إلى دولة أجنبية.

ولكن هذا التعريف تعرض للنقد من عدة وجوه أبرزها:

1- أن هذا التعريف جعل التجسس محصورا في نطاق ضيق من حيث الركن المادي إذ يتحدد بأفعال البحث عن المعلومات، مما يعني أن أي سلوك آخر لا ينطوي على فعل البحث عن المعلومات،

¹ L'Espionage et la trahison, Robert detourbet, p18, these paris, France, 1897.

لا يشكل جريمة التجسس، فالذي يقوم بتسليم معلومات سرية إلى دولة أجنبية دون أن يقوم هو بفعل البحث عنها، لا يعد عمله تجسسا .

2- يعد ديتوريه الخفاء أو التنكر عنصرا أساسيا في قيام التجسس، وهذا يؤدي إلى استبعاد العقاب على التجسس في معظم حالاته.

3- النقد الثالث يتمثل في (الدولة الأجنبية) المستفيدة من السر، إذ لكي يكون هناك تجسسا فيجب أن يرتبط الفعل المكون له بنية تسليم السر إلى دولة أجنبية، وهذا لا يتلاءم مع التطور الحديث الذي يتم به التجسس، إذ أصبح هذا الأخير يتحقق من خلال صور أخرى لا يكون فيها تسليم السر إلى دولة أجنبية عنصرا من عناصر قيام الجريمة، ومثاله من يقوم بأعمال التصوير في محيط مؤسسات عسكرية دون أن يكون قاصدا للتجسس¹.

أ: التعريف التقليدي للتجسس

تعريف جارو: عرّف التجسس بأنه: (الحصول أو تجميع معلومات سرية حول السياسة أو المواد العسكرية، أو التنظيم الدفاعي أو الهجومي لدولة أجنبية وتسليم هذه المعلومات إلى حكومة أخرى أو لمن يعد لحسابها بمقابل أو مجانا)².

نقد التعريف:

1- إن تعريف جارو يشترط لقيام التجسس أن يكون هناك فعلا متتاليان:

الفعل الأول: يتمثل في البحث عن المعلومات.

الفعل الثاني: يتعلق بإعطاء أو تسليم هذه المعلومات إلى دولة أجنبية.

وهذا يعني أنه إذا تخلف أحد هذين الفعلين فلا نكون بصدد جريمة التجسس الدولي، فالذي يقوم فقط بفعل البحث عن الأسرار المتعلقة بالسياسة أو المصادر العسكرية، لا يعد جاسوسا إذا لم يقم بفعل

¹ التجسس الدولي والحماية الجنائية، محمود سليمان موسى، ص3

² الجرائم الواقعة على أمن الدولة، مُجدّ الفاضل، ص313.

إعطاء هذه الأسرار إلى دولة أجنبية. كذلك الأمر بالنسبة لمن يقوم فقط بفعل إعطاء المعلومات السرية إلى دولة أجنبية استقلالا، فإنه لا يعد جاسوسا لأنه يشترط لقيام التجسس أن يكون ثمة تتابع بين الفعلين، فعل لبحث عن السر ثم فعل إعطائه بعد ذلك¹.

2- إن تعريف جارو يضيق كثيرا من نطاق التجسس المعاقب عليه، ويحصره في الميدان العسكري أو السياسي، ولا يستوعب التجسس الاقتصادي أو الصناعي أو العلمي².

3- إن جارو أغفل بصورة واضحة التجسس المرتكب عن طريق الخطأ أو سوء التقدير؛ لأنه بحسب التعريف لا وجود للتجسس إلا إذا كان عمديا وهذا لا يطابق سياسة المشرع تجريم التجسس الدولي المرتكب سواء مع توافر القصد الجنائي أم بدونه. فالمواطن الذي يفشي أسرار الدفاع الوطني بسبب سقطات لسانه، فيلتقطها من يبلغها للجهات الأجنبية يجب أن يعاقب، رغم أنه لم يعتمد نقل أو إذاعة أو إفشاء تلك المعلومات إلى من نقلت إليه، لكنه ارتكب خطأ، وحرى بصاحبه أن يخضع للعقاب، كذلك من يهمل في حق هذه الوثائق السرية التي أوكلت الدولة أو تحدى السلطات المختصة عليه بأمر حفظها، فيتسبب بهذا الإهمال في سرقتها أو إيصالها إلى دولة معادية أو غير معادية³.

ب: تعريف التجسس في الفقه العربي

تعريف مجدي محمود حافظ: (التجسس هو سعي أي شخص أجنبي صوب الحصول على أسرار الدولة أو تسليمها لأية جهة خارجية، متى كان ذلك يؤدي إلى الإضرار بمصلحة الدولة)⁴.

نقد التعريف :

يعاب على هذا التعريف أنه قد وسع نطاق المحل القانوني للتجسس بحيث يؤدي إلى اعتبار أفعال الحصول على أسرار الدولة المتعلقة بأية مسألة، ولم تتعلق بالدفاع الوطني أو الأمن الخارجي للدولة،

¹ التجسس الدولي، محمود سليمان موسى، ص98.

² المرجع نفسه، ص99.

³ الجرائم الواقعة على أمن الدولة، محمد الفاضل، ص313.

⁴ الحماية الجنائية لأسرار الدولة، مجدي محمود حافظ، ص240، ط1، د.ن، 1991.

داخلية في مفهوم التجسس الدولي، ومن جهة أخرى أن هذا التعريف يحصر الركن المادي للتجسس في إطار السلوك الإيجابي دون السلوك السلبي، فالتجسس عن طريق الامتناع عن أداء واجب أو التزام قانوني أو لائحي غير متصور حسب ما تؤدي إلى دلالة ألفاظه، بما أنه يضيق من نطاق التجسس بحيث يجعله محصوراً في دائرة الجرائم العمدية ومن ثم فالتجسس المرتكب خطأ أو إهمالاً غير متصور بحسب هذا التعريف¹.

ج: التعريف الحديث للتجسس

بعد أن ثبت أن مختلف التعريفات التقليدية للتجسس كانت قاصرة وغير مطابقة للمدلول القانوني للتجسس الحديث الذي يتسم بالتجديد والتشعب، اتجه بعض الفقه إلى تعريف التجسس من خلال الإحاطة بجوانبه المتعددة في ضوء التطورات التي لحقت التشريع الجنائي حول تحديد مضمون التجسس². فالتجسس حسب هذا الاتجاه هو كل نشاط يقوم به أجنبي ويؤدي إلى وقوع ضرر بأحد المقومات الأساسية لوجود الدولة وذلك بقصد تحقيق مصلحة جهة أجنبية.

وأهم التعريفات التي تدخل في هذا الصدد هو تعريف بيير هوغني، حيث يرى بأن التجسس هو: (كل نشاط يقوم به أجنبي ويخدم به مشاريع أو مصالح أمة أجنبية)³.

ولعلّ أهم نقد وجه إلى التعريف الحديث للتجسس هو أنه اعتمد على معيار واسع وغير منضبط لنطاق التجسس، يتمثل في النشاط الذي يقوم به الأجنبي لخدمة مصالح ومشاريع أمة أجنبية، ومؤدى ذلك أن الأجنبي الذي يقوم بأي نشاط لمصلحة دولة ما، سواء في المجال المدني أو التجاري أو الاجتماعي أو العلمي أو حتى الطبي، أو ما يماثل ذلك يعتبر جاسوساً. وهذا ما لا يقر به أحد، خاصة في هذه المرحلة التي تشهد عصراً جديداً في العلاقات الدولية.

¹ التجسس الدولي، محمود سليمان موسى، ص. 105.

² المرجع نفسه، ص. 106.

³ Traite théorique et pratique de droit pénal et procédure militaire deuscieme supplémentaire , Hugueney ,p50 , thèse paris , France 1940

ومهما يكن من أمر فنحن نرى أن معظم تعريفات التجسس عند فقهاء القانون قد انصبت وانحصرت في حال كونها جريمة فقط دون قيد أو استثناء، ومعلوم أن هناك حالات يكون فيه التجسس مشروعاً بل وواجباً قانوناً كالتجسس لمعرفة أحوال الرعية وأوضاعهم، والتجسس على أهل الريب من المنحرفين والشواذ، ولهذا فوجهة نظرنا هي الحد من إطلاق كلمة التجسس في القوانين الوضعية وتقييدها بالتجسس الدولي.

أما تعريف الجاسوس في القانون الوضعي فقد ورد في كتاب القانون الدولي العام بأنه: (الشخص الذي يعمل في خفية أو تحت ستار كاذب، في جمع أو محاولة جمع معلومات عن منطقة الأعمال الحربية لإحدى الدول المتحاربة بقصد إيصال هذه المعلومات لدولة العدو)¹.

وقيل بأنه: (كل من حصل أو سعى إلى الحصول على إحدى الأسرار الخاصة بالدفاع عن البلاد بقصد تسليمها إلى سلطة أجنبية)².

ولقد جاء في التشريع الدولي في المادة (29) من الاتفاق الدولي المعقود بـ لاهاي في 18 أكتوبر 1907 والمتضمن قوانين الحرب بأن: (الجاسوس هو الذي يعمل في الخفاء، أو يتنكر، مستقصباً أو محاولاً استقصاء المعلومات، في منطقة العمليات الحربية التابعة لأحد الفريقين المتحاربين).

نقد التعريف:

1- إن التذرع بالذرائع الكاذبة لم يبق اليوم من عناصر التجسس، فالأجنبي الذي يباشر نشاطاً خاصاً أو يكلف بأداء مهمة، يعد جاسوساً إذا نقل إلى دولة أجنبية سراً من أسرار الدفاع الوطني ولو علم السر بسبب نشاطه أو مهمته دون تنكر أو خداع³.

2- إن هذا التعريف لا يوافق الأمر حالياً لأن التجسس قد يحصل بين دولتين صديقتين.

¹ القانون الدولي العام، أبو هيف علي صادق، ص 846.

² الجريمة السياسية، دراسة مقارنة، سيد أحمد ناجي، ص 222، أطروحة دكتوراه، كلية الحقوق، القاهرة، مصر، 1983.

³ القانون الجنائي الخاص، أحمد الخمليشي، ص 71، ط 2، مكتبة المعارف، الرباط، 1985.

البند الثاني: مفهوم جريمة الخيانة

الخيانة لغة من الخون: وهو أن يؤتمن الإنسان فلا ينصح. فيقال خونا وخيانة وخانة ومخانة، ويقال للفاعل خائن وللمؤنث خائنة، ويقال خوان للمبالغة وهم خانة وخونة، وأصل المعنى يدل على النقص والتفريط بالأمانة¹.

واصطلاحا: جاء في التعريف الفقهي -لم يتطرق المشرع الجزائري لتعريف جرائم الخيانة- عبارات مختلفة نذكر منها:

جرائم الخيانة هي جرائم حمل السلاح ضد الدولة التي يأخذ الفرد جنسيتها، والإتيان بأفعال من شأنها استعداد المجتمع الدولي على دولته، وأيضا تحريض أفراد الجند على خدمة دولة أجنبية لا تربطهم بها رابطة الولاء².

جريمة الخيانة هي عبارة عن واقعة يرتكبها شخص وطني إضرارا بأمته سواء كان ذلك بإرادته أم لا، ويفضل فيها مصالح دولة أجنبية على مصالح أمته.

وفي تعريف آخر: الخيانة جريمة تقع من مواطن يهدف مساعدة دولة أجنبية على حساب دولته³.

مما سبق فجريمة الخيانة تشكل اعتداء مباشرا ومؤثرا على الوجود السياسي للدولة، يهدف إلى تهديد استقلالها وسلامة أراضيها، أو الانتقاص من سيادتها وتهديد نطاقها الحيوي الخارجي بالاعتماد على معونة أفراد حاملين الجنسية الجزائرية سواء كانوا عسكريين أو مدنيين. وقد منحها المشرع الجزائري الأولوية والأسبقية في ترتيب النصوص نظرا لخطورتها وأهمية المصالح التي يحرص على حمايتها.

¹ معجم متن اللغة العربية، أحمد رضا، مج3، ص362، ط1، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1985.

² جرائم أمن الدولة علما وقضاء، محمد جمعة عبد القادر، ص67، ط1، دار النهضة العربية، مصر، د.ت.

³ الحماية الجنائية لأسرار الدولة، حافظ مجدي محمود، ص233.

البند الثالث: التمييز بين التجسس والخيانة في القانون الوضعي

تبدو التفرقة بين الخيانة والتجسس مهمة من حيث التمييز بين عقاب الخائن وعقاب الجاسوس، وقد لجأ القانونيون في تقرير هذه التفرقة إلى ثلاثة معايير كما يلي:

أولاً: المعيار الموضوعي

يعود معيار التفرقة بين التجسس والخيانة إلى طبيعة الركن المادي أو طبيعة الفعل من الناحية الموضوعية. فالخيانة ذات أصل لاتيبي، وتعني مباشرة فعل التسليم إلى سلطة أو هيئة أجنبية، وتنصب التسليم على سر لدى هذا الشخص، فالخيانة إذا هي تسليم الأسرار المتحصلة إلى دولة أجنبية¹. أما التجسس فينصرف إلى الحالة التي لا يكون الشخص فيها ممتلكا، أو موجودا بين يديه هذه المعلومات، ولكنه يبحث ويتقصى للوصول فهي عملية البحث والتنقيب عن الأسرار المتصلة بالدفاع القومي².

نقد المعيار:

انتقد هذا المعيار بأنه غير دقيق، إذ هناك كثيرا من جرائم الخيانة لا يحقق فعلها تسليما، وذلك كجريمة حمل السلاح على دولته أو استدعائه دولة أجنبية عليها، ثم إن هذا المعيار يصطدم في حالة قيام الجاني بارتكاب فعل السعي نحو البحث عن الأسرار ثم القيام بعد الحصول عليها بتسليمها إلى دولة أجنبية فهو قد قام بفعل السعي والتسليم معا، فهل يعد جاسوسا أم خائنا أم كليهما؟³.

ثانياً: المعيار الذاتي

ترجع التفرقة بين التجسس والخيانة أساسا إلى الدافع (الباعث) الذي حرك الجاني للقيام بجريمته، ولهذا يجب عند إجراء أي تمييز بين التجسس والخيانة الرجوع إلى دوافع الجاني؛ لأن العناصر المادية

¹ الحماية الجنائية لأمن الدولة، إبراهيم الليدي، ص 79.

² القسم الخاص في القانون العقوبات، عبد المهيم بكر، ص 15، ط 7، دار النهضة العربية، القاهرة، 1977.

³ الجرائم الواقعة على أمن الدولة، مُجدّ الفاضل، ص 317.

المكونة لكل منهما تكاد تكون واحدة، ويمكن الاختلاف بين الجريمتين في الدافع الذاتي، فإذا كان الجاني ارتكب الفعل بنية دفع قوة أجنبية للشروع في معاداة البلاد أو إعطائها الوسائل اللازمة لذلك، كمن يتصل بالدولة الأجنبية رغبة في استعدادها على وطنه، فيعد خيانة؛ لأن الجاني تحرك بدافع العدو تحت فكرة قاتلة تهدف إلى رمي البلاد في مخاطر الحرب. أما إذا لم تكن لدى الجاني هذه النية تجاه البلاد، كما لو كان الدافع حب المال، أو الطمع، أو الطيش، أو الجشع المادي، فإن الفعل يصبح تجسسا حتى وإن ترتب على فعله نتائج خطيرة¹. ولهذا كان جزاء الخيانة أشد بكثير من التجسس في القانون الفرنسي في تشريع 1886م، 1934م، ووفقا لنص المادة 76 عقوبات فرنسي.

نقد المعيار:

انتقد هذا المعيار بأن البحث عن الدافع شيء دقيق يستلزم الوصول إلى معرفة ما يختلج في النفس البشرية والغوص في بواعثها، لكونه أمرا داخليا، ليس له مظاهر خارجية مادية تدل عليه، ويتطلب الدخول في تحليل ظروف كل فاعل أو شريك، والبحث عن نواياه وملابسات جريمته، وهذا مطلب عسير وقد يبدو في بعض الأحوال مستحيلا وقد لا يعدم الخائن وسيلة يستر بها دوافعه، إذ يكفي أن يتلقى بعض المال ليقول أصحاب المذهب الذاتي أن الفعل تجسس؛ لأن الدافع هو الحصول على المال².

ثالثا: معيار الجنسية

تعد فرنسا أول من نادى بهذا المعيار، فقد اعتنقته في قانون 29 يوليو 1939م، ثم تبنته العديد من القوانين والفقهاء، وطالبوا بالأخذ به وتطبيقه باعتباره أصلح المعايير التي تميز بين جرائم التجسس والخيانة، ذلك أن أصحاب هذا المعيار استفادوا من الانتقادات والصعوبات التي ترتبت على الأخذ بالمعايير السابقة، فحاولوا إيجاد معيارا سليما خال من المعارضة، ومؤداه ما يلي:

¹ القسم الخاص في القانون العقوبات، عبد المهيم بكر، ص18.

² القانون الجنائي الخاص، أحمد الخليلي، ص68.

يدخل في حكم الخيانة الأفعال التي يرتكبها المواطن، أما الأفعال التي يقتربها الأجنبي فإنها تدخل في حكم التجسس¹، ولهذا فالخيانة في مفهوم أصحاب هذا المعيار تعني عدم اعتراف الجاني بواجب الولاء والإخلاص لوطنه، أما التجسس فهو يعني عدم الالتزام بالنظم والقوانين الوضعية. ولهذا فالفعل المادي المكون للخيانة أو التجسس هو دائما فعل واحد، ولكن الوصف الذي يطلق عليه يختلف بحسب جنسية الفاعل، فإذا كان وطنيا فالفعل خيانة وإذا كان أجنبيا كان الفعل تجسسا².

وهناك من انتقد هذا المعيار بقوله: كيف يمكن تعليل اعتبار الفعل الواحد تجسسا لو قام به أجنبي، وخيانة لو قام به وطني؟ وكذلك قيل بأن لا فائدة من التفريق بين الأفعال التي يقتربها المواطن وتلك التي يرتكبها الأجنبي في هذا الميدان، فإن الأخطار الناجمة من هذه الأفعال هي نفسها، والنتائج الجرمية المنبثقة منها هي نفسها، في الحالين سواء أكان الفاعل أجنبيا أم مواطنا، وطالما أن الضرر الذي قد يحل بأمن الدولة واحد في الحالين، فلم يعد ثمة أي مبرر للتفريق³.

وقد ذكر بعضهم أن أهمية التفرقة بين الخيانة والتجسس ترجع إلى القول بوجود تشديد عقاب الخائن على الجاسوس. والواقع أن فعل الخيانة يستحق أقصى العقوبات، بل أن الخائن ليس أهلا للحياة⁴.

وبالرغم من هذه الانتقادات فقد لقي هذا المعيار قبولا لدى الأغلبية من القوانين، ووجدوا أن هذا المعيار جدير بالإتباع، وأنه واضح ومنضبط ويسهل تطبيقه، كما أنه يتلافى أوجه النقد التي وجهت للمعايير السابقة⁵. ولسلامة هذا المعيار، فقد أيدته غالبية القوانين الغربية كإيطاليا وسويسرا ورومانيا، وأيدته أيضا مجموعة كبيرة من الدول العربية على غرار تونس (1/160 ق.ع) و (181 ق.ع) ولبنان (273 ق.ع)، قطر (66 ق.ع)، الكويت (2/1 ق.ع)،...

¹ الحماية الجنائية لأسرار الدولة، مجدي محمود حافظ، ص 317.

² الجرائم الواقعة على أمن الدولة، محمد الفاضل، ص 319.

³ المرجع نفسه، ص 320.

⁴ قانون العقوبات، عبد المهيم بكر، ص 18.

⁵ الحماية الجنائية لأسرار الدولة، المرجع نفسه، ص 245.

اتجاه المشرع الجزائري:

أخذ المشرع الجزائري بمعيار الجنسية للفرقة بين الجرمين، فاشتراط في جريمة الخيانة أن يكون الجاني جزائرياً كما هو واضح في نصوص المواد (61-62-63)، بينما اشترط في جريمة التجسس أن يكون الجاني أجنبياً كما هو واضح في نص المادة 64 (ق.ع) ولعل علة التفريق تكمن في أن المواطن الجزائري الذي يقدم على فسخ رابطة الولاء نحو بلده هو أشد إجراماً من الأجنبي الذي لا تربطه رابطة الولاء من الدولة المجنى عليها، هذا بالإضافة إلى أن المواطن يقدم خدمة لبلاده وإن كانت غير أخلاقية بالتجسس على دولة أخرى.

البند الرابع: التمييز بين حالة الحرب ووقت الحرب

حالة الحرب هي: تعبير عن الوضع الداخلي للدولة، بينما وقت الحرب له انعكاس في القانون الدولي، بمعنى أنّ حالة الحرب تنسب إلى القانون الداخلي، ووقت الحرب ينسب للقانون الدولي، ويترتب على ذلك أنّه قد تتوافر حالة الحرب، ولا يتوافر وقت الحرب، بعدم قيام الحرب فعلاً، كما قد يتوافر وقت الحرب، ولا تتوافر حالة الحرب داخلياً.

حالة الحرب تستتبع تطبيق قانون الطوارئ في إقليم الدولة كلّ، أو في جزء منه، وهذه الحالة لا تنشأ مع الحرب الفعلية، وإنما مع القرار الذي يعلن قيامها، ووقت الحرب يترتب علاقات قانونية دولية بالنسبة للدول المختلفة، بما فيها الدولة المعادية ورعاياها، دون حاجة إلى إعلان، كما يلزم الدول المحايدة بواجب الحياد، واحترام حقوق المحاربين، سواء أعلن المحايدين حيادهم رسمياً، أم لم يعلنوا؛ لأن الحياد أثر من آثار قيام حالة الحرب يلزم المحايدين بمجرد علمه ببدء الأعمال العدائية بين الدولتين المتحاربتين، ومن ناحية أخرى فإن إعلان الحرب من جانب الدولة أو ضدها، لا يستتبع بالضرورة توافر حالة الحرب، وما يترتب عليها من تطبيق قانون الطوارئ داخل الجمهورية، وإنما يقتضي ذلك ضرورة صدور قرار جمهوري في هذا الصدد¹.

¹ الشائعات في قانون العقوبات المصري والقوانين الأخرى، محمد هشام أبو الفتوح، ص 247 وما بعدها.

أولاً: تعريف الحرب

عرّفت الحرب بتعريفات كثيرة، لعلّ من أهمها:

- الحرب نضال بين القوات المسلحة لكل من الفريقين المتنازعين، يرمي به كل منهما إلى صيانة حقوقه، ومصالحه في مواجهة الطرف الآخر¹.
 - الحرب حالة قانونية تتولد عن نشوب كفاح مسلح بين القوات المسلحة لدولتين أو أكثر، إذا توافرت لدى إحدى هذه الدول، أو لديها جميعاً نية لإنهاء العلاقات السلمية².
 - بينما عرّف البعض الحرب بأنها: صراع بين دولتين أو أكثر، يستخدم فيه المتصارعون قواتهم المسلحة بقصد التغلب على بعضهم البعض، وفرض شروط الصلح على المغلوب، كما يشاؤها الغالب. وهي في القانون الدولي حالة عداء مسلح بين دولتين أو أكثر³.
 - أنها: قتال مسلح بين القوات المسلحة لدولتين أو أكثر؛ لتحقيق مصالح وطنية⁴.
- وبذلك يتضح أنّ الحرب لا تقوم قانوناً إلا بين الدول، فلا يدخل في نطاق ذلك، الحرب الأهلية؛ فالنضال المسلح الذي يقع بين بعض الجماعات داخل دولة ما، أو الذي تقوم به جماعة من الأفراد ضد دولة أجنبية، لا يعتبر حرباً، ولا شأن للقانون الدولي العام به، بل هو يخضع لأحكام القانون الجنائي للدولة التي يحدث فيها، باعتباره عملاً جنائياً معاقب عليه.

كذلك لا يعتبر حرباً - بالمعنى الدولي - النضال المسلح الذي يقوم به إقليم نائر في وجه حكومة الدولة التي يتبعها، أو التي تقوم به إحدى الدول الأعضاء في دولة تعاهدية ضد الحكومة المركزية، إنّما قد يخضع مثل هذا النضال لحكم الحرب الدولية إذا تطوّر إلى قتال منظم، وأصبح للثوار قوات

¹ القانون الدولي العام، علي صادق أبو هيف، ج1، ص779، ط12، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، دت.

² قانون الحرب، عبد العزيز جميع وآخرون، ص2، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1952.

³ أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية، حامد سلطان، ص245، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1974.

⁴ المنازعات الدولية، جابر إبراهيم الراوي، ص263، ط1، مطبعة دار السلام، بغداد، 1978.

نظامية تشرف عليها سلطة مسؤولة، تمارس باسمها أعمال السيادة على الإقليم الذي في حوزتها، وتسعى للاستئثار بالسلطة عليه في مواجهة الحكومة الأصلية، ويشترط الاعتراف لهؤلاء الثوار بصفة المحاربين، سواء يصدر هذا الاعتراف من الحكومة المذكورة أم من حكومات الدول الأجنبية.

ولا يشترط أن تكون الدول المحاربة تامة السيادة، بل يمكن أن تقوم الحرب بين الدول ناقصة السيادة، سواء كانت الحرب بينها وبين دول كاملة السيادة، أم دول ناقصة السيادة. ومثال ذلك الحرب التي تقوم بين الدولة المتبوعة والدولة التابعة لها، وبين الدولة الحامية والدولة المحمية، وبين الدولة القائمة على الانتداب والدولة الواقعة تحت الانتداب، وبين الدولة المحتلة والدولة الواقعة تحت الاحتلال.

ثانيا: متى تبدأ الحرب؟

يترتب على قيام الحرب تغيير في العلاقات الدولية للدول المتحاربة والدول المحايدة، وما يتبعه من حقوق والتزامات جديدة؛ لذلك ينبغي أن يسبق البدء في الحرب إعلان حالة الحرب، وأن يكون الإعلان مسببا، أو الإعلان بضرورة تنفيذ شروط معينة¹. فينبغي على الدول ألا تأخذ إحداها الأخرى على حين غرة، فتبدأ ضدها مباشرة الأعمال الحربية دون إخطار؛ أو إنذار سابق، وفي القول بغير ذلك إخلال بالطمأنينة، وهدم للثقة بين الدول².

وبالرجوع إلى اتفاقية لاهاي الثالثة سنة 1907م في المادتين الأولى والثانية نجد ما يلي:

المادة 01: يجب ألا تبدأ الأعمال الحربية إلا بعد إخطار سابق لا لبس فيه، ويكون هذا الإخطار إما في صورة إعلان حرب مسبب، وإما في صورة إنذار نهائي يُذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين، إذا لم تجب الدولة الموجهة لها الإنذار طلبات الدولة التي توجهه.

المادة 02: يجب إبلاغ قيام الحرب دون تأخير إلى الدول المحايدة، ولا يترتب على قيام الحرب بالنسبة لهذه الدول أي أثر إلا بعد وصول الإبلاغ لها، ولو تلغرافيا، وليس للدول المحايدة أن تحتج بعدم وصول الإعلان لها إذا ثبت علمها فعلا بقيام الحرب.

¹ المنازعات الدولية، جابر إبراهيم الراوي، ص 269.

² القانون الدولي العام، علي صادق أبو هيف، ج 1، ص 796.

تبدأ الحرب بإعلانها من جانب الدولة أو الدول التي اعترمت خوض غمارها، إلا إن إعلان الحرب ليس شرطاً لوجودها؛ فقد تبدأ أعمال القتال مفاجأة دون إعلان سابق؛ فتكون الحرب قد قامت بهذه الأعمال فعلاً، ويكون من المتعين تطبيق قواعدها، وترتيب أثارها في القانون الدولي¹.

ويشترط البعض أن تكون الأعمال ارتكبت بنية قيام الحرب، فالنية شرط جوهري لقيام الحرب، وبدون النية لا نكون بصدد حرب، ولكننا نكون بصدد حالة من حالات الإكراه، أو كما يسميها البعض صورة من صور الكفاح المسلح².

وهناك رأي آخر يعتبر حالة الحرب قائمة بمجرد وقوع الاشتباك المسلح بين الأطراف المتنازعة، بصرف النظر عن توافر نية القتال، أو الرغبة في استبدال حالة السلم، إذ إن حالة الحرب مسألة واقع، تترتب أثارها بمجرد توجيه أعمال العنف حتى ولو تم ذلك دون إنذار. والقول بغير ذلك يعني عدم ترتيب أي آثار قانونية للاشتباكات المسلحة لمجرد ادعاء طرف بأن نيته لا تتجه إلى استبدال حالة الحرب بحالة السلم³.

وإننا نعتبر بالرأي الأخير؛ لأن بدء أعمال القتال دليل على بدء الحرب، والقول بغير ذلك يترتب عليه آثار خطيرة.

ثالثاً: متى تنتهي الحرب

تنتهي الحرب عادة بمعاهدة صلح تُعقد بين طرفيها، أو بوقف القتال والعودة إلى العلاقات السلمية، أو بفناء الدول المتحاربة؛ نتيجة هزيمتها، وضم إقليمها إلى الدولة الأخرى⁴.

أمّا الهدنة فلا تنهي حالة الحرب، وإن نتج عنها وقف القتال⁵.

¹ القسم الخاص في قانون العقوبات، عبد المهيمن بكر، ص 47.

² المنازعات الدولية، جابر إبراهيم الراوي، ص 270.

³ القانون الدولي العام، عبد الواحد الفار، عبد المعز عبد الغفار نجم، ص 428.

⁴ القسم الخاص في قانون العقوبات، المرجع نفسه، ص 47.

⁵ قانون الحرب، عبد العزيز علي جميع وآخرون، ص 287.

الفرع الثاني: عقوبة السجن المؤقت

نصّ قانون العقوبات الجزائري في القسم الثاني من الفصل الأول الخاص بالجنايات والجناح ضد أمن الدولة تحت عنوان: جرائم التعدي الأخرى على الدفاع الوطني أو الاقتصاد الوطني، وفي المادة 75 منه على: (يعاقب بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات كل من يساهم وقت السلم في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش يكون الغرض منه الإضرار بالدفاع الوطني وهو عالم بذلك).

نظر المشرع الجزائري إلى أن مجرد المساهمة في مشروع لإضعاف الروح المعنوية للجيش وإن كان وقت السلم يستأهل عقوبة مشددة تمثلت في السجن المؤقت الذي يصل إلى عشر سنوات، وإن لم يلحق الضرر فعلا بالدفاع الوطني. وهو مانستنتجه حول الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة في نظر المشرع الجزائري والذي عدّها من جرائم الخطر، ومعناه أنه لا يشترط تحقق الخطر بل يكفي أن يكون الخطر محتملا، طالما أنه في الغالب الأعم سوف يتحقق الخطر، فالقانون لا يستلزم تحقق الخطر أو وقوع الضرر فعلا.

فجرائم الخطر هي التي يُكتفى فيها بأن يترتب على السلوك خطر على الحق أو المصلحة محل الحماية الجنائية، دون استلزام الإضرار الفعلي، ويتمثل هذا الخطر في التهديد بالضرر¹.

فالسمة العامة التي تميز جرائم أمن الدولة أنها من جرائم الخطر، فالمشرع يعاقب تحت وصف الجريمة الكاملة الأفعال التي تشكل خطرا على الحق أو المصلحة محل الحماية الجنائية في تلك الطائفة من الجرائم، فالجريمة تكتمل عناصرها بمجرد الشروع في ارتكابها².

من المواد 4/62، 64، 75 قانون العقوبات، نجد المشرع الجزائري تدخل بالتجريم في لحظة سابقة على تحقق الضرر الفعلي، مكتفيا لاكتمال الجريمة قانونا بتحقيق الخطر بالنسبة للمصالح محل الحماية الجنائية.

¹ الجرائم المضرة بالمصلحة العامة، عبد المهيمن بكر، ص 255 وما بعدها.

² قانون العقوبات القسم الخاص، مأمون سلامة، ص 41.

فكل مساهمة في إضعاف الروح المعنوية من شأنها أن تلحق ضررا بالاستعدادات الحربية للدفاع عن البلاد، أو بالعمليات الحربية للقوات المسلحة، أو إثارة الفزع بين الناس، أو إضعاف الجلد في الأمة، يكون معاقبا عليها. فالقانون لا يستلزم تحقق الخطر أو وقوع الضرر فعلا.

المطلب الثاني: عقوبة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الداخلي

جاء في نص المادة 196 مكرر ق.ع.ج: (يعاقب بالحبس من سنة (1) إلى (3) سنوات وبغرامة من 100.000 دج إلى 300.000 دج كل من ينشر أو يروج عمدا، بأي وسيلة كانت، أخبارا أو أنباء كاذبة أو مغرضة بين الجمهور يكون من شأنها المساس بالأمن العمومي أو النظام العام. تضاعف العقوبة في حالة العود)¹.

يظهر جليا من نص المادة الجديدة في سنة 2020 أنّ المشرع الجزائري قد عاقب على جريمة الحرب النفسية إن وقعت على أمن الدولة الداخلي بعقوبة الجرح أي من سنة إلى ثلاث سنوات وبغرامة مالية، كما ضاعف العقوبة في حالة العود.

والملاحظ على هذه المادة الجديدة أنّها اهتمت بأمن الدولة الداخلي، وهو ما يحسب للمشرع الجزائري رغم التخلف عن كثير من تشريعات العالم التي جرّمت وعاقبت على مثل هذه الأفعال. كما نلاحظ المرونة في صياغتها التشريعية والخروج عن الصفة الأساسية التي تتجلى بها نصوص التشريع العقابي، والمتمثلة في دقة التعبير، ووضوح اللفظ، واستخدام الكلم الصريح للدلالة على المعاني المعينة المحددة، وذلك كلّ حرصا على سلامة تطبيق مبدأ قانونية التجريم. وإنّ خروج المشرع الجزائري عن الصفة الأساسية للتجريم وبالتالي إيقاع العقوبة، إنّما هو استثناء معروف في غالب تشريعات العالم² لأنها تقع على أمن الدولة.

¹ الأمر رقم 66-156 المتضمن قانون العقوبات الجزائري المعدل والمتمم بالقانون رقم 20-06 المؤرخ في 05 رمضان 1441هـ الموافق 28 أبريل 2020.

² من هذا القبيل مثلا في التشريعات العربية ما أورده الشارع السوري من مواد في الباب الأول من القسم الخاص في قانون العقوبات، وكذلك ما جاء به الشارع اللبناني في الموطن ذاته من قانون العقوبات اللبناني، والشارع المصري في البابين الأول والثاني من الكتاب الثاني من قانون العقوبات المصري. فالتعابير التي استخدمها الشارع العربي هنا وهناك في تجريم كل ما يمس أمن الدولة غير واضحة المعالم ولا محدّدة الأطراف، والألفاظ متشعبة تتسع لكل شيء. ومن أمثلتها المادة 77 من قانون العقوبات المصري: (يعاقب بالإعدام=

ويذهب الفقيه القانوني مُجَدُّ الفاضل إلى أن استخدام الألفاظ المرنة في صياغة النصوص التشريعية الخاصة بجرائم أمن الدولة مردّه إلى أمرين:

الأول: أنّ طبيعة هذه الطائفة من الجرائم نفسها تنبو على الدقة والتحديد وهي في أصلها وما هيته غير بيّنة المعالم والأطراف، وقد تتسع سلامة الدولة وأمنها لكثير من المعاني والأحوال والمحتويات، وقد تضيق عنها، تبعا للمكان والزمان والأزمات التي تعتري الدولة ذاتها في شتى مراحل نشوئها وتطورها.

والأمر الثاني: أنّ الشارع يرغب من وراء ذلك في أن يترك للقاضي حرية واسعة في التقدير عند تطبيق هذه النصوص المرنة على القضايا التي يفصل فيها وفقا لظروف الوقائع وأدلتها وقرائنها. ولا عاصم للفرد أو المواطن من هذا السلاح الخطير الذي تملكه الدولة سوى شرف ضمير القاضي ونزاهة وجدانه، واستقلاله، ورهافة حسّه في تمييز الغثّ من السمين. والمهم أنه لا يجوز إطلاقا أن يؤول تطبيق هذه النصوص المرنة إلى خرق مبدأ قانونية التجريم والعقاب¹.

وما يشار إليه كذلك في نص المادة 196 مكرر ق.ع.ج² أنها لم تظهر أيّ إشارة إلى جنسيّة الجاني وهي سِمَةٌ بارزة بالنسبة لمختلف الجرائم الواقعة على أمن الدولة الداخلي، بما فيها الحرب النفسية بشتى ألوانها من شائعات ودعايات وأخبار كاذبة أو مغرّضة. على عكس المواد السابقة 4/62، 64، ق.ع.ج المتعلقة بأمن الدولة الخارجي سواء جريمة الخيانة أم جريمة التجسس أين كانت جنسية الجاني ركنا أساسيا.

هذا ويلاحظ على نص المادة 196 مكرر من قانون العقوبات الجزائري خلوّها من الإشارة إلى وقت ارتكاب الجريمة.. بينما يلاحظ أنّه ينتج عن اختلاف وقت ارتكاب الجريمة من وقت السلم <

= كل من ارتكب عمدا فعلا يؤدي إلى المساس باستقلال البلاد أو وحدتها أو سلامة أراضيها). والسؤال المطروح: ما هو هذا الفعل الذي يؤدي إلى المساس باستقلال البلاد أو وحدتها أو سلامة أراضيها؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يحدد عناصر الركن المادي لهذه الجريمة، أو يبيّن مدى هذا الفعل المجرم ومحتواه؟. ومثال آخر يمس الآن بأمن الدولة الداخلي في القانون المصري نص المادة 102 مكرر: (بالحبس... وبالغرامة... أو بإحدى هاتين العقوبتين كل من أذاع عمدا أخبارا أو بيانات أو إشاعات كاذبة أو مغرّضة، أو بثّ دعايات مثيرة إذا كان من شأن ذلك تكدير الأمن العام، أو إلقاء الرعب بين الناس أو إلحاق الضرر بالمصلحة العامة).

¹ الجرائم الواقعة على أمن الدولة، مُجَدُّ الفاضل، ص56.

² القانون رقم 20-06، المتضمن ق.ع.ج.

إلى وقت الحرب أثر واضح في تخفيف العقوبة أو تشديدها في جرائم الحرب النفسية الماسة بأمن الدولة من جهة الخارج؛ كما نصت عليه المواد 4/62، 64، 75 ق.ع.ج.

كما أنّ المشرع الجنائي خرج عن نظرية المساهمة الجنائية فيما يخص الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة الداخلي، بل عاقب كل فرد نشر أو روج عمدا بأي وسيلة سمعية بصرية أو غيرها، أخبارا كاذبة أو مغرضة تمسّ الأمن الوطني؛ لأنها ببساطة من أخطر وأفتك الأساليب المستخدمة في التأثير على الجماهير والنظام والأمن، فهي تندسّ بطريقة أشبه ما تكون بالسحر، لذا فإنّ خطورة هذه الأنباء الكاذبة أو المغرضة مما يدخل في باب الشائعات تخلخل المجتمع من عدّة زوايا أهمّها:

- 1- الأخبار والشائعات تكون سببا في تعثر العمل الجماعي المنسق، بما يعرقل إنجاز العمل بأكمله.
- 2- تثير روح الانقسام في صفوف المجتمع.
- 3- تحطّم معنويات المجتمع وتزعزع إيمانه بمبادئه وأهدافه.
- 4- يفقد المجتمع ثقته في المسؤولين وإيجاد فجوة بينهم وبين أفراد المجتمع¹.
- 5- الأثر الاقتصادي الذي تخلّفه الأنباء الكاذبة والمغرضة من حيث إنْهاك اقتصاد الدولة عن طريق عرقلة العمل الجماعي داخل المشاريع.
- 6- اقتراف جريمة الكذب المحرّم وترويج الظن بين الناس².

أمّا خطورة الأخبار المغرضة على الأمن العمومي والنظام العام:

- 1- حوادث المظاهرات والشغب داخل الدولة:
- إنّ الصلة وثيقة بين الأنباء المغرضة من جهة وبين الشغب من جهة أخرى. في بعض الأحيان تسبب المظاهرات والشغب في البلد وخصوصا عندما تتعلق هذه الأخبار ببعض الفئات والطوائف المضطهدة³.
- 2- بلبلة الرأي العام ونقص الثقة في الحكومة وأجهزتها.

¹ الإشاعة وأثرها على المجتمع، مجّد القحطاني، ص14، ط1، دار طويق، الرياض، 1418هـ.

² سيكولوجية الإشاعة، أولبورت جوردون وليوبوستمان، تر: صلاح مخيمر وعبد رزق، ص68، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1964.

³ الرأي العام، أحمد بدر، ص34، ط1، دار قباء، القاهرة، دت.

3- التأثير على قرارات الدولة:

إنّ للجماعات الضاغطة والرأي العام أهمية كبيرة وذلك في تحقيق أو تعطيل البرامج السياسية أو قرارات الدولة. كما أنّ الرأي العام مهم وذلك لتنفيذ كثير من السياسات العامة المحلية أو الخارجية وما يتصل منها بالإنتاج والاستهلاك¹...

4- محاولة إرباك صانعي القرار:

الأنباء الكاذبة أو المغرضة لها تأثير عام على صانعي القرار سواء باحتمال التسرع في صنع القرار أو الإبطاء في بعض القضايا الهامة أو سوء الحكم على أمور هامة وطمس الحقائق أو إضاعة الحق.

5- إشغال المسؤولين والمواطنين عن مصالحهم الجوهرية والالتفات لقضايا فرعية.

6- صعوبة التحكم في سرعتها:

أصبح من الصعوبة التحكم في سرعة الأخبار المغرضة، وذلك لعدة أسباب أهمها تطور وسائل الإعلام والاتصال وهو ما نلاحظه في الأنباء التي تظهر في شبكة الأنترنت.

¹ الإشاعة وأثرها على المجتمع مُجَّد القحطاني، ص18.

المبحث الثاني: تصوّر للوقاية من الحرب النفسية في التشريع الجزائري

فضلا عن السياسة العقابية والتي تكلمنا عنها فيما سبق عن تجريم وعقوبة الحرب النفسية في التشريع الجزائري، والتي تعتبر إجراءات وقائية كذلك من وجه آخر، أردنا أن نتحدث في هذا المبحث عن كيفية الوقاية ورسم تصورات مصدره المؤسسات التربوية وكذا الإعلامية، وكيفية تعزيزها بتشريعات مستقبلية.

المطلب الأول: المؤسسات التربوية ودورها في مكافحة الحرب النفسية

إنّ مكافحة الحرب النفسية والقضاء على أسبابها، لا يقع على عاتق مؤسسة معيّنة أو جهة بعينها، بل هي في الواقع مسؤوليّة كل فرد واع من أفراد المجتمع، وهي بالتحديد مسؤولية القيادة السياسية والأفراد والأسرة والمجتمع وكافة مؤسسات الدولة من دون استثناء كالمؤسسات الدينية، والتربوية، والإعلامية والأمنية.... إلخ

وبما أنّ الأسرة هي المؤسسة التربوية الأولى لكل طفل، وحيث يكون لها دورا هاما وبعدا حيويا في العملية التربوية. فسأتناول دور الأسرة بداية.

الفرع الأول: دور الأسرة

تلعب الأسرة دورا أساسيا مهما في التأثير والتأثير الاجتماعي، ولا تقلّ وظيفة الأسرة عن وظيفة المدرسة والمؤسسات التربوية الأخرى¹.

ومن الحقائق المسلّم بها عند علماء النفس والتربية أنّ السنوات الأولى من حياة الطفل من أهم وأخطر الفترات في تكوين شخصيّته وتحديد ملامحها الرئيسيّة².

وإذا كان علماء النفس قد أكّدوا أهمية عملية تلقين الطفل في سنّ مبكرة، فإنّه يكفي هنا أن أقول: أنّ معظم هذا التلقين ينبثق من الأسرة.

ويتضح من هذا أنّ الأسرة كانت ولا تزال أوّل مجال تربوي يوجد فيها الطفل ويتفاعل معها، وهذه الأولوية تجعل تأثير الأسرة في الطفل عميقا، فهي المكان الطبيعي الذي يجد فيه الحماية والأمن وإشباع

¹ العلاقات العامة والمجتمع، إبراهيم إمام، ص192، ط4، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981.

² دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقل، ص156.

الحاجات الأساسية، وهي المجال الحيوي الذي تبدأ فيه أول خطوة لاتصاله بالعالم المحيط به وتكوين الخبرات التي تعينه على التفاعل مع بيئته المادية والاجتماعية.

ويبدو أنّ الأسرة كوعاء تربوي لا يقتصر تأثيرها على السنوات الأولى من حياة الطفل فحسب، وإنما تلازم آثارها الفرد في مختلف مراحل عمره، ويظهر هذا الأثر بوضوح عندما ينتقل الطفل إلى عالم المدرسة ومعه خبرات الأسرة وثقافتها ومؤثراتها بوجه عام، ولذا كان الطفل إلى حد كبير تعبير عن ثقافة الأسرة، وينعكس تحسين هذه الثقافة وإثرائها بالخبرات التربوية والموقف السلوكي الموجه على فعل المدرسة وغيرها من المؤسسات التربوية والتعليمية¹.

لذا بات من المتعذر إعفاء الوالدين والناضجين في الأسرة من الواجب الملقى على كاهلهم إزاء أجيال الغد وتحصينهم ضد كل أنواع وأشكال الحرب النفسية من دعاية وشائعة، وتعليمهم وتربيتهم على حبّ الوطن، والتمسك بأداب الدين والالتزام بالأخلاق الفاضلة، ومن ثمّ التعاون مع المدرسة وإشباع الحاجات النفسية للطفل وأهمّها الحاجة إلى الحنان والانتماء والأمن.

وتستطيع الأسرة في هذا الإطار أن تقوم بعملية تحصين مبكرة للأبناء ضد جرائم الحرب النفسية بشتى أنواعها، وتعويد الأبناء على التعاون الإيجابي مع الجهات الأمنية المعنية بحماية أمن المجتمع وسلامته من أخطار العدو النفسية الداخلية والخارجية، وتجنّب ترديد أي إشاعة سلبية بل المساهمة في مكافحتها. كما تستطيع الأسرة بواسطة تعليم أبنائها منهج التفرقة بين الصواب والخطأ، والحسن والقبح، وبذلك تجنبهم الوقوع بحائل العدو النفسية أو الوقوع فريسة للدعايات والإشاعات السلبية بأنواعها، كما تمكنه أن يعرف كيف يكسب رضا الأسرة وكيف يتجنب سخطها، ومن ثمّ كيف يكسب رضا مجتمعه وكيف يتجنب سخطه².

وقد أحاط المشرع الجزائري الأسرة بعناية كبيرة، بهدف حمايتها مما يهدد بقاءها واستقرارها؛ ولأجل أن تقوم بدورها التام في حسن التربية للأبناء والمحافظة على النسيج الاجتماعي وما يهدده من أخطار داخلية وخارجية، وهو ما ترجمته العديد من القوانين الموضوعية والإجرائية، وعلى رأسها الدستور الجزائري

¹ المرجع نفسه، ص 157.

² العلاقات العامة والمجتمع، إبراهيم إمام، ص 193.

الجديد الصادر في 2020 أين حظيت الأسرة بمكانة رفيعة، تجلّى ذلك من خلال العديد من النصوص ذات الصلة لا سيما أحكام المادة 71 والتي تنص على ما يلي: (تحظى الأسرة بحماية الدولة. حقوق الطفل محمية من طرف الدولة والأسرة مع مراعاة المصلحة العليا للطفل. تحمي وتكفل الدولة الأطفال المتخلّى عنهم أو مجهولي النسب. تحت طائلة المتابعات الجزائية، يلزم الأولياء بضمان تربية أبنائهم. تحت طائلة المتابعات الجزائية، يلزم الأبناء بواجب القيام بالإحسان إلى أوليائهم ومساعدتهم. يعاقب القانون كل أشكال العنف ضد الأطفال واستغلالهم والتخلي عنهم. تسعى الدولة إلى ضمان المساعدة والحماية للمسنين)¹.

إنه وبالنظر إلى دساتير الجمهورية الجزائرية الماضية سواء في ظل النظام الاشتراكي أو حتى في النظام الرأسمالي، صحيح أنها أولت أهمية إلى الأسرة وحمايتها، ولكن ليس بالعناية والأهمية القصوى التي جاء بها دستور 2020، ويتضح هذا جليا بالمقارنة السريعة مع مواد الدساتير السابقة، ففي دستور 1963 جاء في نص المادة 17: (تحمي الدولة الأسرة باعتبارها الخلية الأساسية للمجتمع)². وجاء في المادة 65 من دستور 1976: (الأسرة هي الخلية الأساسية للمجتمع وتحظى بحماية الدولة والمجتمع، تحمي الدولة الأمومة والطفولة والشبيبة والشيخوخة بواسطة سياسات ومؤسسات ملائمة)³.

هذا وبعد التخلي عن النظام الاشتراكي كتوجه اقتصادي واستبداله بالنظام الرأسمالي عرفت الجزائر عدة تغييرات أبرزها دستور 1989 و 1996 بتعديلين ثم دستور 2020. فنصّت المادة 65 من دستور 1989: (تحظى الأسرة بحماية الدولة والمجتمع)⁴. ودستور 1996 لم يأت بجديد في خصوص حماية الأسرة.

¹ تعديل دستور الجزائر 2020، الصادر بالمرسوم الرئاسي رقم 20-251 بتاريخ 2020/09/15، الجريدة الرسمية رقم 54، بتاريخ 16 سبتمبر 2020.

² دستور الجزائر 1963.

³ دستور الجزائر 1976.

⁴ دستور الجزائر 1989.

لكن الجديد كان في آخر دستور، حيث يظهر جليا توجه الدولة نحو سياسة أكثر نجاعة لحماية اللبنة الأساسية في المجتمع وهي الأسرة، ولم تترك حتى مجهولي النسب والأطفال المتخلى عنهم من دون رعاية؛ وهذا كله حتى لا يأت الخطر من قبل الأعداء من أي جهة من الجهات، فالحرب النفسية تستهدف الخلل والفجوات الموجودة في المجتمع. ومن الجديد كذلك بل تعتبر سابقة في المنظومة التشريعية هو المتابعة الجزائية لمن ترك تربية الأبناء.

هذا وتعد الحماية الجنائية كذلك من أبرز وأنجح الآليات التي يوقرها المشرع الجزائري حماية للأسرة، سواء كانت موضوعية من خلال مراعاة الرابطة الأسرية عند تنظيمه قواعد التجريم والعقاب، أو كانت إجرائية من خلال أخذ الرابطة الأسرية في الحسبان عند تنظيم كيفية تطبيق هذه القواعد. ونذكر من ذلك على سبيل المثال فيما يخص الحماية الجنائية الموضوعية للأسرة؛ اعتبار الرابطة العائلية سببا من أسباب الإباحة، حيث يرى الأستاذ بلحاج العربي أنه رغم عدم جواز التوسع في تفسير قانون العقوبات استنادا لمبدأ شرعية الجريمة والعقوبة، إلا أنه يمكن الأخذ في موضوع الإباحة بأحكام الفقه الإسلامي التي تبيح للزوج تأديب زوجته أو للأب تأديب أولاده، وذلك لأن العلاقة الزوجية حسبه ينشأ عنها حق الزوج في تأديب زوجته وأولاده، وهذا مستنبط من قواعد الشريعة الإسلامية والعرف والضمير الاجتماعي. ويبقى استعمال هذا الحق مشروطا ألا يترك الضرب أثرا أو يخلف عجزا أو مرضا وألا يكون المراد منه هو الإيذاء أو الشذوذ أو الانتقام وإلا اعتبر اعتداء معاقبا عليه باعتباره ضربا أو جرحا عمدا¹.

ومن الحماية للأسرة كذلك تجريم الأفعال التي تهدد كيان الأسرة وترباطها، أين اتجه المشرع إلى تجريم كل ما من شأنه أن يزعزع هذا الكيان ويخلخل هذا الترابط؛ فقد جرّم الإخلال بالالتزامات العائلية ومن صورها ترك مقر الأسرة والتخلي عن الزوجة والإهمال المعنوي للأولاد، وهي الأفعال المنصوص

¹ أبحاث ومذكرات في القانون والفقه الإسلامي، بلحاج العربي، ج1، ص363-364، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1996. القانون الجنائي العام - دراسة مقارنة-، عبد الرحمان خلفي، ص169-170، ط1، دار بلقيس، الجزائر، 2016.

والمعاقب عليها في المادتين 330 و 331 من قانون العقوبات¹. وأيضا جرم المشرع الأفعال الماسة بالأطفال ومن ذلك كل ما يعدّ تقصيرا في رعاية الطفل، ومن صورها: جريمة عدم تسليم طفل موضوع تحت رعاية الغير، وهو الفعل المنصوص والمعاقب عليه بالمادة 327 من قانون العقوبات. كذلك جريمة تقديم طفل إلى ملجأ أو مؤسسة خيرية (المادة 442 ق.ع.ج)². كما جرم المقتن الأفعال التي تعرض الأطفال والعاجزين للخطر وهي الأفعال المنصوص والمعاقب عليها في المواد من 314 إلى 318 من قانون العقوبات.

وإنّ من أهم الحماية الجنائية للأسرة نجد الجرائم الماسة بالأخلاق، والتي تشمل جريمة هتك العرض أو الاغتصاب وهو الفعل المنصوص والمعاقب عليه بنص المادة 336 ق.ع.ج، وكذا جريمة الفعل المخل بالحياء بنص المادة 335 من القانون ذاته.

كما تشمل جريمة الفاحشة بين المحارم وجريمة الزنا وتحريض القصر على الفسق وهي الأفعال المنصوص والمعاقب عليها في المواد 337 مكرر و 339 و 342 ق.ع.ج، وغيرها من الجرائم التي تمس بالأخلاق والتي لها تأثير مباشر أو غير مباشر على مصلحة الأسرة³. إذ ماذا ننتظر من أسرة مزقت بسبب أو بآخر مما ذكرناه، فهؤلاء سيكونون لقمة سائغة للمتربصين بالوطن وأمنه، فمن بين فلسفة المشرع أن لا يترك هؤلاء ويأتي التصدّع من خلالها.

وزيادة على ما وقّره المشرع من حماية جنائية موضوعية للأسرة ترتبط أساسا بتجريم الأفعال الماسة بالأسرة وتتأرجح بين إعفاء الجاني من العقاب مرّة، وتخفيف العقوبة إذا توافرت أعذارها مرّة وتشديدها إذا توفرت ظروفها مرّة أخرى، وقّر المشرع العديد من الآليات الإجرائية لحماية الأسرة نورد بعضها على النحو الآتي:

¹ لمزيد من التفاصيل حول هذه الجرائم راجع الوجيز في القانون الجزائري الخاص، احسن بوسقيعة، ص 189-215، ط 15، دار هومة، الجزائر، 2013.

² الأمر 66-156، المتضمن ق.ع.ج.

³ لمزيد من التفصيل راجع الوسيط في جرائم الأشخاص، نبيل صقر، ص 251 وما بعدها، ط 3، دار الهدى، عين مليلة، 2009.

- تقييد سلطة النيابة العامة في تحريك الدعوى العمومية وتعليقها على شكوى الطرف المضرور في بعض الجرائم الماسة بالأسرة منها مثلاً: جريمة ترك الأسرة، جريمة السرقة بين الأزواج والأقارب والأصهار لغاية الدرجة الرابعة (369 ق.ع.ج).
- صفح الضحية يضع حداً للمتابعة الجزائية.
- استحداث نظام الوساطة الجزائية في بعض الجرائم الماسة بالأسرة، بموجب الأمر رقم 02/15 المتضمن تعديل قانون الإجراءات الجزائية¹.

الفرع الثاني: دور المدرسة

تمثل المدرسة خط الدفاع الثاني في مكافحة الحرب النفسية، فالمدرسة تملك من المناهج التربوية والوسائل التعليمية ما يمكنها من تحصين الأجيال الناشئة، بالمناعة الاجتماعية والنفسية والفكرية والثقافية والعلمية ضد هذا الخطر².

ولا شك أن التعاون بين الأسرة والمدرسة ضرورة لا غنى عنها؛ لأن ما تبنيه المدرسة يمكن أن تخدمه الأسرة والعكس صحيح، مما يحتم على الآباء أن يسلوكوا في البيت ما يتفق مع اتجاهات المدرسة حتى لا يقع الأبناء في فجوة التناقض بين البيت والمدرسة.

والمدرسة بدورها أهم المؤسسات التربوية التي أقامها المجتمع لبناء الأجيال وذلك لترابطها مسؤولية مشتركة وثيقة الصلة بباقي المؤسسات التربوية الأخرى ذات الاهتمام المشترك³.

لأجل الاعتبارات السابقة وغيرها، أفردتها المؤسس الدستوري ضمن نص المادة 65 والتي جاء فيها: (الحق في التربية والتعليم مضمونان، وتسهر الدولة باستمرار على تحسين جودتهما. التعليم العمومي مجاني وفق الشروط التي يحددها القانون).

¹ الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية لسنة 2015، العدد 40.

² دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقبل، ص 162.

³ تجارب عربية ناجحة في تنظيم وتجهيز مكافحة الإرهاب، نايف محمد المرواني، ص 24، أعمال الندوة العلمية لقدرات الأجهزة الأمنية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2009.

التعليم الابتدائي والمتوسط إجباري، وتنظم الدولة المنظومة التعليمية الوطنية.

تسهر الدولة على ضمان حياد المؤسسات التربوية وعلى الحفاظ على طابعها البيداغوجي والعلمي، قصد حمايتها من أي تأثير سياسي أو إيديولوجي.

تعدّ المدرسة القاعدة الأساسية للتربية على المواطنة.

تسهر الدولة على ضمان التساوي في الالتحاق بالتعليم والتكوين المهني¹.

وغني عن القول أنّ هذا التعاون ضرورة تملّحها مصلحة المدرسة أولاً، فالتربية المدرسية — كما هو معروف — وظيفة اجتماعية لا توجد من فراغ، وإنما توجد في وسط اجتماعي وتراث يمدّ المدرسة بكثير ممّا يتعلمه تلاميذها، وكثير ممّا يحبّ الآباء لأبنائهم أن يتعلموه، لذا أصبح التفاعل بين النظام المدرسي وبين أبناء المجتمع ذا أثر كبير في تثبيت السياسة التربوية بالمجتمع أو رفض بعضها أو كلّها².

وإذا سلّمنا بأنّ البناء التربوي هو مسؤوليّة مشتركة بين المدرسة والأسرة وباقي المؤسسات التربوية الأخرى فإنّ تشكيل إنسان الغد هو محور هذه المسؤولية، وينبغي أن يقوم البناء على أسس سليمة تحقق الأهداف التربوية المرجوة.

وهذا يقودنا بالضرورة إلى النظر بعيداً لمعرفة الدور الملقى على كاهل مدارسنا في مثل هذه الظروف العصيبة التي تجتاز بلادنا وأمتنا العربية والإسلامية وفي مقدمتها الهجمة التي يقف وراءها كلّ أعداء أمتنا، والتي وصلت اليوم الذروة، مستهدفة النيل من تاريخنا وطمس عقيدتنا وإشعال الفتن الطائفية وتأجيج المشاعر الإقليمية والعرقية في محاولة دائبة لتأكيد عمليات التفتيت والتجزئة.

لذلك كان لا بد أن تقوم مؤسساتنا التربوية — بلا استثناء — وعلى رأسها المدرسة، بالنهوض بمسؤولياتها تجاه أجيال الحاضر والمستقبل، وتحصينهم من أخطار الحرب النفسية، سواء من أعداء الداخل

¹ دستور الجزائر 2020.

² دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقل، ص 163.

أو الخارج¹. وهذا الأمر يتطلب في المقام الأول إعادة صياغة جديدة لمناهجنا التعليمية، توظف في إيجاد حلول للمشكلات التي يعاني منها المجتمع، وبالأخص تلك التي تتعلق بأمنه وسلامته.

في ضوء ذلك يجب على المدرسة أن تضطلع بالآتي:

- تزويد النشء في فترة محددة بمهارات الكبار وخبراتهم وتجاربهم الكثيرة التي لا يمكنهم الحصول عليها بطريقة عشوائية.

- تنمية الخبرات والتجارب والمهارات من الشوائب التي تفسد نمو التلميذ وتسيء إلى تربيته.

- فهم حقوق المواطنة الحقّة وواجباتها كاملة إزاء مجتمعه وأهله ووطنه وأمنه وترغيبه بممارستها، والعمل بها والتمسك بنصيبه منها.

- القدرة على التفكير المنطقي الواعي المنظم الذي يقوم على الاقتناع بفكرة التطور والتغيير والتجديد، والانسلاخ عن الأفكار والمبادئ الهدامة التي تهدد أمن وسلامة المجتمع ورموزه وشخصياته وقيمه وأخلاقه وأعرافه.

وتنمية الحس الوقائي ضد الأخطار المادية والمعنوية، وتعريفه بالأبعاد الكامنة لهذه الأخطار التي تهدد سلامته وسلامة مجتمعه.

ومن هنا تأتي أهمية ربط المنهج الدراسي بالواقع والتراث الإسلامي وأن يساير الأحداث الجارية في المجتمع، وأن يعتمد حلولاً ناجعة لمشكلات المجتمع المختلفة أضف إلى هذا كله أنّ منهج المدرسة يجب أن يتسع لمعلومات تتعلق بالعدو المتربص بالأمة، والأساليب المختلفة التي يستخدمها في حملته العدائية ضد أمتنا وأبرزها الدعايات والشائعات².

لا يخفى على الدول العظمى أنّ المدرسة تعدّ من بين المؤسسات التربوية التي تركز عليها قواعد البناء والتنمية لأفرادها من خلال مراحلها المختلفة: الابتدائية والمتوسطة والثانوية والمراحل العليا المتخصصة اللاحقة من معاهد وجامعات.

¹ أسلحة الحرب النفسية - الشائعات وغسيل الدماغ - وتصور للوقاية منهما، يوسف الإدريسي، ص 256، رسالة ماجستير، غير منشورة، المعهد العالي للعلوم الأمنية، المركز العربي للدراسات الأمنية، الرياض، 1989.

² دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقل، ص 168.

ومن المؤكد أن مكافحة الحرب النفسية، وحماية شباب المستقبل الذي نعقد عليه آمالنا من الانزلاق والسقوط في يد أعداء الوطن من الداخل والخارج لا سيما مع الثورة الإعلامية؛ لن تتم إلا عن طريق إعداد أفراد المجتمع وتهديب أخلاقهم وسلوكهم بما يحقق الأمن والتنمية في المجالات كافة. وإننا نجد أنّ الممارسات التعليمية في الجزائر تقوم على دعامتين أساسيتين هما: التلقين من جانب المعلم، والحفظ من جانب المتعلم¹. فالمتعلم يعدّ وعاءاً لتلقي المعلومات والمعارف من دون أن يكون له الدور الواضح في فهم صياغتها أو إعادة ترتيبها، فهو يحفظها من أجل الامتحانات، وهذا يؤكد أن نمط التلقين هذا يجعل من الطلبة مستقبلاً، آلات أو أوعية سهلة الانقياد لحرب الأفكار ويجعلهم أكثر صرامة في تطبيقها دون تفكير أو نقاش—وهذا الأمر هو الذي ربما يبرر كون فئة الشباب هي الأكثر اندفاعاً واستماتة من أجل تحقيق تلك الأفكار؛ لأنها صارت قنوات ولو كان فيها تهديد لأمن الدولة—غير أنّ المؤسسة التربوية بإمكانها أن تشحن هذه الأوعية بما يخدم ويتناسب مع استراتيجيات الأمن ومقاومة الحرب النفسية، ويمكن للمدرسة أن تحقق ذلك من خلال توفير كل من المعلم الناجح، والمناهج الدراسية المناسبة، والمحيط المدرسي المتكامل. فالمعلم بحكم مركزته في التعاطي مع تلاميذه ينبغي له أن يكون أنموذجاً في السلوك الحسن والأخلاق الحميدة، ولذلك يجب انتقاؤه على أسس موضوعية؛ لأنه هو الذي ستوكل إليه عملية التوجيه والتكوين ويلزمه أن يتصف بالفضيلة والذكاء والقدرة على إيصال المعلومات الصحيحة للتلاميذ، وتمكينهم من استيعاب المتغيرات الحضارية وقراءة الواقع والمستقبل والتأمل والتفكير في المستجدات بعيداً عن القوالب الفكرية الجاهزة والجامدة، بل عليه أن يكون قادراً على النقاش والتفكير والإبداع².

¹ الملاحظ على المناهج التعليمية في الجزائر حتى اليوم أنها تقوم على التلقين، رغم المحاولات العديدة منذ 2004 للخروج من هذه الدائرة إلى دائرة يصبح التلميذ فيها هو محور العملية التعليمية التعلمية، أو ما يعرف بالمقاربة بالكفاءات، إلا أن الواقع يثبت تغلب طريقة التلقين في التعليم، وهو ما يجعل التلميذ عبارة عن وعاء قابل لتلقي حرب الأفكار، خاصة في ظل الثورة المعلوماتية في هذا العصر.

² دراسات تربوية في القرن الحادي والعشرون، مها جويلي، ص 22، ط 1، دار الوفاء، الإسكندرية، 2001.

كما نؤكد على أنّ المناهج المعدّة إعدادا جيّدا تساعد المعلّم على إيصال المعلومات الصحيحة والقيّمة إلى التلاميذ، وبالتالي تحصينهم وتطعيمهم في سن مبكرة، لنصل إلى الهدف المنشود ألا وهو درء الحرب النفسية المعدة بإحكام من الأعداء.

إنّ توفير البيئة الصفّيّة المناسبة، والمتمثلة في حشد الإمكانيات الماديّة (تجهيز المكتبات بالضروريات من الكتب والوسائل الإلكترونية المفيدة)، فالبيئة الصفّيّة تتكوّن من مجموعة من المؤثرات أو العوامل الفيزيائية والاجتماعية والنفسية التي يتعامل معها التلاميذ وتؤثر في سلوكهم وتتأثر فيها المواقف التعليمية داخل الصفّ، ومن طريقها يتمّ التفاعل بين المعلّم والمتعلّم وبين التلاميذ أنفسهم¹.

مع إتاحة الفرص للتلاميذ لتبادل الآراء والتحاور بكل حرية داخل الصف، بعيدا عن الدكتاتورية والكبت الذي عادة ما ينتج عنه الاحتقان ليكون من أسباب التفوق والانزواء والبحث عن بدائل ربما لا تحمد عقباها ولا تتمكن المدرسة من تأدية عملها بشكل سليم، كذلك التنسيق بين المدرسة وأولياء أمور التلاميذ وتبادل الأفكار والتعرّف على اهتماماتهم كونها أمور تساعد على وقاية التلاميذ من الانخراط في الأفكار السلبية التي تهدم دولة وتفكك أمة.

تعدّ المناهج المدرسيّة هي عماد العملية التعليمية، وهي الوعاء الذي تقدّم من خلاله المعلومة للتلميذ كي يستوعبها، ويستقي منها ما يمكن أن يساعده في مسيرته التعليمية، ولكي تصبح المناهج الدراسيّة قادرة على مسايرة العصر وقادرة على حماية التلاميذ من خطر الحرب النفسية، فإنّ هناك ضوابط معيّنة لا بد من توافرها في المناهج الدراسيّة، لكي تصبح قادرة على مواكبة التطورات السريعة في مجالات الحياة المختلفة ووضع خطة استراتيجية للمنهج الدراسي، بحيث تستلهم استراتيجية المنهج أهدافها من الدولة للسياسة التربويّة². ويقصد بذلك أن تكون الأهداف التربوية منبثقة من حاجات المجتمع المتغيرة، حيث أنّ مواصفات التلميذ في الوقت الحاضر هي نتاج للعملية التعليمية التعليمية، وهذا

¹ الدافع المعرفي والبيئة الصفّيّة وعلاقتهما بالتفكير الإبداعي، وسام سعيد، ص 57، ط1، جامعة غزة، الأزهر، دت.

² تطوير مناهج التعليم لتلبية متطلبات التنمية ومواجهة تحديات العولمة، مصطفى عبد السلام، ص 13، مؤتمر التعليم ودوره في التنمية البشرية في عصر العولمة، كلية التربية، جامعة منصور، مصر، 12-13 أبريل 2006.

يعني أنّ تحديد المهددات الفكرية والنفسية والاجتماعية في الوقت الحاضر يجب أن تأتي الوقاية منها ضمن أولويات المنهج الدراسي، بحيث يخرج التلميذ من العملية التعليمية التعلمية ولديه القدرة على التمحيص والنقد والمفاضلة بين القضايا بشكل يخدم الصالح العام.

من أجل ما سبق كان من الضروري تفعيل المعايير الخاصة بالمناهج المدرسية المعاصرة مثل:

1- أن تهدف المواد الدراسية في مجملها إلى تعميق مفهوم الولاء الوطني لدى جميع أفراد المجتمع، حيث أصبحت التنشئة الوطنية إحدى الضرورات الأساسية في هذا العصر الذي نعيشه لإيجاد إحساس عام بالالتزام والولاء للدولة والمجتمع¹.

2- يجب أن تكون المناهج التعليمية قابلة للتعديل حسب مقتضيات العصر، وألا تكون قوالب جامدة لا يمكن تغييرها أو المساس بها، فالمناهج الدراسية يجب أن تساير الواقع المعاش وتقدم حلولاً عملية لمشكلاته، منها خاصة ما يمس أمن الدولة من حرب إعلامية ونفسية².

3- أن تكون صياغة المناهج الدراسية بعقلية مفتوحة تساعد المعلم على طرح الكثير من الموضوعات حسب المقتضيات المتغيرة، والبعد قدر الإمكان عن القوالب الجاهزة، وهذا لا يتأتى إلا إذا وصلنا إلى تحديد معايير جديدة لاختيار معلمين همّهم بناء الوطن فضلاً عن الكفاءة وغيرها.

4- تعزيز المناهج المدرسية بغية الوصول إلى بناء منظومة من القيم لدى التلاميذ؛ كي يصبحوا قادرين على تمييز ما تبثّه وسائل الإعلام المختلفة، محصّنين ضد الحرب النفسية بمختلف صنفها³.

في الأخير نقول أنّ المدرسة تستطيع أن تقوم بأعظم الأدوار المؤثرة في مواجهة الحرب النفسية والشائعات والدعايات، وذلك عن طريق خلق الوعي وتطويره، وعرض لصور الحرب النفسية والسبيل إلى القضاء عليها، وكيفية مواجهتها ومنع انتشارها.

¹ دور التعليم في تعزيز الانتماء، لطيفة خضر، ص12، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2000.

² المناهج المفهوم العناصر الأسس التنظيمات التطوير، حلمي أحمد، محمد أمين المفتي، ص172، ط1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1999.

³ الشائعات ووظيفة المؤسسات الاجتماعية في مواجهتها، إبراهيم الجوير، ص44.

الفرع الثالث: دور الجامعة

إنّ التحديات التي تواجهها والمخاطر التي تقترب من أمننا واستقرارنا بفعل الحرب النفسية، تتطلب تدخلا عاجلا لمؤسساتنا التعليمية الجامعية لصدّ تلك الهجمات، والإسهام الفعّال في تحقيق الأمن. ولعلّ من أبرز الوظائف المنوطة بالجامعة في ظلّ عالم مضطرب تسوده نيران الحروب والفتن مثل علمنا العربي والإسلامي، أن تضطلع بالآتي:

1- إيجاد الحلول الناجعة للآثار المدمرة للحرب النفسية الماسّة بأمن الدولة، وتخصيص قدر واف من مناهجها وبرامجها ودراساتها لمناقشة هذه الظاهرة القديمة الجديدة على نحو علمي موضوعي، وإيجاد الحلول المناسبة ووضعها كأسلحة بأيدي شباب الأُمّة المثقفين، ذلك أن تبصير شباب وأبناء الأُمّة بخطورة الحرب النفسية وتدريبهم على مقاومتها والردّ عليها يدخل في صميم العملية التربوية التي ينبغي أن تقوم بها جميع المؤسسات التربوية والتعليمية وخاصة الجامعات والمعاهد العليا¹.

2- من الأجدر أن يتناول المنهج الجامعي دروسا عن الكتمان وحفظ المعلومات المهمة والخطيرة التي قد يحصل عليها بطريقة أو بأخرى، خصوصا الأسرار العسكرية والسياسية والأمنية، لما في ذلك من أضرار وخيمة على الدولة².

3- يجب أن تلقى المحاضرات داخل الجامعة لتنوير البيئة المحليّة بأخطار إفشاء الأسرار خاصّة في مثل هذه الظروف التي تواجه فيها أمتنا أكثر من عدوّ يهدد استقرارها العام.

4- إنّ وجود مقرر دراسي على مستوى الجامعة يتعلق بالحرب النفسية بات مطلبا ضروريا تمليه عوامل داخلية وخارجية وتنبيه الشباب الجامعي إلى مكر العدوّ وخبثه وتعريف الشباب الجامعي بالأساليب التي يمكن أن ينفذ منها العدوّ إلى قلب المجتمع ورئته النابضة (الشباب) الذي يعدّ بمثابة جوهر جسم الأُمّة

¹ أسلحة الحرب النفسية - الشائعات وغسيل الدماغ - وتصور للوقاية منهما، يوسف الإدريسي، ص 257.

² دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقل، ص 171.

5- يجب على الجامعة أن تسهم بجدية في البحوث النظرية والميدانية لمكافحة الحرب النفسية، من خلال علماء النفس والاجتماع؛ للوقوف على حقيقة الدوافع الكامنة وراء ظهور الدعاية والإشاعة والتوصل إلى أسبابها، ووضع العلاج للقضاء عليها¹.

6- بما أن الجامعة إحدى أبرز مؤسسات المجتمع المهمة، تستطيع أن تفتح أبوابها لدعوة كل ذي اختصاص بمكافحة الحرب النفسية من علماء الدين والقانون والاجتماع والنفس والسياسة والاقتصاد والصحافة والإعلام ورجال الأمن والقادة العسكريين والمدنيين؛ وذلك للمساهمة في الجهد الوطني العام.

الفرع الرابع: دور المؤسسة المسجدية

إنّ للمسجد أعظم الأثر في قلوب المؤمنين وعقولهم، ومن منّا لا يعرف ما كان للمسجد من مكانة عظيمة ودور فعال نشط في صياغة الجماعة الإسلامية على كل المستويات الدينية والخلقية والروحية والحرية... إلخ إذ منه يخرج القرار السياسي وقرار الحرب وفيه أهل الحلّ والعقد وفيه المدرسة والجامعة، فكان فكرا وروحا قبل أن يكون مبنئ وشكلا وكان قلب الجماعة الإسلامية النابض والمصنع الذي يصنع الفرد والجماعة على الأسس الإسلامية الصحيحة، مواصلا دوره بصفة دائمة في تنمية الوازع الديني والروح الإسلامية وتنقية النفس وصقل وتدريب الإنسان على الخضوع والاستسلام لله وحده دون غيره². وهذا الدور الكبير للمسجد هو امتداد للدور الذي بدأه الرسول صلى الله عليه وسلم في مسجده بالمدينة المنورة فقد أصبح المسجد النبوي منذ اليوم الأول لقيامه مركزا للجماعة الإسلامية التي ولدت بولادته، ولقد بنى المسجد في الأساس لإقامة الصلوات ولكنه لم يلبث أن أصبح قلب الجماعة النابض ورمزا رائعا لوحدها، يجتمعون فيه ويتبادلون الرأي والمشورة.

والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ما إن انتهى من بناء حجراته الخاصة بالمسجد حتى اتخذ مركزا سياسيا للجماعة وفيه يعقد الاجتماعات مع أصحابه رضوان الله عليهم، ويتبادلون معه الرأي ويتخذ ما يرى من القرارات³.

¹ محددات الإشاعة في السلم والحرب، عبد الله بن ربيع، ص 234.

² الشائعات ووظيفة المؤسسات الاجتماعية في مواجهتها، إبراهيم الجوير، ص 39.

³ دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقبل، ص 162.

إذا يتبين مما تقدّم أن المسجد لم يكن دائماً مجرد مصلى فقط، بل هو جزء لا يتجزأ من بناء الشخصية الإسلامية، فكما أن الإنسان لا يستطيع أن يتصور إسلاماً بغير مسلمين فكذلك لا يمكن أن تقوم جماعة إسلامية بدون مسجد يؤدي لها الوظائف الدينية والسياسية والاجتماعية.

ومعنى هذا كله أنه يمكن للمسجد أن يؤدي وظيفة مهمة في عملية توعية الناس وتنبههم لأخطار الحرب النفسية خاصة منها الإشاعات، ومدى ما يمكن أن تحدثه من تخريب فادح في كيان المجتمع الداخلي والخارجي وذلك من خلال توظيف الدرس الديني وخطب الجمعة للحديث عن هذه الجريمة وبيان موقف الدين منها ومن كل أشكال الحرب النفسية الأخرى، وعلى المرشدين والوعاظ أن يسهموا بدور فعال في هذا المجال، وأن يكون لهم الدور البارز في التوعية الدينية والخلقية والاجتماعية¹.

وفي ضوء ذلك فإنّ من المهام والواجبات التي تدخل ضمن وظيفتهم، والدور المتوقع منهم الذي يمكن أن يسهم بفاعلية في الوقاية من الحرب النفسية وأخطارها ما يلي:

1- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

2- نشر الوعي الديني والاجتماعي وتوجيه الناس إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة، وبيان ما دعى الإسلام إليه من فضائل الصدق ومحاسن الأخلاق، وما نهى عنه من الكذب والغيبة والنميمة والفرقة والجن والتخاذل والضعف والجزع، وإيذاء الناس وترويج الباطل والإشاعات والأكاذيب والإفساد في الأرض والإرجاف وغير ذلك مما نهى عنه الإسلام، وإن حرب أعداء المسلمين على الأخلاق حرب ضروس، فهم يعملون بكل ما أوتوا من مكر ودهاء، وبكل الوسائل المادية، ليعثروا قوى المسلمين المتماسكة وليفتتوا وحدتهم².

3- تقديم النصح الواعي المخلص لأولي الأمر وكافة المسلمين، والإسهام في تقوية الوازع الديني والخلقي والاجتماعي لدى الناس.

4- بيان موقف الدين من مختلف القضايا والمشكلات الاجتماعية بما في ذلك الدعاية والإشاعة ونشر الأخبار الكاذبة، مع بيان منهج الإسلام في معالجته لها وطرق الوقاية منها عموماً.

¹ محمّدات الإشاعة في السلم والحرب، عبد الله بن ربيع، ص235.

² الأخلاق الإسلامية وأسسه، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص37، ط5، دار القلم، دمشق، 1999.

- 5- تبصير الناس بمخططات الأعداء وما ترمي إليه من إثارة البغضاء والفرقة وتفكيك وحدة الأمة.
- 6- ترسيخ العقيدة وغرسها في نفوس الناس واعتبارها الحصن المنيع الذي يتحصّن فيه الفرد والجماعة الإسلامية ضد الآثار السلبية المدمرة للحرب النفسية التي تنشأ في الداخل والخارج.
- 7- رفع معنويات الناس وبتّ الأمل والطمأنينة والاستقرار في نفوسهم¹.

المطلب الثاني: دور المؤسسات الإعلامية في مكافحة الحرب النفسية

وجد الإعلام مع الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض، ولكن وسائله تطورت بشكل مذهل، مما زاد من اهتمام العلماء والمفكرين والباحثين بهذا الجانب في حياة الإنسان، فأخضعوه للدراسة العلمية الجادة، حتى توصّلوا إلى ما تنعم به الإنسانية اليوم من صحافة وإذاعة وتلفزة وسينما ومحاضرات وندوات ومعارض. واستخدمها الإنسان في نمو تفكيره، وتنوير عقله. وستناول في هذا المطلب دور المؤسسات الإعلامية في مكافحة الحرب النفسية من خلال التطرق إلى الإعلام ودوره في تكوين الرأي العام، ثم نتناول الإعلام الأمني ودوره في مكافحة الحرب النفسية، لنختم بالإعلام الحربي وأثره في مكافحة الحرب النفسية.

الفرع الأول: الإعلام ودوره في تكوين الرأي العام

الإعلام هو عملية نشر الحقائق والأخبار والأفكار والآراء، وإيصال المعلومات من مصدر إلى آخر عبر وسائله المختلفة، ويفترض أن يكون التعبير الموضوعي عن عقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها بهدف التفاهم والإقناع وكسب التأييد².

كما يهدف الإعلام من نشر الحقائق والأخبار والآراء، أن يزوّد الناس بالمعلومات الصحيحة الصادقة؛ ليتمكّنوا من تكوين رأي عام سليم إزاء ما يحيط بهم من مشكلات، خصوصا بعد أن كثرت وسائل الإعلام بحسب الإمكانيات المادية³.

¹ دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقبل، ص 162.

² الأسس العلمية لنظريات الإعلام، جيهان رشتي، ص 12، ط 3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1979.

³ الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام، سمير حسين، ص 09، ط 2، عالم الكتب، القاهرة، 1987.

ويعدّ من أهمّ عناصر تعزيز الدور الوظيفي للإعلام، عنصر مقاومة الحرب النفسية من شائعات ودعايات، والتقليل إلى أقصى درجة من آثارها. وفي الحقيقة أنّ وسائل الإعلام وحدها قادرة على كشف النتائج البعيدة المترتبة على الحرب النفسية وسلباتها، فهي الوسيلة الوحيدة التي تذيب وتصور الحدث سواء ما يعرفه المجتمع أو يجهره، ففي الحرب التقليدية نعرف العدو ونواجهه وجها لوجه في ساحة المعركة، أمّا في الحرب النفسية فإنّ العدو يختفي وراء الصحافة والإذاعة والأحداث والأصدقاء والنكات¹.

وهذا يعني أنّ الحرب النفسية حرب خفية لا تكون وجها لوجه أو مباشرة، وربما تكون وسيلة بعيدة المدى، وقد لا يظهر تأثيرها مباشرة كالمعارك الحربيّة مثلا، وقد تظهر نتائجها بعد سنوات من إطلاقها، وقد تكون الآثار المترتبة عليها بعيدة، وعلى العموم يصعب تقدير أثرها تقديرا كميا.

ومن هنا تأتي أهمية وسائل الإعلام في رصد الإشاعات والألوان المختلفة للحرب النفسية، فنحن أحوج ما نكون لمؤسساتنا الإعلامية اليوم التي تكشف لنا الغطاء عن حرب الدعاية المعنوية، وحرب الأفكار، وحرب الأيديولوجيات، والحرب النفسية. وهذه الحرب أكثر خطورة من الحرب العسكريّة؛ ويرجع ذلك بسبب استخدامها وسائل ظاهرة وباطنة مختلفة تهدف إلى التأثير على أعصاب الناس ومعنوياتهم ممّا يحول دون احتياطهم لها².

وهنا لابد من الإشارة إلى العلاقة بين وسائل الإعلام من جهة، والرأي العام والإشاعة من جهة أخرى، فوسائل الإعلام من أهمّ عناصر تكوين الرأي العام؛ لأن الفرد متعلما كان أو أميا لا بد أن يقرأ جريدة أو يسمع مذياعا أو يشاهد تلفازا، ولا بد أن يتأثر بوسائل الإعلام بأية حال من الأحوال، والإشاعة وثيقة الصلة بالرأي العام، وهي أيضا من عناصر تكوينه، فهي لم تصدر من الناس ولم يروجوها إلا لكونها تمسّ موضوعا ذا أهمية بالغة بالنسبة لهم أو لقطاع واسع منهم، وقد ينعكس الأمر أحيانا فيكون الرأي العام مساهما في صنع الإشاعة؛ فتصدر الإشاعة وتنطلق محمّلة بثقافة هذا المجتمع، متأثرة بعاداته وقيمه وأنماط حياته، ومعبرة عن اهتمامات وتطلعات الرأي العام فيه³.

¹ دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقبل، ص 173.

² دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، فهمي توفيق مقبل، ص 174.

³ الإشاعة، أحمد نوفل، ص 114-115.

وهنا سؤال يطرح نفسه: كيف تؤدي وسائل الإعلام دورها في الوقاية من الحرب النفسية الماسّة بأمن الدولة؟.

ويجاء عن ذلك بأنّ من أهمّ الوظائف التي تقوم بها وسائل الإعلام في المجتمع، مكافحة الإشاعة والدعاية التي تهدد الأمن العام، والتقليل من آثارها إلى أقصى درجة ممكنة؛ لأنها قادرة على كشف النتائج التي قد تترتب فيما بعد على الإشاعة والدعاية وسلباتها، ووسائل الإعلام هي الوحيدة التي تذيب الحدث وتصوره بشكل تام، سواء كانت ممّا يعرفه المجتمع أو يجهله، وتكمن أهميّة وسائل الإعلام في رصد الإشاعات وجميع أشكال الحرب النفسية الأخرى وكشفها، وذلك باتباع الخطوات الآتية:

1- تقديم الأخبار الصحيحة بشكل مستمر؛ لأنّ أسلحة الحرب النفسية تنشر عادة في الأوساط التي تنعدم فيها الأخبار الصادقة، هذه الأخيرة تعدّ علاجا وقائيا ومضادا فعّالا.

2- نشر الحقائق والمعلومات الصحيحة وتجنّب التعقيم الإعلامي على الأخبار، إلّا ما كان يتعلّق بالآداب والأخلاق العامة وقضايا الأمن الوطني¹.

3- منح المواطن حقّ استخدام الإعلام للتعبير عن آرائه وأفكاره ضمن الضوابط الشرعيّة والأنظمة القانونيّة، من أجل بناء الإنسان على أساس من المسؤوليّة والوعيّ والشعور بالولاء للتنظيم السياسي للدولة مع الإيمان بالقيم والمبادئ الدينيّة والخلقيّة².

4- تجنّب ترديد الإشاعة -والتي تعدّ أخطر أسلحة الحرب النفسية المعادية- من خلال وسائل الإعلام بقصد تكذيبها، والأفضل من ذلك إصدار البيانات الصريحة التي تقضي على مصدرها، وكثيرا ما يجد رجل الدعاية أنّ من الصعب محاربة الإشاعة، فلو سكت عليها قد تزداد انتشارا، ولو حاول تكذيبها فسيجعل من لم يسمع هذه الإشاعة يسمعها عن طريقه، ولذلك فإنّ الوسيلة المثلى لتكذيب الإشاعة أن تكون بطريق غير مباشر، أو بكشف مصدر الإشاعة وقصد العدو منها، وهذا يتطلّب مهارة من رجل الدعاية، كما يمكن مقاومتها بوسيلة بثّ الوعي ضدّ إشاعات العدو³.

¹ الحرب النفسية والشائعات، معتز سيد عبد الله، ص 332.

² المرجع نفسه، ص 333.

³ الإعلام والدعاية نظريات وتجارب، عبد القادر حاتم، ص 179.

- 5- تنمية ثقة الناس بالأخبار التي تبثّ لهم، وبيان خطورة تداول الإشاعات على الروح المعنوية، ومن ثمّ الأمانة كاملة.
- 6- اقتفاء خط سير الإشاعة الهدامة للأمن، ومحاولة الوصول إلى جذورها، ممّا يساعد على وضع يد المسؤولين على مروجي الإشاعات الذين ارتكبوا جريمة نكراء بحقّ أمّتهم ووطنهم.
- 7- تجنّب إذاعة الأخبار والمعلومات المتعلقة بالظروف العسكرية والاقتصادية؛ لتفويت الفرصة على العدو من محاولة التقاطها والاستفادة منها، واعتبارها أسراراً لا يجوز المساس بها.
- 8- التغطية الإعلامية الشاملة للندوات والمحاضرات التي تعقد بغرض مكافحة الإشاعة وكشف مخططات العدو في حربه النفسية، وإبراز نماذج وعيّنات من الإشاعات الكاذبة، وتسليط الضوء على جذورها، وتكذيبها ورفضها بأساليب منطقية وحقائق واقعية ملموسة¹.
- 9- إزالة كافة الظواهر السلبية التي ربّما يستفيد منها العدو في نشر الإشاعة كالأمية والعوز الماديّ، مع تحصين المواطن ضد أخطار الحرب النفسية وأنماطها.
- 10- يعدّ التلفاز من أكثر وسائل الإعلام فاعلية في الردّ على الحرب النفسية ومكافحتها، بالنظر لنقله الصورة والصوت معاً؛ ولأنّ الوقائع المشاهدة أكثر ثباتاً في الذهن من الاستماع أو القراءة، لا سيما إذا تولّت ذلك شخصيات اجتماعية تتلقّى احترام وتقدير الناس وثقتهم في الوقت نفسه.
- 11- غرس القيم والمبادئ الدينيّة والخلقيّة والمثل العليا في نفوس المواطنين، وتنميّة الشعور بالقوّة والثقة بالنفس².

¹ محمّدات الإشاعة في السلم والحرب، عبد الله بن ربيع، ص 240.

² الحرب النفسية والشائعات، معتر سيد عبد الله، ص 334-335.

- 12- التخلص من أسلوب التلقين في التعليم واتباع أساليب قائمة على التحليل والمحاورة وإعمال العقل والمنطق؛ لكي يستطيع كل فرد مستقبلاً أن يقف موقف المحلل لما يسمع أو يشاهد أو يقرأ.
- 13- الاعتماد على الحوار في القضايا العامة بديمقراطية ومرونة.
- 14- تخفيف الرقابة على وسائل الإعلام إلى أدنى المستويات واعتماد الرقابة الذاتية المستندة إلى خلفية ثقافية جيّدة، والوعي والإدراك الحقيقي للأمور التي تهمّ المصلحة العامة. (وهو ما نرجوه من خلال التعديل الجديد لقانون الإعلام الذي سيعرض على طاولة الحكومة)¹.
- 15- تطمين الحاجات النفسيّة والاجتماعية للمواطن من خلال وسائل الإعلام؛ لكي لا يلجأ إلى وسائل الإعلام المعادية التي تقوم بنشر الشائعات المعادية.
- 16- اعتماد أساليب الإعلام الموجّه: التوعية في الصحافة، برامج موجهة في الإذاعة، عقد الندوات المفتوحة في التلفزيون لغرض وضع الحقائق أمام الجمهور، وجعله يقوم هو بالاختيار الرشيد بين الحقائق الناصعة².
- 17- تحقيق مبدأ أمن المعلومات، لا سيما في أجهزة الكمبيوتر، بحيث لا يستطيع العدو أو عملاؤه السطو عليها واستخدامها لأغراضهم.
- 18- قيام الدولة بشرح سياستها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية واتجاهات سياساتها الداخلية والخارجية للمواطن.
- 19- إيجاد القنوات الإعلامية والمواقع الإلكترونية الكفيلة بملء فراغ الشباب والناشئة بما يفيدهم ثقافياً وعلمياً وعقلياً وجسدياً؛ للقضاء على الملل والخمول؛ اللذين يعدّان من العوامل المساعدة لترويج الحرب النفسية.
- 20- تحقيق التماسك الاجتماعي، وإضفاء الاحترام على قادة الرأي والسياسيين؛ للاستفادة منهم في دحض الحرب النفسيّة³.

¹ www.ennaharonline.com بتاريخ 12 ديسمبر 2022.

² الإعلام والاتصال بال جماهير والرأي العام، سمير حسين، ص 33.

³ العلاقات العامة والمجتمع، إبراهيم إمام، ص 196.

21- كتمان القادة السياسيين والعسكريين للأخبار والمعلومات المهمة عن الظروف العسكرية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية للوطن، وعدم البوح بها.

22- إدخال نصوص قانونية جديدة في قانون العقوبات خاصة -على غرار التعديل الأخير والمادة 196 مكرر¹- تعاقب وبشدة لكل من يروج شائعات أو دعايات أو أخبارا كاذبة تهدد سلامة الوطن وتقوّض الأمن العام، حتى ولو كان من رجال الإعلام؛ وهذا لا يتنافى مع حرية التعبير المكفولة لهم دستوريا.

كخلاصة لما سبق يمكن للأخبار أن تكون سلاحا ذا حدين: تقوم بنشر الشائعات في حالة تحريفها أو التعتيم عليها أو إيراد نصف الحقيقة من خلالها أو تفسيرها تفسيراً مغرضاً، كما يمكن لها أن تكون أداة لمكافحة الشائعات والحرب النفسية عامة عندما تحافظ على معايير الصدق والموضوعية والدقة في إيراد المعلومات.

صحيح أنّ السلطات الرسمية تستطيع توجيه الأخبار لمصلحتها بل واحتكار تفسيرها. غير أنّ ذلك لا يحقق لها ما تصبو إليه من السيطرة والتأثير؛ لسببين رئيسيين: قوّة الاتصال الشفوي الشخصي من جهة. ولوجود الشخص الثالث المتمثل بمصادر المعلومات (كالإذاعات الأجنبية، والصحافة، والمعارض والفيسبوك والتويتر) غير الرسمية من جهة أخرى، والتي يلجأ إليها المواطن عندما يشكّ في صدق الأخبار التي تدّعي عليه من السلطات الرسمية، حيث أنّ الإصراف في توجيه الأخبار والسيطرة عليها؛ يؤدي إلى نشوء موجة من الحرب النفسية على حساب العزوف عن الأخبار الرسمية ذات الوتيرة الواحدة خاصة في حالة الحرب².

ومن هنا فإنّ مكافحة الناجعة للحرب النفسية بوسائل الإعلام المختلفة، لا تتمّ إلا من خلال العمل الإعلامي الناجح المستند على العلم وفق أسس مدروسة وتخطيط محكم وبرامج مثمرة.

¹ القانون رقم 20-06، المؤرخ في 28 أفريل 2020، المعدل والمتمم للأمر رقم 66-156 والمتضمن قانون العقوبات، الجريدة الرسمية رقم 25، بتاريخ 29 أفريل 2020.

² دور الإعلام في السلم والحرب، سعيد زايد، ص 13.

وإنّ التخطيط المحكم، يوجب تأليف لجنة عليا مختصة في شؤون القانون وعلم النفس والاجتماع والإعلام والسياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا البشرية، ترتبط بالدوائر المعنية بمكافحة الحرب النفسية في وسائل الإعلام. ودراسة كل ما كان حربا نفسية؛ للوقوف عليها، ومعرفة الشروط أو الظروف المعينة التي سبقت ظهورها شفاهاً أو في وسائل الإعلام. ومن ثمّ تحليلها ومعرفة أهدافها للوصول إلى تنفيذها بالطرق المذكورة سلفاً. و تحضيراً للحرب النفسية المضادة.

مما سبق توصلنا إلى أنّ الإعلام هو: نشر للحقائق والأخبار والأفكار والآراء بوسائل الإعلام المختلفة¹.

فالمؤسسة الإعلامية في أيّ مجتمع هي المسؤولة عن صياغة ونشر وتوزيع الأخبار والمعلومات والأفكار والآراء، وبالتالي تصبح من أهمّ الوسائل الفاعلة في أيّ مجتمع لتغيير القيم والاتجاهات، ولتعزيز أيّ سلوك إيجابي وتكريسه، وتهميش أيّ سلوك سلبي في نفس المجتمع.

ولذا تعتمد الحكومات والمؤسسات الحكومية والخاصة ومؤسسات المجتمع المدني والجمعيات والهيئات ذات الصلة بالمجتمع وشرائحه، على وسائل الإعلام الجماهيرية بأنواعها المختلفة في الوصول إلى الجمهور المستهدف وتحقيق الأهداف المتوخاة من ذلك الاتصال، فأجهزة الإعلام تخاطب الجمهور مباشرة، ودورها كبير ومتزايد في التأثير عليه².

والمؤسسة الإعلامية تضطلع بوظيفة مهمة وبارزة في تشكيل ونقل وبتّ المعلومات والاتجاهات إزاء العديد من القضايا والموضوعات، وخاصة ما تعلق بالحرب النفسية من شائعات وغيرها، فهي تملك أسلحة ووسائل متعددة قد تستخدم في نشر الشائعات والترويج لها بوجه سلبي، وبالإمكان دحضها والعمل على القضاء عليها والحدّ من تأثيرها وانتشارها، وهو وجهها الإيجابي المرجو والمنشود للقضاء على الحرب النفسية في مهدها³.

¹ مدخل لعلوم الإعلام والاتصال، زهير إحدادن، ص 07، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002.

² الشائعات وخطرها في ظل وسائل الإعلام الجديد، علي الكلباني، ص 156، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2017.

³ المرجع نفسه، ص 159-160.

- ويمكن استعراض مجموعة من الاستراتيجيات التي يمكن أن تتبعها المؤسسات الإعلامية للتصدي للحرب النفسية، والتي تقوم على مبادئ وأسس ذكر الحقائق والإفصاح والشفافية وسرد الحقائق وتفسير الأحداث. وأبرز هذه الاستراتيجيات في التصدي للحرب النفسية نذكر:
- 1- استراتيجية التركيز: والتي يقصد بها استخدام وسائل إعلامية متعددة لتوصيل الرسالة للجمهور.
 - 2- الاستراتيجية الديناميكية النفسية: والتي تعتمد على عوامل إدراكية أو عاطفية للتأثير في الفرد أو الجماعة.
 - 3- الاستراتيجية الثقافية الاجتماعية: والتي تقدّم رسائل إعلامية مقنعة تحدد المتطلبات الثقافية وقواعد السلوك لدى الأفراد والجماعات بحيث يؤدي ذلك إلى التعديل في السلوك الاجتماعي.
 - 4- استراتيجية الموقف المشكل: وهي تستخدم لتعريف الجمهور بالأخبار والآراء وقت الأزمات، ومن ثمّ تقييم أداء وفاعلية النظام الإعلامي.
 - 5- استراتيجية الاتصال الوقائي: وهي تستخدم في توعية الجمهور بمفهوم الحرب النفسية والظروف المحيطة والمرتبطة بنشأتها وتطورها والمخاطر الناجمة عنها¹.

الفرع الثاني: الإعلام الأمني

أظهرت الأحداث العالمية المتلاحقة، والثورة الإعلامية المنفتحة، ضرورة وجود إعلام منظم، وبخاصّة في ظلّ الحرب النفسية والشائعات التي تظهر على مدار اليوم، وزيادة عدد القنوات التلفزيونية والإذاعية ومواقع الأنترنت وتنوعها، وعمق تأثيرها في المجتمع، خاصة في ظلّ تراجع مفهوم السيادة الوطنية. حيث برز مفهوم الإعلام الأمني بشكل كبير في الفترة الأخيرة، كمفهوم جديد في حقل الإعلام العام. فهو مجال جديد في حقل الإعلام المتخصص. تماشياً مع التخصص في مختلف المهن، حيث أصبح لكلّ إعلام متخصص جمهوره الخاص².

¹ الإعلام والأزمات مدخل نظري وممارسات عملية، مجّد شومان، ص 187، ط1، دار الكتب العلمية، القاهرة، 2002.

² دور الإعلام في إعداد الدولة للدفاع، سمير فرج، ص 17، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، أكاديمية ناصر العسكرية العليا، القاهرة، 1998.

ومسؤولية حفظ الأمن هي مسؤولية مجتمعية وليست مقصورة على أجهزة الأمن فقط، بل تتحملها كل الأجهزة في الدولة، ومنها وسائل الإعلام والصحف بأنواعها المختلفة. واستخدام الوسائل الإعلامية وتوظيفها بشكل هادف؛ لمواجهة الحرب النفسية على نحو قادر على التعبير عن الأحداث بشكل موضوعي، يخلق الثقة في نفوس المواطنين، ويحقق الشعور بالأمن¹. ويثور الجدل بين رجال الأمن من جهة، وبين رجال الإعلام من جهة أخرى، منذ ظهور الفوضى الإعلامية، حيث يؤمن بعض رجال الإعلام أنّ الحرية الإعلامية ليس لها حدود؛ لأنها تساعد على تحقيق العدالة، وإخضاع رجل الأمن للنزاهة والدقة والشفافية. بينما يرى بعض رجال الأمن أنّ حرية الإعلام قد تعوّق الأمن، وتتعارض مع سرية المعلومات أحيانا، وقد تساعد على نشر البلبلة والشائعات والمعلومات المضللة للعدالة.

وقد شهد الإعلام في الآونة الأخيرة طفرة كبيرة لم تحدث من قبل، فتعددت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة وتطورت بشكل كبير، وازداد استخدام الأقمار الصناعية والإنترنت في الاتصال، كما احتلت الأنترنت مركز الصدارة بين وسائل الإعلام خاصة في تأثيره على الشعوب. والجزائر لا تتبني نظام إعلامي واضح، فالجزائر قبل 2012 كانت تنتمي إلى نظام إعلامي حكومي يخضع للسلطة في كل شيء، ثم تحولت إلى نظام إعلامي مختلط منذ صدور قانون الإعلام الجديد 2012-05². وتكمن مشكلة بعض رجال الإعلام الجزائري في فهم معنى الحرية الإعلامية، حيث يتصورون أنّ الإعلام الحرّ هو الإعلام الذي يناسب الحكومة العداء دائما، والاختلاف مع الحكومة وانتقادها كقاعدة للبرامج الحوارية.

إنّ الاهتمام بدراسة الإعلام الأمني في مواجهة الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة له أهمية خاصة، لذا فتحديد إطاره العلمي يحتاج إلى دراسة كاملة بما يحقق التوازن بين حرية الإعلام، ويحفظ في الوقت نفسه الحق في الأمن، ويحمي مقدرات المجتمع، وهذا بالوصول إلى منظومة تشريعية متكاملة.

¹ الإعلام الأمني ودوره في مواجهة الحرب النفسية، وليد النمر، ص5، ط1، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2018.

² القانون العضوي رقم 05-12 المؤرخ في 18 صفر 1433 هـ الموافق ل 12 يناير 2012 المتضمن قانون الإعلام.

يعتبر الإعلام الأمني من الوسائل الأساسية لمواجهة الحرب النفسية، فهو من أنواع الإعلام الهامة في حد ذاتها، ومن ناحية أخرى هو إعلام متخصص يساهم في التوعية ضد الجريمة والإرهاب، ويشرح وجهة نظر الأجهزة الأمنية، كما يقوم على توعية رجال الأمن بأهداف الدولة الاستراتيجية، كما يلعب دورا مهما في تكوين الرأي العام، من خلال بثّ البيانات والتصريحات والأخبار الأمنية بشكل مباشر عن طريق المتحدث الرسمي، أو بشكل غير مباشر عبر قنوات الإعلام المختلفة¹.

تركّز الحرب النفسية على اهتمام الناس بموضوع معيّن في لحظة ما، مثل حالة حرب أو عمليات إرهابية، أو وباء أو حتى سوء حالة الجوّ وسقوط الأمطار، أو ارتفاع الأسعار أو اختفاء السلع، أو ثورة أو مظاهرات ضد أحد الحكومات، أو غير ذلك من المشكلات والقضايا الهامة التي تشغل اهتمام الرأي العام.

وأيّا كانت المناهج المستخدمة في الحرب النفسية، فإنّ الفكرة الأساسية التي تقوم عليها هي تنمية اتجاهات مؤيدة وقوية داخل المجتمع، وكذلك تنمية المشاعر والآراء والمعتقدات الموالية للدول الصديقة، مع تكوين اتجاهات معادية ومعارضة نحو العدو باعتباره كيانا خطرا علينا، وباعتباره خارجا عن مصالحنا، أي صبّ المشاعر العدوانية على عدوّ خارج عن المجتمع².

والإعلام له تأثير كبير في مجال الحرب النفسية، فقد يظهر المجتمع على أنه عنيف بصورة أكثر من الواقع، وقد يصوّر مجتمعا على أنّه غارق في الترف والرخاء، الأمر الذي يتطلّب من متلقّي الرسالة الفحص والتمحيص والدقة في قبولها أو رفضها باستخدام العقل والمنطق وليس العاطفة أو الانفعال.

ويميل الجمهور إلى قبول الحرب النفسية التي تسبب لهم الإحساس بالسعادة أكثر من التي تسبب لهم الشعور بالحزن والقلق والضيق واليأس، فالحرب النفسية التي تبعث على الأمل يقبلها الناس، مثل الدعاية التي تشير إلى قرب انتهاء الحرب أو قرب موعد النصر النهائي، أمّا الدعاية التي تثير الخوف والرعب والهلع والفرع والقلق والضيق والتشاؤم، فتسمّى بالدعاية السوداء، ينفر منها الجمهور المستهدف³.

¹ الإعلام الأمني ودوره في مواجهة الحرب النفسية، وليد سليم النمر، ص 6-7.

² الشائعات وخطرها في ظل وسائل الإعلام الجديد، علي الكلباني، ص 66.

³ المرجع نفسه، ص 64 وما بعدها.

إنّ جيشاً كاملاً قد لا يؤثّر بقدر إشاعة محكمة تدكّ عمق العدو، وتدخل إلى عقله، ومن هنا لا بد أن ندرس الحرب النفسيّة، وهذا من صلب عمل أجهزة الحرب النفسيّة، فلا توجد دولة الآن بلا وحدة للحرب النفسيّة حتى للدفاع عن نفسها، فإهمال الحرب النفسيّة يعني إهمال عقول الناس. ويتم استخدام المواقع الإلكترونية والقنوات الفضائية والصحف والمجالات في إبراز أخبار معيّنة، والتركيز عليها، وتجاهل أخبار أخرى، وتلوين الأخبار برأي الصحفي أو المذيع بغرض توجيه الرأي العام، حيث يهدف بصفة دائمة إلى التأثير في الرأي العام بما يتفق مع نزعاته أو ميوله أو أهدافه وأهداف القناة أو الموقع أو الصحيفة، وذلك باستخدام الكلمة أو الصورة والصوت والفيديو أو الرمز، وعمل ربط وإيحاء بين أخبار ووقائع وأشخاص، للتأثير في الرأي العام¹.

الفرع الثالث: الإعلام الحربي

يعتبر الإعلام الحربي أحد فروع الإعلام الشامل، وهو فرع متخصص في مجالات الإعلام العام للدولة، بل وأحد أدواته وليس منفصلاً عنه، فالإعلام الحربي يعبر عن الدور الذي تقوم به القوات المسلّحة من أجل تنفيذ الهدف السياسي العسكري للدولة، ودعم الفكر الحربي لدى قوى الشعب وقواته المسلّحة، وكذلك لمواجهة الدعاية المعادية من القوى الخارجية المناهضة للدولة².

البند الأول: تعريف الإعلام الحربي

الإعلام الحربي يعني: جمع وتحليل ومعالجة البيانات والمعلومات والصور والحقائق والرسائل والتعليمات من كافة المصادر عن أنشطة القوات المسلّحة، والتأكّد من مصداقيتها وصياغتها بأسلوب يتقبله المجتمع، ونشرها محلياً وخارجياً باستخدام كافة وسائل الإعلام، وذلك بهدف تزويد الشعب والقوات المسلّحة بالمعلومات الصحيحة، وإحباط نوايا الحملات المضادة التي تهدف إلى إضعاف الروح المعنويّة، أو التأثير على التلاحم بين الشعب والجيش، مع التأكيد على الولاء والانتماء للوطن³.

¹ الرأي العام، رفيق سكّري، ص 23، ط 1، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2012.

² وسائل الإعلام ودورها في الإعلام الحربي، ص 3، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 2000.

³ وسائل الإعلام وأثرها في وحدة الأمة، نّجّ القلايني، ص 25، ط 1، دار المنارة، جدة، 1985.

ويعرّفه اللواء حسن الجريدلي بأنّه: تلك العمليّة التي يترتب عليها نشر الأخبار والمعلومات الدقيقة التي تتركز على الصدق والصراحة، ومخاطبة الجماهير وعواطفهم السامية، والارتقاء بمستوى الرأي¹. بمعنى أنّ الإعلام الحربي منوط بتقديم المعلومات الدقيقة والصادقة والحقائق التي تساعد على إدراك ما يجري في المجال الحربي، وتكوين آراء صائبة في الأمور الهامة المعنية به، وبحيث لا تتعارض تلك الحقائق والمعلومات مع الأهداف العسكريّة العليا التي تخدم قضايا القوات المسلّحة والدولة في آن واحد. ومن ثمّ يمكننا القول بأنّ الإعلام الحربي: هو الإعلام الذي يمثّل أوجه النشاطات الاتصالية، والتي تستهدف تزويد الرأي العام الداخلي والخارجي بكافة الحقائق والأخبار الصحيحة عن القوات المسلّحة، من أجل تكوين رأي صائب لدى الجميع عن مدى كفاءة وقدرات هذه القوات، وفي الوقت نفسه مواجهة الإعلام المعادي.

وظائف الصحافة العسكريّة:

للصحافة العسكريّة وظيفة هامة سواء زمن السلم أو الحرب، ففي زمن الحرب تقوم بإعلام القارئ بتطورات سير المعارك، وشرح العمليات العسكريّة، ومقاومة الإشاعات والحرب النفسيّة التي يشنّها العدو للزّد عليها، وإظهار روح البطولة بين المقاتلين؛ وذلك بنشر روايات صادقة وبسيطة تدور حول البطولة والتضحيات التي تحدث في ميدان القتال، وبثّ روح الدعاية النفسيّة سواء على الجنود لحثّهم على القتال وتقوية الروح المعنوية لديهم، وهي مسألة هامة للمقاتلين في ساحة الحرب، أو على العدو لإضعاف الرّوح المعنويّة لديهم، وتلجأ الصحيفة لتحقيق هذا الهدف إلى نشر المعلومات والحقائق السليبيّة عن العدو وحجم خسائره وإثارة الرأي العام ضد أهدافه في الحرب².

التثقيف العسكري، وذلك بإثراء معلومات القراء عن الشؤون العسكريّة بسرد المعلومات عن الأسلحة الجديدة، والمخترعات العلميّة في مجال الطيران الحربي مثلاً وأنواع الموانع ومميزاتها وصفاتها، والصواريخ بأنواعها العسكريّة المتعددة والمتطورة...

¹ الإعلام الحربي، حسن الجريدلي، ص3، ورقة بحثية عن دور الإعلام العسكري زمن الحرب، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، 1997.

² الدعاية والحرب النفسية، مختار التهامي، ص67، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1968.

البند الثاني: وظائف ودور الإعلام الحربي

أولاً: الوظائف الرئيسية للإعلام الحربي:

- 1- تتبع الأحداث والتطورات زماني السلم والحرب، على المستويات الوطني والإقليمي والعالمي، وتعريف الشعب والقوات المسلحة بالحقائق المجردة، والعمل على رفع المعنويات وتأكيد الانتماء¹.
- 2- التصدي إعلامياً للأجهزة المضادة، والحملات النفسية المعادية، التي قد يكون من شأنها التأثير على الروح المعنوية وأداء القوات المسلحة، وتحصين الفرد المقاتل ضد الحرب النفسية².
- 3- شنّ الحملة النفسية المدروسة، بأسلوب علمي مدروس ضد العدو أو الأعداء، وإقناعه ببطلان قضيته وإنذاره بالفشل وخفض روحه المعنوية.
- 4- خلق الحافز على تطوير أداء القوات المسلحة تدريباً، وتسليحاً، وإعداداً لتظلّ قويّة.
- 5- المساهمة في تحقيق مبدأ الردع، ومنع وقوع الحرب، من خلال الإعلام عن قدرة القوات المسلحة على التصدي بمنتهى القوة لأي محاولات للاعتداء على أمن الوطن وسلامته³.

ثانياً: أدوار الإعلام الحربي

1- دور الإعلام الحربي في إعداد القوات المسلحة للدفاع:

للإعلام الحربي من خلال وسائل الإعلام المختلفة، دور هام في توصيل مفهوم أهمية إعداد القوات المسلحة للدفاع، وكذا في أهمية بناء قوات مسلحة قويّة وقت السلم؛ من أجل الاستعداد لمواجهة أيّ تهديد مفاجئ للأمن الوطني للدولة، ومن ثمّ فمن المهم أن يتعرّف أبناء الشعب على أنّ كلّ مجتمع يحتاج لإعداد شريحة منه تحميه وتؤمنه حتى يتفرّغ باقي المجتمع للإنتاج والتنمية، وأنّ هذه الشريحة يمكن أن تكبر أو تصغر طبقاً لحجم هذا المجتمع (عدد سكّانه-مساحته-العدوّ أو أعدائه المحتملين-اتجاهات التهديد)⁴.

¹ الإعلام والدعاية، شاهيناز طلعت، ص55، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988.

² خصائص الإعلام الحربي، ص7، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 1998.

³ أثر الروح المعنوية والعمليات النفسية للإعلام في قوى الدولة الشاملة، ص11، القاهرة، 1992.

⁴ دور الإعلام في السلم والحرب، سعيد زايد، ص9، أكاديمية ناصر العسكرية العليا، القاهرة، 1995.

ومن ثمّ يكون دور الإعلام الحربي هو التأكيد على أهمية بناء قوات مسلّحة قادرة على الاضطلاع بمسؤولياتها نحو تحقيق أمن وسلامة الدولة (أراضيها-أهدافها الحيوية-شعبها-مكاسبها-مواردها) وتكون مسؤولة في الوقت نفسه عن صدّ أي عدوان يقع على الدولة، ومن ثمّ يجب أن يعرف أبناء الوطن، أنّه لتحقيق هذه المهام، يجب توفّر القوات العسكرية التي تتمتع بقدرات عالية وكفاءة واستعداد قتالي دائم¹.

كما يجب أن يتعرّف الشعب، من خلال برامج الإعلام الحربي، على مطالب إعداد القوات المسلّحة للوصول بها إلى مستوى عال من القدرة والكفاءة لتنفيذ المهام الموكلة إليها وقي السلم والحرب، وهذه المطالب تتضمن:

أ- توفير القوة البشرية:

باعتبار أنّ الشعب هو الوعاء البشري لهذه القوة، وأنّه يجب إعداد هذه القوة منذ الطفولة بالحفاظ على مستوى عال لها من اللياقة البدنية والصحيّة والمعرفة الثقافيّة، لتساير المستوى العالي لتكنولوجيا الأسلحة الحديثة وتطوّرها المستمر، وكذا تطوّر أساليب القتال، كذلك يجب أن يتعرّف الشعب على أنّ بناء الفرد المقاتل يبدأ بصفة أساسيّة من القاعدة الشعبيّة حتى يكون مؤهلا عسكريا عند التحاقه بالقوات المسلّحة².

ب- الصناعات الحربية وتدريب السلاح:

وللإعلام الحربي رسالة تعتبر في غاية الأهمية لبناء القدرات الحربيّة، وهي توعية الشعب بأهميّة توفير مصادر الأسلحة والمعدّات الحربية سواء كان ذلك من الإمكانيات الذاتية من خلال التصنيع الحربي، أو بالحصول على السلاح من خارج الدولة مع تنويع مصادر هذه الأسلحة منعا للاحتكار، ومن واجبات الإعلام الحربي التأكيد من خلال وسائل الإعلام والبرامج الحربية المختلفة، ومن خلال الندوات وحلقات النقاش العسكرية على أهميّة توفير قاعدة قويّة من الصناعات الحربية المتطورة³.

¹ دور الإعلام في إعداد الدولة للدفاع، سمير فرج، ص33.

² التخطيط المتكامل لإعداد الدولة للدفاع، عبد الرحمن البديري، الدفاع الوطني، القاهرة، 1986.

³ استراتيجية التصنيع الحربي، جمال البسيوني، ص07، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 1992.

كذلك هناك دور هام للإعلام الحربي من خلال اللقاءات وحلقات التوعية والتي يركّز من خلالها على شرح أبعاد ومصادر التهديدات المختلفة الموجهة للأمن الوطني للدولة، وأن يكون لهذه التوعية عدّة أهداف تؤدي إلى:

* عدم الخوض في نشر تفاصيل الأنشطة الحربية، إلّا ما تسمح به وسائل الإعلام الحربي، في إطار تحقيق الأمن الإعلامي¹.

* إقامة حزام إعلامي آمن حول المواطن، من أجل التصديّ لعمليات التخلف الفكري، التي تحاول الأجهزة الإعلامية المعادية التأثير على نفسيته ومعنوياته، من خلال بثّ حرب نفسية غير مباشرة تحاول أن توجهها في الخفاء من أجل التأثير عليه، الأمر الذي يتطلّب من وسائل الإعلام المختلفة من خلال برامج الإعلام الحربي تنفيذ حملة إعلامية مستمرة لتوعية المواطن بهذا الدور المعادي، الذي يهدف إلى بليلة المجتمع وتفتيته، مع تعريفه بالجوانب الغامضة التي يحاول الجانب المعادي اتباعها، لاختراق الجبهة الداخلية والتأثير عليها من خلال:

- محاولات الاقتران الثقافي، وتضليل المواطنين بدعاوى ظاهرها السماح والبراءة والدعوة إلى القيم النبيلة، وباطنها السموم والتضليل والخداع للتأثير على الأمان والتطلّعات الوطنية.
- الدعاية والحروب النفسية التي تشنّ من خلال وسائل الإعلام المعادية بهدف النيل من الروح المعنوية للشعب وقواته المسلحة، وإضعاف مقاومته وقدراته وتفتيت تماسك جبهته، وبطبيعة الحال فإنّ أدوات هذه الحرب متعدّدة، وتتمثّل في نشر وإذاعة الدعاية المليئة بالأكاذيب، وإطلاق الشائعات التي تستهدف النيل من الجبهة الداخلية، باعتبارها العمق الاستراتيجي وخطّ الصمود الثاني، باعتبار أنّ ذلك من شأنه أن ينعكس على أمن وسلامة القوات المسلّحة التي تعتبر خطّ الصمود الأوّل للشعب².
- متابعة وسائل الإعلام المعادية الموجهة ضد الدولة، لتحليل وعرض ما جاء بها على الرأي العام الوطني؛ لتعريفه بالحقائق والمعلومات التي تهدد أمنه الوطني، وتحذيره من المخاطر التي تواجهها الدولة، حتى يكون المواطن على علم بالقرارات التي تتخذ لمواجهة التحديات المختلفة.

¹ الإعلام العربي والدعاية، هاني نعمان، ص 77، ط 1، مكتبة الجامعة، عمان، 1985.

² الدعاية والحرب النفسية، مختار التهامي، ص 81.

- إذاعة حقائق الموقف، من خلال برامج الإعلام الحربي والبيانات الحربية الصادرة عن هذا الإعلام، بما يؤدي إلى تحقيق الثقة لدى المواطن، وفي الوقت نفسه وضع الخطط التي تمكن من مواجهة التخطيط المعادي الهادف إلى التأثير النفسي والمعنوي على المواطن.
- العمل على تنمية الوعي الأمني والانتماء الوطني لدى المواطن؛ لمجابهة أساليب وطرق عمل العملاء، الأمر الذي يؤدي إلى سرعة الكشف والإبلاغ عنهم، مع التأكيد على الاعتزاز بالمواطنة والانتماء الوطني لدى أبناء الشعب، وتدعيم اقتناع المواطنين بأهداف وطنهم، وبذلك يسهم الإعلام الحربي في خدمة المتطلبات الوطنية، والعمل على حشد الرأي العام المساند للقيادة السياسية، في مواجهة التهديدات الخارجية والتحديات الداخلية¹.
- كشف مواطن الضعف والخلل في الأنباء والمعلومات المغلوطة والمشوشة التي تبثها أجهزة الدعاية المعادية عن حالة القوات المسلحة، وذلك من خلال عرض البرامج الحربية التي يبثها الإعلام الحربي والتي تبرز خلالها:
- التدريبات والمناورات الهامة التي تقوم بها القوات المسلحة منفردة، أو بالتعاون مع الدول الشقيقة والصديقة.
- التطور في التسليح والتقنية الحديثة التي تستخدمها القوات والتي تشتمل على: وسائل القتال - معدّات - نظم تسليح.
- زيادة حجم الوعي الحربي والأمني لدى المواطن بزيادة حجم البرامج الإعلامية الحربية المرئية والمسموعة².
- شرح طبيعة الصراع المقبل ومتطلباته، والتطور الذي برز في وسائل الصراع المسلح، وحاجة القوات المسلحة لمواجهة هذا التطور، ومساهمة قوى الشعب من أجل تدبير الإمكانيات اللازمة لبناء قوات مسلحة قادرة على مواجهة وسائل الصراع الحديث.

¹ وسائل الإعلام وأثرها في وحدة الأمة، محمد الفلايني، ص 41.

² وسائل الإعلام ودورها في الإعلام الحربي، ص 13، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 2000.

- تعريف الشعب بالخطوط العامة لخطة التعبئة، وتوعيته بالإجراءات والأساليب والوسائل المستخدمة من أجل تنفيذها في الأوقات المحددة لها، والتي تشير في مضمونها إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية:
 - سبل تنفيذ خطة التعبئة، واستدعاء أفراد الاحتياط طبقا للأوقات المحددة والتدريب عليها.
 - كفاءة تعبئة المعدات ووسائل النقل المختلفة التي تحتاجها القوات المسلحة، وأساليب تنفيذها طبقا للخطة الزمنية المحددة سلفا.
 - إجراءات تعبئة المنشآت التي ستحتاج إليها القوات المسلحة وقت العمليات، مثل المستشفيات والورش والمصانع ومحطات الوقود وغيرها، مع التأكيد على أنّ هذه الإجراءات لن تخلّ باحتياجات الشعب ومطالبه¹.
- وضع خطة تفصيلية للخداع الاستراتيجي في مجال الإعلام، بحيث يسهم الإعلام الحربي في تنفيذ معالمها الأساسية، على أن يتم ذلك بالتنسيق مع أجهزة أخرى داخل الدولة، بهدف حرمان القوى المعادية من الحصول على معلومات حربية هامة من وسائل الإعلام المختلفة².
- ومع تصاعد الصراع المسلح يقوم الإعلام الحربي بدوره من خلال:
 - المشاركة عند الإنذار بالتعبئة ببيت الشفرة الخاصة بها من خلال أجهزة الإذاعة والتلفزيون.
 - توجيه بيانات تحذيرية تهدف إلى تهديد العدو وردعه والنيل من الروح المعنوية لقواته.
 - دعوة المواطنين لإتباع أساليب الدفاع المدني أثناء الغارات الجوية والضربات الصاروخية.
 - الإسهام في شنّ الحرب النفسية ضد العدو، من خلال تنفيذ بعض الخطط المعدة.
 - الالتزام بالمصادقية خلال إذاعة الموقف الفعلي للعمليات، مع شرح تطورات الموقف الحربي بما لا يخلّ بالناحية الأمنية³.

¹ خصائص الإعلام الحربي، ص 9، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 1998.

² الدعاية والحرب النفسية، مختار التهامي، ص 83.

³ دور الإعلام في إعداد الدولة للدفاع، سمير فرج، ص 45.

2- دور الإعلام الحربي في تعبئة القوات المسلحة والارتفاع بمستوى التدريب:

تعتمد خطط تنفيذ التعبئة، والتدريب عليها، على الأساليب المتطورة لتوصيل المعلومات إلى أفراد الشعب الذين تتمّ تعبئتهم للالتحاق بالقوّات المسلّحة، وكذا تعبئة موارد الدولة المدنيّة في التوقيت المناسب عند إعلان حالة التعبئة، وحتى يمكن التغلّب على المعوّقات والصعاب التي تواجه هذه العمليّة، فإنّ للإعلام الحربي دورا بارزا في القدرة على توصيل هذه المعلومة وبما لا يؤثّر على سرّيّة تنفيذ هذه التعبئة، وهذا يتطلّب جهودا كبيرة يتمّ الإعداد والتخطيط لها وقت السلم مع الأجهزة المعنيّة بالدولة؛ من أجل وضع الأساليب والوسائل التي يمكن التدريب عليها دوريا، للإسراع بخطّة التعبئة في الوقت المناسب، ومن هنا يبرز دور الإعلام الحربي في عمليّة الاتصال على المستوى الشعبي من خلال بعض وسائل الإعلام، وكذا بالأجهزة المختصّة بالتعبئة من أجل المعاونة في تنفيذ هذه الخطّة¹.

من الموضوعات ذات الثقل في مهمّة الإعلام الحربي، توصيل رسالة واضحة إلى الشعب بأهميّة التدريب، والمناورات الحربيّة للقوّات المسلّحة، والتي تترجم إلى الارتفاع بمستوى قدرة هذه القوّات على تنفيذ مهام العمليّات، وبما يؤدّي إلى الارتفاع بمستوى استعدادها القتاليّ، وكذا إقناعه بأهميّة التدريب المشترك مع الدول الشقيقة والصديقة، لما يوفره من فائدة كبيرة، من خلال الاستفادة من خبرات قوّاتها المسلّحة، وأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا العالميّة في مجال التسليح والقيادة والسيطرة، ويمكن للإعلام الحربيّ أن يؤكّد ذلك من خلال تغطّيّة أحداث هذه التدريبات ونتائجها ومدى تحقيقها لأهدافها².

3-: دور الإعلام الحربي في الإعداد السياسي والاقتصادي للدولة:

¹ المرجع نفسه، ص 67.

² وسائل الإعلام ودورها في الإعلام الحربي، ص 15، مركز الدراسات الاستراتيجية.

أ-: الإعداد السياسي:

يقصد بالإعداد السياسي: إدارة السياسة الخارجية للدولة لخدمة مصالحها، والحصول على معاونة الدول الصديقة، وتأييدها وكسب الرأي العام العالمي إلى صفّها، خاصّة في حالة خوضها للصراعات، أو تعرّضها للأزمات¹.

وبعد صياغة السياسة الخارجية للدولة تأتي مرحلة التنفيذ، وهي ما يمكن أن يطلق عليها غدارة السياسة الخارجية، أي الغدارة خلال مرحلة إعداد الدولة للدفاع، ولتوضيح ذلك سنلقي الضوء على أسس الإعداد السياسي للدولة وأدوات السياسة الخارجية؛ لخدمة إعداد الدولة للدفاع:

أدوات تنفيذ السياسة الخارجية:

تعتمد الدولة في تنفيذ سياستها الخارجية، على ما يعرف بأدوات تنفيذ السياسة الخارجية، ومن أهم هذه الأدوات:

● الأداة الدبلوماسية:

وهي من أهم أدوات تنفيذ السياسة الخارجية، سواء في وقت السلم خلال مرحلة إعداد الدولة للدفاع، أو في وقت الحرب، ويمكن تعريف الدبلوماسية بأنها عملية التمثيل والتفاوض التي تجري بين الدول في غمار أدائها لعلاقاتها الدولية.

● الأداة الحربية:

يقال إن الدبلوماسية والقوات المسلحة هما وجهان لعملة واحدة، يتوارى أحدهما ليظهر الآخر، ويجب أن تكون القوات المسلحة مستعدة دائما وقت السلم أثناء إعداد الدولة للدفاع، وأثناء الحرب للدفاع عن كيان الدولة، وكذا المبادئ التي تؤمن وتلتزم بها، وأن تعمل جاهدة من أجل امتلاك قدرات الردع التي توفر للدولة ثقلها على الساحة السياسية.

¹ التخطيط الشامل لإعداد الدولة للدفاع سياسيا واقتصاديا، حمدي حسن مجّد، ص8، الدفاع الوطني، القاهرة، 1999.

● - أداة المعلومات:

حيث تعتبر أجهزة الاستخبارات داخل الدولة، أحد أدوات السياسة الخارجية من أجل الحصول على المعلومات، باعتبار أن التخطيط للسياسة الخارجية يجب أن يتم بناء على معلومات مؤكدة وبيانات دقيقة.

● - الأداة النفسية والدعاية:

وتهدف إلى تركيز جهود الدولة، خارجيا: لإقناع الدول إما بقبول سياسات الدولة مصدر الدعاية أو الوقوف على الحياد وعدم معاداتها، وداخليا لإعداد الشعب نفسيا لتقبل ساسة الدولة الخارجية.

● - الأداة الاقتصادية:

حيث تعتبر دبلوماسية المساعدات الاقتصادية أحد العناصر المهمة في العلاقات الدولية، وعادة ما تأخذ صورة مساعدات ثنائية أو جماعية، وتستخدم هذه المساعدات كأداة من أدوات السياسة الخارجية، فهي إما أداة للترغيب أو أداة للترهيب، وقد تصبح سلاحا ضد الدول الأخرى¹.

● - الإعداد السياسي:

الإعداد السياسي له مجاله الواسع وإجراءاته المتعددة وأساليبه المختلفة، وهو يحتاج إلى تخطيط بعيد المدى، وتحرك شامل في اتجاهات مختلفة، وكثافات متباينة طبقا للاتجاهات المطلوب التركيز عليها، وكسب تأييدها ومعاونتها عند الأزمات، وعادة ما يتم التحرك السياسي من خلال عدة عناصر أهمها:

- عقد الاتفاقيات السياسية والعسكرية والاقتصادية على مختلف المستويات.
- العمل على ضمان حياد دولة معينة أو بعض الدول وكسب تأييد بعض الدول لصالح قضية الدولة.
- الإعداد السياسي لكسب الرأي العام العالمي لصالح الدولة.
- اتخاذ الإجراءات المضادة لتحركات العدو السياسية¹.

¹ الإعلام الحربي والعسكري، حازم الحمداني، ص215، ط2، دار أسامة، عمان، 2015.

ب- الإعلام الحربي والإعداد السياسي للدولة:

- يقع على عاتق الإعلام الحربي دور رئيسي آخر عند الاشتراك في جهود الإعداد السياسي للدولة، من خلال وسائل الإعلام المختلفة سواء على المستوى الخارجي أو المستوى الداخلي من خلال:
- التوعية بارتباط سياسة الدولة الخارجية وأمنها الوطني بالسياسة الخارجية لدول الجوار الإقليمي، وكذلك شرح الدوائر السياسية التي تتحرك من خلالها الدولة لتحقيق التعاون على المستويين الإقليمي والعالمي.
 - التوعية بالأحداث والقضايا الوطنية والعالمية والتطورات والمتغيرات الهامة على الساحتين الإقليمية والدولية، ودور السياسة الخارجية للتحرك في إطار هذه المتغيرات بحيث لا يؤثر على حرية القرار السياسي للدولة.
 - توضيح الأهداف السياسية والاستراتيجية للدولة وطبيعة الصراع المسلح المقبل في ضوء التحديات والتهديدات المؤثرة على الأمن الوطني للدولة.
 - فرض القدرات الذاتية للدولة وإمكاناتها العلمية والتكنولوجية ومدى تأثيره على التحرك السياسي الخارجي، مع الاهتمام بالبرامج الموجهة للتعريف بوجهة النظر الوطنية في القضايا الإقليمية والعالمية.
 - تأكيد دور الدولة وانتمائها وكذلك دورها في مساندة السلام العالمي، وقضايا حقوق الإنسان².
- دور الإعلام الحربي في الإعداد السياسي من خلال وسائل الإعلام المختلفة:**

من خلال التلفزيون:

يمكن للإعلام الحربي من خلال برامجه التلفزيونية، خاصة من خلال القنوات الفضائية، أن يتناول القضايا الوطنية التي تؤثر على إعداد الدولة سياسيا، من خلال الشرح والتحليل لهذه القضايا، وتعريف المواطنين بالقضايا السياسية وأسبابها وأسلوب التغلب على الأزمات خاصة الخارجية منها، حيث يمكن تناول هذه القضايا من خلال:

- 1- توضيح الدور الذي تلعبه قوى التهديد بالمنطقة وأهدافها للنيل من الاستقرار، ونشر الدعاية المغرضة.

<

¹ الإعلام الحربي والعسكري، حازم الحمداي، ص 216-217.

² دور الإعلام في إعداد الدولة للدفاع، سمير فرج، ص 168.

- 2- تناول بعض القضايا الهامة التي تؤثر على الأمن الوطني للدولة، وأسلوب مواجهة التحديات والتهديدات، وأسلوب إدارة الأزمات الهامة.
- 3- تناول الجانب السياسي على المستوى الدولي الذي يتعرض للأحداث العالمية بالشرح والتحليل، وكيفية تأثيرها سلبا وإيجابيا على السياسة الوطنية للدولة.

من خلال الإذاعة:

- يمكن للإعلام الحربي من خلال برامجه المنتشرة بالإذاعات المحلية أن يركز جزءا من اهتماماته على تغطية بعض الموضوعات الإخبارية والتحليلية التي تختص بقضايا سياسية هامة من خلال:
- 1- التركيز على تغطية التطورات والأحداث السياسية الإقليمية والعالمية، واتجاهات الفكر المعادي من جانب بعض القوى.
 - 2- شرح تطورات الموقف السياسي مع الدول المعادية، وشنّ حرب نفسية مضادة.
 - 3- إبراز التحليلات السياسية من خلال التحليلات والتعليقات السياسية التي تشملها البرامج الحربية¹.

من خلال الصحافة:

- يسهم الإعلام الحربي من خلال الصحافة الوطنية أو الصحافة الحربية في نشر الثقافة السياسية لدى فئات المجتمع من خلال المقالات والتحليلات السياسية، والتوعية بدور وواجبات المواطن في التنمية السياسية وتوعيته بالقضايا السياسية الهامة من خلال:
- 1- إبراز أهم القضايا الوطنية من خلال الأخبار والتحليلات والتعليقات السياسية.
 - 2- توضيح ارتباط الدولة بالدوائر السياسية المحيطة بها وبالحركة السياسية العالمية من خلال التحقيقات الصحفية.
 - 3- زيادة الفكر الثقافي الحربي لدى المواطنين من خلال الصحافة والمجلات الحربية المتخصصة.

¹ الإعلام الحربي والعسكري، حازم الحمداني، ص 219.

4- التوعية بأساليب الجانب المعادي من أجل إجهاض التحركات السياسية للدولة وسبل مواجهتها من خلال المنظمات الإقليمية والدولية، مع تبني أسلوب الردع المعنوي أو المادي ضد هذه القوى المعادية.

5- الدعوة إلى تنمية وتعزيز العلاقات السياسية والاقتصادية مع دول الجوار الإقليمي والتعاون معها واستقطابها لتكون عامل قوّة بدلا من أن تكون عامل تهديد¹.

كما يمكن للإعلام الحربي من خلال تغطية البيانات والاتصالات والزيارات للمسؤولين، تهيئة الرأي العام المحلي والإقليمي لصالح سياسة الدولة وتحقيق أهدافها ومصالحها من خلال:

أ- تغطية البيانات والخطب والزيارات واللقاءات التي يدلي بها المسؤولون.

ب- تغطية الجولات السياسية التي يقوم بها مسؤولي الدولة في بعض الدول الشقيقة والصديقة، وكذلك تغطية المؤتمرات الصحفية التي تجري بهذا الشأن داخل تلك الدول من أجل كسب رأي عام داخلها.

ت- إجراء حوار مع بعض المسؤولين من القيادات السياسية والعسكرية الهامة، من الدول التي لها علاقات مؤثرة على الساحة الإقليمية والدولية، من أجل الحصول على رأي عام إقليمي ودولي مؤيد لسياسة الدولة ودورها وتحركاتها².

ث- نقل صورة واضحة عن سياسة الدولة وأهدافها وسبل تحقيق التعاون مع دول الجوار من أجل المساهمة في تحقيق الأمن والاستقرار بالمنطقة.

ج- الإعلام الحربي وإعداد الاقتصاد الوطني

تعتبر القدرة الاقتصادية للدولة هي الدعامة الأساسية التي يتوقف عليها إعداد الدولة بصفة عامة، وقواتها المسلحة بصفة خاصة لمواجهة أي عدوان عليها أو أي صراع ينشب على أراضيها، لذلك فإن إعداد الاقتصاد الوطني هو عملية يتحول خلالها النظام الاقتصادي للدولة من اقتصاد سلم إلى اقتصاد حرب، وهذا يعني مواجهة المشاكل الاقتصادية للدولة في ظروف غير طبيعية أو غير مألوفة في الحياة العادية.

¹ الإعلام العربي والدعاية، هاني نعمان، ص 87.

² إعداد السياسة الخارجية لإعداد الدولة للدفاع، محمد أمين حسني، ص 13، الدفاع الوطني، القاهرة، 2000.

هذا ولما كانت الحروب الحديثة بطبيعتها التدميرية العالية، قد زادت من معدلات الاستهلاك، فإن الأمر أصبح يتطلب بالضرورة إعداد مسبقا لمواجهة هذا المعدل من أجل تلبية مطالب الحرب، وهذا يتطلب تخطيطا مسبقا للتعبة الاقتصادية للدولة التي تهدف إلى إعادة توجيه الإنتاج الوطني على النحو الذي يساعد ويدعم المجهود الحربي، ومن ثم يشترك الإعلام الحربي بدور هام في متابعة خطة التعبة الاقتصادية والتنوعية بها مسبقا، في الوقت الذي يجب أن تستمر فيه خطة التنمية الاقتصادية للدولة لتوفير متطلبات المواطنين، مع عدم إغفال متطلبات الصراع المسلح.

وبالرغم من أن مشتملات إعداد الاقتصاد الوطني للدولة كثيرة ومتشعبة، إلا أن هناك ثلاثة أنشطة لها الأثر الأكبر على الاقتصاد الوطني للدولة وإعدادها وهي الصناعة والزراعة والنقل.

فالصناعة: لها دور أساسي في بناء الدولة وقواتها المسلحة، فهي وسيلة لإنتاج المعدات والأسلحة والذخائر اللازمة للدفاع عن الدولة، وعند الحديث عن إعداد الصناعة يبرز لنا تعبير هام هو (التعبئة الصناعية) ويعني تحويل جزء كبير من نشاط الصناعات المدنية إلى الإنتاج الحربي.

إعداد الزراعة: تأتي أهمية إعداد الزراعة من كونها متصلة اتصالا مباشرا بحياة الشعوب والقوات المسلحة، وكونها ذات تأثير مباشر على حياة الفرد وروحه المعنوية، لذا فإن الدولة تحاول دائما ألا تقع تحت وطأة ظروف افتقارها للغذاء، وخاصة موادها الحيوية، وتعتمد على أن يكون لها شبه اكتفاء ذاتي على الأقل في المواد الغذائية الهامة، وتقوم الدولة بالإعداد المسبق لمواجهة احتمالات نقص المواد الغذائية والمحاصيل الزراعية الحيوية خاصة وقت الحرب، لذا فإن إعداد الإنتاج الزراعي يدخل ضمن اقتصاديات الحرب¹.

إعداد النقل: يلعب النقل دورا حيويا ورئيسيا في اقتصاديات الدول، ويعتبر من العوامل الرئيسة التي يتوقف عليها نجاح التحول من اقتصاد السلم إلى اقتصاد الحرب، كما يعتبر المصدر المحرك لتحويل إنتاج الدولة سواء الصناعي أو الزراعي من حالة السكون إلى حالة الحركة، ويؤثر قطاع النقل في زيادة نمو الاقتصاد الوطني، كما يرتبط ارتباطا قويا بالإعداد الصناعي.

¹ الاقتصاد القومي في السلم والحرب، حسن عمر، ص 62، ط 1، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، 1988.

ويشتمل إعداد النقل: على كل من (النقل البري - النقل الجوي - النقل البحري - النقل النهري - النقل بالأنابيب). ولكل وسيلة من هذه الوسائل مزايا مطلقة تمكنها من تلبية احتياجات أي من الاقتصاد الوطني أو المجهود الحربي، لذا يعتبر التكامل في وسائل النقل المختلفة من أهم العوامل المؤثرة، ليس فقط على التعبئة الاقتصادية للتحويل إلى اقتصاد الحرب فحسب، بل أيضا على إدارة الصراع المسلح¹.

4- دور الإعلام الحربي في إعداد الشعب:

تعتبر القوة البشرية من أهم وأخطر أسلحة الدولة، ولا ترتبط هذه القوة بحجم سكان الدولة فقط، بل أيضا بنوعية الشعب وقدراته. والهدف من إعداد الشعب هو تحقيق الاستخدام الأمثل للقوة البشرية للدولة في كافة المجالات، مع استغلال جهود الفرد لتحقيق زيادة في الدخل الوطني لتدبير أكبر قدر من الوفر المادي وقت السلم لتلبية الاحتياجات الضخمة وقت الحرب.

ويتم إعداد الشعب في عدة اتجاهات:

أ- الاتجاه السياسي المعنوي:

من خلال الاهتمام بزيادة وعي الشعب بسياسة الدولة، وترسيخ إيمان الشعب بدوره في تحقيق هذه السياسة وقتي السلم والحرب، حيث يعتبر هذا الإعداد من أقوى العوامل المؤثرة على قدرة الشعب وقواته المسلحة لتحمل ظروف الحرب القاسية، وهو ما يطلق عليه الثبات المعنوي، والذي يتم من خلال: (غرس ثقة الشعب في قواته المسلحة، والتأكيد على دوره في الدفاع عن الوطن)².

ب- إعداد الدفاع المدني:

بمعنى إعداد الشعب وتوفير الوقاية له من هجمات العدو المختلفة وإزالة آثارها، وكذلك حماية منشآت الدولة الاقتصادية الحيوية، وعناصر الإنتاج وتأمين استمرار نشاطاتها المختلفة أثناء الحرب³.

¹ الإعلام الحربي والعسكري، حازم الحمداني، ص222.

² الاستراتيجية المثلى لتعميق الشعور الوطني، مُجدّد الصواف، ص4، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 1991.

³ التخطيط الشامل لإعداد الدولة للدفاع سياسيا واقتصاديا، حمدي حسن مُجدّد، ص10.

ج- الإعداد الحربي للشعب:

يهدف الإعداد الحربي للشباب إلى تزويد القوات المسلحة بالعناصر اللائقة للخدمة العسكرية، وبذلك يخفف الجهد في مرحلة الإعداد عند التحاقه بالقوات العسكرية، هذا بالإضافة إلى المشاركة في حماية الأهداف الحيوية للدولة في العمق.

د- إعداد الشعب لمواجهة الصراع المسلح من خلال:

- بث روح التضحية والجهاد في نفوس المقاتلين، والدعوة إلى الاستشهاد من أجل تحقيق الهدف، والدفاع عن تراب الوطن، وهذا الأمر كان له تأثيره الفعال في معظم الحروب السابقة؛ لأن ذلك من شأنه أن يدفع المقاتل نحو التمسك بروح القتال والشجاعة وتحرير النفس من الخوف.
- التمهيد السياسي للحرب وإعداد الشعب نفسياً لمجابهتها، وإبراز أهمية إسهامه ومشاركته الإيجابية في إعداد الدولة للدفاع وتقبله التضحيات والخسائر القادمة، وهو أمر يسهم بفاعلية في تحقيق الأهداف السياسية للدولة¹.
- مخاطبة عقلية الجماهير وليست عاطفتها، بمعنى عدم تضليل الشعوب وإعلامها بالحقائق، حتى تستطيع أن تتحمل مسؤولياتها خلال مرحلة الصراع المسلح بكل نتائجه، فمن حق المواطن أن يعلم وفي إطار لا يفيد العدو.
- تأصيل الوعي الحربي للشعب على أسس علمية من أجل تثقيفه عسكرياً بتزويده بقدر محدد من المعلومات الحربية التي تؤدي إلى إعداد الشعب للصراع المسلح المستقبلي.
- تبصير الشعب بأعدائه وقدراتهم وأساليبهم والوسائل النفسية التي يروجونها من خلال الشائعات، لتفتيت صلابة المجتمع وتماسكه، وبالتالي ترشيده لمواجهة الدعاية النفسية المعادية².

5- دور الإعلام الحربي في إعداد الشعب من الناحية المعنوية

الواقع أنّ الإعلام الحربي وهو يقوم بإعداد الفرد معنوياً، إنّما يقوم ببناء المجتمع ككل؛ لأن الشعب القادر على مواجهة التحديات هو الشعب الذي يعيش على مدى الدهر ويكتب التاريخ،

¹ الدعاية والحرب النفسية، مختار التهامي، ص 89.

² الإعلام والدعاية، شاهيناز طلعت، ص 65.

ومن ثمّ فإنّ رسالة الإعلام الحربي في هذا المجال تعد من الإسهامات التي يقوم بها الإعلام الحربي في مجال إعداد الدولة للدفاع، حيث يستطيع أن يقنع الشعب بسياسة الدولة وجهودها من أجل تحقيق أهدافها المبنية على حماية أمن الوطن والمواطن، وكذلك إقناع الشعب بأهميّة دوره في تنظيم هذه السياسة وقت السلم، أمّا في حالة تصاعد الصراع المسلّح، فإنّ الإعداد السياسي والمعنوي للشعب يعتبر مهمة وطنية يقع على عاتق الإعلام الحربي تنفيذها، حيث تعتبر رسالته من أقوى العوامل التي تؤدي إلى تعظيم قدرات الشعب وقواته المسلحة لتحمل ظروف الحرب بكلّ ويلاقتها وقسوتها، وإقناعه بأهميّة دوره من أجل الدفاع عن الوطن¹.

ومن أهمّ ما تقوم به الصحافة والإذاعة والتلفزيون:

- توعية أفراد المجتمع بالمخاطر التي تهددهم، وكذا غرس الإيمان بالوحدة الوطنية بين كافة أفراد المجتمع، والقضاء على الشائعات المغرضة التي تهدف إلى زعزعة الوحدة الوطنية والتي تخدم أعداء الوطن وتؤدي إلى تفتيت قوى الدولة والنيل من أمنها الوطني.
- عرض مشكلات المجتمع والتحديات التي تواجهه وتؤثّر عليه بشكل مباشر من خلال البرامج الثقافية والسياسية.
- مواجهة العديد من المشكلات الداخلية من خلال برامج التوعية والأفلام التسجيلية، ومن هذه المشكلات: الدعاية المغرضة والشائعات، مع شرح المفاهيم الصحيحة للعديد من الموضوعات التي تتعلّق بالقيم الإسلامية ومفاهيم الدين الصحيحة، وعرض بعض الأعمال الدرامية التي تعالج الحرب النفسية وآثارها المدمرة وتأثيرها على الأسرة والمجتمع، وبالتالي على الأمن الوطني للدولة.
- شرح المحاولات التي يقوم بها أعداء الأمة في إطار محاولات الاختراق الثقافي، وبثّ الدعاية والحرب النفسية بنشر الأكاذيب والشائعات، وتقديم الدلائل التي تفوّت الفرصة عليهم للنيل من وحدة الوطن والمواطن، وثقافته، وحضارته للحفاظ على التراث الثقافي واللغة والقيم الدينية.
- تعميق الوعي بتاريخ الدولة ودورها وإسهاماتها في الحضارة الإسلامية².

¹ دور الإعلام في إعداد الدولة للدفاع، سمير فرج، ص 71.

² المرجع نفسه، ص 72.

الخاتمة

الخاتمة:

في ختام الدراسة توصلنا إلى جملة من النتائج والتوصيات كما يأتي:

- الحرب النفسية ظاهرة قديمة قدم الجنس البشري، وهي آفة مرضية تهدد الفرد والمجتمع والدولة ككل وتؤثر على الأمن، وهي موجودة في كل زمان ومكان، ولا يمكن القضاء عليها نهائيا، ولكن يمكن الحد منها.
- وافق القانون الجزائري الفقه الإسلامي في تجريم الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، فعاقب المشرع الجزائري على ذلك بعقوبات متفاوتة بين ما اعتبره جنحة وبين ما عدّه جناية.
- عاقبت الشريعة الإسلامية على كل ذلك بالتعزير الذي يرجع إلى تقدير القاضي.
- لم يشترط القانون الجزائري، ولا الفقه الإسلامي، وسيلة معيّنة للحرب النفسية؛ فأيّ وسيلة تستعمل في إطار الحرب النفسية وتهدد الأمن العام للدولة يعاقب فاعلها.
- وافق القانون الجزائري الفقه الإسلامي في تجريم الأخبار الكاذبة والمغرضة التي تمس الأمن العام.
- وافق القانون الجزائري الفقه الإسلامي في اشتراط أن يكون الفعل الذي قام به المتهم فعلا مجرّما - مبدأ الشرعية - وأن يكون المتهم مدركا مختارا، وأن يتعمّد إتيان الفعل المحرّم.
- وافق القانون الفقه الإسلامي في اشتراط إعلان الحرب قبل البدء في أعمال القتال.

- تنتهي الحرب في الشريعة الإسلامية وفي القانون -عادة- بمعاهدة صلح تعقد بين طرفيها، أو بوقف القتال والعودة إلى العلاقات السلمية، أو بفناء أحد الدول المتحاربة؛ نتيجة هزيمتها، وضم إقليمها إلى الدولة المنتصرة.
- يميز الفقه الإسلامي الوصول بالعقوبة التعزيرية إلى الإعدام خاصة ما يمس الدولة وأمنها، وهو المسلك نفسه للقانون الجزائي الذي عاقب بالإعدام على بعض جرائم أمن الدولة.
- الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة صنفها المشرع الجزائي جرائم من جهة الخارج. وتدارك المشرع بتعديل قانون العقوبات رقم 20-06 في سنة 2020 واعتبرها كذلك جرائم من جهة الداخل؛ وذلك نظرا لأهمية المصلحة المحمية والمتمثلة في المحافظة على مصالح الدولة الأساسية المتعلقة بوجودها، وتنظيمها، ووحدها. أما الفقه الإسلامي فلا يوجد هذا التقسيم فيه.
- ساير المشرع الجزائي التطور الحاصل في مجال الجريمة، وواكب التشريعات الدولية، فاستحدث أقطابا جزائية متخصصة لمعالجة بعض الجرائم الخطيرة، منها ما هو متعلق بموضوع دراستنا، وهذا بموجب الأمر 21-11 المتمم لقانون الإجراءات الجزائية فيما يخص القطب الجزائي الوطني المتخصص في مكافحة الجرائم المتصلة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال.
- في التشريع الجزائي محكمة الجنايات هي الجهة القضائية المختصة بالنظر في جرائم أمن الدولة، ماعدا وقت الحرب أين يختص بها القضاء العسكري. ويبقى اختصاص القطب المستحدث بالنظر في الجرائم المتصلة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال الموصوفة بالجنح.
- لم يصل التشريع الجزائي في ضبط أساليب الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة والعقاب عليها، بل لم ينص صراحة عليها، وهو ما يعد فجوة كبيرة للمشرع

الجزائري يجب تداركها. عكس ما هو موجود في الفقه الإسلامي الذي نص على أفعال كثيرة وعاقب عليها.

- خالف القانون الجزائري الفقه الإسلامي في اشتراط القصد الخاص بالنسبة للحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة، على عكس الفقه الإسلامي الذي يعتبر بالقصد العام فقط، وهذا حتى لا يفلت من العقوبة بعض المروجين؛ لخطورة الجرم ومساسه بأمن الدولة.

- إنّ الحرب النفسية وقت السلم تلعب دورا كبيرا في التأثير على الروح المعنوية للشعب، ونشر الفرقة والكراهية بين أفراد المجتمع، وفقد الثقة بالقيادة السياسية للدولة، فالعدو يهدف إلى إضعاف الجبهة الداخلية، وإحداث ثغرات، وإضعاف قدرة القوات المسلحة.

- إنّ الحرب النفسية في ظروف الحرب، تكون أشدّ خطرا وأعظم ضررا؛ لأنّ القائمين بها يهدفون إلى السيطرة على عقل الجندي المقاتل، وجعله مستعدا ومهيئا للاستسلام؛ لذا يركّزون على الشائعات التي تعدّ من أهمّ أساليب الحرب النفسية في تحطيم الروح المعنوية للعدو والقضاء على إرادته القتالية، وقيادته نحو الهزيمة.

- إنّ انتشار ظاهرة الحرب النفسية الإلكترونية عبر وسائل الاتصال الحديثة، تحتاج من الأجهزة الأمنية وصنّاع القرار اتخاذ ما يلزم من استراتيجية أمنية شاملة وبمنهج متكامل، تتضمن وضع خطة لتتبع الشائعات المغرضة عبر الوسائل الإلكترونية ونشر الحقائق للجمهور، والإعلان والإفصاح عن المعلومات من أجل التوعية بالأعمال الإجرامية، وتفنيد الشائعات والأكاذيب التي تهدد الأمن والاستقرار السلمي للمجتمع. وهو ما يتماشى مع روح الشريعة الإسلامية ومقاصدها.

- إنّ هناك أثرا لمخاطر الحرب النفسية الخارجية على أمن الدولة، تتدرّج شدّته حسب مجالات الحرب النفسية للعدوّ، وغالبا يبدأ بالمجال السياسي يليه المجال الاجتماعي ومن ثمّ الاقتصادي وأخيرا العسكري.
- إنّ من أهم الطرق الوقائية للحرب النفسية الماسّة بأمن الدولة، هو السماح بنمو الحياة الديمقراطية حسب الحاجة، والتي تتيح للمواطنين التمتع بإبداء الرأي في المسائل الوطنية.
- العلاج الشافي لأخطار الحرب النفسية المدمرة للدولة يجب أن نبحث عنه أولا في الإسلام، فهو يوجّه المسلمين صراحة إلى التثبّت من كلّ خبر قبل تصديقه، وخاصّة إذا كان مصدر الخبر عدوا أو مشكوكا فيه؛ قال تعالى: " يا أيّها الذين آمنوا إنّ جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ". سورة الحجرات. وبقى الواجب من أتباع الإسلام الفهم السليم والإدراك الواعي لأهدافه وأصوله.
- الحرب النفسية الواقعة على أمن الدولة ليست عملا عفويا ولا منفردا، وإنما هي عمل منظم يقوم به أشخاص ومؤسسات ودول على أسس مدروسة وأهداف محددة، وأساليب ووسائل تقنية متطورة.
- وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة مع إيجابياتها البارزة، إلّا أنّه لا بد من الحذر من سلبياتها، حيث أن البعض يستخدمها بطرق سيئة، فينشر شائعات ودعايات مغرضة تخلّ بالأمن، وتحاول توجيه الرأي العام لقضايا مختلفة، بحكم مساحة الحرّية الممنوحة فيها وغياب الرقابة.
- الأسرة اللبنة الأولى في بناء المجتمع، ولها دورا كبيرا في رعاية الأبناء وتكوين أخلاقهم وسلوكهم حول الفضائل، وترك المساوئ، ومن خلال مراقبة أفعالهم خاصة أوقات الفراغ.

- المجتمع الإسلامي مجتمع الطهر والنقاء، ولا تكتسب هذه الصفات إلا من خلال التربية في المساجد، لذا لابد من إعادة هيكلة المسجد ودوره كما كان على عهد الرسول ﷺ مكانا للإفتاء، واستقبال الوفود، وفضاء للقضاء بين الناس، ومركز انطلاق الغزوات.

- إن المؤسسات التعليمية بجميع مستوياتها، وما يقام بها من ندوات ولقاءات ومحاضرات ومؤتمرات مع مختصين في جميع المجالات، يعد دورا فاعلا وهاما للحد من جرائم الحرب النفسية المخلة بالأمن.

التوصيات:

- محاولة القضاء على أسباب التخلف والفساد الإداري والاجتماعي والأمية والبطالة؛ لأنها الأرض الخصبة لتبني فكر العدو وطروحاته النفسية المعادية.
- التفات الحكومة الجزائرية إلى خطر الإعلام المعاصر بكل ما لديه من وسائل الانتشار السريع والشامل، حتى أنه أصبح أخطر من أسلحة الدمار الشامل، وهذا السلاح هو ما تحارب به الأمم اليوم، ويهدف لإيقاعنا في الحيرة والبلبل والإحباط من خلال الحملات الغريبة التي تتخفى خلفها الصهيونية العالمية. لذا وجب على حكومتنا التخطيط الشامل للمواجهة خاصة من خلال سنّ قانون إعلامي جديد.
- ربط المجتمع بترائه وثقافته الإسلامية عن طريق غرس القيم والمثل العليا في نفوس أبنائه من خلال إبراز الرموز الإسلامية المضيئة في التاريخ الإسلامي.
- تقوية أواصر الأخوة والحممة خاصة بين القيادة العليا للبلد والشعب، من خلال حلحلة مشاكل المواطنين، وإبراز الدور الإيجابي والفعال للحكومة في العملية التنموية لتفويت الفرصة على الأعداء في استغلال مثل هذه المواضيع في مادة حربهم النفسية ضدّ بلدنا الحبيب.

- التغطية والمعالجة الإعلامية الشاملة للموضوعات النفسية المثارة بغرض الإضرار بالوحدة الوطنيّة من خلال الندوات التلفزيونية والمحاضرات التي تهدف إلى توعية المواطنين، وتحري الصدق واحترام فكر الناس بما يتم طرحه من موضوعات.
- تعزيز التعاون والتنسيق بين وسائل الإعلام والمدارس والجامعات والمساجد، وأجهزة وإدارات الإعلام الأمني، لتحقيق مزيدا من التحصين ضد الحرب النفسية.
- تنظيم دورات تدريبية لرجال الأمن والإعلام وبعض مدراء المؤسسات الاجتماعية وإدارة الإعلام الأمني، لوضع خطط تفصيلية والاتفاق على أساليب العمل لمواجهة الحرب النفسية الواقعة على الدولة وأمنها.
- التصدي للأزمات باعتبارها مدخل للحرب النفسية؛ ولأن الأزمة في الواقع حرب نفسية سلبية، ويتم التصدي من خلال بناء مركز للحرب النفسية، يعمل به متخصصون، لتقديم النصائح للمسؤولين والمواطنين في كيفية التعامل والرد على الحرب النفسية بمختلف أشكالها.
- إنشاء إدارة متخصصة تتولّى التدريب على عمليات الحرب النفسية الهجومية والدفاعية، إذ أننا نعيش عصر التخصص، ونواجهه عدوا متمرسا، متخصصة أجهزته. لذا لا بد أن يولي جهاز الحرب النفسية أهمية قصوى، وأن يختار لها كوادِر الوطن، من مختلف التخصصات.